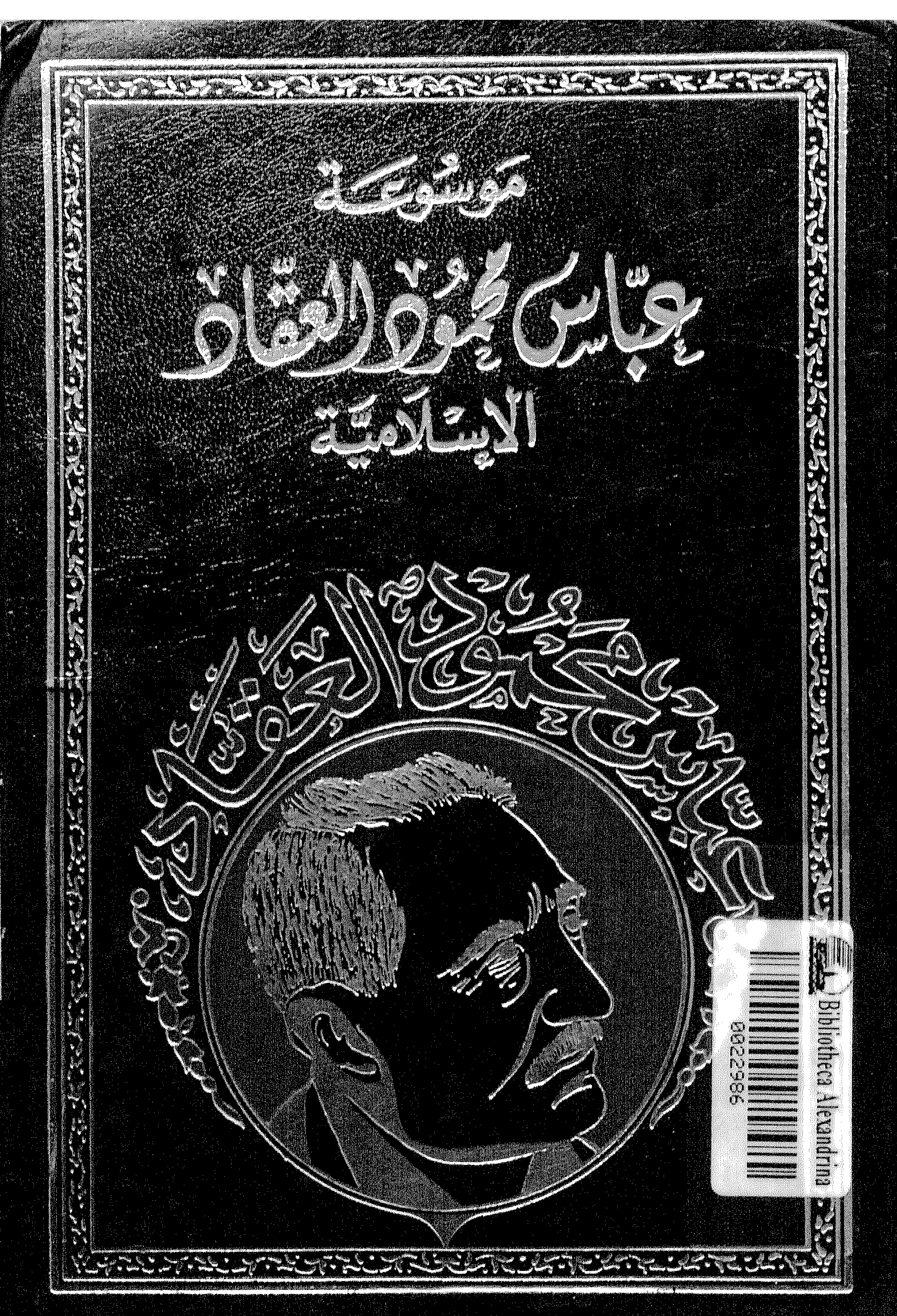

موسوعة
عباس محمود العقاد
الإسلامية
عباس محمود العقاد
Bibliotheca Alexandrina
0022986







فاطمة الزهراء

والفاطميّون

تأليف
عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

بيروت — تلفون : ٢٣٧٥٤٥ — ص.ب. : ٨٣٥٥

تقـديم

لقد عني الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد بكتابة سير عظماء الاسلام فأجاد اجادة جملته فريدا فذا بين كتاب السير في الأدب العربي المعاصر • تقرأ سيرة العظيم ، وقد جلاها العقاد في أدق صورة وأروع بيان ، وأضفى عليها مـن التحليل والتمحيص والنفوذ الى أعماق النفس ، فتشعر بأنك بلغـت أقصى ما يمكن بلوغه من المام بحيـاة هـذا العظيم ، وادراك لجوانبه الظاهرة والخفية •

ومن دأب العقاد في كتابة السيرة التقصي والذهاب الى أبعد ما يمكن الاحاطة به من روايات ومأثورات تساعد على جـلاء شخصية صاحب السيرة • وهذا ما يبرز جليا واضحا في ما كتبه من سيرة فاطمة الزهراء حتي ليكاد المدقق يجزم جزما قاطعا بأن أحدا لا يستطيع أن يأخذ على العقاد اغفاله ناحية من النواحي التي يحسن فيها الكلام ، أو اهماله زاوية من الزوايا التي قد تكتمل فيها الصورة وتضفي عليها فضل بيان •

ومن البديهي أن تكون فاطمة الزهراء عليها السلام في جملة بل في طليعة الشخصيات الاسلامية التي سلط عليها العقاد أنوار فكره الثاقب ، وأحاط سيرتهـا العطرة بفيض بحثه ، وسعـة اطلاعه ، وعدالة أحكامه وسدادها • ذلك لأن الباحث عن العظمة والعظماء في التاريخ الاسلامي لا يسعه الا أن يجد فيها آيات من تلك العظمة قوامها مزايا ذاتية فطرية ، وأخرى تسربت اليها عن طريق الوراثة التي تتجلى عادة في الأبناء والبنات وتطبعهم بطابعها • ومن أبرز مزاياها التي فطرت عليها الثبات على الحق لا تتزحزح عنه ، وقوة الارادة التي لا تهن ولا تتراجع مهمـا تكاءدت العقبات ، وبلاغة في الخطاب مدعومة بناصيح الحجـة ، فضلا عن نزعة غريزية الى التدين واستغراق في روحانية تنم عن شفافية نفس ، ورقة قلب ، وطهارة وجدان • ولا غرو في ذلك فهي بنت محمد الذي قال فيه ربه : « وانك لعلى خلق عظيم » ، وأمها خديجة بنت خويلد سيدة نساء عصرها ، وأكرمهن محتدا ،

وأطهرهن قلبا وسريرة ، وزوجها الامام البطل المجاهد علي بن أبي طالب ، وولداها الحسن والحسين حبيبا جدهمـا الرسول الأمين ، وسيدا شباب أهل الجنة ٠

ومما هو جدير بالنظر ، لبيان ما كانت تتحلى به من قوة الشخصية ، والتشبث بما كانت تراه حقا لا مراء فيه ، حادثتان في حياتها وقعتا لها بعد وفاة والدها هما مسألة الخلافة ومسألة ميراثها في « فدك » ٠

فقد كانت السيدة فاطمة ترى حق زوجها الامام علـي في الخلافة وأن قرابة النبي أحق المسلمين بخلافته ، وأن بطولة علي في الجهاد ، وسعة علمه بالشريعة الاسلامية تؤهلانه لتبوؤ هذا المقام الجليل ٠ ولعل حرصها على تفادي الخلاف بين رجـالات الاسلام حال بينها وبين التمادي والمضي في هذا السبيل ٠

أما مسألة « فدك » فخلاصة الحديث في أمرها أنها قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ٠ فلما تـوفي الرسول عليه السلام أرسلت الى أبي بكر تسأله ميراثها فيها فلم يستجب محتجا بقول الرسول عليه السلام : « اننا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ٠ وقال أبو بكر : « والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها » ٠

أما فاطمة فأجابت أبا بكر بقولهـا : « ان فدك وهبها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم » ٠ فقال أبو بكر : « مـن يشهد بذلك ؟ » ٠ فشهد عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأم أيمن ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كـان يقسمها ٠ فلم يسع أبا بكر الا أن يصدقهم جميعا وقال لفاطمة : « أصنع كما صنع فيها أبوك ، فقد كان يأخذ من « فدك » قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله ٠ ورضيت فاطمة بذلك ، فكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسـم الباقي ٠ وكان عمر كذلك ، وكان عثمان كذلك ، ثم كان علي كذلك ٠

ولا بد للباحث في سيرة فاطمة الزهراء عليها السـلام أن يقوده البحث الى موضوع آخر هام وجليل هو مسألة السلالـة الفاطمية وقيام دولة اسلامية عظمى هي الدولة الفاطمية ٠ وهذا ما حدا بالعقاد الى أن يخص القسم الثاني من هذا الكتاب للحديث

عن الفاطميين وشؤونهم ؛ والدولة الفاطمية ودورها البارز في مسيرة التاريخ الاسلامي ، وآثرها الفريد في الحضارة الاسلامية ·

ويمكن القول ان ما جمعه العقاد في هذا القسم ، وما حشده من الأخبار والمعلومات عن هذه الدولة منذ تأسيسها الى زمن انهيارها يغني عن كل مرجع آخر ، ويوقف المطلع على الوفرة الوافرة من أسرار نشأتها ، ويجلو الغموض عما أحاط برجالها وقادتها وخلفائها من الشبه والظنون بحيث يخرج من كل ذلك وقد اهتدى الى مقطع الحق مطمئن النفس ، مفعم الذهن بكل صاف من المعرفة وموثوق من الأخبار ·

وما أروع العقاد ببيانه الرصين ، وما أعدله قاضيا حين يتصدى للاقاويل والافتراءات ومختلق الروايات ؛ فيهدم الأسس التي قامت عليها ويرجع الحق الى نصابه ، والعدل الى محرابه مستهديا بعقل نير ، واطلاع محيط شامل ، وتحليل أصدق ما يكون التحليل ·

وان واجب التقدير لكل عمل مبرور ليستدعينا أن نتوجه بأجزل الشكر وأخلصه الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت الذي أخذ على عاتقه اعادة الطبع لمعظم آثار العقاد العظيم ليتسنى للمثقفين العرب وغيرهم شيوخا وشبانا أن يغترفوا من منهل علم العقاد ومعين فكره ما تستنير به عقولهم وتتسع به دائرة علمهم ومعرفتهم · والله الموفق ·

صيدا ـ منيف لطفي

تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار . ومنهـا أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الاسلامية وما اتصل منها بالعترة[1] النبوية على التخصيص .. ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع

ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد اخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره

***

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله ، فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وابراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشـقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبى لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارف . لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبا الى اسم «محمود» وهو كذلك من أسماء النبى ،

---

(١) بالعترة : العترة بكسر العين : نسل الرجل واقرباؤه الادنون .

ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب ، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة ..

***

ورثت هـذا الحب الشديد للنبى وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنّة لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ، فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام

استفدت منه انتى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق ، أو انكار فضل ، أو انكار نسب ، أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب ..

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى الباكرة عصمنى بحمد الله من غوائل[١] هذا الصغار[٢] ..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى انتى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث الاشاعات ولم أعطها من بادىء الرأى شأنا أكبر من الاشاعات التى تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمـآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين ..

***

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى انتى قاربت سير العظماء الاسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة

---

(١) غوائل : جمع غائلة وهي الداهية والشر والمهلكة · (٢) الصغار : بفتح الصاد : الذل والضيم ·

تخوِّلها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حياة الزهراء ، فانها ـ سلام الله عليها ـ قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على ، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبينهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة ، ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الى الزمن الأخير

***

وهـــذا الذى قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها

ونعود الى الوراثة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية فى نفس الزهراء ، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصـــالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث

القسم الأول

فاطمة الزهراء

* أم الزهراء ..
* نشأتها ..
* زواجها ..
* بلاغتها ..
* فى الحياة العامة ..
* وفاتها ..
* شخصية الزهراء ..
* الذرية الفاطمية ..

أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة ـــ أم الزهراء ـــ رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها ، وبما يمكن أن تورثه بنسبا من الخلائق والسجايا ، لأنه يعطينا منها صـــورة كاملة لا تزيدها الافاضة فى الأخبار الا فى التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم ان الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجيـــة ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الايمان ..

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش ، لأنها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم ، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

***

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر ، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب المعرق فى النبل والسيادة ، فهى فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنسبة الى زوجة نبىّ ، والى جدة الأئمة من بيت النبوة ، انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية ..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبعا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك[1] من مناسك دينه ، وقال السهيلى فى الروض الآنف : « ان تبعا روع فى منامه ترويعا شديدا حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد ان روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

***

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة ، وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتّاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لايعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هـذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا والفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرةً منه على مناسك الكعبة كافيان للابانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة ، من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل

---

(١) المنسك : الموضع يأتيه الانسان ويتردد اليه في خير كان أو غيره ، ومناسك الحج عباداته .

سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان ..

وقد روى عنها كلام قالته للنبى عليه السلام حين فاجأه الوحى فعاد اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسى ! » فكان كلامها الذى أرادت أن تسرّى به عنه وتثبّت به جناحه آية على العلم بلباب الدين علماً يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون .. كهانة وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين مالايدركه عامة قومها ، فعلمت انه فضيلة وان النبى الجدير أن يندب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبى وقد آمنت انه وحى وليس بعارض من ... : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ[1] ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

***

علامات للنبوة لايدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هـذا الفهم لما كانت هـذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هـذا طبيعة مميزة ، وليست طبيعة منساقة الى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها انها طلبت الى النبى عليه السلام أن يخبرها اذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له : « قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى فخذى اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها[2] وسألته ، فقال : « الآن لا أراه .. » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر الى جسد الأنثى فى وقت واحد . ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

---

(١) الكل : الثقيل لا خير فيه . (٢) الخمار : بكسر الخاء : النصيف وهو ما تغطى به المرأة رأسها .

موجب إذاً لشك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هذه الأحاديث

وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل[١] والمال الجزيل ، وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرآة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها الزوجية ، فانها تزوجت فى صباها برجل من هامات[٢] مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سُمِّى باسم هند (لعله دفعا لأذى الحسد) وهو الذى تربى مع السيدة فاطمة وقتل فى جيش الامام فى وقعة الجمل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله ..

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى ، واختلفوا فى أى زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لم يُكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها فى حياتها الرجل الذى أصبحت بفضله علما من أعلام النساء فى التاريخ ، ولا شىء أدل على رجاحة لبّها من أناتها[٣] فى اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبى عليه السلام بالعمل فى تجارتها فتكاد الأقوال تتفق على انه كان بمشورة من عمه أبى طالب ، وان أبا طالب قال له فى سنة من السنين : « يا ابن أخى : أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك » . وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبى الى الشام وباع واشترى وربح لها أضعاف ما كانت تربح فى كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامها ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة

---

(١) الاثيل : القديم المؤصل · (٢) هامات : الهامة : الراس من كل شىء · (٣) أناتها : الاناة : الحلم والرفق والتؤدة ·

ـسها ، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرّضت له بذلك فى حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح ..

وأحجم النبى حيـاء وأحجمت هى عن التصريح ، ثم اوعزت الى صديقة لها ـ هى نفيسة بنت منية ـ أن تشجعه على الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج ؟ » قال : « قلة المـال » . قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمال والكفاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت : « خديجة ! » قال : « فاذهبى فاخطبيها »

وروى الزهرى صاحب أقدم السير أن « رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قامـا من عندها جاءت امرأة مستنشئة[1] هى الكاهنة ـ فقالت له : جئت خاطبا يا محمـد ؟ فقال : كلا . فقـالت : ولم ؟ فوالله ما فى قريش امرأة ـ وان كانت خديجة ـ الا تراك كفؤا لها ... »

وأشبه الأشياء بأن يكون ـ بين الروايات المتعددة ـ ان النبى عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز ـرم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها فى الأمر : « .. ان محمدا ممن لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة بن نوفل فى رواية أخرى : « هو الفحل الذى لا يقدع أنفه[2] » وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها فى حياتها الى أن قارب الخمسين ..

ومن خديجة ولد للنبى جميـع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطيـة ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقيـة ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال

---

(١) مستنشئة : استنشأ الرجل الاخبار : بحث عنها وتطلبها وتتبعها .
قدع أنفه : قدع الرجل صاحبه منعه وكفه . والفرس كبحه .

وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت فى الثامنه والعشرين ولم تجاوزها » . وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات الى الصحة . لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقـة عمرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء فى بعض الروايات انهم ولدوا مع مَن ذكرنا أسماءهم ..

وقد يرجّح تقدير ابن عباس غير هذا ان مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها ، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو ان أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام ..

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم .. »

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الإلهية

لقد تأخرت به قلة المـال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية فى الذؤابه[١] العليا

ولقد عزت الهناءة الزوجيـة على السـيدة الغنية الوضيئة[٢] الذكية ، فتأيمت[٣] فى نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هـذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد ..

ولو تيسرت الهنـاءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فى غنى عمن يتجر

---

(١) الذؤابة : ضفيرة الشعر المرسلة · ومن الجبل اعلاه وفلانُ ذؤابة قومه اي اعلاهم واشرفهم · (٢) الوضيئة : الحسنة النظيفة · (٣) تايمت :

لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون فى الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد ..

أيهما كان خيرا ؟ ..

هذا الذى كان كما كان ، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟

لم تمض سنوات على هذه الآصرة[1] القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارىء لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين ..

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه آمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء[2] التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها يتامى البشارة المفرحة الا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها ــ لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين ..

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعواما بعد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام ، وان وفاء كهـذا لهو وحـده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب انسان عظيم

---

(١) الآصرة : حبل صغير يشد به أسفل الخباء • وما عطفك على رجل ...بة أو معروف • (٢)العرواء :بضم ففتح : قرة الحمى ومسها اول رعدتها

نشأتها

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة ..

درجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمّع بوادره فى غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التى اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذى يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الاسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد ، هو صدر أبى الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة[1] بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت[2] ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهى تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذى يحسب هـذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخذ له قياسا للألفة والغرابة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكبر الظن انه ينشأ منطويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون ..

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد فى دار أبويها ،

---

(١) الهينمة : الصوت الخفي لا يفهم · (٢) القنوت : القيام في الصلاة على الرجلين والامساك عن الكلام فيها ·

لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنّها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل : ماتوا صغارا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريرا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختين ، لأنهما خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصـبح أبو لهب عدوا للأبوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جد من كل جانب تركن اليه ، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله ، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنا ونهض به زمنا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبـال ، وتشملها به الأم التى جاوزت الأربعين وبقيت لها فى خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات فى حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمـد جراح أبيها فى غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم

تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتهـا ، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك فى عمل ولا فى مقال ..

***

وســواء صح ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبى وسمعته من على ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات

لقد نشــأت نشأة جد واعتكاف[١] : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لايدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثمانا يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضـعيف ، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغير راحة واحدة : هى راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهراء ، فانها نشأت فى مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها

---

(١) اعتكاف : اعتكف في المسجد أقام به وحبس نفسه فيه ٠

زواجها

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : « ان عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبى فقال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبى : خمسا وثلاثين . فقال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن . فقال : يا أمير المؤمنين : سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت فى سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة انها عليها السلام قد تزوجت وهى فى نحو الثامنة عشرة

ومن جملة الأخبار يتضح أن النبى عليه السلام كان يبقيها لعلىّ رضى الله عنه . فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء فى سنن النسائى

وفى أسد الغابة انها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « أنت لها يا على ! » فقال على : « مالى من شىء الا درعى أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

وفى رواية أن عليا سأله النبى : « هل عندك من شىء ؟ » قال : « كلا » . فقال له : « وأين درعك الحطمية ؟ » أى التى تحطم السيوف ، وكان النبى قد أهداه اياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم ..

جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى : « فباع بعيرا له ومتاعا فبلغ من

ذلك أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل .. »

ثم استطرد صاحب الأنساب الى رواية أخرى ، يرتفع سندها الى علىّ نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله مالى شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شىء ؟ » قلت : « لا » قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا على ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما أليت(١) أن أزوجك خير أهلى »

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف وتورة من ادم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرّتان ..

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته وميزهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا وأمرا مفترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج(٢) بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوّج فاطمة من علىّ

(١) أليت : قصرت وابطأت • (٢) أوشج : أوشج الله بين القوم ألف وخلط •

وأشهدكم أنى زوّجت فاطمة من علىّ ، على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

قال أنس : « وكان على عليه السلام غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : انتهبوا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل على فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ياعلى ! ان الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وانى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقال على : رضيت يارسول الله ! ثم ان عليا خرّ ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت أمضى الزواج ، وان نقرت الستر علم أنها تأباه ، وفى زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك . فسكتت ، وفى روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر .. وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت فى نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات ..

***

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الأخبار وصل الينا فى كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق

بالزمن خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضى والانكار، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعنى بالأوســط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأحرى أن يصدر ممّن أسند اليهم القول أو نسب اليهم العمل .. فان الأخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثــلا أن يؤثر النبى عليا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من علىّ على مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين ، ومن المعقول أن يتردد على فى خطبتها لفقره . ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد ، لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لابد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المــألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين فى مكة ــ قبل الهجرة الى المدينة ــ لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوســط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شىء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والناس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ : كتابته فى الأزمنة الغابرة ، وكتابته فى الزمن الحديث

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد

ذوو الأحكام التاريخية فى المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكما قاطعا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام ، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها الى كتابة طائفة من العصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم ، وأنهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هـذه الدعوى ، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف ..

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير

فمن هؤلاء من يطالع فى الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لاشك فى أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبا ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ، ويفرض قبولها على الناس ..

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هـذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب ان لم يجد ما يعيبه فى ظاهر السطور والحروف

وما من شىء يمسخ الدين ويمسخ العلم معا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم ، فان الدين لا يعلم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل[1] والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن

---

(١) التمحل : تمحل الشيء طلبه بحيلة وتكلف . ومنه تمحل له عذرا .

صاحبه وهى مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء

وفى تاريخ الزهراء مثـال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء « العلماء » الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق » ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب عليه ..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمنا فى الشرق ـ كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك « العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن العيـوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسـفاف ، وكم فى الاسفاف من عيوب ، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه[1] أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لمـا عرض عليها النبى الزواج من على سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير .. !

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا انها أمانة العلم ، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية .. !

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه ..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وان أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان

وليس من المـألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ، وأن تحرمه احدى البنات ..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية فى ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد

---

(١) سفاسفه : السفساف : الرديء من كل شيء ، وما دق من التراب.

الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصـــورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلا حاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجميلات ..

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لايزالون على دين الجاهليـــة ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه ..

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال .. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لايلتفت اليها لأنها لاتعيب ، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة[1] ، فهو الجدير اذن بالالتفات

وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء الســـيدة فاطمة انه شكاية من فقر على بن ابى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف . بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لأنها لم تكد تصدق أن احدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء . وليست هى يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمى ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف

والبلاذرى ــ بعد ــ لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو : «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق

---

(١) غضاضة : النضارة من الشباب والطراءة . والمذلة والانكسار تقول : هو شاب بين الغضاضة ، وليس عليك في هذا الامر غضاضة .

عن حبشى بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سيدا فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين » ..

وهذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الآستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف ! ..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا ننبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال .. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه اليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء ، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعافه أدب الدين ..

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل على ، فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه إذ السيدة فاطمة أشارت الى فقر على حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم ..

وبين الخبرين ، مع هذا ، بون بعيد ..

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب أنه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبى بنفسك مالا عظيما لتصيبنه » ، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندى يابنى فاطمة وأثرتكم على

سائر ولدى لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا . فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك ، فأنا أحب أن تجعليه بيدى . فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى . فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك . ما هو الا رأى هذين !.. ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبة ، فوالله ما على هجرتك من صبر . اجعلى أمرك بيده . فقالت : قد فعلت ! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم ــ تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لايصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل مايكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول [1] .

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتـــاة فى مثل موقفها لايبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدت من عطفها وبرها والطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه فان جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن تتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين ..

---

(١) البتول : المنقطعة عن الزواج .

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم ، وانه كان آبا مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامدا عالما بما يلعجه (١) فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما » ..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب اليها فقال لها : انى أريد أن أحولك الىّ . فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى . قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يارسول الله ! انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله ، والله يارسول الله للمال الذى تأخذ منى أحب الى من الذى تدع. فقال رسول الله : صدقت . بارك الله عليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى : « ان بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة (٢) . وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ، وان فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى ان ابنى أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل — وذكر كلاما وقع بينهما — فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم

---

(١) يلعجه : لعج فلان البدن بالضرب آلمه واحرق جلده . والحب فؤاده أحرقه . (٢) خوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة يكون بين بيتين .

كان يأتى باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتى[1] الباب ويقول : السـلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سـفر وصنعت فاطمة مسكتين[2] من ورق[3] (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصـحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لمـا رأى من المسكتين والقلادة والستر .. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله . فلما آتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها : ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء »

***

واتنظمت الحياة فى السكن الجديد الذى آوى الى ظل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق علىّ من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فىء الجهاد ، وقد كان قليلا فى حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران

---

(١) بعضادتي الباب : العضادة بالكسر من الباب جانبه وهما عضادتان عن يمين الداخل منه وشماله • (٢) مسكتين : المسكة : السوار والخلخال •
(٣) ورق : الورق الفضة ، والدراهم المضروبة •

نصيبا صالحا من البنين والبنـات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم ..

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شـواغله الجسام فى محتـدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حربا فجاء رسول الله فقال : أرونى ابنى ما سميتموه ؟ قالوا : حرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى ، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث آن حفظها المشرقان ..

حزقّه (١) .. حزقّه .. ترقّه .. ترق عين بقّه

وربما شوهد النبى عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه ، فيتأنّى فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفى احدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعم المطيّة مطيتك ! ..

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران ، فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما ، وهو يقول : « صدق الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »

وكان اذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها : « ما بكاء هذا الطفل ؟ .. ألا تعلمين ان بكاءه يؤذينى ؟ » ..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينا بعد حين ، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان . ففى احدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها فى القدح ، ثم

---

(١) الحزقة : القصير

جعل يعبعبه ، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن . قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ .. قال : انما استسقى أولا !

وقد يلفهم جميعا فى برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد ! » ..

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :

وابأبى شبه النبى   لست شـبيها بعلى

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين ، الذين يتنافسون على حب لايمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

***

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة ، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله . انما ر اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ، وانما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح الى ما دونه ، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عنـد من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب انسان ..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء . والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لايملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب

الناس الىّ ! » ..

ومرة من هـذه المرات ، بلغ العتـاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمى الى فاطمة أن عليا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت الى أبيها باكية تقول : « يزعمون انك لا تغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط انه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف ابوها ما تعنى . لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن .. ثم لا آذن .. ثم لا آذن .. انما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها .. »

***

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء فى رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبى وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لايرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علىّ على ألفة من أنفات فاطمة ، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها ، وان أباها العرف فى حالة المودة والصفاء

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى .. وهى وأبناؤها كل ذرية النبى الذين عاشوا بعده ، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صـلوات الله عليه بعد وفاته ببضعه أشهر ، وكان على قد عاهد نفسه لايغضبها وقد غابت عنها عين أبيها ، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

بلاغتها

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب « بلاغات النساء » :
« ... لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنّت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لثجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هُزم الجمع وولوا الدبر وتفرّى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢) وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما مُنى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة

---

(١) الثجن (بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (يمانية)
(٢) الطرق : الماء المطروق .

من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون ، حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق (١) المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا ، فوسمتم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... »

***

الى أن قالت . « وأنتم الآن تزعمون ان لا ارث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا فريا ، فدونكما مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبوالفضل : « ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء ـ يشير

(١) الجمل القوى

الى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت ـ يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبى العيناء فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبي العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ » ..

***

ونسبت الى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه اقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ! .. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا[1] على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبر آفاق السماء وكورت[2]
شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبى كئيبة
أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جوده
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه
صلى عليك منزل القرآن

ووقفت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

---

(١) تحثوا : حثا التراب عليه وفي وجهه قبضه ورماه به . (٢) كورت : كور فلانا طعنه فالقاه مجتمعا . والمتاع جمعه وأبقاه بعضه فوق بعض وشده .

ماذا على من شم تربة أحمــد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا[1]
صبت على مصائب لو أنها
صبت على الأيام صرن لياليا

وقالت على قبره أيضا :

انا فقدناك فقد الأرض وابلها
وغاب مذغبت‌عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لما نعيت وحالت دونك الكثب[2]

ومضى آنفا انها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لوكنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقــدناك فقد الأرض وابلها
واختل‌قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارىء أقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محــل شطر فى نقل الرواية ..

***

نقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير ، ولا نحب أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له ، يسلمه جميع المخالفين

فيقل الخلاف ولاشك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما ببدر من اللسان عفو الخاطر ، وان قائله يعده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

---

(١) غواليا : الغوالي جمع غالية وهي طيب مركب من اخلاط تغلى على النار • (٢) الكثب : جمع كثيب وهو التل من الرمل •

ويقل الخلاف ولاشك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لايستظهره عند سماعه ، فان حفظه فانما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه

فاذا قل الخلاف فى هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها ؟

ان هـذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لايستكثر عليه

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الأوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى

***

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشى عن عثمان بن عمرو عن اسرائيل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : « ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكى اذا هى تضحك . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الىّ فأخبرنى أنه ميت فبكيت ثم أسر الىّ انى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه فى حديث السيدة عائشة ان امرأة فى فضلها

واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء فى حلمها ورصانتها . ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه ؟ ولماذا تستعظم على زوجة الامام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولماذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح ؟

***

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لايسلكها فى الشاعرات ان ثبت ، ولا يضيرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء

فى الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بها ولا تجد معينا عليها فى كثير من الأيام غير زوجها

ثم توفى النبى صلوات الله عليه ، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافا على ميراث أبيها ، ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التى أعقبها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى احدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذاك ان الخطر الأكبر فى ذلك اليوم انما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقادها وهو يأبى الا أن « يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس» ... ثم أصر على إبائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل وأخضب سنان رمحى » وناشدوه أن لايشق عصا الجماعة فعاد يقول : « انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى ، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى .. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما

بايعتكم حتى أعرض على ربى »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره[1] وهو خطر الفتنة التى راح أبوسفيان يحضأ[2] نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه آن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية

وما من شك فى خطر هــذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلا بدفن الرسول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته ، حتى همَّ عمر بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين ، وقبــل أن تنجح المسعاة من أبى سفيان فى خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

***

وكان على فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلا : « يا أبا الحسن ! هــذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عمه العباس : « يا ابن أخى .. هــذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب » ..

فيجيبه على : « لا والله ياعم !.. انى لأكره أن أبايع من وراء رتاج »..

ولقد كان أحكم فى جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ

---

(١) يقطع دابره : الدابر اخر كل شيء ، يقال قطع الله دابرهم أي اخر ما تبقى منهم . (٢) يحضأ : حضأ النار أرثها وأشعلها .

الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين ، وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل سريانها من السقيفة ومساها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم ، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم وأقرب مما فتحوه

***

وآمن علىّ بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراده حقا يطلبه الناس ولا يسبقهم الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يمينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبى عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم ، ولم يحى احد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه ..

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم تطلع على

رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمي أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصـدها وتكشفت الدسيسة التي بيتها أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على علي ويتحفز للوقيعة فصده علي وعرض له بذكر الغشة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلما يئس من هـذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : « امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العبـاس كما رده علي ، ويكاد الخلاف ينتهي عند هذا وينطوي بانطواء الكلام في مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سند أبي بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم ، مخافة السخط من بنت رسول الله ..

***

وخلاصة الحديث في أمر « فدك » انها قرية كان النبي يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبي بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خيبر ! .. فقال أبو بكر: « ان رسـول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبيـاء لا نورث ما تركناه صـدقة .. واني والله لا أغير شيئا من صـدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها » ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبي من أنبيـائه ـ زكريا ـ « يرثني ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسـالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بيني وبينك هو الذي أخبرني بما تفقدت ، وأنبأني بما أخذت وتركت »

وجاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال :

يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لايورثون . فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر: صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ! قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد .. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

***

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر : « انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها » . فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما . فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال « ياحبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الىّ من قرابتى ، وانك لأحب الىّ من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث . ما تركنا فهو صدقة » . فقالت : « أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟ » قالا : « نعم » . فقالت : « نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟ » قالا : « نعم سمعناه من رسول الله » . قالت : « فانى أشهد الله وملائكته انكما أسخطتمانى وما رضيتمانى ،

ولئن لقيت النبي لأشكونكما اليه » . فقال أبو بكر: « أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة» ، ثم انتحب وبكى حتى كادت نفسه تزهق... ثم خرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : « يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتموني وما أنا فيه؟ لا حاجة لي في بيعتكم. أقيلوني بيعتي»

***

والحديث في مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التي لا تنتهي إلى مقطع للقول متفق عليه . غير أن الصدق فيه لا مراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وان الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذي تقوم البينة عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فدك مخافة أن ينفق علي من غلتها على الدعوة اليه ، فقد ولي الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شيء من هذا في اشاعة ولا في خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم في عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه في مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج في ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

***

ولعلنا نجمل ما وقر في أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك في يديه ينزل عنها باختياره ، لايدعوه الى ذلك داع غير وحي ضميره ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل في مستهل عهده بالخلافة : « ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف[1] المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسأليني وما كان لي أن أعطيك ، فكان يضع ما يأتيه منها في أبناء السبيل ، ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ،

(١) يوجف : اوجف الفارس فرسه حثه لكي يجد في السير

ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ؛ فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ؛ وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب الى منها ، فاشهدوا اننى قد رددتها الى ما كانت عليه »

***

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والإبتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة[1] قرباها ، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه ، واحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة ايمان بحقها تثبت عليه و « شخصية » مستقلة لا يهمل لها حساب

---

(١) وشيجة : الوشيجة : عرق الشجرة وما التف من الاشجار ونحوها . يقال : بينهم وشائج النسب .

دفاتها

قلنا فى « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحيــاة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو لاريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء ، وان كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض المــلاحظات التى تقارب الحقيقة ، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول اليه .

« وأهم هــذه الملاحظات التقريبيــة انه يجرى على ســنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته ، فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر ، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالاتقان فى مزية أخرى ..

***

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ، وتجد من وســائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضــمان دوامه ، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمة فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى ، أو كأنما

هي مواهب وأرزاق لا يستوفيهـا الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء

« والانسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمه نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

***

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تستوقف النظر للتـأمل والمراجعة ولا تفضى بنا الى الجزم أو الى التغليب ..

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية ، كعيسى عليه السلام

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الأناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ـم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبّة من الصحة والنجابة ..

« وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون .. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فاذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم ان اصلاح شؤون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين تراانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيـــل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغني أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

« نذكر هـــذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

***

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب ، فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين ..

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الأناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر ، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب ..

وكانت الزهراء نحيلة ســـمراء ، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات ، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها انها أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فاذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يوما وهى مريضـــة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدنى انى مالى طعام آكله .. » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! » ..

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال[1] ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر ! ..

***

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا
تلك عليا مراتب الأنبياء

ان محمدا يبكى لأنه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية .. ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ! ؟ »

الله أكبر .. ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شىء يكون ؟

***

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه ، فان العرب لوصّافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شىء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب ، وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع اليها اعياء الولادة فى غير موعدها ، ان صحّ انها أسقطت « محسنا » بعد وفاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار

---

(١) الانفال : النفل بفتحتين : الغنيمة والهبة .

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية من ضريبة تصاعف على الهداة مرات بعد مرات !

***

وحضرها الموت .. وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمه ! ائتينى بثيابى الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا »[1] ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن توارينى بشىء ؟ » قالت : « انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتمونى ستركم الله.. » وتبسمت ، ولم تُر مبتسمة بعد وفاة آبيها الا ساعتها ...

***

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله ..

فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى ..

فاذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء ، ففىالاسلام لاجرم تتقدس صورة فاطمة البتول

---

(١) كنفا : الكنف بفتحتين الجانب والناحية • وهو يعيش في كنف الامير أي في ظله • وكنف الله : حرزه وستره •

شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ لأنها بنت نبي ، وزوجة امام ، وأم شهداء ..

ولكن لايتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيان ، انها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصي» أو بصفاتها التي كان لها أثر في حوادث التاريخ

وهذا الذي نحب أن نقرره في الكتابة عن الزهراء ، فهي أصل قوى من أصول الدعوة التي ثبتت في مجرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا ، وفيما يلي من العصور

لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بني علي وفاطمة على حقهم في الامامة ، أو في الخلافة ..

***

حوربوا فيها زمنا ، وتولاها من لاشك عندهم ولا عند الناس في فضلهم عليه ، كيزيد بن معاوية . فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بني أمية ثم من بني العباس ، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد في نكالهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ،

وخطر لهم كل خاطر الا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين ..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقـد ورثوها عن فاطمـة كما ورثوها عن على ، بل هى الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الأخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها

ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهى اعتقاد الناس فى ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يغضبها ، وانه كان يرى أن الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعى اليها ..

***

وفى غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقى اليه بالا ، وهو فى هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذى ر وى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير ..

رووا أن الصديق رضى الله عه قام على المنبر يخطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وأخذ فى خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا نحيلا يهتف به : « ليس هذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحسن بن على ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع فى نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبى منبر ، وانه لمنبر أبيك » ..

وسمع على بالخبر فأرسـل الى أبى بكر رسولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم نأمره »

قال أبو بكر . « انى أعلم . وما اتهمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هى التى أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال .. ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هـذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا يتكرر بين أبويه فى هـذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها ..

***

فى خلائق السيدة فاطمه مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقـده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها أنها كانت ذات ارادة لا تنسى فى الحساب ..

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله ..

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ما ورثته من أمها ، أمها بنت خويلد الذى تصـدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهليـة حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

***

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة أنها كانت شديدة التحرج[1] فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء ، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا[2] فجاء بلال بالآذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! الا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ

(١) التحرج : تحرج : فعل فعـلا يتخرج به مـن الحرج أي الاثم •

(٢) عرقا : العرق بفتح العين وتسكين الراء : العظم اخذ معظم لحمه يكسر ويطبخ ويؤكل ما عليه من اللحم الرقيق •

يا بنية ؟ فقلت . مما مست النار . فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ » ..

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص[1] وتؤثر الشـدة مع نفسها على الهوادة معها ..

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، انها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : مارأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ، ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب

أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل ، فقد بدا ذلك فى أمر زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها

***

وقد يكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وأنها لا تعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهـذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه

ولا ننسى ان الزهراء قد غوضرت[2] وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

---

(١) تترخص : الترخص في الامر التسهيل والتيسير خلاف التشديد .

(٢) غوضرت : توفيت مبكرة .

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة[1] . ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له[2] فلا هو يبالى بشىء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها عن تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة

وبعد الاسلام وجب حفظ الأنساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس[3] القتال نودى فى القوم : انتسبوا ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة ..

***

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ، صونا للنسب الشريف ، ودفعا للأدعياء من طلاب الخلافة ، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام .. ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية . أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم الى السيدة فاطمة ، ولاينكرون عليهم صحة الانتساب

---

(١) جريرة : الذنب والجناية . (٢) لا خلاق له : لا نصيب له من الخير . (٣) وطيس : المعركة . والتنور من حديد ، وحمي الوطيس اشتدت الحرب .

اليها رضى الله عنها

من ذالك ما روى عن المـأمون أنه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : « بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن ها هنا الا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان ، فان كان الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لايجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشىء »

وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء

تلـوا باطـلا وجلـوا صـــارما
وقالوا : صـــدقنا ؟ فقلنا : نعم !

***

والا فما كان لحجة منأبناء على وفاطمة ــ وقد رزقوا اللسن والفصاحة ــ أن يعجز فى هــذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان ان عليا ان كان قد استولى على حقه فهم ورثته ، وان كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جدود بنى العباس فى حيــاة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة المـأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محـاربة الولاء للمنتسبين الى الزهراء ، الا أن يدعوا علية أنه حمـل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان

قال العتبى : «كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة ،

فكان الربيع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدى فى منامه شريكا القاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ، وانه فاطمى محض. قال المهدى : على به ! فلما دخل عليه قال له : ياشريك ! بلغنى أنك فاطمى . قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى ، الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم . قال شريك : أفتلعنها يا أمير المؤمنين ؟ قال المهدى : معاذ الله . قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا ــ وأشار الى الربيع ــ فانه يلعنها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها . فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهدى : دعنى من هذا . فانى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الى ، وما ذلك الا بخلافك على ، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقا . قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه ، وان الدماء لاتستحل بالأحلام ، وان علامة الزندقة بينة . قال : وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرشى فى الحكم ومهر البغى . قال : صدقت والله يا أبا عبد الله . أنت والله خير من الذى حملنى عليك »

***

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة ، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة ..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة فى حق العم وابن العم ، والموازنة بين حق العباس عم النبى وحق على ابن عمه ، الى انكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين فى الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس فى الكنى والألقاب ، فطعنوا فى انتساب

الفاطميين الى السيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره في القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات[1] أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لايؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب ، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هـذه الغواية ، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى ينتسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية : « وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن اسماعيل ابن جعفر ، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لايخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

***

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد ..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غاليا فى التشيع للأموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الامام ..

---

(١) المنابذات : المنابذة : مكاشفة العدو واعلامه بالعزم على القتال .

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لايطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب ، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه : « ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا.. » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة فى معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء ، وأنه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين !

***

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة فى اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والاثبات

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول : اننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب ، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين ، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه ..

القسم الثانى

.. والفاطميون

* الفاطميون ...
* النسب ...
* الباطنية ...
* الباطنية الفاطمية ...
* حسن بن الصباح ...
* السرية الباطنية ...
* بناة وهدامون .. ومهدمون ..
* المعز لدين الله ...
* حضارة محتضرة ...

الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق : ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت ، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على أنهم أسباط النبى عليه السلام ، وأنهم أبناء الوصى على ابن أبى طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها ، ويقولون ان الانتساب الى النبى من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم الى اسماعيل ابن جعفر الصادق، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة فى مذهب الاماميين الاثنى عشريين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصى بالامامة بعده لابنه الأكبر اسماعيل ، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم ، وقيل فى أسباب ذلك انه علم أن اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لايجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم والبداء لايجوز على الله ، ويعنون

بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل فى حياة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الأسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لايسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثنى عشريين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكرى ، وعندهم أنه سيظهر فى زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصمة الامام فى تبليغ شؤون الامامة ، لأنه موئل السؤال والفتوى فى أحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الأحكام

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ؛ فان أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم ، والأئمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون ..

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنين ، ومنهم من لايقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير فى الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الأئمة الاسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم لأنهم لاذوا بالخفاء فى عهد

انتشارها وازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوبا منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الامامة فى الدنيا والدين ، فاذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الامام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لاظهـار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الامامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الاعداد ، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سرا خاصـا فى عـدد السـبعة وعدد الاثنى عشر ، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهـدون عليه بعدد الشـهور وعدد البروج السماوية وعدد أسـباط بنى اسرائيل ، وعلى هـذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر .. ولكل منهم فيه كلام طويل ..

***

وللاماميين فروق يبسطونها بين النبى والامام والحجة والنقيب ، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان ، والامام قائم فى كل زمان ، وقد يكون الامام اماما مستقرا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده ، أو اماما مستودعا فهو يحمل أمانة الامامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبها ولا حق له فى التوصيـة لغيره . أما الحجة فهو لازم فى الخفاء اذا كان الامام ظاهرا فى العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا استتر الامام فلا بد له من حجة ظاهرة ، وقد يسمون الامام بالناطق أو بالصامت تبعا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من أئمة يرجعون اليهم فى كل زمان ..

أعلنت وفاة اسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم ، فانعقدت الامامة بعده لابنه محمـد ، وارتحل محمـد من الحجاز الى الرى ، اما لأنه لم يطق

منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان اول من نودى له بالخلافة الفاطمية ..

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن احمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق . أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح ـ كما سيلى ـ فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندى « مأمور » (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اسم «ميمون» كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره ، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التي تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيما بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلى سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على أنه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل(٢) لمن يأتى به حيا أو ميتا حيث كان

---

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين .
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs.

(٢) جعل : الجعل بالضم أجر العامل وما يعطاه المجاهد يستعين به على جهاده .

والروايات تتفق كذلك على ان الدعوة كانت موكولة فى المغرب الى أبى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن ، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة[1] فى بغداد

جاء فى وصفه من كتاب ــ البيان المغرب فى أخبار المغرب ــ لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الاسماعيليين ــ « فاختاروا منهم رجلا ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى ... فسار أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيــل .. ورأى فى الموسم قوما من أهل المغرب فلصــق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه.. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل الى أن بلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشــأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأتيا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن فى صحبتنا اليها ، ورغبوا منه فى ذلك ، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى اليهم بالشىء بعد الشىء الى آن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وســألوه فقال لهم : لم أجد فى هــذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك .. »

---

(١) الحسبة : المال الذي يأخذه محتسب البلد على الموزونات والمكيلات .

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيد الله فى المغرب . فالذى عنيناه هنا هو الاشارة الى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبا لا طالبا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لاقامة عرشه فى افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدى فى المغرب قد دام أربعا وعشرين سنة الى أن توفى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

***

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ . اذ كانت هذه الدولة نموذجا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة . فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ... فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها

تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية ، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لانفاذ سياسة بعد أخرى ، ومنهـا المواكب والمواسم والمحافل والأعيـاد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثـابر على الدعوة ولا تهمل معها آركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبنـاء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

***

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هـذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته ، ولسنا فى صدد الافاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هذا البلد ، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث

النسب

الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعاوى ، وهي كذلك ــ ومن أجل ذلك ــ أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهي قوية لأنها لا تأتي عفوا ولايكتفي المدعون فيها بابدائها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الاعراض عنها ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحون في تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها في مظان الاصغاء اليها والرغبة في اثباتها

واذا كانت البواعث التي تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدها قوة على قوة والحاحا على الحاح ، فهي تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات اليها

ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا ..

وهي من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة ..

لأن البواعث التي تمليها تريب السامع حين تنكشف له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها

واذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء

تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك ..

***

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لايريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هى الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلفون دعواهم بالتصديق والايمان ..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم الى النبى عليه السلام ، وكان هـذا النسب حجة معتمدة لايمارى فيها الأكثرون منأتباع الدول الاسلامية الذين تسرى بينهم دعوىآل البيت ، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والادبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين فى بغداد والأخشيديين فى مصر والأغالبة فى افريقية الشمالية والأمويين فى الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين فى هـذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال ..

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون

عندما ضعفت دولة بني أميــة قويت دعوة آل البيت التي كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق النــاس باسم آل البيت في رأى أتباع الدولة الجديدة ، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بني العبــاس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين ، كما فعل الرشــيد والأمين . ثم استحكم العداء بين بني العباس وبني على حتى لجأ الأئمة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة في الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام . فقد يقال ان العباسيين أبنــاء العباس عم النبي وان العلويين أبنــاء على ابن عمه أبي طالب . أما الانتماء الى فاطمة الزهراء ، فهو انتماء الى بيت النبي نفسه ، وليس الى الأعمام ولا أبناء الأعمام

في أوائل الدولة العباســية ، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين ، وكانت قوة الدولة في نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذي هان أمره ولم يبلغ أشده في أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون في زوالها ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبنــاء على وفاطمة ، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرابتهــا من بيت النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين في أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذي يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف

والولاء ، وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون ، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بني العباس ، ومن نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتي امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين ، فأى شيء أقرب الى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت فى القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا أنهم ينتسبون الى ميمون القداح بن ديصان الثنوى القائل بالالهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون الى كل مذهب ونحلة [١] منهم كما أسلفنا الأخشيديون والأغالبة والأمويون الأندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعا للفاطميين ثم تمحل [٢] لمعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر فى الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناسا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب فى على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى أنه كتب رسالة فى تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها الى عبد الله بن رزام ..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الأشهاد ببطلان نسب الفاطميين انه سمع أبياتا نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى
مقول صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعادى
وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا
ى اذا ضامنى البعيد القصى

---

(١) نحلة : بكسر النون : الدعوى . وما نحلتك ؟ اي ما دينك ومذهبك ؟
(٢) تمحل : تمحل الشيء : طلبه بحيلة وتكلف .

لف عرق بعرقه سيد النا
س جميعا محمد وعلى
ان ذلى بذلك الجد عز
وأوامى[1] بذلك الربع رى

فأرسل الى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول : انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا أنه قال شعرا — هو هذه الأبيات — فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر فى النقابة — نقابة الأشراف — والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر ، فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ » فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد ؛ فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدى الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان » ..

وقد اختلفوا فى نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود .. واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا فقيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل فى سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ،

---

(١) اوامي : الاوام : شدة العطش

وقيل ان أمة للامام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ فى بيت الامام منتميا الى أهل البيت

***

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم — حكم الله عليه بالبوار والدمار — ابن معد بن اسماعيل بن محمد بن سعيد — لا أسعده الله —.وان من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم فى ولد على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل ، وان هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللاسلام جاحدون ، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية ... »

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم أنهم «بنو عبيد» وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام ، وكان حدادا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده اعدامهم من الوجود ليبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم فى البلاد ، وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت

الاتابكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة»

ومن اعتدل من المؤرخين فى الانكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها لو أنها ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبى » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبى » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء انالوثيقة العباسية لا قيمة لها منالوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الأشراف العارفين بالأنســاب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين الى ديصــان الثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أو دندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة اليهــا فى قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المــأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هــذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفــاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح فى قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الاماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح الى التنطس[1] فى الطعام وحرم المبــاح منه بدلا من اباحة الحرام ! ..

ولعله لايخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع فى نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم فى الخــلافة حتى تسقط دعواهم فى الاســلام وترجع

---

(١) التنطس : تنطس الرجل : تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه .

نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسـلامية فى عرف ذلك العصر على الخصـوص ، ثم يقال عنهم ما لايقال فى جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب ، لأن ابن طباطبا الذى قيل انه سأل المعز عن نسبه عند وصوله الى مصر قد توفى قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة ، وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذى دار عليه مثل السيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هـذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة ..

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات :

انا سـمعنا نسـبا منكرا
يتلى على المنبر فى الجامع
ان كنت فيما تدعى صادقا
فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وان ترد تحقيق ما قلتـه
فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة
وادخل بنـا فى النسب الواسع
فان أنسـاب بنى هاشـم
يقصر عنهـا طمع الطـامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق

التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء .والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دونغيرهم علىأسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر « لاخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر أن عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلّين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك..»

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفة الفاطمى ، وانه انما حوّل الخطبة الى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى ، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ،

فأبو المعالى الفارسى يقول فى كتابه « بيان الأديان » أن ميمونا القداح من مصر ، وجمـلة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق فى مكان قريب ..

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون أن شهادة الشاهدين بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟.. هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف »

والمقريزى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل ــ وهما سنيان غير متشيعين ــ ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقـد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى ــ هو عريب بن سعد ــ وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما ننتهى اليه فى هذه المسألة ــ مسألة النسب الفاطمى ــ أن المطاعن لم تمسسه بدليـل واحد يعول عليه ، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه ــ سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن ــ ترجح صـدق انتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكده كل التوكيـد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هـذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعـددة ولا يتخيل أحـد ان يتصدى الفاطميون لطلب الخـلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الباطنية

كان المنتفعون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم فى البلاد الاسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم ، ولكننا نحسب ــ بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه ــ ان المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطميه

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية ، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح ، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير فى التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الاسلامى كالقرامطة فى البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين ، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوقر فى الأذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنية هى اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغرير والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى « على بن فضل » ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة :

خذى الدف يا هذه والعبى
وغنى هـــزازيك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشـــــم
وهــــذا نبى بنى يعرب
أحل البنـــات مع الأمهـــا
ت ، ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصيام فلم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضى
وان صوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا
ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفســك المعرســ
ــين من الأقربين أو الأجنبى
فـــكيف حللت لهـــذا الغر
يب وصرت محـــرمة لـــلأب
أليس الغـــــراس لمن ربّه
ورواه فى الزمن المجـــدب

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسئوا عقائد الشرك والضلال بين أهله ، وانهم فى الأصل مجوس منطوون على بغض شديد للعرب ودينهم ، لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئا فشيئا من عقـــائدهم الى التعطيـــل والاباحة والكفر بالبعث والمعاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان

قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يبثون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والايمان على مريديهم آلا يفشوا لهم سرا ولا يظاهروا عليهم

احدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن تولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الحلول ، وانه هو روح الله قد حلت فى جسد انسان ، ولعمرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من « الراصلين » الى هذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ !

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والاشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنتون أنفسهم فى جمع هذه الأخبار والروايات فاذا هى تتناقض ولا تستقر على قرار.

***

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لايصلحون لبحث هذه المسائل التى يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهى فى السريرة الانسانية وما يجوز فيها وما لايجوز ، وما يعقل وما لايعقل ، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة ، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات

فمن الطريف حقا أن يقيد المريدون بالايمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعثه الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لايشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

انما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فلن يبقى فى نفسه من الحماسة الروحيه ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما فى القرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئـــذ يعتقدون أن الكافر يكفر فى سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشـــارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم انهم على صلة بالشيطان وانهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون فى حساب المؤمنين

أما فى عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحدا ينكر كل شيء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كائنا ما كان ، الا أن يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه فى حياته أو فى بيته ، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع المريدين من الجهـــل بحقيقته الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التى يلبسها على النـــاس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم فى اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية فى المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصى واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدى البحث فيه الى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء ..

وأغرب الغرائب أن أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر فى المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس وبعض

بقاع الشام ؟

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ أن الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم فى حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذى يركنون اليه فى محاربة الدولة العباسية وانكار حقها فى الطاعة والولاء ، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصى لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين ..

***

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة[1] بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وسوّل لهم الطمع أنهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة أن الاباحة هى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل اليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الأسرار ، ثم يقال من جهة أخرى أن هذه الاباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردّده الشعراء ويتغنى به القيان ..

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقلّ فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف

اننا عرفنا ألوانا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة ، وبعضها دينى يتخذ له أغراضا سياسية

(١) النبوة : التجافي والتباعد .

كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هـذه النظم المزعومة ، بل لا ندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى فى هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى ابانها أو بعد انقضاء زمانها ، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا ان أوراقا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه قبل دعوى اسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن هو عبد الله بن ميمون القداح ؟ هو واضـع النظام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل بن جعفر الصادق جد الاماميين أجمعين .. !

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هـات اسـقنى الخمـرة يا سـنبر
فليـــس عنـدى اننى أنشر
أما ترى الشـيعة فى فتنـة
يغرها عن دينهـا جعـفر
قـد كنت مغـرورا به برهـة
ثم بـدا لى خبـر يسـتر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها :

مشيت الى جعفر حقبة
فألفيته خادعا يخلب
يجر العلاء الى نفسه
وكل الى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقا
لما ظل مقتولكم يسحب
ولا غض منكم عتيق ولا
سما « عمر » فوقكم يخطب

***

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه . وخير من هذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شائعة فى العالم الاسلامى من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخص منها بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتم والمداراة من جهة أخرى ..

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه . فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء على وفاطمة ،

ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم أن الحكم فى دولتهم لغـيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطـأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للأدعياء الواثبين عليها ، وتتابع المتحلون للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين

***

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشـأ بين العلويين فى الكوفة . فانه ادعى النبوة أو المهـدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران أنهم قالوا له فى بنى عدى : « ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل . فمضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة[(١)] وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

***

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشـد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها فى يومك ، وعد له أياما وليـالى ... فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقـاد ، ويقولون انه كمحيى الأموات .. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضـع

---

(١) المسمحة : اسمحت الدابة لانت وانقادت بعد استصعاب .

فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر .. »

***

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شباب أبى الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية . كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : «دون الله يعبد فى مصر .. !

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله الى أبى العلاء المعرى : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى الى مصر وشاهدت الناس بين رجلين : اما منتحلا لشريعة صبأ اليها ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هذه سبيله فى مهواة ومضيعة .. أومنتحلا للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مستخفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها لعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى . فلما رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته بالغيب ، وقلت ان المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب ، وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما

سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون واختلف فى حقيقته المختلفون .. »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله بن موسى ابن أبى عمران » صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه فى تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظما على المتقولين أن يتهموا بانكارهما حكيما كأبى العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبى عمران » تفسيرا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه « ان حساده أغروا به وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارسا ليقتله ، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنو عمه وتألموا لذلك فقال : ان لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه ما لايفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير الوزير. فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن

المعرى زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له : يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا وان أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك ياعم ولا بأس عليك ، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو » فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففعل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الأزل ! يا علة العلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجدات ! أنا فى عزك الذى لايرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف ابن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا أننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى علىّ أبياتا من قصيدة أولها :

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى
من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة (٢) ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود ، وخليق أن يقف النظر طويلا عند

(١) كتاب أبو العلاء المعرى للمرحوم « احمد تيمور باشا »

(٢) العيافة : زجر الطير لمعرفة مساقطها وأصواتها فيتفاءل أو يتشاءم بها .

قول داعى الدعاة أنه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا » . فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه — فيما زعم الزاعمون — ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدبيره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة ..

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية فى علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد ،

ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء فى غير بحث ولا مبالاة

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير ، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من الطبيعى الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين ، فان الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت فى النفوس أن ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ فى الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين ..

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هــذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية ، الى جانب هذه الباطنية الواقعية ..

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس او اليهود دبرها تدبيرا ولفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصــة وهدم الديانات عامة ، وتلقين « الواصلين » دروس الكفر والتعطيــل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعرب ودولتهم ، وانتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان ..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف ، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة . فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديصان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذى يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك فى الامام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذلك أنها لا تجرى مجرى المــألوف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات

فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذى نحن فيه ، ولم يكن هـذا التشيع الممقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه ..

ففى حياة الامام علىّ كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليـا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح ، وبعد مقتل الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات ، ومكان الامام وابنه محمد فى الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلا عن الولى والصـديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق ــ أبى اسماعيل رأس الاسماعيليين ــ من داعية يفترى على الأئمة العلويين ، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم فى مبدأ أمره ان أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم أنهم أرباب وأن الامام

جعفرا إله يعبد ، فلعنه جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك فى نفسه أنه الاله ، وقال أتباعه ان جعفرا الاله .. غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين ، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبد الله بن سبأ للامام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية ، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالاماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ! » ..

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى ، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز اتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات . « الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم[1] فحسب الرجل الواحد الواحدة ..»

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا — وهو أعلمهم بالتنجيم — يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات : «من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن واصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء

---

(١) نحائزكم : النحيزة الشدة .

عما يكون فقد أساء وأخطأ » ..

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى احدى قصائده :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها
وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
بما قال ، والكهان من شيعة الكفر
وان جميع الكافرين مصيرهم
الى النار فى يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختلاف ومرية[١]
وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها
تسير بتدبير الاله على قدر
وان جميع الغيب لله وحده
تبارك من رب ومن صمد وتر

(١) مرية : الشك والجدل .

وما غلت منه الأئمة الما
روه عن المختار جدهم الطهر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين فى عقله ــ وهو الحاكم بأمر الله ــ فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحة وادعاء الربوبية ، وانه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاسلام ليفسدوه وينقضوه ، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولايرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس فى السلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام علىأميرالمؤمنين ورحمة الله وبركاته»

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة انه كان فى تخليطه وتجديفه(١) فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال انه تولى العرش وهو يعلم أنه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين الى الكفر والاباحة وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ماشاع عن نقائضه وبدواته ، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قرەقوش » صوره للناس فى صورة الطاغية الذى لايبالى ما يأمر به من المستحيلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة ، فحسبوها كلها جدا لا مرية فيه ، وتناقلوها وأضافو اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء الى زمن قريب ، وقد كان «قره قوش» على خلاف ما صوّرته الروايات عنه مثلا فى الحزم واصالة الرأى وحسن التدبير

وعنـد ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ؛ وأما مذهبه

---

(١) تجديفه : جدف : كفر بالنعم ، واستقل عطاء الله .

فى الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ؛ ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها »

على أن الأقاويل عن الحاكم ـ صحت أو لم تصح ـ انما تروى عنه ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية ..

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته الى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا اليه من الشواهد النفسية والتاريخية

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبا ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال

ليس شىء من ذلك بعيدا ولا موجب لاستبعاده نظرا الى أحكام العقل أو شواهد التاريخ ..

ولكن الذى نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على انشاء دولة لهدم الدين الاسلامى والدولة الاسلامية معه ، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواما فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن الى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل

هذا هو البعيد عقلا والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب ألى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ماعدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية ، أوشؤون الدعوة العلوية فىجملتها فقد سار فى التاريخ مطردا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه

ان الايمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التى تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية فى نشأتها التاريخية

فان المؤمن بحق علي وأبنائه فى الامامة يسائل نفسه : لم لاينصره الله على أدعياء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره ، فلا جواب لذلك السؤال عنده الا أنها حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية منذورة لزمان غير هــذا الزمان ، وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت معها المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعاته الذين يخلصون اليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله واشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم ..

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضــاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شىء غير الطاعة والثقة التى لا تتزعزع ، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شؤون امامته ، ويؤمن بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين

كل هذا بديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان

ولا ننسى أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم : يؤمنــون بحقهم ويؤمنــون بيومهم الموعود ويؤمنــون بالسر الذى يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات «الموقف» أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا ــ بحكم الموقف الواحد ــ فى كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فى جانب واحد ، وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هــذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فى العنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لايرتاح اليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشــأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة ، ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين . اذ كان يرى أن الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صــفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد ..

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى فى حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقول به أفلوطين

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولايزال يتعرض له فى العصر الحديث

وعلى نقيض ما قيل عن الاباحة فى مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الالهى بالمبالغة فى التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود ..

وقد نبه اخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة أن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات : « اعلم أن الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

هى الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضا فى هذا المعنى شعرا :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وان طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :

ما جاءنا أحد يخبر أنه
فى جنة من مات أو فى نار

وأشعارهم كثيرة فى مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التى وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ولنصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد فى الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشهواتها وعاجل حلاوتها »

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى أنه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان

من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه فى معهده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها فى رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى :

« ... انه يتجاوز — أرسطو — أشواطا بعيدة فى التنزيه والتجريد ، فيرى أن الله — أو الأحد — من وراء الوجود ومن وراء الصفات ، لا يعرف ولا يوصف ، ولا يوجد فى مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذى نفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيهات أن نفهمه باثبات صفة من الصفات ، لأننا نستطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول انه هكذا يكون ..

« وقد يتصل به الانسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير ، فاذا انقضت فقد يثوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول . ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو ان الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء . أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه فى مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات ..

« ومن البديه أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئا منه ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شىء فيه ، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس — وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين — تتجه الى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على

سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة . فهـذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان ..

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى اتصـاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فان العقـل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقـة بعد طبقـة حتى تنحدر الى الهيولى التى لا نفس معهـا ، وهى معدن الشر فى العالم ، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الايجاد أو الايجاب

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات . فهى باتجاهها الى النفس الـكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية ، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصـدار فى ذلك العقل ، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات ..

« والشر فى العالم هو الهيولى لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس فى دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية ..

« ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور

وملابسة الهيولى ، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محل بينهما لشيء من الاختيار ، وان قال به أفلوطين فى بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هذا المذهب مجملا فى بعض الأوقات ومفصلا فى أوقات أخرى الى اللغة العربية ، ووقع فى نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير.. فنسب الناقلون فصولا منه الى أفلاطون ونسبوا مبادىء منه الى أرسطو ، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفة الاسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامى وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلى على الخلصاء من العباد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها الى الأجساد التى تشقى فيها ، أو مكافأتها بردها الى الأجساد التى تترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معاً ما يوافقهم فى أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صبغة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذا بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن سينا على امكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف فى مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التى تتصرف فى جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يعينهم على

دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجسدية ، زاعما أن البنوة تحصل بالانتماء الى الروح كما تحصل بالانتماء الى الجسد ، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام علىّ بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم ..

ولا شك أن العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : « ان الله لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة .. وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام .. ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركه من النفس الى الكمال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ »

فهذا المذهب فى الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام اننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا فى سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينـــكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالـــكمال الالهى مرتفعا تعجز عن ادراكه العقول ..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط فى فهمه ممن يهرفون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكروه غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق[1] المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان

---

(١) أوهاق : جمع وهق بفتحتين حبل يرمى وفيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة .

فانّ القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفى تنزيها لله « الأحد » عن جميع المحسوسات والمتعددات ..

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعد أناس فيخيل اليه أن اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء ..

هذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل وجرّ الى الخبط فى الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء ..

وقد كان ابن هانىء الأندلسى من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون[1] فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشبيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركته فى أضاليله وخزعبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكأنما أنت النبى محمد
وكأنما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ، فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به ، ولم تكن به ولا بممدوحه حاجة اليه ..

الا اننا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شىء لم

---

(١) يهرفون : هرف الرجل بصاحبه أطرأ بالمدح اعجابا به .

يسمع مثله من امام كبير كمحيى الدين بن عربى فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين الى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام ، فقوام الايمان واستقامة الشرع يكتم السرية ..» الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية .. وفوق كل ذى علم عليم ..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن النـــاس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ، وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام . ولكن الاغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولايفقهون او من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثيرـــكل أولئك يقود الى الظنون حيث لاموجب للظنون

***

وجملة القول أن الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقـــد كان كل مذهب فى ذلك العصر « باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى فى هـــذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصـــفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينا بعد حين ماطاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالى ـــ وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة ـــ كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة . وكان من كتبه ما يضن به على غير أهله ، والامام ابن عربى المتصـــوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام العلم والمعرفة ، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعا :

خـــل جنبيـــك لرام   وامض عنه بســـلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

الا أن يكون مندوبا لعمل لا حيلة له فيه أو متجردا لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق أن الباطنية الفاطمية أضيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره فى زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة ، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

***

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة ـ وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية ـ وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطة أبيه ، وكان بدر/وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية ، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة ، ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ، واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا اليها خفية .. وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحى لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو

كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما اسطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الاسماعيلية أن يستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام المطاع الى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ، ولا الى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستمانة بذوى المطامع والترات[1] .

ولا شك أن الحسن بن الصباح لم يعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه ــ كما سيلى ــ على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله ، وهو فى قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال

وقــد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وســائلها ، وأمعنت فى التخفى أو فى « الباطنية » الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها

***

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها . ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هــدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الاسماعيلية ، فلو أنهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم ، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم فى أيدى الناس لا يســتحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم ، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس

---

(١) الترات : جمع ترة وهي الثار .

فى كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت [١]

ولهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعيون الاماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين ..

***

ومحصل القول فى المذهب الاسماعيلى من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهى كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة الامام وانه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والاحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغى أن نذكر هنا أن القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان مذهبا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبا من الشيعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لايوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الامام على وأبنائه الأكرمين ، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم ، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن على على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

---

(١) الدسوت : جمع دست وهو المجلس وصدر البيت .

حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق الى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح فى زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعتها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا أنهم لايستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء ، وهى الجنون بالسيطرة والغلبة ، ونتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفعة نفسه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين

ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار فى المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق ..

كان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه

ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيــا عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها كانا أعظم من دهائه . فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لاريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس — أو من مألوف هذه النفوس خاصة — أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز ايمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبة فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيون

***

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالا شتى يبدو فيها خادعا مخدوعا فى وقت واحد ، فهو حصيف لاشك فى حصافته ، ولكن كيف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان مغلوبا على أمره مضطرا الى تسويغ دفعته بعقيدة تجملها فى نظره وتلبسها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى الى السلطان ، فانه ما اتصــل بأحد قط الا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من

·هائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى أن تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة فى نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب « جامع التواريخ » .. وفى روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيّره بين ولاية الرى وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاة ..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شىء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل — من محبيه فضلا عن مبغضيه — انه كان بعيد المطامع منذ صباه ..

وحدث ، وهو فى الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بانجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل فى تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمى أنه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد من العلم بالشخوص الى دار الحكمة فى القاهرة ، لعله يستوفى هناك علوم الاسماعيليين التى غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح أن الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة ، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد

لا منصرف عنه ، وهو بلوغ المنصب المرموق فى عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة ..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة(١) كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوّج بنته للأمير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زيّن له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملا فى الملك ان استطاعه لنفسه ، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم أنه مثل بين يدى الخليفة المستنصر فوكّل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولىّ عهده بين الأمم الاسلامية . قال : « فسألته ومن ولى العهد ؟ فأشار الى نزار .. »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التى صارت الى اسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه موسى ، فان الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء ..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساسا كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والاقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشىء له دعوة جديدة فى المذهب الاسماعيلى ، وهى الدعوة الى امامة نزار

(١) الشكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس ، وقوة القلب .

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشـام والعراق وفارس ينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو أن حوافز النفس الغلابة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصـدقائه فى أصفهان : لو أن معى صـديقين أركن اليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الاسماعيلية عبد الملك بن عطـاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه ولـكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميـذ المتحفز أنه لم يعرف من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليهـا ، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها ..

وواضح أن تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تيئسه من الوثبة الى السـلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم ، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر فى هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم

فيها زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها ، وسـاعده على انتزاعها آنه خيل الى آهل الاقليم أن مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهى مجمــوعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة فى أذهان القوم أنه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر فى الفارسية و (اموهت) [١] بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشـاهقة ، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لايستغنى عن الامام فى كل زمان !

***

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التى تزجى [٢] الأحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعــد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط فى كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة .

من هــذه الأعاجيب أن الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره فى نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع فى وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم الى جنة الفردوس وأنه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وأنهم اذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العيانى » يفسر طاعة أتباعه

(١) ينطق اسم القلعة « الاموت » أو الموت بفتح اللام .

(٢) تزجي : زجي الرجل الشيء وأزجاه دفعه برفق . وفلان حاجتي سهل تحصيلها .

الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين ، وان كلمة « أساسين » Assassin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة الى الحسن ابن الصباح ، وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفسه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لايميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الأعداء ..

***

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالى «ماركوبولو» الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولا فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء ..

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصل فى قلعة حسن ابن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهى المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين ، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه فى وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر

العيان والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش أنه يهيىء صاحبه لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق أن شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ، فهل من العسير أن نتتبع مصدر هـذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

***

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة ، وقد كان الصليبيون فى حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لايؤمنون بالدين الصحيح ، فخطر لهم وقالوا وكرروا أنهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى من تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم الى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد كان ماركوبولو فى روايته يقول ان الفدائيين صدقوا شيـخ الجبـل كما كان المجاهـدون من العرب يصدقون النبى عليه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون ، فهم فى شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم . فلم يتخيلوا لذلك سببا غير الجنة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم أن أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنـة « الموت » المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت فى كلام مؤرخ اسلامى قديم ولا أن أحدا من مؤرخى الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية .. ولو

كان لها مصدر من المشرق الاسلامى لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين ..

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة أن وجه الغرابة الذى دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شيء الى أتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضـلا عن الفتيان المجردين للفداء . فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شـهدوا الجنـة عيانا فالعجب لأمهاتهم اللائى كنّ يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جاشهن بغير تلك الآية التى رآها أبناؤهن رأى العيان !

***

لقد كان الأمل فى ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شيء بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الأطراف فخرج منهـا الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكانت لشيخ الجبـل ارادة من حديد تتسلط على أجنـاده تسلط « المنوم المغناطيسى » على المدربين عنده على التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين .. فلا يحتاج الفتى

المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب ..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم فى الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه . فمن الذين أحسنوا التفسير ايفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Islamism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل « الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم فى العلوم وفقه الدين ، وقد عمّ الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من « المهدى حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة ..

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لاريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار ، فهل يصدق القول عليه أنه هو يخدع ولا ينخدع وأنه هو يسوق ولا يساق ؟ ..

***

الراجح عندنا ان هذا « المهدى » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله فى الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك فى ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير فى ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنا نتخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون اعتقاد الانسان فى عمله خيرا من اعتقاده فى أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الايمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة ؟ ان « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وانه لأقوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال

الزمن ودواعيه ..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل ان ترسخ فى طويته بالاقناع الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض

ونعنى بالرسالة السلبية أنه آمن ايمانا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب ..

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات؟

اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولابد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان

***

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر أن الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما الناس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، وليس فى طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولايرى فى نفسه الا أنه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه ، هى أصلح مما هم فيه ، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين

الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذا بدفعة السيادة ، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد أنه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما أطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

***

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين

وتسعون فى كل مائة ، ان لم تقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه ، أو فى دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم ..

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حينا بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائبا عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع والمخدوع ..

استولى الحسن على قلعة « آلموت » فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الاسلامية من مراكش الى تخوم الصين

وولى عهده ، وتسمى بالمهدى وانتحل البنوة الروحية للانتساب الى الامام زاسنعان بتعدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار »

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمى سنة ٤٨٧ للهجرة الاسماعيلى على انتحال المرجع الذى يروقه أن يدعيه ، فهو حجة ومهدى وامام كما يشاء ..

***

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ، والغيلة ، والفتنة الدخيلة . فمن الحيلة أن السلطان السلجوقى ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر(١) حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون(٢) ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ الى نصيحة وزيره فى هذه المرة ، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله ، فعاد الجيش الذى سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه فى اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول

(١) زقاق الخمر : جمع زق بكسر الزاي : الجلد يتخذ للشراب وغيره .
(٢) يقصفون : قصف القوم : اقاموا في الاكل والشرب واللهو .

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث .. فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ، ومن أساليبه فى هذه الفتنة أن يترك المحاربين فى شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشيع عن أحد أعدائه فى دولة الأمير أنه من الاسماعيليين « الصباحيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

***

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم فى عصره ، لم يجد بدأ من مصالحة ابن الصباح ، وقيل فى أسباب المصالحة أنه كان من أهمها شك السلطان فى حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والأتاوات(١) فى اقليمه ، ويروى أنه وجد فى طريقه الى حصار « آلموت » خنجرا مغروسا فى فراشه مكتوبا عليه أن الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده فى صدرك ، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة فى انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به فى غير مشاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لها فى البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى نزار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر

---

(١) الاتاوات : الاتاوة : المال الذي يؤخذ على الارض الخراجية .

الآخر من الاسماعيليين ، والثانى يدعو الى المستعلى وأبنائه ، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الآمر » الفاطمى وأنه يحضر موسم الحج فى كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه ..

***

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل فى السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت . انه لم يكد يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطنى » الذى قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهـده واعتكافه وعزوفه عن المبـاح من الأطايب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته اياه فى شرب الخمر على الخصوص ، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الذرية ، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هـذا الانسان العجيب كله ، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لايستغرب منه قتل أبنائه فى شباب ولا شيخوخة ، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضـل وأدهى ، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعـد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام ..

هل له عقيـدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح فى سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقــادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هــذا الانسان العجيب ..

ونبدأ فنقول اننا ينبغى أن نستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هــذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عنــدهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سـلطان ؟ هل خلا الجنــس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلا عن الشــهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟ ..

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمــال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى الروايات ، وقد يكون أحــدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المســوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل

***

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها ، فأنفى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة

الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات[١] ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال ، وهذا كله جائز غير مستغرب . أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لايدرى موضع الغفلة من سريرته ، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهم الأذكياء والألباء والحصفاء ..

(١) سورات : السورة : الشدة والثورة والسطوة .

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل فى نقائضها المعلومة هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنيـــة أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذى ينوطه[1] الامام بدعاته ، لا تبعا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى ..

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الامام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى حتى لا سرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسـياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فى الأندية العامة لاعلان آرائهم واقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام فى ديارهم

***

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الامام ، حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال فى غير اشـفاق على حياته أو حذر من عاقبة أمره ، ففى هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التى توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة فى هـذه الدنيا أو فى الدار الآخرة وكثيرا ما يستغنى الامام عن المغالاة بقداسته فى الأزمنـة العصيبة التى تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشبع فيهـا الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالى العلامات والأشراط التى تؤذن بظهور المهـدى وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه ، فاذا شـاع فى النفوس هـذا الأمل فلا حاجة بالامام الى عقائد المبالغة والمغالاة فى أمره ، وحسبه أنه

---

(١) ينوطه : يعلقه .

قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون

وإذا أردنا التوسع الذى يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الامام الحى فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحى فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

***

وقد لخص الغزالى هــذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وأنه لابد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم : فاذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البــلاد وهو ينتظر مراجعتهم اذ اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم ، اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته . يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوه ؟ أفبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهــاد بالرأى وهو مظنــة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه ، بل كما يفعل دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لايمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولايمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصــلاة . فاذا أجيزت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن ــ ويقال ان المخطىء فى الاجتهاد له واحد وللمصيب أجران ــ فكذلك فى جميع المجتهدات .. »

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين وجميع المقرين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

***

خذ لذلك مثلا اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يغنى عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » . ولم يكلهم الى الرؤية قبل ذلك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الأمام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالامامية ، وانما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين ، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفا على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين ..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الاماميين فى أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن بن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه ، ولكنهم يقولون ان الامام يصيب وهو مختار ، ويجرى مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره طائعا فهو الصواب المطاع

لقد صحبنا منشىء « الاسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه فى ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشــأته الأولى . لأن حيــاته العامة لا تتوقف على أخباره فى أوائل نشأته .. فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنــه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة ، صــناعة الصابئة على شــواطىء بحر العجم ..

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب ابن الآمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار امام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين ان صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيــام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصــة يرتاب فيها طــائفة من ثقات المؤرخين ، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأيا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئاً من ملامح « الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه بعد شخصية أثبت فى ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التى اقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

بناة وهدامون .. ومهدمون

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له فى اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال ..

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقوة آثرها فى التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسىء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منها للاساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العالم الاسلامى متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظام قديم

والواقع أن جو العالم الاسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هذا التبديل فى نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين : شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ ، ويسمع الناس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه

وقد كان علم النجوم قد استفاض فى كل مكان ، وليس آكثر من

مقـارنات الفلك التى يحسب المنجمون أنهـا علامة الغيب على الغير والأحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويترقبونها ، ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المجددون ويمارسونه ، ويبغضـه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه :

أين الرواية أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان منقلبا أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهيـة
اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ولـكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شـهدت نهاية القرن غاية التفـاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحسـاب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضـداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى فى كنفه .. حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره .. وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هـذه البشارة مصدقوه ، فاذا علموا أن الكون كله يتأهب «لطلوع الشمس من المغرب» فقد بلغ التصديق غاية اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم ــ كما جاء فى المقريزى ــ انه قال فى سـنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين

وأربعين سنة ، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال :

ألا يا شيعة الحق ذوى الايمان والبر
ومن هم نصرة الله على التخويف والزجر
فعند الست والتسعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى ارصاد النجوم علامات زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطى :

أغركم منى رجوعى الى هجر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
اذا طلع المريخ فى أرض بابل
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك أننى
أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى انه من رصدة النجوم ، فاذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير ارصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار، والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير

وفحوى ذلك كله ان السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان الى شىء ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير

وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ،

ومن كان منهم لاينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد ان أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

***

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد ، ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب فى سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبّل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجاب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلهما ويبكى فطمأنه المهدى قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى(١) بنى العباس .. »

وتبيّن غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل الى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وايمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى

---

(١) نواصي : جمع ناصية وهي منبت الشعر في مقدم الراس .

العباس بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة ، فقــد روى عن كافور الأخشيدى ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه ـ وقد سقط منه ـ فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلهـا وهو يقول : « نعيت الى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسـول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها .. »

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهــذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاة

***

وتتــابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التــاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعــد التأسيس عرضــة لطوارىء الهدم والتوهين ..

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الأسرة وموطــد هو خلف له يتناول منه الملك ولمــا يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطــدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود ، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيــد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف

باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قيل فى قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

***

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الأرض بمصارع الروم الذى جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده ، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحيى بن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده »

وليست قوة البنية شرطا فى أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيام سلطانه ، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيرا فى المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه ، وكان يعمل فى مغيبه ما لم يكن يجترىء على عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى

لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة . فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الأدلاء الى كل بلد فى الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء . واتفق انه صلى الصبح يوما فى جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم الأمام وقال له : « قد حصلت لى عشرة آلاف دينار »

***

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك أنت الرجل المطلوب . فضحك المهدى وعاد مع الرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه اننى اذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار ! .. » ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، وأدخله من جانبها وزاغ منه .. وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفى مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاقه اذا تثبت من حقيقته ، فما عتم المهدى ان عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه — وكانت تربيته لابنه كما تقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية — فوقع فى نفس الوالى ان رجلا يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله . أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه . فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ... »

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب بن سعد فى

تاريخه ، وانه خشى من أصـحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد ..

***

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا فى يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتعود هؤلاء الأعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجـديد ولا على الخـلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتبـاعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه . فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم ـ داعى اليمن ابن حوشب ـ فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجَمْع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هـذا وأخيـه العبـاس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليـفة أن يحصر السلطان فى يديه ، ونمى اليه انهما يأتمران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتـله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

وأطلق دعاته الجدد ، ومن أبقى عليه من الأقدمين ، يجوسون خلال الديار الاسلامية ليبشروا به ويخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الأدارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل اقليم من

تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وأن الأوان قد آن للجهر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبل المسير اليها ، تغرير بالثوار، وان الثورة بعد فتح مصر تتمة منتظرة قد تأتىعفوا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيى الثوار بالخروج عليها فى غير حذر ولا ندم وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى انه كان مقسور اليد فى حملاته على مصر . كان يوصى بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل فى التخذيل وكسب الأنصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيموت خليفة فى بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة ، وتتوارد الكتب الى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الأحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخل فى أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار ، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمله تبعة الاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الى الاسكندرية

***

أما الخطة التى يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهى ارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته ، ويبتنى فيه المدينــة التى أزمع أن يتخذها حصــنا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلته فتن المغرب زمنا وأحرجته أيما احراج بعــد مؤامرة عبد الله الشيعى وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالى سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات»..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهدية ، فاتتقى لها موقعا

يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانبا ثم بنى على مقربة من المهدية مدينـــة أخرى سماها باسم زويلة احدى قبـــائل البربر التى تواليه ، وخصـــص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفا عن المهدية وعزلا بين السكان ومرافقهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم . قال : « أن أموالهم عنـــدى وأهاليهم هناك . فان أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك ، وان أرادونى بكيد وهم بالمهـــدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بينى وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

***

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولى عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف منجنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبتـــه بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقـــاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والأدارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالأندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير

حاكم انه فرغ لمناعم نفسه أو غفل يوما عن سياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادى الدهر من أول القرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم

المعز لدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله ، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالأربعينات

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده . فعزز القائم الأسطول واحتل الشواطىء الايطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلدة من غارة القراصنة ، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ، ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع فواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدا فى سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه « معد أبو تميم » المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

***

قلنا فى كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد . لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن " ..تون مع السيف ..

وقد كان هـذا شأن المعز فى المغرب بعد جده .. فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة ، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار ، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة الفاطمية جميعا ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع فى علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام فى تلك الأيام

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها ..

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين ، فهمه أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه ، وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما آنسوه من مودته وكرمه

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الانتفاع بالتجارب والعبر ، وانه كان يحسن اصطناع الرجال ، وانه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه ..

فلم ينس هزيمة الأسطول فى الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه .. ثم جدد حفر الآبار فى الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والأعوان ولا يغار

من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته ، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بابلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقى أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذى جاء فى كتاب « الخريدة[١] النفيسة فى تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سيفين ، ويقال فى سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القـاهرة ، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع[٢] وجدد كنيسة « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفى يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة البطرق له عند الخليفة ..

---

(١) الخريدة : المرأة الحيية الطويلة السكوت • والعذراء • (٢) البيع : جمع بيعة بكسر الباء • كنيسة المسيحيين •

فهــذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب فى مجلسه بالمتناظرين فى الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصــل تلك الاشاعة عن مدفنه فى مقبرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هــذه الاشــاعة وما اليها موئل العزاء فى أيام الخليفــة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهــدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين

***

ومن تفرسه فى استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر ، ومنه فى رواية المقريزى ان صبيه عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحجضرت اليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتها شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها »

قال المقريزى : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقصّ عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخواننا ! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنــات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليهــا ، ولكن المعز — على خلاف المعهود من سياسة أسرته — حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شــاع فيه على آخر أيام الأخشيديين ، وتطهيرا للأخلاق مما أصابها فى تلك

الأيام وأدرك منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الأخشيد

وقدم جوهر الى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى اقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ... »

***

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم — وهى شهرة صحيحة — فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين اقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الحبال أجراسا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غرابا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين اله الحروب .. !

هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلا والغربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس تدق على جميع الأسوار ، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة الى الأجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنـون ان المهندسين هم الذين حركوا الجبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟ ..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون ، وفى التنبيه الى ما فيها من الاحالة[1] عبرة لمن يصدق السمعة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل ..

***

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه ، فشرع جوهر فى بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء فى أرجح الأقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما ـ أى القطائع والفسطاط ـ كانت عاصمة للقطر فى أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما كدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا اليه

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد الى مصر طمعا فى زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضمانا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسـمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية

---

(١) الاحالة : أحال الرجل : أتى بالمحال وتكلم به .

يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملا بمذهب الاسماعيليين ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض ، فكان تأمين طريق الحجاز من قبـل مصر والشام خطـة تقضى بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز فى القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه المال اذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار .. فقبل الصفقة ، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير... ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعا عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالاياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (فى سنة ٣٦٥ للهجرة) فان ابنه العزيز الذى تولى الملك بعـده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيهـا الا عجل بقمعها وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة الى نصـابها ، ولكنه مات (سنة ٣٨٦) وقد بدأت فى أيامه دسائس القصـور وسياسة الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت الى حين فى ابان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضـعفاء من الأمراء ..

الحاكم بامر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص انسان ، لو لم

يكن تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصــور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد

ذلك هو الحاكم بأمر الله ..

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها .. وكان يحرّم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبــدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعيــد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل فى الظلام ويختبىء فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون ..

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبــدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خبيثا ماكرا ، ردىء الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها .. »

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ما ذكر عن هــذا الحاكم بأمر الله ، وبأمره ، وبأمر المــأمورين والأمراء

فمن مؤرخى القبط من يقول انه مات على النصرانية ، ومنهم من يقول انه كان يعبد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخى السنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الأرض فى آخر الزمان ، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفى رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هى أعجب السير وأوضح السير فى وقت واحد ...

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق ، وهى أقلها عجبا فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل انها حالة من حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض (١)

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار ؛ يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض أن الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهة الكاذبة ، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المتهوسون بالأسرار الى مناظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة فى الخلوات ..

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات ، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع ابداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم الى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص ، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويدا رويدا فى مقتبل الشباب

وغير « الفرويديين » يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحدث أحيانا أن ينظر الى الشىء الماثل فلا يراه

---

(١) Mystic Hallucinosis

ويصغى الى الصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد فى الرجوع بالعلة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية ..

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا فى دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر ، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوسائل الى استطلاعه . كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل ، فاذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيم وكبر وهو يصغى الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار العيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب فى ابتلائه بتلك الآفة ، آفة الهوس بالأسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغون فى تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزى والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت ..

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختل أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ الا بالحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بادخال

السرور الى نفسه فى مجالس الغناء مع يسير من الشراب ، وانما « عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات واحتـاج فى مداواته منه الى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ، وان كثرة سهره أيضا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصـوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصـور التى تحيط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة ــ غير بدع أن يصـاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختـارا لأنه يتوهم انه يروض نفسه بالتقشف والتهجد[1] ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها ، فتنكشف له الحجب التى لا تزال مسـدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبـادة ، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائر « الحريم » ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب

---

(١) التهجد : القيام في الليل للصلاة .

وتستشرى[١] حتى تناولت كل شيء فى الدولة والمجتمع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا محسوبا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت[٢] بينها نوازع الشقاق تبعا لاختـــلاف الأحزاب فى كل حريم ، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من الســـودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولأنفسهم وللقادة والحكام

ولم يمض غير جيل واحد على قيـــام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم ..

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفـــاء آخرين كالأطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة الســـياســـة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشـــوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمى عصر الخليفـــة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما ســـمى عصره بهذا الاسم لأنه صـــنع فيه شيئا خلال ستين ســـنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف[٣] الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود

---

(١) تستشرى : تشتد . (٢) شجرت : تشابكت . (٣) يدلف : دلف الشيخ مشى وقارب الخطو .

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل ..

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقريزى عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان ... ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة ... فلم يبق للعاضد سوى اقامة ذكره فى الخطبة.. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فاتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة[1] ، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه ، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجحان ودالت دولة الزوال فشالت[2] كفتها فى ميزان الزمان

(١) المشنوءة : المكروهة . (٢) شالت كفتها : شال الميزان ارتفعت احدى كفتيه على الاخرى .

حضارة محتضرة ...

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها ..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشؤون الاجتماعية

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع ..

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم ..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم . هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة ، يخصص منها قسم للرجال

وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها ، وان خالف به اجماع الآراء ..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان ..

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه فى عصر من العصور، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصافون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا ان نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبدع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولايزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتى ببدائع المصنوعات وتعود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك فى مواسم العام كله لا تنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على

مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت اليها ، فبعد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا اليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبى ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام ..![1]

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسمطة[2] ويخرجوا اليه يحيونه ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم ، ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للأحياء

لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ، وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الأيام ، وما من قصر من قصور الملك فى المشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالايجاز لازدحام القالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ :

(١) نوافل : جمع نافلة وهي عمل ما لا يجب عمله ، كالصيام في غير شهر الصيام · (٢) الاسمطة : جمع سماط وهو ما يبسط ليمد عليه الطعام ·

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا
لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وان خالفونى فى اعتقاد التشـيع

وهو الذى بخع (١) نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملا فى نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق الناس برثائهم ، وقصيدته التى قيل فيها انها أبلغ مانظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفهـا
من المـكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية
من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنهـا بوجهى خوف منتقـد
من الأعادى ووجـه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم
حال الزمان عليهـا وهى لم تحل
دار الضيـافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منها جديد عندهم وبلى

---

(١) بخع : بخع نفسه اهلكها .

وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمل

وأول العام والعيــدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل[(١)]

والأرض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأســل[(٢)]

والخيــل تعرض فى وشى وفى شية
مثــل العرائس فى حلى وفى حلل

وماحملتم قرى الأضياف من سعة الأ
طباق الا على الأكتاف والعجل

وما خصصتم ببر أهل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملــل

كانت رواتبكم للذمتين وللضـ
ـيف المقيم وللطارى من الرســل

ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الأرض والدول

باب النجاة هم دنيــا وآخرة
وحبهم فهو أصــل الدين والعمل

والله ما زلت عن حبى لهم أبدا
ما أخر الله لى فى مدة الأجل

ولم يؤخر له فى الأجل ، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها فى سنة تسع وستين وخمسمائة

« قل اللهم مالك الملك تؤتى من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير »

---

(١) الوشل : الماء القليل يتحلب مــن صخرة يقطر قليــلا قليلا .
(٢) الاسل : نبات يخرج قضبانا دقاقا . والرماح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهرس

صفحة

تمهيـد ٦

القسم الاول : فاطمة الزهراء

أم الزهراء ٩

نشـأتها ١٧

زواجهـا ٢٠

بلاغتها ٣٤

فى الحياة ٤٠

وفاتها ٤٧

شخصية الزهراء ٥٢

الذرية الفاطمية ٥٦

القسم الثانى : .. والفاطميون

الفاطميون ٦٢

النسب ٦٩

الباطنية ٧٩

الباطنية الفاطمية ٩٢

حسن بن الصباح ١١٠

السرية الباطنية ١٢٧

بناة وهدامون ... ومهدمون ١٣١

المعز لدين الله ١٤٢

حضارة محتضرة ١٥٥

أبو الشهداء

الحسين بن علي



عبّاس محمود العقّاد

أبو الشهداء
الحسين بن علي

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



تقـــديم

سئل سعد زغلول مرة عن الكاتب الكبير عباس محمود العقاد. فقـــال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع • ما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة أو مجلة . الا أعجبت به غاية الاعجاب • وهو لا يعالج موضوعا الا أحاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد ، وله أسلوب أدبي فريد » •

واذا كان هذا الحكم العادل يتطابق كل التطابق مع ما يمتاز به العقاد من مزايا وشمائل ، ومع ما تفردت به كتبه ومؤلفاته من روعة البيان ، وقوة التعبير ، ونصاعة الحجة ، فان هـــذا الكتاب « أبو الشهداء ، الحسين بن علي » في مقدمة مؤلفاتــه الخالدة التي أبرزت الحقائــق التاريخيــة ، وعالجت الشؤون النفسية ، في افاضة وشمول ، وتدقيق وتمحيص ، بحيث لا يجد الناقد البصير ثغرة ينفذ منها الى شيء من التخطئة والتصويب ، أو الى فضل من الشرح والايضاح •

ولا شك أن من يطلع على سيرة أبي الشهـــداء ، ويستجلي أحوال من خاضوا غمرات أحداثها سيعثر على فئتين من الناس هما على طرفي نقيض • فئة الحسين وأنصاره وأتباعه ومؤيديه التي تتمثل فيها أسمى وأشرف ما بلغته الانسانية في تاريـــخ حضارتها ، وأنبل ما بثته الأديان ودعت اليه من خصال الخير ، واعلاء كلمة الحق ، والجود بالنفس في سبيل نصرة المظلوم ، والقضاء على الضلال ، والسادرين فيه • وفئة المناوئين للحسين ، الذين أعمتهم منافعهم الذاتية ، ومطامعهم الدنيوية عن جلال قدره ، ورفعة مقامه ، وقرابته من سيد الأنبيـــاء والمرسلين ،

وانحداره من أكرم أبوين ، من أب نافح عن الاسلام بسيفه ، وروع قلوب أعدائه باقدامه وشجاعته ، ونور أذهان المؤمنين بواسع علمه وسحر بيانه • ومن أم معطرة الأنفاس بنفحات النبوة ، مطهرة الأخلاق والشيم بعبق الوحي والرسالة •

وجدير بنا أن لا ننسى فئة ثالثة ثابت الى الرشد بعد أن ضلت بالانحياز الى أخصام الحسين ، واستيقظ فيها الضمير فانضمت الى صفه وقاتلت معه جنبا الى جنب واستشهد منها الكثير •

وهناك فئة غلب عليها الطمع في حطام الدنيا ، أو عمل ضعف الايمان عمله في نفوسهم ، أو أذعنوا لدواعي التهديد والوعيد ، فانقلبوا خاسئين الى صفوف الباطل ، أو استولت عليهم الحيرة فباتوا لا يدرون أي الفريقين أحق بالاتباع •

وسيرة الحسين هي قصة الصراع العنيف بينه وبين يزيد بن معاوية بن أبي سفيان • أو هي من جانب آخر قصة الصراع بين الأمويين والهاشميين ، هذا الصراع الذي كان مستحكما بينهم قبل الاسلام ، واستمر في أشكال متعددة بعده ، ثم استفحل واضطرم في خلافة علي بن أبي طالب الذي برز له معاوية ينازعه الخلافة ، مؤثرا الحرب والطعان على الاعتراف بحق الامام الصريح •

ان الصراع بين الحق والباطل قديم رافق الانسانية في جميع مراحلها • وقد بلغ هذا الصراع الذروة في حالات كثيرة من أبرزها ذلك الذي احتدم بين الحسين وأنصاره الأبرار من ناحية، وبين يزيد وزبانيته وعملائه من ناحية أخرى • ولم يكن في الواقع صراعا بين رجلين أو فئتين ، وانما كان بين اتجاهين في الحياة : اتجاه نحو الخير والكرم والأريحية والحرية والعدل وكل ما يرتفع بالانسان من درك الحيوانية الى أوج القداسة والبراءة والنقاء ، واتجاه نحو الشر واللؤم والاستعباد والظلم وكل ما ينحدر بالانسان الى حضيض المهانة والانحطاط •

كان الحسين ، بحكم نشأته ، وتربيته ، ومزاياه الفطرية ، وبحكم الوراثة الخلقية من أكرم بيت ، وأشرف خلق ، مؤمنا أصدق الايمان بالله ، حريصا أشد الحرص على شريعة الاسلام أن يمسها أحد مهما علت منزلته بسوء ، صلبا أشد الصلابة في

احقاق الحق ، ومراعاة أحكام الاسلام لا تأخذه في الله لومة لائم • ومن كان هذا شأنه ، وهذه مبادؤه ومعتقداته ، كان من العسير عليه أشد العسر ، لا بل من المستحيل أعظم ما تكون الاستحالة ، أن يغض الطرف ، أو أن يرضى بذلك الزيف الصارخ ، والإنحراف عن نهج الدين القويم ، وانكار حق الأمة في التشاور والاختيار ، وذلك في اسناد الخلافة الى يزيد ، وتوليته أمور المسلمين رغم أنوفهم ، وبوسائل الخداع ، وضروب التهديد والوعيد ، وهو من هو في تبذله واستهتاره وايثاره المجون على ما يتطلبه منصبه من الجد والوقار ، واللهو على ما يستدعيه مقامه من رعاية شؤون المسلمين ، والتفاني في سبيل اسعاد المؤمنين الذين يأبون كل الاباء أن يتولى من كان مثله امارة المؤمنين •

وهكذا ، وبعد طول تأمل وتفكير ، واستماع الى المشيرين بالاقدام ، والناصحين بالنكوص والاحجام ، وبعد ما بدا لعينيه العجب العجاب من ثبات العامرة قلوبهم بالايمان ، وتهافت الخائرة نفوسهم والمجبولة قلوبهم على ايثار الخذلان والاستسلام ، أقدم على خوض المعركة واضعا نصب عينيه الموت أو الشهادة في سبيل حق آمن به ، وتحمل من أجله ما لا يتحمله الا أولو العزم من الرجال •

وان من يتتبع أعمال هذا البطل الشهيد ، ويجيل الفكر والتأمل في أقواله وردوده على باطل خصومه ، منذ بدأت المعركة الى أن غلبت كثرة المبطلين قلة أصحاب الحق ليقع على أروع مشاهد البطولة والنخوة ، وأبرز مظاهر الشجاعة والحكمة ، مما يضفي عليه بحق وصدق لقب « أبي الشهداء » ويجعله أنموذجا للشهادة الصادقة في تاريخ البشرية جمعاء •

وأخيرا لا نرى بدا من التنويه بالخدمة التي يقدمها الى العالمين العربي والاسلامي السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت بتحمل عبء الطبع وتجديده لآثار الأديب الكبير عباس محمود العقاد ، فله خالص الشكر . ووافر الثناء •

صيدا ــ منيف لطفي



مقدمة المؤلف

يسرني أن أقدم الى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب « أبي الشهداء » ويعظم رجائي أن يصل الى أيد كثيرة غير التي وصل اليها في طبعاته السابقة ، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات ·

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها ، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة ، فاذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها الى طبعة جديدة ، أمكنني أن أشعر بها شعور القارىء الذي يطلع عليها لأول مرة ، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات · وقد استغرب منها أمورا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم « الأجانب الغرباء » ··

عجبا ! ·· ان مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة ، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا ، ولم يزل الشهداء يصلونها نارا حامية من عبيد البطون والأكباد ، ولم يزل « داؤنا العياء » كما قال أبو العلاء ! ··

كان هذا شعوري بكتاب « أبي الشهداء » حين قرأته من جديد لتقديمه الى هذه الطبعة : مسكينة هذه الانسانية ! ·· لا تزال في عطش شديد الى دماء الشهداء ، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة ، أو لعل العطش الشديد الى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة ، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الانسانية وجودا ماديا فعليا وأصبح لزاما لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما

وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات ٠

الوحدة الانسانية اليوم حقيقة واقعية عملية ، ولكنها حقيقة واقعية عملية في كل شيء الا في ضمير الانسان وروح الانسان ٠

حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى ٠٠

حقيقة واقعية في اشتباك المصالح التجارية ، وفي اتصال التعبير ، فلا يضطرب عصب من أعصابها في أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب في أقصى المغرب وفي أقصى الشمال والجنوب ٠

حقيقة واقعية في كل شيء الا في ضمير الانسان وفي روح الانسان ، وهذا هو المهم والأهم اذا أريدت للانسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام ٠٠

ولن توجد هذه الوحدة الا اذا وجد الشهداء في سبيلها ٠ فأنعم بمقدم « أبي الشهداء » من جديد الى ضمائر فريق كبير من بني الانسان ، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات في سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال ٠

نتفاءل أو لا نتفاءل ٠٠ نتشاءم أو لا نتشاءم ٠٠

ليست هذه هي المسألة ، وانما المسألة هي ان طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف ، فلا تتحقق مصلحة الانسانية الا اذا عمل لها كل فرد من أفرادها ، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها ، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء ٠

لا عظة ولا نصيحة ، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية ٠ فلا بقاء للانسانية بغير العمل لها ، ولا عمل لها ان لم ينس الفرد مصلحته ، بل حياته في سبيلها ٠٠

لا بقاء للانسانية بغير الاستشهاد ٠٠

وفي هذه الآونة التي تتردد فيها هذه السقيقة في كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية الى ذكرى شهيدها الأكبر فنحني الرؤوس اجلالا « لأبي الشهداء » ٠٠

عباس محمود العقاد

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان : مزاج يعمل أعماله للأريحية (١) والنخوة ، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة ·

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال ··

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة ، وتقترن المنفعة بالأريحية ، ولكنهما اذا اصطدما ــ ولا سيما في الأعمال الكبيرة ــ لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين · فهذا للأريحية حتى يجب (٢) المنفعة ويخفيها ، وهــذا للمنفعــة حتى يجب الأريحية ويخفيها ··· أو كذلك يتراءيان ·

وأصحاب المطالب الكبرى في التاريخ يعتمدون على هــذا المزاج كما يعتمدون على ذاك ·· فمنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى ، ومنهم من يتوسل الى الناس بما فيهم من طموح الى النبل والنجــدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر في سبيل العظائم ··

ولكل منهما سبيله الى النفوس وأمله في النجاح على حسب الأوقات والبيئات ··

الا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنة من سنن الخلق التي لا تتبدل مع الأوقات والبيئات ··

لأن منفعة الانسان وجدت لفرد من الأفراد ··

أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الانساني كله · ومن ثم يكتب لها الدوام اذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك ··

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول ، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضي قدما اليها ، فينال المنفعة

---

(١) الاريحية : خصلة يرتاح بها المرء الى السخاء والكرم ·

(٢) جب الشيء : قطعه ·

التي لا ينالها صاحب الاريحية لأنه يتركها اذا اصطدمت بما هو أجل منها ٠

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه ٠٠

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحا اذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الافراد ٠ فاذا قيل أن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت ، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم ٠٠ ومن هنا يصح أن يقال ان الاريحية أبقى وأنجح اذا هي اصطدمت بالمنفعة الفردية ، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب ، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين ٠

وأصحاب الأريحية اذن أبعد نظرا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة ٠ لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير ٠ فهم — شعروا أو لم يشعروا — بعيدو النظر الى عواقب الأمور ، وان خيل الى أناس أنهم طائشون متهجمون ٠

* * *

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين ، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير ٠٠

فالذين يجنحون بمزاجهم الى المنفعة يفهمون أعذار المتنفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم ٠٠

والذين يجنحون بمزاجهم الى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذرا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق ٠

الا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه :

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه ٠

وان العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه واهماله ، اذ كان تركه مناقضا لصميم الفطرة التي من أجلها فطر الناس على الاعجاب بكل ما يستحق الاعجاب ٠

فليس يخشى على الناس يوما أن ينسوا منافعهم ويقصروا في خدمة أنفسهم ، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين •

ولكنهم يخسرون الأريحية اذا فقدوها وفقدوا الاعجاب بها والتطلع اليها ، وهي التي خلقت ليعجب بها الناس • لأن حرص الانسان على منفعته لا يغنيهم في حياتهم العامة أو في حياتهم الباقية • أما الأريحية التي يتجاوز بها الانسان نفسه في سبيل معنى من المعاني أو مثل عال من الامثلة العليا ، فهي الخليقة (١) النافعة للنوع الانساني بأسره ، وان جاز اختلافهم في كل معنى وفي كل مثال عال ••

صراع بين الأريحية والمنفعة

في ماضي الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التي وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد ••

ولكننا لا نحسبنا مهتدين الى نموذج لهذا الصدام أوضح في المبادىء وأهدى الى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معا من النموذج الذي عرضه لنا التاريخ في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن علي ، ويزيد بن معاوية •

قلنا في كتابنا « عبقرية الامام » فحواه ان الكفاح بين علي ومعاوية ، لم يكن كفاحا بين رجلين او بين عقلين وحيلتين •• ولكنه كان على الحقيقة كفاحا بين الامامة الدينية والدولة الدنيوية ، وان الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون الى هذه الدولة من حزب معاوية ، ولم يغلب الداعون الى الامامة من حزب الامام •

ولو حاول معاوية ما حاوله علي لأخفق وما أفلح ، ولو أراد علي أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئا عند محبيه ولا عند مبغضيه •

---

(١) الخليقة : الطبيعة •

فاذا جاز لأحد أن يشك في هذا الرأي ، وأن يرجع بنجاح معاوية الى شيء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز في الخلاف بين الحسين ويزيد • وكل ما يجوز هنا أن يقال ان أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الامامة على سنة الخلفاء الراشدين ، لأن مطالب الامامة غير مطالب الزمان •

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين • وانما هو الصراع بين الامامة والملك الدنيوي ، أو بين الأريحية والمنفعة في جولتهما الأولى ، ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة ••

* * *

بل لا يمكن أن يتملل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من « تقريره للنظام وحفظه للأمن العام » ••• فان يزيد لم يكن له فضل قط في قيام الدولة كما قامت على عهده وبعد عهده • وانما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين في بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها • وقد حدث بعد موت يزيد ان بويع ابنه معاوية الثاني بالشام ــ وكان من الزاهدين في الحكم ــ فنادى الناس الى صلاة جامعة ، وقال لهم : « أما بعد فاني قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ثم أوى الى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر ، وله مع هذا منافس قوي كعبد الله بن الزبير بالحجاز •

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية •• ورأي معاوية وأعوانه في هذا أسبق من رأي الطالبيين وخصوم الأمويين ، فقد ترددوا كثيرا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه • ولم يستحسنوا ذلك قبل ازجائهم (١) النصح الى يزيد غير مرة بالاقلاع عن عيوبه

(١) أزجى الرجل الشيء دفعه برفق •

وملاهيه • ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه في الخطاب ، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابا « يصغر اليه نفسه » •• قال : « وما عسيت أن أعيب حسينا ؟ ••• والله ما أرى للعيب فيه موضعا » •

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين علي ومعاوية ولا موضع لها في المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد • وتلك مـا يزعمونه من غلبة معاوية على « علي » بحجته في الاقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه في الدعوة السياسية ••

فهذه التعلة ان صلحت لتعليل نجاح معاوية ، فما هي بصالحة لتعليل نجاح يزيد ••

لان الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التي صاح بها معاوية في المطالبة بدم عثمان ، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة (١) العصبية المهتاجة ، ثم يساعدهم على ترديدها في مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرا بطلب الخلافة ولا متعرضا لمزاحمة أحد على البيعة ، وانما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه ، ولا يزيد في دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة •

* * *

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان ، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء ، وان معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده ، وليس هو من أهل الرأي ولا هو من أهل السلاح ولا هو ممن تتفق عليه اراء هؤلاء ، لكنه فتى عربيد يقضي ليله ونهاره بين الخمور والطنابير (٢) ، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان الا ليهرع الى الصيد فيقضي فيه الاسبوع بعد الاسبوع بين الأديرة والبوادي والآجام ، لا يبالي خلال ذلك تمهيدا للملك ولا تدريبا على حكم

(١) السورة : الحدة والشدة •

(٢) جمع طنبور بالضم وهو آلة للطرب ذات عنق طويل وستة أوتار من نحاس •

ولا استطلاعا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه ، ثقة بما صار اليه من التمهيد والتوطيد وما سوف يصير ۰

فكل خلاف جاز في المفاضلة بين علي ومعاوية غير جائز في المفاضلة بين الحسين ويزيد ۰۰ وانما الموقف الحاسم بينهما ، موقف الأريحية الصراح في مواجهة المنفعة الصراح ۰ وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه ، فانتصر الحسين بأشرف ما في النفس الانسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة ، وانتصر يزيد بأرذل ما في النفس الانسانية من جشع ومراء وخضوع لصغار المتع والأهواء ۰

أقام الحسين ليلته الاخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات ، فاذن لاصحابه أن يتفرقوا عنه تحت الليل ان كانوا يستحيون أن يفارقوه في ضوء النهار ۰ فأبوا الا ان يموتوا دونه ، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدي : « أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في اداء حقك ؟ ۰۰ أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما بقي قائمه (١) بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك » ۰ وقد بر بقسمه وبقي ومات ۰۰ ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه ، فقال له : « لولا اني أعلم اني في أثرك لاحق بك لأحببت أن توصيني حتى احفظك بما أنت له أهل » ، فقال وكان آخر ما قال : « أوصيك بهذا ـ رحمك الله ـ أن تموت دونه » وأومأ بيده نحو الحسين ۰

***

وقتل الحسين ۰۰ وذهب الأمل في دولته ودولة الطالبيين من بعده الى أجل بعيد ، ولكنه كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها ۰۰

فلما نعي الحسين في الكوفة نادى واليها ابن زياد الى الصلاة الجامعة ۰ وصعد الى المنبر ، وخطب القوم فقال : « الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية

---

(١) قائم السيف : مقبضه ۰

وحزبه ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن علي وشيعته » ٠

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدي الذي ذهبت احدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين ٠ فصاح بالوالي غداة يوم انتصاره وزهوه : « يا ابن مرجانة !٠٠ أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟٠٠ انما الكذاب أنت وأبوك والذي ولاك وأبوه » ٠

فما طلع عليه الصباح الا وهو مصلوب ٠٠

الى هذا الأفق الآعلى من الاريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الانسانية نصرة الحسين ٠

والى الاغوار المرذولة من الخسة والاثرة هبطت بالنفس الانسانية نصرة يزيد ٠٠ وحسبك من خسة ناصريه ، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو « المدينة » النبوية واستباحة ذمارها (١) فيسرعون الى الجزاء ٠٠ يسرعون اليه وليسوا هم بكافرين بالنبي الدفين في تلك المدينة ، فيكون لهم عذر الاقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم !٠٠

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب في كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه ، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب !٠٠ ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده ، لكانوا في شرعة المروءة أقل خسة من ذاك ٠

٠ وتتقابل وسائل النجاح في المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات ٠٠

فكان شعار معاوية وأشياعه : « ان لله جنودا من العسل » وهو يعني العسل الذي يداف (٢) بالسم ليخلي طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء ٠ فكثرت روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن علي والأشتر النخعي بهؤلاء

(١) الذمار : بالكسر : كل ما يلزمك حمايته وحفظه كالحرم والاهل وان ضيعته لزمك اللوم فيه ٠

(٢) داف الدواء : خلطه بالماء ٠

الجنود ! ٠٠ وأعجب منها ما قيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد ، وقد كان نصيرا لمعاوية في حروب الشام ٠٠ فانه مات مسموما على ما اشتهر من الروايات ، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد ٠٠ وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد ، فقتلوا طبيب معاوية « ابن أثال » الذي اتهموه بسمه في الدواء ٠

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة ، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم من قريب ٠ فقد كان هانىء ابن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه ، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل أنه «اذا صرخ لباه منهم ألف سيف» ٠ فزاره عبيد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة ـ ليعوده في بعض مرضه ويتألفه ويستميله اليه ٠ وقيل ان هانئا عرض على مسلم بن عقيل بن أبي طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده ، وقيل ان الذي عرض ذلك رجل من صحبة هانىء المقربين ٠ فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك ، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالي ، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه ، وقال : « انا أهل بيت نكره الغدر » ٠ ولو أنه بطش بابن زياد ، لقد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد ٠٠

وليقل من شاء أن قتل ابن زياد كان صوابا راجحا ٠٠

وأن التحرج من قتله كان خطأ فادحا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق ، فالذي لا يشك فيه أنه ان كان صوابا فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون ، وان كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذي لا يستطيعه الا القليلون ٠٠

كذلك يقول من يقول ان الأريحية التي سمت اليها طبائع أنصار الحسين ، انما هي أريحية الايمان الذي يعتقد صاحبه أنه يموت في نصرة الحسين فيذهب لساعته الى جنات النعيم ٠٠ فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الانسان الى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وايمان ٠ وينسون ان المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التي يصاب من جرائها الفرد طوعا أو كرها في خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها ،

فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين ؟٠٠ انهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الايمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التي يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون (١) بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة ٠ فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعا بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة في الأريحية والفداء ، ومرجع الأمر اذن في آخر المطاف الى فرق واضح بين طبائع الاريحيين وطبائع النفعيين ٠

وكذلك يقول من يقول ان الأريحية في نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه الى يومه الأخير ٠٠ وينسى هؤلاء ان الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة ، وأن الغور ليسبر في مكان واحد كما يسبر في كل مكان ، وانما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذي تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات ، ولا تطيقه نفوس الأكثرين ٠٠

فمدار الخلاف اذن في هذه الجولة التاريخية انما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائنا ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية ، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز (٢) كما تلاقيا عامة في النزاع بين الطالبيين والأمويين ، وخاصة في النزاع بين الحسين ويزيد ٠

فحياة الحسين رضي الله عنه صفحة ، لا صفحة تماثلها في توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح في كفاح الحياة ، سواء نظرنا الى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب ٠

---

(١) قدع الرجل صاحبه : منعه وكفه ٠ والفرس : كبحه ٠

(٢) تناجز القوم : ألحوا في القتال وتسافكوا دماءهم ٠

اسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين ، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال ، وكان هذا التنافس بينهما يرجع الى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين : من العصبية ، الى الترات (١) الموروثة ، الى السياسة ، الى العاطفة الشخصية ، الى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير ..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية .. فخرج أمية ناقما الى الشام وبقي هاشم منفردا بزعامة بني عبد مناف في مكة . فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين : هؤلاء يعتصمون بالشام ، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز ..

ثم علا نجم « أبي سفيان بن حرب بن أمية » في الحجاز ، فأصبحت له زعامة مرموقة الى جانب الزعامة الهاشمية . فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته ، فكان في طليعة المحاربين للدعوة الجديدة . وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبي سفيان أصبع ظاهرة في تأليب القبائل وجمع الأموال . وشاءت المصادفات زمنا من الازمان أن يظل وحده على زعامة قريش في حربها للنبي عليه الصلاة والسلام . فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم ، ودان زعماء تيم وبني عدن وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالاسلام ، وبقي أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية في منازلة النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وبلغ من تغلغل العداء في هذه الأسرة للنبي عليه الصلاة والسلام ، أن أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه في الكيد له والتأليب عليه ، وانما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب ، أخت أبي سفيان التي وصفها

---

(١) جمع ترة بكسر ففتح : الثأر .

القرآن بأنها « حمالة الحطب كناية عن السعي في الشر وتأريث (١) نار البغضاء ..

ثم فتحت مكة ، فوقف أبو سفيان ينظر الى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب : « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما » .. فلما قال العباس : « انها النبوة ! » : قال : « نعم اذن ! .. » .

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة ، وكان اسلام بيته أعسر اسلام عرف بعد فتحها . فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح في القوم بعد اسلامه : « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لا خير فيه .. قبح من طليعة قوم .. هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ! .. » .

وظل أبو سفيان الى ما بعد اسلامه زمنا يحسب غلبة الاسلام غلبة عليه ، فنظر الى النبي مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه : « ليت شعري (٢) بأي شيء غلبني ! » فلم يخف عن النبي عليه السلام معنى هذه النظرة ، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له : « بالله ، غلبتك يا أبا سفيان ! » ..

وكان في غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول : « ما أراهم يقفون دون البحر ! » وقيل انه كان في حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم : « ايه بني الأصفر » ، فاذا تراجعوا عاد فقال : « ويل لبني الأصفر ! » .

وقد تألفه النبي عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها ، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرما « من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن » وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم في العطاء عسى أن يذهب ما في نفوسهم من الكراهة لغلبة الاسلام ..

ومع هذا كان المسلمون يوجسون (٣) منه فلا ينظرون اليه ولا يقاعدونه ، حتى برم (٤) بذلك وأحب أن يمسح ما

(١) أرث النار : أوقدها .

(٢) ليت شعري : ليتني أعلم . (٣) أوجس الرجل من فلان : وقع في نفسه الخوف منه . (٤) برم بالشيء : ضجر منه .

بصدورهم من قبله •• فتوسل الى النبي أن يجعل معاوية كاتبا بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين •

ثم قبض النبي عليه السلام ، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى •• فاشرأب أبو سفيان الى هذه الفتنة ، وخيل اليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها الى السيادة على قريش ، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الاسلامية بأسرها •• فدخل على « علي » والعباس ، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما في وسعه من خيل ورجل • فنادى بهما : « يا علي ! وأنت يا عباس ! • ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ والله لو شئت لأملأنها عليه ــ على أبي بكر ــ خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها » ••

وهو لا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بني هاشم ، ولا كان يسره أن تصير الخلافة اليهم فتستقر فيهم قرارا لا طاقة له بتحويله •• ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء ••

فلم يخف مقصده هذا على « علي » رضي الله عنه ، وقال : « لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه واياها » • ثم أنبه قائلا : « يا أبا سفيان ! •• ان المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ، وان المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض • متخاونون وان قربت ديارهم وأبدانهم » •

وانقضت خلافة أبي بكر وخلافة عمر والأمور تجري في مجراها الذي يأخذ على المطامع سبيلها ، ويخيف أصحاب الفتن أن يبرزوا بها من جحورها ••

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار ، لأنه رأس من رؤوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم ، وأصبحت الدولة الاسلامية أموية لا يطمع في خيراتها ولا ولاياتها الا من كان من أمية أو من حزبها • فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر

الناس ، ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام يجتذب اليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف ٠

فلما قتل عثمان رضي الله عنه كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين ، ومال السلطان الى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين ٠

لا جرم (١) كان الصراع بعد ذلك صراعا معروف النهاية من مطلع البداية ، فقتل علي بن أبي طالب غيلة (٢) وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ٠٠

ثم بايع أناس من أهل العراق وفارس الحسن بن علي ، فلم يستقم له أمرهم وضاق صدره جدالهم ومحالهم ، وكان رجلا سكيتا (٣) يكره المنازعة ويجنح الى العزلة ، فصالح معاوية على شروط ٠٠ وفّى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بمؤجلها ٠ وزاد على ذلك كما تواتر في شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه ، ووعدها أن يزوجها يزيد ويعطيها مائة ألف درهم ، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج ٠

وقد أوصى الحسن رضي الله عنه أن يدفن عند قبر جده الا أن تخاف فتنة ٠ فلما توفي أرادوا دفنه حيث أوصى ، فقام مروان بن الحكم وجمع بني أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه ٠٠ فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبي أن يدفن الى جوار جده ، فقيل له : « ان أخاك قال اذا خفتم الفتنة ففي مقابر المسلمين سعة ٠ وهذه فتنة » ٠٠ فسكت على مضض ٠

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوي أن يجعلها دولة أموية متعاقبة في ذريته من بعده ، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه ، الا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضي بنيته الى أقرب

---

(١) لا جرم في الاصل بمنزلة (لا بد) ثم تحولت الى معنى القسم فصارت بمنزلة (حقا) ٠ (٢) قتله غيلة أي أهلكه على غرة (٣) سكيت بوزن كميت وتشدد الكاف : آخر خيل السباق ٠

المقربين اليه ، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده ، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل الى ذلك بما طاب له من وسيلة ٠٠ فلباه أهل الشام وكتب بيعته الى الآفاق ، ثم همه أمر الحجاز فكتب الى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد ، فأبى مروان وأغرى رؤوس قريش بالاباء ، لأنه كان يتطلع الى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد ، لما اشتهر به من نقص وعبث ٠٠ فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه ، فلم يجبه أحد الى ما أراد ٠ فكتب معاوية الى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله ابن جعفر ، والحسين بن علي ، وأمر عامله سعيدا أن يوصل كتبه اليهم ويبعث اليه بجواباتها ٠ وقال لسعيد : « فهمت ما ذكرت من ابطاء الناس ، وقد كتبت الى رؤسائهم كتبا فسلمها اليهم ٠٠ ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك ، وعليك بالرفق ٠ وانظر حسينا خاصة فلا يناله منك مكروه ، فان له قرابة وحقا عظيما لا ينكره مسلم ولا مسلمة ٠٠ وهو ليث عرين ، ولست آمنك ان ساورته ألا تقوى عليه » ٠

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة في اقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة ، وخف معاوية الى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال ، ودعا بأولئك النفر فقال لهم : « قد علمتم سيرتي فيكم وصلتي لأرحامكم ، يزيد أخوكم وابن عمكم ، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه » ٠

فأجاب عبد الله بن الزبير ، وخيره بين أن يصنع كما صنع رسول الله اذ لم يستخلف أحدا ، أو كما صنع أبو بكر ، اذ عهد الى رجل ليس من بني أبيه ، أو كما صنع عمر اذ جعل الأمر شورى في ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه ٠

فقال معاوية مغضبا : « هل عندك غير هذا ؟ » ٠

قال : « لا » ٠

والتفت الى الآخرين يسألهم قائلا : « فأنتم ؟ » فوافقوا ابن الزبير ٠

فقال متوعدا : « أعذر من أنذر !•• اني كنت أخطب فيكم فيقوم الي القائم منكم فيكذبني على رؤوس فأحمل ذلك وأصفح، واني قائم بمقالة ••• فاقسم بالله لئن رد علي أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع اليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف الى رأسه ، فلا يبقين رجل الا على نفسه » •

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف ، وقال له : « ان ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما » •

ثم خرج بهم الى المسجد ورقي المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـ هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبرم أمر دونهم ولا يقضى الا على مشورتهم ، وانهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله •

فبايع الناس ••

وهكذا كانت البيعة ليزيد في الحجاز ••

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها •• فأوصى ابنه « انه لا يخاف الا هؤلاء من قريش : الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير » • قال : « فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته (١) العبادة واذا لم يبق أحد غيره بايعك • وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه •• فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه ، فان له رحما ماسة وحقا عظيما •

« أما ابن الزبير فانه خب ضب (٢) ، فاذا أمكنته فرصة وثب •• فان هو فعلها فقدرت عليه ، فقطعه اربا اربا (٣) الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت » ••

---

(١) وقذ النعاس فلانا : غلبه ، وقذه الهم والمرض : هده وأضعفه •

(٢) الخب : بكسر الخاء وفتحها : الخداع ، والضب : الحقود ،

(٣) اربا اربا : عضوا عضوا •

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو الى يزيد في سنة ستين للهجرة ، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين ، ولكنه دون أنداده في تجارب الأيام ، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، وغيرهم من القروم (١) الذين كانوا حول أبيه ٠٠ فتهيب ما هو مقدم عليه ، وكتب الى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان : « أن خذ حسينا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » ٠

فبعث الوليد الى مروان بن الحكم يستشيره ٠٠ وكان مروان يريد الخلافة لنفسه ، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد ان الأمر اليوم أمر بني أمية ، فان خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين ٠ فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين : ظاهرها الشدة في الدعوة ليزيد وباطنها السعي الى الخلاص من يزيد ومنافسيه ٠ فقال : « أرى أن تبعث الساعة الى هؤلاء النفر فتدعوهم الى البيعة ٠ أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال ، ولكن عليك بالحسين وعبد الله بن الزبير ، فان بايعا والا فاضرب أعناقهما ٠٠ » ٠

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد ٠٠ ثم الخلاص من يزيد نفسه باثارة النفوس وايغار الصدور عليه !

وقد ذهب رسول الوليد الى الحسين وابن الزبير ، فوجدهما في المسجد ٠٠ فعلم الحسين ما يراد منه ، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح ، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد « ان دعوتكم أو سمعتم صوتي قد علا فاقتحموا علي بأجمعكم ، والا فلا تبرحوا حتى أخرج اليكم » ٠٠

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال : « أما البيعة فان مثلي لا يعطي بيعته سرا ، ولا أراك تقنع بها مني سرا » ٠

قال الوليد : « أجل ! » ٠

---

(١) جمع قرم بالفتح : السيد المعظم ٠

قال الحسين : « فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا » ٠

ثم انصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم ٠٠ وما هو الا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد : « عصيتني والله ! لا قدرت منه على مثلها أبدا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه » ٠

فأنكر الوليد لجاجته وقال له : « أتشير علي بقتل الحسين ! والله ان الذي يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله » ٠

وهكذا انتهت المنافسة بين بني أمية وبني هاشم الى مفترق طريق لا سبيل فيه الى توفيق ، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وان غلبها الاسلام في عهد النبوة ، وفي عهد الصديق والفاروق ٠

وكفى بالاسلام فضلا في هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها ! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة ٠٠

وكثيرا ما يفلت المكبوح من عنانه ، وان طالت به الرياضة والانقياد ٠٠

فاتفق كثيرا في مساجلات شتى بين كبار الصحابة ، أن بدرت الى اللسان بوادر العصبية والنبي عليه السلام حاضر ، فلما أشار عمر بقتل أبي سفيان ــ على خلاف رأي العباس في استبقائه وتألفه ــ قال العباس : « مهلا يا عمر ! فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا ٠٠ ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف » ٠

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة ، ثار به سعد بن عبادة وصاح به : « كذبت لعمر الله ! ما تضرب أعناقهم ٠ أما والله ما قلت هذه المقالة الا انك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ــ الأوس ــ ما قلت هذا ٠٠ » ٠

وقد مات الفاروق وهو يوصي عليا فيقول : « اتق الله يا علي ان وليت شيئا فلا تحملن بني هاشم على رقاب المسلمين » ٠٠

ثم يلتفت الى عثمان فيقول له : « اتق الله ان وليت شيئا فلا تحملن بني أمية على رقاب المسلمين » ··

ومن عجائب الحيل التي تحاول بهـا الغرائز الانسانية أن تبقي وجودها وتمضي لطيتها (١) ، أن بني أمية انتفعوا من حرب الاسلام للعصبية في تعزيز عصبيتهم ، فجعلوها حجة على بني هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون ·· واذا نهضت هذه الحجة على بني هاشم ، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف !

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة في هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبي سفيان ، فكان يلطف القول الى أبناء علي ويواليهم بالهدايا والمجاملات ، ولكنه كان مضطرا الى مجاملة آل علي ومضطرا الى تنقص علي والغض من دعواه · فكان بذلك مضطرا الى النقيضين في آن ·

انه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال ، مغلوب بالسمعة والشعور · فكان الناس يفضلون عليا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقرابة النبي ، ولا بالسابقة الى الاسلام ، ولا بالعراقة في قريش · فتجنب النسب والسابقة ، وعمد الى شخص علي في منازعات الخلافة ، فاتهمه بتفرقـة الكلمة بين المسلمين ، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التي هو مغلوب بها ويستبقي الدولة التي هو بها غالب ·· ولج في ذلك حتى قتـل أناسا لم يطيعوه في لعن علي واتهامه ، وأبى أن يجيب الحسن بن علي الى شرطه الذي أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه ··· وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورا من حيث حارب عليا في مقام السمعة والشعور ··

وان مجاملة كهذه التي تحيي الرجل وتغض من قدر أبيه لهي أضعف مجاملة بين متلاقيين ، فضلا عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال الى مفترق الطريق ·

---

(١) الطية بالكسر : المقصد والجهة والمنزل الذي يقصده الرجل ·

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفي قصاص التاريخ ، فأضاف اليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى هي وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين · وهي قصة زواج الحسين رضي الله عنه بزينب بنت اسحق التي كان يهواها يزيد هوى أدنفه (١) وأعياه ·

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال ، وكانت زوجة لعبد الله بن سلام القرشي والي العراق من قبل معاوية ·

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله ، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته ·· فلما علم أبوه سر مرضه أرسل في طلب عبد الله بن سلام واستدعى اليه أبا هريرة وأبا الدرداء ، فقال لهما ان له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلا غير ابن سلام ، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية في تكريمه وتقريبه · فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية في خطبة ابنته ، فوكل معاوية الأمر الى أبي هريرة ليبلغها ويستمع جوابها · فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله · فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده ·· فاذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته انها توجس من رجل يطلق زوجته وهي ابنة عمه وأجمل نساء عصره ··

وقيل ان الحسين سمع بهذه المكيدة ، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطبا ·· فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب : « انك لا تعدمين طلابا خيرا من عبد الله بن سلام » ·

قالت : « من ؟ » قال : « يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه في الرجال » ·

---

(١) أدنف المرض فلانا : أثقله ·

واستشارته في اختيار أيهما ، فقال : « لا أختار فم أحد على فم قبّله رسول الله ، تضعين شفتيك في موضع شفتيه » .

فقالت : « لا أختار على الحسين بن علي أحدا وهو ريحانة النبي وسيد شباب أهل الجنة » .

فقال معاوية متغيظا :

أنعمي أم خالد رب ساع لقاعد

ولم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا : « ما أدخلتها في بيتي وتحت نكاحي رغبة في مالها ولا جمالها ، ولكن أردت احلالها لبعلها » .

فان صحت هذه القصة وهي متواترة في تواريخ الثقات ، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين ، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل في هذه الخصومة ، لا يقبل الارجاء ، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق ..

* * *

موازنة

لخص المقريزي المنافسة بين الهاشميين والأمويين في بيتين فقال :

عبد شمس قد أضرمت لبني ها
شم حربا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى ، وابن هند
لعلي ، وللحسين يزيد

وسنعرض في ختام هذا الفصل عرضا موجزا لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأي فيها ، ولكننا نجتزىء هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس في شخصي الحسين ويزيد .. فأيا كان الميزان الذي يوزن به كل من الرجلين فلا مراء البتة في خير الرجلين ..

وما من رجل فاز حيث ينبغي أن يخيب ، كما قد فاز يزيد بن معاوية في حربه للحسين ، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقا وأظهر فضلا من الحسين في خصومته ليزيد بن معاوية .

والموازنة بين هذين الخصمين هي في بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين ، وهي موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون ، فلم يظهر في هذه القرون أموي قح ، الا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة في القبيلة بأسرها ، ولم يظهر في خلالها هاشمي قح ، الا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التي بلغت مثلها الأعلى في محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .

والهاشميون والأمويون من أرومة (١) واحدة ترتفع الى عبد مناف ، ثم الى قريش في أصلها الأصيل ..

(١) الارومة : أصل الشجرة ، وتستعار للحسب .

ولكن الأسرتين تختلفان في الاخلاق والامزجة وان اتحدتا في الأرومة ··· فبنو هاشم في الاغلب الأعم مثاليون آريحيون ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء ، وبنو أمية في الاغلب الأعم عمليون نفعيون ، ولا سيما الاصلاء منهم في عبد شمس من الآباء والأمهات ·

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير ·· فان الأخوين في البيت الواحد قد يختلفان في الاخلاق والاعمال ، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين ، تبعا لاختلاف سلسلة الميراث في الأصول والفروع ، على ذلك النحو الذي يأذن أحيانا باختلاف الألوان والملامح في نسل واحد ، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحي الوراثة ·

ومن الثابت الذي لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى في الصورة والقامة والملامح ··

وفي نسل أمية شبهة نشير اليها ولا نزيد ، فهي محل الاشارة والمراجعة في هذا المقام ··

دخل دغفل النسابة على معاوية فقال له : « من رأيت من علية قريش ؟ » · فقال : « رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية ابن عبد شمس » · فقال : « صفهما لي » · فقال : « كان عبد المطلب أبيض ، مديد القامة ، حسن الوجه ، في جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب » ·

: « فصف أمية » قال : « رأيته شيخا قصيرا ، نحيف الجسم ضريرا ، يقوده عبده ذكوان » فقال معاوية : « مه ! ·· ذاك ابنه أبو عمرو » · فقال دغفل : « ذلك شيء قلتموه بعد وأحدثتموه ·· وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به » ·

وذكر الهيثم بن عدي في كتاب المثالب أن أبا عمرو بن أمية كان عبدا لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه ، ونقل أبو الفرج الأصفهاني ــ وهو من الأمويين ــ ما تقدم فلم يعرض له بتسنيد (١) ··

ووضح الفرق بين بني هاشم وبني أمية في الخلائق والمناقب

---

(١) التفنيد : الابطال والتكذيب

في الجاهلية قبل الاسلام · فكان الهاشميون سراعا الى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه ·· ولم يكن بنو أمية كذلك ·· فتخلفوا عن حلف الفضول الذي نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم ، وهو الحلف الذي اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش « ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا اليه حقه ، وليأخذن أنفسهم بالتآسي (١) في المعاش والتساهم في المال ، وليمنعن القوي من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب » واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص ابن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدي ولواه بثمنها ، فنصروا الرجل الغريب على القرشي وأعطوه حقه ··

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية الى نفيل بن عدي ، قضى لعبد المطلب وقال لحرب :

أبوك معاهر وأبوه عف ... وداد الفيل عن بلد حرام

يشير الى فيل أبرهة الذي أغار به على مكة · وقال عن أمية انه « معاهر » لأنه كان يتعرض للنساء ، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بني زهرة · وكان له تصرف عجيب في علاقات الزواج والبنوة ، فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته في حياته ، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع ·

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر في اختلاف النشأة والعادة – مع اختلاف الخلقة الجسدية – فنرى أنهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ··

فقد كان بنو هاشم يعملون في الرئاسة الدينية ، وبنو عبد شمس يعملون في التجارة او الرئاسة السياسية ·· وهما ما هما في الجاهلية من الربا والمماكسة (٢) والغبن والتطفيف (٣) والتزييف ، فلا عجب أن يختلف هذا الاختلاف بين أخلاق

(١) تآسى القوم : عزى بعضهم بعضا

(٢) ماكس المشتري البائع : طلب منه حط الثمن (٣) نقص المكيال ·

الصراحة وأخلاق المساومة ، وبين وسائل الايمان ووسائل الحيلة على النجاح ٠

ويتفق كثيرا في الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء ، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة ، ومظاهر العبادة ، ويتخذونها صناعة يرجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء ٠٠

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين، ولا كانوا من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت ، وبلغ من ايمانهم بدينهم أن عبد المطلب ــ جد النبي عليه السلام ــ أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر « لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة » ، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمي القداح ثلاث مرات ٠

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التي يدين أصحابها بما يدعون اليه ٠٠ فان لم تكن في بني هاشم موروثة من معدن أصيل في الأسرة ، فهي أشبه بسمت (١) الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة والشعائر المتبعة جيلا بعد جيل ، وهي أخلق أن تزداد في الأسرة تمكنا بعد ظهور النبوة فيها ، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبي وأقرب الناس اليه ٠٠

وانك لتنحدر مع أعقاب الذرية في الطالبيين ــ أبناء علي والزهراء ــ مائة سنة وأربعمائة سنة ، ثم يبرز لك رجل من رجالها فيخيلُ اليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله في الخصال والعادات ٠٠ كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين ، ولا تلبث أن تهتف عجبا : ان هذه لصفات علوية لا شك فيها ، لانك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه ، وتراه يعمل ويجزي من عمل له ، فلا تخطىء في كلامه ولا في عمله تلك الشجاعة والصراحة ، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت ، ولا تلك اللوازم التي اشتهر

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير ٠

بها علي وآله وتجمعها في كلمتين اثنتين تدلان عليهـا أوفى دلالة ، وهما : « الفروسية والرياضة » ..

طبع صريح ، ولسان فصيح ، ومتانة في الأسر (١) يستوي فيها الخلق والخلق . ونخوة لا تبالي ما يفوتها من النفع اذا هي استقامت على سنة المروءة والاباء ..

فمن يحيى بن عمر ، الى علي بن أبي طالب ، خمسة أو ستة أجيال .. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك ، فاذا هو صورة مصغرة من صور علي بن أبي طالب على نحو من الانحاء ، فمن أوصافه التي وصفه بها الكاتب الأموي أبو الفرج الأصبهاني انه كان « رجلا فارسا ، شجاعا ، شديد البدن ، مجتمع القلب بعيدا عن رهق (٢) الشباب وما يعاب به مثله » .

ومما روي عنه « انه كان مقيما ببغداد ، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه في منزله ، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه .. فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضي الله عنه » .

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته في بيت المال ، كان يجوع ويعرض عليه الطعام فيأباه ويقول : « ان عشنا أكلنا » .

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد ، فأقبلت عليهم الجموع المحشودة لقتاله ، وأسرع اليه بعض الأعراب فصاح به : « أيها الرجل ، أنت مخدوع .. هذه الخيل قد أقبلت » .. فوثب الى متن فرسه فجال به ، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه .. فولى منهزما وتبعه أصحابه ، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالي ما يكون .

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك ، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلي انه كان مدسوسا عليه ، وانه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال . فأقسم الرجل بالطلاق انه لم يكن له في الهزيمة صنع مدبر .. قال : « وانما كان يحيى يحمل وحده ويرجع ، فنهيته عن ذلك فلم يقبل .. وحمل مرة كما كان يفعل ، فبصرت عيني به وقد صرع في وسط عسكرهم ، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابي » .

(١) القوة وشدة الخلق .

(٢) الرهق بفتحتين : غشيان المحارم ، والسفه والاثم .

ويحيى الشهيد هذا هو الذي قال ابن الرومي جيميته المشهورة في وصف قتاله ومقتله ، وهي طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه :

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم
غداة التقى الجمعان والخيل تمعج (١)
لأعطى يد العاني أو ارتد هاربا
كما ارتد بالقاع الظليم (٢) المهيج
ولكنه ما زال يغشى بنحره
شبا (٣) الحرب حتى قال ذو الجهل :.أهوج
وحاشى له من تلكم غير أنه
أبى خطة الأمر الذي هو أسمج
وأين به عن ذاك ؟ .. لا أين ـ انه
اليه بعرقيه الزكيين محرج
كأني به كالليث يحمي عرينه
وأشباله لا يزدهيه المهجهج
كدأب علي في المواطن قبله
ـ أبي حسن ـ والغصن من حيث يخرج
كأني أراه اذ هوى عن جواده
وعفر (٤) بالترب الجبين المشجج
فحب به (٥) جسما الى الأرض اذ هوى
وحب به روحا الى الله تعرج

وقد أصاب ابن الرومي الوصف والتعليل ، فما كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبله الا عليا صغيرا يتأسى بعلي الكبير ، أو غصنا زاكيا يخرج من دوحته الكبرى ، « والغصن من حيث يخرج » كما قال ، ولولا قوة هذه الطبائع في أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال. فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال ـ وهو بعموده الحديدي وجرأته التي لا تتزعزع ويقينه الذي لا يلوي به

(١) معج الفرس : أسرع سيره في سهولة . (٢) ذكر النعام .
(٣) الشبا جمع شباة وهي حد طرف الشيء .
(٤) عفره بالتراب : مرغه . (٥) حب به : ما أحبه .

الاغراء والوعيد ـ كأنما هو نسخة من جده الكبير الذي يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال ، وينهد لعمرو بن ود وقد تهيبه مئات الأبطال ، ويتوسط الصفوف حاسرا وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال ..

ولم يكن لبني أمية ـ على نقيض هذا ـ نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية ، ولا كان ظهور النبوة في أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها . بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفي الى صفات تقابل تلك الصفات ، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا .. فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التي دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السياسية . فاشتهر أناس من رؤوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء ، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والاقبال على الترف ومناعم الحياة .

ولقد تقابل الحسين بن علي ويزيد بن معاوية في تمثيل الأسرتين ، كما تقابلا في كثير من الخلائق والحظوظ .. ولكنهما تفاوتا في تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا في غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما . فكان الحسين بن علي نموذجا لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجا لأفضل المزايا الأموية ، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة الا القليل .

وليس لنا هنا أن نفصل القول في أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين ، ولكننا نجتزىء منهما بما يملأ الكفتين في هذا الميزان ، وهو ميزان الأريحية والنفعية في حادث كبير من حوادث التاريخ العربي يندر نظيره في جميع التواريخ .

* * *

مكانة الحسين

واذا كانت المعركة كلها هي معركة الأريحية والنفعية ، فالمزية الأولى التي ينبغي توكيدها هنا للحسين بن علي رضي الله

عنه هي مزية نسبة الشريف ومكانه من محبة النبي عليه الصلاة والسلام ..

ان المؤرخ الذي يكتب هذا الحادث قد يكون عربيا مسلما أو يكون من غير العرب والمسلمين ، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمدا وغيره من الأنبياء .. ولكنه يخطىء دلالة الحوادث التاريخية اذا استخف بهذه المزية التي قلنا انها أحق مزايا الحسين بالتوكيد في الصراع بينه وبين يزيد .

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف في نفوسهم أو قيمته في علوم العلماء وأفكار المفكرين ، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف في الرعاية والمحبة ، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانو ن حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين ..

لا هذه المزية في الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية وا مية عند الفريقين ، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من جين مختلفين ، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التي مفت النفس الانسانية في جانبين منها قويين ، يتنازعان حوادث لأمم والأفراد من زمان بعيد ، وسيظلان على نزاعهما هذا الى زمان بعيد .

ولقد كان الحسين بن علي بهذه المزية أحب انسان الى قلوب المسلمين ، وأجدر انسان أن تنعطف اليه القلوب .

كان النبي عليه السلام هو الذي سماه ، وسمى من قبله أخاه .. قال علي رضي الله عنه : « ولما ولد الحسن سميته حربا فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) . فقال : (بل هو حسن) . فلما ولد الحسين سميته حربا ، فجاء رسول الله فقال : (أروني ابني .. ما سميتموه ؟) . قلت : (حرب !) فقال : (بل هو حسين) .. » .

وذهب الى الحسين واخوته كل ما في فؤاد النبي عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله . فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما ، ولا يحب أن يستمع الى بكاء منهما في طفولتهما ، على كثرة ما يبكي الأطفال الصغار . وخرج من بيت عائشة يوما ، فمر على بيت فاطمة فسمع حسينا يبكي ، فقال : « ألم تعلمي أن بكاءه يؤذيني ؟ » .

وكان يقول : « ادعي الي ابني » ٠٠ فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين ٠ وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع (١) لسانه للحسين ، فيرى الصبي حمرة لسانه فيهش اليه ، وكان عيينة بن بدر ، شهده في بعض هذه المجالس فقال متعجبا : « يصنع هذا بهذا ؟ فوالله ان لي الولد وما قبلته قط ! » قال عليه السلام : « من لا يرحم ، لا يرحم ؟ » ٠

وخرج ليلة في احدى صلاتي العشاء وهو حامل حسنا أو حسينا ، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة ، قال راوي الحديث : « فرفعت رأسي فاذا بالصبي على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت الى سجودي ، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله : انك سجدت بين ظهري صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى اليك ٠٠ » قال : « كل ذلك لم يكن ٠٠ ولكن ابني ارتحلني (٢) فكرهت أن أعجله ٠٠ » ٠

وقام عليه السلام يخطب المسلمين ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ٠٠ فنزل عليه السلام من المنبر ، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال : « صدق الله !٠٠ (انما أموالكم وأولادكم فتنة) ٠٠ نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما » ٠

ولا يوجد مسلم في العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم ، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذي غمر به قلبه الكريم سبطيه وأحب الناس اليه ٠٠ فبهذا الحنان النبوي قد أصبح الحسين في عداد تلك الشخوص الرمزية التي تتخذ منها الأمم والملل عنوانا للحب ، أو عنوانا للفخر ، أو عنوانا للألم والفداء ٠٠ فاذا بها محبوب كل فرد ومفخرته ، وموضع عطفه واشفاقه ، كانما تمت اليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة ٠٠

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان ــ مع الزمن ــ مبلغه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه في حمله وولادته

(١) دلع لسانه : أخرجه ٠ (٢) ارتحل الرجل بعيره : شد عليه الرحل وعلاه ٠

ورضاعه بمواليد المعجزات • فقال بعضهم : « لم يولد مولود لستة أشهر وعاش الا الحسين وعيسى بن مريم » • وقال آخرون انه رضي الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى « واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد ، فكان يأتيه فيلقمه ابهامه فيمصه ويجعل الله في ابهام رسوله رزقا يغذيه ، ففعل ذلك أربعين يوما وليلة ، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله •• » •

وروي عنه غير ذلك كثير من الأساطير التي تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التي تعزها وتغليها فتلتمس لها مولدا غير المولد المألوف ، والنشأة المعهودة ، وتلحقها أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات ••

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤا لتلك الصورة الرمزية التي نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة •

فكان ملء العين والقلب في خلق وخلق ، وفي أدب وسيرة ، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه •• الا أنه كان في شدته أقرب الى أبيه • قال رضي الله عنه مشيرا الى الحسن : « ان ابني هذا سيخرج من هذا الأمر ، أشبه أهلي بي الحسين » • واتفق بعض الثقات على أن « الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبي ، وعلى الحسين الشدة كعلي » •

* * *

صفات الحسين

وقد تعلم في صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية ، واليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التي يعولون عليها ويردونها الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه •

وقد أوتي ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال ايماء • ومن كلامه المرتجل قوله في توديع أبي ذر وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام : « يا عماه ! ان الله قادر أن يغير ما قد ترى • والله كل يوم في شأن • وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك ، وما أغناك عما

منعوك وأحوجهم الى ما منعتهم ، فاسأل الله الصبر والنصر ، واستعذ به من الجشع والجزع ، فان الصبر من الدين والكرم ، وأن الجشع لا يقدم رزقا والجزع لا يؤخر أجلا » ٠

وكان يومئذ في نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا الى أن فارقها في مصرع كربلاء ٠

وتواترت الروايات بقوله الشعر في أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيتية ، ومن ذلك هذه الأبيات :

اغن عن المخلوق بالخالق
تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله
فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه
فليس بالرحمن بالواثق

ومنه هذان البيتان في زوجته وابنته :

لعمرك انني لأحب دارا
تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل ما لي
وليس لعاتب عندي عتاب

وهما ــ سواء صحت نسبتهما اليه أو لم تصح ــ معبران عن خلقه في بيته وبين أهله ، فقد كان من أشد الآباء حدبا على الأبناء وأشد الأزواج عطفا على النساء ، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التي ذكرت في البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت : « ما كنت لأتخذ حما (١) بعد رسول الله » ٠٠ وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت ، وهي لا تفتر عن بكائه والحزن عليه ٠٠

خلق كريم

وقد سن الحسين لمن بعده سنة في آداب الأسرة تليق بالبيت

(١) حمو المرأة : أبو زوجها ٠

الذي نشأ فيه ووكل اليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره ، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن في مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمـع الى رأي الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة • فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضى من الحسين • فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : « والله لقد هممت أن أسجنك في بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضي بشأني هـذا وأفرغ منه ثم أخرجك •• » •

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ••

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايـا الأبوة انـه ركبه دين فساومه معاوية بمائتي ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين « أبي بيزر » فأبى أن يبيعها مع حاجته الى بعض ما عرض عليه ـ لأن أباه تصدق بمالها لفقراء المدينة ، ولو أنه باعهـا لوقفها معاوية على أولئك الفقراء •

وقد أخذ نفسه بسمت الوقار في رعاية أسرته ورعاية الناس عامة •• فهابه الناس وعرف معاوية عنه هذه المهابة فوصفـه لرجل من قريش ذاهب الى المدينة فقال : « اذا دخلت مسجـد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله مؤتزرا الى أنصاف ساقيه •• » •

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم و بصرهم بشؤون دينهم ، الا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله في جواب ذلك أشباه تلك القوارص التي كانت تؤثر عن أبيه •

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين •

فمن آدابه وآداب أخيه في ذلك أنهما رأيا اعرابيا يخفـف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له : « نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا ، فنتوضأ ونصلي عندك ، فان كان عندنا قصور تعلمنا » • فتنبه الشيخ الى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما اليه • ومر يومـا بمساكين يأكلون فدعوه الى الطعام على عـادة العرب ، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم : « قد أجبتكم فأجيبوني » ودعاهم الى الغداء في بيته •

وروريت الغرائب في اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب في امتحان قدرة أبيه عليهما السلام ‧‧ فقيل ان اعرابيا دخل المسجد الحرام فوقف على الحسن رضي الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه ، فقال لما عرفوه به : « اياه أردت ‧‧ جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية » ‧ فقال له بعض جلسائه : « ان كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب » ‧ وأومأ الى الحسين عليه السلام ، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال : « اني جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم » فتبسم الحسين وقال :

ـ يا اعرابي ! ‧‧ لقد تكلمت بكلام ما يعقله الا العالمون ‧

فأجابه الأعرابي قائلا يريد الاغراب : وأقول أكثر من هذا ، فهل أنت مجيبي على قدر كلامي ؟ ‧‧ ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتا تسعة ، منها :

هفا قلبي الى اللهو　　وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلا بتسعة أبيات في معناها ومن وزنها وقوافيها ، يقول منها :

فما رسم شجاني قد　　محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين　　في بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى　　على تلبيد ثوبيه

الى آخر الأبيات ‧‧‧ ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم ، والجعلل وهو قصار النخل ، والأيتم وهو بعض النبات ، والهمهم وهو القليب الغزير الماء ، وفي هذه الكلمات أوصاف البلاد التي جاء منها واشارة اليها ‧‧

فقال الاعرابي : « ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاما ، وأذرب (١) لسانا ، ولا أفصح منه منطقا » ‧

وتلك رواية من روايات على منوالها ، ان لم تنبىء بما وقع فهي منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين في صباه الباكر بالعلم والفصاحة ‧‧

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة ، كان الشعراء يرتادونه

(١) ذرب اللسان أي حاد وفصيح

وبهم من الطمع في اصغائه أكبر من طمعهم في عطائه •• ولكنه على هذا كان يجري معهم على شرعة ذوي الأقدار والأخطار من أنداده ، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه في خصاصة (١) الحال • وقد لامه أخوه الحسن في ذلك فكتب اليه « ان خير المال ما وقي به العرض » الا أنه في الواقع لم يكن يعطي لوقاية العرض وكفى ، ولكنه كان يعطي من قصده من ذوي الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة •

وفـاء وشجـاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفــات الانسانية واليقهما ببيته وشرفه ، وهما الوفاء والشجاعة •

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة ، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية أن بينه وبين الرجل عهدا وعقدا لا يجوز له نقضه حتى تمضي المدة ، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معا ، فقال لصحبه يوما وقد أرسل الهدايا الى وجوه المدينة من كسي وطيب وصلات : « ان شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم •• أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئا من الطيب ويهب ما بقي من حضره ولا ينتظر غائبا ، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فان بقي شيء نحر بــه الجزر (٢) وسقــى بــه اللبن •• » •

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها « الشيء من معدنه » كما قيل • هي فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده ، وقد شهد الحروب في افريقيــة الشماليــة وطبرستــان والقسطنطينية ، وحضر مع أبيه وقائعه جميعا من الجمــل الى صفين • وليس في بني الانسان من هو أشجع قلبا ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين في يوم كربلاء •

---

(١) الخصاصة : الفقر والحاجة •

(٢) جمع جزور وهو ما يباح أن يذبح من الابل •

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها في الدم بالوراثة ، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة والعدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التي تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط •• ومنها لعبة تشبه « الجولف » عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحي : جمع مدحاة ، وهي أحجار مثل القرصة يحفرون في الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار ، فمن وقع حجره في الحفيرة فهو الغالب •

أما عاداته في معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد في تناول كل مباح • كان يحب الطيب والبخور ، ويأنق للزهر والريحان ••

وروى أنس بن مالك انه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها • فقال لها : « أنت حرة لوجه الله تعالى » فسأله أنس متعجبا : « جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها ؟ » • قال : « كذا أدبنا الله •• قال تبارك وتعالى : (واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) •• وكان أحسن منها عتقها » •

وكان يميل للفكاهة ويأنس في أوقات راحته لأحاديث أشعب وأضاحيكه ، ولكنه على شيوع الترف في عصره لم يكن يقارب منه الا ما كان يجمل بمثله •• حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب ••

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس ، وأيام من الشهر يصوم نهارها ويقوم ليلها ••

وقد عاش سبعا وخمسين سنة بالحساب الهجري ، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون •• فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله ، حتى حار معاوية بعيبه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له •واقترحوا عليه أن يكتب اليه بما يصغره في نفسه • فقال انه كان يجد ما يقوله في علي ، ولكن لا يجد ما يقوله في حسين •

تلك جملة القول في سيرة أحد الخصمين ••

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة في معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله ٠

فيزيد بن معاوية عريق النسب في بني عبد مناف ثم في قريش ، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التي اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف ٠ وأشهرها الأثرة ، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها ٠ وندر من وجوه الأمويين في الجاهلية أو الاسلام من اشتهر بخصلة تجلب الى صاحبها ضررا أو مشقة في سبيل نفع الناس ٠٠

وبيت أبي سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها ٠٠

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن نذكرها في هذا المقام أن معاوية ابن أبي سفيان لم يدن ليرث شيئا من هذه السيادة التي كان قوامها كله وفرة المال ، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله في حروب الاسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوراث ٠ وروي أن امرأة استشارت النبي عليه السلام في التزوج بمعاوية فقال لها : « انه صعلوك !٠٠ » ٠

كذلك ينبغي أن نذكر حقيقة أخرى في هذا المقام ، وهي أن معاوية لم يكن من كتاب الوحي كما أشاع خدام دولته بعد صدر الاسلام ، ولكنه كان يكتب للنبي عليه السلام في عامة الحوائج وفي اثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم في أربابها ، ولم يسمع عن ثقة قط انه كتب للنبي شيئا من آيات القرآن الكريم ٠

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء ، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ ، ومنها قتله حجر بن عدي وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علي وشيعته ، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول : « ما قتلت أحدا الا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجرا فاني لا أعرف بأي ذنب قتلته ٠٠ » ٠

وأم يزيد هي ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بني كلب المعرقات في النسب ، وهي التي كرهت العيش مع معاوية في دمشق وقالت تتشوق الى عيش البادية :

للبس عباءة وتقر عيني احب الي من لبس الشفوف
وبيت تخفق الأرواح فيه آحب الي من قصر منيف ..

ومن هذه الأبيات قولها :

وخرق، (١) من بني عمي فقير أحب الي من علج عنيف !..

فارسلها وابنها يزيد الى باديتها ، فنشأ يزيد مع أمه بعيدا عن أبيه .

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء ، ولكنها على ما هو مألوف في أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقي من العزيمة فيهم ..

فكان ما استفاده من بادية بني كليب بلاغة الفصحى ، وحب الصيد ، وركوب الخيل ، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب.

وهذه صفات في الرجل القوي تزينه وتشحذ قواه ، ولكنها في أعقاب السلالات — أو عكارة البيت كما يقال بين العامة — مدعاة الى الاغراق في اللهو والولع بالفراغ لأنها هي عنده كل شيء وليست مددا لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم .

وهكذا انقلبت تلك الصفات في يزيد من المزية الى النقيصة .. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغريا له بمعاشرة الشعراء والندماء في مجالس الشراب ، وكان ولعه بالصيد شاغلا يحجبه عن شواغل الملك والسياسة ، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين والفهادين ، فكان له قرد يدعوه « أبا قيس » يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب ، ويركبه أتانا في السباق ويحرص على أن يراه سابقا مجليا على الجياد ، وفي ذلك يقول يزيد كما جاء في بعض الروايات :

---

(١) الخرق بكسر الخاء من الفتيان : الظريف في سماحة .

تمسك أبا قيس بفضل عنانها
فليس عليها ان سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذي سبقت به
جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغا في المذمة حين قال فيما نسب اليه : « والله ما خرجنا مع يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء • ان رجلا ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة ، والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاء حسنا » •

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كاجماعها على ادمانه الخمر ، وشغفه باللذات ، وتوانيه عن العظائم •• وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين ، ولعلها اصابة الكبد من ادمان الشراب والافراط في اللذات • ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلاقا واختراعا من الأعداء لأن الناس لم يختلقوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص ، وهما بغيضان أشد البغض الى أعداء الأمويين •• ولأن الذين حاولوا ستره من خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه ، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان •

ولم يكن هذا التخلف في يزيد من هزال في البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذي يعتري أحيانا بقايا السلالات التي تهم بالانقراض والدثور ، ولكنه كان هزالا في الأخلاق وسقما في الطوية •• قعد به عن العظائم مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه وانصافه ببعض الصفات الجسدية التي تزيد في وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة • وقد أصيب في صباه بمرض خطير ــ وهو الجدري ــ بقيت آثاره في وجهه الى آخر عمره ، ولكنه مرض كان يشيع في البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح •

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهوا وفراغا ، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق اليه عزائم الفرسان في ميادين القتال ، ولو كان دفاعا عن دينه ودنياه •

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف الى القسطنطينية لغزو الروم ودفاعا عن بلاد الاسلام ــ أو بلاد الدولة الأموية ــ تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن في طريقه ببلاء المرض والجوع ، فقال يزيد :

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم
بالفرقدونة من حمى ومن موم
اذا اتكأت على الأنماط مرتفقا
بدير مران عندي أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله في خلواته ..

ومن أعجب عجائب المناقضة التي تمت في كل شيء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين ، حتى في تلك الخصال التي تأتي بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزية السن وسابقة الميلاد ..

فلما تنازعا البيعة كان الحسين في السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وفي المعرفة بالعلم والتجربة ، وكان يزيد في نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء .

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور الحديثة ، ولكنها كانت تقطع القول في أمة العرب حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الاعمار ... وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التي تعلو بصاحبها في الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة ..

وكذلك لا يقال أن « الوراثة المشروعة » في الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين في ميزان العروبة والاسلام . فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون في ذلك الزمان ، ولم يكن معقولا أن العرب في صدر الاسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن

معاوية وهم لم يوجبوا طاعة آل النبي في أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام ٠

فقد شاءت عجائب التاريخ اذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط في أمثالها من القضايا ، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التي أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله ٠ ولئن كان في تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هي عصبية القبيلة من بني أمية ، وهي هنا نزعة مواربة تعارض الايمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس ٠

لهذا شك بعض الناس في اسلام ذلك الجيل من الأمويين ، وهو شك لا نرتضيه من وجهة الدلائل التاريخية المتفق عليها ٠ فقد يخطر لنا الشك في صدق دين أبي سفيان لأن أخبـاره في الاسلام تحتمل التأويلين ، ولكن معاوية كان يؤدي الفرائض ويتبرك بتراث النبي ويوصي أن تدفن معه أظافره التي حفظها الى يوم وفاته ٠ وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثاني على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشيء في بيـت مدخول الاسلام ، يتصارح أهله أحيانا بما ينم على الكفر به أو التردد فيه ٠٠

انما هي الأثرة ، ثم الخرق في السياسـة ، ثم التمادي في الخرق مع استثارة العناد والعداء ٠ وفي تلك الأثرة ولواحقها ما ينشيء المقابلة من أحد طرفيها في هـذه الخصومـة ، ويتم المناظرة في شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين ، ونعني بهما هنا المثالية والواقعية ، وما الحسين واليزيد الا المثالان الشاخصان منهما للعيان ٠٠

أعوان الفريقين

رجال المعسكرين

كان الحسين في طريقه الى الكوفة ــ يوم دعاه شيعته اليها ــ يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بني أمية ، وقلما اختلفوا في الجواب ..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة ــ والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت ــ فقال له : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء » .

وقال له مجمع بن عبيد العامري : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم (١) فهم ألب (٢) واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك » .

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد ، فان الناس جميعا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن علي ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بني أمية ، فهم اذن عليه بالسيوف التي تشهرها الأيدي دون القلوب .

وقد « أعظمت الرشوة » للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال ، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بني أمية ..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم ، فقد كانوا ينصرون حسينا ولا ينصرون الأمويين .. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين .

ومن هؤلاء هانيء بن عروة من كبار الزعماء في قبائل كندة ،

(١) جمع غرارة بالكسر وهي شبه العدل . (٢) الالب : الجمع الكثير من الناس . وهم عليه ألب واحد أي مجتمعون عليه .

وشريك بن الأعور ، وسليمان بن صرد الخزاعي ، وكلاهما من ذوي الشرف والدين ·

بل كان من العاملين لبني أمية من يخزه ضميره اذا بلغ العداء للحسين أشده ، فيترك معسكر بني أمية ليلوذ بالمعسكر الذي كتب عليه الموت والبلاء · كما فعل الحر بن يزيد الرياحي في كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره · فسأل عمر بن سعد قائد الجيش : « أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ » · فلما قال « نعم » ترك الجيش الأموي وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له :« جعلت فداك يا ابن رسول الله · أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت (١) بك في هذا المكان ، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني تائب الى الله مما صنعت ، فهل ترى لي من توبة ؟ » ·

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل ، وآخر كلمة على لسانه فاه بها : « السلام عليك يا أبا عبد الله ! » ·

فمجمل ما يقال على التحقيق انه لم يكن في معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين الا وهو طامع في مال ، مستميت في طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالي بشيء منها في سبيل الحطام ·

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوي الرأي كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش ··

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثيم ··

لكن هؤلاء بادوا جميعا في حياة معاوية ، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش ، وانما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين ، يقتلون من أمروا بقتله ويقبضون الأجر فرحين ··

---

(١) جعجع البعير : حركه للاناخة أو النهوض · والبعير : برك · والرحى : صاتت ·

فكان أعوان معاوية ساسة وذوي مشورة ..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد في صيد كبير ..

وكانوا في خلائقهم البدنية على المثال الذي يعهد في هذه الطغمة من الناس ، ونعني به مثال المسخاء المشوهين .. أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم ولا سيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة ، فاذا بهم يفرغون حقدهم في عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذي لا تعرف له حدود ..

وشر هؤلاء جميعا هم شمر بن ذي الجوشن ، ومسلم بن عقبة ، وعبيد الله بن زياد . ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ..

فشمر بن ذي الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة، وكان يصطنع المذهب الخارجي ليجعله حجة يحارب بها عليا وأبناءه ، ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه .. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد في حضرة المال .

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة في مسلاخ (١) انسان .

« وكان أعور أمغر (٢) ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى » .

وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض ، أنه أباح المدينة في حرم النبي عليه السلام ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم حتى ساخت (٣) الأقدام في الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر ، وأخذ

---

(١) جلد . (٢) أبيض في وجهه حمرة . (٣) ساخت الاقدام في الطين : دخلت وغابت .

البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن (١) لأمير المؤمنين ..!

وانطلق جنده في المدينة الى جوار قبر النبي يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء ، حتى بلغ القتلى في تقدير الزهري سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالي ، ثم كتب الى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل ، فقال بعد كلام طويل : « فأدخلنا الخيل عليهم ... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين الا في مسجدهم !.. بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم .. وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا من أشرف لنا منهم واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره ، وجعلت دور بني الشهيد عثمان بن عفان في حرز وأمان ، والحمد لله الذي شفا صدري من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم ، فطالما عتوا وقديما ما طغوا . أكتب هذا الى أمير المؤمنين وأنا في منزل سعيد بن العاص مدنفا مريضا ما أراني الا لما بي .. فما كنت أبالي متى مت بعد يومي هذا ... » .

وكل هذا الحقد المتأجج في هذه الطوية العفنة انما هو الحقد في طبائع المسخاء الشائهين ... يوهم نفسه انه الحقد من ثأر عثمان أو من خروج قوم على ملك يزيد ..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب في قريش ، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه . ثم ألحقه معاوية بأبي سفيان لان أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، انه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيا فجاءوه بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد أنها حملت به في تلك الليلة ..

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه اليها ، ومن عوارض المسخ فيه ــ وهي عوارض لها في نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة ــ انه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية .

(١) القن بالكسر : العبد الذي أبوه مملوك . وعبد قن : خالص العبودية.

فكان اذا عاب الحروري من الخوارج ، قال : « هروري » فيضحك سامعوه ، وأراد مرة أن يقول أشهروا سيوفكم ، فقال افتحوا سيوفكم •• فهجاه يزيد بن مفرغ قائلا :

ويوم فتحت سيفك من بعيد
أضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدي والأرجل والامر بالقتل في ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة • ففي ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات : « ويقتل النفس التي حرم الله قتلها على الغضب وسوء الظن ، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئا » •

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيدالله بن زياد لمنازلة الحسين لأنه كان يومئذ في شرة الشباب (١) لم يتجاوز الثامنة والعشرين ، وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل في الدعوة الى بيعة يزيد ، فكان عبد الله من ثم حريصا على دفع الشبهة والغلو في اثبات الولاء للعهد الجديد ••

والذين لم يمسخوا في جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية ، كان الطمع في المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس في الحقائق •••

ومن هذا القبيل ، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذي أطاع عبيدالله بن زياد في وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة ، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية في يديه •

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الري ، وهي درة التاج في ملك الأكاسرة الأقدمين • وكان يتطلع اليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف ، وينسب اليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين :

فوالله ما أدري واني لحائر
أفكر في أمري على خطرين

(١) شرة الشباب : نشاطه •

أأتـرك ملـك الـري منيتـي
أم أرجع ماثوما بقتـل حسـين
وفي قتلـه النـار التـي ليس دونها
حجـاب ، وملـك الري قـرة عينـي

فان لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهي ولا شك من لسان حاله ، لأنها تسجل الواقع الذي لا شبهة فيه ..

ومن الواقع الذي لا شبهة فيه أيضا ، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة في الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز ، فهو الذي ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التي لم تزل مطروحة بالعراء .. فصحن وقد لمحنها على الطريـق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله ، وهم ممن قاتل الحسين وذويه ..

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسـة ملـك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان ، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما في قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما في أيديهم مـن أموال ووعود .. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالي من يسفك فيها الدماء أي غرض يصيب ..

ومنذ قضي على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانا له في ملكه ، قضي عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء والذين يسفكون كل دم أجروا عليه ..

وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده في معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط في سبيل المال ..

وكان للحسين أعوان اذا بلغ أحدهم حده في معونته فهـو شهيد يبذل الدنيا كلها في سبيل الروح ..

وهي اذن حرب جلادين وشهداء ..

الحسين في مكة

عمل يزيد بوصية أبيه ، فلم يكن له هم منذ قيامه على الملك الا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير في مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له في حياة معاوية ٠٠

وكان الوليد بن عقبة بن أبي سفيان والي معاوية يومئذ على المدينة ٠ فلما جاءه كتاب يزيد بنعي أبيه، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة « أخذا شديدا ليس فيه رخصة (١) » دعا اليه بمروان بن الحكم ، فأشار بمشورته التي جمعت بين الاخلاص وسوء النية ٠٠ وفحواها أن يبعث الى الحسين وابن الزبير ، فأن بايعا والا ضرب عنقيهما !

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الاشارة اليه في محضر مروان ، اذ عاد الحسين الى بيته ٠ وقد عول على ترك المدينة الى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله ٠٠ فخرج منها لليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ، ومعه جل أهل بيتـه واخوته وبنو أخيه ، ولزم في مسيره الى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه (٢) كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه ، فصحت في الرجلين فراسة معاوية في هذا الأمر الصغير ، كما صحت في غيره من كبار الأمور ٠٠

وانصرف الناس في مكة الى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره ، ومنهم ابن الزبير ٠ فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه في صباحه ومسائه ، يتعرف رأيه وما نمي اليه من آراء الناس في الحجاز ، والعراق ، وسائر الأقطار الاسلامية ٠

فلبث الحسين في مكة أربعة أشهر على هذه الحال ، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين الى الظهور وطلب البيعة ، ولا

(١) الرخصة بالضم : التسهيل في الامر والتيسير خلاف التشديد والاذن ٠ (٢) تنكبه : تجنبه واعتزل عنه ٠

سيما أهل الكوفة وما جاورها .. فقد كتبوا اليه يقولون ان هنالك مائة ألف ينصرونك ، وألحوا في الكتابة يستعجلونه الظهور .

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات ، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب ..

وآثر أن يرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب يمهد له طريق البيعة ان رأى فيها محلا لتمهيد ، وكتب الى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتابا يقول فيه : « أما بعد ، فقد أتتني كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومي عليكم ، وقد بعثت اليكم أخي وابن عمي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب الي بحالكم وأمركم ورأيكم .. فان كتب الي أنه قد أجمع رأي ملئكم وذوي الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علي به رسلكم وقرأت في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا ان شاء الله . فلعمري ما الامام الا العامل بالكتاب ، والآخذ بالقسط ، والدائن بالحق ، والحابس نفسه على ذات الله ، والسلام » .

ثم بلغ الحسين أن مسلما قد نزل الكوفة ، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفا ، وقيل ثمانية عشر ألفا ، فرأى أن يبادر اليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة ، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا في مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير الى جهة غير جهة العراق .

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى ـ وهو بعد في المدينة ـ أن يبعث رسله الى الأمصار ويدعوهم الى مبايعته قبل قتال يزيد فان أجمعوا على بيعته فذاك ، وان اجتمع رأيهم على غيره « لم ينقض الله بذلك دينه ولا عقله » ..

وكان عبد الله بن الزبير يقول له : « ان شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك ، وان لم تشأ البيعة بالحجاز توليني أنا البيعة فتطاع لا تعصى » .

ويزعم كثير من المؤرخين ان ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين ·· ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهاني · قال : « ان عبد الله بن الزبير لم يكن شيء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز ·· ولا أحب اليه من خروجه الى العراق طمعا في الوثوب بالحجاز ·· لأن ذلك لا يتم له الا بعد خروج الحسين ، فلقيه وقال له : « على أي شيء عزمت يا أبا عبد الله ؟ » ·

فأخبره برأيه في اتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل ، فقال الزبير : « فما يحبسك ؟·· فوالله لو كان لي مثل شيعتك بالعراق ما تلومت (١) في شيء » ·

ولعل أنصح الناس له في هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهــاء ·· سأله :

ـ ان الناس أرجفوا (٢) أنك سائر الى العراق ، فما أنت صانع ؟··

قــال :

ـ قد أجمعت السير في أحد يومي هذين ·

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك ، وقال له :

ـ اني أتخوف عليك في هذا الوجه الهلاك · ان أهل العراق قوم غدر · أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم ، فان أبيت الا أن تخرج فسر الى اليمن ، فان بها حصونا وشعابا ولأبيك بها شيعة ·

فقال له الحسين :

ـ يا ابن عم ! ··· اني أعلم أنك ناصح مشفق ، ولكني قد أزمعت وأجمعت على المسير ·

قال ابن عباس :

ـ ان كنت لا بد فاعلا ، فلا تخرج أحدا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك ، فخليق أن تقتل وهم ينظرون اليك كما قتل ابن عفان ·

---

(١) تلوم فلان في الامر : تلبث وانتظر انتظار من يتجنــب المــلام ·

(٢) أرجف القوم : أكثروا من الاخبار السيئة ·

السفر الى العراق

وخرج في الثامن من ذي الحجة لا ينتظر العيد بمكة ، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته الى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان ..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة ، فأقبل عليه الناس ألوفا ألوفا يبايعون الحسين على يديه .. وبلغوا ثمانية عشر ألفا في تقدير ابن كثير وثلاثين ألفا في تقدير ابن قتيبة .

وهال الأمر النعمان بن بشير ــ والي الكوفة ــ فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم يزدادون يوما بعد يوم ، فصعد المنبر وخطب الناس معلنا أنه لا يقاتل الا من قاتله ولا يثب الا على من وثب عليه ..

وتسابق أنصار بني أمية الى يزيد ينقلون اليه ما يجري بالكوفة ، فأشار عليه سرجون الرومي مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولي الكوفة عبيد الله بن زياد ، مضمومة الى البصرة التي كان يتولاها في ذلك الحين .

وقدم عبيد الله الى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع اليه عرفاء المدينة ــ أي مشايخ أحيائها ــ فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن في أحيائهم من «طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب» ، وأنذرهم « أيما عريف وجد في عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه اليه ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء .

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم . فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه وعلى رأسهم هانىء ابن عروة ، فقيل له انه مريض لا يبرح داره .. وكان يتعلل بالمرض تجنبا للقائه والسلام عليه .

فذهب عبيد الله اليه يعوده ويتلطف اليه ، وجاء في بعض الروايات أنه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو في بيت هانىء ، فأبى أن يغتاله وهو آمن في بيت مريض يعوده ..

وقال ابن كثير ما فحواه انهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو في دار شريك بن الأعور،وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده ·· فبعث الى هانيء بن عروة يقول له : « ابعث مسلم ابن عقيل يكون في داري ليقتل عبيد الله اذا جاء يعودني » ·· فتحين مسلم عن قتله ، وسأله شريك : « ما منعك أن تقتله ؟ » قال : « بلغني حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الايمان قيد الفتك ، لا يفتك مؤمن) ، وكرهت أن أقتله في بيتك » ·· قال شريك : « أما لو قتلته لجلست في الثغر لا يستعدي به أحد ، ولكفيتك أمر البصرة ، ولكنت تقتله ظالما فاجرا » ·

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام ···

وتضطرب الأقاويل في وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها ·· ولكن الشائع من تلك الاقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد في مغالبة مسلم وشيعته ، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصايحوا بعبيد الله فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه ··

واجتمع الى مسلم أربعة آلاف من حزبه ، فأمر من ينادي في الناس بشعار الشيعة : « يا منصور !·· أمت » · ثم تقدم الى قصر الامارة في تعبئة كتعبئة الجيش ·

ولم يكن في القصر الا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة · فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه · ولكنه تحيل بما في وسع المستميت من حيلة هي على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم ، فأنفذ أنصاره الى كل صوب في المدينة يعدون ويتوعدون ·· وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد ، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البريء بالمذنب والغائب بالشاهد ويبذلون المال لمن يرشى بالمال ، والوعد لمن يقنع بالوعد الى حين ··

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه ، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا الى دورهم أو يدخلوا بهم في زمرة عبيد الله ..

فلما غربت شمس ذلك اليوم ، نظر مسلم حوله فاذا هو في خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة .. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه في الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام ، وبقي وحيدا في المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوي اليه .

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة ، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقي من تلك الجموع .. فلم يروا أحدا ولم يسمعوا صوتا . فخيل اليهم أنها مكيدة حرب وأن القوم رابضون تحت الظلال ، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن الى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه ، فدعا الى الصلاة الجامعة وأمر المنادين في أرجاء الكوفة : « ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب ـ رؤوس العرفاء ـ والمقاتلة ، صلى العشاء الا في المسجد » .

وأقام الحراس خلفه وهو يصلي بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد ، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا : « برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل في داره » .

وصاح في رئيس شرطته : « يا حصين بن نمير ! .. ثكلتك أمك ان ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك .. وأصبح غدا فاستبرىء (١) الدور وجس خلالها حتى تأتيني بهذا الرجل .. » .

وما هي الا سويعات حتى جيء بابن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع . ووصل الى القصر جريحا مجهدا ظمآن فأهوى الى قلة عند الباب فيها ماء بارد ، فقال له أحد أصحاب

(١) استبرأ : طلب الابراء من الدين أو الاثم ونحوهما .

عبيد الله : « أتراها ما أبردها ! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم في نار جهنم ! » •

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل ، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها في القدح وأدناه منه ، فاذا هو ينفث الدم في القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه ، فحمد الله وقال : « لو كان لي من الرزق المقسوم لشربته » •

وأدخلوه على عبيد الله فنظر الى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته • فأبى أن يصغي اليه ! •• ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم : « ان علي بالكوفة دينا استدنته سبعمائة درهم ، فبع سيفي ودرعي فاقضها عني ، وابعث الى الحسين من يرده ، فاني قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه الا مقبلا » ••

فعاد عمر الى عبيد الله فأفشى له السر الذي ناجاه به وأوصاه أن يكتمه • ثم دعا عبيد الله بالحرسي الذي قاومه مسلم وضربه على رأسه واسمه بكير بن حمران ـ فأسلم مسلما اليه وقال :

ـ لتكن أنت الذي تضرب عنقه •

وصعدوا به الى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه ، فسقط رأسه الى الرحبة وألقيت جثته الى الناس • ثم أرسل برأسه الى يزيد مع رؤوس سراة في المدينة كان مسلم يأوي اليهم أول مقدمه اليها ، ومنهم هانىء بن عروة الذي تقدمت الاشارة اليه •

طلائـع الفشـل

كان مقتل مسلم بن عقيل في التاسع من ذي الحجة ليلة العيد •• وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتله الا وهو في آخر الطريق ••

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله ، فكتب الى أهل الكوفة كتابا مع قيس بن سهر الصيداوي يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند ، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه اليه ٠٠ فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب « الكذاب بن الكذاب الحسين بن علي » وينهى الناس أن يطيعوه ٠

فصعد قيس وقال : « أيها الناس ٠٠ ان هذا الحسين بن علي خير خلق الله . ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله اليكم ! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه ، والعنوا عبيد الله بن زياد وأباه ٠٠ » ٠

فما كان منهم الا أن قذفوا به من حالق ، فمات ٠٠

وحدث مثل هذا مع عبد الله بن يقطر ٠٠ فأبى أن يلعن الحسين ، ولعن عبيد الله بن زياد ، ألقوا به من شرفات القصر الى الأرض فاندكت عظامه ولم يمت ، فذبحوه ٠٠

وجعل الحسين كلما سأل قادما من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله أو داعية من دعاته ، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع ، وقال له غيرهم : « ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع ٠٠ » ٠

وثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم ٠٠

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدا الا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه ان تقدم ولم ينصرف لشأنه ٠٠ فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم :

« وقد خذلنا شيعتنا ٠٠ فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ، ليس عليهم منا ذمام ٠٠ » ٠

فتفرقوا الا أهل بيته وقليلا ممن تبعوه في الطريق ٠٠

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذي حسم بطلائع جيش عبيد الله يقودها الحر بن يزيد التميمي اليربوعي في ألف فارس ، أمروا بأن لا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله في الكوفة ٠

فأمر الحسين مؤذنه بالآذان لصلاة الظهر ، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال :

ـ أيها الناس اني لم آتكم حتى أتتني كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا امام ، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق فقد جئتكم ٠٠ فان تعطوني ما أطمئن اليه من عهودكم ومواثيقكم أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا أو كنتم لقدومي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه ٠٠

فلم يجبه أحد ٠٠

فقال للمؤذن :

ـ أقم الصلاة !

وسأل الحر :

ـ أتريد أن تصلي أنت بأصحابك وأصلي بأصحابي ؟

فقال الحر :

ـ بل نصلي جميعا بصلاتك ٠٠

ثم تياسر الحسين الى طريق العذيب ، فبلغها وفرسان عبيد الله يلازمونه ويصرون على أخذه الى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم ، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون اليه فقال :

« أيها الناس ! ٠٠ ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مدخله ٠ ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيري ٠٠

« وقد أتتني كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلمونني ولا تخذلونني ، فان بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسي مع أنفسكم وأهلي من أهلكم ، فلكم في أسوة . وان لم تفعلوا ونقضتم عهدي ، وخلعتم بيعتي ، فلعمري ما هي لكم بنكير ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم .. ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام » .

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه اليه يحذره العاقبة وينبئه : « لئن قاتلت لتقتلن ! » .

فصاح به الحسين :

ـ أبالموت تخوفني !.. ما أدري ما أقول لك .. ولكني أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله ، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد :

سأمضي وما بالموت عار على الفتى
اذا ما نوى خيرا وجاهد مسلما
وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وخالف مثبورا (١) وفارق مجرما
فان عشت لم أندم ، وان مت لم ألم
كفى بك ذلا أن تعيش وترغما

ثم سار الركبان ينظر بعضهما الى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة . حتى نزلا بنينوى ، فاذا راكب مقبل عليه بالسلاح ، يحيي الحر ولا يحيي الحسين ، ثم أسلم الحر كتابا من عبيد الله يقول فيه : « أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي ، فلا تنزله الا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء .. وقد أمرت رسولي أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتيني بانفاذك أمري والسلام » .

---

(١) المثبور : الخاسر الهالك .

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله ابن زياد ويخشى رقيبه الذي أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره ، قال أحد أصحاب الحسين ــ زهير بن القين :

ــ انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه • يا ابن رسول الله ! •• ان قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتي بعدهم • فلعمري ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به • فلنبق نناجز هؤلاء •

فأعرض الحسين عن مشورته وقال :

ــ اني أكره أن أبدأهم بقتال •

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبي بأرض همذان ، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبي وقاص الـذي يذكر الديلم اسم أبيه ــ سعد ــ فاتح بلادهم ، وقد وعد بولاية الري بعد قمع الثورة الديلمية ، فلما قدم الحسين الى العراق قال عبيد الله لعمر :

ــ نفرغ من الحسين ثم تسير الى عملك •

فاستعفاه ، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له :

ــ نعم نعفيك على أن ترد الينا عهدنا ••

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه •• فنصح له ابن أخته ابن المغيرة بن شعبة ــ وهو من أكبر أعوان معاوية ــ ألا يقبل مقاتلة الحسين ، وقال له :

ــ والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك ، خير من أن تلقى الله بدم الحسين •

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه ، حتى اذا أصبح ذهب الى ابن زياد ، فاقترح عليه أن يبعث الى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغنى في الحرب عنهم •• فأبى ابن زياد الا أن يسـير الى الحسين أو ينزل عن ولاية الري •• فسار على مضض وجنوده

متثاقلون متحرجون ، الا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق ·

وكان جنود الجيش يتسللون منـه ويتخلفـون بالكوفة ·· فندب عبيد الله رجلا من آعوانه ـ هو سعـد بن عبد الرحمن المنقري ـ ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين ، وضرب عنق رجل جيء به وقيل انه من المتخلفين ، فأسرع بقيتهم الى المسير ·

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكربلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلا الى الشمال الغربي من الكوفة : نزل بها في الثاني من المحرم سنة احدى وستين ··

وخلا الجو في الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه في اللؤم وسوء الطوية ، وينفردان بتصريف الأمر في قضية الحسين دون مراجعة من ذي سلطان ·· وهما عبيد الله بن زياد ، وشمر ابن ذي الجوشن ·

عبيد الله المغموز النسب الذي لا يشغله شيء ، كما يشغله التشفي لنسبه المغموز من رجل هو بلا مراء أعرق العرب نسبا في الجاهلية والاسلام ·· فليس أشهى اليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه ، ويشعره فيها بذله ورغمه ··

شمر بن ذي الجوشن

وشمر بن ذي الجوشن الأبرص الكريه الـذي يمضه مـن الحسين ما يمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم ·

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعـذره ، فهما في هذه الخلة متناصحان متفاهمان ··!

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضي يزيد ويمهد له الولاء في قلوب المسلمين ولو الى حين ·· لولا ذلـك الضغن الممتزج بالخليقة الذي هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأي مصيب ، ولا لتفكير في عاقبة بعيدة أو قريبة ··

فالحسين في أيديهم ليس أيسر عليهم من أعتقاله وابقائـه بأعينهم في مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة ·

لكنهما لم يفكرا في أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة التي يخدمانها ·· وانما فكرا في النسب المغموز والصورة الممسوخة ، فلم يكن لهما من هم غير ارغام الحسين واشهاد الدنيا كلها على ارغامه ·

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه أن الحسين « أعطاني أن يرجع الى المكان الذي أقبل منه أو أن نسيره الى أي ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتي يزيد فيضع يده في يده » ·

والذي نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب الى يزيد ليرى رأيه ، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده في يده ··· لأنه لو قبل ذلك لبايع في مكانه واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به الى وجهته ، ولأن أصحاب الحسين في خروجه الى العراق قد نفوا ما جاء في ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول : « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته الى يوم قتله ·· فوالله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد ولا أن يسيروه الى ثغر من الثغور ، ولكنه قال : « دعوني أرجع الى المكان الذي أقبلت منه أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه أمر الناس » ·

ولعل عمر بن سعد قد تجوز في نقل كلام الحسين عمدا ليأذنوا له في حمله الى يزيد فيلقي عن كاهله مقاتلته وما تجر اليه من سوء القالة ووخز الضمير ، أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده ، ويسقطوا حجتهم في مناهضة الدولة الأموية ··

وأيا كانت الحقيقة في هذه الدعوى فهي تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها · ولقد كانا على العهد بمثليهما ·· كلاهما كفيل أن يحول بين صاحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذي فطر عليه ، فلا يصدر منهما الا ما يوائم لئيمين لا يتفقان على خير ··

وكانت جنحة عبيد الله الى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر بن سعد ، فابتدره شمر ينهاه ويجنح الى الشدة والاعتساف، فقال له :

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز •• فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولي العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك •

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه في القيادة ثم يخلفه في الولاية ، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المسكرين ••

فعدل عبيد الله الى رأي شمر وأنفذه بأمر منه أن يضرب عنق عمر ان هو تردد في اكراه الحسين على المسير الى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل • وكتب الى عمر يقول له :

« أما بعد •• فاني لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندي شافعا ••• أنظر فان نزل الحسين وأصحابه واستسلموا فابعث بهم الي مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق مشاق قاطع ظلوم •• فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر والسلام » •
وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات ••

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا طالب مروءة ، ومضت مئات السنين وهي لا تمحو آثار تلك الأيام في تاريخ الشرق والاسلام ••

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة الى العراق حركة لا يسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية ، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ في باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية ٠٠ لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتي الصواب فيها ــ ان أصابت ــ من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولا يأتي الخطأ فيها ــ ان أخطأت ــ من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه ٠ وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقا صغيرا من فعل المصادفة والتوفيق ، فهو خليق أن يذهب الى النقيضين ٠

هي حركة لا يأتي بها الا رجال خلقوا لأمثالها فلا تخطر لغيرهم على بال ، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذي يتوخاه في مقاصده سالك الطريق اللاحب (١) والدرب المطروق٠

هي حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هده الوتيرة ٠٠ لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذي يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال ٠٠

هي ليست ضربة مغامر من مغامري السياسة ، ولا صفقة مساوم من مساومي التجارة ، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه ، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأي من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب ايمان الناس به دون غيره ٠٠ فان قبلته الدنيا قبلها وان لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة ، بل لعل فواته بالموت أشهى اليه ٠٠

هي حركة لا تقاس اذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات

---

(١) الواضح البين ٠

ولكنها تقاس بمقياسها الذي لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو في كل أوان ..

ولا ننسى أن السنين الستين التي انقضت بعد حركة الحسين، قد انقضت في ظل دولة تقوم على تخطئته في كل شيء وتصويب مقاتليه في كل شيء ..

ان القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة ، والتماس العذر له معناه القاء الذنب عليها . وليس بخاف على أحد كيف ينسى الحياء وتبتذل القرائح أحيانا في تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب . فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه اذن بالأمر الذي يرجع فيه الى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها ، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء ..

انما الحكم في صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان ، وهما البواعث النفسية التي تدور على طبيعة الانسان الباقية ، والنتائج المقررة التي مثلت للعيان باتفاق الأقوال .

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين في خروجه على يزيد بن معاوية ، فنقول انه قد أصاب ..

أصاب اذا نظرنا الى بواعثه النفسية التي تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها ..

وأصاب اذا نظرنا الى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة ، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة ..

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم دعي في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد ؟

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله الى صنيع غير ذلك الصنيع . وخير لبني الانسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية ، من أن يكون جميع بني الانسان على ذلك الخلق الذي يرضى به يزيد .

فأول ما ينبغي أن نذكره لفهم البواعث النفسية التي خامرت نفس الحسين في تلك المحنة الأليمة ، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التي يضمن لها الدوام في تقدير صحيح ..

فهي بيعة نشأت في مهد الدس والتمليق ، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة في ذلك التشجيع ..

كان المغيرة بن شعبة واليا لمعاوية على الكوفة ، ثم هم بعزله واسناد ولايته الى سعيد بن العاص جريا على عادته في اضعاف الولاة قبل تمكنهم ، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه . فلما أحس المغيرة نية معاوية ، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب :

ــ لا إدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة . فقال للمغيرة :

ــ أو ترى ذلك يتم ؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير ، اذا أراده أبوه ..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة ، فعلم هذا أن فرصته سانحة وأنه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة .. يرشوه باعانته على بيعة يزيد ، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة الى أن يقضى في أمر هذه البيعة ، وله في التمهيد لها نصيب ..

فلما لقي معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد ، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه . قال :

ــ قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له ، فان حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى :

ــ ومن لي بذلك ؟..

قال :

ــ أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

فرده معاوية الى عمله كما كان يتمنى ، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا باظهار هذه النية .. ثم استشار زياد بن أبي سفيان، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول :

ــ ان أمير المؤمنين ، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم .. ويزيد صاحب رسلة (١) وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد.. فالق أمير المؤمنين وأد اليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر ، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فان دركا في تأخير خير من فوت في عجلة ..

فأشار عليه صاحبه « ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه في ابنه » . وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب اليك يستشيرك في البيعة له وانك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه ، وأنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس .

وقالوا ان يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة ، وأن معاوية أخذ برأي زياد في التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد ..

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه . فكانت امرأته « فاختة » بنت قرظة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو آثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له :

ــ ما أشار به عليك المغيرة ؟.. أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم .

واشتدت نقمة مروان بن الحكم ــ وهو أقرب الأقرباء الى معاوية ــ حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة ، وكتب الى معاوية : « ان قومك قد أبوا اجابتك الى بيعتك » . فعزله معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص . فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب الى أخواله من بني كنانة فنصروه وقالوا له :

(١) الرفق واللين .

ـ نحن نبلك في يديك وسيفك في قرابك • فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه •• الرأي رأيك ، ونحن طوع يمينك ••

ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير الى دمشق ، فذهب الى قصر معاوية وقد أذن للناس ، فمنعه الحاجب لكثرة من رآى معه فضربوه واقتحموا الباب • ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول • فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع ، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته •

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بني أمية من بيعة يزيد، بل كان سعيد بن عثمان بن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة لأنه ابن عثمان الذي تذرع معاوية الى الخلافة باسمه فقال لمعاوية :

ـ يا أمير المؤمنين •• علام تبايع ليزيد وتتركني !•• فوالله لتعلم أن أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه ، وانك انما نلت ما نلت بأبي ••

فسرى (١) معاوية عنه •• وقال له ضاحكا هاشا :

ـ يا ابن أخي !•• أما قولك ان أباك خير من أبيه ، فيوم من عثمان خير من معاوية •• وأما قولك ان أمك خير من أمه ، ففضل قرشية على كلبية فضل بين ، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فانما الملك يؤتيه الله من يشاء •• قتل أبوك رحمه الله فتواكلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب ، فنحن أعظم بذلك منة عليك ، وأما أن تكون خيرا من يزيد فوالله ما أحب أن داري مملوءة رجالا مثلك بيزيد •• ولكن دعني من هذا القول وسلني أعطك ، وولاه خراسان ••

فكان أكبر بني أمية أعظمهم أملا في الخلافة بعد معاوية ، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها ، وهؤلاء ـ وان جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن ـ لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التي تؤذن بالبقاء وتبشره بالضمان والقرار ••

---

(١) سرى عنه أو عن قلبه كشف عنه الهم •

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والاكراه •• وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء ••

وظهر من اللحظات الأولى ، ان المغيرة بن شعبة كان سمسارا يصافق (١) على ما لا يملك •• فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف في غيرهما ، فاذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد ، واذا البصرة تتلكأ في الجواب وواليها يرجىء الأمر ويوصي بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية في حياته ، واذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور ، واذا بالحجاز يستعصي على بني أمية سنوات ، واذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين ، ولو وجدت خارجا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز ••

بل يجوز أن يقال ـ مما ظهر في حركة الحسين كل الظهور ـ أن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين • فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه ، الا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب •

والحوادث التي تلت حركة الحسين الى ختام عهد يزيد أدل مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه ، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين •

ونحن اليوم نعلم من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر في عهد يزيد أو بعد عهده ، فيخيل الينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء • ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها طوالع ملك تعنو (٢) له الرؤوس ويرجى له طول البقاء •

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد في الخلافة رضى المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل

---

(١) يبايع ويساوم • (٢) تخضع •

والدولة ، وكان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم اياه ، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم الى سياسته واعتمادهم على صلاحه واصلاحه ..

ولكنه على نقيض ذلك ، كان كما علمنا رجــلا هارلا في أحوج الدول الى الجد ، لا يرجى له صلاح ولا يرجى منه اصلاح. وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفــة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية او المصانعة ، ولو قبضوا مثل هذا الثمن ليبايعوا وليا للعهد شرا من يزيد لما همهم أن يبايعوه وان تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق ..

وأعجب شيء أن يطلب الى حسين بن علي أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين ، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق في الخلافة وصاحب القدرة عليها .. ولا مناص للحسين من خصلتين : هذه ، أو الخروج !.. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه ..

ان بعض المؤرخين من المستشرقــين وضعــاف الفهم مــن الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان في كف الميزان .

وكان خليقا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية في نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة ، وأنه كان رجلا يؤمن أقوى الايمان بأحكام الاسلام ويعتقد أشد الاعتقــاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمــة العربية قاطبة في حاضرها ومصيرها . لأنه مسلم ولأنه سبط محمد ... فمن كان اسلامه هداية نفس فالاسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت ..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر ، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين في أصغر صغيرة يباشرها المرء سرا أو علانية ، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت السنتهم والسنة الصنائع والأجراء دون ذلك .

فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرا على الدين في رأس الدولة

وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين ؟ وكيف يسام أن يرشح للامامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه الا أنه ابـن أبيه ؟٠٠

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودرايـة بشؤون الملك والرئاسة ، وكان له مع هـذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيم ما انحرف وتملي له فيما عجز عنه ٠ وهذا ابنه القائم في مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون ، الا من كان عونا على شر أو موافقا على ضلالة ٠ فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للامامة الا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير ؟٠٠

ثم هي خطوة لا رجعة بعدها اذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة ٠ فاذا بايع يزيد فقد وفى له بقية حياته كما وفى لمعاوية بما عاهده عليه ، ولا سيما حـين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج ٠

فملك يزيد لم يقم على شيء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الاسلامية ٠ ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فانما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا يحمد له حالة من الأحوال ، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه في أذهان الناس بالغض من الحسين في سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه ٠ فكانوا يسبون عليا على المنابر وينعتونـه بالكذب والمروق والعصيان ، وكانوا يتحرون أنصاره حيـث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل منه بمشهد من الناس ، والا أصابهم العنت والعذاب وشهروا في الأسواق بالصلب والهوان٠ فمجاراة هذه الأمور كلها في مفتتح ملك جديد معناه أنها سنة قد وجبت واستقرت الجيل بعـد الجيـل بغير أمـل في التغيير والتبديل ٠ فمن أقر هذه السنة في مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يوما بعد يوم ، وازداد مع الزمن ضعفا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه ٠

هذه هي البواعث النفسية التي كانت تجيش في صدر الحسين يوم دعاه أولياء بني آمية الى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته في امامة المسلمين ، كائنا من كان القائم بالامر وبالغا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة ٠وهي بواعث لا تثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه في اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما ، وهما الخروج ان كان لا بد خارجا في وقت من الأوقات ، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له ايمان ٠٠

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها ــ اذا نظرنا اليها نظرة واسعة ــ فهي أنجح للقضية التي كان ينصرها من مبايعة يزيد ٠

فقد صرع الحسين عام خروجه ، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات ٠٠٠

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل اصابه في كربلاء ، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير ٠

ولم تعمر دولة بني آمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل، لم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة !٠٠ وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذي سكن في جثمانها حتى قضى عليها ، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقا الى الأسماع والقلوب ٠٠

ولاصابة هذه الحركة في نتائجها الواسعة دخل في روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضي الله عنه ، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه ٠ فلم يخامره الشك في مقتله ذلك العام ، ولا في عاقبة هذه الفعلة التي ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام ٠

فقال ماربين الألماني في كتابه (السياسة الاسلامية) : « ان حركة الحسين في خروجه على يزيد انما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الاذعان وعز عليه النصر العاجل ، فخرج بأهله وذويه

ذلك الخروج الذي يبلغ به النصر الآجل بعد موته ، ويحيي به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة » ·

فان لم يكن رأي الكاتب حقا كله ، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه ويصدق ذلك ـ في رأينا ـ على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذي يرتضيه ، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحيق ببني أمية من جراء قتله ·· فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه ما لم يكن ليبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء ·

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه في الحجاز ، فقال لهم : « ان الموت حق على ولد آدم » ولم يخف عليه أنه يركب الخطة التي لا يبالي راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء ·

لكنه لم يكن ييأس من اقناع الناس والتفافهم به منذ خطوته الأولى · ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم ، وأبوا عليه أن ينصرف الى أي منصرف قبل التسليم المبين ، مسوقا على الكره منه الى عبيد الله بن زياد ··

وتتباين آراء المتأخرين خاصة في خروج الحسين بنسائه وأبنائه ، أكان هو الاحزم والاكرم أم كان الاحزم والاكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو اعراضهم عنه وضعفهم في تأييده ·

وليس للمتأخرين أن يقضوا في مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم ، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربي وعاداته في أشباه هذه المواقف · وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية في البعوث التي يتصدى لها المرء متعمدا القتال دون غيره فضلا عن البعوث التي قد تشتبك في القتال وقد تنتهي بسلام كبعثة الحسين ·

فكان المقاتلون في وقعة ذي قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل ـ أي أحزمتها ـ قبل خوض المعركة ، وكان المسلمون والمشركون معا يصطحبون الحلائل والذراري في غزوات النبي عليه السلام ، وكان مع المسلمين في حرب الروم

صفوة نساء قريش وعقائل بيوتاتها ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة في غزواته وحروبه ، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات ، وهي عادة عربية عريقة يقصدون بها الاشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه ، وفي معلقة ابن كلثوم اشارة مجملة الى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول :

على آثارنا بيض حسان
نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم
بعولتنا اذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضي الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه ان قضي عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم في أنفسهم وفي أبنائهم واموالهم ، لانهم يطلبون به ما هو أعز على المؤمن من النفس والولد والمال ، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه ٠

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة في يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم ، اذا غلبوه وأخفق في مسعاته ٠٠ فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر ، ويكونون أبغض ما يكونون وهو مخذول ٠٠

والمسلم الذي ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته ، والا فما هو بناصره على الاطلاق ، وتنقلب الآية في حالة الخذلان ، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذي يوشك أن ينقلب عليه ٠

صواب الشهداء

وجملة ما يقال ان خروج الحسين من الحجاز الى العراق ، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التي تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها ٠٠

وانها قد وصلت الى نتائجها الفعالة من حيث هي قضية عامة تتجاوز الأفراد الى الأعقاب والاجيال ، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حربا لبني أمية ••

انما يبدو الخطأ في هذه الحركة حين ننظر اليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى ، وهي زاوية العمل الفردي الذي يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين اليه ••

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن وحيثما كانت الوسيلة ••

وعلة ذلك ظاهرة قريبة ••

وهي أن الحسين رضي الله عنه طلب الخلافة بشروطها التي يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن ومهما تتطلب من وسيلة ••

وهنا غلطة الشهداء ••

بل قل : هنا صواب الشهداء ••

ومن هو الشهيد ان لم يكن هو الرجل الذي يصاب ويعلم أنه يصاب لان الواقع يخذله ولا يجري معه الى مرماه ؟

منذ القدم ، أخطأ الشهداء هذا الخطأ ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة ••

فالحسين رضي الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تتسنى خلافة الراشدين ، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية التي يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون اليها بوسائلها ••

فكانت عنايته بالدعوة والاقناع أعظم جدا من عنايته بالتنظيم والالزام ••

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هي التي أوصى بردها الى أصحابها قبل قتله ••

وتلك عقبة من العقبات التي تعوق الدعوات الكبار ، ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل ••

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية ، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه • فلعله كان ميسورا له بعد أن تجمع حوله الأنصار وبايع الحسين على يديه ثلاثون ألفا كما جاء في بعض الروايات • ففي تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالي الأموي ويستولي عليه وينشىء الحكومة الحسينية فيه • ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة الى أطراف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد ••

فاذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا الى الكوفة بعبيد الله بن زياد ، فقد سيق عبيد الله هذا في يوم من الأيام الى يديه وكان في وسعه أن يبطش به ويستوي على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرا من أعنف أنصاره ••

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه في رأيه ، أو لأنه اعتقد أن الحق بين وأن الباطل بين ••• فلا حاجة به بعد التمييز بينهما الى فتكة الغدر كما سماها ، ولا محل عنده لاهدار الدماء وهو ينعي على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات ••

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه في الخلافة قائم على شيء واحد وهو اقبال الناس اليه طائعين ومبايعتهم اياه مختارين • فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفا في اليقين ، فالرأي عنده أن يكتب الى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم ، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا اليه ••

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن ، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق ••

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين ••

ولم يكن لها ما تذكر به في أقرب جيرة لها فضلا عن أرجاء لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة ••

لكنه في بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذي عينين ..

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء في سبيل العقيدة والايمان .. بعد العهد الذي كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه ان خالفوه في أمر الاسلام .. بعد العهد الذي كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفي أيديهم السلاح والعتاد ومن ورائهم المعاقل والأزواد ... بعد العهد الذي تغير فيه الناس ، وخيل الى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون ..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد في عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين ؟ ان كلمة واحدة قالها الحسين في ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب ، وذلك حيث قال : « الناس عبيد الدنيا، والدين لعق (١) على ألسنتهم يحوطونه ما درت به معائشهم ، فاذا محصوا (٢) بالبلاء قل الديانون » .

ان الطبائع الأرضية لا تنخدع في صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لا تخرج من نطاقها المحدود ولا تصدق ما وراءه من الآمال والوعود .

انها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لا تعرف غيرها من طريق، انها تؤثر القنديل الخافت في يدها على الكوكب اللامع في السماء ، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع في السماء ، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد ..

انها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد ولا تنظر الى السراب ..

---

(١) لعق الصبي العسل لحسه أي أكله باصبعه . (٢) محص الله الذنب اذهبه . ومحص الذهب بالنار خلصه مما يشوبه من التراب .

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء ••

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات ••

وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو آدوم من الحياة ••

وشتان طبيعة وطبيعة ، وشتان خطأ الشهداء و[illegible] المساومين •

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التي يصلح عليها أمر بني الانسان ، فان بني الانسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين ، وانهم لهم الشهداء •

وانهم لعلى صواب في المدى البعيد ، وان كانوا على خطأ في المدى القريب •• مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والاخلاد ••

من هؤلاء كان الحسين رضي الله عنه ، بل هو آبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع في تاريخ البشر آجمعين •

فلا جرم يصيب في المدى البعيد ويخطيء في المدى القريب •• مدى المنفعة التي تناله هو في معيشة يومه ، وهو المدى الذي لا يأسف عليه ولا ينص (١) الركاب اليه ••

---

(١) نص الراكب ناقته : رفعها في السير وحركها حتى استقصى ما

كربلاء

الحرم المقدس

عرفت قديما باسم « كور بابل » ثم صحفت الى كربــلاء ، فجعلها هذا التصحيف عرضة لتصحيف آخر يجمع بــين الكرب والبلاء ، كما رسمها بعض الشعراء ··

ولم يكن لها ما تذكر به في اقرب جيرة لها فضلا عن ارجاء الدنيا البعيدة منها ·· فليس لها من موقعها ، ولا تربتها ، ولا من حوادثها ، ما يغري أحدا برؤيتها ثم يثبت في ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها ·

فلعل الزمن كان خليقا أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصرا بعد عصر ، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود ·· الا أن تذكر « نينوى » وجيرتها فتدخل في زمرة تلك الجيرة بغير حساب ·

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق اليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى ، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الاسلام كله · ومن حقه أن يقترن بتاريخ بني الانسان حيثما عرفت لهذا الانسان فضيلــة يستحــق بها التنويه والتخليد ·

فهي اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى ، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة ، ولكنها لو أعطيت حقها مــن التنويه والتخليد ، لحق لها أن تصبح مزارا لكل آدمي يعرف لبني نوعه نصيبا من القداسة وحظا من الفضيلة ، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائــل والمناقب أسمى وألزم لنوع الانسان من تلك التي اقترنت باسم كربلاء ، بعد مصرع الحسين فيها ·

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التي بها الانسان انسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم ·· فهي مقرونة في الذاكرة بأيام الحسين رضي الله عنه في تلك البقعة الجرداء ·

وليس في نوع الانسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الايمان والفداء والايثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد في المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة في وجه الموت المحتوم •• وهي ـ ومثيلات لها من طرازها ـ هي التي تجلت في حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين ، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط في موطن من المواطن تجليها في تلك الحوادث ، وقد شاء القدر أن تكون في جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم ، لأنها في الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات ••

وحسبك من تقويم الأخلاق في تلك النفوس ، أنه ما من أحد قتل في كربلاء الا كان في وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة، ولكنهم جميعا آثروا الموت عطاشا جيعا مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة ، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة ••

أو حسبك من تقويم الأخلاق في نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم ، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه الا أن يكون هو أهلا للاستشهاد في سبيله وسبيل دعوته ، وأن يكون في سليقة الشهيد الذي يأتم به الشهداء •

نموت معـك

أقبل الفتى الصغير علي بن الحسين على أبيه •• وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم فسأله :

ـ ألسنا على الحق ؟••

قال الوالد المنجب النجيب :

ـ بلى والذي يرجع اليه العباد ••

فقال الفتى :

ـ يا أبه !•• فاذن لا تبالي !••

وهكذا كانوا جميعا لا يبالون ما يلقـون ، مـا علموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون ••

وأراد الحسين ـ وقد علم أن التسليم لا يكون ـ أن يبقى للموت وحده وألا يعرض له أحدا من صحبه • فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم في كل مرة : « لقد بررتم وعاونتم والقوم

لا يريدون غيري • ولوقتلوني لم يبتغوا غيري أحدا •• فاذا جنكم (١) الليل فتفرقوا في سواده وانجوا بأنفسكم » ••

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة ، وفزعوا من رجائهم اياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء • وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد : « معاذ الله والشهر الحرام •• ماذا نقول للناس اذا رجعنا اليهم ؟ أنقول لهم انا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا ، تركناه غرضا للنبل ودريئة (٢) للرماح وجزرا للسباع ، وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟ معاذ الله •• بل نحيا بحياتك ونموت معك •• » •

قالوا له نموت معك ولك رأيك : ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه ايثارا لنجاتهم ونجاته • ولو خادعوا أنفسهم قليلا لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة ، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه ، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت ، وهم جميعا على ذلك •

ولم يكونوا جميعا من ذوي عمومته وقرباه ، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التي ترهب العار ولا ترهب الموت • فقال له زهير بن القين : « والله لوددت أني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك » •

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة : « أنحن نخلي عنك ؟ وبم نعتذر الى الله في أداء حقك ؟ لا والله حتى أطعن في صدورهم برمحي وأضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم لقذفتهم بالحجارة • والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك • وأما والله لو علمت أنني أقتل ثم أحيى ثم أحرق ثم أحيى ثم أحرق ثم أذرى ويفعل بي ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك •• » •

---

(١) جنه الليل : ستره وأخفاه • (٢) كل ما استتر به الصياد ليختل الصيد أي يخدعه •

وجيء الى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه في فتنة الديلم ، فعلم أن الديلم آسروه ولا يفكون اساره بغير فداء ، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو في حل من بيعته ويعطيه فداء ابنه . فأبى الرجل اباء شديدا ، وقال : « عند الله أحتسبه ونفسي » ثم قال للحسين : « هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك . لا يكن والله هذا أبدا » ..

وقد تناهت هذه المناقب الى مداها الأعلى في نفس قائدهم الكريم .. يخيل الى الناظر في أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت في سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم ، فلا يدرى أكان في شجاعته أشجع ، أم في صبره أصبر ، أم في كرمه أكرم ، أم في ايمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغا من تلك المناقب المثلى أقصى مداه .. الا انه كان يوم الشجاعة لا مراء ، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التي تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها . فكان الحسين ـ شبل علي ـ في شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان في أبناء آدم وحواء .

ملك جأشه .. وكل شيء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم ، ويغري بالدعة والمجاراة ..

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه في نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية وأناة ولم يملكه وثبة واثب الى الغضب أو هيجة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال وفي حومة القتال قويا بصيرا ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الأسف قط في ذلك الموقف المرهوب الا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه . فقال وهو ينظر الى الأخبية ومن فيها : « لله در ابن عباس فيما أشار به علي ! » .

وجلس ليلة القتال في خيمته يعالج سهاما له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل :

يا دهر أف لـك مـن خليـل
كم لك بالاشـراق والأصيـل
مـن صاحـب ومـاجد قتيـل
والدهر لا يقنـع بالبديـل
والأمـر في ذاك الى الجليـل
وكـل حـي سالـك سبيلـي .

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألما على أله · وسمعته أختـه زينب ، فلم تقو على حنانها ووجلها ، وخرجت اليه من خبائها حاسرة تنادي : « واثكلاه ! اليوم مات جدي رسول الله وأمي فاطمة الزهراء وأبي علي وأخي الحسين فليت الموت أعدمنـي الحياة يا حسيناه ! يا بقية الماضين وثمالة الباقين ! » .

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذي بات عليه ، وقال لهـا :

ـ يا أخت ! لو ترك القطا لنام ·· ولم يزل يناشدهـا ·· ويعزيها وهو في قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت واباء التسليم أو النزول على « حكم ابن مرجانة » كما قال ·· ثم احتملها مغشيا عليها حتى أدخلها الخباء ··

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب وتحضر المطالب أو تغيب · وهذه الخلائق العلوية في صدر الانسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته ، ومـن الدول ومـا حفظته أو ضيعته ، بل أحق بالبقاء من رواسي الأرض وكواكب السماء ··

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التي تناقضها أتم مـا يكـون التناقض بين طرفين ، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين ، فكل ما فيها أرضي مظلم مسف بالغ في الاسفاف ، وليس فيها من النفحـة العلوية نصيب ··

أللمصادفات نظام وتدبير ٠٠؟!

نحن لا نعلم الا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من الوشائج والصلات ٠٠ ولكنها ـ لذلك ـ هي الأعاجيب التي تستوقف النظر لعجبها العاجب ، وان لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير ٠

فجيرة كربلاء كانت قديما من معاهد الايمان بحرب النور والظلام ، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد وأهرمان ٠ ولكنه كان في حقيقته ضربا من المجاز وفنا من الخيال ٠

وتشاء مصادفات التاريخ الا أن ترى هذه البقاع التي آمنت بأورمزد وأهرمان حربا هي أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه ٠٠

وهي عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الاسلام والمجوسية في تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية لأن المجوسي كان يدافع شيئا ينكره ٠٠ ففي دفاعه معنى من الايمان بالواجب كما تخيله ورآه ، ولكن الجيش الذي أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشا يحارب قلبه لأجل بطنه أو يحارب ربه لأجل واليه ٠ اذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد ، ولم يكن فيهم كافر ينفح (١) عن عقيدة غير عقيدة الاسلام ، الا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه ، ولا نخالهم كثيرين ٠٠

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة ، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق ٠٠ فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره ، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون ٠٠
ومن ثم كانوا في موقفهم ذاك ظلاما مطبقا ٠ ليس فيه من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء ٠٠ فكانوا حقا في يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور٠

---

(١) يدافع ٠

أقربهم الى العذر يومئذ من اعتذر بالفرق والرهبة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد .. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء

وكان منهم أناس كتبوا الى الحسين يستدعونه الى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد ، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه ، لأن جوابهم ان سألوه في شأن مجيئه اليهم : انني جئتكم ملبيا ما دعوتهم اليه !..

وركب أناسا منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الاثم فيما اقترفوه عرفانا لا تسعهم المغالطة فيه ، ومن هؤلاء رجل من بني أبان بن دارم كان يقول :

ـ قتلت شابا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود .. فما نمت ليلة منذ قتلته الا آتاني فيأخذ بتلابيبي حتى يأتي جهنم فيدفعني فيها ، فأصبح فما يبقى أحد في الحي الا سمع صياحي .

ورأى هذا الرجل صاحب له بعد حين وقد تغير وجهه واسود لونه ، فقال له : « ما كدت أعرفك » ، وكان يعرفه جميلا شديد البياض ..

ومنهم من كان يتزاور (١) عن الحسين في المعمعة ، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه ، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين ، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم اياه . فاذا هم يحاربون رأيهم الذي يدينون به ، ووليهم الذي يضمرون له الحرمة والكرامة ، وفي ذلك خزيهم الأثيم .

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم في أيام كربلاء .

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع الى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالايذاء حيث لا تلجئه الضرورة اليه ، وليس قتل الطفل الصغير الذي يموت من العطش وهو على مورد الماء

(١) يعدل وينحرف .

بالأمر الذي يلجىء اليـ الجبن أو يلجىء اليه طلب المال ، وقد حدث في أيام كربلاء من أمثال هذا البغي اللئيم شيء كثير رواه الأمويون ، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بني أمية !

وينبغي أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل الى فهمه بغيره، وهو نكسة الشر في النفس البشرية ، حين تلج بهـا مغالطـة الشعور وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بهـا العنان ٠

فالرجل الخبيث المغرق في الخيانـة قـد يتصرف في خلوته تصرف الأنذال ثم لا يبالي أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء ٠ ولكن أربعة الالاف لا يتصارحون بالنذالة بينهـم ولا يقول بعضهم لبعض أنهم يعملون ما يستحقون بـه التحقـير والمهانة ولا تقبل لهم فيه معذرة ولا علالة ٠ وانما شأنهم في هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطـاعوا ليظهروا في ثوب الغلاة المصدقين الذين لا يشكون لحظة في صدق ما يعملون ، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء مـن النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده ٠٠

وتلك لجاجة المغالطة في الشعور ٠٠

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم ٠٠ يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع ، فاذا هو قد خلع العذار (١) وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال كأنما هو القائل : « دع عنك لومي فان اللوم اغراء » ٠

وتحب المرأة أن تستحي وتتوارى من المسبة في هواها ، ثم يغلبها هواها فاذا هي قد ألقت حياءها للريح ، وصنعت ما تحجم عنه التي لم تنازع نفسها قط في هوى ، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار ٠

---

(١) العذار : جانب الوجه المحاذي للاذن والشعر النابت عليه ٠ وخلع فلان عذاره : أي ألقى عنه الحياء فصار يفعل ما يشاء ولا يبالي ٠

واندفاع المتهجمين على الشر في حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضي بهـا شريعـة القتال ، لهو الاندفاع الذي يسبر لنا عمق الشعور بالاثم في نفوس أصحاب يزيد • وقد رأينا من قبـل عمق الشعور بالحـق في أصحاب الحسين ، وما بنا من حاجة الى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والايذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان ، كشمر بن ذي الجوشن ، ومن جرى مجراه •• فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل اليه •

على أنها ــ بعد كل هذا ــ حرب بين الكرم واللؤم ، وبين الضمير والمعدة ، وبين النور والظلام •• فشأنها على أية حال أن تصبح مجالا من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم ، وقد بلغت في ذلك أقصى مدى الطرفين •

ومن المتعذر بعد وقـوف هاتين القوتين موقـف المراقبـة والمناجزة ، أن نتقصى أوائل القتال ونتتبع ترتيب الحـوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها •• فان الأقوال في سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد ، سواء كـان هـذا الترتيب في رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد •

الا أن الترتيب الطبيعي يستبين للعقل من سبب الوقوف في ذلك المكان ، وهو منع الحسين أن ينصرف الى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش الى التسليم ، وكان الموقف كما وصفـه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون :

منع الفتى هينا (١) فجر عظائمـا
وحمي نمير (٢) الماء فانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء في بادىء الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعـد ، لم يكونوا على جزم بمـا يصنعون في مواجهة الحسين وصحبه •• فلما اندفـع بعـض

---

(١) الهين بوزن سيد وتخفيف الياء : السهل اللين والضعيف الذليل •
(٢) النمير من الماء الناجع في الري •

أصحاب الحسين الى الماء بالقرب والأداوي (١) ، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلوا لهم سبيل النهر خوفا وحيرة ، فشربوا وملأوا قربهم وأداواهم بما يغنيهم عن الاستقاء الى حين .

والظاهر أن الشر كله كان في حضور شمر بن ذي الجوشن على تلك الساحة ، متربصا كل التربص بمن يتواني في حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء ، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وامارة الري بعد عزل عمر بن سعد بن أبي وقاص .. فبطل التردد شيئا فشيئا ، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا الى الماء . ولبثوا أياما وليس في معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان الا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها ، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم ، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة .

وفي ذلك المأزق الفاجع ، نضحت طبائع اللؤم في معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة في البنية الآدمية .. فاقترفوا من خسة الأذى ما تنزه عنه الوحوش الضاريات ، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له الوجوه ، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفا وامتعاضا لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة ، وبيان لما يلي من وقعها في النفوس وتسلسل تراثها الى أمد بعيد ..

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برح به العطش فلم يباله .. ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه ، وقد بح صوته من البكاء ، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم : « اتقوا الله في الطفل ان لم تتقوا الله فينا » فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه ، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران . « خذ اسقه هذا » .. فنفذ السهم الى أحشائه !!..

(١) جمع اداوة وهي اناء صغير من جلد يتخذ للماء .

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين : « ألا ترى الى الفرات كأنه بطون الحيات ؟!·· والله لا تذوقه حتى تموت ومن معك عطشا » ·

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب ، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع في فمه ·· فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم ، فرمى به الى السماء وقد شخص ببصره اليها وهو يقول : « ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين ! » ·

وقد كان منع الماء – قبل الترامي بالسهام – نذيرا كافيا بالحرب ، يبيح الحسين أن يصيب منهم من يتعرض للاصابة ·· ولكنه رأى شمر بن ذي الجوشن – أبغض مبغضيه المؤلبين عليه – يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها ، فأبى على صاحبه السلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه (١) وهو من أسد الرماة ·· لأنه كره أن يبدأهم بعداء ··

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة في الدفاع عن مولاهم ، وعلم أنهم لا يخلصون في حبه ، ولا يؤمنون بحقه ، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة ·· صنع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم ، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمي بسهم واحد من سهام القتال· فخرج لهم يوما بزي جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا عمامته ورداءه ، وأراهم أنه سيخطبهم ، فكان أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم ، لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ الى قلوبهم ويلمس مواقع الاقناع من ألبابهم · فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم ويتقوا أثر موعظته فيهم ، وهو بتلك الهيئة التي تغضي عنها الأبصار وتعنو لها الجباه ··

---

(١) أصمى الصائد الطير : رماه فقتله مكانه وهو يراه ·

ولكنه صابرهم حتى ملوا ، و ن اخوانهم ضجيجهم هـذا الذي يكشفون به عن عجزهم وخوفهـم ، ولا يوجـب الثقة بدعواهم عند اخوانهم ٠٠ فهدأوا بعد لحظات وسمعوه بعـد الحمد والصلاة : « أنسبوني من أنا ٠٠ هل يحل لكم قتلـي وانتهاك حرمتي ؟ ألست ابن بنت نبيكم ؟٠٠ أولم يبلغكم ما قاله رسول الله لي ولأخي : هذان سيدا شباب أهل الجنـة ؟ ويحكم ! ٠٠ أتطلبونني بفتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته ؟٠

ثم نادى بأسماء انصاره الذين استدعوه الى الكوفة ثم خرجوا لحربه في جيش ابن زياد ٠ فقال : « يا شيث بن الربعي ! يـا حجار بن أبحر ! يا قيس بن الاشعث ! يا يزيد بن الحـارث ! يا عمر بن الحجاج ! ٠٠ ألم تكتبوا الي أن قد أينعت الثمـار واخضرت الجنبات ، وانما تقدم عىى جند لك مجند ؟ » ٠٠

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لاقناع ، وتحولت الى صفه فئة تعلم انها تتحول الى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل ، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال ٠

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام الى السيف ٠٠ فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات في أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب ، فركب فرسه وتعرض لهم قائلا : « يا أهل الكوفة ! نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان حقا على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتى الآن أخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمـة وأنتم أمة ٠٠ ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، وانا ند وكم الى نصر حسين وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد ، فانكم لا تدركون منهمـا الا سوءا : يسمـلان (١) أعينكم ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع

(١) سمل عينه فقأها ٠

النخل ويقتلان أماثلكم وقراءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه » •

فوجم منهم من وجم ، وتوقح منهم من توقح ، على ديدن (١) المريب المكابر اذا خلع العذار ولم يأنف من العار ، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين الى عبيد الله بن زياد •

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين الى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين • ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج ، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد الذي أرسلوه في أول الأمر ليحلىء (٢) الحسين عن دخول الكوفة ، وقد كان يحسب أن عمله ينتهي الى هذه المراقبة ولا يعدوها الى القتال وسفك الدم •• فلما تبين نية القتال ، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلا قليلا ، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد •• حتى راب امره صاحبه المهاجر بن اوس فقال له :

والله ان أمرك لمريب •• ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك ••

ـ اني أخير نفسي بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ولو قطعت أو حرقت ••

ثم ضرب فرسه ، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلا :

ـ لو علمت أنهم ينتهون الى ما أرى ما ركبت مثل الذي ركبت ، واني قد جئتك تائبا مما كان مني الى ربي ، مؤاسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك ! ••

---

(١) عادة • (٢) حلأ القوم : منعهم وطردهم •

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون ايمانه ويودون لو يلحقون به الى معسكر الحسين ، ويزعجهم أن يتحول أمامهم الى المعسكر وهم ناظرون اليه ، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر في أسباب ندمه ،لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة في ميدان القتال •• فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد في فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده ، وبعيد على العقل أن يصدق في هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة وأنهم قد « تأدبوا بأدب الدولة » أدبا يغلب شعور الجماعة وايمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوي ، ويهون عليه قتل سبط النبي في هذا السبيل ، وكيف وان منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه اليه ليقود « الجند المجند » الى قتال يزيد ؟فكلامهم في البيعة الحاصلة لغط يلوكونه بألسنتهم ولا يستر ما في طويتهم ، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج في مكانه وحركته القدوة التي يريدونها ولا يقوون عليها ، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد •

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقا وأشدهما حيرة وأعجلهما الى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى المعسكرين ••

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران احدهما صغير يلح عليه العطش والضيق، ولكنه كان مطمئنا الى حقه يلقى الموت في سبيله ويزيده العطش والضيق طمأنينة الى هذا المصير ••

والمعسكر الآخر أكبر المعسكرين ولكنه كان « يخون » نفسه في ضمير كل فرد من أفراده ، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب ، يحز في الأعصاب ويقذف المرء الى الخلاص كيفما كان الخلاص ••

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهما في الفضاء كأنه كان متشبثا بصدره فاستراح منه بانطلاقه ••

فزحف الى مقربة من معسكر الحسين ، وتناول سهما فرماه عن فرسه الى المعسكر وهو يصيح :

ــ أشهدوا لي عند الأمير انني أول من رمى الحسين ..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل في نية القوم ، وقال الحسين وهو ينظر الى السهام وينظر الى أصحابه :

ــ قوموا يا كرام فهذه رسل القوم اليكم .

وبذلك بدأ القتال ..

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة ، وان كان على انتظاره اياها قد تريث حتى يبدأوه بالعدوان من جانبهم ، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبا لا خلاف فيه ..

فاختار له رابية يحتمي بها من ورائه ، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقا لا يسهل عبوره .. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه ، وهم في كثرتهم التي ترجع عدة صحبه ستين ضعفا قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه .

وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا .. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الابل ويحملون صنوفا مختلفة من السلاح ..

ومع هذا التفاوت البعيد في عدة الفريقين ، كان العسكر القليل كفؤا للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التي كانت دعوة مجابة في ذلك العصر ، اذا اختارها أحد الفريقين ..

فان آل علي جميعا كانوا من أشهر العرب ــ بل من أشهر العرب والعجم ــ بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات ، ومنهم من كان يلوي الحديد فلا يقيمه غيره ، ومنهم محمد بن الحنفية الذي صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم في زمانه ، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان في أرض الروم يفخر به أهلها .. فأرسله ملكهم الى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه . فجلس محمد بن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومي أن يقيمه ، فكان كأنما يحرك جبلا لصلابة أعضائه وشدة أسره .

فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات ٠

والحسين رضي الله عنه قد كان هو ومن معه من شباب آل علي ممن ورث هذه القوة البدنية كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد ، وكانوا كفؤا لمبارزة الأنداد واحدا بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة ، ولا يبقى منهم غير الهمل (١) يتبددون في منازلة الشجعان ، كما تتبدد السائمة (٢) المذعورة بالعراء ٠٠

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمي بالسهم ومضاء الضرب بالسيف، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر ، لأن مزاملة الحسين في مثل تلك الرحلة هي وحدها آية على الشجاعة في ملاقاة الموت وكرم النحيزة (٣) في ملاقاة الفتنة والاغراء ٠٠ فاذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله ، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم في الغلب بضعيف ٠

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد ، فأشرع (٤) أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها ٠٠

فعدل الفريقان الى المبارزة ، فلم يتعرض لها أحد من جيش ابن زياد الا فشل أو نكص على عقبيه ، فخشي رؤوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها ، وصاح عمر ابن الحجاج برفاقه :

ـ أتدرون من تقاتلون ؟٠٠ تقاتلون فرسان المصر وقوما مستميتين ٠ لا يبرز اليهم منكم أحد فانهم قليل ٠٠ لو لم ترموهم الا بالحجارة لقتلتموهم ٠٠

---

(١) الابل بلا راع ٠ (٢) الماشية ترعى حيث شاءت ٠ (٣) الطبيعة والسجية ٠

(٤) أشرع الرمح نحوه سدده ٠

فاستصوب عمر بن سعد مقاله ، ونهى الناس عن المبارزة ..
فلما برز عابس بن أبي شبيب الشاكري بعد ذلك وتحداهم للمبارزة ، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيدا منه . فقال لهم عمر :

ـ ارموه بالحجارة ..

فرموه من كل جانب .. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره (١) وحمل على من يليه ، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات .

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين ، وهي تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل .. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان في جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد : « ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليـوم من هذه العدة اليسيرة ؟ .. ابعث اليهم الرجال والرماة » فبعث اليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحسين بن نمير ، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال .

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندي ممن عدل الى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه . فلما تكاثر عليهم رمـي النبال والسهام ، جثا بين يدي الحسين وأرسل مائة سهم لم يكد يخيب منها خمسة أسهم .. وقاتل حتى مات ..

وكان الذين عدلوا الى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة في القتال وهجمة على الموت ، ومنهـم الحر بن يزيد الذي تقدم ذكره . فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف عـن حرب الحسين أو بالعدول الى صفه .. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم ، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه .. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعا وأقتلها نبلا حتى سقط مثخنا بالجراح وهو ينادي الحسين : « السلام عليكم يا أبا عبد الله » .

ولم يكن من أصحاب الحسين الا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه .. فكان نافع بن هلال البجلي يكتب اسمه على

---

(١) المغفر : حلقات من حديد تسبغ على العنق فتقيه من ضرب السيوف

أفواق (١) نبله ويرسلها فيقتل بهـا ويجرح ، وقلما يخطىء مرماه · فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا ، ثـم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه ، فحسبوه يلين للوعيـد ويجزع من التمثيل به ، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم : « لقد قتلت منكم اثني عشر رجلا سوى من جرحت ، ولو بقيت لي عضد وساعد لزدت » ·

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضي الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم ، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون الا بـين يديـه · وكلما سقط منهم صريع ، أسرع الى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره ·

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة ، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التي آوى اليها النسـاء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته · ثم أخذوا في احراقها ، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم ، فرأى رضي الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم ، فقال لهم :

ــ دعوهم يحرقونها ·· فانهم اذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا اليكم منها ··

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه في تلك المحنة المتراكبة التي تعصف بالصبر وتطيش بالألبـاب ·· وهو جهـد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم ، ولا ينهض به الا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء ·· فانه رضي الله عنه كان يقاسي جهد العطش والجوع والسهر ونزف الجراح ومتابعة القتال ، ويلقي باله الى حركات القوم ومكائدهم ، ويدبر لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد ، ثم هو يحمل بـلاءه وبلاءهم ·· ويتكاثر عليه وقر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع

---

(١) جمع فوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم ·

بشهيد من شهدائهم . ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله الى جانب اخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون في حشرجة الصدور ما هم فيه .. فيطلبون الماء ويحز طلبهم في قلبه كلما أعياه الجواب ، ويرجع الى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة .. ويقول في أثر كل صريع : « لا خير في العيش من بعدك » ويهدف صدره لكل ما يلقاه ..

وانه لفي هذا كله ، وبعضه يهد الكواهل ويقصم الأصلاب .. اذا بالرماح والسيوف تنوشه (١) من كل جانب ، واذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين الى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته ، وسقط كل من معه واحدا بعد واحد فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه ، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير ..

وكان غلام من آل الحسين ــ هو عبد الله بن الحسن أخيه ــ ينظر من الأخبية ، فرأى رجلا يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله ، فهرول الغلام الى عمه وصاح في براءة بالرجل :

ــ يا ابن الخبيثة .. أتقتل عمي ؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله ، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها .. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع من يليه ..

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه ، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه . وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون ، ويشد على الخيل راجلا ويشق الصفوف وحيدا ، ويهابه القريبون فيبتعدون ، ويهم المتقدمون بالاجهاز عليه ثم ينكصون .. لأنهم تحرجوا من قتله ، وأحب كل منهم أن يكفيه غيره مغبة وزره ، فغضب شمر بن ذي الجوشن وأمر الرماة أن يرشقوه بالنبل من بعيد ، وصاح بمن حوله :

---

(١) ناش الرجل الشيء : تناوله بيده .

ـ ويحكم !.. ماذا تنتظرون بالرجل !.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم ..

فاندفعوا اليه تحت عيني شمر مخافة من وشايته وعقابه .. وضربه زرعة بن شريك التميمي على يده اليسرى فقطعها ، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه ، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه ، ووجدت بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير اصابة النبل والسهام ، وأحصاها بعضهم في ثيابه فاذا هي مائة وعشرون .

ونزل خولي بن يزيد الأصبحي ليحتز رأسه ، فملكته رعدة في يديه وجسده ، فنحاه شمر وهو يقول له :

ـ فت الله في عضدك (١) !..

واحتز الرأس وأبى الا أن يسلمه اليه في رعدته ، سخرية به وتماديا في الشر ، وتحديا به لمن عسى أن ينعاه عليه ! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفا لا يطرقه الشك والاتهام ، فكان ضغنه هذا كله ضغنا لا معنى له ولا باعث اليه الا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام ، ويجعلوه تحديا مكشوفا كأنه معرض للزهو والفخار ، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى ! ولكنهم يبلغون به مأربهم اذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار ..

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع اليها مرتفع ..

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر اليها منحدرون كثيرون ..

فلم يكن في عسكر الحسين كله الا رمق واحد من الحياة باق في رجل طعين مثخن بالجراح ، تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات ..

---

(١) فت في عضده او ساعده : كسر قوته وأوهنه .

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبي المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال ..

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرمات يومه ، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فاذا هي حسبها من شرف مجد وثناء ..

تنادى القوم بمصرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعه الذي أثقله النزع وأوشك أن يجهل ما يسمع . فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحم الختام ، ولم يخطر له انه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال ، ولم يحسب حساب شيء في تلك اللحظة العصيبة الا أن يجاهد في القوم بما استطاع ، بالغا ما بلغ من ضعف هذا المستطاع ..

فالتمس سيفه فاذا هم قد سلبوه ، ونظر الى شيء يجاهد به فلم تقع يده الا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح .. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت ، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شيء ولا يبالي من يصيب وما يصاب . فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة أن تمتد اليه ، وانطلق هو يثخن فيهم قتلا وجرحا حتى أفاقوا له من ذعرهم ومن شغلهم بضجتهم وغنيمتهم . فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان .. فكان هذا حقا هو الكرم د نجد في عسكر الحسين الى الرمق الأخير .

خسة ووحشية

وكان حقا لا مجازا ما توخيناه حين قلنا انها طرفان متناقضان ، وأنها حرب بين أشرف ما في الانسان وأوضع ما في الانسان .

فبينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير في سبيل ايمانه ، اذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم في رأيهم — قبل رأي غيرهم — من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغني من جوع . فلو كان كل ما في عسكر الحسين

ذهبا ودرا لما أغنى عنهم شيئا وهم قرابة أربعة آلاف ٠٠ ولكنهم، ما استيقنوا بالعاقبة ـ قبل أن يسلم الحسين نفسه الأخير ـ حتى كان همهم الى الأسلاب التي يطلبونها حيث وجدوها ، فأهرعوا الى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلي والثياب التي على أجسادهن ، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة ٠ وانقلبوا الى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية ، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها ٠ ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد ، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره ٠

وقد يساق الغنم هنا معذرة للاثم بالغا ما بلغ هذا من العظم ، وبالغا ما بلغ ذلك من التفاهة ٠ لكنهم في الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع في مغنم كبير أو صغير ٠ فحرموا الري على الطفل الظامىء العليل وأرسلوا الى أحشائه السهام بديلا من الماء ، وقتلوا من لا غرض في قتله وروعوا من لا مكرمة في ترويعه ٠٠ فربما خرج الطفل من الأخبية ناظرا وجلا لا يفقه ما يجري حوله ، فينقض الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى من الأم والأخت والعمة والقريبة ، ولم تكن في الذي حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء ٠ فقد قتل فعلا في كربلاء كل كبير وصغير من سلالة علي رضي الله عنه ، ولم ينج من ذكورهم غير الصبي علي زين العابدين ٠٠ وفي ذلك يقول سراقة الباهلي :

عين جودي بعبرة وعويل
واندبي ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب علي
قد أبيدوا وسبعة لعقيل

وما نجا علي زين العابدين الا بأعجوبة من أعاجيب المقادير، لأنه كان مريضا على حجور (١) النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد ، فلما هم شمر بن ذي الجوشن بقتله ، نهاه عمر ابن سعد عنه اما حياء من قرابة الرحم أمام النساء ـ وقد كان له نسب يجتمع به في عبد مناف ـ وأما توقعا لموته من السقم المضني الذي كان يعانيه ٠٠ فنجا بهذه الأعجوبة في لحظة عابرة ، وحفظ به نسل الحسين من بعده ، ولولا ذلك لباد ٠

ثم قطعوا الرؤوس ورفعوها أمامهم على الحراب ، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنونها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم ٠٠ ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضي الله عنها :

ـ يا محمداه !٠٠ هذا الحسين بالعراء وبناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفي (٢) عليها الصبا ٠٠

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم ٠ فبكى العدو كما بكى الصديق !٠٠

لم تنقض في ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبي محمد عليه السلام من هذه الدنيا الى حظيرة الخلود : محمد الذي بر بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة الى النور ، ومن حياة التيه في الصحراء الى حياة عامرة يسودون بها أمم العالمين ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد ، واذا هم في موكب جهير يجوب الصحراء الى مدينة بعد مدينة : سباياه بنات محمد حواسر على المطايا وأعلامه رؤوس أبنائه على الحراب ، وهم داخلون به دخول الظافرين !

وبقيت الجثث حيث نبذوها بالعراء « تسفي عليها الصبا » ٠

فخرج لها مع الليل جماعة من بني أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء ٠٠ فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء الى حيث طلعت بهم على منظر لا يطلع القمر على مثله ـ شرفا ولا وحشة ـ في الآباد بعد الآباد ٠٠

---

(١) جمع حجر بكسر الحاء وهو الحضن ٠

(٢) أسفت الريح التراب حملته ٠

وكان يوم المقتل في العاشر من المحرم ·· فكان القمر في تلك الليلة على وشك التمام ·· فحفروا القبور على ضوئه ، وصلوا على الجثث ودفنوها ، ثم غادروها هناك في ذمة التاريخ · فهي اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين ، ومن حقه أن يطيف به كل انسان ، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحي الآدمي بين سائر الأحياء ·

فما أظلت قبة السماء مكانا لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء ··

موطن الرأس

اتفقت الأقوال في مدفن جسد الحسين عليه السلام ، وتعددت أيما تعدد في موطن الرأس الشريف ..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة الى كربلاء فدفن مع الجسد فيها ..

ومنها أنه أرسل الى عمرو بن سعيد بن العاص والي يزيد على المدينة ، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء ..

ومنها أنه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته ، فدفن بدمشق عند باب الفراديس ..

ومنها أنه كان قد طيف به في البلاد حتى وصل الى عسقلان ، فدفنه أميرها هناك وبقي بها حتى استولى عليها الافرنج في الحروب الصليبية .. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله الى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور . قال الشعراني في طبقات الأولياء : « ان الوزير صالح طلائع بك رزيك خرج هو وعسكره حفاة الى الصالحية ، فتلقى الرأس الشريف ووضعه في كيس من الحرير الأخضر على كرسي من الابنوس وفرش تحته المسك والعنبر والطيب ، ودفن في المشهد الحسيني قريبا من خان الخليلي في القبر المعروف » .

وقال السائح الهروي في الاشارات الى أماكن الزيارات : « وبها ــ أي عسقلان ــ مشهد الحسين رضي الله عنه : كان رأسه بها ، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون الى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة » .

وفي رحلة ابن بطوطة أنه سافر الى عسقلان « وبه المشهد

الشهير » حيث كان رأس الحسين بن علي عليه السلام ، قبل أن ينقل الى القاهرة » .

وذكر سبط بن الجوزي فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات ، وأنه لما جيء به بين يدي يزيد بن معاوية قال : « لأبعثنه الى آل أبي معيط عن رأس عثمان » وكانوا بالرقة ، فدفنوه في بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع ، وهو الى جانب سوره هناك .

فالأماكن التي ذكرت بهذا الصدد ستة في ست مدن هي : المدينة ، وكربلاء ، والرقة ، ودمشق ، وعسقلان ، والقاهرة ، وهي تدخل في بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية . وتكاد تشتمل على مداخل العالم الاسلامي كله من وراء تلك الأقطار ، فان لم تكن هي الأماكن التي دفن فيها رأس الحسين فهي الاماكن التي تحيا بها ذكراه لا مراء ..

وللتاريخ اختلافات كثيرة ، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية ، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال ، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام . فأيا كان الموضع الذي دفن به ذلك الرأس الشريف ، فهو في كل موضع أهل للتعظيم والتشريف . وانما أصبح الحسين ـ بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية ـ معنى يحضره الرجل في صدره وهو قريب أو بعيد من قبره . وان هذا المعنى لفي القاهرة ، وفي عسقلان ، وفي دمشق ، وفي الرقة ، وفي كربلاء ، وفي المدينة ، وفي غير تلك الأماكن سواء .

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد ..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرؤوس والنساء الى الكوفة ، فأمر ابن زياد أن يطاف بها في أحياء الكوفة ثم ترسل الى يزيد .

وكانت فعلة يدارونها بالتوقح فيها على سنة المأخوذ الذي لا يملك مداراة ما فعل . فبات خولي بن يزيد ليلته بالرأس في

بيته ، وهو يمني نفسه بغنى الدهر كما قال . فأقسمت امرأة له حضرمية : « لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله » .

ثم غدا الى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله .. فرآه ينكث (١) ثنايا الرأس حين وضع أمامه في أجانة (٢) ، فصاح به مغضبا :

ـ ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين .. فوالذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما ..

وبكى ..

فهزىء به ابن زياد وقال له :

ـ لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، لضربت عنقك !

فخرج زيد وهو ينادي في الناس غير حافل بشيء :

ـ أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم .. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم .

وأدخلت السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها ، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين واماؤها .. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر الى ما أمامها . فسأل ابن زياد :

ـ من هذه التي انحازت ناحية ومعها نساؤها ؟

فلم تجبه .. فأعاد سؤاله ثلاثا وهي لا تجيبه ، ثم أجابت عنها احدى الاماء :

ـ هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فاجترأ ابن زياد قائلا :

ـ الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم ..

وقد كانت زينب رضي الله عنها حقا جديرة بنسبها الشريف في تلك الرحلة الفاجعة التي تهد عزائم الرجال .. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت علي وأخت الحسين . وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسيني من الذكور .. ولولاها لانقرض من يوم كربلاء ..

---

(١) نكث الرجل الارض بعصا أو باصبعه ضربها ، يفعل ذلك المفكر المهموم . (٢) لقن تغسل فيه الثياب .

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة :

ـ الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه وطهرنا من الرجس تطهيرا ·· انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر ، وهو غيرنا والحمد لله ·

فقال ابن زياد :

ـ قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة ·

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفي الذي لا ناصر لها منه، وقالت :

ـ لقد قتلت كهلي ، وأبدت أهلي ، وقطعت فرعي واجتثثت أصلي ، فان يشفك هذا فقد اشتفيت ··

فتهاتف ابن زياد ساخرا وقال :

ـ هذه سجاعة (١) ·· لعمري لقد كان آبوها سجاعا شاعرا ·

فقالت زينب :

ـ ان لي عن السجاعة لشغلا ·· ما للمرأة والسجاعة ؟

علي زين العابدين

ثم نظر ابن زياد الى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله :

ـ من أنت ؟

قال : علي بن الحسين ·

قال : أولم يقتل الله علي بن الحسين ؟

قال : كان لي أخ يسمى عليا قتله الناس ·

فأعاد ابن زياد قوله : الله قتله ·

فقال علي : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله ··

فأخذت زيادا عزة الاثم وانتهره قائلا :

ـ ويك جرأة لجوابي !

وصاح الخبيث الأثيم بجنده :

ـ اذهبوا به فاضربوا عنقه ··

---

(١) السجاع والسجاعة : الآتي بالسجع في كلامه ·

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردها سلطان ، ولا يرهبها سلاح ٠٠ لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة ، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه الا وهو جثة هامدة ،وأقسمت لئن قتلته لتقتلني معه ٠ فارتد ابن زياد مشدوها وهو يقول متعجبا :

ـ يا للرحم ٠٠ اني لأظنها ودت أني قتلتها معه ٠٠

ثم قال : « دعوه لما به » ٠٠ كأنه حسب أن العلة قاضية عليه ٠

وعلي هذا هو زين العابدين جد كل منتسب الى الحسين عليهما السلام ، وكان كما قال ابن سعد في الطبقات : « ثقة كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا » ، وكما قال يحيى بن سعيد : « أفضل هاشمي رأيته في المدينة » ٠٠

ولولا استماتة عمته كما ترى ، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتي ابن زياد !

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين في الكوفة وأرباضها (١) ، أنفذه ورؤوس أصحابه الى دمشق مرفوعة على الرماح ، ثم أرسل النساء والصبيان على الاقتاب (٢) ، وفي الركب علي زين العابدين مغلول الى عنقه يقوده شمر بن ذي الجوشن ومحضر بن ثعلبة ٠٠ فتلاحق الركبان في الطريق ودخلا الشام معا الى يزيد ٠

وتكرر منظر القصر بالكوفة في قصر دمشق عند يزيد ٠٠ ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن انه قد وقع في التاريخ خلط بين المنظرين ، لأن المناسبة في هذا المقام تستوحي ضربا واحدا من التعقيب وضربا واحدا من الحوار ٠٠

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة في كربلاء حين بلغتهم ، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين :

---

(١) جمع ربض بفتحتين : ما حول المدينة من بيوت ومساكن ٠ (٢) جمع قتب بفتحتين : أكاف صغير أي برذعة على قدر سنام البعير ٠

لهام (١) بجنب الطف أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل (٢)
سمية أمسى نسلها عدد الحصى
وبنت رسول الله ليست بذي نسل

فأسكته يزيد ·· وقال وهو يشير الى الراس وينكت ثناياه بقضيب في يده : (أتدرون من أين أتي هذا ؟·· انه قال : « أبي علي خير من ابيه وأمي فاطمة خير من أمه ، وجدي رسول الله خير من جده وانا خير منه وأحق بهذا الامر » ·· فأما أبوه فقد تحاج أبي وابوه الى الله وعلم الناس أيهما حكم له ، واما أمه فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من امي ، وأما جده فلعمري ما احد يؤمن بالله واليوم الاخر يرى لرسول الله فينا عدلا ولا ندا ، ولكنه أتي من قبل فقهه ولم يقرأ : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) ··

وهو كلام ينسب مثله الى معاوية في رده على حجج علي في الخلافة ·· ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه ·

ونظر بعض أهل الشام الى السيدة فاطمة بنت الحسين — وكانت جارية وضيئة (١) — فقال ليزيد : « هب لي هذه » ، فأرعدت وآخذت بثياب عمتها ·· فكان لعمتها في الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة ، ذيادا عن أخيها زين العابدين ، وصاحت بالرجل :

— كذبت ولؤمت ·· ما ذلك لك ولا له ·

فتغيظ يزيد وقال : « كذبت ، ان ذلك لي ·· ولو شئت لفعلت » ·

قالت : « كلا والله ·· ما جعل الله لك ذلك ، الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا » ·

فاشتد غيظ يزيد وصاح بها : « اياي تستقبلين بهذا ؟·· انما خرج من الدين أبوك وأخوك » ·

---

(١) الهام : الرأس · (٢) الوغل : النذل الساقط ·

(١) الوضيء : الحسن النظيف البهيج ، وهي وضيئة ·

قالت : « بدين الله ودين أبي وأخي وجدي اهتديت أنت وأبوك وجدك » ••

فلم يجد جوابا غير أن يقول : « بل كذبت يا عدوة الله » •

فقالت : « أنت أمير تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك » •

فأطرق وسكت ••

وأدخل علي بن الحسين مغلولا ،فأمر يزيد بفك غله وقال له:

ـ ايه يا ابن الحسين •• أبوك قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت ••

قال علي :

ـ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها • ان ذلك على الله ليسير ، لكيلا تأسوا (١) على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور • فتلا يزيد الآية : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ثم زوى وجهه وترك خطابه ••

وكان لقاء نساء يزيد خيرا من لقائه •• فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما ، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن اليهن مثله وزيادة عليه ••

وأحب يزيد أن يستدرك بعض ما فاته ، فلجأ الى النعمان ابن بشير واليه الذي عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين •• وأمره أن يسير آل الحسين الى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم • وقيل انه ودع زين العابدين ، وقال له : « لعن الله ابن مرجانة •• أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي • ولكن الله قضى ما رأيت يا بني ! •• كاتبني من المدينة ، وأنه الي كل حاجة تكون لك » •

---

(١) تأسوا : تحزنوا • (٢) زوى ما بين عينيه : جمعه وقبضه وأماله •

تبعة يزيد

والناس في تقدير التبعة التي تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب وأهواء ، يرجع كل منهم الى مصدر من مصادر الرواية فيبني عليه حكمه ٠

فمنهم من يرى انه بريء من التبعة كل البراءة ٠٠ ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها ٠٠ ومنهم من يقول أنه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء ٠

والثابت الذي لا جدال فيه ، ان يزيد لم يعاقب أحدا من ولاته كبر أو صغر على شيء مما اقترفوه في فاجعة كربلاء ، وان سياسته في دولته بعد ذلك كانت هي سياسة أولئك الولاة على وتيرة واحدة مما حدث في كربلاء ، فاستباحة المدينة ــ دار النبي عليه السلام ــ وتحكيم مسلم بن عقبة في رجالها ونسائها ، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه ، أو سياسة رجل تجري هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره وما زال يزيد وأخلافه يأمرون الناس بلعن علي والحسين وآلهما على المنابر في أرجاء الدولة الاسلامية ، ويستفتون من يفتيهم باهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم ٠ ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين ، فقتله جائز أو واجب في رأي لاعنيه ٠

ومن أفرط في سوء الظن ، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على اذن مستور بكل ما صنع ، ويملي (١) لهم في هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك في بيته وعقبه ، ويفيده أن يقدم عليها مستترا من وراء ولاته ثم ينصل (٢) منها ويلقي بتبعتها عليهم ٠ ولو لم يكن ذلك لكان عجيبا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله الى والي الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه ٠٠ فقد كان الزمن الذي انقضى منذ خروج الحسين من مكة الى نزوله بالطف على الفرات

---

(١) أملى الراعي للبعير : أرخى له ووسع ٠ ولفلان في غيه : أطال ٠
(٢) نصل من الذنب : خرج وتبرأ ٠

كافيا لبلوغ الخبر الى يزيد ورجوع الرسل بالتوجيه الضروري في هذا الموقف لوالي الكوفة وغيره من الولاة ، فان لم يكن الأمر تدبيرا متفقا عليه فهو المساءة التي تلي ذلك التدبير في السوء والشناعة ، وهي مساءة التهاون الذي لا تستقيم على مثله شئون دولة • وقد روى ابن شريح اليشكري أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال : « أما قتلي الحسين فانه أشار الي يزيد بقتله أو قتلي فاخترت قتله » وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه ••

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب الى الظن بايعازه وتدبيره •• لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولاته على غاربهم وهو لاه بصيده وعبثه ، وأنه ربما ارتاح في سريرته بادىء الأمر الى فعلة ابن زياد وأعوانه •• ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب ، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد الى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع ، ولم يكن في يقظته على هذا معتصما بالحكمة والسداد ••

ولقد رأى البوادر منه غير بعيد ، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر في بيته قبل عاصمة ملكه •• فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد ، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن ورأين ، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول اذا سئل : « نبكي على بني أمية لا على الماضين من بني هاشم » ••

ومهما تكن غفلة يزيد ، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة ، ولن تهون جريرتها في الحاضر القريب ولا في الآتي البعيد ••

والواقع انها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة ، وما تنقضي جرائرها الى اليوم ••

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة في ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود •• لأنهم حملوا اليها خبر الحسين محمل التشهير والشماتة • وضحك واليهم عمرو بن سعيد حين

سمع أصوات البكاء والصراخ من بيت آل النبي ، فكان يتمثل قول عمرو بن معد يكرب :

عجت (١) نســاء بنــي زياد عجـة
كعجيــج نسوتنــا غــداة الأرتــب

وكانت بنت عقيل بن أبي طالب تخرج في نسائهـا حاسرة وتنشد :

ماذا تقولون ان قــال النبي لكــم :
ماذا فعلتم •• وأنتــم آخر الأمــم ؟
بعترتي ، وبأهلي ، بعــد مفتقدي ••
منهم أســارى ومنهم ضرجوا بــدم
ما كان هــذا جزائي اذ نصحــت لكم
أن تخلفوني بســوء في ذوي رحمــي

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة ، ويقولون كما قال عمرو بن سعيد : « ناعية كناعية عثمان » •

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين ، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد في سقيه وسقي آل بيته •• ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول •

ثــورة المدينــة

وللقدر المتــاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهــم في تلفيــق « المظاهرات الحجازية » • فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج (١) والأسى الدفين • وجعلوا همهم كله أن يكرهــوا القوم على نسيان خطب الحســين واصطنــاع الولاء المغتصب ليزيد • فحملوا الى دمشق وفدا من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا اليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته • وراحوا

---

(١) عج : صاح ورفع صوته •

(١) المحرق •

يقولون لأهل المدينة : « انا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويضرب بالطنابير ، ويعزف عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسمر عنده الخراب » ·

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الأنصاري وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده : « لو لم أجد الا بني هؤلاء ـ وكان له ثمانية بنين ـ لجاهدت بهم · وقد أعطاني وما قبلت عطاءه الا لأتقوى به » ·

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم والدعوة الموصولة فأخرج المدنيون والي يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم وأعلنوا خلعهم للبيعة ··

وصدق ابن حنظلة النية ، فكان يقدم بنيه واحدا بعد واحد حتى قتلوا جميعا ، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته ··

وبدا في ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرا ولا قليلا من عبرة كربلاء ، لأنه سلط على أهلها رجلا لا يقل في لؤمه وغله وسوء دخلته ، وولعه بالشر والتعذيب ، وعبثه بالتقتيل والتمثيل ، عن عبيد الله بن زياد ، وهو مسلم بن عقبة المري · فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه ، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام ان لم يبادروا الى طاعته ، وكان شرطه الذي سامهم اياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التي انتظر فيها طاعتهم « انهم يبايعون أمير المؤمنين على انهم خول له يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء » ·

واذا كان شيء أثقل على النفوس من هذا الشرط ، وأقبح في الظلم من استباحة الأرواح والأعراض في جوار قبر النبي عليه السلام ·· فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة ، كأنه يلقي على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذي أبلاه ، ولم يبل ما في طويته من رجس ومكيدة · « فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرا كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الأقدام في الدم وقتل أبناء المهاجرين والأنصار » ·

وأوقع كما قال ابن كثير « من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف » ·· ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ باثارة الآمال والمخاوف في نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف ، فلما جاءوه بمعقل بن سنان صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه ، ثم سأله « أعطشت يا معقل ؟ ·· حوصوا له شربة من سويق اللوز الذي زودنا به أمير المؤمنين » ·· فلما شربها قال له : « أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا ·· وأمر بضرب عنقه ·· » ·

ويروي ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة ، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ··

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله ·· دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأمصار ومعها صبي لها · فقال : « هل من مال ؟ » ·

قالت : « لا ·· والله ما تركوا لنا شيئا » ·

قال : « والله لتخرجن الي شيئا أو لأقتلنك وصبيك هذا » ·

فقالت له : « ويحك ·· انه ولد ابن أبي كبشة الأنصاري صاحب رسول الله » · فأخذ برجل الصبي والثدي في فمه ، فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض ·

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التي قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والاطفال والآباء والأمهات ···

وقد مات هذا السفاح وهو في طريقه الى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة ·· فدفن في الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه ·

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه ، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التي حاقت بكل من مد يدا الى الحسين وذويه ··

فسلط الله على قاتلي الحسين كفؤا لهم في النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده ويكيل لهم بالكيل الذي يعرفونه • وهو المختار بن أبي عبيد الثقفي داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين • فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم في نصرته، وأن يتعاهدوا على الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحد ينعم بالحياة ، وهو دفين مذال (١) القبر في العراء ••

فلم ينج عبيد الله بن زياد ، ولا عمرو بن سعد ، ولا شمر بن ذي الجوشن ، ولا الحصين بن نمير ، ولا خولي بن يزيد ، ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة الى الموتى أو الأحياء ••

وبالغ في النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين ، وجوزي كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله •• فقتل عبيد الله وأحرق ، وقتل شمر بن ذي الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب ، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين في النهر أو مطاردين الى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة •• فكان بلاؤهم بالمختار عدلا لا رحمة فيه ، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار •

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية في مدى سنوات معدودات ••

فصمد الحجاز في ثورته أو في تنكره لبني أمية الى أيام عبد الملك بن مروان ، وكان أحرج الفريقين من سبق الى أحرج العملين • وأحرج العملين ذاك الذي دفع اليه ــ أو اندفع اليه ــ الحجاج عامل عبد الملك •• فنصب المنجنيق على جبال مكة ، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى (١) على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية • فقد كان قائده الذي خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق وتصدى لها بالهدم والاحراق ••

---

(١) أذال غلامه : أهانه •

(١) عفت الريح الدار : محتها ودرستها •

وما زالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطاتها ملك بني أمية ، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه في دولة بني العباس ٠٠ فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى ، وهدموا الدور ، ونبشوا القبور ، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبي عبيد ، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين ٠

لقد كانت ضربة كربلاء ، وضربة المدينة ، وضربة البيت الحرام ، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين ٠٠ فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشيء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة ، حتى ذهبوا بها مضروبين الى آخر الزمان ٠

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء ٠٠ فاذا بالدولة العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام ، واذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب اذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفتين ٠٠

***

من الظافر ؟

غبن أن يفوت الانسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه ..

وأثقل منه في الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالاساءة، ويجزى المسيء بالاحسان ..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق ، ووجهة للشريعة والدين ..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التي تلتقي فيها كل هذه المقاصد الرفيعة .. فاذا بطل الجزاء الحق ففي بطلانه الاخلال كل الاخلال بمعنى التاريخ والأخلاق ، ولباب الشرائع والأديان. وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الانساني بالتشويه والخسار .

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الانساني كرامة لنفسه ويقينا من صحته وحسن أدائه ، كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضا للبصر يرتاح الى تحقيقه ويحزن لفواته وان لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب ، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والاخلال به داء كريه .

ولا يستهدف هذا القسطاس المستقيم لمحنة من محنه التي تزري بكرامة العقل الانساني ، كاستهدافه لها وهو في مصطدم التضحية والمنافع ، أو في الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ..

ففي هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شيء وانهزم ، وهو في الحقيقة غانم ظافر .

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شيء وانتصر وهو في الحقيقة خاسر مهزوم ..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه ، لأنه المدخل الذي يفضي الى الجزاء الحق والنتيجة الحقة ، وينتهي بكل عامل أفلح أو أخفق في ظاهر الأمر الى نهاية مطافه وغاية مسماه في الأمد الطويل ·

وقد ظفر التاريخ في الصراع بين الحسين بن علي ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التي تتاح لتمحيص الجزاء الحق في أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة ، فقلما تتاح في أخبار الأمم شرقا أو غربا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها أو أشواطها ، وفي تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم ، على اختلاف معارض النصر والهزيمة ··

فيزيد في يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذي لا يشوبه خذلان ··

وحسين في ذلك اليوم هو المخذول الذي لم يطمح خاذله من وراء الظفر به الى مزيد ··

ثم تنقلب الآية أيما انقلاب ··

ويقوم الميزان ، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران ··

وهذا الذي قصدنا الى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول ·

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد في أطوار هذا الوجود ·

ولسنا نقول ان الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة أو بين الايمان والمآرب الأرضية ، فان لهذا الصراع لألوانا تتعدد ولا تتكرر على هذا المثال ، وان له لعناصر لم تجتمع كلها في طرفي الخصومة بين الرجلين ، وأشواطا لم تتخذ الطريق الذي اتخذته هذه الخصومة في البداية أو النهاية ·

ولسنا نقول أن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب ، وهي ان مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعا بين خلقين خالدين ، وقد

كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلي من الأحقاب ، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات ، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق ..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه ..

فاذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فليكن ذلك مغنمه وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

واذا خسر أحد حياته في سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينفعه ذلك في استلاب السمعة المحبوبة والعطف الخالص والثناء الرفيع ..

واذا خسر أحد حياته في سبيل ايمانه فلتكن تلك خسارته وكفى ، ولا ينكب فوق ذلك بخسارة في السمعة والعطف والثناء .

فلو جاز هذا لكان العطف الانساني أزيف ما عرفناه في هذه الدنيا من الزيوف ، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه . وما من زيف في العروض الأخرى الا وهو ينطلي يوما وينكشف بقية الأيام ..

واذا كان احتيال الانسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء ، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الانسان .

واذا كانت خسارة المرء في سبيل ايمانه تجمع عليه كل خسارة ، فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه في طلابه .

فكفى الواصل ما وصل اليه ..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الانسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية ، ويخسرون .

وهذا الفيصل (١) العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد ..

فاذا قيل ان معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء ، فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء .. ولكنه ورث المنافع التي يشتري بها الأيدي والسيوف ، فجال بها جولة رابحة في كفاح الضمائر والقلوب .

فينبغي ألا يربح بهذه الوسيلة ، فأما وقد ربح .. فينبغي أن يقف الربح عند ذاك ، وينبغي للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل .

وقد تزلف الى يزيد من يتزلفون الى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا أجورهم ، فينبغي آن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الآجور وأن يكون ما قبضوه من آجر غاية ما استحقوه ، ان كانوا مستحقيه .

أما أن يضاف ثناء الخلود الى صفقة أولئك المأجورين ، فقد أصبح ثناء الخلود اذن صفقة بغير ثمن ، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور ..

ان صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول ، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذلْ ما لديه من ثناء .

وليس في تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة ، تقيمه بحيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول ، أو تخوله مكان الترجيح في الموازنة بينه وبين الحسين ..

كل أخطائه ثابتة عليه ــ ومنها بل كلها ــ خطؤه في حق نفسه ودولته ورعاياه . وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه .

---

(١) الفيصل : السيف القاطع . والقضاء بين الحق والباطل . وحكم فيصل أي ماض .

فقد كانت له ندحة (١) عن قتل الحسين ، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه ..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله .

وكانت له ندحة عن السمعة التي لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه ، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه ..

ومن كان حقه في النعمة التي نعم بها مغتصبا ينتزعه عنوة ، لا يكن حقه في الفضل والكرامة جزافا (٢) لا حسيب عليه .

وتسديد العطف الانساني هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين في سير الغابرين . لأن العطف الانساني هو كل ما يملك التاريخ من جزاء ، وهو الثروة الوحيدة التي يحتفظ بها الخلود ..

واننا لندع الخطأ في سياسة النفعيين ، وننظر اليهم كأنهم مصيبون في السياسة بصراء بمواقع التدبير .

فعلى هذه الصفة — لو تمت لهم — لا يحق لخادم زمانه أن ينازع الشهداء في ذخيرة العطف الخالد ، وهم خدام العقائد التي تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأجيال كما تتخطى حياة الأفراد ..

فان حرمان الشهداء حقهم في عطف الأسلاف خطأ في الشعور ، وخطأ كذلك في التفكير ..

والناس خاسرون اذا بطل عطفهم على الشهداء ، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون .. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتي وتكثر حينا وتندر في غير ذلك من الأحيان . أما حب المنفعة فان سميته فضيلة فهو من الفضائل التي لن تفارق الأحياء أجمعين ، من ناطقة وعجماء .

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة ، وانما تنحرف

---

(١) سعة .

(٢) الجزاف بالضم : بيع الشيء وشراؤه من غير وزن ولا كيل .

عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها • وأكثر ما تأتي هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب ، أو من نكسة في الطبع تغريه بالضغن على كل خلق سوي وسجية سمحة محببة الى الناس عامة ، أو من الافراط في حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادات استهوالا لتكاليفها واستعظاما للقدوة بها ، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم في رأي ضميره • وان لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد ، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور •• وجنح الى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون ، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون اليه •

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية ، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التأريخ الصحيح لانها تعرضهم للخطأ في الحكم والتفكير ، كما تعرضهم للخطأ في العطف والشعور •

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا ــ في العربية ــ مؤرخ يتخذ منه المثل لكل من العذر والعطف حين يصل الأمر الى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءا للمنكرات ، وهو الأستاذ محمد الخضري صاحب تاريخ الأمم الاسلامية رحمه الله ••

ففي تعقيبه على ثورة المدينة التي قدمنا الاشارة اليها يقول: ان الانسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذي ظهر به أهل المدينة في قيامهم وحدهم بخلع خليفة في امكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا في وجهه • ولا ندري ما الذي كانوا يريدونه بعد خلع يزيد ؟•• أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الاسلامية ، لهم خليفة منهم يلي أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول في أمرهم ؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم في هذا الامر أحد من الجنود الاسلامية ؟•• انهم فتقوا فتقا وارتكبوا جرما فعليهم

جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة ، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش أن لا يسرف في معاملتهم بهذه المعاملة •• فانه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار •• » •

ويخيل اليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة • لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما في حوزته ، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال ••

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ ، لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة ، واستبعادها حيث هي بعيدة عن التقدير •

فلم يحدث قط في مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا في الأمر كما أرادهم أن يفكروا ••

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة ، وليس قصاراه (١) أنه لم يحدث من قبل في حركات التاريخ ••

فهذه الحركات التي تواجه الدول المكروهة لا تنتظر ــ ولا يمكن أن تنتظر ــ حتى تربي قوتها وعدتها على ما في أيدي الدولة التي تكرهها من قوة وعدة ••

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترىء على ما يهابه الآخرون ، ثم يلحق به ثان وثالث ورابع ما شاء له الاقناع وضيق الذرع بالأمور ، ثم ما ينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان في غفلة عنه ، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج الى التخبط على غير هدى ، ويخرج من تخبط غليظ أحمق الى تخبط أغلظ منه وأحمق •• فلا هم يقفون في امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف في بطشه وجبروته ، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه •

على هذا النحو يعرف المؤرخ الذي يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها ، فلا يعالجها حق

---

(١) قصارى بضم القاف : الجهد والغاية •

العلاج على أنها مسألة جمع وطرح في دفتر الحساب بين هـذا الفريق وذاك الفريق ·

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذي لا بد لها أن تسلكه ، وما كان لها قط من مسلك سواه

وصل الأمر في عهد يزيد الى حد لا يعالج بغير الاستشهاد وما نحا منحاه ··

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه · وهو ــ بالبداهة التي لا تحتاج الى مقابلة طويلة ــ منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح في دفاتر التجار ·

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضي الى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء ·· فانه لواجد في نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخرا الا في صفحة الشهداء ·

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم ،ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر في نهاية مطافها بكل شيء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية ···

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون في أول الشوط ثم ينهزمون في وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم ، وتوزن حظوظهم بكل ميزان ، فاذا هم بكل ميزان خاسرون ···

وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد ···

ولكن يزيد ذهب الى سبيله وعوقب أنصاره في الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه في عمر رجل واحد لم يجاوز الستين ··

وانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ولكنه ترك الدعوة التي قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس في حلة من النور تخشع لها الأبصار ··

وباء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الانسان غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي ولا قديم ولا حديث ·

أبـو الشهـداء

فليس في العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة •• وحسبه أنه وحده في تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء في مئات السنين ••

وأيسر شيء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا. طلب الملك ليغمروا به شهادة الحسين وذويه ••

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون في الوهم والضلال ••

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة ، وقد يطلب الرجل الملك شهيدا قديسا ويطلبه وهو مجرم بريء من القداسة ••

وانما هو طلب وطلب ، وانما هي غاية وغاية ، وانما المعول في هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب •

فمن طلب الملك بكل ثمن ، وتوسل له بكل وسيلة ، وسوى فيه بين الغصب والحق وبين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها ، ففي سبيل الدنيا يعمل لا في سبيل الشهادة •

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب ، وطلب الملك حقا ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى ، وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة ، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الايمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح ، وطلب الملك دفعا للمظلمة وجلبا للمصلحة كما وضحت له بنور ايمانه وتقواه ، فليس ذلك بالعامل الذي يخدم نفسه بعمله ، ولكنه الشهيد الذي يلبي داعي المروءة والأريحية ويطيع وحي الايمان والعقيدة ويضرب للناس مثلا يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة ••

من ثم يقيم الآية على حقيقة الحقائق في أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين ..

وهي ان الشهادة خصم ضعيف مغلوب في اليوم والأسبـوع والعام ..

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين في الجيل والأجيـال ومدى الأيام .

وهي حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت اليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر اليها في نهاية المطاف .

ونهاية المطاف هي التي يدخلها « نوع الانسان » في حسابه ويوشج (١) عليها وشائج عطفه واعجابه . لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث في اليوم ، ولا ينظر الى عمر واحد بين مهد ولحد ، ولكنه يعمل للدوام وينظر الى الخلود ..

* * *

---

(١) يربط ويعلق ويشبك .

عاشق الجمال

اذا لحقت السيرة بعالم المثال الذي يتطلع اليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن ، فقد تنزهت عن ربقة (١) الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى في عالم الجمال ..

ومن آيات الجمال انه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة ..

فاذا تعلقت القريحة بالجمال ، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات .. فتعرض عن النعمة وهي بين يديها وتقبل على الألم وهي ناظرة اليه ، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة ، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل .. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالي ما يلقاه في سبيله ..

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال في كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيما لهم وثناء عليهم .. فلم يتجهوا اليهم ممدوحين وانما اتجهوا اليهم صورا مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه ، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وايلام .

وفي معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت :

طربت وما شوقا الى البيض أطرب

ولا لعبا مني ، وذو الشيب يلعب

---

(١) الربقة : عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها .

ولم يلهني دار ولا رسم منزل
ولم يتطربني بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه
أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية
أمر سليم القرن أم أمر أعضب (١)
ولكن الى أهل الفضائل والنهى
وخير بني حواء ، والخير يطلب
الى النفر البيض الذين بحبهم
الى الله فيما نالني أتقرب
بني هاشم ، رهط النبي ، فانني
بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودة
الى كنف عطفاه أهل ومرحب
يشيرون بالأيدي الي وقولهم
ألا خاب هذا ، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتني بحبكم
وطائفة قالوا : مسيء ومذنب
فما ساءني تكفير هاتيك منهم
ولا عيب هاتيك التي هي أعيب

---

(١) السانح : الطير الذي يمر من اليسار الى اليمين وعكسه البارج ، والاعضب : المكسور •

يعيبونني من خبهم وضلالهم
على حبكم ، بل يسخرون وأعجب
وقالوا : ترابي (١) هواه ورأيه
بذلك أدعى فيهم والقب
على ذاك اجرياي ، فيكم ضريبتي
ولو جمعوا طرا علي وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم
وينصب لي في الأبعدين فأنصب

وقد مر بنا حديث زين العابدين رضي الله عنه ، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر « أن تكون به جرأة على جوابه » ٠

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله ٠٠

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس ، فلم يخلص الى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه ٠ وانه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس اذا بزين العابدين يقبل الى الحجر الأسود في وقاره وهيبته ، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئنا غير معجل ٠٠ ثم يعود من حيث آتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء ٠

وتهول رجلا من حاشية هشام هذه المهابة التي لم يرها لمولاه فيسأل : « من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة ! » ٠

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول الى

---

(١) من كني علي بن أبي طالب « ابو تراب » وترابي نسبة اليه ٠

مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول : « لا أعرفه » ·· ويقتضب الجواب ·

وهذا الذي تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله في كلمتين عابرتين ··

وذلك هو الفرزدق حيث قال :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته
والبيت يعرفه والحيل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله
بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره
العرب تعرف من أنكرت ، والعجم
اذا رأته قريش قال قائلها :
الى مكارم هذا ينتهي الكرم
من معشر حبهم دين ، وبغضهم
كفر ، وقربهم منجى ومعتصم

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة ــ خالد بن عبيد الله ــ فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليا وحسينا في خطبه ، وأنشد :

لعن الله من يسب عليا
وحسينا من سوقة وامام

أيسب المطهرون جدودا
والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولايا
من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلا
أهل بيت النبي والاسلام
رحمة الله والسلام عليه
كلما قام قائم بسلام

وتنقضي السنون وتتسامح العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحد ، ولم ينزه أحدا من المجزلين أو المقترين عليه عن استحقاق الهجاء •• فكان ينشد الأبيات المقذعة ، ويسأل عن صاحبها فيقول : « لم يستحقها أحد بعينه بعد ، ولسوف يستحقها كثيرون » •

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعي الذي يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات في آل البيت :

مدارس آيات خلت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات !••
لآل رسول الله بالخيف من منى
وبالركن والتعريف والجمرات
ديار علي ، والحسين وجعفر
وحمزة ، والسجاد ذي الثفنات (١)

(١) كان علي بن الحسين يلقب بذي الثفنات لان جبهته اصبحت كثفنة البعير ـ أي ركبته ـ من كثرة السجود •

ديار عفاها كل جون مبادر
ولم تعف للأيام والسنوات

الى أن يقول :

ملامك في أهل النبي فانهم
أحباي ما عاشوا وأهل ثقاتي

فيا رب زدني من يقيني بصيرة
وزد حبهم يا رب في حسناتي

أحب قصي الرحم من أجل حبهم
وأهجر فيهم أسرتي وبناتي

لقد حفت الأيام حولي بشرها
واني لأرجو الأمن بعد وفاتي

ألم تر أني من ثلاثين حجة
أروح وأغدو دائم الحسرات

أرى فيئهم في غيرهم متقسما
وأيديهم من فيئهم صفرات

فآل رسول الله نحف جسومهم
وآل زياد حفل القصرات (١)

بنات زياد في القصور مصونة
وآل رسول الله في الفلوات !..

اذا وتروا مدوا الى أهل وترهم
أكفا عن الأوتار منقبضات !..

(١) القصرة الرقبة ، وحفل القصرات أي غلاظ الرقاب من السمن .

ووهب علي بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه ، فبذل له أهل الشام «قم» ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها . ثم ترصدوا له في الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركا وذكرى . فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة .. واسترضوه فلم يرض الا أن يعطوه كما من أكمامها ليدفن معه في كفنه ، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها غير مبالين ما بذلوه في ثمنها .

وانقضت فترة لم تطل .. وتسامعت العربية بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح .

ذلك هو أبو العباس علي بن الرومي الذي نسي ممدوحيه من آل طاهر وبني العباس ليذكر حق حفيده الحسين يحيى بن عمر الشهيد . ولو كلفه ذكره القتل والحرمان .

وفي بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته ، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية :

غررتم لئن صدقتم أن حالة
تدوم لكم ، والدهر لونان ، أخرج
لعل لهم في منطوى الغيب ثائرا
سيسمو لكم والصبح في الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته
له زجل ينفي الوحوش وهزمج (١)

---

(١) الهزمجة اختلاط الصوت ، والمجر الجيش الكبير . والزجل رفع الصوت .

يـود الـذي لاقـوه أن سـلاحـه
هنالـك خلخـال عليـه ودملج (١)
فيـدرك ثـأر الله أنصـار دينـه
ولله أوس آخـرون وخـزرج
ويقضـي امـام الحـق فيكـم قضاءه
مبينا ، وما كل الحوامل (٢) تخدج (٣)

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى في مواطن شتى من عمله وقوله ولا ينساها في حق الشهداء من آل الحسين وصحبه ٠٠ لأنه يحس الجمال احساس الشعراء ويهتز « للصورة المثلى » اهتزاز الأريحية التي يحلم بها رواد الخيال ٠ فهم هنا بمربأة (٤) من قيود العيش ووساوس الحاجة وأعبـاء النوازع الأرضيـة ، يستوحون سليقة القول فيما ينبغي أن يقال ٠٠ فيجري على لسانهم كأنهم مسوقون اليه ٠٠

بل كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل ، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل في نوال ، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال ٠٠

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أو ذاك ، ولكنه كان سيىء الظن بالناس أجمعين ٠٠ وكان يقول ما بدا له في الدنيا والدين ، ولكنه يجامل مع المجاملين فـلا يقصر عن شأوهم في السابقين أو اللاحقين ٠

---

(١) حلي يلبس في المعصم ٠

(٢) الحوامل : الحبالى ٠ (٣) خدجت الدابة : القت ولدها قبل أوانه وان كان تام الخلق ٠ (٤) المربأة : المكان المرتفع يراقب منه العدو ٠

ذلك هو أبو العلاء المعري حيث قال في الفجر والشفق :

وعلـى الدهـر مـن دمـاء الشهيد
بـن علـي ونجلـه شـاهـدان
فهمـا في أواخـر الليـل فجـرا
ن ، وفي أوليـاتـه شفقـان
ثبتـا في قميصـه ليجـيء الحشـ
ـر مستعـديـا الى الـرحمـن

وان وحي الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكما من لسان التاريخ اذا اختلف الحكمان ..

ولكنهما قد توافيا معا على مقال واحد .. فجلوا لنا مـن سيرة الحسين رضي الله عنه صورة الجمال في عالم المثـال ، وكذلك يعيش ما عاش في أخلاد الناس .

❁

الفهرست

الموضوع		صفحه
تقديم		٥
مقدمة المؤلف		٩
مزاجان تاريخيان	: طبائع الناس	١١
الخصومة	: اسباب التنافس	٢٠
الخصمان	: موازنة	٣٠
أعوان الفريقين	: رجال المعسكرين	٥١
خروج الحسين	: الحسين في مكة	٥٧
هل اصاب	: خطأ الشهداء	٧١
كربلاء	: الحرم المقدس	٨٦
جريرة كربلاء	: موطن الرأس	١١٠
نهاية المطاف	: من الظافر ؟	١٢٤
في عالم الجمال	: عاشق الجمال	١٣٤



عباس محمود العقاد

عَائِشَةُ

الصِّدِّيقَة بنتُ الصِّدِّيق



المرأة العربية

كانت نظرة العرب إلى المرأة نظرة طبيعية مرتجلة .

ونعني بالنظرة الطبيعية المرتجلة أنها النظرة التي لا يشوبها إحساس دخيل من وهم العقائد أو حكم التشريع ، ولكنها تمضي على الفطرة التي توحيها ضرورة الساعة أو ضرورة البيئة ، وتختلف على حسب اختلاف هذه الضرورات .

فالعرب لم يضربوا اللعنة قط على المرأة في جاهليتهم الأولى ، لأن اللعنة التي ضربت على المرأة في القرون الأولى وامتدت إلى القرون الوسطى إنما جاءت من الإيمان بالخطيئة التي انحدرت بآدم وحواء من نعيم الفردوس ، وأصبحت المرأة ملعونة موصومة بالنجاسة والشر عند بعض الناس لأنهم ألقوا عليها تبعة الشهوات التي تثيرها فيهم وجعلوها حبالة للشيطان، مذ كانوا يحسون بغوايته الخفية كلما أحسوا بغواية الشهوة الحيوانية ،ومناطها المرأة قبل غيرها من هذه الأحياء .

فالعرب لم ينظروا قط إلى المرأة هذه النظرة ، ولم يحكموا عليها قط بالنجاسة والأصالة في الشر والخباثة ، لأنهم لم يعرفوا الخطيئة بهذا المعنى في عهد الجاهلية .

كذلك لم يعرفوا التشريع الموضوع الذي يحكم عليها بالاستعباد والخطة

المتفق عليها في المنزلة الاجتماعية ، وإنما عُرف هذا وأشباهه عند الرومان قبل الإيمان بالخطيئة وقبل الإيمان بالدين، لأنهم كانوا أصحاب ملك عريض لا غنى لهم فيه عن ترتيب الحقوق والمعاملات بين أبناء المجتمع وبناته كافة ، فلما رتبوا هذه الحقوق نظروا إلى المرأة في زمانهم نظرتهم إلى كل ضعيف تابع لغيره . ولم يلاحظوا في ذلك عنتاً خاصّاً بها ولا ضغينة «جنسية» موجهة إليها دون غيرها . لأنهم نظروا هذه النظرة بعينها إلى أبنائهم الصغار وإلى القاصرين منهم على الإجمال ، فعاملوهم معاملة الضعفاء وأعطوهم من الحقوق ما يعطاه الضعفاء ، وهم مع ذلك في عزة الأقارب والأبناء .

هذه النظرة أيضاً لم يعرفها العرب في جاهليتهم الأولى ، لأنهم لم يضطروا الى وضع تشريع كامل لدولة كاملة . ولكنهم تركوا أنفسهم على سجيتها كما تختلف بها عاداتها ومأثوراتها . وارتجلوا معاملة المرأة ارتجالاً كما تدعوهم الى ذلك ضرورة البيئة أو ضرورة اللمحة الحاضرة . فربما عاملوها معاملة الرقيق المستضعف في بعض الأحيان . وربما نسبوا إليها الأبناء دون الآباء من الرجال في أحيان أخرى .

والمرجع في كل أولئك إلى أحوال المعيشة العامة في الجزيرة العربية .

وخلاصتها السريعة أنها أحوال نزاع شديد على المرعى وموارد الماء ، لقلة المرعى وكثرة طلاب هذا وذاك .

وهذا النزاع الشديد يجعل القدرة على « حماية الذمار » مقدمة على كل قدرة ، لأنها مسألة تتعلق بها الحياة والفناء :

وهو كذلك خليق أن يجعل المرأة في بعض الأحوال كلّاً ثقيلاً على عواتق ذويها ، لأنها تستنفد القوت ولا تشترك في حمايته والذود عنه .

وهذا الذي يفسر لنا كثيراً من النقائض العجيبة في الآداب العربية ، لأنها — عند الرجوع بها إلى أسبابها — لا تحسب من النقائض ولا تزال متشابهة متقاربة في الأصول .

فمن ذلك مثلاً أن الحرب نشبت بين بني بكر وبني تغلب أربعين سنة لأن البسوس ابنة منقذ أضافت رجلاً فضرب كليب ناقة ذلك الرجل وهو في ضيافة البسوس، فأقسم ابن اختها جساس لها « ليُقتلن غداً جمل هو أعظم عقراً من ناقة جارك » ، وقتل كليباً سيد بني تغلب في ثأر تلك الناقة ، أو من أجل كرامة امرأة في ناقة جارها .

وإلى جانب ذلك يعلم القارىء أن قبائل من العرب كانت تدفن بناتها في طفولتها فراراً من عارها أو إشفاقاً من نفقتها .

ويلوح أنهما نقيضان لا يلتقيان .

والواقع أنهما غير نقيضين ، وأن البيئة التي تدعو إلى إحدى الخصلتين حقيقة أن تدعو إلى الأخرى .

فإن آداب الحماية تجعل المرأة أحق شيء بأن يحمى وأن يغار عليه الحماة ، لأنها أمس بالرجل من ارض المرعى ومن ماء البئر ومن الجمل والناقة، فمن فرط فيها فما هو بقادر على حماية شيء من هذه الأشياء .

ومن هنا فرط الغيرة على العرض وإيثار الموت للبنت على العار .

وإذا رجعنا إلى الأصل في « آداب الحماية » وهو النزاع الشديد الذي أوجبه شح الأرض بالري والطعام ، فالحاجة إلى القوت خليقة أن تغري بالقسوة المهينة وأن توسوس للمعوزين في سنوات الضيق بالتخلص ممن يستنفد القوت ولا يعين على تحصيله أو الذود عن موارده ، ونعني بهن البنات الزائدات عن حاجة القبيلة في تلك السنوات .

وربما ظن بعضهم أن الوأد كله من مخافة العار كما قال البحتري وهو يعزي بني حميد ذلك العزاء العجيب عن فقد فتاة :

أتبكي من لا ينازل بالسيـ ـف مشيحاً ولا يهز اللواء

ويختم عزاءه بقوله :

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء

فقد قال في تلك القصيدة .

لم يئد كثرهن قيس تميم عيلة ، بل حمية وإباء

يشير إلى قيس بن عاصم سيد بني تميم الذي أقسم ليئدن كل بنت ولدت له لأن ابنته اختارت صاحبها الذي سباها على العودة إلى أهلها ، فكلام البحتري إن صدق فإنما يصدق على قيس وأمثاله . ولكنه لا ينفي أن العرب وجد فيهم من يئد البنات عيلة – أي إشفاقاً من النفقة – كما وجد فيهم من يئد البنات أنفة من العار . وآية ذلك أن صعصعة بن ناجية كان يشتري البنات من آبائهن ليستحييهن فيقبلون ذلك ويبيعونهن راضين عن بيعهن ، حتى قيل إنه افتدى ثمانين ومائتي وليدة بالشراء . ولو كان آباؤهن يئدونهن خشية العار وحده لما أغنى عنهم إقصاؤهن وهن في قيد الحياة ، ولحق بهم في بيعهن عار لا يقبله من يأنف من العار .

والقرآن الكريم يقول : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » .

ونخرج من هذا جميعه بأن هذه النقائض الظاهرة مصدرها واحد ، وهو النزاع على الرزق وما أوجبه من تقديس فضائل الحماية والدفاع عن الحرمات . فهذا المصدر يفسر لنا وأد البنات خشية الإملاق كما يفسر لنا وأدهن خشية العار ، ويفسر لنا احتقار البكاء على المرأة كما يفسر لنا إعزاز جارها حتى لتنشب الحرب أربعين سنة غضباً من إصابة ناقة في جوار خالة رئيس ، ويرجع كله إلى نظرة طبيعية تجري مع الحوادث في مجراها ، فلا يشوبها وهم من عقيدة دينية ولا يخالطها قيد من أحكام التشريع .

* * *

ومن لوازم هذا النزاع الشديد في مظهر آخر من مظاهر البادية العربية

أنه جعل المرأة عاملة نافعة في حياة الأسرة وحياة القبيلة ، لأن المعيشة الضنك التي كان يعيشها البدوي في صحرائه المجدبة تأبى عليه الترف والبذخ ولا تتسع لإسراف المدني الذي ينفق على المرأة ولا أرب له عندها غير المتعة والمسرة، ولا عمل لها عنده غير الراحة والزينة . فكانت المرأة العربية – في البادية خاصة – تعمل كل ما تستطيع أن تعمله لخدمة أسرتها وقبيلتها ، وتعلم كل ما تستطيع أن تعلمه لإتقان عملها وتجويد خدمتها . فكانت ترعى الإبل والشاء وتمخض اللبن وتغزل الصوف وتصنع الخيام وتضمد الجراح وتطب لنفسها في شؤون الحمل والولادة وتحذق من هذه الشؤون ما تجهله المرأة الحضرية في كثير من أمم العصر الحديث ، وتعينها على ذلك حاجتها إلى تطبيب نفسها وقيامها على رعي الأحياء التي تلازمها في غدوها ورواحها وفي صحتها ومرضها وفي حملها وولادتها وفي اختيار الأصلح والأجدى لنسلها ونتاجها .

وقد رويت عن نساء العرب صفات أخرى للحمل والرضاعة تشبه هذه الصفة في جملة معناها ، وهي صفات لا يشترط أن تطابق العلم الحديث في جميع تحليلاته وتفصيلاته ، بل حسبها على سذاجتها أن تدل على طب معروف في علاج الحمل والولادة والرضاع ، وأن الأمر في هذه الشؤون لم يكن عند المرأة العربية هملاً متروكاً للمصادفات ، كما يشاهد ذلك في بيئة الكثير من الحضريات المعاصرات .

* * *

إلا أن الشظف الذي كان يعم الجزيرة العربية ويذكي فيها ذلك النزاع الشديد على الرزق لم يكن خاواً من الجوانب التي يرق فيها ويلطف وتسري منها الرقة واللطف إلى العلاقة بين الرجال والنساء ، فتنعم المرأة بالرفق الذي يرفع من مكانتها ويهذب من معاملتها في سائر البيئات الإنسانية لا في الجزيرة العربية وحدها .

وأهم هذه الجوانب جانب النشأة في بيئة الحضارة ، وجانب النشأة في بيئة السيادة .

فالحضارة تصقل الطباع وتهذب حواشي النفوس وتغني القبائل عن القتال وعن ثورة الغضب للدمار المهدد بالليل والنهار ، وأول ما يظهر هذا الصقل والتهذيب في العلاقة بين الرجل والمرأة لأنها العلاقة التي تمتحن بها الكياسة وآداب الخطاب .

والسيادة تعلم السادة أن يعنوا بمكان بناتهم من العزة والرخاء ، فلا يسلمونهن لمن ينزل بهن عن منزلة العقائل المبجلات اللواتي يغنين في بيوتهن عن الخدمة المسفة والعيش الذليل .

ولهذا كان سادة العرب يختارون الأزواج لبناتهم ثم لا يكتفون باختيارهم حتى يشركوهن في الرأي ويدخلوهن في المشورة ،ومن أنباء ذلك التي استفاضت في الأدب العربي أن الحارث بن عوف المري قدم على أوس بن حارثة الطائي خاطباً فدخل أوس على زوجته ودعا ببنته الكبرى فقال لها : يا بنية ! هذا الحارث ابن عوف سيد من سادات العرب قد جاءني طالباً خاطباً وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل . قال : ولم ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي ردة وفي خلقي بعض العهدة ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ وعليك من ذلك ما فيه .

فصرفها ودعا بابنته الوسطى وعرض عليها ما عرضه على الكبرى . فقالت : إني خرقاء وليست بيدي صناعة ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني !

فلما دعا باختهما الصغرى قالت : « ... ولكنني والله الجميلة وجهاً الصناع يداً الرفيعة خلقاً الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ! » . وهذه الفتاة الصغرى — واسمها بُهيسة — هي التي تزوجها الحارث

وزفت إليه ، فأنكرت منه أن يدخل عليها في ثياب العرس والحرب قائمة بين عبس وذبيان فلا يشغله عن الطيب والزفاف أن يصلح بينهما ... فأكبر منها زوجها هذه الحكمة ، وسعى في الصلح بين الحيين حتى استجيب إليه .

وممن جاءت الأنباء على اختلاف الروايات باستشارتهن في الزواج هند بنت عقبة أم معاوية بن أبي سفيان . وقد خطبها سيدان من قومها فاستخبرت أباها عنهما فقال يصفهما : « أما أحدهما ففي ثروة وسعة من العيش ، إن تابعته تابعك ، وإن ملت عنه حط إليك ، تحكمين عليه في أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه في الحسب الحسيب والرأي الأريب ، مدُره أرومنه وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله » .

فقالت : « يا أبت ! الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد إبائها وتضيع تحت جناحه إذا تابعها بعلها فأشرت وخافها أهلها فأمنت؟ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه علي بعد ! وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقلية . وإني لأخلاق مثل هذا لموافقة . فزوجنيه » .

ويلوح من تكرار هذه الأنباء أن استشارة البنات في أمر زواجهن كان سنة من السنن المرعية بين سادات العرب لا يشذ عنها إلا القليل .

* * *

ومن البديه أن هذه العادات والآداب التي تنشأ من بيئة الوطن ومناخه تعم الأمة برمتها ولا يقع فيها التفاوت إلا ما لا بد منه بين فرد وفرد ، أو بين طبقة وطبقة ، على المثال الذي قدمناه .

بيد أنك قد ترى في الأمة طائفة من عليتها أو بيتاً من بيوتها يخيل إليك أنهم خصوا من دونها بصفوة هذه الآداب ونقاوة هذه العادات .

أو يخيل إليك أن آداب الأمة كلها إنما كانت تحضيراً مقصوداً لهذه الطائفة أو لهذا البيت ، يأخذون منه بالخلاصة المصفاة واللباب المختار .

فإذا صح هذا الوصف في قبيلة من قبائل العرب فهو أصح ما يكون في قبيلة بني تَيْم ، ثم في بيت أبي بكر الصديق الذي كان في موضع الذؤابة من هذه القبيلة .

فقد اجتمعت لبني تيم خلاصة الآداب التي نجمت من فرائض الحماية والذود عن الذمار ، ثم تناولتها بالصقل والتهذيب بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

وكان بيت الصديق على التخصيص مثلا في هذه الآداب جميعها يحتذى به بين الحواضر العربية .

لأن سيادة هذا البيت لم تكن سيادة طغيان وقتال ، ولكنها كانت سيادة شرف وأمانة ، وكانت حصته في الجاهلية من مقاوم الشرف حصة الوفاء بالمغارم وضمان الديون ، وعمله الأكبر في الجاهلية يدور على التجارة ومعاملة الناس ولا يدور على البأس والإكراه .

فنشأ البيت كله على الرفق والدماثة ورقة الحاشية ، واشتهر بتدليل نسائه وبناته حتى قيل – كما جاء في الأغاني – إنهن كن أحظى خلق الله عند أزواجهن . وكانت عند الحسين بن علي رضوان الله عليهما أم إسحاق بنت طلحة ، فكان يقول : « والله لربما حملت ووضعت وهي مصارمة لي لا تكلمني » .

وندر من أبناء الصديق رضي الله عنه من لم يكن له مع امرأته شأن يذكر في باب المحبة بين الأزواج .

فعبد الله أكبر أولاده بنى بعاتكة بنت زيد العدوية فهام بها وشغل عن خاصة أمره وعامته ، حتى نصح له أبوه بطلاقها فطلقها وهو كاره ، ثم أدركه الندم فنظم فيها القصائد ومنها :

أعاتك لا أنســـاك ما ذرّ شـــارق   وما لاح نجم في السماء محلق
أعاتك قلبي كـــل يوم وليلـــة   لديك بما تخفي النفوس معلق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلهـــا   ولا مثلهـــا في غير شيء تطلق

وأخوه عبد الرحمن نفله عمر بن الخطاب ليلى ابنة الجودي من حسان غسان الموصوفات بالقسامة والجمال فلازمها ولم يفارقها فترة إلا نظم الشعر في الحنين إليها ، ومن قوله فيها :

تذكرت ليلى والسماوة بيننـــا   فما لابنة الجودي ليلى وماليا
وأنى نلاقيها ! بلى . ولعلهـــا   إذا الناس حجوا قابـــلا أن توافيا

وأفرط في التعلق بها حتى لامته شقيقته السيدة عائشة رضي الله عنها وما زالت به حتى جفاها ، فعادت تلومه في جفائها وتقول له : « أفرطت في الأمرين . فإما أن تنصفها ، وإما أن تجهزها إلى أهلها ». فجهزها إلى أهلها.

ومن ذرية الصديق « ابن أبي عتيق » صاحب عمر بن أبي ربيعة شاعر الغزل المشهور ، وكان يسمع بالجفاء بينه وبين الثريا فيركب من مدينة إلى مدينة ليصلح بينهما ، ولا يترجل عن مطيته حتى يتم الصلح على ما يرومه .

وهو مع هذا كان يتحرج من نزوات عمر ويسأله : ألم تخبرني أنك ما أتيت حراماً قط ؟ فيقول : بلى !. فيستخبره عن قوله :

وما نلت منها محرماً غير أننا   كلانا من الثوب المورد لابس

ثم لا يتركه حتى يجيبه بما يدفع شكه ويرده إلى حسن ظنه .

* * *

فآداب الرجال والنساء في بني تيم كانت مثالاً للرعاية التي تظفر بها المرأة العربية في بيئة السيادة وبيئة الحضارة .

ولكنها لم تزل عربية في قرارها ، ولم تنقطع عن آداب الأمة التي جعلت

عرضها أحق شيء بالحماية ، وأقمن حصن أن تمنعه وتغار عليه .

فكان أبو بكر نفسه مثلاً من أمثلة الغيرة بين أهله وقومه ، وقد قال ابن سيرين : كان أغير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر . وروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص أن نفراً من بني هاشم دخلوا على زوجته أسماء بنت عميس فكره دخولهم عليها وشكاهم إلى النبي عليه السلام فقام على المنبر فقال : لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مغيّبة إلا أن يكون معه رجل أو أثنان .

ولما شبّب عمر بن أبي ربيعة بعائشة بنت طلحة التيمية تجمع فتيان تيم فأنذروه لئن تعرض لها بعد ذلك ليقتلنه شر قتلة ، فأقسم لا عاد .

وعائشة هي التي كانت تعاتب في كشف وجهها فتقول : « إن الله وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره . ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد » .

فهو دلال لا ينسى الصيانة ، ورفق لا ينسى الغيرة ، وآداب سيادة وحضارة لا تنسى الأصول المعروفة في آداب البداوة .

وفي هذه البيئة التي تحوطها الحمية والرعاية نشأت ربّة هذه الدراسة وموضوع هذا الكتاب : عائشة بنت الصديق رضي الله عنها .

ولكنها تفردت برعاية لم تشركها فيها ولائد هذه البيئة . فقد تربت على النعمة والخير ، وتدربت على العزة والكرامة ، وتعلمت القراءة التي لم يكن يتعلمها من نجباء الأبناء في بيوت السادة إلا القلة المعدودة .

فصح أن يقال إن الرعاية التي ظفرت بها ربة هذه الدراسة كانت هي خلاصة الكرامة التي هيأتها لبناتها حمية البداوة، وصقلتها مع الزمن شمائل الحضر ومآثر الشرف والسيادة .

المرأة المسلمة

جاء الإسلام فبدأ من النهاية التي انتهت إليها آداب الحضارة والسيادة وهي خلاصة العرف الذي تعارف عليه سادة الحضر في معاملة المرأة العربية.

إلا أنه جعل هذا العرف حقاً مكتوباً على الرجال لكل امرأة من كل طبقة ، ولم يقصره على عقائل البيوتات كما كان مقصوراً عليهن في آداب الجاهلية بحكم الاصطلاح والعادة ، يتبعه من يرضاه ويهمله من يأباه .

ثم زاد على هذا العرف منزلة من الرعاية لم تصل إليها أرفع النساء في أرفع البيوتات قبل الدعوة المحمدية ، لأنه جعلها مناط التكليف ووجه إليها الخطاب في كل شيء كما وجهه إلى الرجال . إلا ما هو من خصائص عمل الرجال في العرف المستقيم .

فالمرأة في شريعة الإسلام إنسان مرعيّ الحقوق والواجبات... « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف . وللرجال عليهن درجة » .

وكل امرأة أو فتاة — من العلية أو السوقة — لا يصح زواجها حتى يرجع إليها فيه « فلا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن » وعلامة إذنها السكوت كما جاء في بعض الأحاديث .

ولها أن تملك ما تشاء وأن تبيع وتشتري ما تشاء ، وأن تشترك في الإرث وكان حراماً عليها ، لأنها لا تحمل الدرع ولا تضرب بالسيف . بل

كان من حق الرجل أن يتخذها هي ميراثاً ينتقل إليه كرهاً كما يرث الخيل والإبل والحطام . فأبطل الإسلام ذلك حيث جاء في القرآن الكريم : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » .

وقضى بأن تبايع النساء كما بايع الرجال ، فلا تغني عن مبايعتهن مبايعة آبائهن وأزواجهن وأوليائهن . ونص القرآن الكريم على ذلك حيث جاء في سورة الممتحنة : « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم » .

وأبى الإسلام إلا أن يكفل لها حسن المودة كما كفل لها حسن المعاملة وأن يوسع لها من حقوق البر والعطف كما وسع لها من حكم الشريعة . فأوصى المسلمين أن يستقبلوا ولادتها بالرضى ، وزجر الذين يستقبلونها على غيظ وحرد : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب. ألا ساء ما يحكمون » .

ومن الآداب القرآنية أن يغالب الرجل كراهتها إذا تغير قلبه من نحوها عسى أن يثوب إلى حبها أو يكون في احتمالها خير له ولها : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

وكانت وصايا النبي (ص) على منهاج أوامر القرآن في إنصاف المرأة ورعايتها ، فكان عليه السلام يقول : « خيركم خيركم للنساء » ... و « ... ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم » .

وأسند الوصاة بها في بعض الأحاديث إلى وحي جبريل حيث قال :

« ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه يحرم طلاقهن » .

والتعليم الذي كان في بيوت السادة فلتة لا يقاس عليها بين الرجال فضلاً عن النساء جاء الإسلام فجعل « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » واستحبه عليه السلام حتى للإماء حيث قال : « أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها ، وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » .

* * *

هذه هي المنزلة التي تبوأتها المرأة في الشريعة الإسلامية .

وهذه هي المعاملة التي أوجبتها آداب الإسلام على المسلمين كافة ، وهي أرفع من كل أدب ترقت إليه الجاهلية في الجوانب التي تهذبت فيها معاملة المرأة بين ذوي السيادة والحضارة من أهلها ، وأضيفت إليها على عهد الإسلام جوانب شتى لم يكن للمرأة فيها أيسر نصيب من رعاية أو إنصاف .

ومهما يكن من الرأي في موقف العصور الحديثة من المرأة — وهو ما نعرض له في ختام هذا الكتاب — فالذي لا ريب فيه أن الإسلام قد رفعها درجات فوق أرفع منزلة بلغتها بين العرب أو بين الأمم الأخرى ، وأن المسلم الذي يعمل بدينه يوليها من البر فوق ما طلبته لنفسها ، لو أنها كانت في زمان يطلب فيه النساء لأنفسهن حقاً من الحقوق .

* * *

ولم تكن تلك غاية المرتقى

فإن الفرائض الدينية تطاع ولا تطاع ، وهي على هذه موكلة بالتعميم الذي يستوي فيه جميع المسلمين المخاطبين بالتكليف . وإنما طاعة التكليف فضيلة تعلوها فضائل الاختيار والرغبة والاشتياق إلى الإنجاز ، كأن الإنجاز هو المثوبة التي تغني عن المثوبة الموعودة . وها هنا تتفاوت المراتب وتترقى الفضائل من التعميم الشائع إلى الامتياز والرجحان ، وتستبق النفوس حتى

يكون العمل المفروض أمنية محبوبة يؤلم النفس أن تعاق دونها ولا تبلغ الغاية منها .

وتلك عليا مراتب الأنبياء .

وهي المرتبة التي سما إليها صاحب الدعوة الإسلامية بما تهيأ له من تمام الأريحية الإنسانية وملاك الفطرة النبوية .

فالحق أن محمداً عليه السلام لم يفرض على نفسه الشريفة محاسنة المرأة كما تفرض الأوامر السماوية على من يطيعها ولا مسرة له في طاعتها ، ولكنه حاسنها فطرة كما حاسن كل مخلوق حي ولا سيما الضعفاء . وجعل البر بها مقياس المفاضلة بين أخلاق الرجال وعنوان المنافسة في طلب الخير والكمال . فقال غير مرة : « خيركم خيركم للنساء » .

وبلغ من ذلك أنه يأوي إلى البيت « فيكون في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة » وأنه استحب خدمة الزوجة في منزلها فقال : « خدمتك زوجتك صدقة » وكان أكيس رجل في معاملة أهل بيته ، يشفق أن يرينه غير باسم في وجوههن ، ويزورهن جميعاً في الصباح والمساء ، وإذا خلا بهن « كان ألين الناس، ضحاكاً بساماً » كما قالت عائشة رضي الله عنها .

ومن المبالغات المألوفة في تناهي الرحمة أن يقال « إنه أرحم به من أمه وأبيه » .

لكنه عليه السلام كان حقاً أرحم بأهله من آبائهن وأمهاتهن حتى الذين اشتهروا بالحدب الشديد على ذوي الرحم كأبي بكر الصديق رضوان الله عليه .

ففي الأحاديث عن عائشة أنها قالت : « كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام . فقال : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قلت . لا . ذلك رجل هين لين يقضي

لك . قال : أترضين بأبيك ؟ قلت : نعم . فأرسل إلى أبي بكر فجاء ، فقال : اقصصي ! فقلت : بل اقصص أنت ... فقال : هي كذا وكذا ... فقلت : اقصد ! فرفع أبو بكر يده فلطمني وقال : تقولين يا بنت أم رومان : اقصد ؟ من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ؟ فجعل الدم يسيل من أنفي ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنا لم نرد هذا ... وجعل يغسل الدم بيده من ثيابي ، ويقول : رأيت كيف أبعدك الله منه ... »

وكان بره بمن مات من أزواجه أكرم من بره بمن يعشن معه ويراهن كل يوم . فلما ماتت زوجته الأولى خديجة رضي الله عنها حزن عليها وسمى العام الذي قبضت فيه « عام الحزن » ووفى لذكراها طوال حياته ، حتى لقد كانت عائشة تغار منها وهي في قبرها أشد من غيرتها من زوجاته اللواتي يعشن معها في كنفه ، وقالت له يوماً : هل كانت إلا عجوزاً بدلك الله خيراً منها ؟ فقال لها مغضباً : « لا والله ! ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

وإن هذا الوفاء لذكرى الزوجة الغابرة لخليق أن يرضي المرأة — حين تنسى غيرتها — أشد من رضاها عن مكاشفتها بالتفضيل في حياتها لجمالها وشبابها ونعيم عشرتها وصفائها .

* * *

ونحن لا نعتسف التوفيق والترتيب حين نقول عن ربة هذا الكتاب — عائشة بنت الصديق — إنها لوحظت في آداب العرب والإسلام كأنها الوجهة التي اتجهت إليها هذه الآداب في طريق الارتقاء والتهذيب .

فمن قسمتها في آداب العرب النسائية أنها نشأت في خلاصة تيم الذين اشتهروا بظرف الرجال وتدليل النساء .

من قسمتها في الإسلام أنها ملكت حقوق المرأة المسلمة ، وتجاوزتها

فملكت الحظوة التي يضفيها على نسائه نبي كريم ، يتجاوز الحقوق المفروضة صعداً في معارج الكمال ، وكانت هي بعد هذا صاحبة الحظوة الأولى بين هؤلاء النساء .

إنها لمجدودة من بنات حواء .

ولهذا الجد السعيد شأن أي شأن في تاريخها الذي اتصل بتاريخ الإسلام .

* * *

المرأة الخالدة

إن المرأة التي اجتمعت لها خلاصة الرعاية في آداب أمة من الأمم لذات شأن في تاريخ قومها لا يسهو عنه باحث موكل بدراسة التاريخ أو دراسة الآداب .

وأعظم من ذلك شأن المرأة التي كتبت لها خلاصة الرعاية في دين من الأديان ، والتي اشتركت في سيرة النبي المرسل بذلك الدين ، ونقلت أحاديثه في أحكام شريعته وخطرات ضميره ، ولقيت عنده الحظوة التي لم تلقها واحدة من النساء .

والسيدة عائشة رضي الله عنها هي هذه ، وهي تلك .

هي المرأة التي لوحظت في آداب الأمة العربية كأنما استخلصت لها هذه الآداب لتظفر منها بالرعاية الأولى .

وهي المرأة التي قال عنها النبي عليه السلام إنها أحب الناس إليه . وتلقى الأعقاب عنها مئات الأحاديث التي عرفوه بها في دينه ودنياه .

وكلاهما شأن عظيم يبوىء الإنسان بين قومه مكاناً ملحوظاً من جوانب التاريخ ...

ولكن السيدة عائشة مع هذا وذاك تهم الباحثين والمؤرخين لسبب آخر غير هذين السببين . أو للسبب الآخر المتمم لهذين السببين . لأنها المرأة في

تكوينها الأصيل الذي خلقه الله منذ خلق حواء ، أو هي المرأة التي تتمثل فيها الأنثى الخالدة التي لا تحتويها أمة واحدة ولا يستأثر بها زمان واحد ، لأنها استمدت من طبائع الإنسانية كل ما قدر لها من دوام .

وهذا هو جانب الاهتمام الصميم بكل عظيمة وكل عظيم .

فمهما يقل القائلون في غرض المؤرخ من سير العظماء فالحقيقة التي لا ريب فيها عندنا هي أن الغرض الأول أو الغرض الذي تنتهي إليه جميع الأغراض — هو توثيق الصلة بين الإنسانية وبين عظمائها وعظيماتها والنفاذ إلى الجانب الإنساني من كل نفس تستحق التنويه والدراسة .

وما من علامة هي أصدق دلالة على السيرة الناجحة من هذه العلامة .

فنحن نعلم أننا سائرون على الجادة في التعريف بصاحب السيرة أو صاحبتها إذا نظرنا فرأينا أننا قد وصلنا من تلك السيرة إلى صميم الإنسان .

ونحن نعلم أننا تائهون في الطريق إذا نظرنا فلم نجد بين أيدينا إلا سرابيل العظمة وأقواس النصر ومواكب الرهبة والخشوع .

نحن إذا فهمنا النبي نبياً وكفى فإنما وصلنا بين ضميره وضمائرنا وبين محراب العبادة عنده ومحراب العبادة عندنا .

ونحن إذا فهمنا البطل بطلاً وكفى فإنما وصلنا بين قدرته وقدرتنا وبين ضخامته بالقياس إلينا وضآلتنا بالقياس إليه .

ونحن إذا فهمنا الرئيس رئيساً وكفى فإنما وصلنا بين مركزه في الأمة ومركزنا ، وبين الحقوق التي له والواجبات التي عليه ، والحقوق التي لنا والواجبات التي علينا .

ولكننا إذا فهمنا النبي إنساناً فقد فهمناه كله وفهمناه على حقيقته التي تعنينا وتعقد له أواصر القرابة فيما بينه وبيننا ، لأننا وصلنا بين الإنسان فيه والإنسان فينا .

وكذلك البطل ، وكذلك الرئيس ، وكذلك كل ذي شأن يستحق البحث فيه .

هم غرباء حتى يقال : هذا هو الإنسان ! فإذا هم الأقربون الذين ترضينا عظمتهم لأنهم منا ونحن منهم ، ولأنهم خالدون خلود الإنسان من وراء الأقوام والأزمان .

والسيدة عائشة رضي الله عنها مثل من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها وجميع عصورها .

فضلها في الكتابة عنها أنها كتابة عن تلك الأنوثة التي نلمحها حولنا ونلمحها من قبلنا في كل أنثى .

وانها ترينا النبي في بيته فترينا الرجل الذي ارتفع بالنبوة إلى عليا مراتب الإنسانية ، ولكنه مع هذا هو الرجل في بيته كما يكون الرجال بين النساء على سنة الفطرة المعهودة من آدم وحواء .

وفضلها على الجملة أنك تقرأ من أخبارها ما تقرأ فلا تزال تقول بعد كل خبر ترويه أو يرويه غيرها : أجل هذه هي الأنثى الخالدة في كل سمة من سماتها .

هذه هي الأنثى الخالدة في غيرتها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في دلالها ، وهذه هي الأنثى الخالدة في كل ما عرفت به الأنثى من حب الزينة وحب التدليل والتصغير وحب التطلع وحب المكايدة والمناوشة ، ومكاتمة الشعور والتعريض بالقول وهي قادرة على التصريح .

وكل لون من ألوان الغيرة التي تتراءى في طبيعة المرأة فهو باد في خبر من أخبار السيدة عائشة . كأوضح ما يبدو وأصدق ما يكون في طبائع النساء .

والغيرة في طبائع النساء ألوان :

تغار المرأة على قلب الرجل الذي تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله

المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهي تأسى على كل ما يفوتها من شواغل ذلك القلب ، ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه ، وتغار من شريكتها في رجلها كائناً ما كان حظها من الجمال ، وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الحظوة في القلب الذي تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه .

و « الأنثى الغيرى » في جميع هذه الألوان من الغيرة النسائية ماثلة هنالك في سيرة عائشة كما روتها هي وكما رواها غيرها ، ما من فارق بينها وبين سائر النساء إلا الأدب الذي ينبغي لها والحق النبوي الذي هي جاهدة جهدها أن توفره وترعاه .

كانت السيدة خديجة متوفاة منذ سنوات يوم بنى النبي بالسيدة عائشة .

لكن السيدة عائشة كانت تغار منهـــا غيرة لم تنطو على مثلها لشريكاتها اللواتي يعشن معها ، لأنها شغلت قلب النبي بعد وفاتها فلم يزل يذكرها ويحب لحبها من كان يزورها أو يراها .

وكان عليه السلام يبر بعض العجائز فسألته السيدة عائشة في ذلك فقال : إن خديجة أوصتني بها ... فقالت مغضبة : خديجة . خديجة ... لكأنما ليس في الأرض امرأة إلا خديجة !

وعلى حلم رسول الله ربما غضب أحياناً من ثورتها على ذكرى خديجة ، فغضب في هذه المرة وتركها فترة ثم عاد وأمها — أم رومان — عندها فقالت له أمها : يا رسول الله ! مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها . فلم يدعها حتى أخذ بشدقها معاتباً وهو يقول لها : ألست القائلة : كأنما ليس على وجه الأرض امرأة إلا خديجة !

وسألته مرة : ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين قد بدلك الله خيراً

منها ؟ فأسكتها قائلاً : « والله ما أبدلني الله خيراً منها . آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بمالها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها » .

أما شريكاتها اللواتي كن يعايشنها في بيت النبي فربما كانت تغار من إحداهن لطعام يستطيبه النبي عندها فضلا عن الغيرة من الجمال أو الملاحة :

تعوّد عليه السلام أن يستطيب العسل الذي تهيّئه له زينب بنت جحش من أجمل أمهات المؤمنين وأحظاهن عنده . فأجمعت رأيها مع صديقتها حفصة بنت عمر أن يبغضاه في عسلها وقالت فيما روته عن نفسها : « ... فتواطأت أنا وحفصة أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ وهي طعام من صمغ حلو ولكنه كريه الرائحة ، ولم يكن أبغض إلى النبي عليه السلام من رائحة كريهة ... فلما دخل عندها رسول الله قالت : إني أجد منك ريح مغافير . قال : لا ، ولكني كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن أعود إليه ! » .

وقد عرفت زميلتها السيدة صفية بجودة الطهي ، وهي في الأصل إسرائيلية من أهل خيبر . فنفست عليها السيدة عائشة هذه الإجادة ولم تكتم منها بل هي التي روتها ومن حديثها عنها عرفناها . قالت : « ما رأيت صانعة طعام مثل صفية . صنعت لرسول الله طعاماً وهو في بيتي فأخذني أفكل — أي قشعريرة — فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت فقلت : يا رسول الله ما كفارة ما صنعت ؟ قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام » .

وهذه غيرتها من زميلات لم يجهرن بالمنافسة والمغايظة . وهي بالبداهة دون غيرتها من الزميلات اللواتي كن ينافسنها جهرة ويكاشفن النبي عليه السلام بالشكوى عن تفضيلها عليهن في المودة والحظوة ، وعلى رأسهن أم سلمة التي شهدت على نفسها والنبي يخطبها أنها غيور لا تطيق المنافسة ، فكان عليه السلام يجاملها ليذهب غيرتها ، وتغضب عائشة من هذه المجاملة

على علمها بمكانتها عنده ، قالت :

دخل عليّ يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

– أين كنت منذ اليوم ؟

قال : يا حميراء كنت عند أم سلمة .

قلت : ما تشبع من أم سلمة ؟

فتبسم . ثم قلت: يا رسول الله، ألا تخبرني عنك لو أناك نزلت بعدوتين إحداهما لم ترع والأخرى قد رُعيت أيهما كنت ترعى ؟

قال : التي لم ترع !

قلت : فأنا ليس كأحد من نسائك . كل امرأة من نسائك قد كانت عند رجل ، غيري ...

فتبسم عليه السلام .

وإذا كانت أكلة أو شربة عسل تستطاب عند إحدى الزميلات ، أو مجاملة لإحداهن جبراً لخاطر ومداراة لغيرة – تثير هذه المنافسة وتغري بهذه المؤامرة فليس من العسير أن نفهم كيف تكون الغيرة التي تثيرها الذرية المحبوبة المرقوبة حين يرزقها النبي من إحدى زوجاته وقد حرمها من سائرهن سنوات ، وهو شديد الكلف بها والتطلع إليها .

تلك إذن غيرة لا تمسكها الحدود ولا تكبحها المجاملات .

وقد ثارت ثائرتها يوم ولد له عليه السلام ابنه إبراهيم من مارية القبطية ، وكانت على هذه المزية التي امتازت بها جميلة بيضاء ، تغار منها الزميلة لجمالها وصباحتها فوق غيرتها منها لهذه الأمومة التي تفردت بها بين تسع نظيرات .

قالت كتب السير : وغارت زوجات النبي ولا كعائشة .

لأن عائشة رضي الله عنها كانت صاحبة المكانة الأولى التي ترفعت إليها « مارية » بأمومتها ، فهي أحق بالغيرة على تلك المكانة من سواها .

ولا ريب في حب عائشة للنبي ولا في سرورها ورضاها بما يسره ويرضيه . ولكننا نطالب الطبيعة الإنسانية — والطبيعة النسوية — بما يرهقها إذا نحن ترقبنا منها أن تسر بما يثير غيرتها ، وأن تحب الرجل ثم تسر بما عسى أن يصرف حبها عنه ، أو ينقص سهمها فيه .

فمن الطبيعي أن تسر المرأة بسرور الرجل لأنها تحبه .

ومن الطبيعي كذلك أن تغار من السرور الذي يحببه إلى غيرها ، لأنها تحبه .

وقد يفترق القلبان في لحظة من اللحظات لأنهما مقتربان أشد اقتراب .

وهذا الذي حدث عند مولد إبراهيم من مارية القبطية . وهي فتية جميلة رضية ، يدنيها من قلب النبي شتى المزايا ، وأولاها هذه المزية التي تربى على كل مزية .

فلما رأت عائشة فرح النبي بالوليد الموموق وأحست شغف النبي به جاهدت نفسها أن تغالب غيرتها فلم تقو على هذه المغالبة ، وقال لها يوماً : انظري إلى شبهه ! فلم تملك لسانها أن تقول : ما أرى شيئاً ... وربما أعجبه نمو الوليد ولفتها إلى بياضه ولحمه وترعرع جسمه ، فيعز عليها أن تعجب مثل عجبه . لأنه هكذا كل طفل يشرب من اللبن ما يشرب إبراهيم !

وكان غضب النبي من غيرتها غضب تأديب وتهذيب ، لا غضب سخط وتأنيب . فكان يعذرها فيما يمسه ولا يعذرها فيما ينبغي لها أن تتوخاه أو تتحراه ، أو فيما يحسن بالمرأة التي أحبها هذا الحب أن تقلع عنه وتعرف موضع الملامة فيه .

فقلما لامها في شيء يمسه من غيرتها .

ولكنه كان لا يسكت مرة عن مؤاخذتها على فلتات هذه الغيرة التي تمس بها أناساً آخرين . فيؤاخذ مؤاخذة المؤدب الرفيق ولا يدع لها أن تعيد ما آخذها عليه .

عابت أمامه زوجته السيدة صفية فذكرت من عيوبها أنها قصيرة . فكره أن تمضي في حديثها وقال : « يا عائشة ! لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » .

وحكت أمامه إنساناً فلم يعجبه ما يعجب الزوج المحب من هذه الفكاهة التي تسوغ وتستملح في ذوق كثيرين ، ونهاها أن تحكي الناس حكاية استهزاء.

* * *

ومن « الأنثويات » الخالدة في طبيعة المرأة دلالها ومغاضبتها وهي أشوق ما تكون إلى المصالحة وتقصير أمد المغاضبة .

وللسيدة عائشة نوادر شتى في هذا الدلال الذي شابهت به كرائم قومها وزادت عليهن بما بلغته من المنزلة التي لم يبلغنها .

غضب النبي من نسائه لكثرة منازعاتهن وإلحافهن عليه بطلب المزيد من النفقة والزينة . فأقسم ليهجرهن شهراً ؛ وشاع بين المسلمين أنه طلقهن جميعاً !

وكان لهذه الإشاعة بين المسلمين رجة أي رجة ، لأن تطليق النبي زوجاته جميعاً هو أكبر طارق يتعرض له عليه السلام في بيته ويمتد أثره إلى القبائل والبيوت التي كانت تجمعه بها صلة المصاهرة . وفي وسعنا أن نتخيل تلك الرجة بين الصحابة إذا علمنا أن صاحباً لعمر بن الخطاب سمع بالنبأ ليلاً فأسرع إلى بابه يدقه دقاً شديداً ويسأل عنه في فزع : أثم هو ؟ فلما خرج إليه قال صاحبه : حدث أمر عظيم . قال عمر : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه .

ثم تحرى عمر الخبر من رسول الله فعلم أن الأمر دون ذلك وأن رسول الله إنما أقسم ليهجرهن شهراً . فما لبث أن استأذنه عليه السلام ليبادر إلى المسلمين المجتمعين بالمسجد فينقل إليهم حقيقة النبأ ويذهب عنهم ما خامرهم من الأسى لما بلغهم من طلاق نسائه .

ولا ريب أن نساء النبي أنفسهن كانت بينهن للنبأ رجة أشد عليهن من هذه الرجة ؛ وكان لهذه العقوبة التي لم يعاقبهن بمثلها من قبل أثرٌ في قلوبهن أبلغ من هذا الأثر .

فلما انقضت الأيام التي أوعدن بها بدأ بالسيدة عائشة فدخل عليها وهي أشوق ما تكون إلى لقائه . فماذا سمع منها أول ما سمع ؟

قالت : يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهراً . وقد دخلت وقد مضى تسعة وعشرون يوماً !

فقال عليه السلام : إن الشهر تسعة وعشرون .

أتراها كانت تنتظر استيفاء الثلاثين ولا تقنع بالهجر تسعة وعشرين يوماً ؟

كلا . فقد عدتهن يوماً يوماً وعلمت ساعة دخول النبي كم مضى وكم بقي على ظنها من أيام العقوبة . ولكنها الأنثى الخالدة كما أسلفنا ، ولا بد للأنثى الخالدة في هذا الموقف من مكاتمة ، ولا بد لها من دلال .

* * *

وما من سمة الأنوثة الخالدة غير هذه السمات إلا وجدت السيدة عائشة وقد صدقت فطرتها فيه ، وإن كانت لتروض نفسها تلك الرياضة العالية التي تجمل بزوجة محمد وبنت الصديق وأم المؤمنين .

فإذا عرضت مناسبة للسن فليس أحب إليها من أن تقول : وكنت جارية

حديثة السن ، أو حدث ذلك لجهلي وصغر سني ، وربما راقها أن تختار من الروايات التي ذكروها لها عن سنها أقرب تلك الروايات إلى التصغير وأولاها أن تميزها بين زميلاتها بميزة الشباب .

وقد تكون وحدها في بيتها فتعجبها ثيابها وتحب أن تنظر إليها . قالت : « ولبست ثيابي فطفقت أنظر إلى ذيلي وأنا أمشي في البيت وألتفت إلى ثيابي وذيلي . فدخل عليّ أبو بكر فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قلت : ولم ذاك ؟ قال : أما علمت أن العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فنزعته فتصدقت به ، قال أبو بكر : عسى ذلك أن يكفر عنك » .

وهي عائشة كاملة في هذه القصة الصغيرة : هي حواء التي تحب أن تنظر إلى زينتها ، وهي أم المؤمنين التي تحب أن ينظر الله إليها ، وهي هنا أيضاً حواء تطمح إلى زينة أعلى وأغلى .

* * *

ولن تعوزنا أسباب الاهتمام بحياة كهذه الحياة ، لأنها المرأة العربية والمرأة المسلمة ، والمرأة الخالدة في كل زمان .

عائشة

ولدت عائشة لأبي بكر الصديق من زوجته « أم رومان » واسمها زينب أو دعد مختلف فيه ، كما اختلفوا في نسبها واتفقوا على أنها من كنانة .

وكانت قبل بناء الصديق بها زوجاً لصاحبه في الجاهلية عبد الله بن الحارث ابن سخبرة ، وولدت له ابنه الطفيل ، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه .

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتاً شديداً في سبيل دينها وزوجها ، ويروى عن النبي عليه السلام أنه قال : « من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان » .

وقد اختلفوا في سنة وفاتها ، من قائل : إنها توفيت في حياة النبي عليه السلام ، إلى قائل : إنها عاشت إلى أيام عثمان رضي الله عنه ، والأرجح في رواية البخاري أنها عاشت إلى أيام عثمان .

ولا يعرف على التحقيق في أي سنة ولدت السيدة عائشة رضي الله عنها : ولكن أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام .

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء ، فكان عليه

السلام يلقبها بالحميراء ، وكانت أقرب إلى الطول لأنها كانت تعيب القصر كما مر في كلامها عن السيدة صفية ، وكانت في صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول ، حتى كان الذين يحملون هودجها خالياً يحسبونها فيه . قالت في حديث لها مشهور : « ... وأقبل إليّ رهط الذين كانوا يرحلون لي — أي يحماون الرحل على البعير — فحملوا هودجي وهم يحسبون أني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم . إنما يأكلن العلقة من الطعام .. فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه ، إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن » .

ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة كما جاء في كلامها في حديث آخر : « ... خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك . فسابقته فسكت . حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالي حتى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول : هذه بتلك » .

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها . فمن ثم وصيتها على ما يظهر بالشعر حيث تقول : « إذا كان لأحدكم شعر فليكرمه » .

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت ، تخطب العسكر من هودجها في ساحة الحرب فيسمع خطابها .

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال ، وكان أبوها رضي الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء .

والظاهر أنها ورثت عنه كثيراً من خَلقه وخُلقه على السواء . فقد كان الصديق جميلاً حتى جاء في بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ،وكان

نحيلاً دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء وكان كريماً سريعاً إلى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب في الجاهلية ولا في الإسلام ، وكان ماضي اللسان قديرا على إفحام من يجترىء عليه ، وتشبهه السيدة عائشة في هذه الخلائق شبهاً كان يوحي إلى النبي عليه السلام كلما سمعها تجيب من يساجلها أن يقول : إنها ابنة أبي بكر ! إنها ابنة أبي بكر !

وقد راضت حدتها زمناً كما كان أبوها يروض حدته طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك ما بلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة إلى سياسة الدنيا ، ومكان الفتاة من الضعف ومن الحظوة التي تغنيها عن الصرامة في مغالبة النفس ومراس الخطوب في كفاح الحياة .

والمعهود في أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان في معظم الأحيان .

وليس في أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التي تعم النساء كما تعم الرجال ، فليس مما ينقضها أنها رضي الله عنها بقيت على موجدة من مسألة الإفك طوال حياتها فلم تنس قط مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . إذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة ولا أوجع لضميرها من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهنائها ويفقدها الرجل الذي تحبه والمكانة التي تبوأتها ، وأهول ما يكون ذلك على البريئة العزيزة التي يهولها الأمر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة في مسألة الإفك سائر خلائقها ودوافع ضميرها . فليس في غير هذه المسألة ما ينم على شيء يتجاوز الحدة العارضة إلى الضغينة الباقية .

حدث مسروق الهمداني قال : « دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثي بنتاً له ويقول :

رزان حصان ما تـزن بريبـة   وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة : لكن أنت لست كذلك . فقلت لها : أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل (والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم) فقالت : « أما تراه في عذاب عظيم قد ذهب بصره » .

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب إليه شعر في مسألة الإفك لا يرضي السيدة عائشة .

على أنها قبلت عذره كما جاء في رواية أخرى ونهت عن شتمه ، وذلك فيما رواه يوسف بن ماهك عن أمه حيث تقول : « كنت أطوف مع عائشة بالبيت فذكرت حسان فسببته فقالت : بئس ما قلت ؛ أتسبينه وهو الذي يقول :

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

فقلت : أليس ممن لعن الله في الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئاً ولكنه الذي يقول :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فإن كان ما قد جاء عني قلته فلا رفعت سوطي إلي أناملي

وقال هشام بن عروة عن أبيه : « كنت قاعداً عند عائشة فمر بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه فقالت : مهلا ! فذكرتها كلامه فقالت : فكيف بقوله :

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

ولا شك أن الذي ذكرته السيدة عائشة لحسان لا ينسى ، وأن الذي صفحت عنه بعد ذلك كثير ، وأن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت .

* * *

أما كرم السيدة عائشة فهي فيه إلى النجدة أقرب منها إلى السخاء ، وهي

فيه على آسال من أبيها العظيم رضي الله عنه . تنقذ من الأسر وتغيث من البلاء وتعطي من هو في حاجة إلى العون العاجل ما تيسر لها العطاء ، وكانت في كرمها على حال سواء في أيام النبي عليه السلام حين لا مال لديها إلا القليل الذي هي أحوج إليه ؛ أو في أيام الفتوح التي تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور .

كان لعتبة بن أبي المهلب جارية حبشية اسمها بريرة زوّجها على غير رضاها عبداً من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ، وهي أهل لمن هو أصلح وآدب منه . فرحمتها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها . وخاطبت فيها النبي عليه السلام فقال لها : ملكت نفسك فاختاري !

وكان زوجها يتعلق بها ويتبعها حيث سارت وهي معرضة عنه ، فتعجب النبي بين أصحابه يوماً من فرط حبه لها وزهدها فيه ؛ وقال لها : اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك ! قالت : أتأمرني ؟ قال : لا . إنما أنا شافع . فقالت : إذن لا حاجة بي إليه .

وما زالت بعد ذلك في خدمة السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها .

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنها رزقت القدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب ، فما من شأو بلغته في هذا المعراج الرفيع إلا ارتفع بها رسول الله إلى أعلى منه وأجمل . كانت عندها فتاة يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد فزوجتها انبيط بن جابر الأنصاري وسارت معها في زفافها إلى بيت زوجها . فلما عادت سألها عليه السلام : ما كان معكم لهو فإنه يعجب الأنصاري ؟ هلا بعثتم جارية تضرب بالدف وتغني ؟ فسألته : ماذا تقول يا رسول الله؟ ! قال: تقول أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم . ولولا الذهب الأحمر ما حلت بواديكم ، ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم».

وحدثت مولاتها أم ذرة — وهي من الثقات — أن ابن الزبير بعث إلى

السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائة ألف درهم . وكانت صائمة فدعت بطبق فجعلت تقسم في الناس . ثم أمست فقالت : يا جارية هاتي فطري . قالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشتري بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعنفيني ! لو كنت أذكرتني لفعلت !

وقال ابن سعد عن عروة بن الزبير . رأيت عائشة تصدّق بسبعين ألفاً ، وإنها لترقع جانب درعها . وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواتها من الثقة أنها رضي الله عنها كانت مشهورة بالكرم والإحسان إلى مستحقيه .

وقد كانت بنت أبيها في أكثر من خصلة واحدة من هذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ما تكون به في خصلة الصدق التي بها اشتهر ومن أجلها نعت بالصديق وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أن ينسى الناس اسمه الذي دعاه به أبواه . وقد امتحن صدقها في مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتمحصت عن معدن كريم وعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم . ففي الغاشية التي أطبقت على العالم الإسلامي من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الأحاديث الموضوعة من هنا وهناك وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثاً لكل حزب ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . وافتنّ الوضاع في محاكاة الأحاديث النبوية ذلك الافتنان الذي شقى به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين . وكانت السيدة عائشة تشترك في خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق إلى المشاركة فيها على كره منها . وكانت هي أول من يُسمع له إذا روت حديثاً يدمغ خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط في كل ما ثبتت نسبته إليها حديثاً واحداً تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الأسانيد الأخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها طواعية لإغراء تلك النوازع النفسية التي تطيش بالألسنة أو تضال العقول ، وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان

في هذا الباب ، ولهذا كانوا يروون عنها الأحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق !

ومن الصفات التي شابهت فيها أباها الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه .

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء في سرعة الفهم وقدرة التحصيل والإحاطة بكل ما يقع في متناول ذهنها .

قال أبو الزناد : ما رأيت أحداً أروى لشعر من عروة بن الزبير. فقيل له : ما أرواك ! قال : وما روايتي في رواية عائشة ! ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً .

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حباً لخالته السيدة عائشة وإعظاماً لها وتوقيراً لسيرتها ، ولكن الذي روي عنها من الشواهد الشعرية في أخبارها التي نقلت إلينا يدل على صدق ما وصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد.

دخل عليها النبي عليه السلام وهي تتمثل بالبيتين التاليين :

ارفع ضعيفك لا يحربنك ضعفه يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام : لقد أتاني جبريل برسالة من ربي : « أيما رجل صنع إلى أخيه صنيعة فلم يجد له جزاء إلا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه » .

ورأت أباها يجود بنفسه فقالت :

لعمري ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

وعادت تقول :

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ومما يروى أنها أنشدته في تلك الساعة وهي ولهى لفراق أبيها :

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

ويؤخذ من بعض ما نقل عنها أنها كانت تسمع شعر زهير وتعجب به ، فقالت لإحدى بناته فيما روى الهيثم بن عدي : « إن الحال التي كساها أبوك هَرِماً لم يبلها الدهر » .

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشعرية التي وصلت إلينا من أخبارها .

فحسبها أنها قد روت للنبي عليه السلام أكثر من ألفي حديث في مختلف المسائل التي تدخل فيها الأحكام الشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والأصول التي يرجع إليها في الدين والعبادة .

بل حسبها أن يثبت لها عشر هذا العدد من الأحاديث النبوية ليثبت لها أنها كانت تفهم وتعي وتحسن الحفظ فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها ، وأنها تحيط في فهمها وحفظها بكل ما أحاطت به الأحاديث من المعارض والمناسبات .

ومع هذا يروي الثقات أنها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ولا يقتصر علمها على وعي الكلمات والعبارات . قال أبو موسى الأشعري : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها علماً فيه ، وقال عطاء بن أبي رباح : كانت أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأياً في العامة . وقال مسروق الهمداني : رأيت مشيخة أصحاب رسول الله الأكابر يسألونها عن الفرائض ، وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة .

ومن الأحاديث التي ترفع إلى النبي أنه قال : خذوا شطر دينكم عن

هذي الحميراء ، وهو حديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذي لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر نبيهم وأمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام .

ولا ريب أنها كانت تقتدي بأبيها في حفظ الأخبار والأنساب كما كانت تقبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته . ويستفاد من بعض المنقول عنها أنها كانت تواقة إلى معرفة كل ما نعرف من تواريخ الأمم غير قانعة بأخبار الأمة العربية ، ولا بالأخبار التي تعنيها خاصة كأخبار النبي والصحابة والعشيرة الإسلامية ، ومنها خبر النجاشي حين هاجر المسلمون إلى بلاده فأوفد إليه المشركون جماعة منهم يحملون إليه الغوالي والنفائس ليبطش بأولئك المهاجرين أو يردهم إلى قومهم ، فقال : « ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة منه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه » .

فخفي على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى إلى علمها ، وهو أن هذا النجاشي كان من الأمراء المغصوبين وأقصاه الملك الغاصب وباعه بيع الرقيق ، ثم أعيد إلى ملكه فاقتضى الرجل الذي اشتراه حقه وأبى هذا النجاشي إلا أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فذلك إذ يقول : ما أخذ الله مني رشوة حين رد علي ملكي فآخذ الرشوة فيه .

وهو تفسير لا يعنينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذي يعنينا منه شغف السيدة باستطلاع أحوال الأمم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع .

* * *

وغزارة الاطلاع بينة — إلى جانب هذا — من لغة السيدة عائشة التي امتزجت بأسلوبها في كل ما نقل عنها ولا سيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة لا تتهيأ بغير محصول كبير من أنباء العربية التي تستقى من أعرق مصادرها .

قالت في خطبة بعد وقعة الجمل تذكر أباها : « ... وأبي ثاني اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمي صديقاً ، مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وقد طوقه وهق [1] الإمامة ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه وربق [2] لكم أثناءه فوقذ [3] النفاق وغاض نبع الردة وأطفأ ما حشت يهود ، وأنتم يومئذ جحظ العيون تنتظرون العدوة وتستمعون الصيحة فرأب الثأي [4] وأرزم [5] مسقاه وامتاح من المهواة واجتهر دفن الرواء [6] حتى أعطن الوارد وأورد الصادر ، وعل الناهل [7] فقبضه الله واطئاً على هام النفاق ، مذكياً نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله فولى أمركم رجلا مرعياً إذا ركن إليه ، بعيد ما بين اللابتين [8] عركة [9] للأذاة بجنبه صفوحاً عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل في نصرة الإسلام » .

ووصفت أباها في خطبة أخرى فقالت : « رحمك الله يا أبت ! فلئن أقاموا الدنيا لقد أقمت الدين حين وهى شعبه ، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه ، وانقبضت عما إليه أصغوا ، وشمرت فيما عنه ونوا ، واستصغرت من دنياك ما أعظموا ، ورغبت بدينك عما أغفلوا ، طالوا عنان الأمر واقتعدت مطي الحذر ، فلم تهتضم دينك ولم تنس غدك ، ففاز عند المساهمة قدحك وخف مما استوزروا ظهرك » .

---

(١) حبل يجعل في العنق .
(٢) ربقه : شده في الربق وهو حبل فيه عرى .
(٣) كسر .
(٤) أي رقع الفتق وأصلح الخلل .
(٥) أي شده .
(٦) امتاح من المهواة أي استقى من البئر العميقة ، واجتهر دفن الرواء أي اخرج خبايا الماء الغزير .
(٧) النهل : أول الشرب . والعلل : السقي بعد السقي .
(٨) كناية عن سعة الصدر .
(٩) من المعاركة أي الاختيار .

ووقفت على قبره قائلة — وهو كلام يستغرب تنسيق فواصله وترجيع ضمائره ولكنه لا يستبعد على عصره :

« نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلاً بإعراضك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلّ الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أتنجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستعيضه منك ، بالدعاء لك . فإنا لله وإنا إليه راجعون . وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك » .

وقد كان لها أسلوب فيما يرتجل يناسب موضوعه ، كما كان لها فيما يجوز تحضيره أسلوب يناسب ما يحتفل له بالتحضير . فلما حكت عن زواجها بالنبي قالت بأساوب مرسل سهل ولكنه مع ذلك جزل فصيح : « ... تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنة ست سنين ، فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري فوفى جميمه (١) فأتتني أمي أم رومان وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي وصرخت بي فأتيتها لا أدري ما تريد بي ! فأخذتني بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمسحت به وجهي ورأسي . ثم أدخلتني الدار فإذا نسوة من الأنصار في البيت . فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر . فأسلمتني إليهن يصلحن من شأني فلم يرعني إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين ... »

* * *

ومع هذه المادة اللغوية التي تنم عن استقصاء مادة العربية من أعرق

(١) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

مصادرها لا نستغرب ما تواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها وما يصح في زماننا أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لإلمامه بمسالك النجوم ومهاب الأنواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة في عصر الدعوة الإسلامية .

وهكذا تنظر إلى عائشة لنفسها فلا ترى أنها تقصر عن عائشه في المكان الذي خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها إليه الآداب الإسلامية والحظوة النبوية . لأنه مكان قد استحقته لنشأتها في قبيلتها ودخولها في دينها . واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمال وفهم ومعرفة وبيان .

زَوجُ النَّبيّ

كانت السيدة خديجة رضي الله عنها أول زوجات النبي عليه السلام وأحبهن إليه ، عاش معها زهاء خمس وعشرين سنة ولم يتزوج عليها ولا فكر في الزواج بغيرها في حياتها . مع أنه بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين وهي في نحو الأربعين ، وبقيت معه إلى أن أوفت على الخامسة والستين .

ثم توفيت حوالي السنة العاشرة بعد الدعوة ؛ فلم يعرف عنه أنه حزن على أحد قط أشد من حزنه عليها ، ولا أطال الذكرى لأحد قط بعد وفاته كما أطال ذكراها ، وسمى عام وفاتها « عام الحزن » لأن الحزن لم يفارقه طوال أيامه ، ولم يفارقه — في الواقع — بقية حياته كلها ، وإن سكنت سورته مع الأيام كما تسكن كل سورة لاعجة مع ذلك العزم الصادق والقلب الصبور .

وتزوج بالسيدة عائشة بعد وفاة السيدة خديجة بسنوات .

فكان التقابل بين الزوجين من أتمّ ما تأتي به المصادفة حين تكون المصادفة أحكم من التدبير والتقدير ، ولعل هذا التقابل لم يخل كل الخلو من القصد الخفي وإن لم تتجه إليه النية في وضوح .

ويبدو لنا أن النبي عليه السلام كان أحوج ما يكون إلى هذا التقابل العجيب في حياته الزوجية .

فالفتى اليتيم الذي فجع في حنان الأمومة منذ طفولته الباكرة لم يكن

أنفع له من زوجة كريمة رشيدة كالسيدة خديجة التي أغدقت عليه من حنان الأمومة ما فاته في بواكير الطفولة . وأدركه عطفها وهو يعالج من نوازع الدعوة النبوية ثورة مقيمة مقعدة في سريرة النفس . لا تزال بين الجلاء والغموض وبين الإقدام والإحجام . ولا تزال في هذه الحالة على حاجتها الشديدة إلى التثبيت والكلاءة والتشجيع .

أما النبي في الخمسين من عمره فقد كان أنفع له وأبهج لفؤاده أن يغدق حنان الأبوة على زوجته التي تظفر منه بالحظوة والمودة . وأن يستروح من شبابها وجمالها نعمة تسعده في جهاده وربيعاً يظلله في وحشة عمره .

كانت خديجة أماً ترعاه .

ثم كانت عائشة طفلة تنعم بتدليله .

وكانت خديجة تسعده بالعقل والحنكة .

ثم كانت عائشة تسعده بالطرافة والجمال .

وكانت خديجة تصاحبه قبل الدعوة وهو يطلب الأنصار في طوية النفس قبل أن يطلبهم في عالم النضال والبلاء .

ثم كانت عائشة تصاحبه بعد الدعوة وهو صاحب دين جهر وبهر ، فكانت هي أول سفرائه بالإصهار إلى رجالات العرب ورؤساء العشائر والبيوت .

كان تقابلا بين الزوجين الفضليين من أعجب ما تأتي به المصادفة بل من أعجب ما يأتي به التدبير ؛ وليس هناك تدبير معروف .

فالذي نعلمه من خطبة النبي عليه السلام للسيدة عائشة أنها كانت من المصادفات التي لم يتحدث بها قط قبل أن تقترح عليه .

نعم إنه عليه السلام قال لعائشة يوماً : « أريتك في المنام مرتين أرى أنك في سرقة من حرير ويقال : هذه امرأتك ! فاكشف عنها فإنما هي أنت .

فأقول : إن يك هذا من عند الله يُمضه » .

ولكن الحديث يدلنا على مبلغ ما كان في ضمير النبي عليه السلام من هذه النية ، وقد يفهم منه أنه كان عليه السلام يناجي نفسه الشريفة بأمنيته في الزواج فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية ، وكان هذا من بواعث حبه إياها لمطابقة الرؤية ما تمثله في الرؤيا .

فأما الخطبة فالذي نعلمه من الروايات المتواترة أنها جاءت بعد اقتراح من سيدة بارة آلمها ما لحظته من حزن النبي على زوجه العزيزة عليه . فقالت له : أي رسول الله ! ألا تتزوج ؟ فسألها : من ؟ قالت : إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً . ثم سألها عن البكر فذكرت عائشة « بنت أحب خلق الله إليك » ... وسألها عن الثيب فذكرت سودة بنت زمعة . فأوفدها إلى بيت أبي بكر وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات .

هذه السيدة هي خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون من أجلاء الصحابة الذين حرموا الخمر في الجاهلية وعاش بعد الإسلام عيشة النسك والحكمة . وبقية حديث الخطبة أنها ذهبت إلى أم رومان — أم عائشة — فبادأتها بالحديث قائلة : ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة ! قالت : وما ذاك ؟ قالت : أرسلني رسول الله أخطب عليه عائشة . فاستمهلتها حتى ترى أبا بكر ، وقيل إن أبا بكر سأل حين بلغه الأمر : وهل تصلح له وهي بنت أخيه ؟ يظن أن المؤاخاة بينه و بين النبي قد بلغت مبلغ القرابة التي تمنع المصاهرة . فكان جواب النبي لها : « قولي له أنت أخي في الإسلام وابنتك تحل لي » كما جاء في هذه الرواية .

وإلى هذا الحين لم يكن في تقدير أحد أن صلة من أوثق الصلات ستنعقد بين النبي وصفيه الحميم . لأن عائشة كانت مخطوبة قبل ذلك لجبير بن مطعم ابن عدي من أصحاب أبيها في الجاهلية . فتحرج أبو بكر من نقض خطبته قبل مراجعته فيما ينويه ، وقال لأم رومان زوجته : والله ما أخلف أبو بكر

وعداً قط . ثم لقي أبا الفتى وأمه يسألهما فيما ينتويانه . فأقبل الأب على امرأته يسألها : ما تقولين ؟ فالتفتت الأم إلى أبي بكر وهي تقول متعللة : لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه؟ فلم يجبها ، وسأل زوجها : ما تقول أنت ؟ فلم يزده على أن أجاب : إنها تقول ما تسمع .

فعلم أبو بكر يومئذ أنه في حل من نقض وعده لمطعم بني عدي ، واستقبل النبي خاطباً فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات ، وأصدقها النبي عليه السلام أربعمائة درهم على أشهر الروايات.

وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت إلى النبي عليه السلام في السنة الثانية للهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات .

وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعودوا تسجيل المواليد . إذ قلما يسمع بإنسان — رجلا كان أو امرأة — في ذلك العصر إلا ذكر له تاريخان أو ثلاثة لميلاده أو زواجه أو وفاته . وقد يبلغ الاختلاف بين تاريخ وتاريخ في تراجم المشهورين فضلا عن الخاملين عشر سنين .

والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي عليه السلام عن الثانية عشرة ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير .

فقد جاء في بعض المواضع بن طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال .

ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة اقترحتها على النبي وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعتها إلى اقتراح الزواج على النبي وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى .

ويؤيد هذا الترجيح ، من غير هذا الجانب ، أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة .

فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهي قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين .

وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الأسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام .

فإذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام .

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه ، وأنها هي رضي الله عنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها لأنها لم تقرأها بداهة في وثيقة مكتوبة ، فكان يعجبها على سنة الأنوثة الخالدة أن تأخذ بأصغرها ، وكانت هي كثيراً ما تدل بالصغر بين أترابها فلا تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول : وكنت يومئذ جارية حديثة السن ، أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئاً من القرآن ، إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى .

ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما يقوله المستشرقون على النبي بصدد زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكرة ، وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير مرجوح .

* * *

وقد ملكت ربة البيت الصغيرة بيتها الجديد من اللحظة الأولى لأنها كانت تدل فيه بمكانة الزوجة المحبوبة عند زوجها العطوف ، وبمكانة البنوة الناشئة عند الأبوة الرحيمة ، ومكانة ابنة الصديق العزيز التي أضفى عليها المودة والإيثار ما كان بين النبي والصدّيق من مودة هي أوثق وأبقى من مودة الرحم ، لأنها مودة الوفاء والإعجاب والإيمان ، أو مودة الحياة وما بعد الحياة .

وقد سجلت لنا السيدة عائشة خطرات نفسها خطرة خطرة ، ووصفت لنا في بيتها الجديد كل صغيرة وكبيرة ظاهرة وخافية ، ولكنها لم تذكر لنا قط كلمة واحدة تنم عن وحشة الانتقال من بيت إلى بيت ، ومن معيشة إلى معيشة ، ومن ظل أبوين إلى ظل رجل غريب عنها لا تعرف عنه إلا ما تعرفه عن النبي كلّ صبيةٍ مسلمة في سنها الباكرة. لأن عطف محمد هو العطف الغامر الذي لا يلجىء إلى عطف سواه ، وقد أغنى زيداً عن أبيه وأمه فآثر حياة الأسر مع سيده على حياة الحرية مع أبيه وأمه ، فأحرى بمثل هذا العطف أن يغني الفتاة التي تأوي إليه فتلوذ منه بعطف زوج وعطف أب وعطف صديق .

وتركها على سجيتها تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أمها وأبيها . وربما جاءها صواحبها الصغار « فينقمعن – كما قالت – من رسول الله فكان عليه السلام يسير بهن إليها ليلعبن معها .

وقالت جاريتها بريرة تصفها وهي في السنوات الأولى من زواجها : « ما كنت أعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت جارية صغيرة أعجن العجين وآمرها أن تحفظه فتنام فتأتي الشاة فتأكله » .

وكان عليه السلام يتعهدها بما يسرها وإن عجب الصحابة الذين لا يفهمون وقار الدين كما يفهمه ولا تتسع صدورهم لما يتسع له صدره . ودخل عليها أبوها وعندها قينتان تغنيان في يوم منى والنبي عليه السلام مضجع مُسجّىً في ثوبه ، فصاح بها : أعند رسول الله يصنع هذا ؟ ... فكشف النبي عن وجهه وقال : دعهن فإنها أيام عيد .

وكان السودان يلعبون في يوم من أيام العيد بالدق والحراب فسألها عليه السلام : تشتهين أن تنظري ؟ قالت : نعم . قالت : « فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول : دونكم يا بني أرفدة — كنية الحبشة — حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم ! قال : فاذهبي » .

وربما مر أبوها رضي الله عنه بالبيت فيسمع صوتها عالياً في حضرة النبي عليه السلام ، فيدخل غاضباً يتناولها ليلطمها وينهرها قائلا : لا أراك ترفعين صوتك على رسول الله . فينهض عليه السلام ليحجزه ويقول لها بعد خروجه : رأيت كيف أنقذتك من الرجل ؟

وفي مرة من هذه المرات خرج أبو بكر مغضباً ثم عاد فوجدهما قد اصطلحا . فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتماني في حربكما .
فقال النبي : قد فعلنا .

ولم يخف هذا العطف الذي لا نظير له بين الأزواج على السيدة عائشة وهي ما هي في ذكائها وعلمها ببيوت الصحابة وغيرها . وازدادت به علماً يوم شاركها الزميلات في بيت النبي وقد شاءت الدواعي السياسية والدينية أن تتعدد زوجاته وتتعدد صلات المصاهرات بينه وبين قبائل الجزيرة العربية ، فقد عرفت مكانها وهي بين تسع من الزميلات كما عرفت مكانتها وهي موشكة أن تنفرد في بيت النبوة ، وكان عليه السلام يعدل بينها وبين زميلاتها فيما يملك العدل فيه . أما ميل قلبه فكان يستغفر الله فيه قائلا : « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

وشكرت له هذا الإيثار . وفخرت به في معارض حديثها كلما بدا لها معرض للشكر أو للتحدث بنعمة الله عليها . فقص عليها النبي يوماً قصة النسوة الإحدى عشرة اللواتي اجتمعن فتذاكرن أوصاف أزواجهن من خير وشر ، وكانت الحادية عشرة منهن — وهي أم زرع — محبة لزوجها ، فوصفته بأحسن ما يوصف به الأزواج في السر والعلانية . فقالت السيدة عائشة :

« بأبي وأمي لأنت يا رسول الله خير لي من أبي زرع لأم زرع » .

وهي القائلة بعد وفاة النبي في مزاياها التي اختصت بها دون أترابها : « فضلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعشر ! لم ينكح بكراً قط غيري ، ولا امرأة أبواها مهاجران غيري ، وأنزل الله براءتي من السماء ، وجاء جبريل بصورتي من السماء في حريرة ، وكنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري ، وكان يصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري ، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي ولم ينزل وهو مع غيري ، وقبض وهو بين سحري ونحري وفي الليلة التي كان يدور علي فيها ودفن في بيتي » .

وكان هذا التمييز سر البيت النبوي في مبدأ أمره ، ثم شاع في الجزيرة العربية حتى كان صاحب الهدية من المسلمين يؤخرها ليبعث بها إلى النبي وهو في بيت عائشة .

فوقع التغاير الذي لا محيص منه بين الزوجات ، وأرسلن إليه إحداهن أم سلمة فأعرض عن حديثها ثلاث مرات ، فلما أثقلت عليه قال لها : « لا تؤذيني في عائشة . فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة غير عائشة » .. يريد بالثوب البيت في بعض التفسيرات ، من قولهم ثاب إليه يثوب فهو في الثوب الذي لا يزال يرجع إليه .

وتوسلن بالسيدة فاطمة رضي الله عنها لما يعلمن من قبول أبيها لكل شفاعة تأتيه منها ، فقالت له : « إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت أبي بكر . قال لها : يا بنية ! ألا تحبين ما أحب ! قالت : بلى . قال : فأحبي هذه » ... يشير إلى عائشة .

ويسير على الزميلات المتنافسات أن يدركن حب النبي لعائشة ويلحظن أنها كانت أحبهن جميعاً إليه وأقربهن جميعاً إلى فؤاده .

ولكن الذي لم يكن يسيراً عليهن أن يدركنه أو يلحظنه أنها هي رضي الله عنها كانت أشدهن حباً له ونفاذاً إلى نفسه واتصالا بقلبه ولبه .

فكلهن كن يحببنه ويتنافسن على قربه ولو كان فيه التنافس على الموت وفراق الدنيا ومن فيها . وحدثهن يوماً عمن تلحق به بعد فراقه الدنيا فقال : « أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يداً »... فجعلن يقسن أيديهن وما منهن إلا من تتمنى أن تكون هي صاحبة اليد الطولى. ثم ظهر لهن أن المراد بالطول هنا طول اليد بالصدقة والعمل الصالح ... فغبطن زميلتهن زينب بنت جحش ! لأنها استحقت اللحاق به لعملها بيدها وإكثارها من الصدقات على مستحقيها .

إلا أن الحب الذي يبدو من فطنة عائشة لسرائر النبي أعمق وأقوى فما منهن من لصقت بنفسه كما لصقت بها ومن نفذت إلى معانيه كما نفذت إليها ومن عاشرته في روحه وطويته كما عاشرته بروحها وطويتها . وفي كلامها من الشواهد على ذلك ما ليس في كلامهن على تيسر الوسائل لهن أن يعرفن مثل ما عرفت وأن ينقلن عنه مثل ما نقلت. وليس أدل على اقتراب الحب من هذا الاقتراب الذي امتازت به عليهن . فكان إيثار النبي لها ضرباً من العدل على هذا الاعتبار .

لقد كانت تحبه حب المسلمة لنبيها .

وكانت تحبه حب الزوجة لزوجها والمرأة لرجلها ، وكانت تعجب بجماله كما تعجب بأدبه وعظمة قدره .

وكان يسرها أن تستمع إلى صوته وتصغي إلى ترتيل حديثه كما يسرها أن تستوضح معناه لأنه — كما كانت تقول لسائليها — لا يسرد كسردكم هذا ولكنه « يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه » .

وكانت تغار عليه أشد غيرة عرفتها امرأة على زوجها ، وربما خرج من عندها في ليلتها فإذا هي تتبعه إلى حيث ذهب مخافة أن يلم ببيت زميلة من زميلاتها ، ووجدته في ليلة من هذه الليالي قد ذهب إلى المقابر يصلي للشهداء،

ويستغفر لهم ، فعادت إلى بيتها تقول لنفسها : بأبي أنت وأمي . أنت في حاجة ربك وأنا في حاجة الدنيا! ولكنها لبثت مكروبة الصدر مما خاطرها من خاطرها الأول ومن خطأ ظنها . فلما قفل عليه السلام إليها لحظ ما بها فسألها : ما هذا النفس يا عائشة ! فقالت: بأبي أنت وأمي . أتيتني فوضعت ثوبيك ثم لم تستتم أن قمت فلبستهما، فأخذتني غيرة شديدة ظننت أنك تأتي بعض صويحباتي حتى رأيتك بالبقيع تصنع ما تصنع ... وخرج مرة أخرى ثم عاد إليها فإذا هي في مثل تلك الحالة . فقال : أغرت ؟ قالت : وهل مثلي لا يغار على مثلك ؟ فقال : لقد جاءك شيطانك !

ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها . فكانت تلبس المعصفر والمضرج وتتحرى ما يعجبه من الطيب والحلية، ودخلت عليها امرأة وهي معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء طهور . وسألتها عن الحفاف فقالت لها : « إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيهما أحسن ما هما فافعلي » .

* * *

ومن الجائز — أو ربما كان الواقع — أن زميلاتها أمهات المؤمنين كن يغرن على النبي مثل غيرتها ويجهدن في رضائه مثل جهدها . ولكنهن ولا ريب لم يبلغن شأوها في حبها إياه حين نفهم من الحب ذلك الاقتراب بين النفسين بالبداهة والشعور . وليس في أحاديثهن عنه مثل ما في أحاديثها عنه من ذلك الإحساس بالقرب وذلك النفاذ إلى الطوية . وليست المسألة هنا مسألة الكثرة أو القلة في الأحاديث فربما كان تعايل الكثرة في أحاديث عائشة عن النبي أنه كان عليه السلام أكثر تحدثاً إليها وارتياحاً إلى مجالستها ومسامرتها . ولكنها مسألة الرفق في الأداء والخبرة بالمعنى والقدرة على الاستيحاء والشعور الباطن بقلة الحواجز بين النفسين واتصال الحس بينها والاقانة .

ومن البديه أنها لم تبلغ هذه المنزلة في حب النبي وفهمه طفرة واحدة

ولا في سنة واحدة أو سنتين . بل لبثت السنوات الأولى من عشرتها له وهي تقترب من الأنس به إلى المعرفة بنفسه وعقله والترقي إلى عظمته ونبله ... حتى أدركت ما يتاح لها أن تدرك من تلك العظمة التي تعاو على هامتها وهامات الرجال من حولها ، ولكنها هي — ببداهة المرأة وبداهة الحب الأنثوي — كانت تستقرب ما يبعد على غيرها ، وتستعيض ما يفوتها من الفهم الواضح بما يفوتهم من اللقانة الباطنية والوعي المستسر في الأخلاد .

ومضت السنوات الأولى في عشرة النبي وهي تفقه من أحاديثه ما تيسر لها أن تفقه ولا تقرأ كثيراً من القرآن ، أو كما قالت في حديث الإفك : كنت « جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ... والتمست اسم يعقوب فما أذكره فقلت : ولكن سأقول كما قال أبو يوسف فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

وقد أمهلها النبي في هذه السنوات رفقاً بها وإعداداً لفهمها وعزمها ولكنه لم يفتأ رويداً رويداً يشركها في العبء الذي ينبغي أن تنهض به زوجة النبي وأم المؤمنين وسفيرته الأولى إلى عالم النساء في عصره وفيما يليه من العصور .

فكانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وآداب الزوجية ، ويتفق كثيراً أن يعرض عن الجواب حياء فيوكلها بالتفسير والإسهاب حيث يعز الفهم على سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال.

سألته أسماء بنت شكل من نساء الأنصار : كيف تكون الطهارة من المحيض ؟ فقال لها : « خذي فرصة ممسكة فتوضئي ثلاثاً » أو قال تطهري ثلاثاً ... فقالت : وكيف أتطهر ؟ قال : سبحان الله ! تطهري بها ، وأعرض بوجهه حياء . فاجتذبتها السيدة عائشة وكفتها عن سؤاله .

وما زالت رضي الله عنها تعي من سنن النبي في المسائل النسائية وغير النسائية حتى احتاج الرجال أن يسألوها ويرجعوا إليها في كل ما تراجع

فيه السنن النبوية من شئون عامة وخاصة . ومن أعم المسائل التي روجعت فيها أن معاوية كتب إليها لتوصيه وترشده فأرسلت إليه تقول : سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس » .

فلم يكن أعجب من سؤال معاوية في تعميمه إلا حسن الاختيار في هذا الجواب . وهو ألزم ما يزود به الملوك من وصية وإرشاد .

وقد نهضت السيدة عائشة بأمانة التبليغ والتعليم أحسن نهوض وأوفاه . فتورعت عن كتمان شيء من الأشياء التي تسأل عنها ولها اتصال بقواعد الدين وأصول التطهير وشروط العبادات ونواقض الصلاة والصيام . فأسلوبها في تبليغ هذه الأحكام هو أسلوب التعليم وأسلوب أم المؤمنين في خطاب بناتها وبنيها من المسترشدات والمسترشدين . ولم يكن في مقدورها أن تتوخى أسلوباً غير هذا الأسلوب ولو عرضت لأخص الأمور التي تسكت عنها النساء ، لأنها المرجع الذي لا يغني عنه مرجع في سنن النبي ومأثوراته وأعماله . فمن الإخلال بالأمانة النبوية أن تسكت عن سنة مطلوبة يعرضها السكوت للضياع .

ولقد تكون هذه السيدة الفضلى التي أفصحت عن كل فتوى نسوية سئلت عنها وهي ما تأذن لعمها في الرضاع أن يراها إلا بعد مراجعة النبي عليه السلام . فأسلوبها في تفصيل السنن النبوية والقواعد الشرعية إنما كان فريضة الأمانة وضريبة الوفاء ، ولم يكن شيمة الطبع واللسان .

* * *

ودامت هذه الحياة الزوجية النادرة زهاء تسع سنين إلى أن توفي النبي عليه السلام .

ومن الحق أن توصف بأنها حياة زوجية سعيدة لأننا لا نعرف بين أزواج الهداة والعظماء من ظفرت بأسعد منها أو كانت أرضى من السيدة عائشة عن حياتها .

ففي طوال هذه السنين لم تمتزج هذه الحياة قط بكدر أو مساءة تعود فيها التبعة على أحد من الزوجين .

وأخطر ما ألمّ بهذه الحياة الزوجية في السنين التسع كلها حديث الإفك ، وغضب النبي من زوجاته جميعاً لتنازعهن في فترة من الزمن وإلحافهن عليه في طلب المزيد من النفقة والزينة .

فأما حديث الإفك فلا يد للزوجين فيه ، وقد امتحنت به أريحية النبي وعطفه على أهله فأسفر عن خير ما تطمح إليه الزوجة من حنو وسماحة وإعزاز .

وأما غضب النبي من زوجاته لتنازعهن وإلحافهن في طلب النفقة فعارضٌ مضى مرة ومضى أمثاله عشرات المرات في كل حياة زوجية بين جميع طبقات الناس ، وكان خير درس لأمهات المؤمنين يعلمهن أن يصبرن على ضرورات العيش كما يصبر النبي عليها ، لأنهن قدوة في القناعة ومغالبة الهوى ولسن بقدوة في الترف ونعمة العيش ، وقد خيرن بعد هذا الدرس بين التسريح والصبر على نصيبهن فاخترن أجمل النصيبين بهن ، وهو الصبر على سنة الأنبياء وأمهات المؤمنين .

ومما لا شك فيه أن السيدة عائشة قد خامرها الاسى في هذه الحياة الزوجية لشيء لا حيلة لها ولا للنبي فيه ، وهو الحرمان من الذرية التي كانت تتوق إليها كما تتوق كل أنثى ، ولا سيما بعدما علمت من حب النبي لزوجته الأولى ووفائه لعهدها وترديده لذكراها لأن له البنين والبنات منها .

وظهر ألمها هذا حين قالت للنبي وهي حزينة كاسفة : كل صواحبي

لهن كنى ! .. قال فاكتني بابنك عبد الله ! يشير إلى عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء . فجعلت تكتني به وتحبه ذلك الحب الأموي الذي يستمد القوة من الحنو والشوق والحرمان .

واتفقت الأقوال على أنها رضي الله عنها لم تحمل قط إلا رواية جاء فيها أنها أسقطت ولداً سماه النبي عبد الله فكانت لهذا تكنى بأم عبد الله .

وراقها أن تدعى أم المؤمنين وأن يناديها الناس يا أمه يا أمه ! فكان في هذا النداء تعزية كما كان فيه تشويق وتذكير .

والمرأة لا يهون عليها فقد الذرية ولا سيما إذا أحبت الزوج الذي تود أن ترزق منه الذرية ، ولكنها إذا التمست التهوين فلن تجد تهويناً أبر بها وأروح لقلبها من شعورها بعطف زوجها عليها ، وأنها بلغت من ذلك العطف ما لا تزيده الذرية التي تتمناها .

* * *

قلنا في كتابنا عبقرية محمد : « لسنا ندري لم طالت الفترة التي مضت على أزواج النبي جميعاً بغير عقب . ولكننا لا نستبعد تعايلها باجتماع المصادفات التي لا يندر أن تجتمع في أمثال هذه الأحوال . فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين ، وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد ، وإن كانت ولوداً فيما بعدها . أما أزواجه الأخريات اللاتي تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفاً غير رملة أم حبيبة وهند بنت أمية المخزومية ، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبي عليه السلام ، وفي عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة . فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبي ولا لزوج قبله ، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التي يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبي قد توخى في اختيارهن تلك الأغراض العامة التي أجملناها في الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة : وهي الإيواء الشريف والمصاهرة . وبعضهن – بل معظمهن –

قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة ما يعقم الولود . فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التي أشرنا إليها على سبيل الاحتمال ، واشتغال النبي فيما بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار — لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصيّ على التعليل » .

وفي صدد الكلام عن عائشة في كتاب خاص بها يدعونا سياق التحليل والتعليل إلى مراجعة البحث والعلم في ظواهر حياتها البيتية ، إن كان للعالم كلمة تقال في هذا الموضوع .

فليس من الغريب أن يتأخر حمل المرأة إلى ما بعد العشرين ثم تلد مرات ، وقد كان من المحتمل — بل الراجح — أن السيدة عائشة تجاوزت العشرين حين وفاة النبي عليه السلام .

وإذا كان تأخر الحمل إلى ما بعد العشرين لا يطرّد لزاماً في أحوال النساء فهو من العوارض التي تشاهد ولا تستغرب إذا اتفق لها سبب يرجع في تعليله إلى العلم والمشاهدة .

والعوارض التي نستطيع أن نهتدي إليها في تاريخ السيدة عائشة هي أنها قد أصيبت فيما دون العاشرة بحمى مزقت شعرها كما ذكرت هي في بعض أحاديثها ، وأنها كانت توعك من حين إلى حين كما يفهم من قولها في حديث الإفك : « واشتكيت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك ولا أشعر بشيء من ذلك ... ويريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي .... فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي » ... وقد علمنا من حديث الإفك أنها إذا فوجئت بخبر محزن أو مغضب تصاب بحمى نافض كما يصاب الذين تعاودهم حمى البرداء في هذه الحالات .

والأطباء الذين سألتهم عن هذه الحمى التي تسقط الشعر وتتجدد لها

معاودة تنهك الجسم رجحوا أنها البرداء (الملاريا) أو التيفويد ، والأولى أرجح . لأنها كانت فاشية باعراضها المعروفة بين أهل المدينة في أيام الهجرة .

قالت السيدة عائشة : « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وهي أوبأ أرض الله أصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، وصرف الله ذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأصابت أبا بكر وبلالا وعامر بن فهيرة ، فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب فأذن لي : فدخلت عليهم وهم في بيت واحد . فقلت : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرىء مصبح في أهله   والموت أدنى من شراك نعلـــه

فقلت : والله ما يدري أبي ما يقول .

ثم دنوت من عامر فقلت : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبـل ذوقه   إن الجبان حتفه مـن فوقـه
كل امرىء مجاهـد بطوقـه   كالثور يحمـي أنفه بروقه

قلت : والله ما يدري عامر ما يقول .

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

إلا ليت شعري هل أبيتن ليلـة   بواد وحولي إذخر وجايل (١)
وهل أردن يوماً ميـاه مجنـة   وهل يدنون لي شامة وطفيل (٢)

قالت عائشة . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقلت : إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى . فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصححها وبارك لنا في صاعها ومدها وانقل حمّاها

---

(١) نباتان في وادي مكة أحدهما وهو الإذخر طيب الرائحة والآخر الثمام .
(٢) جبلان بمكة .

فاجعلها بالجحفة » وهي في الطريق من مكة إلى المدينة .

فإذا كانت حمى البرداء قد أصابت السيدة عائشة فيما دون العاشرة وظلت عقابيلها تعاودها فأيسر ما يقال هنا إننا حيال عارض ذي بال يلتفت إليه في تعليل ما أسلفناه .

وسألت أفاضل الأطباء في ذلك فقالوا : إن هذه الحمى لا تعطل الحمل ضرورة ولكنها قد تعطله من طريق إضعاف الجسم كله حتى يتغلب على عقابيلها .

قلت : وإذا أضيفت إليها معيشة الكفاف ؟

وإنما سألتهم هذا السؤال لأن المتواتر عن معيشة النبي عايه السلام في بيته أنه كان لا يشبع من خبز البر أو الشعير ثلاث ليال متواليات ، وأنه لم يشبع من خبز وزيت مرتين في يوم واحد ، وأنه هو وأهله كانوا لا يصيبون من المطاعم إلا بمقدار ما يدفع الجوع .

فكان من جواب الأطباء أن عقابيل الحمى وقلة الغذاء من الأسباب التي لا يعدوها النظر في بحث هذا الموضوع : فإذا صحت مع هذا رواية السقط فهي دليل على أثر تركته الحمى يعترض وظيفة الحمل والولادة .

وأيا كانت هذه العوارض فهي كل ما لدينا من أسباب المراجعة العلمية التي تعلل لنا حرمان السيدة عائشة رضي الله عنها من نعمة الذرية . نلمّ بها لأن الإلمام بها لا غنى عنه في هذا المقام .

* * *

وأية كانت علة هذا العارض فالأمر الذي لا شك فيه أنه لم يكدر صفو المودة والبر بين النبي وأهله ، وأنه لم يمنع هذه الحياة الزوجية أن تكون قدوة للمقتدين في العطف وأدب المعاشرة . وكانت هي العروة الوثقى كما وصفها النبي عليه السلام . فإذا سألته السيدة عائشة بين الفينة والفينة مدلة بمكانها عنده

وعطفه عليها : كيف حال العروة يا رسول الله ؟ قال : على عهدها لا تتغير .

أما العلاقات البيتية التي فرضتها هذه الحياة الزوجية على السيدة عائشة رضي الله عنها فقد كانت على أحسن ما تتسنى العلاقات بين أناس تجمعهم معيشة واحدة .

فهي وزميلاتها كن يتغايرن ويتنافسن لا محالة كما تتغاير النساء في كل مكان . ولكنهن لم ينسين قط أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ويتطلعن إلى رضاه ويفزعن من غضبه .

فقصارى ما سمعناه من فلتات الغيرة على لسان السيدة عائشة أنها كانت تقول عن السيدة خديجة : « إنها عجوز حمراء الشدقين » ثم يعاتبها النبي فتندم ولا تعود إلى مثل هذه المقالة .... أو أنها عابت السيدة صفية مرة فقالت إنها قصيرة .... فاستكبر النبي هذه الكلمة وقال لها إنها لتمزج البحر إذا مزجت به . فلم تعد إلى مثلها .

وعلى ما كان بين عائشة وزينب بنت جحش من التنافس الشديد في الجمال والزلفى سنحت لزينب سانحة تقول فيها ما تقوله الضرة المحنقة فلم ينبس فمها بكلمة باطل . وذلك إذ سألها عليه السلام في حديث الإفك فاستعاذت بالله وقالت : « أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيراً » .

وأحست سودة احدى زميلاتها أمهات المؤمنين أنها أسنّت وضعفت فتركت ليلتها لعائشة راضية ، وقالت عائشة تشكرها : « ما رأيت امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها من سودة » .

فكل ما روي لنا من تغاير زوجات النبي إن ذكرنا أنهن نساء من طينة الأنوثة الخالدة فلن ينسينا أنهن نساء نبي يتأدبن بأدبه ولا يجاوزن بالغيرة ما يجمل بهن في كنفه ورعايته ، وإن تسع أخوات شقيقات من أب واحد وأم

واحدة ليقع بينهن من شحناء الغيرة إذا اجتمعن في بيت أسرتهن أضعاف ما روي لنا من غيرة زوجات النبي في عشرتهن الطويلة .

* * *

أما قرابة النبي فأعزها قدراً عنده قرابة السيدة فاطمة وزوجها وبنيها .

وكانت الصلة بين السيدة عائشة وبينهم جميعاً على أكمل ما ترضاه السجية الإنسانية في كل صلة من قبيلها .

فالسيدة فاطمة كانت أحب الناس إليه عليه السلام كما هو العهد بأبوته الشريفة التي تشمل الناس جميعاً بالحنان والمودة فضلاً عن بناته وبنيه . وسئل — كما قالت عائشة مرة — : من أحب الناس إليك ؟ فقال : فاطمة ! ثم سئل : ومن الرجال ؟ فقال زوجها .

وفاطمة بعد أم السبطين اللذين كان عليه السلام يلاعبهما ويلاطفهما ويوصي بهما ويسميهما ولديه وهو مشوق إلى إنجاب الأبناء ، وهي كذلك بنت خديجة التي نفست عليها عائشة قديم مكانتها وطويل وفاء النبي لذكراها.

فالسيدة فاطمة والسيدة عائشة شريكتان في قلب واحد تتنافسان عليه . ولكنها شركة بين كريمتين .

ومن أثر هذه المنافسة أن أمهات المؤمنين أوفدن السيدة فاطمة إلى النبي ليعدل بينهن وبين عائشة فقبلت الوفادة .

وربما خطر للسيدة عائشة أن علياً رضي الله عنه قد تأثر بهذه المنافسة يوم سأل النبي في حديث الإفك فقال : « ... لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » .

ومن الصدق للتاريخ وللطبع الإنساني أن نلاحظ هذه الأمور ، لأن الطبع الإنساني لن يدع حقوقه على أبنائه ولن يكون الإنسان من لحم ودم

إلا اذا كان فيه للحم والدم نوازعهما التي لا فكاك منها . وإن راضها أدب النبوة ونبل العشيرة فثابت إلى أكرومة تجمل بالكرام .

فالصلة بين عائشة وقرابة النبي قد كانت صلة الأدب والتجمل والمجاملة ، ولكنها كانت في مجال لا يغيب فيه التنافس على العطف والإعزاز .

وبيت النبي هذا أيضاً قدوة المقتدين في الأسر العليا التي عرفها التاريخ ، سواء منهم من أخذ بأدب الدين أو بأدب الدنيا .

وهي على الجملة « حياة زوجية » سعيدة نزلت منها السيدة عائشة منزلة الزوجة المدللة في طوال أيامها ، ثم منزلة الشريكة المعينة في عبء التبليغ والرسالة ، وبلغت من الثقة بها في المعونة حمادى ما تبلغه شريكة حياة ؛ فحفظت من تعليم النبي ما لم يحفظه أحد ، وحفظ عندها النبي أغلى الودائع من بعده : صحف الكتاب وسنته المشروعة لتابعيه .

بَعدَ النَّبيّ

عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستاً وأربعين سنة، وتوفيت وهي في نحو السبعين من عمرها ، سنة ثمان وخمسين للهجرة .

وقد توفي النبي عليه السلام في بيتها وفي زيارتها ، ودفن بالمكان الذي كان ينام فيه .

وقد علم كثير من الناس عند اشتداد المرض به أنه مرض الوفاة ، ولكنه كان قد صحا بعض الصحو قبيل يوم وفاته حتى استأذنه أبو بكر في الخروج إلى بيته بالسنح ، وتفرق المسلمون متفائلين وهم يرجون الخير ويبعدون عن خواطرهم نذير الخوف . فلما قبض عليه السلام بعد ذلك روعت عائشة أيما روع وتعاظمها الخطب أن تملك صبرها وهو يموت بين سحرها ونحرها ، فنسيت لهول الساعة ما ينبغي لها أن تستقبل به هذا الوداع الذي لا يتكرر ولا تهونه سابقة وداع مثله : إنها أم المؤمنين التي لبثت السنين بعد السنين تلقنهم ما لقنها النبي من سداد التجمل ووقار الحزن في الملمات ... إذا هي تنسى كل ذلك ساعة فقده وإذا هي امرأة والهة بين النساء تلتدم وتضرب وجهها : قالت : « ... وجدت رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل في حجري ، فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قلت : خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق . وقبض بين سحري ونحري ودولتي ولم أظلم أحداً . فمن سفهي وحداثة

سَحري أنه صلى الله عليه وسلم قبض وهو في حجري ، ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهي » .

ولم تشهد دفنه عليه السلام بعد وفاته بيومين ، لأن المسلمين كان قد بلغ في تنافسهم في حبه أن يتولى كل فريق منهم مراسم دفنه على ما تعود في بلده وبين أهله . وكان أهل مكة يسوّون قاع القبر وأهل المدينة يقوّسونه . فبعث العباس بن عبد المطلب رجلين يدعو أحدهما أبا عبيدة بن الجراح ويدعو الآخر أبا طلحة ، وأولهما يضرح كأهل مكة والآخر يضرح كأهل المدينة . فعاد صاحب أبي طلحة به ولم يعد صاحب أبي عبيدة . فحفر اللحد على طريقة أهل المدينة وتولى القائمون على الجثمان الكريم دفنه بعد انقطاع المودعين عند هزيع من الليل . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما : « ما علمنا بدفنه صلى الله عليه وسلم حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل » .

وما برحت منذ تلك اللحظة تلازم البقعة الخالدة ولا تفارقها إلا للعمرة أو الحج أو لزيارة قريبة ، وقلما كانت تزور .

واتخذت سكنها في الحجرة المجاورة لقبره وهي لا تحسب أنها قد فارقت منه غير مشهد جثمانه . فقد كانت تزوره زيارة الأحياء . ودفن أبوها إلى جواره بعد سنوات فكانت تزورهما كذلك زيارة الأحياء . فلما دفن معهما عمر جعلت بعدها تنتقب وتلبس ملابس الحجاب وهي تزور أولئك الأصدقاء المتجاورين ، كأنهم بقيد الحياة .

وكانت في أوائل العقد الثالث على أكبر تقدير عند وفاته عليه السلام فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين ، وعاشت في ذكراه خمسين سنة . وحسبنا من شعور الناس بجلال تلك الذكرى في نفسها أن أحداً لم يخطر له خاطرة عن السيدة عائشة تجيز التفكير في حياة زوجية أخرى كأنه خاطر حرمته قداسة تلك الذكرى وهيبة ذلك الوفاء ، فضلا عن الحكم بتحريمه في سورة الأحزاب على سبيل التشريع .

ولم تكن حياة السيدة عائشة فارغة في خلال السنين الطوال من لدن فارقها زوجها العظيم وهي تجاوز العشرين إلى أن فارقت الدنيا وهي تقارب السبعين ، لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ . فما هو إلا أن هدأت ثائرة الفتنة بعد وفاة النبي عليه السلام وتوفر المسلمون على تحصيل مراجع الدين حتى كانت هي المرجع الأول فيما حفظ عندها من آي القرآن وما حفظته من السنن والأحاديث ، وحتى كان بيتها مثابة الزوّار من أبنائها وبناتها ، يدعونها يا أمه ! ومنهم من هي في سن بناته الصغريات ، ويا له من دعاء محبب إلى الأسماع .

وكانت إذا فرغت من تلقين الأحاديث وجواب السائلين تأوي إلى الصلاة والتسبيح في جوار الضريح . أو تعمل في مهنة البيت ذلك العمل الذي كان النبي عليه السلام يسرها بمساعدتها فيه .

ومن أهم الأشياء التي ينبغي أن تلاحظ في حياة السيدة عائشة بعد النبي عليه السلام أنها قضت خلافة أبي بكر وعمر وهي لا تشعر بأن مكانها في عهد النبي قد تغير أو بأن أمراً من أمور السياسة العامة يدعوها إلى التعرض له راضية أو ساخطة . حتى كانت خلافة عثمان فتغيرت هذه الحال ، وكان لتغييرها دلالة كبيرة وأثر كبير .

ففي عهد أبي بكر كانت أمور السياسة العامة تجري على أحكام الدين وتركن منه ومن أصحابه إلى سند ركين ، وكان الخليفة أباها وهو أول من يدعوها بأم المؤمنين .

وفي عهد عمر كانت أمور السياسة العامة تضطرب أو تسكن ولكنها في كلتا الحالتين لا تنشعب ولا تؤذن بانصداع ، وكان عمر أهيب خليفة عرفه الإسلام وأحب خليفة إلى عائشة رضي الله عنها . سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنيهما فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي عليه السلام ، وحفظت له أجمل

الشكر لموقفه من حديث الإفك حين شاوره النبي فقال له : إن الله هو الذي زوجكها وإنه سبحانه وتعالى لم يدلس بها عليك . وتم هذا الشكر حين ولي الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين المسلمين ، وخص بيت النبي بالحصة العليا من الحفاوة والعطاء .

فمضى العهدان – عهد أبي بكر وعمر – وليس في الحياة الخاصة ولا في الحياة العامة ما يشعرها بتغيير أو ينزع بها إلى نوازع السياسة ، وما تعارض منها أو جنح إلى التحزيب والتأليب .

ثم تغيرت الأمور في عهد عثمان .

ولولا هذا التغيير لما عرف للسيدة عائشة نصيب من السياسة العامة بعد موت النبي ، وهو الموقف الذي تحولت بها الأحوال إليه بعد اجتناب السياسة العامة قرابة عشرين سنة ، على غير سابقة له في سيرتها الأولى .

في السياسة العامة

قلنا في الفصل السابق إن السيدة عائشة لم تقض حياتها فارغة خلال السنين الطوال التي انقضت بعد وفاة النبي عليه السلام ، « لأنها في حدة نفسها ورفعة مكانها لا تقبل الفراغ » .

فأما حدة نفسها فمن السهل بعد المامة يسيرة بمزاجها وتكوينها الذي يشبه تكوين أبيها أن نعرف كيف يتعذر الفراغ على هذه السليقة الحية التي نشط بها المزاج العصبي ولم يقعد بها الترهل والإعياء .

وأما رفعة مكانها فهي أحرى أن تشغلها عن الفراغ مريدة له أو غير مريدة ، لأنها تعودت أن يؤبه لها طوال حياتها ، ولم تتعود قط أن تكون غفلاً في بيئتها ، وهي أرفع بيئة بين قومها .

نشأت عزيزة في آلها وذويها ، عزيزة في بيت أبيها ، عزيزة في أعز البيوت العربية بعد زواجها . فمن الحق لها ولنشأتها ، ومن الواجب لها ولنشأتها أن يؤبه لها طوال حياتها ، وألا يكون فراغها بمثابة الإغضاء عنها .

هذه حقيقة لو التفت لها ولاة الأمر كما ينبغي في حينها لسلمت السياسة العامة في ذلك الحين من جرائر الخطأ الذي وقعت فيه .

ولا بدع في تقرير الحقيقة ولا في تعظيم خطرها والتنبيه إلى تبعاتها .

فما من دولة قط إلا قد اتخذت لها أصولاً مرعية في سياسة أقطابها

ومراسم كبرائها وكبيراتها توافق ما لهم أو لهن من الشأن في الدولة ، وما يكون لميولهم أو ميولهن من الآثار في السياسة العامة ، أو السياسة العليا على التخصيص ، وهي أصول لم تغفل مرة إلا كان لها أثر غير منظور ولا محسوب له حساب في توجيه الأمور .

وقد كانت « أصول » السياسة العليا في معاملة السيدة عائشة ، رعاية لمكانتها وسليقتها ، أن تظل بالمكان الذي يستفاد فيه من عملها وعلمها ، وأن تعرف لها مهمتها الكبرى في تقرير السنة النبوية ، أو تبويب الدستور الإسلامي كما يؤخذ من أحاديث النبي ومأثوراته وعاداته ؛ في معيشته وعباداته ، وكان هذا وحده عملاً خليقاً أن يشغل أيام السيدة عائشة على أحسن الوجوه الصالحة لها وللمسلمين وللدولة الإسلامية .

كان هذا واجباً لها وجوب الحق ، ووجوب المصلحة ، ووجوب السياسة .

وكان هذا الواجب « أصلاً مرعياً » من أصول السياسة العليا أيام أبي بكر وعمر سواء قصدا إليه أو ذهبا فيه مذهب البداهة ومقتضيات الأمور ....

ولكنه خولف أو عدل عنه بعد الخليفتين الأولين . خولف أو عدل عنه لأسباب يرجع بعضها إلى حكومة عثمان ، وبعضها إلى طوارئ الزمن ، وبعضها إلى السيدة عائشة على اختيار منها أو على ما تحولت بها إليه دوافع الأحوال .

* * *

جاء الخطأ الأول في هذه السياسة من القائمين بالأمر في حكومة عثمان ، وكان خطأ عجيباً حقاً لأنه لا يفهم على وجه من وجوه المصلحة ولا تدعو إليه ضرورة من ضرورات الدولة . ونعني به نقص العطاء الذي كان مقدوراً للسيدة عائشة في عهد الفاروق . أعدل من لاحظ العدل في تقسيم الأعطية على حسب المراتب والحقوق .

إن نقص عطاء السيدة عائشة كان يكون سائغاً عندها وعند المسلمين والمسلمات إذا دعت إليه حاجة في خزانة الدولة ، ولكنه لا يسوغ ولا تستريح إليه النفس والأموال تتدفق على خزانة الدولة بالألوف التي يحار فيها الإحصاء ، وغنائم أفريقية وحدها تبلغ مليونين ونصف مليون من الدنانير ، فيعطى خمسها لبنت الخليفة وزوجها مروان بن الحكم ، وغير ذلك من القطائع والأعطية التي يخص بها القريبات والقريبون ولا يضبط لها حساب .

إن الغضب من هذا لن يكون غضب الحريص على مال . ولم تكن السيدة عائشة خاصة ممن يحرص على مال أو يبذله في ترف أو يخزنه للمكاثرة والادخار . فما سمع عنها قط أنها أنفقت المال في غير الكفاف من الرزق والإحسان إلى المعوزين ، وما تركت بعدها بقية تدل على حرص ولا ادخار .

ولقد كانت تنكر التزيد من الثراء على الصحابة الأجلاء وإن كان من التجارة والحسب الموروث . فكان عبد الرحمن بن عوف — وهو مثل من أمثلة عدة — وافر الثراء على عهد النبي عظيم السخاء في خدمة الدين . ودخلت له عير إلى المدينة فيها سبعمائة بعير تحمل البر والدقيق والطعام ، فارتجت لها المدينة وسمعت رجتها في بيت عائشة ، فما نجا به من لومها إلا أنه ذهب إليها يشهدها أن العير بأحمالها وأحلاسها وأقتابها في سبيل الله .

فغضب السيدة عائشة من نقص العطاء لم يكن غضب الحريص على مال والطامع في ادخار ، ولكنه كان غضباً عادلاً من غضاضة لا حاجة إليها ولا حكمة فيها ، ولا تستريح إليها النفس بتعايل مقبول .

وشاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه ، وكثر القيل والقال في مخالفتهم للدين وتوسعهم في اقتناء الدور والحطام .

ومثل من الأمثلة العدة في هذا الباب تولية الوليد بن عقبة أخي عثمان لأمه خلفاً لسعد بن أبي وقاص على الكوفة وهو من أعلام الصحابة المحبوبين بين جلة المسلمين .

وكان الوليد متهماً بالخمر ، وشاع في المدينة أنه أم الناس يوماً في صلاة الصبح وهو سكران . فلما فرغ التفت إليهم وقال : هل أزيدكم ؟ فإني أجد في نفسي نشاطاً ؟

ولم يكن عجيباً أن يلجأ الشاكون منه إلى بيت عائشة فيمن لجأوا إليه من كبار الصحابة وهم غير قليلين ، وإنما لجأوا إليها بعد أن قدموا على الخليفة فتبرمت بهم حاشيته وبرأوا الوليد عنده مما اتهمه به أهل مصره فقال لهم : أكلما غضب رجل منكم على أميره رماه بالباطل ؟ لئن أصبحت لكم لأنكلن بكم . فاستجاروا ببيت النبي وعائشة فيه .

ثم أصبح عثمان « فسمع من البيت صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال مغضباً : أما يجد مرّاق أهل العراق وفسّاقهم ملجأ إلا بيت عائشة ؟ فسمعته ، فقيل إنها رفعت نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : تركت سنة رسول الله صاحب هذه النعل ؟ ... وتسامع الناس فجاؤوا حتى ملأوا المسجد . فمن قائل : أحسنت ، ومن قائل : ما للنساء وهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ، ودخل رهط من أصحاب رسول الله على عثمان وناشدوه الله أن يعزل أخاه » .

ولم يكن من شأن هذه السياسة من حاشية عثمان أن تكف السيدة عائشة عن نقد الولاة وقبول الشكاة . بل قربت هذه السياسة بينها وبين اللاجئين إليها . فلما شكا الناس من والي عثمان — في مصر — عبد الله بن أبي سرح — واتهموه بقتل رجل ممن شكوه إلى الخليفة فزعت وفود المصريين إلى بيت عائشة فأرسلت إلى الخليفة تندد بواليه وتقول له : تقدم إليك أصحاب رسول الله وسألوك عزل هذا الرجل فأبيت ، فهذا قتل منهم رجلاً فأنصفهم من عاملك .

وجعل وفود المصريين يلقون المصلين بالمسجد في أوقات الصلاة ويبسطون لهم ظلامتهم وشكايتهم إلى أم المؤمنين وكبار الصحابة ، فألحف كبار الصحابة

على الخليفة في إنصافهم ، وأثمرت غلطات الحاشية ثمرتها في توجيه الشاكين إلى طلب المزيد من حماية أم المؤمنين ، فاختاروا محمد بن أبي بكر – أخاها – ليخلف عبدالله بن أبي سرح حين خيرهم الخليفة فيمن يؤثرونه للولاية بعده . ووقعت الطامة بعد ذلك بتدبير لا تُعلم جليته حتى الآن ، وإنما الرأي الراجح أنه من تدبير مروان بن الحكم على غير علم من عثمان ونصحائه المخلصين .

ذلك أن الوفود القافلة إلى أمصارها عثرت في طريقها بغلام يحمل كتاباً في أنبوبة من رصاص وفيه أنه « إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه فاحتل في قتلهم وأبطل كتابه وقر على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله » .

فأعقب هذا الكتاب ما لا بد أن يعقبه من الأثر في نفوس الصحابة وفي نفس السيدة عائشة وفي نفوس الوفود المتجمعة من الأمصار ، وقذف بالفتنة القائمة يومئذ في طريق غير مأمون .

وظاهر من هذا العرض السريع أن اختلال الأحوال في عهدعثمانهو الذي تحول بالسيدة عائشة عن موقفها الأول من حكومة أبي بكر وعمر إلى موقف الاشتراك في السياسة العامة والمجاهرة بالنقد الشديد لحكومة عثمان وولاة عثمان وحاشية عثمان .

بل هو الذي جعل لها مهمة تطلبها وتسعى إليها ، وهي مهمة الوساطة بين الشعب والخليفة أو مهمة الحماية لمن يجهرون بالشكوى ويخافون عقباها .

فلولا الحمق الذي اشتهرت به حاشية عثمان لما تركت السيدة عائشة في مكانتها العليا من الأمة الإسلامية وهي تشعر أنهم قد أنزلوها من الرعاية والمبالاة دون منازل بناتهم وزوجاتهم وأصحاب القرابة والزلفى لديهم .

ثم تمادى الأمر فلم يقبلوا من المسلمين أن يلوذوا ببيتها ويفزعوا إلى جوارها ، ولو تناولوا الأمر بالرفق لاستفادوا من لياذهم بذلك البيت وفزعهم إلى ذلك الجوار .

وكانت الطامة الكبرى أن تأتمر الحاشية الحمقاء بحياة أخيها وتنفذ إلى مصر من يأمر واليها بقتله وهو قادم من قبل الخليفة لولاية الحكم فيها .

ومن المحقق عندنا أن الخليفة نفسه براء من هذه الدسيسة التي يتورع عنها مثله في بره وتقواه . فإن الرجل الذي تورع عن إهراق قطرة دم في سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه وزميله ، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه فأجابهم لما ندبوه إليه .

ولكن ما الذي أصاب الجاني المدبر للدسيسة ؟ ولمَ نجا من العقوبة ؟ ولمَ لم يكشف للملأ لولا أنه من رجال الحاشية ، وأن رجال الحاشية هم الذين ستروه وأنقذوه ؟ وماذا لو أن الغلام الذي كان يحمل الأمر بالقتل وصل إلى مصر ولم يعترضه الشاكون في الطريق ؟ ألم يكن القتل نافذا في محمد بن أبي بكر كأن الكتاب قد صدر من الخليفة بغير خلاف ؟

فهذه الحاشية الحمقاء قد بدأت بالغض من مكانة السيدة عائشة لغير ضرورة محتومة ولا مفهومة ، وانتهت بالتآمر على قتل أخيها لغير ذنب جناه ، وسلكت في خلال ذلك مسلكاً تأباه السيدة عائشة من الحاكمين وغير الحاكمين ، وهو مسلك الإسراف والتهالك على الحطام .

فغير عجيب أن يكون للسيدة عائشة موقف عداء من تلك الحاشية وأن تنادي على رأس المنادين بتبديل حكمها وتأليب الناس عليها . وأن تضيق ذرعاً بعثمان لأنه يمضي حيث مضت تلك الحاشية في جنفها وغلوائها .

قيل أنها تربصت به حتى أقبل يخطب الناس فدلت قميص النبي ونادت : « يا معشر المسلمين ؛ هذا جلباب رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان سنته » .

ولم تذكر الحاشية الحمقاء مكانة السيدة عائشة وأمان جوارها وما يرجى من الخير في شفاعتها إلا بعد فوات كل فرصة وضياع كل أمل واستعصاء كل تدبير .

فلما حوصر عثمان وحيل بينه وبين الزاد والماء ذهبت أم حبيبة إلى داره وهي زميلة للسيدة عائشة من أمهات المؤمنين – فاعترض الثوار بغلتها وكانت معها إداوة ماء . قالوا : ما جاء بك ؟ قالت : إن وصايا بني أمية عند هذا الرجل ، فأحببت أن أسأله عنها لئلا تهلك أموال الأيتام والأرامل ، وكانت أم حبيبة أموية من آل أبي سفيان ، فاجترأ الثوار عليهاوقالوا : كاذبة ؟ وقطعوا حبل البغلة بالسيف ، فنفرت وكادت تسقط عنها ، فتلقاها كرام الناس فأخذوها وذهبوا بها إلى بيتها .

وكانت السيدة عائشة قد كرهت المقام بالمدينة وهي على هذه الحال من الفتنة الطاغية ، فتجهزت للحج واستصحبت أخاها محمداً فأبى وتخلف بالمدينة :

عند ذلك لجأ مروان بن الحكم – وهو رأس البلاء – إلى جوار السيدة عائشة التي كان يغري عثمان بها لاحتماء الناس ببيتها ، فقال لها : يا أم المؤمنين ؛ لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل ... فقالت : أتريد أن يصنعوا بي كما صنعوا بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني ؟ لا والله ولا أعبر ولا أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء .

وفي رواية أخرى أن مروان هذا تذكر الجود بالمال في ذلك المأزق الميئوس منه فذهب إلى السيدة عائشة يستبقيها لتصلح الأمر فقالت : قد فرغت من جهازي وأنا خارجة للحج ... قال عندئذ : فيدفع لك بكل درهم أنفقته درهمين ؛ فلم تملك عائشة نفسها على ما جاء في هذه الرواية أن تقول : « لعلك ترى أنني في شك من صاحبك ؛ أما والله لوددت أني أطيق حمله فأطرحه في البحر ! » .

وليس أكثر ولا أغرب من الأحاديث التي نسبت إلى عائشة في خلال هذه الفتنة قبل خروجها من المدينة وبعد خروجها منها . وأشد هذه الأحاديث وأقساها أن بعضهم سمعها تقول : « اقتلوا نعثلاً فقد كفر » ، وأنها كانت تسأل من تلقاه أن يخذل الناس عن عثمان وشيعة عثمان .

فأما الصحيح من هذا كله فهو أنها كانت تنقم من حكومة عثمان وتتمنى لها الزوال .

ويجوز الشك بعد ذلك في كثير من نصوص الأحاديث التي نسبت إليها بصدد هذه الفتنة . لأن بني أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل . فقتلوه ظمآن ووضعوه في جوف حمار ميت ثم شووه . وهذا بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر وأشهدوا على مثلته السفلة والصبيان . ثم أرسلوا قميصه الذي قتل فيه وهو بدمه إلى المدينة . فلبسته نائلة زوجة عثمان ورقصت به ، وشوت أخت معاوية ابن حديج خروفاً وأهدته إلى السيدة عائشة — في ذلك العيد — وهي توصي الرسول أن يقول لها : هكذا كان شي أخيك ! فما أكلت السيدة عائشة بعدها شوياً قط وأقسمت لا تأكله حتى تلقى الله .

فلما تسامع المسلمون بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة أن يشمت بها ولاة الدولة الجديدة هذه الشماتة وخاف الأمويون من جرائرها وندم عقلاؤهم على ما كان من سفهائهم ، واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من فتنة عثمان ، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم وصنائعهم أقاويل وأباطيل تمتزج بما نسب إلى السيدة عائشة ، فلا يعرف منها الخالص والمشوب ، ولا يسهل النفاذ من بينها إلى موقع المبالغة والتلفيق .

وخليق بنا أن نزداد حذراً من هذه المبالغات على قدر أصحاب المصلحة في قبولها . وقد اتفق على تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان ، وهما مصدر أصحاب معاوية ومصدر الشيعة أصحاب علي : يريد الأولون ما قدمناه من تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها والحيف عليها ، ويريد الآخرون أن يبطلوا موقفها من مطالبة عليّ بدم عثمان ، وأن يثبتوا براءة عليّ من دم الخليفة القتيل ومشاركة عائشة في حملة قاتليه . فضلاً عن مصلحة القاتلين أنفسهم في التعالل بهذا السند الذي يعفيهم من لوم كثير .

* * *

كذلك بدأت السيدة عائشة مشاركتها الأولى في السياسة العامة وهي إلى الاضطرار أقرب منها إلى الاختيار .

أما مشاركتها الثانية فقد كان اختيارها فيها أكثر من اضطرارها ، فإنها تلقت خلافة علي من مبدئها بالسخط والمقاومة ، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها ويشركوها معهم في خصوماتها ، وكان أكرم لهم ولها لو أنهم جنبوها هذه الخصومة وأنزلوها بحيث يعتصم بها الفريقان ويستوي في جيرتها العسكران ، فتركوا لها مندوحة للمراجعة يوم دعاها الدعاة بعد تفاقم الفتنة إلى السعي بينهم بالتوفيق .

وأصوب ما قيل في هذا المعنى مقال ذلك الفتى السعدي الذي تصدى للزبير وطلحة فقال لهما : أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله بيدك ، وأرى أم المؤمنين معكما فهل جئتما بنسائكما .

نعم لقد أصاب ذلك الفتى من بني سعد حين أقام الحجة عليهما بهذا السؤال الذي يغني عن كل جواب ، فما من أحد يلومهما أن يوافقا السيدة عائشة في الرأي أو توافقهما فيه ، وإنما الملام الذي لا محيص عنه أن يتجاوزا النداء برأيها إلى الخروج بها في حومة قتال ، وهما لم يخرجا إليها بالمحارم والأزواج .

كانت في طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفداً من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه ويطلب النصفة بينه وبين الثائرين عليه ، فاقترحت عليه أن يخذل الناس عن عثمان وأن يشككهم فيه ، ورشحت للخلافة طلحة ابن عبيد الله لأنه « اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح فإنْ يل الخلافة يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه » .

قال لها ابن عباس : يا أمه ! لو حدث – أي اعتزال عثمان – ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا ... قالت : إيهاً عنك لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .

وألفت نفسها في مكة بين العثمانية والأموية يوم نزلت بها قبيل مقتل عثمان ، فعنّ لها أن ترجع إلى المدينة لتدرك الأمر قبل فواته ، ولكنها سمعت في الطريق ببيعة عليّ فقالت فيما رواه عبيد بن أبي سلمة وهو من خؤولتها : ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصاحبك . مشيرة إلى السماء والأرض ، ثم صاحت بركبها : ردوني ! ردوني ! وجعلت تتوعد في الطريق : أن تطالب بدم عثمان .. فقال لها عبيد بن أبي سلمة : ولم ؟ والله إن أول من أمال حرفه لأنت ! قالت : « إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا . وقولي الأخير خير من قولي الأول » .

وما لبثت في مكة قليلاً حتى تجمع فيها كل ناقم على عليّ بن أبي طالب من أعدائه ومنافسيه ، فقضت أيامها بمكة بين العثمانية والأموية والولاة الذين أحسوا بزوال الدولة والثروة والذين أوجسوا من حساب الخليفة الجديد، ولحق بهم طلحة والزبير وكلاهما طامح إلى الخلافة يائس من الأنصار في المدينة . فاتفقوا جميعاً على كلمة واحدة لا اتفاق بينهم فيما عداها . وهي المطالبة بدم عثمان ، لأن المطالبة به تغنيهم عن القدح في الخليفة الجديد ، وليس الاتفاق على القدح فيه بمستطاع .

كذلك لذلك ارتفعت الصيحة بدم عثمان .

وفي هذه البيئة غلبت على السيدة عائشة نية الخروج إلى البصرة بتلك الدعوة التي اتفقوا عليها ، وأكبر الظن أنها كانت وشيكة أن تحجم عن الخروج إليها لولا غلبة البيئة واجتماع الأصوات من حولها على نداء واحد . فإنها ما عتمت في الطريق أن صُدمت أول صدمة حتى همت بالرجوع ثم أصرت عليه لولا احتيالهم في إقناعها بمختلف الحيل .

عبروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه ، وسألوا : أي ماء هذا ؟ فقال الدليل : هذا ماء الحوأب . فصرخت بأعلى صوتها قائلة : إنا لله وإنا إليه راجعون . إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وعنده نساؤه:

ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب . ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وهي تقول : أنا والله صاحبة كلاب الحوأب طروقاً . ردوني . ردوني . ردوني . وأقامت يوماً وليلة لا تريم مكانها ، حتى جاءوا لها بخمسين رجلا من الأعراب رشوهم فشهدوا أنهم جازوا الماء ، وقالوا لها : مهلاً يرحمك الله فقد جزناه . ثم صاح عبد الله بن الزبير : النجاء . النجاء . فقد أدرككم علي ابن أبي طالب . فأذنت لهم في المسير بعد امتناع شديد .

* * *

ونعتقد أن وقفتها عند ماء الحوأب لم تكن آخرة التردد من جانبها في أمر القتال . فإننا في الواقع لم نقرأ بين أخبار وقعة الجمل المتشعبة خبراً واحداً ينم على عزمة قتال مبيتة لغرض مرسوم . ويؤخذ من كلامها لأبي الأسود الدؤلي حين أشخصه إليها عامل علي بالبصرة ، أنها كانت تستبعد خروج أحد من المسلمين لقتالها . فقد سألته : أفتظن يا أبا الأسود أن أحداً يقدم على قتالي ؟ وكان أبو الأسود رجلا صعب المراس في نصرة علي فأجابها : والله لتقاتلن قتالاً أهونه الشديد . وكان مما قاله لها قبل ذلك : ليس على النساء قتال ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن علياً لأولى بعثمان منك وأمس رحماً فإنهما أبناء عبد مناف .

ولم تزل بالبصرة على هذا التردد كلما اشتبك أتباعها وأتباع عثمان ابن حنيف والي علي عليها . فتحاجزوا عن الحرب غير مرة في المربد وفي دار الرزق ، ونادى أصحاب عائشة بالكف عن القتال بعد أن تورط فيه الفريقان بدار الرزق نهاراً كاملا من الصباح إلى الغروب كثر فيه القتلى والجرحى من الجيشين .

ثم أنفذ علي بن أبي طالب رسوله القعقاع بن عمر إلى طلحة والزبير وعائشة فبدأ بعائشة وسألها : أي أمه ! ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، الإصلاح بين الناس . قال: فابعثي إلى طلحة والزبير حتى

نسمعي كلامي وكلامهما. فبعثت إليهما . فجاءا . فقال لهما : إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها فقالت الإصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما ؟ أمتابعان أم مخالفان ؟ قالا : متابعان ! قال : فأخبراني ما وجه هذا الإصلاح ؟ فوالله لئن عرفناه لنصلحن ، ولئن أنكرناه لا يصلح . فذكرا قتلة عثمان وحكم القرآن . قال : لقد قتل بالبصرة ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم ، وطلبتم حرقوص بن زهير فمنعه ستة آلاف . فإن تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم أعظم مما تراكم تكرهون ، وإن أنتم منعتم مضر وربيعة من هذه البلاد اجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء ... فسألته عائشة : فماذا تقول أنت ؟ قال : إن هذا الأمر دواؤه التسكين... فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر ، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا المال . فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم ، ولا تعرضونا للبلاء فتعرضوا له فيصرعنا وإياكم .

قالوا : قد أصبت وأحسنت ، فارجع . فإن قدم عليّ وهو على مثل رأيك صلح الأمر . ثم أقرّ علي وساطة رسوله وأشرف القوم على الصلح لولا أن حبط هذا المسعى بسفاهة السفهاء من العسكرين فترامى هؤلاء وهؤلاء وجمحت الفتنة جماحها الذي خرجت به من أعنة الرؤساء .

ولم ييأس الفريقان بعد هذا من وساطة الصلح ، ولم يكن التردد من شأن عائشة وحدها ، بل كان أنصارها جميعاً يترددون ولا يستقرون على صنيع . وقد قال لها الزبير يوماً : ما كنت في موطن منذ عقلت إلا وأنا أعرف فيه أمري غير موطني هذا . قالت : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد أن أدعهم وأذهب .

وربما تقابل الخصمان وجهاً لوجه فتناصحا على مسمع من العسكرين

تناصح الإخوان ... نادى عليّ خصمه الزبير يوماً : يا زبير ارجع . فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان [1] ؟ وهذا والله العار ... قال عليّ : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع . وأهاب به ابنه عبد الله يستثيره : أحسست رايات ابن أبي طالب وعلمت أنها تحملها فتية أنجاد ؟ قال : قد حلفت ألاّ أقاتله . قال : كفّر عن يمينك وقاتله .

وبينما هم في تقديم وتأخير ومشاورة ومثاورة أقبل كعب بن سور إلى عائشة فقال لها : أدركي . فقد أبى القوم إلا القتال . لعل الله أن يصلح بك . فركبت وألبسوا هودجها الأدراع . وتعالت الضجة من هنا وهناك ، فسألت : ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر . قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر . إذ كان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء وتدافع الغلاة وإفلات الأعنة من الرؤساء .

ويبدو لنا من جملة الوقائع أن حملة الجمل كانت حملة اندفاع ولم تكن حملة تدبير وتقدير ، ولا كان أحد من دعاتها يملك زمامها ويتجه به إلى مصير معروف .

وإلا فما يكون ذلك المصير ، إن أصحابها لم يريدوا بها أن يفسدوا الأمر على عليّ بن أبي طالب ليصلحوه لمعاوية ، فليس منهم زعيم من حزبه والعاملين لدولته .

ولم يتفقوا على ولاية واحد منهم بعد هزيمة عليّ إن تمت هذه الهزيمة ، وليست هي بالمركب الذلول .

إنما هي حملة تهويل إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه التي أشاروا إليها قبل مفارقتهم المدينة : فيتولى بعضهم العراق وبعضهم اليمن ،

(١) البطان : حزام الدابة والتقاء الحلقتين كناية عن التهيؤ للركوب والمسير .

ويصبح الأمر شركة أو « شورى » بينهم وبين الخليفة ، على قولهم الذي عبروا به عن طلب الولاية في بعض الأحاديث بينهم وبينه .

وفهم الحملة كلها على هذا الوجه أقرب ما نراه لفهم السيدة عائشة في موقفها من القتال ومن السياسة العامة على الإجمال .

نعم إن فهم مأساة الجمل هي وسيلتنا إلى فهم السيدة عائشة ، لأننا نعرف مصادرها ومواردها ومبلغ الأخطار المنظورة من ورائها عند الهجوم عليها فنعرف النية التي جنحت بالسيدة عائشة إلى الدخول فيها ، وهي كل ما يعنينا من تاريخ تلك المأساة في هذا السباق .

والذي يبدو لنا من تلك الحوادث التي لخصناها فيما تقدم أن مأساة الجمل لم تكن عند السيدة عائشة إلا دفعة من دفعات الحدة التي طبعت عليها ، قدحتها المفاجأة وأوقدتها كثرة المغريات بعداوة عليّ في بيئة لم يرتفع فيها صوت لغير أعدائه ، ومهدت لها حوادث الماضي تمهيدها الذي رسم لها الوجهة واندفع بها عن هذه الخطة دون غيرها .

فمن تمهيد الحوادث الماضية أن طلحة والزبير وعليّاً لم يكونوا غرباء عن السيدة عائشة ولم تكن هي غريبة عنهم بميولها وسوابق شعورها .

فطلحة من بني عمومتها ومن بني تيم قبيلتها وقبيلة الخليفة الأول أبيها .

والزبير زوج أختها أسماء ، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها في بعض الروايات ، فكانت تكنى من أجله بأم عبد الله .

وعليّ أقرب الناس إلى بيت النبي وزوج ابنته وأبو حفيديه وصاحب الرأي الذي لا ينسى في حديث الإفك وهو نصيحته للنبيّ بتطليقها .

ومن الحق أن نقول إن الشعور الذي تكنه السيدة عائشة لعليّ من جراء هذه النصيحة شعور طبيعي لا غرابة فيه .

فلا ريب أن علياً رضي الله عنه قد أخطأه التوفيق في تلك النصيحة . إذ لم يكن من الإنصاف أن تطلق عائشة لشبهة لغط بها المنافقون وطلاب الوقيعة بين النبيّ وأصحابه . ولن يفهم الناس من تطليقها إلا أن النبيّ قد أدانها وأنف من معاشرتها ، ولن يصيبها ذلك وحدها بل يلصق بها وبأبيها وآلها وصمة لا تمحي في زمانها ولا بعد زمانها ، وقد يتعدى الأمر عائشة وآلها إلى الإسلام كله فيتخذ المنافقون من صدق حديثهم الذي أفكوا به مطعناً في صدق الدين ونبيه ، وهذا كله إلى أن الإدانة بمثل تلك الشبهة لا توافق التحرز الشديد الذي قضى به الدين في هذه القضايا ولو مست من هن دون عائشة في القدر والثقة . فما نحسب علياً قد سها عن هذا كله وهو ينصح إلى النبيّ بتلك النصيحة إلا لفرط الغيرة على تنزيه سمعة النبي وبيته ، واستكباره في هذا الصدد أن يقال ما يقال ولو لم يكن ثم برهان على ما قيل .

وما من أحد يجهل الشعور الذي تقابل به النساء نصيحة كتلك النصيحة . فأقل ما يقال إنه شعور لا غرابة فيه .

ثم ها هي ذي مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان، ومن هؤلاء الصحابة عليّ وطلحة والزبير . وكلهم قد ندبوا للاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة ، وقال لهم عمر يومئذ : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنّ ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس . فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم » .

وكان جائزاً أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير لأنهما وكيلان من وكلاء الشورى..

ثم انقضت خلافة عثمان وتجددت المسألة كرة أخرى على النحو الذي

شهدته عائشة قديماً في بيتها . فمع من يكون شعورها ؟

إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتي عشرة سنة ، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأي بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد . وليس لعلي سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجة طلحة والزبير . فإذا كانت السيدة عائشة أميل إلى فريق طلحة والزبير بشعورها وسابقة رجائها فليس ذلك كما أسلفنا بغريب ولا بمخالف للمعهود في طبائع الناس .

على أننا لا نريد بما تقدم أن نسوغ موقف السيدة عائشة من وقعة الجمل وخصومات الخلافة ، وإنما أردنا تفسير شعورها على الوجه الذي لا غرابة فيه ، ولم نرد تسويغه في نظر العقل ولا في نظر التاريخ .

فعليّ قد أخطأه التوفيق في نصيحته .

وعائشة قد أخطأها التوفيق في مكافحته من أجل هذه النصيحة ، وإن كانت لا تلام على أنها كانت تتمنى الخلافة لسواه .

ولكننا إذا ذكرنا هذا كان علينا أن نذكر معه أن السيدة عائشة ندمت على موقفها من يوم الجمل أشد ندامة ، فكانت تقول بقية حياتها : ليتني مت قبل يوم الجمل ، وقالت مرة : ليت كان لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم بنون عشرة وثكلتهم ولم يكن يوم الجمل . وكانت كلما خاض الناس في حديث ذلك اليوم تبكي حتى تبل خمارها .

وعلينا أن نذكر أنها صانت خصومتها عن كل كلمة نابية في حق علي رضي الله عنه ، فلم تتهمه بدم عثمان ولم تتجاوز بالتهمه بعض من بايعوه ، وقالت عنه غير مرة إنه الصوام القوام ، وإنه أحب الناس إلى رسول الله .

وعلينا أن نذكر أن المغريات بالاندفاع في هذه الغاشية كثيرة : حدة في الطبع ، ومفاجأة تبتدر الحدة ، وبيئة مطبقة بالعداء لعليّ ، وسعي حثيث من أقرب الناس إليها وأقربهم إلى إقناعها .

وإنها مع هذا أقدمت على مورد مبهم لا يتضح الشر فيه ، وترددت هنالك بين إقدام وإحجام ، واعتقدت أن الأمر لا يفضي إلى قتال . وأصغت إلى دعوة الإصلاح ودعت إليه .

وهو حادث لا بد له من عبرة .

وإن عبرته لأحق عبر التاريخ الإسلامي بالتسجيل .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حقوق المرأة

في حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة في عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة في جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل في واجباته العامة هي خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة — ولا سيما السياسة في عصور الاضطراب — هي المجال الذي يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه . وقد تؤدي فيه هنالك الخير إذا التزمت منه جانب المسالمة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة والإشراف فلا طاقة لها به ولا يتأتى لها أن تتولاه إلا إذا نقلت إليه شؤون البيت ومزجته بما يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .

فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها العظيم يعينها في شئونه ويكون في مهنة البيت ما دام فيه .

وكانت هي تعينه على شؤون الهداية والإصلاح كلما وسعتها المعونة فيها ، وقد لقنت الناس ما تلقنته منه فأحسنت التلقين .

وهذا في جماته هو قوام الحقوق بين الجنسين .

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها في بيت الرئاسة نشأت وفي

بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها ، قد تحولت بها طوارىء العصر إلى السياسة العامة ، فكانت فيها طوعاً لأواصر البيت ودواعي المودة والنفور التي توحيها ، ولم تكن مثلا يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلا للنساء كافة وهي ربة بيتها وشريكة زوجها .

بل هي قد كانت أول مثل يستشهد به المستشهد على صواب الحقوق التي عرفها الإسلام للنساء : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

فلم تأت العصور بعد ذلك بإنصاف للمرأة أصوب من هذا الإنصاف .

فليس المهم أن تساوي الرجل في كل شيء وأن يكون لها مثل حقوقه ومثل واجباته . لأن المماثلة مع الاختلاف ليست هي الصواب وليست هي الإنصاف .

ولكنّ المهم أن تكون حقوقها مساوية لواجباتها ، وأن يكون لها مثل ما عليها ، وألا تظلم في حياتها الخاصة والعامة شيئاً ، ولا يفوتها عمل تصلح له وتحسن أداءه وتغني فيه غناء الرجل ولا يغني فيه الرجل غناءها .

وقوام ذلك كله أنهن « لهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

وهي الدرجة التي ينفرد بها الرجال حيث تبطل المشاركة في الملكات والأعمال .

وإنما كان هذا قوام الإنصاف في حقوق الجنسين لأنه حكم قائم على الواقع الذي لا يتغير اليوم ولم يتغير قط ولن يتغير في الغد مهما تتغير أحكام الشرائع وأقاويل أصحاب الأقوال والآراء .

وكل حكم قائم على إنكار الواقع أو المغالطة فيه فهو جهالة تنكشف لا محالة في يوم من الأيام ، وإن لم تنكشف كانت كالداء المكتوم أو بل ما يكون وهو مجهول .

والواقع أن الرجل والمرأة مختلفان .

وأن اختلافهما حقيقة علمية وحقيقة تاريخية وحقيقة حسية ، وحقيقة تعرف بالعقل والبداهة .

فالمرأة تخالف الرجل في وظائف الغدد وفي تكوين الأعضاء وفي شواغل الذوق والإحساس .

والمرأة تخالف الرجل في أعمالها وتكاليفها منذ القدم في جميع الشعوب ، ومن قال إن هذه المخالفة من فعل الرجال وسيطرتهم وليست من فعل الطبيعة وسيطرتها فقد قال إنها من فعل الطبيعة وليست من فعل الرجال .

والمرأة تخالف الرجل في القدرة حتى حين تشاركه في العمل الذي تفردت به منذ زمن طويل . فهي منذ زمن طويل تزاول الطهي والخياطة والتجميل والولادة وتندب الموتى وتشيعهم بالبكاء والتعديد ، ولكنها لا تبلغ شأو الرجل في هذه الصناعات إذا وقعت المزاحمة بينهما في إحداها . فالطاهي يفوق الطاهية ، ومبدع الأزياء يفوق مبدعتها ، والطبيب المولد مقدم على الطبيبة المولدة ، وكل ما نظمته النساء من الرثاء لا يوازن قصيدة من الرثاء الجيد في شعر الرجال .

والمرأة تخالف الرجل ولا بد أن تخالفه على سنة الفطرة التي عمت الأحياء . فإن سنة الفطرة لا ترمي إلى توحيد العمل بل إلى توزيعه وتنويعه ، ولا تجعل جنسين ليشتركا في حقوق واحدة وواجبات واحدة ، بل تجعلهما جنسين ليختلفا في الحقوق كاختلافهما في الواجبات

هذه هي الحقيقة الماثلة بين أعيننا ، وعلى أساسها ينبغي أن تنبني المذاهب والآراء .

أما الذين يضعون المذاهب والآراء ثم يقسرون الحقيقة على موافقتها فأولئك على باطل ، ولن تقوم للباطل قائمة في عالم الطبيعة .

ومن أمثلة المذاهب التي تقسر الحقيقة على موافقتها مذهب الشيوعيين في التسوية الكاملة بين الرجل والمرأة . فهم يريدون أن يهدموا الأسرة لأن الأسرة في زعمهم أصل الاستغلال وإن الاستغلال قائم على الاختلاف بين حقوق الرجل وحقوق المرأة ، ولهذا يجب أن يبطل هذا الاختلاف وأن تتقرر المساواة بين الرجال والنساء في جميع الأحوال وجميع الأعمال .

وهذا تسخير للحقيقة في سبيل الرأي ، وهو وحده كفيل بالقضاء على المذهب الشيوعي واقتساره عاجلا أو آجلا على موافقة الحقيقة التي يريد هو أن يقتسرها على هواه .

* * *

فليس الإنصاف إذن أن يتساوى الرجل والمرأة في جميع الحقوق والواجبات وهما يختلفان هذا الاختلاف الظاهر للعيان ، الماثل للعلم والحس منذ كان الإنسان ، بل قبل أن يكون الإنسان حيث يختلف الذكر والأنثى في عالم الحيوان .

ولكن الإنصاف الذي يجتمع فيه حكم الفطرة وحكم الآداب الإنسانية هو أن تأخذ من الحقوق كفاء ما عليها من الواجبات ، وأن تعطى حقوقها وتسأل عن واجباتها بالمعروف « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » ، لا بالإزهاق والإذلال . فهنالك تهذيب الإنسان إلى جانب حكم الفطرة. وهما خير مناط لإنصاف الشرائع والآداب .

* * *

وليس من الحيد عن سواء التفكير أن يستطرد الفكر هنا إلى سؤال لا بد أن يخطر على البال ، وهو السؤال عن تعدد الزوجات : أهو من الإنصاف ؟ أهو من الكرامة والمعروف ؟ أهو من سنة الفطرة وتهذيب الإنسان ؟

واعتقادنا نحن أن المثل الأعلى للزواج هو الزواج بين رجل وامرأة يتحابان ويمتزجان بالجسم والروح ولا يفترقان مدى الحياة .

ولكننا نعتقد مثل هذا الاعتقاد أن المثل الأعلى لم يخلق قط لتفرضه القوانين على جميع الناس .

إنما المثل الأعلى هو الحالة النادرة التي تتيسر كلما تيسر الكمال أو تيسرت مقاربة الكمال .

وليست هذه بالحالة التي تفرضها القوانين على كل رجل وكل امرأة من جميع مراتب التفكير والتهذيب .

فإنما تفرض القوانين ما يستطاع بين عامة الرجال وعامة النساء ، وما تسمح به أخلاق الزوجين وضرورات المعيشة التي لها عليهما سلطان مسموع كسلطان الأخلاق .

ولا حاجة إلى فرضها على الأمثلة النادرة بين صفوة الرجال وصفوة النساء ، لأن هذه الأمثلة النادرة في غنى عن تعليم القوانين .

والإسلام لم يقل إن تعدد الزوجات هو المثل الأعلى .

ولم يفرضه على كل مسلم ، ولم يحمده من كل مسلم ، ولم يخله من شرط عسير هو العدل في المعاملة وإن تعذر العدل في المحبة ، ولم يفعل إلا أنه وضع التشريع في موضعه الذي يحسب فيه حساب المثل النادر والمثل الشائع ، ولم تأت بعده شريعة حلت هذه المشكلة بغير الهرب منها أو المغالطة فيها ، كما هو الواقع الملموس في الأمم التي تحظر تعدد الزوجات ولا تحظر المعيشة مع الخليلات ، أو معاملة النساء كمعاملة العجماوات .

وفي المجتمع الإنساني حالة يكثر فيها عدد النساء ويقل عدد الرجال ، ولم تستطع الحضارة التي ينعون باسمها تعدد الزوجات أن تمنع تلك الحالة أو تبطل عواقبها . فلا نزال في كل جيل نشهد حرباً من الحروب العالمية التي تنجلي عن ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفتيات أو الأرامل بغير قرناء .

وقل ما شئت في تعدد الزوجات فهو خير من التبذل الوبيل ، أو من

إعطاء المرأة محلاً في المصنع بديلاً من محلها في البيت والأسرة .

وقد ينطلق الهوس بالمساواة إلى أبعد من هذا المدى فيسأل سائل : وهل يجوز للمرأة تعديد الأزواج كما يجوز للرجل تعديد الزوجات ؟

وجواب ذلك أنه بحكم الفطرة لا يجوز .

لأن الرجل يستطيع أن يؤدي واجب الأبوة مع تعدد زوجاته ، ولا تستطيع المرأة أن تؤدي واجب الأمومة لأربعة أزواج أو لزوجين اثنين .

كذلك له هو من حق مراقبتها والسهر عليها أكثر من حقها هي في مراقبته والسهر عليه .

لأنها تستطيع أن تخدعه بولد ليس من لحمه ودمه ، أو تخدعه في أمس شعور به بعد شعوره بكيانه .

ولكنه هو لا يستطيع أن يخدعها بولد ليس من لحمها ودمها ، وأن يصيبها بمثل هذا المصاب الأليم الذي ليس آلم منه ولا افجع في نكبات النفوس .

وهنا محل عادل للدرجة التي للرجال على النساء ، كالعدل في محل تلك الدرجة عند التفرد بحق تعديد الزوجات وعند التفرد بحقوق تخالف حقوق النساء ، تبعاً للخلاف في التركيب والتكوين .

* * *

على أن البحث في حرية الزوجة والبحث في حرية المرأة مسألتان اثنتان لا مسألة واحدة .

لأن الآراء على تناقضها تلتقي في مسألة حرية الزوجة عند ملتقى واحد وهو تقييدها بحقوق الزوج كائناً ما كان الرأي في قداسة الزواج . فالذي لا ينكر الخيانة ينكر السرقة والاغتصاب ، والذي لا يؤمن بالعاطفة الخالصة يؤمن بشروط القسمة بين الشريكين . ومما لا جدال فيه أن الزواج شركة لها

شروطها ، وأهون ما يقال في تلك الشروط أنها كشروط الشركة في المال ، فلا يجوز للزوجة أن تختلس من حقوق شريكها ولا أن تسرق نصيبه المقسوم بينهما على السواء ، وهنا الملتقى بين القائلين بالوفاء والقائلين بالمحافظة على حصة الشريك .

وخلاصة ذلك كله أن حقوق المرأة لم تكن قط مسألة فرد ولا مسألة أمة أو مجتمع موقوت ، ولكنها كانت ولن تزال مسألة النوع الإنساني بأسره ، فلا مناص فيها من الضوابط التي تعبر عن مصلحة النوع وتتجاوز المصلحة العاجلة والغرض القريب .

ولهذا تصدق الأديان لأنها تنطق بلسان الفطرة السليمة ، وتكذب المذاهب التي تحسب أن ضوابط الجنس في المرأة والرجل من اعتساف الأديان ، لأن الإباحة التي تنادي بها هذه المذاهب تدل على جهل بالفطرة ، وهي تنادي نداءها باسم العلم والمعرفة الحديثة ، وهنا فلنحسب للقدم مزيته الأولى إذ هو قدم الفطرة الباقية ، وهي آسبق إلى المعرفة الصادقة من كل حديث .

بلال بن رباح



عباس محمود العقاد

داعي السماء

بلال بن رباح (مؤذن الرسول)

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تقـــديم

* * *

ليس غريبا أن تكون سيرة « بلال » بين سير عظماء الاسلام الذين تناولهم بالبحث الأديـب الكبيـر المرحوم عبـاس محمود العقاد • ذلك لأن بلالا من الشخصيات الاسلامية البارزة التي كان لها شأن يذكر في الخطوات الأولى التي خطاها النبي الكريم في دعوته وجهاده لاكتساب الأنصار المؤيدين ، والصحابة الأقوياء المناضلين • وبلال فضلا عن أنه جدير بأن توضع سيرته على بساط البحث أمام عيون الأجيال لما انطوت عليه من مآثر الكفاح في سبيل العقيدة ، ومفاخر الثبات عليها ، رغم أقسى وسائـل التعذيب ، فهو مثال حي ، ونموذج فريد ، لتطبيق مبدأ اسلامي عريق يقضي باستنكار كل تمييز عنصري ، ومحاربة كل تفرقة بين أجناس البشر من ناحية اللون أو السلالة أو الأنساب • ولما كان العقاد حريصا أشد الحرص على الاشادة بكل شخصية كان لها أثر بالغ في تاريخ الاسلام ، وتوطيد دعائمه ، والتنويه بكل مبدأ أو عقيدة اسلامية ترمي الى خير البشر وصلاحهم ، فقد وجد في وضع هذا الكتاب : « بلال ، داعي السماء » تحقيقـا لهذين الهدفين اللذين يحرص عليهما ، اذ أن فيه اشادة بعظيم من عظماء الاسلام ، وتنويها بمبدأ اسلامي نبيل •

ومن الطبيعي أن يستهل العقاد كتابه بالحديث عن مسألـة العنصر أو الجنس لأن صاحب السيرة ينتمي الى جنس طالما دارت حوله المجادلات منذ أقدم الأزمنة حتى عصرنا الحاضر • ومما حققه في هذا الحديث ابطال مزاعم العنصريين الذين يحصرون

مزايا البشر العليا في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها دون سائر السلالات • فكثير من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات انما هي ثمرة العوامل المحلية والاجتماعية والمناخية وهي ليست مما ينتقل بالوراثة كما تؤكد وقائع التاريخ ومباحث العلم الذي ينكر الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، وان كان لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر في الخصائص الجسدية ، والخصال النفسية •

ومن الطبيعي أيضا أن يتناول العقاد بالبحث مسألة الرق وأصله ومنشئه في العالم ، وموقف العرب من غيرهم ، ومعالجة الاسلام للرق ومشكلاته معالجة حكيمة في اطار من الرحمة والانصاف •

ويذهب العقاد الى أن الرق ظهر في المجتمع الانساني منذ آلاف السنين وقبل مجيء الأديان الروحية ، حتى أصبح بتطاول الزمن ركنا من أركان الحياة الاقتصادية ، وأساسا يبنى عليه نظام المعاملات ، ولم يشعر الناس في تلك الأزمنة بوازع أخلاقي يزعهم عن تسخير الآدميين كما يسخر الحيوان • ثم ظهرت الأديان ودعوتها الى الايمان بالروح فكانت خطوة نحو التخفيف من عبء استعباد الانسان للانسان وتسخيره لأغراضه المعاشية ، الا أن الرق كان قد ضرب بجذوره في أعماق المجتمعات فلم تستطع الأديان غير الدوران حوله والامتناع عن الوقوف ازاءه وجها لوجه • وكل ما استطاع المصلحون الدينيون أن يفعلوه انما هو التوفيق بين الايمان بالروح والترخص في استرقاق الانسان مستندين الى أن العبد عبد بجسده حر بروحه ، وأنه ان ساء حاله في هذه الدنيا فقد يتبوأ في الآخرة منزلة القديسين •

وأقرت الكنيسة نظام الرق • فأوصى القديس بولس العبيد في (أفسس) بالاخلاص في الولاء لساداتهم كولائهم للسيد المسيح ، والحواري بطرس يعتبر من آداب الدين الصحيح خشية

العبيد من سادتهم فيأمرهم بالطاعة والولاء لهم • وأيد توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو نظام الرق مستندا الى أقوال رسل المسيحية وأقوال أرسطو في كتابه عن السياسة •

وبراهمة الهند رغم أنهم كانوا يحرمون قتل الحيوان حتى ما يؤذي منه ، بلغوا من القسوة حدا ضربوا فيه الذلة على العبيد وعاقبوا الرقيق الذي يجرو على اغضاب سيده بسل لسانه والفتك به على رؤوس الأشهاد •

وفي الأمم الاوروبية والاميركية ما يزال الرقيق محروما من المساواة الانسانية الى هذا اليوم • وكانت القوانين حتى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات اذا هربوا من الأسر أو تمردوا على أسيادهم ، ولم يكن هناك عقاب منصوص عليه لمن يقتل عبده بالتعذيب أو الارهاق •

تلك كانت على الاجمال حال الرقيق في القديم والحديث وقبل ظهور الأديان وبعد ظهورها ، فلم تسلم أمة قط من اقرار نظام الرق مهما اختلفت أجناس الأمم •

واذا حدثت هناك بوادر في العصر الحديث الى تحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بالعبيد فذلك يعود الى أن اقتناء العبيد الذين ينالون أجرا منخفضا دون الأجر الذي يناله العمال الأحرار يخفف من حدة المغالاة التي يلجأ اليها أولئك العمال في المطالبة بحقوقهم •

أما موقف العرب في الجاهلية من الأجناس الأخرى كالفرس والروم فكان يمتاز بالمفاخرة الجنسية لا العداوة الجنسية • وموقف العرب من الرقيق ومن الزنجي الأسود خاصة لم يكن موقف عداء ، ولم يخصوا سواد اللون بالمهانة اذ غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرة كادت تكون سوادا • ولم يعرفوا قط عداء الجنس كما كان الأمر بين البيض والحمر في أمريكا ، والسلاف والتيوتون في أوروبا ، والاسرائيليين والكنعانيين في فلسطين • واذا عيرهم جيرانهم شظف العيش وسوء الطعام والكساء رجعوا

الى فخرهم الذي يعتزون بـه وهـو فخر الفصاحة ، وعراقـة الأحساب ، وصيانة الأعراض ، ولم يحدث مرة أن نشب بينهم وبين مفاخريهم قتال طويل سالت فيه الدماء • وليس العبـد عندهم هو الزنجي وانما هو الأسير الذي لم يفك اساره، والجليب الذي يباع ويشرى في الأسواق ، ومجهول النسب الذي لا ينتمي الى أصل من أصولهم المعروفة ، وكـان العربي يتزوج الأمـة السوداء ويتبنى وليدها اذا نجب وصلحت حاله وظهرت فيـه مخايل الفصاحة والفروسية ، وكثيرا ما كان يعتق العبد الذي تعجبه خصاله ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات قرابة منه •

وتحدث العقاد عن الرق في الاسلام فأكـد سبق الشريعـة الاسلامية الى تقرير مبدأ المساواة والانصاف بين بني الانسان منذ حوالي أربعة عشر قرنا دون مراعاة للمصالح الاقتصادية عند أصحاب الرقيق • ولم يتهيب كما تهيبت الأديان الروحية السابقة مواجهه نظام الرق القائم في المجتمعات القديمة فمنـع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم الرفق وحسن المعاملة • ولم يكن الدافع الى هذا الرفق الا السمو فوق ضرورات المادة ، وتحصيل الثروة ، فكان ذلك انتصارا للروح على المادة يعود الفضل فيه الى سماحة الاسلام وحده دون سائـر الأديان لأنه قوض أساس التفرقة بين الاجناس والاقوام ، وعلم الناس أن المؤمنين اخوة ، ولا فضل لمسلم على مسلم الا بالتقوى ، وأن الجنة لمن أطاع الله ورسوله ولو كان عبدا حبشيا ، والنار لمن عصاهما ولو كان شريفا قرشيا • وحصر الرق في من يقع أسيرا في ميادين الحروب وحرم امتلاك الرجـل أو المرأة بالنخاسـة والاختطاف ، وأمر المسلمين بقبول الفداء من الأسرى أو الاعتاق بغير فداء • وجعل الاعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئـات مثل مخالفة بعض أحكام الدين ، ودعا الى الاشفاق على الأرقاء حتى من الكلمة الجارحة ، واعتبر ضرب الرقيق ذنبا كفارتـه العتق ، وقتله جريمة عقابها القتل • وحث على الزواج بالأمة المؤمنة وفضله على الزواج بالحرة المشركة ، واذا ولدت الأمة للرجل وجب عتقها والاعتراف بأبنائها •

وبعد هذه المقدمات أدار الحديث حول الموضوع الرئيسي للكتاب وهو « بلال » داعي السماء • ونحن على يقين أنه لم يخط كلمة عن هذه الشخصية المرموقة الا بعد أن بحث ونقب في كل مرجع عربي أو غير عربي ، والا بعد أن توصل الى استنتاجات سديدة تلقي الضوء الساطع على حياة هذا الرجل الكبير الذي أضمر له المسلمون كل تجلة واكبار •

وخلاصة ما قاله عن بلال أنه من الموالي المولدين بمكة ، ويرجح أنه حامي حبشي ولم يكن زنجيا خالصا من السود ، ولم يصفه أحد بالفطس أو الشعر الصوفي اللذين تمتاز بهما سلالة حام •

ونشأ بلال قبل الاسلام في بني جمح من بطون قريش المشهورة ولكن لم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء • ويجمع الرواة على أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيدي أسياده فاشتراه ببضع أوراق من الذهب بعد ما شاهده بعينه من تعذيبهم اياه لدخوله في الاسلام•

وقد تعرض بلال لأشد العذاب عندما عرف سادته باسلامه • فقد سلطوا عليه الولدان فطافوا به في شعاب مكة ، وضربوه وألقوه على الرمال المحرقة في حر الهجير ، ووضعوا الحجارة على صدره ، وهو مع كل ذلك لم يكف عن الجهر بالتوحيد وهو يقول : أحد أحد • وكل هذا دليل على صدق ايمانه لأن الذي يؤمن طمعا في حطام الدنيا ، وايثارا للربح والفائدة لا يستطيع الصبر على القليل مما ناله من ايلام وتعذيب •

ويمكن اجمال صفات بلال بأنه كان متحليا بأجمل صفات بني جلدته وهي : الأمانة ، والطاعة ، والصدق في الولاء • وكان مع ذلك قاسيا في موضع القسوة ، وعنيدا من غير مكابرة وفي موضع الاصرار على الايمان بالصواب • وقد اشتهر بين الصحابة بصدق القول ، فما شكوا قط في روايته ونقله وخاصة فيما يتعلق بشأن من شؤون الدين •

أما الميزة الرئيسية التي قامت عليها مكانته في الاسلام وشهرته فهي اختيار النبي اياه لأداء الأذان كل يوم خمس مرات يدعوه به ويدعو المسلمين عامة لاقامة الصلوات فاستحق بذلك لقب « مؤذن الرسول » وحظي بالشهادة من النبي لصوته بالسلامة من أي شذوذ معيب ، وهي شهادة تستمد قيمتها العليا من كون النبي عليه السلام يستريح الى كل جميل ٠

وجدير بنا أن نتعرف على مزاياه الصوتية ، أو قل الموسيقية ، تلك المزايا التي مهدت له اعتلاء منصب المؤذن الأول في الاسلام ٠ فمن المرجح أن بلالا العبد قبل الاسلام كان في بعض أوقاته يسوق الابل ويتغنى بالحداء على عادة العرب ويعالج النغم البسيط ثم تدرج الى ترديد الأصوات المركبة ومن ثم استطاع أن يلقي الأذان في لحنه المعروف المشهور ٠ وليس من السهل معرفة حقيقة صوته ٠ ولكن يمكننا أن نستدل بما قيل في وصفه على أنه كان جهيرا بعيد المدى في أجواز الفضاء ، جميل النغم في ترجيعه ، وأنه يختلف عن النغمة العربية الحادة الناعمة بالامتداد والغزارة ٠

أما لحن الأذان ، والصيغة التي رتله بلال بها فقد أجمع الرواة على أنه اقتبسهما من رجل رآه أحد الصالحين في منامه وردد على مسمعه صيغة الأذان ، فعرضه ذلك الرجل الصالح على النبي فاستحسنه وأشار على بلال أن ينادي الى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه ٠

واستمر بلال يدعو الى الصلاة طوال حياة النبي الكريم ويبادر الى الأذان كلما خاطبه بقوله : أرحنا بها يا بلال ! وكلما قويت شوكة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال فكان المستشار الأمين للنبي ، وخازن بيته ، والأمين على ماله ٠ ولما توفي عليه السلام سكت صوت بلال عن الأذان ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين الى الصلاة لأن بلالا أخذ على نفسه عهدا بأن لا يسمع صوته بعد فراق سيده ومولاه ٠

ولما ذهب عمر الى الشام كان بلال يصحب الجيش ، وقد

منح في ضاحية من ضواحي دمشق قطعة من الأرض أقام فيها واعتزل الحياة العامة سعيدا بذكرياته التي مرت به في صحبة مولاه الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم • ويروي بعضهم أنه لما ذهب عمر الى دمشق توسل اليه بعض ذوي النفوذ أن يسأل بلالا اقامة الأذان تكريما لمحضر أمير المؤمنين فاستجاب بلال وأذن أذانه الأخير الذي أثار كوامن الحزن والأسى في قلوب المؤمنين ، فأصغوا اليه بكل جارحة من جوارحهم باكين خاشعين •

وأخيرا لا يسعنا الا أن نحث الشباب العربي المثقف على مطالعة هذا الكتاب وكل أثر من آثار العقاد الخالدة لما فيها من تزويد العقل بالعلم الغزير ، وتقويمه بالتفكير السديد ، وتعمير القلب بالايمان القوي المتين • كما لا يسعنا الا أن نتقدم بالشكر الجزيل الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت الذي أخذ على عاتقه اعادة الطبع لكتب العقاد على اختلاف موضوعاتها ، فله من كل مثقف عربي أجمل الشكر وأطيب الثناء •

صيدا ـ منيف لطفي

كلمة تصدير

* * *

« بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت
« أقصى مداها ، وعملت فيها السياسة غاية عملها ، وأقحمها
« الدعاة من مباحث العلم والتاريخ في غير موضعها .

« وقد كانت للاسلام كلمة في انصاف العناصر والأجناس
« سابقة لكلمة الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان في
« صحابة النبي عليه السلام رجل أسود هو بلال بن رباح مؤذنه
« الأول ، فكان أثيرا عنده وعند الخلفاء وجلة الصحابة والتابعين .

« فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع من
« سلسلة العبقريات والسير الاسلامية في موقعها ، وتصادف
« موعدها من الزمن في أعقاب الحرب العالمية .

« ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء » .

عباس محمود العقاد

مسألة العنصر

مسألة العنصر ـ أو الجنس ـ مسألة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم ، ولكنها على هـذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم الى أصل سامي يرجحون أنه هو اللغة العربية ، ويعتقدون أنهـا مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رؤوس السلالات الآدمية وغير الآدمية •

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شرا كله في بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج (١) الاجتماعية كلها والاداب الانسانية برمتهـا الى الواشجة الاولى التي نشات في مبدأ الامر مـع نشوء القبيلـة الهمجية ، ثم كانت سببا الى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى • ومصداق ذلك في القران الكريم حيث جاء في سورة الحجرات : « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ••• » •

فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساسـا لجميع الواجبات التي تعلمها الانسان بعد ذلك ، سواء فرضتها

(١) أصل معنى الواشجة الملتف من الاغصان ونحوها • وبينهم واشجة رحم أي اشتباك في القرابة •

عليه القبيلة او الأمة أو الجامعة العنصرية أو الانسانية بأسرها ٠

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائنا ما كان معدنه ومدار الفخر فيه ٠ فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول ، كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الارض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام ٠

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره ، ويزيده امعانا في عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن ٠ فان كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة ، وان كانت غابرة دائرة فهي عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره ، وأنه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة ، وان خدمته الحظوظ والمصادفات في حاضر أمره ٠

فلم تعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها . والذي قال :

بلادي وان جارت علي عزيزة
وأهلي وان ضنوا علي كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميع وجوهها وهو يدري أو لا يدري ٠ فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ، ولا أن يكون الآل أكرم الناس ، ليفخر بهم الرجل الذي ينتمي اليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم ٠ فانه ليعظمهم ويبجلهم فرارا من المهانة التي تصيبه اذا تقاصروا عن شأو (١) العناصر الأخرى في التعظيم والتبجيل ٠٠٠ فهو فاخر بهم ان عظموا مساهمة منه في فخارهم ، وفاخر بهم ان هانوا دفعا للهوان عنه اذا اعترف بهوانهم ، ولا حساب للبحث أو للرأي في الحالتين الا بعد حساب العاطفة والشعور ٠

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الانسان الكامل ، ثم

---

(١) الشأو : الغاية والامد ٠

تتلاحق الشعوب بعده الى أن يأتي أبنـاء اليونان في المرتبـة السادسة •

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الانسان المهذب ومن عداه برابرة لا يدركون مكانه من الفهم والحضارة •

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الانسان المبين الكريم ومن عداه « أعاجم » لا يفقهون ما يقـال ولا يدينون بديـن المروءة والأحساب •

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين • بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين ينظر الى نظائرها وان تلاقـت جميعا في أصل قريب من الأحساب والأنساب •

وبقيت هذه الشنشنـة (١) بـين أمـم الحضارة في العصر الحديث فاعتز بها الأوروبيون على أبناء القارات الأخـرى ، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جـاره بالعادات والأخلاق والمآثر وان تقاربوا في السلالة واللغة والعقيـدة • فليس أشد تفاخرا بـين الأوروبيين مـن الطليـان والاسبـان والفرنسيين ، وهم يرجعون بلغتهم الى اللاتينية ، وبعقيدتهم الى المسيحية الرومانية ، وبعناصرهم الى مزيج متقارب من السلالات، ولكنهم تعلموا ــ بوحي المصلحة المتفقة ــ أن يجمعوا فخرهم كله الى فخر واحد يتقارب فيه الأوروبيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء الى القـارة المجتبـاة (٢) بين القارات ، وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشر بها الأوروبيون مـن عداهم من الشعوب الانسانيـة ، وسموا تلك الرسالـة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض ، أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء •

وصدق العالم الانجليزي الحديث جوليان هكسلي حين قال : ان هؤلاء الدعاة مسبوقون الى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح ،

(١) العادة والطبيعة • (٢) المصطفاة والمختارة •

فقد سبقهم « أشعياء » من أنبياء اسرائيل فقال في اصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعي لي أيتها الجزائر ، واصغوا أيها الأمم من بعيد • الرب من البطن دعاني • من أحشاء أمي ذكر اسمي • وجعل فمي كسيف حاد • في ظل يده خبأني وجعلني سهما مبريا • في كنانته أخفاني • وقال لي أنت عبدي اسرائيل الـذي بـه أتمجد • أما أنا فقلت عبثا تعبت ، باطلا وفارغا أفنيت قدرتي • لكن حقي عند الرب وعملي عند الهي » •

« والآن قال الرب جابلي من البطن عبدا له لارجاع يعقوب اليه فينضم اليه اسرائيل ، فأتمجد في عيني الرب والهي يصير قوتي • فقال : قليل أن تكون لي عبدا لاقامة أسباط (١) يعقوب ورد محفوظي اسرائيل • فقد جعلتك نورا للأمم لتكون خلاصي الى أقصى الارض • هكذا قال الرب فادي اسرائيل ••• » •

فرسالة الرجل الأبيض التي تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم يذهب أصحابها الى ابعد من هذا المدى الذي سبقهم اليه بنو اسرائيل قبل ميلاد المسيح بسبعة قرون •

وظلت المفاخر العنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التي لا يرجع فيها الى قياس منطقي ولا موازنة علمية • فكانت أشبه شيء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم واخوانهم وجيرانهم وبيوتهم التي يسكنونها ومدنهم التي ينشأون فيها وكل شيء يتصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم • وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب • وليس هذا من القياس المنطقي ولا الموازنة العلمية في شيء ••

ثم اتسع نطاق البحث العلمي في القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب في موضوعاته الكثيرة وجعل لها علما خاصا أو بابا خاصا من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية •

---

(١) السبط واحد الاسباط وهم ولد الولد • والاسباط من بني اسرائيل كالقبائل من العرب •

وانتهى به البحث الى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من الأجناس التي ينتمي اليها شعوب البشر كافة ، وهي الجنس القفقاسي أو الأبيض ، والجنس الزنجي أو الاسود ، والجنس المغولي أو الاصفر ، والجنس الاسمر أو أهل الملايا ، والجنس الاحمر أو سكان القارة الامريكية الأصلاء ٠

واختصر بعضهم هذا التقسيم الى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء والسمراء والحمراء فروعا من أصل واحد ، وهو اختصار له سند معقول ٠

وقد عني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع الاجيال ، أي بالفروق التي يسمونها فروقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التي تكسب بالقدوة والمحاكاة ٠

وتناول العالم اللغوي الألماني ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التي تعنيه ، وهي ناحية المقابلة بين اللغات ،فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياها من جديد بعد أن سبقه الى استخدامها السير وليام جونس في أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الاجناس البشرية، وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبته جوليان هكسلي من كلامه عن الجنس في القارة الأوروبية ٠

وأحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الجنس الآري ستخرج من حيز التفكير العلمي الى ميدان الصراع على الشهوات السياسية ، فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعاد الى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أنني اذا ذكرت الآرية فلست أعني الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة ، وانما أرمي الى قصد واحد وهو أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية ٠٠ ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعني أن أبناء السكنديناف ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا

مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذي بتغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك •• وعندي أن عالم الأجناس الـذي يتكلـم عـن العنصـر الآري والـدم الآري والعيـون الآرية والشعر الآري انما هو في خطيئته العلمية كاللغوي الذي يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء » •

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال في مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عـرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمي الى أصول متفرقـة لا الى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وأن القردة العليا هي أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولي والقرد المعروف بالأورانج نبتا من أصل واحـد ، وأن الزنجي والغوريلا والشمبانزي تنتمي الى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأي عالما ألمانيا مـن علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هذا العلم بجامعة برسلاو الألمانية • فأعلن في أوائل القـرن العشرين رأيه هذا وأيده بما بدا له من الشواهد والملاحظات التي كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الانسان •

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما • بل كان كذلك قرن التوسع في الاستعمار وتسخير العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية ••• فظهر من الكتاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر ، وقام في أوروبا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الأجناس البشرية ، ومن يرد الفضل في كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة الى أصل الجنس الآري المزعوم في الشمال • وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « ارثر دي جوبينو » في فرنسا وهوستون شمبرلين الانجليزي المتجرمن في ألمانيا ، ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة ، وهي ميدان نزاع بين الأجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الأوروبيين الذين يمتون

بالنسب الى أصول مختلفة • كالسكسون واللاتين وأمم الشمال والجنوب • فكان لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Gront على رأس المبشرين بهذه العقيدة في الولايات المتحدة ، ولم تكن كراهة الأجناس الملونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء الى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآري خاصة من بين الشعوب البيضاء • وانما كانت كراهتهم للحكومة الحرة ـ أو حكومة المساواة بين الطبقات ـ باعثا آخر الى انكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآري أو الجنس الشمالي المجيد ، فكانت هذه النكسة مدرجة (١) لها الى النزول عن أوج السيادة والاذعان لشريعة المساواة •

ولا شك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها يد قوية في تمكن هذه النزعة بين الأمم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذي تدرأ العار به عن فخارها القومي في مجال الصراع بينها وبين اللاتين ، أو بين أمم الشمال وأمم الجنوب وقد كان نابليون ـ قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع الجرمان ـ منحدرا من جنوب الجنوب بالقياس الى القارة الأوروبية ، فكانت صيحة الفخار القومي التي تستثار بها الأمم الجرمانية الى الوحدة هي تعظيم مزايا الجنس الشمالي الذي ينتمون اليه ، واتفق ذلك في عصر البحث عن الأجناس وعصر النشوء والتطور ، وعصر السباق الى الاستعمار وعصر الديمقراطية التي تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة التفوق العنصري على أشدها بين الألمان ، وكادت عقيدة الجنس الآري أن تنحصر فيهم بعد مولدها في بلاد الانجليز على لسان واحد منهم ـ وهو العلامة ماكس موللر الذي سبقت الاشارة اليه ، ومن ثم بدرت دعوة الى التفوق العنصري لم تكن لها صلة بالثقافة الألمانية الحديثة من قريب أو بعيد •

---

(١) المدرجة : المذهب والمسلك • ومدرجة الطريق معظمه • وهذا الامر مدرجة لهذا أي يتوصل به اليه •

ولقد تعددت الأسباب التي ألهجت ساسة الألمان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ ـ ١٩١٨) بمسالة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام الشمالية وما لها من الرجحان على خلائق الله كافة من أوروبيين وغير أوروبيين ، سواء في الزمن القديم أو في الزمن الحديث •

فقد احتاج الساسة الألمان الى محاربة المذهب الشيوعي فوضعوا بازائه مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهي تعتصم بالخصائص القومية في وجه الدولية التي يبثها الشيوعيون ، وفاقا لعقيدتهم المعروفة ، وهي عقيدة الثورة على الأوطان والأديان •

ووافقتهم الخصائص القومية في حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذاك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر التيوتون الذي ينتمي اليه الألمان • فكانوا يقولون انهم هم حماة الحضارة الأوروبية من زحوف البرابرة التي تتهددها من قبل آسيا في الزمن الحديث •

واستغلوا دعوة العنصر الآري استغلالا غير هذا وذاك في محاربة اليهود باسم الساميين •

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الأمم الجرمانية بعد هزيمتها المندحرة في ميادين القتال ، فنفخوا في أوداجها (١) أنها أهل للظفر ـ وليست بأهل للهزيمة ـ لانها خلقت للسيادة وتنزهت في سلالتها الارية عن شوائب الأجناس ، وأدخلوا في روعها (٢) أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى •

فأصبحت دعوة العنصر هوسا جامحا كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآري

---

(١) الودج عرق في جانب العنق وهما ودجان • (٢) الروع بالضم القلب والذهن •

المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الأخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون ان الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومي كما تنبت الجوارح في الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل في تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم • وكان هتلر ينادي في كتابه : « اننا معشر الآريين لا نعرف الحكومة الا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب » •••• فهيء شيء لا يدخل في الارادة ولا في التربية السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب •

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها ــ مع تلك البواعث النفسية والسياسية ــ مبلغا لم يسبقهم اليه سابق في عالم البحث ولا في عالم الخيال • فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى تلتقي بالقردة ولا يبعد أن تناسلها ، وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقي الى الذروة الخلاقة بين عظماء الأمم فألحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا الى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه الى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة الى وطن من الأوطان ، فحصروا الخلق والقيادة في الآرية المزعومة دون غيرها ، وجعلوا العناصر الأخرى جميعا عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين •

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب الى الغلو في انكار خصائص الأقوام والأجناس ، وهم اذا غلوا في هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى الى الاقناع من شفيع العنصريين •

وانما نعرض للبواعث السياسية التي امتزجت بالحقائق العلمية في مسألة الجنس والعنصر لأن الالمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغريبة ويرجع بها كرة أخرى الى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول •

ومن الواجب أن نصغي أولا الى دواعي التشكيك في تلك

الدعوة الجازمة ، وهي كثيرة ، فانها على التحقيق تدعو الى الشك في دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التي خيل اليهم أنهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة الى ذلك الايمان ·

فمن دواعي الشك في العنصرية الآرية أن العنصر الآري المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذي تخيلوه ، وانما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم الى سنخ (١) واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العنصرية الا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم بلغة واحدة على تباين المواطن والألوان ·

قال العالم الانجليزي جوليون هكسلي في كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوروبية : ان دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق · وانما المقطوع به أن هناك نموذجا بشريا يعرف بالنموذج الشمالي موزعا بين الأقطار الشمالية في أوروبا من الجزر البريطانية الى التخوم الروسية ، وأن هذا النموذج ــ وهو على أقرب ما يكون الى النقاوة والصفاء في بعض الأقاليم السكندنافية ــ لم ينسب اليه قط فتح من فتوح الحضارة ، أو كشف من كشوف العلم ، أو أداة من أدوات الاختراع التي اشتهرت في التاريخ ، وقد روجعت مخلفات العصر الحجري التي ترد الى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فاذا هي تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها الى شبه الجزيرة الايبيرية ــ التي نعرفها باسم الأندلس ــ ثم الى فرنسا فالجزر البريطانية · ومن المحقق أن الخطوات الأولى التي خطاها الانسان الى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواليب قد تقدم بها في جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التي لم تنسب الى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلك أن

---

(١) السنخ : الاصل ·

مشاهير الجرمان أمثال جيتي وبتهوفن وكانت كانوا مستديري الرؤوس ربعة في القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا انيشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التي يزعمونها للنورديين • ومن طرائف المصادفات أن اللون الأشقر والقوام الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة • فهتلر أسمر ، وجورنج سمين بادن ، وجوبلز قصير دميم ، وزعماء « الجنكر » من سكان ألمانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والنيوتون ، وهم أكبر الدعاة الى السيادة الجرمانية على الأمم قاطبة •

ويتفق علماء الأجناس ووصف الانسان على توزيع السلالات في العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض في عنصر أو سلالة • فالجنس الأبيض في القارة الأوروبية وما جاورها ينضوي الى عنوان واحد ولكنه ينقسم الى السلالات النوردية والألبية وسلالة البحر الابيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوي الى عنوان واحد ولكنها تنقسم الى ليبيين وايبيريين وليجوريين نسبة الى اسم جبال الألب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف اليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينعزلون وحدهم في بحر « ايجه » على مقربة من اليونان •

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يختلف في بعض الصفات وان تماثل في اللون أو تقارب فيه • فقد عرفت القبائل السوداء في استراليا ولكنها تخالف القبائل الافريقية في الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف في بعض الملامح والأخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الافريقية • أو أبناء الاقليم الواحد منها، فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود افريقية ، ولكن الأولين قصار وثابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون الى الاستقرار • ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبي وبعض أقاليم الصحراء الى الشواطيء الغربية ، وهم جماعات شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع

مقيمين موادعين ، وليست فوارقهم في اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة في الملامح والسمات والعادات •

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال ، ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع في خصائصها ومزاياها • وليس أدعى من ذلك الى التشكيك في مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعا في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات •

ومن دواعي الشك القوية في مزاعم العنصريين أن كثيرا من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها الى عواملها المحلية أو الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية ، ونعني بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية •

فقد زعموا ــ مثلا ــ للسلالات الأوروبية أنها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذي لا يرمي الى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات • وقالوا ان الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ، ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد ، ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه في الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية ، ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين •

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل في سلطان الكهانات القوية ، وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط يديها على العقول الى جانب الدول العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية الأنهار الكبيرة • فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الأصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الري والزرع وتصون الأمن وتضمن سلامة المعاملات • ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة

والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير • وكثيرا ما تجتمع الوظيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « أنصاف الأرباب » في التاريخ القديم • فاذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتناول أصول الوجود حقا للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يثبتون فيها وينكرون ، كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلا بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح النظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الانسانية •

وقد كانت أمم الشرق القديم دولا لها كهانات قائمة قبل أن تظهر الفلسفة اليونانية بألوف السنين • فامتد تفكير اليونان الى محاريب الفلسفة التي كانت حرما منيعا في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس ، وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين ، ولو انعكس الأمر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء •

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوروبا حين توطدت فيها مثل ما صنعته الكهانات في الشرق القديم ، فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الأمم الأوروبية ضرب الحجر على العقول فأحجم الناس دهرا طويلا عن البحث المجرد والتفكير في حقائق الوجود ، وبلغت الكهانة الأوروبية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ •

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوروبا أن الأوروبيين يمتازون على الآسيويين والافريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية ، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في معركة ماراتون ومعركة سلاميس •

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة

بأخبار المعركتين فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوبا من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم الى حيز الملاحم الهومرية ٠

فلم يدر في خلد « دارا » يوما من الأيام أن يستولي على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكري على دولته المترامية الأطراف ، وانما عناه أن يؤدب أرتريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه في آسيا الصغرى ٠ واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا ، أو قيل انه تلقى من زعماء الشعب المتمردوعدا بالانضواء اليه وخذلان أولئك المستبدين ٠ فأخمد الثورة في آسيا الصغرى ثم زحف على « أرتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا الى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء ٠ ثم تقدم الى أثينا وفي حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة اليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن في حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد الى اسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء ٠

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغلب من التدبير ٠ شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ، ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقا له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جدا من قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولان الجيش كان مرتبطا بمعونة الاسطول الذي يلازم الشاطيء ويحمل له المؤونة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والأسطول معا مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ٠ ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقا للاسطول أيضا ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن المكان

أضيق من أن يتسع لمناورات الاسطول كله ، ولأن زركسيس لم يتقدم اليه الا لعلمه باختلاف قواد اليونان في ادارة المعركة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع بمعظم السفن من سلاميس ٠

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة في جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسي ضربا من المحال بعد ضياع السفن التي مني بخسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وان كان قد ظفر بالأثينيين في المواقع البرية ٠

ولا شك أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب اليونان لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه ٠

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو مناقب السلالة ، ولكنها اختلاف في الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين ينسون آفة الاختلاط في الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم أن يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعا الى العنصر الأوروبي قد أصابتهم الهزيمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم في العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين في تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس ٠

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية ان الفرس قديما من سلالة الآريين ، وانهم أقرب الى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟!

ان العالم النمسوي فردريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل أوروبا في الزمن القديم ، ومن المفيد في هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه في كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثاني من « ساعات بين الكتب » ٠٠٠ وهذا بعض ما جاء فيه :

« ٠٠ للزنوج أثر في أوروبا تدل عليه الجماجم التي وجدت في ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمان سنوات في افريقية الجنوبية ٠ وقد بقي أثر للأقزام

السود في جبال الألب الى عهد بنيني الذي تكلم عن هؤلاء الأقزام وعزت كلامه القصص والأساطير ٠

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التي لا يعرفها الساميون في الشرق لاستغراقهم في المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح ٠ فيجيبه الاستاذ هرتـز بجواب مفحم هو المقابلة البسيطة بين شريعة الرومان وشريعـة حمورابي في محاسبة المدينين ٠ فاللوح الثالث من ألواح القانون الروماني يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلا في مدى سبعة وعشرين يوما من يوم القبض عليه وتكبيله في الحديد والحبال ٠ وأما شريعة حمورابي فهي تقضي بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات ، والقانون يحميه في خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والارهاق ٠ زد على هذا أن الفرق واضح بين الشريعتين في أمور أخرى ، منها أن السارق المضطر معذور في شريعة حمورابي ، وهو غير معذور بحال من الأحوال في شريعة الرومـان ، وأن الأب الروماني يجوز له أن يبيـع أولاده ، ولا يجوز ذلـك للآباء عنـد البابليين ، وأن الـزوج البابلي لا يجوز له أن يقتني السراري بغير اذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق لـه أن يطلب الحط من دينه اذا نقصت غلة أرضه وليس في الشريعة الرومانية شيء من هذا القبيل ٠ وهكذا وهكذا من شواهـد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام في شريعة حمورابي ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة في شريعة الرومان ٠

ويرفع شمبرلين اليونان الى السمـاء ويقول ان علومهـم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها الى طبيعتهم الآرية التي يمتازون بها على الآسيويين والساميين ٠ فيقول له هرتز ان أرسطو في زمانه كان يطري مواهب الآسيويين في الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذي لا علاج له في المعارف الفنية والسياسية لعلة الجو التي لا تبديل لها على تعاقب الأزمان ، ويقول هرتز أيضا ان ثوسيديد المؤرخ اليوناني ذكر أن اليونان كلها كانـت في قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمع في زمانه لغة

البرابرة في بعض أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين ـ كرشمر وكيسلنج وفك ـ أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنسا واحدا من الآسيويين ، وأن أسماء بعض المواقع اليونانية لا ترد الى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الأرباب فيما يقول هيرودوت • والأقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل آسيوي‌سامي وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية، وكذلك تتفق الأقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية آسيوي الأصل والنشأة ، بل يقول فيرث : ان هومر نفسه اسم سامي آسيوي محرف من « زومر » بمعنى المغني أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين •

ولا يريد هرتز أن يقف في الانصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس • لانه يرى أن الفواصل بين أي شعبين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصي على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام • فهنيبال الزنجي الذي اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده الى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الأشراف ، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا • وسليمان وهو زنجي آخر كان في البلاط النمسوي في القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بأدبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها في البلاط الألماني وأصبحت صديقة حميمة للامبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التي عنوانها « من قصة أميرة عربية » • وقد كان الدم الزنجي يجري في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف •

يقول هرتز : « لا ترى أحدا يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق ، أو بين الحصان الابيض والحصان الاسمر • أما في بني الانسان فالفرق اليسير ـ بالغا ما بلغ من التفاهة ـ كاف لأن ينشيء من الأوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأنآها عن الحقيقة • وما الفرق

هنا مع هذا الا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر • فقد يرينا المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بني الانسان انما هي فروق في درجات التجمع والتوزع في مادة صبغة واحدة متماثلة في الجميع » •

كلام اذا رجعنا به الى الأسانيد والبينات فهو أقوى سندا وأثبت بينة من كلام المغرقين في تمجيد الأوروبيين وتفضيلهم على جميع الشعوب ، واذا رجعنا به الى الهوى فهو أقرب الى هوانا وأولى باصغائنا من كلام أولئك المغرقين •

فلا وقائع التاريخ ، ولا مباحث العلم ، ولا مشاهدات العيان، تؤيد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله نخبة واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق بين السلالات الانسانية •

ولكننا نتجاوز الحد المأمون اذا تجاوزنا هذه الحقيقة الى ما وراءها ، فكل ما هو محقق في صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية • فهذه فروق موجودة يزداد ظهورها في بعض الأفراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها الا اذا تجاوزنا العيان وأغضينا عن المحسوس الماثل لجميع الأذهان •

وقد يوجد من العنصرين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة بينهما على الباحث المحقق فضلا عن الناظر في عرض الطريق • ولكن التشابه حينا لا يمنع الاختلاف في جميع الأحيان، ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الأنواع كلما وجدت المشابهة بينها لأمكن انكار الفارق بين الانسان والحيوان على هذا القياس ، فاذا قيل ان الحيوان يمشي على أربع أمكن أن يقال كذلك ان بعض الانسان يمشي على أربع •• واذا قيل ان الحيوان أعجم أمكن أن يقال كذلك ان بعض الانسان أبكم وان بعض الطير ينطق كما ينطق الانسان •• واذا قيل ان الحيوان مسلوب العقل

والتفكير أمكن أن يشار الى أفراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون •• واذا قيل ان الانسان والحيوان لا يتناسلان أمكن أن يقال ان الكلب حيوان والهر حيوان وهما لا يتناسلان •

فوجود المشابهة في بعض الأفراد لا ينفي المخالفة في عامة الأفراد •• وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فارقا حاسما الى أن يوجد التعريف •

والحد المأمون الذي لا نريد أن نتجاوزه في هذا الصدد هو ما أسلفناه من أن الدعوى التي تفرد بعض العناصر بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق هي دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان • أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وان تفاوتت درجات ظهوره في بعض الأفراد •

فمن المشاهدات ـ ومن البديهات معا ـ أن العزلة في النسب وفي التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة في الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء •

ومن المشاهدات ـ ومن البديهات معا ـ أن الشعب الذي يقضي عشرة آلاف سنة ولاء في مكافحة العوارض الجوية والاحتيال على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جيرانه ومن طوارق الأرض والماء والسماء ، لا يشبه شعبا قضى مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل على المصادفات وهو معفى من الحيلة والجهد في صراع الحياة •

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث في الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التي توجد في خلايا الذكور والاناث ، وأن هذه الناسلات تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة • ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الزمن يكفي لتحويل العوارض التي تنشأ من البيئة والمعيشة الى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء الى الأبناء ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن

من أختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين •

والذي يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة ـ ونعتقد أن العلم وشيك أن يمثله في تجربة من التجارب المقررة ـ أن فراسة الوجه الانساني تدل على كثير ،وأن هذه الدالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام •

فأنت لا تخطيء تاريخ الأمة كلها اذا نظرت الى وجوه أبنائها، ولا يفوتك أن تعلم أن هذا الوجه السهل الذي تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلا من الكفاح وقليلا من التجارب وقليلا من حوافز النفوس ، وأن ذلك الوجه الحازم الذي يلفتك الى متانة الأعصاب والعظام قبل أن يلفتك الى بضاضة (١) اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم يستسلموا لسهولة العيش منذ زمن بعيد • وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحازمة في الوجوه ، فان اللحم لا ينقلها والدم قد يخزن الناسلات ولكنه لا يخزن القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربية في الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن اذن أنها تنقل في مخازن الأعصاب ثم في مخازن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم ـ فيما نقدره ـ أن يهتدى اليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه •

ومهما يقل العلم غدا في هذه المسألة فالذي نجزم بـه منـذ الساعة أن وجوه الأمم التي قضت ألوف السنين في الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ، وأن الاستدلال بملامح الوجوه طبيعة في جميع الأحيـاء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر الى وجه الحيوان الذي يقابله ليعلم هل يسالمه أو يناجزه (١) ويتحداه ، وان كانت الوجوه لا تبدي

---

(١) امتلاء الجسم ونعومته •

(٢) ناجز الفارس قرنه بارزه حتى يقتل أو يقتل ،

كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفي كل ما في النفوس والعقول ٠

وحسبنا الآن أن العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث الى زمن بعيد ، ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وان بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الأفراد بعد زوال أسبابها الى حقبة طويلة ، وان الأبناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وان لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التي تتمثل في الناسلات ٠

وليس بنا هنا أن نبسط القول في خصائص الأجناس جميعها ، لأن الجنس الاسود هو الذي يعنينا منها في هذا الكتاب ، وهو من الأجناس التي يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف في وصفه أقل من الاختلاف في وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين ٠

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه في كتب علم الأجناس وعلم الانسان ونصحح بعضها ببعض ونضيف اليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار ٠

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

« ان الزنجي مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور في الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفتاه غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضرس العقل منها يظهر سريعا ويذهب أخيرا ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين وربلات (١) ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض في الابهام ، ومادة الصبغة السوداء في الزنجي كما أسلفنا تسري الى عضلاته وقد تسري الى دماغه وهو بالقياس الى الأدمغة الأخرى بسيط التلافيف ٠ وميله الى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد غرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير ٠

(٢) الربلة : باطن الفخذ ٠

ويقال ان أبناء الزنوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ،ويغلب عليه الكسل والايمان بالخرافة ، ومن طبعه العطف والوفاء • وهما خصلتان ترغبان من قديم الزمن في اقتنائه واستخدامه • فمنذ عصور الفراعنة في الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات الى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد الزنوج المجلوبين كبيرا على الأغلب في جميع الأزمان • ولعل عبد ملك الذي أنقذ حياة النبي أرميا ــ كما جاء في الاصحاح الثاني والثلاثين ــ كان من الزنوج ، وكذلك الكوشي جد اليهودي الذي جاء ذكـــره في الاصحاح السادس والثلاثين اذ يقول : (فأرسل كل الرؤساء الى باروخ يهودي ابن نثنيا شلميا بن كوشي قائلين : الدرج الذي قرأت فيه في آذان الشعب خذه بيدك وتعال) •

« ومع قدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يتعلم الزنجي منها على الأرجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقبا لعصر الحجر توا في تاريخ بعض القبائـــل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس •

« والزنجي مقلد شديد الميل الى التقليد • ولهذا يلفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافا للمصري المثقف ، بـــل خلافا لأبناء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب في القارة الافريقية ، فان رسوم الحيوان على الجدران التي تحتمي بها قبائل اليوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يخجل الفنان الأوروبي اذا نسب اليه ، وهي على الجملة تفضي بنا الى سؤال عن قدم الجنس الزنجي في التاريخ •

« ففي جنوب مصر تشاهـــد الصخور الرملية التي تغطيهـــا رسوم الحيوان والانسان ، ومنها الحديث الذي لا شك في حداثته والقديم الذي لا شك كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع الى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليخيل إلى الناظر اليها أنها من عمل أمس القريب ، وأمـــا الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردح طويل من الزمان ، ويرى ــ عدا هذا ــ بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فاذا لاحظنا أن ذلك الاقليم

كان أرضا قاحلة من بداية التاريخ المصري دل حضور الزرافة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الأرض بطاحا مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التي يرعاها الزراف ٠ وينتشر رسم النعامة في تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التي تتمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخليق بهذا أن يدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعي الكتابة المصرية الأولى ، وأن سير فلاندرس بتري على حق حين يستخلص من هذا أن الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل ، وتؤيد رأيه كشوف السائحين في جهات أخرى من افريقية الشمالية حيث تشاهد أمثال تلك الرسوم في جنوب تونس ومراكش ، وقد أستطيع الاهتداء الى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فان الدكتور بونيه

Bonnet وجد في وهرار الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التي عليها تلك الرسوم ، ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولوتي الذي تصنع فيه تلك الآلات ، ومن ثم يفهم أن الرسوم ترجع الى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية ، وهو عهد في مصر جد بعيد ٠

« فمن المحتمل اذن على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى مخصبة ، وكانت دال مصر ذراعا من البحر الملح ، كان جيل من الناس قريب الى جيل البوشمان ينزل في افريقية الشمالية بين السواحل الأطلسية وشواطيء نهر النيل ، ولعل قبائل الأكاسيين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرؤوس في أواسط افريقية بقية ذلك الجيل القديم ، وقد أجلتهم عن مواطنهم غارات الزنج ولم تزل بهم غارات قبائل البانتو أو الكافرين حتى ألجأتهم الى جنوب القارة الافريقية ، وقد كانوا جسديا دون أعدائهم في القوة وان لم يكونوا دونهم في المزايا الأدبية ، وكانوا على كل ذوي ملكة فنية تعوز الزنج والكافرين على السواء ، وهي ملكة الرسم ، اذ لم يكن في وسع

الزنجي أن يرسم أو يتمم رسوم الصخور في بلاد البوشمان ولا رسوم الصخور في افريقية الشمالية ٠

« وقد كانت الجبال التي تحد الصحراء بين الشمال مسكن قبائل من اللوبيين منذ عهد سحيق في القدم ، وقد وصفنا هذا الجيل آنفا وبينا أنه ينتمي الى سلالة مميزة بين سلالات الجنس الأبيض ، وربما شاهدنا اليوم في قرى انجلترة وايرلندة فروعا من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ، والنموذج العتيق الذي تبديه لنا تلك القبائل تؤكد لنا الآثار المصرية كما تجلوه الملامح البيضاء التي بقيت له الى الآن ٠٠٠ » ٠

وكلام الدكتور سايس هذا في أوصاف الجنس الزنجي وتاريخه العريق قليل الخطأ كثير الصواب ، أو هو من أصح ما كتب في هذا الموضوع ، ويزاد عليه من كتب الأجناس الحديثة أو كتب علم الانسان أوصاف أخرى يعد بعضها من قبيل التصحيح وبعضها من قبيل التكملة ، نأتي عليها بايجاز :

فاللون الأسود في الأجناس السوداء لا يتعمق الى ما وراء البشرة الظاهرة ثم تتساوى ألوان الجسم الانساني في جميع الاجناس ، وانما يأتي السواد من صبغة في الغشاء الذي يلي البشرة الظاهرة ، ولا يسرى على ما وراءه الا عرضا في قليل من الأفراد ٠

وقد نفهم دلالة الضيق والسعة في تركيب الجمجمة اذا فهمنا أن جمجمة الجنس الأبيض بين الأوروبيين ليست أوسع الجماجم الانسانية ولا أوسع من جماجم غيرها من الأمم التي لا تجاريهم في الحضارة ، فاذا حسبنا قطر الدماغ من الأمام الى الخلف مائة فنسبة العرض اليه في الزنجي سبعون وفي الأوروبي ثمانون وفي الساموي من أبناء الجزر المعروفة غرب المحيط الهادىء خمسة وثمانون ٠

والزنجي طويل الذراعين تصل ذراعه الى الركبة في بعض الأحيان ، وشعره الصوفي المعروف هو أوضح العلامات المميزة له بين جميع الأجناس ٠

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نتذكر حين نقابل بين تخلفه وتقدم الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج

اليه ، وأن العبرة بالمجهود العقلي الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور ، لا بالطبقة الثقافية التي تحسب لذلك الأمر في سلم الثقافة العامة • فالمعادلات الرياضية العليا أرقى في سلم المعرفة من الجمع والطرح في الحساب ، ولكن المعادلة الرياضية العليا لا تتطلب من ذهن المهندس المتعلم جهدا أكبر من جهد الرجل الزنجي حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين ، ولا سيما اذا كانت نهاية العدد عنده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين ، أي عشرين •

وقد عرف أن الزنجي في قبائل « الوي » التي تقيم عند « سيراليون » قد اخترع نوعا من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع الى أساليب الكتابة الأخرى التي عرفت في بلدان الحضارة •

أما حظه من الفنون فليس بالحظ القليل اذا نظرنا الى حاجاته الطبيعية ودواعيه الضرورية الى المعيشة الاجتماعية • ولعل « هافلوك ايليس » حين قال : « انه قد سلك سبيله الى الحضارة راقصا » قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص •

فالرقص لا يكون بغير نغمات ، والمرح المطبوع في الزنجي هو مبعث وحيه الذي ألهمه الرقص والغناء ، فهو عظيم الولع بالأغاني ، سريع الأذن الى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة ، وينبغي أن نفرق بعض التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والايقاع ، لأن الأصوات الموسيقية تبلغ من التراكب والتنوع مبلغا يبعدها من الايقاع الذي يصاحب حركات الاجسام في الرقص الفطري أو الرقص الحديث •

والزنجي يحب الغناء والرقص ويبرع فيه ، وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم في عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذي علمنا ــ في سيرة النبي عليه السلام ــ أنه دعا السيدة عائشة رضي الله عنها الى التفرج به والنظر اليه ، وكان يعرف بالزفيف (١) لسرعته وتوالي الحركة فيه •

ولما اشتغل الزنجي بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الايقاع رائده الأول في هذه الصناعة التي قد يظهر للوهلة

(١) سرعة المشي مع تقارب الخطو •

الاولى أنها بعيدة عن الغناء ، لأن النسب التوقيعية كانت تغلب في التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة ، وكانت منذ وجدت تنقل الشبه فتحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه ، وهي لا تزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين •

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب الموشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم في قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه ، لأن تقليد الجسم في أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده في بعد واحد ، وهو التقليد الذي يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد •

ولتماثيلهم ــ مع غلبة الايقاع عليها ــ سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة ، وهي سمة الخوف والتخويف ، وهي كذلك سمة لا غرابة فيها اذا نظرنا الى الأخطار التي تحدق بالزنجي بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء ، ونظرنا الى الغرض الذي يتوخاه من صنع كثير من تماثيله ، وهو لبس الوجوه والأقنعة التي تخيف أعداءه في ميدان القتال •

ولم تزل فنون القتال عند الزنجي ضربا من الفن الجميل ، لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والايقاع والغناء ، وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجي وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه (١) حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه قد ركزه في الهدف بيمناه •

والزنجي شجاع مقدام لا يهاب الموت ولا ينكص عن الألم ، وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من اهابه الممزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه ، لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبنا لا يجمل بالرجال ، وقد عودته مجالدة الوحوش والأفاعي والمحاذرة الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه ، وأن يحتمل القسوة على نفسه كذلك •••
وفيه الى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجبن اذا صدع بالأمر فرارا من العذاب •

(١) الكشح هو من لدن السرة الى المتن ، وهو موقع السيف من المتقلد •

وهو مصدق وفي يؤمن بالعقائد التي توارثهـا عن أسلافـه وأكثرها من قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية ، وتقديـس الرقى والتعاويذ التي تعصمه من فعل تلك الارواح ٠

والوفاء فيه طبيعة ، لأنه نشأ على طاعة الرئيس في القبيلة وطاعة الساحر الذي يعلمه ويحميه ، وقلما يغدر أو يخون اذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه ، وانما يغدر ويخون اذا توجس وسلبت منه الطمأنينة ، فانه ليرجع اذن الى حياة المخاوف والأخطار التي علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات ، أو بين الأسرار والغوامض التي يتكفل الساحر بجلائها له على ما يعتقد ويروم،فيعمل في حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل الهاجم الذي يتوقع الهجوم من كل مكان ، فلا يبالي ما يصنع وهو غاضب يائس محروم من العطف والحنان ٠

وينبغي ــ قبل مراقبة الزنجي وتسجيل غرائبه ــ أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه ، لأننا حريون أن نستغرب كل شيء اذا نحن توقعنا الغرابة والاستغراب فيمر بنا العمل الذي يعمله أبناء لغتنا وعنصرنا دون أن نلتفت اليه ، ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع الى التنبه له ونحسبه من البدوات التي لا تصدر الا عن أمثال ذلك الغريب، وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب الا على هذا الاعتبار ٠

ولو شـاء الناس لالتفتـوا الى هـذه الملاحظـة في الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون اليهـا كـل يوم في الحقائـق الاجتماعية الصغيرة ٠ فاننا نسمع العامة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشهرين بالسوء فيقولون عنه « ان صوفته حمراء » ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره فسرعان مـا يتنبه اليه الناس ويتعقبونه بالذم والتشهير ، ويمضي غـيره بفعلته دون أن ينتبه أحد اليه فضلا عن ذمه والتشهير بسمعته ، وهم يستعيرون هذا الوصف من لغـة الرعـاة الذين يفردون الخروف « الأحمر » بالزجر والعقاب وهو لا يصنع شيئا غـير الذي يصنعه اخوته في القطيع من ذوات الفراء السود ، ولكنه

يظهر وهي لا تظهر ، فيعاقب وحده وتنجو هي من الملاحظة والعقاب ٠

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة في الأخلاق والعادات ، ولكننا اذا بدأنا بالاستغراب ، أو كان الاستغراب سابقا للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الاطلاق ، وحسبنا أنه يخالف الناس في أصول الطباع وهو لا يفعل الا ما يفعله في مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء ٠

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التي باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى في مواطن الادراك ، وهي مباحث العلوم والصناعات ٠

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الزنجي مقصرا عن الأجناس البيضاء والسمراء في علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء ، لأن حياته لم تلجئه قط الى الملاحة في البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الأمم الاخرى من حركات الاجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والأنواء ، ولم تلجئه قط الى اقامة الصروح ومزاولة البناء بالأحجار ، فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الأمم التي تهيأت لها الوسائل ودفعتها الضرورات الى التشييد والتعمير ، ولم تلجئه قط الى توقيت مواعيد الري ولا السيطرة على مجاري الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص الجوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الاهمال في هذا التدبير ، ولم تلجئه قط الى الافتنان في طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنية والأدوات التي تستخدم في هذه الأغراض ، ولم تلجئه قط الى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره وصيانته من العطب والفساد ، ولا ألجأته الى تفتيق الحيلة في ابتداع أفانين الحرب من مطاولة للحصار وتنويع للأسلحة واعتماد على أسلوب في الكر والفر غير أساليب الاحياء المحدقة به في الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى ، لأن أبناء القارة أجمعين درجوا على نمط واحد في الهجوم والدفاع واستخدام السلاح

وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنهـا المغيرون والمدافعون ، فلا حاجة بهم الى التفوق والاحتيال على مختلف المواقـع والأسلحة والأساليب •

وكل ما احتاجوا اليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهـلا ميسرا غنيا عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودها ، فاذا بقي من وراء ذلك سر يجهلونه ، أو محذور يتقونه ، فهنالـك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته اذا صدقوه وأطاعوه ، ومن ثم عاشوا حياتهم كلها وقضوا عصور التاريخ وما قبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة الى العيش • وبين القتال والجلاد ، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم (١) ولزموا هـذه الحالة أعواما بعد أعوام وأحقابا بعد أحقاب ، بغير حاجة الى التبديل أو التجديد •

فالأمم التي عرفت الهندسة والفلـك والعمارة والكيميـاء وأدوات البذخ والرفاهة انما عرفتها لانها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها • ولو عاشت في القارة الافريقيـة كما عـاش الزنوج لاهملتها ولم تفكر فيها ، ولو أن الزنوج بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها أولئك الأقوام لاخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم بغير فارق كبير في جوهر الأمور •

أما الطب ومداواة الأمراض فكل ما حذقه الانسان الفطري بمعزل عن الأمور الأخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه ، ولـم تفتهم خاصة لازمة لهم من خواص العشب والنبات ، أو خواص الايحاء والتأثير بالعقيدة والتنويم •

ونحن لا نعني بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الأجنـاس معدوم أو قريب التحصيل والاستدراك ، ولكننا نعني أنه يرجع الى أسباب تجوز عليهم كما تجوز على غيرهم ، فهم وسائر البشر في أصولها سواء •

---

(١) الطلسم بالفتح : خطوط وأعداد يزعم كاتبها أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى وهو ضرب من السحر •

ولو نظرنا الى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الأدبية فحصلوه وأجادوه لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأوا محمودا في مجال الآداب والعلوم ، فقد نبغ منهم في العربية شعراء معدودون من طراز عنترة وسحيم عبد بني الحسحاس ونصيب والأغربة المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب ، وبين غزلهم والأغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلة قريبة لا تصعب النقلة فيها ، ولكن الطبقة الفنية ــ والنفسية ــ التي ارتفعوا اليها في ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التي قضوها في المعيشة الآبدة لا تحجبهم عن الظرف الاجتماعي اذا وجدوا السبيل اليه ، وما أحسب شاعرا من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع هذه الأبيات التي نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد السقام من قمر ... كل جمال لوجهه تبع
ما يرتجي؟خاب! من محاسنها ... أما له في القباح متسع ؟
غير من لونها وصفرها ... فارتد فيه الجمال والبدع
لو كان يبغي الفداء قلت له ... ها أنا دون الحبيب يا وجع

ففي هذه الأبيات من روح الفكاهة ودعابة الظرف والفطنة الى محاسن الملاحة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل ٠

ويبدو لنا أن فوارق الادراك لم تضلل العقول في أمر الجنس الأسود كما ضللها ذلك اللون الماثل للنظر قبل مثول الفوارق العقلية والخلقية للبصائر والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لا هوادة فيها ، وانطلق النخاسون (١) في طريق البحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم الى بلاد العرب وما بين النهرين كما يحملونهم الى مصر واليونان والرومان ، ولم تكد الدنيا الجديدة تنكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذا السباء الذي بدأت به أقدم الأمم من ألوف السنين ٠ ولعل فضائل هذا الجنس ــ وفي مقدمتها الوفاء والصبر والقناعة ــ كانت أسرع من نقائضه في الجناية عليه ، ولهذا

(١) النخاس : تاجر العبيد ٠

تمادى النخاسون في نقل السود الى أمريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر الى أوروبا بعد سنوات قليلة ، لاخفاق التجربة وضياع الأمل في صلاح هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد ·

وخلاصة ما يقال في تاريخ الجنس الأسود أنه جنس قديم معرق في القدم يوغل في أصوله الى ما قبل التاريخ بزمن بعيد ·

وأنه جنس قد وقف به النماء عند حدود الفطرة الأولى لأن معيشته في القارة الافريقية لم تلجئه الى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيطة للمستقبل البعيد ، ولكنه عرف كثيرا من الفضائل والملكات التي توائمه في بيئته المستقرة ، لأنه عرف النضال والمرح والايمان · فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم · واستنبط الفنون التي توافق مرحه وايمانه بالمجهول ·

وكأنما اتفقت عليه منذ القدم عوادي الاجحاف ولم يسعده حظه بباعث واحد من بواعث الانصاف والرعاية ، فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وغرابة المظهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفا يسيرا للقناصين والنخاسين الذين يحفزهم الطمع ولا يزعهم عنه وازع من وشائج العطف أو زواجر الأخلاق ·

ومضى العهد به على ذلك عصورا طوالا بعد عصور طوال الى عصرنا هذا الذي نحن فيه · فقامت الثورات بعد الثورات باسم الانسان وحقوقه ، واشتعلت في الكرة الأرضية حربان عالميتان في النصف الأول من هذا القرن العشرين ولا تزال الكلمة الباقية التي تقال لانصافه وحماية حوزته أكبر وألزم من الكلمة التي قالتها الحضارة الحديثة الى الآن ·

ففي هذه السنة التي نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجماعات التي تشتغل بالتبشير في الجزر البريطانية ووجه الى العالم نداء شديدا أهاب فيه بأمم الحضارة الى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود في المستعمرات البريطانية ، وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي ترجو معه « أن تنجز الأمم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الألوان والعناصر في فرص التعليم والحياة » ·

ولا تزال الفوارق الجنسية قائمة في الولايات المتحدة على تعدد الدعوات فيها الى المساواة والاعراض عن المزاعم العنصرية التي روجها خصوم الدولة الأمريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، ففي الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والأوامر الحكومية ، ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة ولا النزول معهم في الخانات والفنادق ، ولا تعليم أبنائهم في المدارس التي يتعلم فيها أبناء البيض ، ولما صدر القانون الذي يخول الطفل الأسود حقا في التعليم كحق الطفل الأبيض مع انفصال المدارس والجامعات ــ تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لا حقيقة ، وأن التلميذ الأبيض يكلف الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالا في السنة ولا تزيد كلفة التلميذ الأسود فيها على تسعة عشر ريالا على الرغم من نص القانون ، وتبين أن الفارق في ولاية مسيسيبي يتجاوز ذلك كثيرا لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالا ولا تزيد نفقة الطفل الاسود على سبعة ريالات ونصف ريال ·

وقد ألغي في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة بين البيض والسود ، ولكن هذه التفرقة ما تزال قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لا يقل في صرامة عن صرامة القانون ، فلا يرى الأسود نازلا بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالسا في مطعم من المطاعم الفاخرة ، وان كان من أصحاب الثراء ·

وابطاء الحضارة الغربية كل هذا الابطاء في تقرير مبدأ الانصاف ــ فضلا عن تنفيذه ــ هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الاسلامية في هذا المضمار الانساني المتوعر المهجور من قديم الدهور ، فانها قد خلصت الى أدب الانصاف والمساواة بين بني الانسان منذ أربعة عشر قرنا بغير ما حافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق ، بل خلصت اليه على

كره من تلك المصالح وعلى رغم من تلك العادات ، واجترأت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع ، ولا يحسب الدين دينا ما لم يكن له سلطان روحي يغلبه على طغيان المصالح والشهوات •

وقد كان هذا السلطان الروحي هو السلطان الذي أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الاسلامية بين قبائل البادية العربية ، واشتمل على بلال بن رباح صاحب هذه السيرة ، وهو مولى ضعيف غريب في أرض الحجاز ، كما اشتمل على أبي بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة وأقطاب قريش •

والذي يعنينا في هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصة أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال •

وليس الملتقى بينها بعسير •

فمن مجمل الصفات المتواترة التي وصف بها بلال يتراءى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التي أجملناها في هذه الصفحات •

ولا نحب أن نقول ان الذي يتصف بتلك الصفات لن يكون حتما لزاما الا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة ، فلا يزال من الجائز جدا أن يكون بلال على تلك الصفة ــ فيما عدا اللون ــ ولا يكون من القبائل الافريقية السوداء ، ولكن الذي يقال ولا يتجاوز حد الصحة في المقال أنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات ، ولا داعية عندنا الآن لتقدير تلك المصادفات •

فلو لم يكن بلال أسود الاهاب لكانت في صفاته النفسية علامات لا تستغرب في الأجناس السوداء • لأنها من خصائصها المميزة التي تبرز فيها عند مراقبتها على الاجمال ، ومنها حب الايقاع الموسيقي وسليقة الايمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولي منه على مكان الثقة والاعجاب •

ولكن الجنس الأسود لا يحتويه كله على ما يظهر من بعض صفاته الجسدية فيما عدا لون السواد ، فلم يوصف بالفطس (١) ولا بغلظ الشفتين ولا بالشعر المتقبض المتصوف الذي خص به الزنوج ،

والذين يشاهدون على هذا التكوين بين أمم افريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام ، وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منها على التخصيص ، لأن رحلات العرب الى سواحل افريقية الشرقية قديمة قبل الاسلام بزمن بعيد ·

ومن علماء الأجناس من يربط بين جلة الأحباش وجلة العرب ـ ولا سيما اليمانية ـ برباط وثيق ، لأن عبور أهل اليمن الى الحبشة وعبور أهل الحبشة الى اليمن ميسران معهودان من أقدم العصور ·

وقد قيل في تاريخ بلال انه من الموالي المولدين بمكة أو بالسراة اليمانية ، فأصدق ما يقال فيه أنه من سلالة زنجية سامية ، وأنه على أقرب ما يكون الزنج من خلائق العرب أو المستعربين ·



---

(١) الفراش الانف في الوجه ·

العرب والأجناس

ألممنا في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العنصر وفوارق الأجناس ، فأيا كان قول العلم في هذه العصبية العنصرية ـ أو الجنسية ـ فالقول الذي لا ريب فيه أن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبسان في بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية ، والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة في الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب . وقد تتفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادى في آن وهي جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا في مصر مفاخرة كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الاسكندرية ، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاهة الى الجد في عامة أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الانجليزية أو

الفرنسية أو الايطالية أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد ولو من أرومة (١) واحدة •

وقد تتجاوز العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية ، ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية الى العداء العنصري كلما اندفعت الى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأتى لاحداها بغير القضاء على الأخرى أو اذلالها ، ويستحكم العداء بينها على الزمن اذا تداولت بينها الذحول (٢) والغارات ، فلا يهمها المغنم يومئذ كما يهمها الثأر والانتقام •

والعرب قد عاشت في جزيرتها بمأمن من سطوة جيرانها الا في أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الابادة والاستئصال •

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهم مكانهم • فوجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود •

وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة املاء لا اختيار لهم فيه •

فقد كان جيرانهم الفرس والرم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فاذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم ، وكساء أنفس من كسائهم ، وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا الى فخرهم الذي يملكونه ولا يهابون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض •

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لا حساب عندها للحسب العريق •

---

(١) أصل • (٢) جمع ذحل بالفتح وهو الثأر •

وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون • فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد (١) في الخصومة الدموية ، ونقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديث مستطرفات في هذا الصدد هي أقرب الى مساجلات الأدباء في موقف الدعابة منها الى المنازعات التي تسفك فيها الدماء •

ان فخر الروم والفرس ببياض الألوان قال العرب : تلك وجوه مقشرة !

وان فخر الروم والفرس بالخوان الحافل فخر عليهم العرب بالجود وبذل الموجود •

وساجلوا وسوجلوا في هذا المجال فأثبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق •

لكنهم لم يعرفوا قط عداء العنصر أو عداء الجنس كما عرفه البيض والحمر في القارة الأمريكية ، أو كما عرفه الأوروبيون والأصلاء في القارة الاسترالية ، أو كما عرفه السلافيون والتيوتون في أوروبا الشرقية ، أو كما عرفه الاسرائيليون والكنعانيون ، أو عرفه المغاربة والاسبان في زمن من الأزمان •

واذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربي فآخر شيء يتبادر الى الذهن أنهم يقصدون عداء الألوان والأجناس ، أو يخصون اللون الاسود بذلك الازدراء أو ذلك العداء •

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرة تضرب شديدا الى السواد ، وكان من سادتهم من وصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالاهاب الخشن والبشرة الفاحمة •

فاذا قالوا « العبد » فهم لا يقصدون الزنجي ولا يخصون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك اساره ، وكل جليب يباع ويشرى في الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه •

---

(١) شدة الخصومة •

ويقصدون على الأخص كل انسان مجهول النسب لا ينتمي الى أصل من أصولهم المشهورة ••• اذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مفخرة النسب وقد فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة مئات السنين •

فلا يزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ، ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعلة اجتماعية لا لعلة عنصرية، وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس •

وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج من القارة الافريقية الى فرضات (١) البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة في ذلك الحين ، فشجر بين الزنج والعرب يومئذ عداء يشبه عداء الأجناس في عصوره الحديثة والقديمة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التي نشهدها اليوم أو توصف لنا في التواريخ ، ولكنها كانت غاشية (٢) عابرة لسبب عابر ، فذهب أثرها بعد ذهابها بسنوات •

أما في غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة في بوادي الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربي يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها اذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة، وربما كان له عبد يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات المحرم منه ، ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداء الجنس أو بغضاء اللون ، بل يمنعه عرف اجتماعي توجد له النظائر في كل عرف يدور حول الزواج ، ولو بين الأقرباء •

وعلينا أن نحترس كثيرا من نسبة كل عبد أسود يذكر في أيام العرب الى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون في علم الأجناس • فلعله أن يكون ساميا عبر الى افريقية كما عبر الاثيوبيون ،

---

(١) جمع فرضة : المدينة الواقعة على شاطيء البحر •

(٢) الغاشية : الداهية ، والقيامة •

ولعله أن يكون خلاسيا(١)من الساميين والحاميين• ويغلب على الظن أن بلالا ــ صاحب السيرة في هذا الكتاب ــ كان حاميا حبشيا ولم يكن زنجيا خالصا من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال الفطس ولا الشعر الصوفي « المفلفل » اللذين يميزان معا سلالة حام •

وقد كان بلال من أضنك العبيد حالا قبل الاسلام ، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية• ظلما للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد ، فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالا من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون الى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة • فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار ، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قوة كما تنكره لانه ينقض شريعة المساواة •

وقد تكفل الاسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة ، وينكر ظلم الاجحاف والمحاباة •

فحق له أن يلبي دعوته ، وأن يدعو اليه •



(١) الخلاسي بالكسر : الولد بين أبوين أبيض وأسود •

الرق في الاسلام

كان الايمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الحرية الانسانية ، أو طريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الايمان بالروح يعلم الانسان التبعة ، وأن « كل نفس بما كسبت رهينة » ، وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحي الى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الايمان بالروح سابقا للرق لامتنع الاعتراف به في الأديان التي تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الانسان بيع السلع الصماء لا يوافق الايمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلا عن الايمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذي يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الانساني بآلاف السنين ، وكان الرق في تلك الأحقاب الطوال قد امتزج بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم في العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذيب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخر الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقابلها وجها لوجه في معظم الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفسهم أنفة تعزف (١) بهم عن هذه المنزلة التي فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ومن

(١) عزفت النفس عن الشيء انصرفت عنه وملته بعد أن كانت معجبة به .

كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب ٠

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بد من التوفيق بين عقيدة الروح واباحة بيع الانسان وشرائه كما تباع الآلات ٠

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد بجسده حر بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد قد يرتفع الى مراتب القديسين ٠

وكتب القديس بولس الى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالاخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ٠ وكان الحواري (٢) بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ٠ وجاءت الكنيسة فاقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة في المناشير والعظات ، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح ٠ فاستند الى أقوال رسل المسيحية كما استند الى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الاعمال ، ولم ير في نظام الرق شيئا يعاب ، فما دام في الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش في كفالة سواه ٠ وتبعه تلميذه الناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة بأبخس المنازل أمرا سائغا لا غضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضون الحياة ٠٠٠ وقد واجه الرق بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذي لا يناقض الخطة المثلى في آداب الديانة وفضائل السلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصدقا من أسر الضرورات وتقييد بعض الحركات ببعض في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين ٠

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان ـ حتى ما يؤذي منه ولا يفيد ـ قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معاملة الأرقاء ، فان أناسا من براهمة الهند

---

(٢) نصير النبي وتلميذه ٠

كانوا يضربون الذلة على العبيد المعروفين باسم السودرا ، لأنهم خلقوا من أسفل أعضاء الآلة فلا تبرحهم وصمة الذل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على اغضاب سادته أن يسل لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من الناس •

وكانت الحضارة تلطف من هذه القسوة بعض التلطيف ، فتجري العادة أحيانا في الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجواري وتخويلهم بعض حقوق المساواة • فكان المصريون الأقدمون يجيزون معاملة الاماء كما تعامل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق في غير جريرة ، ويلزمون الرجل في موقف الحلساب بعد الموت أن يبرىء ذمته من ايذاء العبيد والاساءة اليهم ، ويجعلون هذا الابراء جوازا لا مناص منه الى حظيرة الأرباب •

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيرا ما كانوا يؤدون في مصر عمل اجراء ان لم يكن عمل العبيد • فجنحت بهم الرغبة والقدوة الى انصاف الأرقاء والأحلاس (١) ، وأنكروا الارهاق كما أنكروا الضرب والايذاء في معاملة الأجراء •

وقال هيرودوت ان الفرس في زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون للسيد أن يقتل عبده أو يعذبه اذا أذنب مرة بعد أخرى • وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له في الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى اليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسري (١) واقتناء الزوجات من الاماء ، ووافق ذلك معيشة الحضارة في المدن الكبيرة وقلة الحاجة الى ارهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة • ولعلهم قد استفادوا أيضا من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين •

---

(١) جمع حلس بكسر الحاء أو فتحها وفتح اللام : الكبير من الناس •
(١) اتخاذ السراري أي الجواري •

ولم تسلم أمة قط من اقرار نظام الرق وازدراء العبيد على اختلاف عناصر الأمم وأجناسها ·

فما قيل عن فضل أمم الشمال الأوروبية على أمم الجنوب كافة في هذه المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لان أمم الشمال لم تخل من نظام الرق سموا في الأخلاق أو تفردا بالصفات الانسانية التي تدعي للشماليين في الزمن الأخير ، ولكنها خلت من نظام الرق ، لان اقتناء الأرقاء في تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحط عنها ، فهي فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق ، وهي مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال ·

ما زال الرقيق محروما من المساواة الانسانية الى هذا اليوم في الأمم الاوروبية والامريكية · وكانت القوانين الى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات اذا هربوا من الأسر أو أغلظوا لمواليهم في الكلام ، ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاه ارهاقا أو تعذيبا عقاب منصوص عليه ·

تلك كانت حالة الرقيق جملة في القرون الأولى وفي القرون الحديثة ، وقبل ظهور الأديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الاديان ·

ومن الأسباب التي تذكر لتحسين أحوال الأرقاء ومنع الاتجار بهم في العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التي تستخدم العمال الأحرار في الصناعة وتبذل لهم أجرا لا يطمع العبيد السود في مثله ، وكان اقتناء العبيد يضير أولئك العمال الأحرار في الوقت الذي عرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحاب الأموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء ·

ومهما يكن الرأي في حقيقة هذه الأسباب فهي مما يدخل في التقدير عند بيان فضل الاسلام وسبقه للحضارة الحديثة الى أرفع الآداب وأكرمها في مسألة الرق ومعاملة الأرقاء ·

فلم تكن معاملة الأرقاء على الوجه الذي أمر به الاسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة ابقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الارقاء لاعمال

المعيشة والسخرة ، ويفرغ الاحرار لاعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال ان الاسلام تهيب النظام القائم في المجتمعات القديمة كما تهيبتها الأديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجها لوجه في معظم الاحوال ، ولم تأخذ بأيدي العبيد الا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وتزجيه اليهم من العزاء المنظور في الدار الآخرة .

فلا يقال ان الاسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الأسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان دينا يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الايمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان ... فان الواقع أن أديانا « روحية » كثيرة قد وفقت بين الأمرين على نحو من التوفيق .

ولا يقال ان الاسلام قد جاء بآداب الرفق بالرقيق بعد ذهاب الحاجة الى تسخير الأرقاء وتبدل الأحوال الاقتصادية في مجتمعات المشرق والمغرب ... فان الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة في البلاد الشرقية والغربية الى زمن يذكره الأحياء . ولا تزال قائمة حتى اليوم في بعض الأنحاء .

فانما هو اذن فضل خالص من علل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية ، وانما هو نصر صريح في عالم الروح يحسب للدين الاسلامي وحده بين سائر الأديان .

كان في وسع الدعوة الاسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربي وفي العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — في حينها — اغضاء معيبا تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من المسائل الناطقة التي يؤول السكوت عنها بالاغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الاسلامية لم تكن تخسر شيئا لو أنها أهملت مسألة الرق في أول ظهورها ، لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها في اعتاق العبيد والاماء، كلما ساءت حالهم عند سادتهم بدخولهم في دين الاسلام . وكان أبو قحافة يمثل الرأي الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصديق بذل المال الكثير في سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث الى النظر في انصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال ٠

وقد تبدل نظام الرق على يد الاسلام في أوسع نطاق للتبديل، أو على أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل في أمثال هذه الأنظمة الاجتماعية ، لأنه عمد الى أساس التفرقة بين الاجناس والاقوام فمحاه أو عفى عليه ٠ وعلم الناس أن المؤمنين اخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ، وألقى اليهم في الأحاديث القدسية أن « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبدا حبشيا والنار لمن عصاني ولو كان شريفا قرشيا » ـ أو كما قال ٠

وحصر الرق مع هذا في سبب واحد من أسباب الاسترقاق ، وهو الأسر في ميادين الحروب ، فلا يملك الرجل أو المرأة بالنخاسة والاختطاف ، ولا يعد من العبيد الا من وقع أسيرا في ميدان القتال الى أن يفدي نفسه أو يفديه من يفديه ٠

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الاسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة اليه ، ولا يزال الأسر مشروعا والفداء واجبا ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء ، ولا يقع في العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستئسار مقبولين في شرعة المتحاربين ٠

ولم تنته عناية الاسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره في هذا السبب الوحيد من أسباب الاسترقاق ، بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو المن وهو الاعتاق بغير فداء : « فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » ٠

وأوجب على المسلم أن يقبل من الأسير تنجيم (١) فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ٠٠٠ » ٠

---

(١) تقسيط ٠

وقد جعل الاعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين ، كما فرض الصدقات واطعام المساكين ، وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « ... وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » . وتكررت منه عليه السلام أحاديث في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الأحاديث : « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وتجاوز الاشفاق على الأرقاء من سوء المعاملة الى الاشفاق عليهم من الكلمة الجارحة ، فكان عليه السلام يقول : « لا يقل أحدكم عبدي ، أمتى . وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق، أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » ، فاذا قتله فهو يقتل به في قول أشهر الفقهاء .

وقد فضل الاسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرة المشركة ، وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه زيدا وزوجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته ، وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده واليا على جيش الشام وهو دون العشرين ، وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سماحة هذه الوصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس الى آداب ذلك العصر ، والى آداب جميع العصور ، فكان يؤاكلهم ويلبي دعوتهم الى الطعام ويقول للمسلمين : « هم اخوانكم

وخولكم (١) جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » ·

وأكرم ما قال في هذا الباب ـ وكله كريم ـ · « انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » ·

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها من فيض الآداب العلوية الرفيعة ، ولم يكن شيء منها قط من املاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح الاقتصادية ، بل هي ولا شك قد تقررت على الرغم من ضرورات الاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت غالبة في تلك الآونة على الجزيرة العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور ·

وهي لم تتقرر ـ بالبداهة ـ دفعة واحدة في مستهل الدعوة الاسلامية ، ولا تقررت كلها أو بعضها قبل اسلام بلال وزملائه من الموالي والاماء فقد تتابعت الأحكام الاسلامية في معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين المسلمين والمشركين ، وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك الفريقين ·

فمن الخطأ أن يقال ان أحكام الرقيق هي التي جلبت الى الاسلام من دخل فيه من الموالي والاماء ، أو انهم سيقوا الى الدخول فيه طلبا لراحة الجسد وهربا من مظالم السادة ومتاعب التسخير ·

ان يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في اقبال بلال وزملائه على الاسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة النبي عليه السلام لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منتم اليه · ولم يكن سرا مجهولا بينهم أن النبي عليه السلام أحسن الى مولاه زيد بن حارثة فأنساه أباه وذويه، وجاءه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة الى أحضان أهله فآثر صحبة النبي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي ظلال وطنه الذي فارقه مكرها منذ سنين ·

---

(١) الخول بفتحتين من الرجل الذين يملك أمورهم كالعبيد والاماء والاتباع ·

فهذا المثال الرفيع قد كان له ولا ريب أثره البالغ في تحبيب الاسلام ونبي الاسلام الى الأرقاء وغير الأرقاء ·

ولكن طلب الاسلام عند أولئك الأرقاء لم يكن طلبا لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة ·

فاننا لا نعرف في تواريخ العقائد الدينية أن أحدا يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش ، ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة في عهدها الأول وهي مقدمة على المغامرة والجهاد تتطلب الضحايا وتفرض على الأتباع ألوان الفداء ·

وفي حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الاسلام راحة لهم ولا انتقالا من جانب الخطر الى جانب السلامة والأمان ، بل كان على نقيض ذلك انتقالا من جانب السلامة والأمان الى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم دافع · لأن العربي يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله الا في قتال صريح بعد يأس من الوفاق ، ولا حاجة الى قتال صريح أو غير صريح لاهدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه ، وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه واعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة ·

كذلك لم يكن طلب الاسلام عند هؤلاء الأرقاء طلبا للنقلة من رق ثقيل الى رق خفيف ، أو من سيد قاس الى سيد رحيم · لأن الاسلام في مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من ربقة (١) الأسر عند سادتهم الأقوياء ، ولم يكن العتق جزاء موعودا لمن يغضب سيده المشرك ويرضى النبي عليه السلام بالدخول في دينه ، فانما جاء العتق مصادفة واتفاقا بعد تشديد العذاب على أولئك الضعفاء المساكين · وقد كان العذاب يقينا لا شك فيه ، ولم تكن النجاة الا وعدا مأمولا لم تبد تباشيره للعيان ·

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل ايمان العبيد والاماء بأحكام الاسلام في معاملة الأرقاء ، أو بالطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فانما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة

(١) الربقة : عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة او يدها تمسكها ·

الاسلامية بزمن طويل ، وانما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ (١) عن دين مولاه ، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، ان سلمت له الحياة ٠

وما زالت العقائد أكرم على ضمير الانسان من هذه المساومات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، وما زال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البغية منها ، وتهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد ٠

وآية ذلك أنه لم يؤمن انسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه ٠

انه ليساوم في سوق التجارة على الغنيمة التي تخصه دون غيره ، ولكنه اذا آمن بعقيدة من العقائد التي تتناول الحياة والموت فلا بد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولا بد من الأمل العام الذي يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد ٠

وبلال حين آمن بالاسلام قد آمن حقا بالدين الذي ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التي ترضي الكرامة الانسانية لا على سنة المساومة والمصافقة (١) ، أو هو قد آمن به انسانا كما آمن به السادة الأحرار القادرون على شراء العبيد والاماء ٠

وأقل ما يقال في تعليل اسلامه أنه اعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وأنه ايثار للخير الكبير على الخير الصغير ، وأنه استقامة طبع تهتدي الى الصراط المستقيم ٠ وأنه شوق الى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق الى الرفاهة التي تريح الأجساد ٠

ومما لا شك فيه أن ارضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب الى أولئك العبيد والاماء من كل راحة يرجونها بعد الدخول في الدين الجديد ، أيا ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرجاء ، في أجل قريب أو بعيد ٠

---

(١) صبأ : ترك دينه واعتنق دينا آخر ٠

(١) بيع الواحد وشراء الآخر ٠

وقد غيرت القرون على وصايا الاسلام بالرقيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الأوامر أو النواهي التي تشرعها العقائد والأديان ٠

ولكنها ، سواء روعيت أو خولفت ، قد كانت كسبا عمليا له أثر من النفع الواقع في تاريخ بني الانسان ، وقد بقي لها هذا الأثر الى أن بطل الأسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه ، وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الازمان ٠

فبعد وصايا الاسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه أوروبا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال ، نزل بمصر فوج من الأسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ، ووزعهم الولاة على بيوت السراة (١) وذوي الثراء في القاهرة والاسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الأسرى الى بلادهم واعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه ، فآثروا البقاء جميعا في البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير أربعمائة أو دون ذاك ، كما جاء في بيان المندوب الانجليزي الذي نيط به تنفيذ تلك الشروط ٠

ومهما يقل القائلون في تعليل ذلك الايثار ، فالأمر الذي لا ينكر في هذا المقام ولا ينسى أن أولئك الجند الأوروبيين الذين أسروا وهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الاسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء ٠

فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان الفضائل المثالية في نشأتها الأولى ، وقد ينشدها المؤمنون بها حبا للمثال الأعلى وطموحا الى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك أن توزن بالميزان وتشخص للعيان ٠

---

(١) جمع سري وهو السيد في قومه ٠

نشأة بلال

اتفقت الأقوال على أن بلالا كان من أبناء الحبشة المولدين .
وجاء في وصفه أنه رضي الله عنه كان « آدم شديد الأدمة (١) نحيفا طوالا أجنأ ـ أي فيه انحناء ـ كثير الشعر خفيف العارضين » ٠

وهي أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع خلوصه من فطس الأنف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من السلالتين ٠ وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شينا على عادة السود ، فنفى الثقات هذا الزعم وأكد نفيهم أنه كان يقيم الأذان وفيه السين والصاد ٠

ويختلف في مولده فيقال انه ولد في مكة ، ويقال انه ولد في السراة ، وربما رجح القول الأخير لأن السراة أقرب الى اليمن والحبشة ، ولأن بلالا رضي الله عنه رجع اليها حين فكر في الزواج ٠

وأرجح الأقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث وأربعين سنة ، ثم تختلف الأقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين ٠

وأبوه وأمه معروفان : أبوه يدعى رباحا وأمه تدعى حمامة، وكان ينبز (١) بابن السوداء اذا غضب منه غاضب ٠ ولعل أمه

---

(١) أسمر ٠

(١) نبزه : لقبه بلقب سيء ٠

كانت من اماء السراة أو اماء مكة ، اذا صح أنه لم يولد بالسراة ٠

ويحسب بعض الافرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة ، وأنه من ثم أسرع الى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام برسالة التوحيد ، وهو حسبان جائز ولكنه بعيد ، لأن الأحباش في ذلك الزمن انما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب الى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب ٠

ويذكر لبلال أخ يسمى خالدا ويكنى بأبي رويحة ، والأغلب في الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الاسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التي سنها النبي عليه السلام ٠ وقيل ان له أختا تسمى غفرة هي مولاة عمر بن عبد الله مولى غفرة المحدث المصري ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما روي من أخباره ٠

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جمح من بطون قريش المشهورة ٠

وفي بني جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذني النبي (ص) ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم ٠٠٠ ولا يدري أمن محض المصادفة ان كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بني جمح أم كان لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء ؟ وانما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الأزلام (١) والأيسار (٢) في الجاهلية ، وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بني عبد مناف خلاف قديم ٠

واذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور في بغضه لعبادة الجاهلية واقباله على الاسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسرار الأزلام والأيسار وما يلزمها أحيانا من الغش والتلبيس ، وأن القوم فيهم مجافاة (٣) عن الرحمة والنزعة

---

(١) جمع الزلم بفتحتين : قدح لا ريش عليه ٠ والازلام في الجاهلية قداح كانوا يستقسمون بها ٠ (٢) أجزاء الجزور الذي يقتسم للمقامرة في الجاهلية ٠ (٣) بعد ٠

الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف ـ جد النبي عليه السلام ـ منذ القطيعة الأولى بين الأحزاب القرشية ، وخليق بأمثال هؤلاء ألا يألفهم الضعفاء ·

ولم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء · فقيل انه كان عند عقيلة من عقائلهم ، وقيل انه كان عند أيتام لأبي جهل ، وقيل انه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده ، واتفقت الأقوال على أن الصديق رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم اياه لدخوله في الاسلام · فاشتراه بخمس أواق من الذهب ، وقيل بسبع أواق ، وقيل بتسع أواق · وزعموا أن سيده أراد أن ينغص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت الا أوقية لبعناك !فقال له الصديق:لو أبيتم الا مائة لاشتريته ··!! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ، وهي رواية يشك فيها كثيرا · لأن الصديق لم يكن ليسلم المشركين رجلا من أتباعه ليستنقذ به رجلا غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضي الله عنه أنه اشتراه بأمر النبي عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له : لقد أعتقته يا رسول الله · وعمل بعد ذلك خازنا له ، ثم خازنا للنبي ، ومؤذنا للمسلمين بعد اقامة الأذان ·

واستراح بلال بعد عتقه من ايذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من ايذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر · فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنت ومساءة ، واشتدوا في ذلك حتى هموا بقتل النبي عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكي بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها · فأشفق النبي الكريم على صحبه وأذن لهم في الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر الى المدينة على ايثار منه للبقاء في مكة · فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصديق الى المدينة كانت

« أوبأ أرض الله من الحمى » ولكنها أرحم بهم من جيرة المشركين في مكة • ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال في بيت واحد فأصيبوا جميعا بالحمى ـ ولعلها « الملاريا » كما رجحنا في غير هذا الكتاب ـ فكان بلال اذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته (١) يترنم بصوته الجهوري قائلا :

ألا ليت شعري هـل أبيتن ليلـة
بفخ وحولـي اذخـر وجليـل
وهـل أردن يوما ميـاه مجنـة
وهل يبدون لي شامـة وطفيـل

وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالا قد لقي عند تلك المواطن والمنابت قسوة في جاهليته وتعذيبا في اسلامه وخطرا على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الايمان الأول ، فهي حبيبة اليه ، أثيرة لديه ، وان لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها الى غيرها •

وقد لزم بلال النبي والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك • وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه حظ الأذان الاول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان • ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حضرة النبي حتى قبض عليه السلام ، وميز بالتقدم عليهم لتقدمه في الاسلام ولجهارة صوته وحسن أدائه ، وان كان تقدمه في الاسلام هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم •

كان اذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة يا رسول الله • فاذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ في الاقامة •

---

(١) معناها في الاصل : الساق المقطوعة ، ورفع فلان عقيرته أي صوته •

وقيل في خصائص أذانه انه كـان يؤذن حـين تدحض (١) الشمس ويؤخر الاقامة قليلا • أو ربما أخرها قليلا ، ولكـن لا يخرج في الأذان عن الوقت • وربما ترنم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاء لحاله وطلبا للتوبة والرحمة من الله • ومن ذاك أنه سمع وهو يقول :

ما لبـلال ثكلته أمه وابتل من نضح دم جبينه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بنـاء المصلى أنه كان يحمل العنزة (١) بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العنزة احدى عنزات ثلاث أهداها نجاشي الحبشة الى النبي عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلا من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالا بحمل العنزة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل انه كان يمشي بها بين يدي الصديق في خلافته ثم جعل سعـد القرظ يمشي بها بين يدي عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العنزة التي احتفظ بها الولاة يمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء •

وقد آخى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار ، فآخى بين بلال وخالد أبي رويحة الخثعمي ، وقيل بينه وبين أبـي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو بين أبي عبيدة الجراح ، وهو على ما يظهر لبس (٢) في الأسماء ، والاول هو الأرجـح لبقاء الصلة بين بلال وأبي رويحة الى أن فرقت بينهما الوفاة •

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له : يا بلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله • وكان يقول له : عش فقيرا يا بلال ومت مع الفقراء • وربما

---

(١) دحضت الشمس زالت الى جهة الغرب •

(١) العنزة بفتحتين : شبه عكـازة لهـا زج في طرفهـا الاسفـل •

(٢) اللبس : الاشكال والاختلاط والاشتباه •

عهد اليه في تفريق ما يفضل من المال عنده وقال له : انظر حتى تريحني منه • فيرى بلال القدوة في سيده ونبيه فاذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة •

وقد أرى النبي عليه السلام أنه سمع دف (١) نعلي بلال بين يديه في الجنة ، فسأله بعد الصلاة : يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة ، فاني سمعت الليلة دف نعليك بين يدي في الجنة ••• فلم يذكر بلال زهده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه ، بل قال : « ما عملت عملا في الاسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهورا تاما في ساعة من ليل أو نهار الا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي » •

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المربي الكبير للرجل تتمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل • ويحب للطف محضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه ، وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب والسلم والاقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارسا يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين ، وانما كان يصطحبه في اقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح الى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه • وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد وحيث لا يريد ، فاذا اشتد الهجير (١) في رحلة من الرحلات أسرع الى تظليله بثياب الوشي والنبي لا يسأله ذلك ، واذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم (٢) يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يفرقهما موقف ضنك (٣) ولا موقف خطر ، ولم ينقض يوم الا جمعتهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، ما لم يكن في غيبة قصيرة لشأن من شئون الدين الذي لم يكن له شأن سواه •

---

(١) الدف : السير اللين •

(١) حر الظهيرة • (٢) الادم : الجلد • (٣) ضيق •

ولما فتحت مكة أمره النبي عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه • ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة هم : عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها ، وأسامة بن زيد ابن النبي بالتبني ، وبلال •

وما زال يصحب النبي مجاهدا حتى قبض عليه السلام ، فأقام الأذان بعد وفاته أياما على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الاباء ، لأنه كان اذا قال في الأذان « أشهد أن محمدا رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعد لا يصحبه ولا يراه ، وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وآثر الجهاد على فرط حاجته الى الراحة في عشرة الستين ، واتفقت أرجح الأقوال على أنه استعفى الصديق من الأذان معه واستأذنه في الخروج الى الشام مع المجاهدين • فأذن له بعد الحاح منه ، واشترك في معارك لا نعلمها على التفصيل ، ثم سكن الى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك الا يوم أذن للخليفة الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين، ويوم تصدى لمحاسبة خالد في مجلس الحكم بين يدي أبي عبيدة •

وأدركته الوفاة في نحو السبعين ــ لأنه كان ترب (١) الصديق على أرجح الأقوال ــ وقيل انه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة أو احدى وعشرين • واستعذب الموت لأنه سيجمع بينه وبين النبي وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعول الى جانبه وتصيح صيحة الوله : واحزناه فيجيبها في كل مرة بل وافرحاه • غدا نلقى الأحبة محمدا وصحبه •

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضي الله عنه معروف يزار •

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذن لهم في دمشق بعد

---

(١) الترب بكسر التاء المولود مع الآخر في وقت واحد •

انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال · بكى عمر وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت (١) اللحى البيض واضطربت الانفاس التي لا تضطرب في مقام الروع · ولو بدا لهم أنهم يستمعون الى صوت آدمي ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولا تولاهم ما نولاهم يومئذ من الوجد والرهبة ، ولكنهم أنصتوا لوحي الغيب حين أصغوا اليه ، وقام في أفئدتهم أنه صوت جدير بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونة من الزمان · فهم اذن في عليين أو أقرب من عليين ، وهم اذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في جواره ، وهم اذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الالهي فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة في عالم الأرواح وآفاق السماء ·

رحم الله بلالا ، انه كان داعي السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها · وقد رفعهم في ذلك اليوم الى الأفق الاعلى ، الى الحضرة التي ترتجف فيها الاجساد لأنها غريبة في ذلك الجوار ·

وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال حيث كان · فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوي الى كفالة النبي في حياته البيتية كما كان يأوي اليه في حياته الدينية · وأن أحدا من الصحابة لم يكن يذكرهم بالنبي عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون اليه ، وقد شغل النبي بمعيشته في بيته كما شغل بعتقه ورزقه وتقويم دينه ، ففي روايات مختلفة أنه تزوج بوصية منه عليه السلام ، وفي احدى هذه الروايات « أن بني أبي البكير جاءوا الى الرسول (ص) فقالوا · زوج أختنا فلانا · فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا يا رسول الله أنكح أختنا فلانا ، فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : أين أنتم عن بلال ؟ أين أنتم عنه رجل من أهل الجنة · فأنكحوه » ·

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء في رواية قتادة أنه تزوج أعرابية من بني زهرة ، وجاء في رواية أخرى أن له زوجة تدعى هندا الخولانية ، وهي من خولان اليمن لا من خولان الشام ، لأنها كانت معه قبل هجرته الى الشام ·

ذكره ابن اسحاق فيمن حضر بدرا فقال : وبلال مولى أبي بكر · مولد من مولدي بني جمح اشتراه أبو بكر من أمية بن خلف ، وهو بلال بن رباح لا عقب له ·

نعم ولكنه أعقب الميراث الذي يتصل بالأذان في كل مكان ··· فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به الى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال ·

* * *

صفات بلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة ·

وآية ذلك أنه كان كما ينبغي أن يكون كل رجل قوي الطبع من بني جلدته وفي مثل نشأته ، يمر بالحوادث التي مر بها ويمارس التجارب التي مارسها ·

وقد تقدم في صفات الموالي الافريقيين أنهم ينقمون الاساءة على المسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن اليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه ·

وهكذا كان بلال رضي الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفا بأجمل صفات بني جلدته ، وهي : الأمانة ، والطاعة ، والولاء ، والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدىء في قسوته ولا بالمكابر في عناده · انما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الاصرار على الايمان بالصواب ·

قال ابن الرومي :

اذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع

من البذر فيها فهي ناهيك من أرض

لأننا نفهم أن ينسى الرجل ايمانه في سبيل مصلحته فنقول ان المصلحة عزيزة عليه ، وان الايمان ضعيف في نفسه ·

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته في سبيل ايمانه الا على وجه واحد ، وهو أن الايمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزت أو هانت هي شيء غير الايمان ·

ولا يقال ان مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية · فان تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه ايمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال ·

ومع هذا وجد في زمامنا هذا أناس ـ كأتباع كارل ماركس ـ يؤمنون بالمادة وينكرون كل شيء غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون ان الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيك بضمير الانسان ان هي الا صورة من حياته المادية التي لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنفي ويجازف بالحياة ويفقدها في سبيل ايمانه بمعتقده وانكاره لمعتقد الآخرين ··· وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح الى الطعام الهنيء والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتي بعده من ينعم بالطعام الهنيء والعيش الرغيد وهو تحت التراب · فاذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة، أو مسألة مصلحة كبيرة بازاء مصلحة صغيرة ، ولكنه انما يفعل ذلك لأنه بازاء قوة تمضي به حيث شاءت ولا يمضي بها حيث شاء ، أو لأنه في حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الارقام بازاء الارقام ·

وقد شوهدت في الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي خلو من ايمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي قائمة على منفعة تخص صاحبها ولا تتجاوزه الى الآخرين · ومتى تجاوزت المنفعة فردا واحدا وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين ـ فهي اذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد ·

فالايمان أبدا هو شعور بالحق وليس شعورا بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة في سبيل العقيدة قبل الايمان بها ، لأن المصلحة موجودة والايمان غير موجود . ولكنهما متى وجدتا معا فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبدا شيئين من معدنين مختلفين وان تلاقيا في الطريق الى مدى بعيد .

وان اسلام بلال رضي الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه الحقيقة في الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام في معاملة الأرقاء . ولكننا عنينا مع ذلك بأن نبين حقيقة أخرى لا بد من تبيينها في هذا المقام ، وهي أن المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الأرقاء في الاسلام ، وانما هو « الحق » والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولو لقي الأرقاء في سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والاماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار . خديجة وأبو بكر وعلي وعمر وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الاسلام : أما أبو بكر فمنعه الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم انسان الا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام ، الا بلالا فانه هانت عليه نفسه في الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء في طبقات ابن سعد باسناده ما فحواه : أنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ...

وكانوا اذا اشتدوا عليه في العذاب قال : أحد . أحد . فيقولون له قل كما نقول . فيقول : ان لساني لا يحسنه .

وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من البطحاء (١) وأنطاع (٢) الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد • أحد • فأتى عليه أبو بكر فسألهم : علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه •

ومما جاء في الطبقات أن أبا جهل جاءهم بالعشي فجعل يشتم سمية ويرفث (٣) ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد في الاسلام • وهانت على بلال نفسه في الله حتى ملوه فجعلوا في عنقه حبلا ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي (٤) مكة فلم يزدهم على كلمته التي كان يرددها ولا يمل من تردادها : أحد • أحد •

« وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية في وقد الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم الى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » •

هذه صورة بلال رضي الله عنه في مبدأ اسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الاسلام الى الوعود ــ فضلا عن تحقيق الوعود ــ في معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام في معاملة الأسرى والارقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين •

وان آخر ظن يخطر على بال المرء اذ يرى بلالا على تلك الصورة المؤلمة أنه يرى أمامه رجلا وازن بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الاسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها •

لأن اسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن سوء معاملتهم اياه قبل الاسلام شيئا يذكر الى جانب ذلك العذاب الأليم الذي كان يسامه بعد اسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لانتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب

---

(١) مسيل واسع فيه دقاق الحصى • (٢) جمع نطع وهو البساط من الجلد • (٣) الرفث : الفحش من القول • (٤) الاخشب الجبل العظيم الخشن والاخشبان جبلا مكة أبو قبيس والاحمر •

المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالاسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل الى دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد ٠

وأعجب شيء أن يخطر للعقل أن الاسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميهم الأنفة أن يدخلوه ، وقد دخله الاحرار كما دخله العبيد في مبدأ التبشير بالدين الجديد ٠

فان كانت لبلال وصهيب وأمثالهما مصلحة في الايمان بذلك الدين لأنه يسوي بينهم وبين أبي بكر وحمزة وعثمان وعلي والفاروق فما مصلحة هؤلاء في النزول بأقدارهم الى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحمية التي تشمخ برءوسهم على رءوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم في العزة والجاه !

فمن الحق وسكينته في النفوس فلنبحث في تعليل الايمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة انسانية فوق مصالح الأفراد ، وانما يوجد الايمان حين يوجد للنفس حق محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت في سبيل حب الحق وكراهة الباطل كل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل في الجزاء ٠

فلا العبيد آمنوا لأن الاسلام يسوي بينهم وبين الأحرار ، ولا الاحرار آمنوا لان الاسلام يسوي بينهم وبين العبيد ٠ لأن قصارى هذه التسوية أنها مصلحة لفريق من الناس ، وما زال الايمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين ٠ فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصة قليلة من حياته ، أما الايمان فهو أبدا شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة ٠

أولم يوجد في الوثنية وفي بعض الأديان الكتابية أناس يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون أن الارباب تفرق بين أقدارهم وأقدار سادتهم في الحياة وبعد الممات ؟

أولم يكن بلال يؤمن باللات والعزي وغيرهما من أرباب

الجاهلية وكأن لا يرجو نصفة (١) منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالاله « الاحد » هو الذي سوأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلي الاعلى هي التي تجري على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى (٢) من ألم العذاب بين يدي سادته القساة ٠

فكانت الوحدانية هي الكلمة الواحدة التي لخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور ٠ وقد ألهم هذا التخليص الصادق الوجيز الهام الايمان الذي يهدي العقل الى موقع الهدى من أوجز طريق ٠ فلو أنه كان يقول « الرحيم » في موضع « الأحد » لجاز أن يقال ان في الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة، أو لجاز أن يقال ان الرحمة بدرت اليه في تلك اللحظة لأنه يشتكي القسوة والعذاب ٠ ولكنه لما ردد كلمة الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدى الى الصفة الوحيدة التي لا يدعيها المدعون لأرباب الجاهلية ، كما هدى الى الصفة الوحيدة التي تجعل الايمان ايمانا بالحق ولا تجعله انتظارا لرحمة أو غفران أو جزاء ٠

ولا نريد أن نقول ان الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا أن نقول ان المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال ، أو انها لا شأن لها ألبتة في تحويل العقائد والعبادات ٠ فان المصلحة قد تعوق كثيرا من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الأذهان الى الاصغاء الذي يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة ألوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم ٠

ولكن الذي نقوله ان المصلحة غير الايمان وانهما قد يفترقان كما قد يتفقان ، ولو كانت المصلحة هي الايمان لوجدت المصلحة ولم تكن هنالك حاجة الى وجود ايمان على الاطلاق ٠٠٠ كفى أن يسعى الانسان الى مصلحته دون أن يجعل الايمان سبيلا اليها،

---

(١) انصافا ٠ (٢) يتحرق ٠

وكفى أن يلتزم المصلحة ولا يتعداها الى الشعور الذي يحبب اليه الموت • فأما وقد وجد الايمان في كل زمن من الأزمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لان يقال ان فردا من الأفراد قد آمن لان له مصلحة في ايمانه • فانه يضم الى المصلحة شيئا آخر اذن حين يدعمها بالايمان •

كلا • ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة في قيظ الصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من قسوة السادة ، لأن الخلاص هو كل ما يعنيه •

وليست صورته وهو يكرر « الأحد • الأحد » بصورة الرجل الذي دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين ، ولا يعرف للدين فضلا الا الرحمة بالعبيد في الأرض أو في السماء •

لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم الى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت ، ولعلهم لم يبقوا عليه الا لشحهم بثمنه أن يضيع عليهم ان قتلوه ، ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة ، ولم يقتل بلالا ولا عمارا ولا صهيبا لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون • • • ولكنهم لا شك كانوا قاتليه آخر الأمر ان يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابيء عن دين الجاهلية ، فلم يكن اسلامه سبيل رفق ولا تخفيف من عناء ، بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة •

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعا قبلوا ما سامهم المشركون أن ينبسوا (١) به — ومنهم عمار بن ياسر — لنعلم أنه كان عذابا يفوق طاقة الانسان •

ان عمارا لم يكن يهاب الموت في هرمه ، ولكنه ضاق — في صباه — بذلك العذاب الأليم •

(١) ينطقوا •

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد أناف على التسعين ، وقد شهد المغازي في عهد النبي وعهود الخلفاء ، وكان عليه السلام يقول : « ان عمارا مليء ايمانا الى مشاشه (١) » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بأبي بكر ، وعمر وأن يهتدوا بهدي عمار ، وهو أيضا لم يجذبه الى الايمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية ، وينضوي الى جانب علي ليموت تحت لوائه في صفين ، وما كان علي لو انتصر بمغدق عليه مالا ولا بمطعمه في عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف ٠

وقد كان عمار رضي الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الايمان ٠ لأن ايمانه كان ذلك الايمان الخالص الذي يوصف بأنه الايمان حبا للايمان لا حبا بما وراءه من رضا أو جزاء ٠ وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد ٠ فيقبل على الموت كراهة للبقاء في دنيا لا تواتيه على اعتقادها ٠ وليس يقبل على الموت طلبا للجنة كما يقال ، فان من المؤمنين بالعقائد المادية كما أسلفنا من يموت في سبيلها ولا أمل له في حياة بعد الحياة ، وان الجنة لحبيبة كل انسان يصدق بها ٠ فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد أن هذا يكره الجنة التي يحبها ذاك ، وانما الفرق بينهما هو قوة الايمان أو هبة العقيدة ٠ وهي قد كانت في عمار على أقوى ما تكون في انسان ٠

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى الى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبي الى أن نيف على التسعين ومات تحت لواء علي بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الأليم الذي صبر عليه « بلال » وظل صابرا عليه بغير أمل في الخلاص القريب ٠

وكل طمع في حسن المعاملة يزول ويبطل في مثل ذلك العذاب الذي ضاقت به طاقة عمار ٠

---

(١) المشاش بالضم : رؤوس العظام مثل المرفقين والركبتين ٠

نعم يزول ويبطل لولا ايمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء ٠

نعم ان العبيد كانوا أسرع من الأحرار الى دخول الدين الجديد ، ولكن الذي يفهم من ذلك ــ أو ينبغي أن يفهم منه ــ أن المصلحة لم تكن عقبة بين العبيد وبين الاصغاء الى الدعوة الجديدة ، وأن الأحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل في صدقها وبطلان ما هم عليه ، وفرق عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقا عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التي أرادها المؤمنون ، اذ لو كانت المصلحة هي المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق ، ولوجدت ، المصالح كما هي موجودة في الدنيا بغير اعتقاد على الاطلاق في شيء من الأشياء ٠

لقد كانت في نفس بلال حاجة الى الولاء والاخلاص ، فصدق النبي الكريم لانه كان أهلا لولائه واخلاصه ، وكان خليقا أن يطمئن اليه ويشعر بالسكينة في الاصغاء الى قوله والاقتداء بعمله ٠

وسمع رجلا ينادي بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين اخوة وهو في الذؤابة (١) العليا من بني هاشم أو في الذؤابة العليا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والايمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التي لا مصلحة له فيها هي البرهان الأول على صدق العقيدة ، ولولا انعدام المصلحة في دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال الى تصديقه والجنوح اليه ٠

فأما وقد جنح اليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان، ولكنها أصبحت مسألة راحة بالايمان أو راحة بغير الايمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الايمان بعد أن جنح اليه ومزجه

---

(١) الذؤابة : بالضم ضفيرة الشعر المرسلة ٠ وفلان ذؤابة قومه أي رئيسهم وسيدهم ٠

بقلبه وضميره • فصبر في أيام معدودات على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان ••• وقد صبر على بلاء الجسد لأنه مستريح القلب والضمير •

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت الى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو اليه الأحلام ويتعلق به الرجاء •

فبلغ من تعظيمه أنه كان ندا لأعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والفاروق • بل كان الفاروق رضي الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق يوما أن أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطا من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب ، فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم • وغضب أبو سفيان وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط • يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى الى الانصاف ، فقال لهم : أيها القوم ! اني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم • دعي القوم ــ الى الاسلام ــ ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم • فكيف بكم اذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » •

* * *

جمال هذا الأدب هو الذي يهون في سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الأليم ، وهو الذي يوحي العقيدة الى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات • ولقد كان هذا أدب النبي فأحبه الأحرار وأصغوا اليه وصدقوه ••• ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والاصغاء والتصديق • فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن الى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء الا قضية يحبونها وداع يصدقونه • وما يكونون يوما أحوج الى الايمان منهم يوم تعز عليهم القضية التي تحب والداعي الذي يصدق • فاذا بلغت بهم هذه الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من احدى غايات ثلاث • فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو ايمان يوجد حيث كان •

إسلام بلال

كل ايمان فهو شيء يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر في مصلحته العاجلة أو الآجلة ·

فليس بايمان ذلك الذي يخص فردا واحدا ولا يتجاوزه الى غيره في زمنه أو بعد زمنه ، وليس بايمان ذلك الذي يدور على المصلحة الفردية وان تعدد فيه الأفراد ، لأن الانسان قد يضحي بالمصلحة في سبيل الايمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها ·

وقد يضحي الانسان أحيانا بالايمان في سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينفي أن الايمان شيء أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وانما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للايمان ·

فالايمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة ·

ويكفي أن يضحي الناس بمصالحهم في سبيل ايمانهم ــ ولو في بعض الأحيان ــ لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف ·

ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها

بل العيب أن تدان دينا فلا تقضي

فالذين أساءوا الى بلال كانوا لا يحمدون أثر الاساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون

الرضا حيث طلبوه ، فاذا بهم ينحلونـه صفـاتهم ويعيبونـه بمساءتهم ، وينكرون صحبته كما ينكر صحبتهم • ومن ذاك أن مشتريا أراد أن يساوم فيه سيدته « قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته » فقالت له متعجبة : وما تصنع به ؟ انـه خبيث ••• وانه • وانه ! الى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة •

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الايمان • وأنه أبعـد مـا يكون عـن خبث أو كنود (١) ، وانما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه •

وقد كان آكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان ايمانه القوي بالله ، واخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التي ترتقي اليها محاسن بني جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء أكان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أم ولاء معجب بمن كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنـى الدنيا والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجـو في دنياه ولا بعد موته الا أن يأوي الى جواره وينعم برضاه •

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة في قرين حياتها فتصيح : واحزناه •

وكان هو يجيبها في سكرات الموت : بل وافرحتاه ! غدا نلقى الأحبة • غدا نلقى الأحبة ، محمد وصحبه •

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم الا وهي في جانب منها علاقة بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه •

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه في معظم حالاتها

---

(١) انكار المعروف •

وكانت لا تخليه من مناكفة (١) في بعض حالاتها كما يتفق أحيانا في كل عشرة بين زوجين وفي كل صلة بين انسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء الا أن تمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو اخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه ، فاستعظمت يوما ما يحدثها به رسول الله فاذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ، ثم يدع المنزل محنقا مقطبا حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حال ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها في صدقه • ويذهب معه الى بيته فيقول للمباركة : « ما حدثك عني بلال فقد صدق • بلال لا يكذب فلا تغضبي بلالا » •

فاذا المولى هانيء قرير •

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم ولا يشكون في روايته ونقله • ويروون عنه رواية اليقين في شئون الصلاة والصيام •

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار الى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد السحور والافطار فيقولون : انا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فاذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال ، وليس للشك في ضوء النهار مكان •

وقد لزمت بلالا عادة الصدق في كل كلام يبلغه المسلمين عن النبي أو يبلغه اليهم في شأن من عامة الشؤون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه في الاسلام ـ أبو رويحة ـ أن يسفر له في زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال : « أنا بلال بن رباح وهذا أخي أبو رويحة ، وهو امرؤ سوء في الخلق والدين فان شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وان شئتم أن تدعوا فدعوا ••• » •

فزوجوه وكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

---

(١) ناكف الرجل صاحبه الكلام داوله وراجعه اياه •

وقد كان من ولائه لأبي رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه اليه حين خرج الى الشام • فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : الى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : « الى أبي رويحة لا أفارقه أبدا • للأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبيني » •

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة الى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء • فكانت أخوة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله ، وكان أحب الناس اليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه •

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة ـ وهو هو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس ـ فأقامه في موضع الثقة منه وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤنته وشخصه ، واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العنزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحد من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة ، وهذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير في رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء (١) » التي قلما كان يركبها سواه عليه السلام • ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها ، وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال •

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه • فكان بلال هو الذي ذكر واجب الحنان المكلوم في ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء •

وعلى هذا الحنان في طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضمير يعرف الاصرار على الرأي كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة •

وربما كان في هذا الاصرار شيء من عناد بني جلدته أبناء

---

(١) الناقة الكريمة التي لا تجهد في حلب ولا حمل •

الحبشة المولدين وأبناء السلالة السوداء • الا أن العناد خصلة ذات لونين : أحدهما يحمد ويفيد ، وثانيهما يذم ويضير •

فالعناد في أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة ، وفي لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى ، ولم نعرف من العناد في تاريخ بلال الا أجمل اللونين وأشبههما بقوة الأسر وخلائق الأمناء •

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب أبيه ، كما تقدم في وصف اسلامه ، ومنه اصراره على ترك الأذان لغيره حين وقر في نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص في الوفاء ، وربما كان منه اصراره على الجهاد والسفر من المدينة الى الشام حين سأله الخليفة البقاء • فقال له في رواية مشهورة : « ان كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني ، وان كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب الى الله عز وجل » • وأبى الا أن يمضي حيث أراد •

ولا شك أن الرحمة بالأعداء أمر لا ينتظر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء ، فان رحمة رجل كهذا لمن أحسنوا اليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه • أما الخلق الذي يستغرب منه حقا فهو رحمته في ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط في الاساءة اليه •

ولهذا لا نستغرب ما روي عن بلال بعد وقعة خيبر وما روي عنه بعد وقعة بدر مع المشركين ، ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه •

فلما افتتح النبي حصن القبوص بخيبر جيء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها ، فأرسلهما عليه السلام مع بلال الى رحله (١) • فمر بهما بلال على القتلى من قومهما فصاحت البنت الصغيرة صياحا شديدا ولطمت وجهها • وعلم النبي بما صنع فقال له عاتبا : أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى ؟ فكان عذر بلال الذي اعتذر به في جوابه : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك • وأحببت أن ترى مصارع قومها !

---

(١) يقال : عاد المسافر الى رحله أي الى منزله •

أما في وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره في وقعة خيبر ٠

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الواقعة في صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى ، وقد كانا أشد الناس ايذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيبا من ذلك الايذاء اللئيم ٠ فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية بن خلف : لا نجوت ان نجا ٠ ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت ان نجا ٠ لا نجوت ان نجا ، حتى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعا فاذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها ٠ قال عبد الرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغنى عنك شيئا ٠ ولكن المقاتلين هبروهما (١) بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل الى الفرار ٠

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه النقمة ن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة ٠ لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين ، فما هو الا أن سمع بنذير النبي اياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي توعده بالقتل فيه ، وصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد ، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فانما أنت من النساء ٠

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طليعة الناكصين عن القتال ، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع في ميدان ٠ فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على

---

(١) قطعوهما ٠

الضعيف وهو آمن في عقر داره ، ولم يكن من لدد العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وكل ولا هياب • وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم في ساحة القصاص ، وكفى لبلال عذرا في هيجة غضبه عليه أنه يعلم انذار النبي اياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال :

هنيئا زادك الرحمن خيرا لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفي غير هذه الهيجة التي تدرك أحلم الناس في مواطن النقمة وحومة الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطري التي تبدر منه القسوة وهو لا يعنيها ، وكان في جملة أحواله مثلا للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع ، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه في صدر الاسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره ، فيطرق ويقول : انما أنا رجل كنت بالأمس عبدا ، وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية ، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه ، ولم يزد في أخباره عن النبي على ما يعنيه من اقامة الصلاة والأذان أو مواعد الافطار والصيام •

وكان بلال ابن قومه في خلقين آخرين يعرفان في بعضهم قدماء أو محدثين ، وهما : فراسة النظر ، وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد •

أرسله النبي عليه السلام مع رعية السحيمي ليرد له ابنه الذي أسره المسلمون ، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبي أن يقول : والله ما رأيت واحدا منهما مستعبرا الى صاحبه ! فقال النبي : ذاك جفاء الأعراب •

ووكل اليه النبي وهو مقبل الى وادي القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح ـ وكان الحر شديدا ، فنام حتى طلعت الشمس • ثم صلى عليه السلام بمن معه وان أحدهم ليسلت(١)

---

(١) سال وجرى •

العرق عن جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها • ثم التفت الى بلال فهتف به : مه يا بلال • فبادر بلال معتذرا وهو يقول : بأبي وأمي • قبض نفسي الذي قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام •

وانما تدل هذه السهوة ـ وان لم تتكرر ـ على ايثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبي وصحبه ، وهو حذر كان ولا شك في نفس بلال شديدا ، بل أشد من الشديد •

وآخر ما يروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء • فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات : أهي من ماله أم من مال المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب • فوثب اليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه • وسأله : ما تقوله ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالي • فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » •

ذلك آخر ما روي من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الجريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم الا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب : فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف الى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه الى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب •

كانت طاعته للمرء الذي يطاع وللأمر الذي تجب له الطاعة ، وهي طاعة القوي الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة ، فكان سيد المطيعين ، ولا يشرف الانسان ان لم يكن سيد الآمرين الا أن يكون سيد المطيعين •

الأذان

أشبه الأشياء بالدعوة الى الصلاة دعوة تكون من معدن الصلاة وتنم على صوت من أصوات الغيب المحجب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجد الاصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الانسان في الصلاة من ساعة مسراها الى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة اصغائه اليها •

دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية الى الخواطر البشرية في كل موعد من مواعد الصلاة كأنها نبأ جديد •

الله أكبر • الله أكبر •

تلك هي دعوة الأذان التي يدعو بها المسلمون الى الصلاة ، وتلك هي الدعوة الحية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا تومىء اليها ، وتلك هي الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار في الابد الابيد ، وأحوج الحقائق الى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء •

المسلم في صلاة منذ يسمعها تدعوه الى الصلاة ، لأنه يذكر بها عظمة الله وهي لب لباب الصلوات •

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعي الذي يهتف بها : « ان الصلاة خير من النوم » •

فتخرج كلها الى الحركة بعد لمحة أو لمحتين ، وتقول كلها ان الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء ، وان الصلاة خير من النوم •

واذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل

فهو وداع متجاوب الأصداء ، وكأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به في جنح المساء ، وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين الى سلام الليل وظلال الأسرار والأحلام ·

وانها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار ·

تسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة: توقظ الاجسام بالليل وتوقظ الارواح بالنهار ، فاذا هي أشبه صيا ح بسكينة ، وأقرب ضجيج الى الخروج بالانسان من ضجيج الشواغل والشهوات ·

حي على الصلاة !

حي على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الايمان هو الخسار كل الخسار ·

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنة المتبعة ، أو كما يعرف من وقعه في بدائه الأطفال وبدائه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الاسلام ·

ففي الطفولة نسمع الأذان ولا نفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء · ونؤخذ به ونحن لا ندري بم نؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد اليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم كلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار في البقية ونحيلها الى الزمن المقبل ··· ثم نقضي السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة الطفولة بأننا ما نزال حائرين ، وان سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان ·

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى اليه ·

ان أبقى هذه الأصداء في كل ذاكرة لهي صيحة الأذان الاولى التي تنبهت اليها آذان الطفولة لاول مرة ، وما تزال تبتعد في

وادي الذاكرة ثم تنثني اليه من بعض ثنياتها القريبة ، فاذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة الى ماض بعيد أو قريب ٠

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الاسلام فما يلفتهم شيء من شعائر العبادة الاسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم ٠

يقول ادوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المصريين المحدثين وعاداتهم » : ان أصوات الأذان أخاذة جدا ولا سيما في هدأة الليل ٠

ويقول جيرار دي نرفال في كتابه سياحة بالمشرق : « انني لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرني شعور من الشجو لا يوصف ٠ وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟ فقال : انه ينادي أن لا اله الا الله ٠ قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟ فقال : انه يدعو النيام قائلا : « يا من ينام توكل على الحي الذي لا ينام ٠٠٠ » ٠

وأنشأ الكاتب المتصوف «لافكاديو هيرن» Lafacadio Hearn رسالة وجيزة عن المؤذن الأول ـ أي بلال بن رباح ستأتي ترجمتها بعد هذا الفصل ـ فقال : « ان السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من احدى المنائر ، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين الى الصلاة ٠٠٠ وهو لا شك يستوعب في قلبه ـ اذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة ـ كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة ، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم ٠ وانه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود الى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق

مسجد الله الذي لا يزول • ولعله يسمع في المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنعة بالأسرار جديدة على أذنيه ، فاذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيراردي ترفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام ••• عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها « لا تأخذه سنة ولا نوم » ••• فان كان الترجمان ممن يعون طرفا من تاريخ الاسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول ــ أول من رتل الدعاء الى الصلاة ــ كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الاسلام لهذه الدعوة ، بلال بن رياح ، صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم » •

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البالغ في روع كثير من السائحين والسائحات الذين ينزلون ببلدتنا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بها في الطريق من السودان واليه •

فانهم كانوا يصلون الى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات في القاهرة والاسكندرية وربما سمعوه في غيرهما من البلدان الاسلامية ولكنه كان يفاجئهم بجدة لا تبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار ــ ولا سيما في أيام الجمعة • وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية في أذانه ؟ فكان يخيل الينا وهم يصغون اليه أنهم يتسمعون هاتفا من هواتف الغيب يطرق الأسماع في وقت رتيب ، أو يترقبون طائرا من طوائر الهجرة التي تأتي في الأوان ولكن كما يأتي كل شيء غريب •

وكان من عادات المؤذنين التي لبثوا يعيدونها في شهر رمضان الى عهد قريب أن يدقوا طبول السحور على المنائر العالية في الهزيع الأخير من الليل • فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا في تبليغ شكواهم الى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الاسلام ، فلما سأل عنها بعض مثقفيهم وقيل لهم انها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا : اننا لا نشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يزال يسري الينا في ساعة الفجر كما

يسري الحلم الجميل ، ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تدق فوق رؤوسنا ، وكنا نحتملها لو علمنا أنها شعيرة لا تبديل لها • ولكننا علمنا أنها تبدل في كل بلد اسلامي على حسب عاداته ، وأن المدن الكبرى تستبدل بها طبولا صغيرة تدق على الأبواب : فاسمحوا لنا أن نهدي الى البلد بعض هذه الطبول •

وكانت هذه الطبول مما يباع في كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة • لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان ، اما لجمع الجند ، واما لتنبيه الغافلين ، واما للتوقيع والتنغيم ، وكانت ملابس الدراويش وأسلحتهم وأدوات معيشتهم مما يبحث عنه السائحون في أسواق البلدة ، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الخفيف على أسماع النيام •

وقد كانت هذه الطبول وشيكة في بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان في دعوة المسلمين الى الصلاة •

اذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفا قبل انتشار الاسلام في مكة والمدينة ، وانما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون الى الصلاة الجامعة بالنداء الذي يسمع من قريب ، فلما صرفت القبلة الى الكعبة فكر المسلمون في دعاء الى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد •

ومن جملة الروايات التي جاءت في طبقات ابن سعد وغيرها يفهم أنهم كانوا قبل أن يؤمر بالأذان ينادي منادي النبي عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس ••• فلما صرفت القبلة الى الكعبة تذكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس ، وذكر بعضهم نارا توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأي ومنهم عبد الله بن زيد الخزرجي ••• فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك ؟ قال : لا أذوق طعاما • فاني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة ، ونام فرأى أن رجلا مر وعليه ثوبان أخضران وفي يده ناقوس • فسأله : أتبيع الناقوس؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد أن أبتاعه لكي أضرب به للصلاة لجماعة الناس • فأجابه الرجل : بل أحدثك بخير لكم من ذلك • تقول : الله أكبر • أشهد أن لا اله الا الله • أشهد أن محمدا

رسول الله • حي على الصلاة حي على الفلاح • الله أكبر • الله أكبر • لا اله الا الله • ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة •

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب الى النبي عليه السلام فقص عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فألق عليه ما قيل لك • وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبي مناما يشبه ذلك المنام • وجرى الامر في الدعوة الى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال في أذان الصبح : « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبي عليه السلام ، وبقي النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ ، أو دعوة يدعون اليها ، وان كان في غير وقت الصلاة •

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الاسلامية جمعاء ••• الا أن الشيعة يضيفون اليه : « حي على خير العمل » مع حي على الصلاة وحي على الفلاح • ويردد المالكية التكبير مرتين بدلا من أربع مرات •

ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان ما لم يخل بنطق الكلمات ومخارج الحروف • الا أن الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيعات •

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد أذان قبله ولم يسبقه الى ذلك سابق في تاريخ الاسلام ، وهو شرف عظيم • لأن محمد بن عبد الله كان امام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح •

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة أن بلالا كان محبب الصوت الى أسماع المسلمين ، وأنهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي بهم فيزيدهم هذا خشوعا لسماع صوته فوق خشوع •

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة أن رهطا من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟! وكانوا يستكبرون من رجل كائنا من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد اليه أحد في الجاهلية • فهالهم أن يروا « عبدا » يصعد اليه ويجهر بذلك النداء •

قال بعضهم للحارس بن هشام : ألا ترى الى هذا العبد أين صعد ؟ فلجأ الرجل الى حكمة المضطر وقال : « دعه ، فان يكن الله يكرهه فسيغيره » •

وكان الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوسا بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالا أن يصعد الى ظهر الكعبة فيقيم الأذان • فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيدا أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه • وقال الحارث بن هشام : أما والله وأعلم أنه محق لاتبعته ! وأنكر أبو سفيان ما سمع ، أو قيل في بعض الروايات انه جمجم قائلا : « لا أقول شيئا ، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا » •

وقبل أن نحيل هذا الانكار الى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي أن نذكر أن ذلك الوصف من المشركين كانوا خلقاء أن ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة وتجاوبت به سواجع الاطيار ، وأنهم سمعوه زعيقا « نهيقا » كما قالوا لأنهم سمعوا شيئا لا يطيقونه ولا يستريحون اليه ، وكانت بهم عنجهية (١) السادة في النظر الى العبيد ، وكان لبلال عندهم وتر (٢) معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي عليه السلام •

فاذا رددنا اعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول الى الخشوع ثم الى ذكرى النبي الحبيب ، ورددنا كره المشركين اياه الى النفرة ثم الى العنجهية والعداء • فقد بقي شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه في أجواز الفضاء ، ولا حاجة بنا الى العناء في الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول ان اختيار النبي اياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات — هو الشهادة لصوت المؤذن الأول بالسلامة من النفرة والشذوذ المعيب ، فما عهد محمد عليه السلام خاصة الا أنه كان يحمد المنظر الحسن ، وكان ينكر كل نكير ويستريح الى كل جميل •

---

(١) كبرياء • (٢) ثار •

المؤذن الأول

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوروبية في أثناء الكتابة عن تاريخ الاسلام • ولكن الذي كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا في السياسة العامة ـ كبلال بن رباح ـ جد قليل ، وبين هذا القليل الذي كتب عن بلال خاصة فصل في اللغة الانجليزية للأديب القصصي لفكاديو هيرن Lafcadio Hearn الذي عمل حينا في الصحافة الأمريكية وقضى زمانا في جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ، ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد أن قضى حياته الأدبية كلها هائما بنفحات الشرق الروحية ، سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان •

ولا شك أن ترجمة هذا الفصل الى العربية ترده الى اللغة التي هي أحق به وأولى • وتعد مناسبة نقله الى العربية سانحة كل السنوح في صدد الترجمة لبلال رضي الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه • وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الانساني والروح الشعرية والفكاهة الأدبية ، ويضيف كثيرا الى علمنا بأثر الأذان الاسلامي في نفوس الادباء الغربيين ، ولا سيما الأدباء من طراز هيرن الذين أظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم الى الري الروحاني من ينابيع أخرى غير ينابيع أمريكا وأوروبا •

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الأول » بأبيات الشاعر ادوين أرنولد Edwin Arnold التي يقول فيها مخاطبا العزة الالهية :

« لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء فجأة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكينة السماء ، لما خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الأرض وفي أغوار الماء · نعم ··· ولو ذهبت هذه وذهبت الارض معها لبقيت لك آيات في أعالي السماء أعظم وأسمى ، اذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التي تشتعل الى مطلع النهار ، وتلك الكواكب التي يعود بها الليل كل مساء ، هي يا رب « دراويشك » التي تدور في حلقة الذكر حول عرشك الوضاء » ·

ثم قال هيرن : « ان السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من احدى المنائر على المساجد الجامعة ـ قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين الى الصلاة ، وهو لا شك يستوعب في قلبه ـ اذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة ـ كل كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم · وانه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود الى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول ، ولعله يسمع في المرة الأخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنعة بالأسرار جديدة على أذنيه · فاذا سأل عنها ترجمانه ـ كما فعل جيرار دي نرفال ـ أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام ··· عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنها : « لا تأخذه سنة ولا نوم » ··· فان كان الترجمان ممن يعون طرفا من تاريخ الاسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الأول ـ أول من رتل الدعاء الى الصلاة ـ كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الاسلام لهذه

الدعوة ـ بلال بن رباح ـ صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم ٠

أما بلال هذا فكان أسود افريقيا من أبناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الاسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية وجمال النغم في ترجيع صوته ـ ذلك الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في الاسلام منذ أكثر من ألف ومائتي عام ٠

وقد رجع بلال أذانه قبل أن ترتسم في الذهن صورة المنارة الأولى ، وقبل أن يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة أن يرمق المؤذن بعينه منظرا محرما وهو يطل من على سقوف المدينة ٠

واليوم ترتفع الى السماء منائر لا عداد لها في كل موطن من مواطن الاسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة بميزان البناء فيخيل الى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمئذنة « أوجلة » التي رآها فكتور لارجو Largo في سنة ١٨٧٧ ٠

أما الكلمات التي يرددها المسلمون في أنحاء عالم الاسلام من حيث تقوم بنى القرميد التي ترتفع على قبور الصحراء الى تلك المنائر السحرية الحالمة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح « تاج محل » بالهند ـ فهي بنصها وفصها تلك الكلمات التي ترنم بها صوت بلال المكين ٠

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان : فعليه أن يحفظ القرآن ، وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وأن يكون له صوت واضح جهير ولهجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة ، ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطلب من المؤذن في صدر الدعوة المحمدية والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفي بعد ذلك ٠ وقد روى الشاعر الفارسي الأشهر مصلح الدين السعدي في كتابه « بستان الورد » غير نادرة واحدة تدل على آراء أبناء عصره فيما يرجع الى اختيار المؤذنين وقراء آي الذكر الحكيم ٠

قال في بعض تلك النوادر ان مؤذنا في سنجار تعود أن يؤدي الأذان أداء صحيحا ولكن بصوت كريه الى كل من سمعوه ، وكان

صاحب المسجد أميرا عادلا لا يسيء في عمل من أعماله • فلم يشأ أن يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه ، فقال له : يا سيدي • ان لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهم خمسة دنانير • فهل لك في عشرة دنانير تأخذها أنت على أن تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟••• فقبل الرجل عرض الأمير وغادر المدينة الى حيث شاءت له المقادير •

الا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل الى الأمير قائلا : لقد ظلمتني يا مولاي اذ قد زينت لي أن أترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير • فانهم قد عرضوا علي عشرين دينارا • حيث كنت على أن أفارقهم فأبيتها ••• فابتسم الأمير وقال : لا يخدعوك اذن •• فاني لأحسبهم معطيك خمسين دينارا أو يزيد على ذلك اذا أصررت على البقاء هناك !

وفي الكتاب نادرة أخرى لا تقل عن هذه في طرافتها ، يزيدنا فهما لها أن نذكر أن الأسلوب العربي المأثور في تلاوة القرآن يكاد يعلو على كل أسلوب معروف في التلاوات الدينية • وخلاصة النادرة أن قارئا من حفاظ الكتاب كان يجود الآيات بصوت غير جيد • فمر به رجل فطن وسأله • كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لا شيء ! قال الرجل : وفيم اذن عناؤك هذا ؟ قال : حبا لله ! قال الرجل الفطن : حبا لله اذن لا تقرأ يرحمك الله •

وبدأ بلال حياته عبدا لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن نشأته في الطفولة غير النزر اليسير • ومن وصف سير وليام موير اياه يظهر أنه كان فاحم السواد كثيف الشعر ،وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وأنه كان طويلا أجنأ كأنه الجمل،لا يروق النظر ، ولكنه شديد الأسر (١) مفتول الجسد متين الأعصاب •

وقد كان لدعوة محمد الاولى أثر عميق في قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء في ربقة العبودية بين أناس غير أهلهم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبي الى الأبوة العليا التي تكلأ الناس جميعا كما يتلقى الجريح بلسم الشفاء ، والحزين سلوة العزاء•

---

(١) القوة وشدة الخلق •

ولعل بلالا كان أول من دان بالاسلام من بني جلدته ، ولذلك قال النبي عنه انه أول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئا من تلك الخواطر الفجة التي شاعت في الحبشة باسم الديانة المسيحية في القرن الرابع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الاسلام ٠

وما هو الا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على هؤلاء العبيد ٠ فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد أن يحمي الرجل ذوي قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة ٠ فمن سفك دم عربي فهو غير آمن أن يرتد عليه أهله بالثأر وأن يستتبع ذلك حربا سجالا (١) بين العشيرتين الى زمن طويل ٠ ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الأمان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف ٠ ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم (٢) الأيدي بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ في شمس الجزيرة العربية السافعة (٣) ٠ فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهي تحت هذا العذاب الذي يضاف اليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزيمة أولئك المساكين ٠٠٠ فما زالوا واحدا بعد واحد يتفوهون بالعبارات التي كانت تملى عليهم سبا لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق ما يقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندما على ما فرط منهم في تلك المحنة النكراء ٠

ولكن النبي قد استنزل لأولئك المساكين عزاء وافيا بما ذكره القرآن عنهم ، حيث جاء فيه : « انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ٠ من كفر بالله من بعد ايمانه ، الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » ٠

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس

---

(١) الحرب السجال ما يكون فيها النصر مرة لهذا الفريق ومرة لذاك ٠
(٢) تعاور القوم الشيء تداولوه وتعاطوه ٠ (٣) اللافحة ٠

على بطاح مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثني عزيمته الحديدية ، فلم يكن له من جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه الا أن يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيرا الى وحدانية الله الذي ليس له شريك •

هذه الفترة في حياة بلال أيام دخوله في الاسلام هي التي اختارها الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للاشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « ان بلالا قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصي من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق اهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذي لا اله غيره » •

واتفق ذات يوم ـ والحبشي المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب ـ أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه •

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبي قحافة ، ويعرف في التاريخ الاسلامي باسم أبي بكر صديق النبي الحميم وزميله في ذلك الكهف الذي تقول الرواية ان العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفي اللاجئين اليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضا بالصديق أي المخلص الوفي ، وكان أبا السيدة عائشة التي قدر لها أن تقترن بالنبي وقدر لأبيها أن يخلف النبي على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان الى ذلك الحين قد أنفق كثيرا من ثروته التي تبلغ أربعين ألف درهم في شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي ساداتهم من أجل دخولهم في دين الاسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل أو نساء ، فكان أبو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله في اعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أنفقته في اعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرأون عنك عدوك ؟ وكان أبو بكر يجيبه : كلا ، يا أبت ، انما أريد بهم وجه الله •

ويقول الرواة ان هذا البذل السخي في سبيل التقوى قد

أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذي يلفق بالسلا (١) ٠

فلما شهد بلالا في ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال وأخذلته يساوم أمية بن خلف وأبي بن خلف في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير ٠

وقليلا ما كان يخطر على بال أحد من شهود تلك الصفقة ، أن يوما من الأيام سيأتي على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذي ضنا عليه بكل رحمة فلا ينالانها ٠ فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفي قلبه أن ينظر اليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الاسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير ٠

وقد كان بلال في الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقا لوجه الله ٠

وكان بلال رجلا قويا ، فلا يفهم وصفه بالهزال في قصيدة الشاعر الفارسي الا على معنى الهزال الذي توصف به الطبيعة البشرية بالقياس الى قوة الروح ٠

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية أن قال قولته في السبب الذي بعث أبا بكر الى شراء الحبشي المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ٠وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسري مسراها في البيئة التي عهدت ذلك التاجر الورع زمانا وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمدا كان ينكر ما يلغطون به ويوسع القائلين به تأنيبا وملامة ، وفي ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « والليل اذا يغشى ، والنهار اذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ٠ ان سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ، وما يغني

---

(١) لفق الثوب ضم شقة منه الى أخرى فخاطهما ٠ والسلا الجلدة التي يكون فيها الولد في بطن أمه ٠

عنه ماله اذا تردى ، ان علينا للهدى ، وان لنا للآخرة والأولى • فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها الا الأشقى ، الذي كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، الا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى » •

ومن ثم أصبح بلال خادما أمينا لمحمد « عليه السلام » وكتب له أن يسهم بنصيب في نشر دعوة الاسلام •

وتزعم بعض الروايات أن بلالا عاد بعد هجرة النبي فوقع في أسر قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها في رأي المراجع التي تعتبر حجة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وانما نلتقي ببلال مرة أخرى بعد عتقه في المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان •

ولم يكن الأذان معروفا في مستهل الدعوة الاسلامية حين كان المؤمنون فئة قليلة تقيم الى جوار نبيها ، وانما كان الأذان صيحة مسموعة ينادي بها المنادي الى الصلاة الجامعة •

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس الى مكة وكعبتها • الا أن بيت المقدس لم يزل له شأن في المأثورات الاسلامية ولم يزل عزيزا في قلوب المسلمين •

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى أن عيسى ابن مريم سيقبل عند حلول الساعة الى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم الى محراب الامام فيبهت أولئك الذين يزعمون أنهم من أتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ؟

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب ، وفحواه أن النبي حين فرغ من بناء مسجده ـ الذي يعد على زهادة بنيانه مثالا للأسلوب العربي في البناء ـ تبين على الأثر أن دعوة المسلمين الى الصلاة على النحو الذي اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين في ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذي لا غنى عنه في اقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية •

وخطر للنبي في بداءة الأمر أن يتخذ بوقا للدعوة الى الصلاة• ولكنه لم يشأ أن يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود في بعض الصلوات •

ثم خطر له أن يتخذ للدعوة ناقوسا يدق في ساعات معلومات ، ولكنهم لم يجدوا في المدينة من يصنع الناقوس المطلوب •

وانه لينوشك أن يتخذ للدعوة ناقورا من الخشب اذ سنحت فكرة الأذان لبعض الصالحين في رؤيا المنام •

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم أنه لقي على مقربة من داره ــ وهو يسري في ضوء القمر ــ رجلا طوالا في ثياب خضر بيده ناقوس جميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس • فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأي شيء تريده ؟ فقال له : انما أشتريه للنبي عليه السلام ليدعو به المسلمين الى الصلاة •

قال الرجل الطوال ــ وكأنه يزداد في مقاله طولا : كلا • بل أخبرك بما هو أصلح وأجدى • فخير من ذاك أن ينادي منــاد بالدعاء الى الصلاة من سقف المسجد كما أصنع • وانطلــق في ندائه بصوت رنان عجيب سماوي الجلال يبعث الوجل الأقدس في فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطيء افريقية العربي الى تخوم هندستان :

الله أكبر ••

الله أكبر ••

أشهد أن لا اله الا الله ••

أشهد أن محمدا رسول الله ••

حي على الصلاة ••

حي على الفلاح ••

لا اله الا الله •

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد في أذنيه، وبادر الى النبي

فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبي كما يسمع الرؤيا الصادقة التي تأتي بالهداية من الله ، وتذكر تلك الهبة الصوتية النادرة التي خص بها مولاه الوفي بلال ، فأمره أن ينادي الى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه ، وكان الليل في هزيعه الأخير ، فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وما هو الا أن طلعت بشائر النور الاولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشي الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد • فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التي تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة في المدن الاسلامية ، وكان مصعد بلال في تلك الليلة الى الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل ألف ومائتي عام •

في خلال تلك القرون جميعا لم يعرف الاسلام يوما واحدا لم ترتفع فيه صيحة الأذان الى الله •

ولا تزال نغمات الأذان تعلم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لا عداد لها • وفي المأثورات أنها ستكون علامة للساعة التي تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر ـ مسيح الديانة الاسلامية ـ فيعلن الأذان بصوت جهوري يدوي في أنحاء العالم بأسره !

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب في العالم الاسلامي بدقة يدهش لها السياح ويعجبون •

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين في استجابة داعي الصلاة حتى استخدمت أحيانا في الاضرار بهم والاغارة عليهم • فاتفق في نيسابور ـ تلك المدينة المحببة الى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار ـ أن الأذان أعلن لأول مرة غدرا وختلا للايقاع بمن يستجيبون اليه ، اذ حدث في السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيزخان ، وكان من عادة هذه الجموع التي درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمم في قسوتها وغدرها ، وهي أن يعودوا الى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع اليها من

أهلها مطمئنا الى جلاء العدو عنها،أو فيمن يقبلون على الانقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الأعلاق (١) منها • فلما عادوا الى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولي باقامة الأذان ، فأقبل اليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالمخابيء والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسي حين قال في وصف هذه الجموع : « انهم يقصدون ابادة نوع الانسان وفناء العالم ولا يقصدون الى السيادة أو الغنيمة » •

ان جو المأثورات ـ بما يحفه من الأشعة والهالات ـ ليرن فيه صوت بلال أبدا كما رن في الحلم صوت ذلك الغريب في الأكسية الخضر منبعثا من عالم فردوسي الهي مسربل بالضياء •

وليس في مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة صوت المؤذن الافريقي ، ولا أن نقوم مزاياه الموسيقية التي لا شك فيها ، ولكننا اذا صح لنا أن نستدل بما قيل في وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب الى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة ، خلافا للنغمة العربية التي تعرف بشيء من الحدة والنعومة •

ولا يعوزنا السبب لأن نشك في أن أحدا من المشهورين بين أرباب صناعة الغناء في الجاهلية كان من ذلك العنصر ـ العربي ـ الذي وصفه سائح فرنسي فقال : انه شعب صخاب ، وقد أنبأنا الدكتور بيرون Perroh في كتابه الممتع عن النساء العربيات الذي نشر بالجزائر ١٨٤٨ أن معظمهم كان عبيدا وأن جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الاجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتي عاد ـ ولا يزال لأغانيهما بقية مروية ـ فتاتين حبشيتين •

وتقول الأخبار انهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وأن فترات التاريخ العربي لم تخل من عتقاء أو خلاسيين نبغوا في الشعر أو في الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود

---

(١) جمع علق بكسر العين وهو الشيء النفيس •

ذلك الأسود الذي نظم احدى المعلقات ورويت له أغاني وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعني به عنترة بن شداد ٠

ومنهم خفاف الشاعر الفارسي ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذي لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة ثأرا لحميه الذي قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجا من غير أكفائها ٠ وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتله ٠ فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه ، وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح في قدمه وفسد جرحه فمات ٠ فقيل ان الشنفري بر بقسمه وهو قتيل ٠

ويروى عن النبي أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك اعجابا بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الفارس الشاعر لدعوته ، اذ يجنح اليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعا تحت لواء نبي يبشر بالمساواة ٠

وطوت روح الاسلام شيئا فشيئا قصيد الصحراء الجميل بألوانه الساخنة التي تشبه ألوانها ، وحرارته التي تشبه حرارة رمالها ، ووقدته التي تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغني وان كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا في القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الاسلام ، فسعيد بن مذحج الذي صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه ، كان عبدا من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب ابن الزنجي قد لقي الحظوة من أمراء كثيرين وحكام مختلفين منذ أيام عبد الملك الى أيام هشام ٠ وقد حشا يزيد الثاني فاه درا في يوم من الأيام ٠

وأبو عباد معبد ــ أمير الغناء في عصره ــ أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشي على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه اثني عشر ألف دينار جائزة واحدة ، ومشى في جنازته الوليد الثاني هو وأخوه في ثياب السواد حدادا عليه ، وكان قد مات في قصره ٠

ويبدو أن سلامة الزرقاء ــ التي بلغ ثمن القبلة منها أربعين ألف درهم ــ كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبتها من جواري المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزنا عليها ٠

والأدلة كثيرة على أن أصوات الجواري السود وأساليبهن في الغناء كان لها سحر ملحوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس في بعض الأحيان ٠ وقد قيل ان اسماعيل بن جامع أعظم المغنين في عصر الاسلام الذهبي أعطى جارية سوداء أربعة دراهم لينقل عنها نغما غريبا سمعها تترنم به وهي تحمل الجرة على رأسها ، ثم وضع في ذلك النغم دورا سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال انه لم يسمع مثله قط في جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش ٠

ويقص علينا السعدي ــ الشاعر الفارسي ــ أنباء أخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم في هذا الفن الى ما بعد صدر الاسلام ، ومن تلك الأنباء قصة رواها في كتابه بستان الورد من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان ٠

قـال :

« خرجت الى الحجاز في رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون في الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفيـة ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجل حالهم ولا يعرف نجواهم ، فلما بلغنا نخل بني هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت الى جمل صاحبنا التقي قد أخذه الصوت الساحر فالقى براكبه الى الأرض وهام في الصحراء ، فصحت بالرجل : يا هذا ! ان صوت هذا الفتى قد عمل في الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك ! » ٠

وذاك أنه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الابل الى المسير والصبر على السفر بالحان الحداء ، وقد روى جنتيوس GENTIUS معقبا على هذه الواقعة في ترجمته لبستان الورد

(أمستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « ان مؤلفا من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء ضاعت منه جميع ابله ، فجاءه عبد زنجي وساله أن يتشفع له عند مولاه في ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده اليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه • فقال له صاحب الدار : ان هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده الى أسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتا جميلا فأقمته حاديا لابلي فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام • ولكنها لم تلبث أن نفقت (١) جميعا ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط ما نالها من الاعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » •

ومن النوادر التي تروى في هذا المعنى وتدل على شأن الحداة في المشرق ـ نادرة حكاها جلال الدين في تاريخه ، حيث قال ان المنصور أجاز سالما الحادي بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك أن يسقط عن جمله ، فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازني بعشرة آلاف ! » •

فمما لا شك فيه أن المغنين في الجاهلية وفي الصدر الأول من الاسلام كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين ، وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوي الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم في الصناعات الموسيقية ، فلا داعي للشك في ملكة الغناء عند بلال ، ولا في قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح ••• ويبقى أن ننظر هل هو الذي أبدع لحن الأذان الذي مضى عليه المؤذنون من بعده ، أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحي اليه •

وعلينا أن نذكر « أولا » أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفي الا في الفرط النادر ، وغاية ما بلغوه في هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغني أو على هوى السامعين • فتعاد الكلمة الواحدة

---

(١) ماتت •

مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى ليستغرق القاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات •

ولا تزال هذه النزعة في الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون PERRON حين سأل : أي سائح في مصر لم يسمع كلمة يا ليل تعاد مرة بعد مرة نصف ساعة أو تزيد ؟

والأغلب أن الأنغام العربية لم تكن لتزيد في عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهي ما يسمى بالنغم البسيط ويغنى به في مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء •

وما يسمى بالنغم المركب ، وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالخفيف وهو يستخف السامع الى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار •

ولما كان بلال عبدا ، وكان ولا ريب في بعض أوقاته يسوق الابل ، فقد كان على الأرجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه ـ بسليقته الافريقية التي طبع عليها أبناء جلدته ـ ربما وجد من وقته متسعا لترديد الأصوات المركبة ، واستطاع من ثم أن يلقي الأذان في ألحانه المعروفة •

فلا يخفى أن النغم الذي يسمع في المنام قلما يثبت في الذاكرة، وأن النغم الذي سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجري على لسانه وهو يقص رؤيته على النبي (صلوات الله عليه) •

فلا يبعد اذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذي أوحته اليه سليقته الافريقية الآبدة (١) فأقره النبي عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك الى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » •

ولا جرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذي كان يقربه اليه ويسأله الرأي في مهمات الأمور • وقد كان يؤثره على غيره

---

(١) الكلمة الغريبة والقافية الشاردة •

من المؤذنين ، فلم يكن يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو الى الصلاة وبلال قادر على الدعاء اليها ٠

ولزم بلال النبي عن كثب (١) طوال حياته ، فكان يوقظ النبي بعد الأذان أحيانا بآية من الآيات ، أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى ٠ فاذا اجتمع المصلون بالمسجد اتجهت الأنظار نحو الافريقي الواقف بالصف الاول ليتلوه في حركات الصلاة ، فان من واجب المؤذن بعد اعلان الأذان أن يصحب الامام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف في الصلاة المسيحية ٠

ولما تعاظمت قوة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت اليه أمور أهم وأكبر من الأذان ، فكان خازن بيت النبي وأمينه على المال الذي يصل الى يديه ، وتلقى من النبي مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة في موكبه الظافر ، وكان هو الذي أقام الأذان على أعلى مكان في تلك البنية التي اشتهرت الآن في أنحـاء الكرة الأرضية ، وكان هو الداعي الى الصلاة يوم حضر الى المدينـة ملوك حضرموت للدخول في الاسلام ، وكان هو الذي يدعو الى الصلاة حين يحتشد فرسان الاسلام بالصحراء لقتـال عابـدي الأوثان ٠

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن اليه لا حاجة بنا في هذا المقام الى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبي يوم ذهب معه في حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشي الى جانبه مظللا اياه بستار في يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله في تلك الرحلة قد عبر في الوادي المقدس تلك الأماكن التي كان سادات قريش يعذبونه هو في حر شمسها ٠

ثم توفي محمد « عليه السلام » فسكت الصوت العجيب ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين الى الصلاة ، لأن بلالا عاهد نفسه ألا يؤذن لامام بعد نبيه ووليه ٠

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال في صحبة أبي بكر بالمدينة،

(١) عن كثب : عن قرب ٠

ولكنه ولا ريب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلالة القدر في أنظارهم ما خوله أن يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود ، وهي رعاية عظمى بين قوم لا يزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار ، أي الخلص من النسب الخليط ٠

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالا قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الأول ٠ فلما أراد الخليفة العادل الصارم في عدله ــ عمر بن الخطاب ــ أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذي نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين ٠

ولكننا لا نسمع بعد هذه القصة عن بلال الا القليل ، حتى وصل عمر الى الشام فنعلم أنه كان يصحب الجيش ، وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال ٠

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبي في رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه في معارك الاسلام الاولى ٠ ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذي تقدمه في المعيشة ، فزالت أو كادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التي درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الآسيوي لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر اليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه ٠

وفي خلال ذلك كانت العقيدة التي تعذب بلال من أجلها ودان بها زمنا وهي لا تتجاوز حي أبي طالب ــ قد جاوزت البرور والبحار الى سورية وفلسطين وفارس وشهدها قبل أن يسلم روحه الى ذلك الذي لا ينام ، وهي تسلك سبيلها الى القارة الافريقية فتضمها الى فتوح الاسلام ٠ وبهذا أصبحت دعوته الأولى ــ دعوة الأذان ــ مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم الهند الى شواطيء الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء العربية أبواب

كابل ··· ولعل ولدا من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تمتد على بقاع الأرض مسيرة مائتي يوم بين المشرق والمغرب · وان ما بلغته الفتوح الاسلامية ــ حتى في السنة الثانية عشرة للهجرة ــ لخليق أن يستجيش في صدر الشيخ الهرم حمية الدين التي عمر بها ما بين جانحيه ·

سكت صوت بلال عن ترديد الاذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى في حسبانه التقي أن الصوت الذي أسمع نبي الله ودعاه الى بيت الصلاة لا ينبغي أن يسمع بعد فراق مولاه · ولنا ان نتخيله في مأواه بالشام وانه ليدعى مرارا الى ترديد ذلك الدعاء الذي أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وأنه ليضطر مرارا الى الاباء والاعتذار لأولئك الذين كانــوا يجلونه اجــلال القديسين وبودهــم لو بذلــوا أموالهم كلهــا ليسمعوه ·

الا أنه لما ذهب عمر الى دمشق توسل اليه رؤساء القوم أن يسأل بلالا اقامة الأذان تكريما لمحضر امير المؤمنين ، فرضي بلال وكان أذانه الأخير ·

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد في تلك الايام غيرة يوشك ألا تعرف الحدود ، ومن المحقق ان النبا الذي سرى بينهم مبشرا باستماعهم الى أذان بلال قد أذكى في نفوس اهل المدينة الوردية الشذى حمية مفرحة لا نظن أن العالم المسيحي قد شهد لها مثيلا في غير أيام الصليبيين ·

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المــؤذن النبوي لاح للأكثرين ولا شك أن الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد تضارع الظفر بسماع صوت النبــي عليــه السلام ··· وأنها أفخر أحدوثة في الحياة تروى بعد السنــين الطوال للأبناء والأحفاد · وقد يكون في المدينة من تلقى النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا في صمت وخشوع واجفي (١) القلوب مرهفي الآذان

---

(١) وجف : اضطرب ·

لسماع « التكبيرة » المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من أن يلم به النسيان • وتزكي روايات العيان هـذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار في تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنة الصوت الجهوري تشق حجاب السكون وتتعاقب مـن حنجرة الشيخ الافريقي بتلـك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكـى عمر ومن معه وتحـدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين ، وارتفع لزفراتهم نشيج عال غطى في المسجد على دعاء الأذان الاخير •

أي فنان موسيقي أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بـلال في ذلـك الأذان ، وأن يسمـع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟!

* * *

ولا حاجة بنا الى أن نقول انها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام ، لم يكن معروفا يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل الى جيل غير تعليق الذاكرة ، فليس في وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقي أو بما تبدل مـن تلحين بلال للأذان • ولكننا نرجع الى الظن وقد يغني في هـذا الباب • ولدينا من الأسباب ما يكفي لترجيح بقاء الأصـوات نيفا وألف سنة محفوظة في الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضا من النغمات العبرية بقيت بهذه الوسيلة مـن أيام سليمان ، وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح لأنغام الأذان فرصة للبقاء في الذاكرة كالفرصة التي سنحت لأناشيد اسرائيل •

فمن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الاقل نغمات مشابهة للنغمات التي ابتدأ بها بلال ، اذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل •

ولعل مصر التي فتحت وبلال بقيد الحياة ـ مصر بلد الخلود الذي لا يقبل التبديل ـ قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية • وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال •

ويرضينا أن نعتقد أن بلالا نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villotea : وهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم الى أجزاء وأجزاء مما يقع موقع الغرابة في تأثيره على مسامع الغربيين •

وقد كان المؤذن الذي سمعه فيلوتو أقرب الى التفنن من المؤذن الذي سجل لين Lane نغماته في كتابه عن المصريين المحدثين فاذا بها تنتهي وفي السمع انتظار لبقية تالية ••• ولعلنا نؤثر أن يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من تجزئة النغم التي يألفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة في الأصداء الافريقية • الا أن النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحي الى معنى العبادة الخالدة التي لا نهاية لها والتي هي أبدا في ابتداء بغير ختام ، كما يوحي الى الصلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هي آخر صلاة •

* * *

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا ـ مترجمة من الانجليزية عن الكاتب الألمعي لفكاديو هيرن ـ يتبين للقارىء منزعه الأدبي في الكتابة والتصوير • وهو على الأغلب منزع الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التي تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الاجمال ، وهو مع تحقيقه في مراجعة المصادر التي اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لا يعيبها سوء النية الذي تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وانما يوقعه في الخطأ حب المجاز أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغني هذا المقال الممتع الذي حيا به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله ما يحتاج الى التصحيح أو الاستدراك •

فمن هفواته العرضية اشارته الى عقب بلال رضي الله عنه ، وليس له عقب كما ورد في ابن هشام نصا ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات في كل ما قرأناه عنه •

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخا لبلال من أبويه أو من أحدهما ، وهو على أرجح الأقوال أخوه في الاسلام على سنة المؤاخاة التي كان النبي (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين •

الا أن هفوته الظاهرة هي مذهبه في تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالي في بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء ، فانه يجنح في كلامه الى تعليل هذه الكثرة بنقص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة الفنية عند العربي الاصيل ، وأن الموالي والجواري من السود والأحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء في الحجاز ثم في غيره من الأقطار الاسلامية •

وظاهر أن هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم وندائهم كما سمعوا قبل الاسلام فلا نجدهم قاصرين في الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في حرارة الصوت وقوته الى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لا تليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى الى عمل النساء منها الى عمل الرجال • وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم أن يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتي الصيف والشتاء ، وكثيرا ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضربا آخر من ضروب القتال •

وتوارثوا هذا الاعتقاد الى ما بعد أيام الدولة الاسلامية ، فكان الغناء مقصورا على الموالي والجواري أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه ، وعنهم أخذ الأوروبيون هذه العادة وعمموها في أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل ارسال الشعر وطلاء الوجه شائعا بينهم الى زمن قريب ، بعد أن نقلوه من الأندلس ونقله الأندلسيون عن أهل الصناعة في مدن الحجاز

فكثرة المغنين بين الموالي والجواري انما ترجع الى هذه العلة ، لا الى عجز الأداة الصوتية في العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لا ينكرونها ، وهي الحداء والنصيب (١) وما اليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت الانساني في العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم في البادية مع القمراء فكانت أصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء ، وهي في الغناء أعسر مكان على امتلاء ·

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب مع هذا للأذان لأنه عرف قبل ذلك في أفانين الغناء ، ولعله رعى الابل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الاسلام أو بعد الاسلام ، فانما عرفت جهار صوته في الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبي عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار ·

---

(١) النصيب عند العرب ضرب من الغناء وهو ما أحكم من النشيد وأقيم لحنه ·

الفهرس

★ ★ ★

الموضوع	صفحة
تقديم	٥
كلمة تصدير	١٢
مسألة العنصر	١٣
العرب والاجناس	٤٧
الرق في الاسلام	٥٢
نشأة بلال	٦٣
صفات بلال	٧٢
اسلام بلال	٨٢
الأذان	٩٠
المؤذن الأول	٩٧
تعقيب	١١٧

معاوية

ابن أبي سفيان



عباس محمود العقاد

معاوية
ابن أبي سفيان

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع
مؤسسها شريف عبد الرحمن الأنصاري
صيدا - تلفون: ٧٢١٦١٢ - ٧٢٠٣١٧
بيروت - تلفون: ٢٣٧٥٤٥
ص.ب بيروت: ٨٣٥٥ - ص.ب صيدا: ٢٢١
تلكس: LE ٢٠٤٣٧ SCS

تقـــديم

العقاد أديب ومفكر ، واسع الأفق ، جم المعرفة والاطلاع ، غزير الانتاج ، لم يدع فنا من فنون الأدب الا ضرب فيه بسهم وافر ، بحيث يمكن القول ان مجموعة كتبه ومؤلفاته التي وضعها منذ شبابه حتى شيخوخته تؤلف مكتبة جامعة فيها من أفانين الفكر والبحث والدراسة ما يزود القارىء بزاد ثمين من فرائد الأدب والعلم والفلسفة قل أن يزود بها القارئين ومحبي الاطلاع كاتب في أي عصر من العصور ٠

هذا مع الاشارة الى أن ليس له في فن القصة الا قصة « سارة »، ولكنه حلق في سماء الشعر تحليقا حمل بعض الأدباء ومتذوقي الشعر ونقاده على أن ينزلوه أسمى منزلة بين الشعراء المبدعين وان أخذ عليه بعضهم أن شعره يدعو قارئه الى اعمال العقل والفكر أكثر مما يثير فيه العاطفة أو يحرك فيه الوجدان ٠

وليس في هذا ما يحط من قدره كشاعر مجيد ، فقد نسب القدماء أبا تمام والمتنبي ، وهما من فحول شعراء العرب ، الى الحكمة ، وكادوا يبعدونهما عن مضمار الشعر ، وميدان العواطف واثارتها ٠

ولعل أعظم ما يسترعي النظر ويدعو الى الاعجاب من كتبه ومؤلفاته تلك التي تناول فيها بعض الأعلام من العرب وغيرهم ، كسيرة ابن الرومي ، وأبي نواس ، وبشار ، وجيتي الألماني ، وغاندي الهندي وغيرهم ٠

وقد بلغ الذروة في سلسلة « عبقرياته » وسير عظماء الاسلام التي شرح فيها سر عظمتهم ، وعناصر شخصياتهم ، ومآثرهم الخالدة التي كان لها أعظم الأثر في بيئتهم وجيلهم وفي ما تلاه من الأجيال ٠ كل ذلك بأسلوب فيه من الأسلوب العلمي رصانته

ودقته ، ومن الأسلوب الأدبي جماله وايجازه غير المخل ، وحرارة اندفاعه في التوضيح والتبيين ما يأسر اللب ، ويستهوي القلوب ، وتستريح له النفوس المتعطشة لمعرفة الحقائق الخالصة من كل شائبة ٠

ولم يتوان عن سرد الحسنات الماثلة في أعمالهم وأقوالهم ، والناجمة عن احتكاكهم بالناس عامتهم وخاصتهم ، كما لم يتهيب من ذكر ما وقعوا فيه من سيئات وأخطأ ، ان كانت هناك سيئات وأخطاء ، مبينا بالبرهان القاطع أنها نتيجة طبيعية لما جبلوا عليه في أصل خلقتهم ومزاجهم ونشأتهم وبيئتهم والسلالة التي انحدروا منها ٠

وعند انعام النظر في ما ألفه من سير العظماء نلاحظ أنه انما يرمي الى تصوير بطولة العظيم ، وابراز مزاياه وخصائصه التي تفرد بها لا الى سرد تاريخ حياته وما مر به من أحداث بل الى تدوين مواقفه ازاء تلك الأحداث وانعكاساتها على صفحات نفسه ووجدانه ٠ فهو ملتزم بخطة التحليل والتعليل ، فيبحث جادا في كشف أغوار العناصر الأساسية لنفسية العظيم ، ثم يعرض لأحداث حياته ، فيستمد من تلك العناصر جميع الأسباب والبواعث التي حددت موقفه وسلوكه في مختلف الأحوال ٠

ومما يسترعي النظر في سيرة لجوؤه الى المقارنة والموازنة بين عظيمين في مواقف وأحداث بعينها ، فيستخدم طريقته التي نوهنا بها في التحليل والتعليل ، ويرد في تؤدة واحكام ، وتدقيق منقطع النظير ، وحجة لا يسع العقل الا التسليم بها ، موقف كل عظيم الى ما قرره في تحليله وتعليله من مزايا ذلك العظيم ومزاجه وطوايا نفسه ٠ من ذلك ما ذكره عن موقف كل من أبي بكر وعمر من الايمان برسالة النبي الكريم ٠ فقد كان أبو بكر معجبا بمحمد النبي ، وعمر كان معجبا بالنبي محمد ، أي أن حب أبي

بكر لشخص محمد هو الذي هداه الى الايمان بنبوته ، وتصديق دعوته ، وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له والحرص على سنته وعلى رضاه • ولهذا كان أبو بكر صاحبا آمن بصاحبه الذي يطمئن اليه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدوا رده الاقتناع الى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه •

وقد قارن ووازن كذلك بين عظيمين اشتهرا بالدهاء وهما معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ، فقال في سيرة عمرو بن العاص : « ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية كما قال مرة وهما يتساءلان عن العقل •• قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت في شيء قط الا خرجت منه • فقال معاوية : لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه •

كل منهما بدهائه أشبه : عمرو في اقتحام الطموح المغامر ، ومعاوية في تؤدة المستقر الواثق ، وعمرو في دفعة العبقرية ، ومعاوية في روية التدبير الطويل » •

وهكذا يلاحظ القاريء مثل هذه المقارنات والموازنات في سائر « عبقرياته » وسير العظماء الذين تناولهم بالبحث والدراسة •

ولا يسعنا الا أن نتقدم بخالص الشكر الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لاقدامه على اعادة الطبع لآثار العقاد العظيم التي يجدر بالمثقف العربي الاطلاع عليها ، ودراستها ، لما تنطوي عليه من جلائل الفكر ، وجولات واسعة في عالم الأدب والعلم والفلسفة ، واشادة بالعظماء الذين هم منارة رشد ، ومشعال هداية للأجيال •

م•ل



تقديــر وتصديــر

التاريخ عرض الانسانية ..

والعرض مناط[1] الحمد والذم فى الانسان ..

وكذلك التاريخ بالقياس الى الانسانية فى جملتها ، لا يكون شيئا ان لم يكن تقديرا لما هو صادق أو كاذب ، أو ما هو صواب أو خطأ ، وما هو حميد أو ذميم ، من الحوادث والناس

وقد نذكر الحوادث توسعا فى التعبير ، فان الحوادث لا تعنينا لذاتها ان لم يكن معناها تقويما لأعمال وقياما بأعمال ، أو لم يكن معناها فى صيغة أخرى تعريفا بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه ..

وكل شىء فى الحياة الانسانية هين اذا هان الخلل فى موازين الانسانية

وانها لأهون من ذلك اذا جاوز الأمر الخلل الى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض

يهون كل شىء اذا هانت موازين الانسانية ، لأن موازين الانسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال

ومن هوان الموازين الانسانية أن يختل كل هذا ، فلا يوثق بمحصول الانسانية كافة فى تاريخها القديم والحديث

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى .. بل تختل وتنعكس ، فيوضع فيها الذم موضع الحمد ، والكذب موضع الصدق ، والخداع موضع الاخلاص والايمان ..

وقد هان عرض انسان واحد يشتريه المال أو الغرض فى حياته ، فماذا يقال فى عرض الانسانية الذى يشترى فى الحياة وبعد الممات ، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلازمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيال على صفحات

---

(١) مناط : الموضع الذي تعلق به الاشياء .

التاريخ !..

ذلك أفدح مصاب تصاب به الانسانية : انه مصاب فى عرضها ، فى صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها . فى موازينها وحسب . وما من شيء يعتز به الانسان لا يدخل فى هذه الموازين

وأوجب واجب على الانسان لضميره أن يحمى نفسه من شر هـذا المصاب الفادح ، وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ فى حاضره ومستقبله . فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث ، ولكنه بلاء الزيغ[1] فى البصر والبصيرة ، وعلينا نحن أن نصحح البصر اذا زاغ لأنه نقص وعيب وان لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل . وكذلك نصحح زيغ البصيرة لأنه نقص وعيب ، أو لأنه تشويه فى سواء الخلقة ، وان لم يعجل منه الضرر ولم تذهب به المنفعة ..

***

ان تاريخ الانسانية من أوائلها الى حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير وصدق القياس لما عملوه

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء ، لأنه استطاع أن يحشو بعض بطون أو بعض الجيوب ، فيملك ـ بهذه الرشوة الرخيصة ـ خير ما تؤتيه الانسانية أحدا من أبنائها فى الحياة وبعد الممات

على أن الموازين الانسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها ، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة ، ذهابا مع الأجر العاجل والعطاء المعروف

بل تصاب هذه الموازين من النهازين أو « الوصوليين » المطبوعين كما تصاب من النهازين المصنوعين أو المصطنعين

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة ، وان لم يكن هوصاحب المنفعة ولا حاضرا لها عند انتفاع المنتفعين بها

من الناس من يحب ذلك لأنه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها اذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة

(١) الزيغ : زاغ البصر : كلّ . وزاغ الرجل : مال عن الاستقامة والقصد .

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع لأنه يتمنى أن ينجح على مثالهم ولا ينكر النجاح اذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء ، لأنه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولا يقدر على التماس المعذرة لها فى نقيصتها ، أو فى طبيعتها التى لافكاك منها

وليس أبغض الى الانسان من احتقاره لنفسه

وليس أحب اليه من اعتـذاره لها عن حقارتها

***

وانك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطى على بصر الانســان وتملك عليه هواه ، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التى ينقاد لها ولا يبتغى الشفاء منها

انه يتعصب فى كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفى عنه الاضطرار الى الاقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه

وانه ليعترف بالجهل اذا استطاع أن يدعى لنفسه تعلة يسمو بها على أهل المعرفة ..

وانه ليعترف بالعجز اذا استطاع أن ينزل بالقادرين الى « مستواه » بخديعة من خدائع النفوس

وانه ليعترف بالرذيلة اذا استطاع أن يلوث الفضيلة التى يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة

وانه ليتشبث بهذه التعلات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة ، لأنه بغير هذه التعلات غريق فى شعور ثقيل على جميع النفوس ، وهو الشعور بالهوان ..

لهذا يتعصب النهازون المطبوعون على أصحاب المثل العليا ، لأنهم بين اثنتين : اما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا ويعملوا فى السر والعلانية عمل أصحابها ، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل ساعة ..

واما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها ، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنون النجاح بأساليبه ، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع وان لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذوو القدرة أمامهم من الناجحين الفعالين ..

***

وقد عرفنا من هؤلاء أناسا فى التاريخ كما عرفناهم فى الحياة الحاضرة عرفناهم .فعرفنا عجبا من العصبية العمياء التى تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين فى الحادث الواحد والحقبة الواحدة

اذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين والآخر من المثاليين رأيت العجب فى المقياس الذى يلتمسون به المعاذير لهذا وينكرونها على الآخر فى اللحظة الواحدة ..

اذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحاباة ولده أو ذوى قرباه لم يعذلوه أو لم يعنفوه فى عذله ، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها وتجرى الوتيرة[1] عليها ..

وماذا فى هذا الصنيع عندهم مما يستغرب ؟ أكان على الرجل أن ينسى ابنه ليفضل عليه الغرباء عنه ؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل انسان فى هذا المكان ؟..

يعذرون هنا بل لا يلومون ، ولا ينفرون ممن يلومونه ان جاملوا « الظواهر » فلاموه

أما خصمه المثالى فمعدود عليه أن يحابى نفسه فضلا عن محاباة ولده ، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحـدة ليشبه سائر الناس فى نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال

ولا حاجة الى امعان فى البحث للكشف عن خبيئة الطبيعة النهازة فى هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين

ان الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين

انها تريد أن تعذر نفسها لتقول ان ذلك المثالى ناقص وان هذا النفعى

---

(١) الوتيرة : الطريقة المطردة يدوم عليها الشيء .

يجرى على العرف الشائع بين جميع الناس ، ولهذا يتناول النهاز الميزان وهو يتعمد أن يزيد فى ناحية من السيئات ويحط من الحسنات ، ويتعمد فى الناحيــة الأخرى أن يقلب الــكفة فيزيد على الحسنات ويحط من السيئات ..

ويكفى أن ينسب الى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى اليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة[1] بينه وبين ذلك العظيم المثالى ، ثم يشعر بنوع من القرابة والألفة بينه وبين خصمه ، فيميل الى سماع الأحدوثة الحسنة عن هذا ولا يميل الى سماعها عن ذاك ؛ ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين : أحدهما غريب يصغره فى نظر نفسه ، والآخر مألوف يطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخيلته ..

***

نعم .. يكفى أن ينسب الى العظيم المثالى عمل من الأعمــال التى لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى اليها لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهاز الى العظيم المثالى كما يستريح الى النفعيين الناجحين

ونقول « عمل من الأعمال لا يقدر عليه ولا يسعى اليه » لأن هناك أناسا لا يقدرون على العمل المثالى ولكنهم يسعون اليه أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم اليه وتمنيه وصبرهم على مشقة هذا السعى وهذه الأمنية ..

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل فى بلوغهــا ولا الغبطة بوجودها ، وميولهم الى جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم الى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة ، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون الى ســاحة التاريخ الا شهودا أو مستمعين

فلو كانت محنة التاريخ كله من النهاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء ، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل

(١) الجفوة والجفاء : البعــد ، وترك الصلــة ، والغلظ في العشرة ، والخرق في المعاملة .

وانما المحنة الشائعة من أولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ماعداها ، ويجاهدون مَن يكشف هذا الزيف ويقوّمه بقيمته الصحيحة ، ثم تكثر العملة الزائفة فى الأيدى حتى ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر ، ولا ينفع المحك الناقد فى هذه الحالة لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف ..

***

وفى التاريخ الاسلامى مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التى يرتبط بها عرض الانسانية ، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها فى تواريخ الأمم ، لأنها حاضرة الأخبار والروايات ، حاضرة الأسباب والبواعث ، ولا يخفى من شأنها غير النيات والمزاعم . وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولا تتوارى خلفها الأسباب والبواعث بحجاب كثيف ..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان ..

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التى اتفقت عليها جميع الأقوال

واذا لم يرجح من أخبار هذه الفترة الا الخبر الراجح عن لعن «على» على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لاثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتى الميزان

فان الذى يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه فى كل مكان وبكل لسان ، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يغدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافيا للابانة عما صنعه لكسب الثناء عليه واسكات القادحين فيه ، ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق فى هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون ، ولم يعلم أحد مبلغها من الوفرة والجسامة ، ولكنها معلومة بالتقدير وان لم تعلم

بالاحصاء وأرقام الحساب ، لأنها استنفدت خزانة الدولة وجرت الى مضاعفة المكوس[1] والضرائب ومخالفة العهود لأهل الذمة وحسبان الزكاة من حصة الخزانة التى يستولى عليها ولاة الأمور .

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين ، فانهم قد تطوعوا فى ذلك العصر ، وفى العصور التالية ، لترجيح كفة النجاح المنتفع على كفة المثالية العالية ، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس فى الزمن الأخير . فان الأقدمين لم تفتهم « النفس » بجوهرها وان فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين ، وقد نفذوا الى بواطنها بالنظرة الثاقبة لأنهم أصحاب نفوس تعلم ما تنطوى عليه النفوس

***

جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى عن الامام ابن حنبل انه سأل أباه عن على ومعاوية فقال : « اعلم ان عليا كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه عيبا فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً[2] منهم له»

وهذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة فى كل جيل وفى كل خصومة ، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثنى عليه كما يصدر عن حقد على غيره ، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب ..

ان تاريخ معاوية بن أبى سفيان لايحتاج الى مزيد من تفصيل ، وانما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعا الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التى تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأسا على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وادراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول اذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف عن قصد أو عن شعور غير مقصود ..

(١) المكوس : جمع مكس وهو دراهم تؤخذ من بائعي السلع في الاسواق.
(٢) كيادا : مصدر كايده أي مكر به .

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره اذا أخذنا بظواهر الأقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الأهواء والبواعث الخفية ، ولا بد منها فى هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثا جللا بالغ الخطر فى تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم

***

وما كان أحد ليطمع فى بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بنى الانسان

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع على طول الزمن ، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذى يؤجل الى زمن بعيد

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان فى الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكا بارا نقيا مصونا من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك فى عصوره الخالية

وكان فى الوسع أن يسير على مشابه الملك فى العصور الخالية بذخا ومتاعا وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين

كان فى الوسع أن يبتدىء الملك فى تاريخ العالم على النهج الصديقى أو الفاروقى وان لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هذا النهج خليقا أن يظل اماما للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قرونا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب[1] المادية ، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه فى أخطر الأمور ..

كان فى الوسع هذا ، وكان فى الوسع ذاك

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هى الحادث الجلل فى صدر الاسلام ، وهى الحادث الجلل الذى يقرر تبعتها فى التاريخ الاسلامى بل فى التاريخ العالمى كله

---

(١) أوشاب : عيوب .

ورأس الدولة الأموية ، معاوية بن أبى سفيان ، هو صاحب هـذه التبعة التى يجب أن تتقرر بأمانتها العظمى فى ميزان لا تلعب به المنافع المقصـودة أو المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة ، وهى منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير ، يشق عليها الصعود الى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنـة ، ويطيب لها أن تسترسـل على هينة[١] مع مألوفاتها فى كل يوم ..

***

والصفحات التالية تتناول النظر فى سيرة معاوية من هذه الوجهة ، فليست هى سردا لتاريخه ولا سجلا لأعمـاله ولا معرضـا لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الانسانية كما يراها المجتهـد فى طلبهـا وتمحيصـها ، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد فى البعد عنها واخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد ، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموى الى زماننا هذا يفعلون ذلك حين ينظرون الى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صـنائع الدولة فى ابان سلطانها وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة فى المطالب والمعاذير

ولولا اننا نأبى أن نضرب الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم فى هذا التاريخ كلاما ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة ، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية فى الجاهلية ، ومنهم من يحسب من همة معاوية انه تصدى للخلافة مع على ويحسب من المآخذ على غيره انهم تصدوا للخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشيد بفضل أبى سفيان على العرب لأنه كان تاجرا يعرف الكتابة والحساب ويعلمهما من يستخدمهم فى تجارته ، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا فى أرواحهم وأعراضهم على أيدى المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لوما لأولئك المسلطين ، بل تكاد تسمعه يعذرهم

---

(١) هينة : بكسر الهاء : السكينة والوقار والرفق .

ولا يدرى ما يصنعون غير ما صنعوه

ولو اننا ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه[1] بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم فى طلب المنفعة واللياذ بالقادرين عليها ، وألوان من معاذيرهم التى يرتضونها لأنفسهم ويوجبون على الناس أن يرتضوها لهم أو يلتمسوها لهم ، وان لم يعلنوها ..

***

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا فى غنى عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها ، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله ، ونتحرى فى ذلك كله أن نصون التاريخ ــ نصون ذمة الانسانية ــ أن يملكها من يملك الجاه والسلطان فى زمن من الأزمان .

(١) نشفعه : شفع العدد صيّره شفعا أي زوجا ، وأتبعه بمثله .

بين القدرة والعظمة

زبدة الصـــفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلا قديرا ولـــكنه لم يكن بالرجل العظيم

والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوضيح الذى نعنيه . فقد يقال عن العظيم انه قدير ويقال عن القدير انه عظيم ، ولا يخطىء القائل من الوجهة اللغوية فى هذا الترادف المقبول ما لم يقيده الاصطلاح

انما الاصطلاح الذى نعنيه وننظر فيه الى أحوال الطباع ان القدرة غير العظمة فى أشياء

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان[1] منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه اذا وصف بالعظمة فانما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانســانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه

***

ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح اذا نقلنــا التفرقة من القدرة والعظمة الى التقدير والتعظيم

فنحن نقدر الانســان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية ، ولكننا اذا عظمنا الانســان فانما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق اكبارنا ويرتفع الى المكانة التى تلحظها الانسانية بأسرها وتعود عليها فى منافعها وخيراتها

فكل عظيم قدير .. .

---

(١) احتجان : احتجن الشيء جذبه بالمحجن وهو العضا المنعطفة الرأس ، واحتجن المال : احتواه وضمه الى نفسه .

ولكن ليس كل قدير بالعظيم ..

والعظمة قدرة وزيادة ..

أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضلا عن أن تكون عظمة وزيادة ..

ومعاوية قدير ولا ريب ..

أما انه عظيم فذلك الذى نعرض له فى الصفحات التالية لنبين فيها الفارق بين القدرة والعظمة ، فى ترجمة رجل من أنفع الرجال النابهين لتوضيح هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق

ومن سرف القول أن يقال ان معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع فى الأخلاق

فليس فى وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد ، وليس فى وسع رجل أسلم على يد النبى عليه السلام وصاحبه وعمل على أيدى الجلة من صحابته أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة فى عرف زمنه ..

***

الا اننا ، مع العلم بغيرته الدينية فى شعوره وفعاله ، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلة المصلحة « الذاتية » أو مصلحة الأسرة والعشيرة

ونستطيع أن نعمم القول بغير استثناء على كل مسعى من مساعيه وكل حيلة من حيله وكل مأثرة من مآثره ، فنقول ان المصلحة الذاتية أو مصلحة الأسرة والعشيرة كافية لتعليلها والقيام بها ، وانه لم يعارض المصلحة الذاتية بارادته فى حين واحد ، وعارض المصلحة العامة فى أحيان

كان رجلا قديرا ولكنه لم يكن بالرجل العظيم

ومهمة المؤرخ فى سيرته أن يقدر قدرته وأن يعرف ما اقتدر عليه بسعيه وتدبيره وما اقتدر عليه بمساعدة الزمن وممالأة الحوادث والمصادفات ..

وهذه المهمة تتقاضانا « أولا » أن نجمل القول فى جميع التمهيدات

التى مكنته من الاقتدار على مقاصده ، ومنها ما كان سابقا للاسلام وسابقا لمولده ، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم فى أثناء ملكه الى ما بعد موته ..

***

وتتقاضانا هذه المهمة « ثانيا » أن نزن المواهب العقلية والخلقية التى اشتهر بها وأسند اليها ما أسند من أسباب نجاحه

فنبدأ الكلام فى الفصول التالية بالتمهيدات التاريخية من قبل الاسلام الى قيام الدولة الأموية ، ثم نتلوها بتحليل الأخلاق والمواهب التى تعد من وسائل نجاحه ..

ونلاحظ فى ذلك كله أن « نقـدر القدرة » التى ثبتت لهذا الرجل القدير من وراء المدائح والأهاجى ووراء الدعاية له والدعاية عليه

ونحسب اننا وفينا بهذه الأمانة اذا انتهينا من هذه الصفحات الى الوزن الصحيح الذى يوزن به رأس الدولة الأموية ويوزن به غيره من أعلام التاريخ ..

تمهيدات الحوادث

بدأ التمهيد لبنى أمية فى الشام قبل الاسلام بجيلين متعاقبين ، وكانت الشام قبل ذلك سوقا عامة لقريش ، تأتيها قوافل الصيف بتجارة الحجاز فى حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر ، وأظهرهم فى الجيل الذى سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف

ولم يكن رجحان هاشم بالرئاسة والثروة حائلا بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والاقامة بين المدن والبادية فيها ، بل كان هذا الرجحان ــ فيما اتفقت عليه الأخبار ــ سببا لهجرة أمية من مكة واقامته بالشام عشر سنين ، اذ تنافر هاشم وأمية وتنافسا على الرئاسة ، واحتكما الى الكهان كعادتهم على أن يكون للغالب اجلاء المغلوب عن مكة عشر سنين ، فقضى المحكمون لهاشم على أمية ، وخرج أمية الى الشام فاختارها مقاما له خلال هذه السنين ، وربما كان ضيقه بالزعامة المعقودة لهاشم فى مكة من دواعى الهجرة قبل الحكم عليه فى قضية المنافرة المشهورة ، وهى قضية قد تصح بتفصيلاتها أو لا تصح الا بجزء منها ، ولكن هجرة أمية الى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلفون

ولما مات هاشم شغل أبناؤه بالرئاسة الدينية الى جوار الكعبة ، وآل اللواء الى بنى أمية ، وهو عمل ينوط بصاحبه حراسة القوافل من الشام واليها ، اذ لم يكن من حاجة قريش فى الجيل السابق للاسلام عقد اللواء لجيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة ، وانما كان العمل الأكبر لصاحب اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر ، وبين مكة واليمن فى قليل من الأوقات . وكان عملا يحتاج فى الواقع الى جيش صغير وقائد يحمل لواءه ، لأن القافلة التى تخرج للتجارة تجمع أموال

قريش وتسير بها المئات من الابل ، ولا ينتظم سيرها بغير قيادة تتولى تنظيم المخافر وتوزيع المؤنة والتعرف الى رؤساء القبائل التى تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام فى البادية ، فهى عمل متصل لاينتهى بانتهاء رحلة القافلة ولا تزال له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوى الشأن فى مراحل الطريق وفى منازل المقام

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان معروف المكانة بين رؤساء الدولة البيزنطيـة على حدود بلاد العرب كما كان معروف المكانة بين الوجوه من قبـائل البادية ، وخلعت عليه الدولة البيزنطية لقبا من ألقاب الرئاسة ليسفر بينها وبين قومه ويعينها فى خلافها مع العرب الغساسنة بالشام ، وكانوا يجنحون أحيانا الى جانب فارس فى حربها لبيزنطة ، ويرى البيزنطيون انهم لا يستغنون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية ، ولو بتهديد الغساسنة وتشكيكهم فيمن يجاورهم أو يعاملهم من العرب الحجازيين

وقد كان بنو أمية على شبه محالفة بينهم وبين بنى كلب أقوى القبائل ببادية الشام وأشدها خطرا على الغساسنة ، ومنها من تنصر منافسة للغساسنة فى حظوة الدولة مع ارتقابهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية ، وقد عرفنا بعد الاسلام ثلاثة من كبار الأمويين أصهروا الى بنى كلب فى عصر واحد ، وهم سعيد بن العاص والى الكوفة والخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان ، ولا تكون هذه المصاهرات أول العهد بالصلة بين الفريقين ، فهى بقية لما تقدمها من الصلات

ومن المشهور أيضا أن أبا سفيان كان على صـلة بولاة الأمر من البيزنطيين ، وكان يلقى هرقل وأمراء بيته فى رحلاته ، ويعول عليه هؤلاء فيما يعنيهم من أحوال العرب وأخبارهم ؛ فقيل انهم سألوه عن النبى عليه السلام عند مبعثه ؛ وان السائل جعل يستنبئه عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين فى المجلس ، ويحذره أن يكذب فيكذبه من سمع كلامه من قومه . قال أبو سفيان : وعلمت انهم لا يكذبوننى ان

كذبت ، ولكننى صـدقت الصـفة ضنا بمروءتى أن أقول ما يعلم السامعون انه نبأ مكذوب ..

قال المقريزى : « انه ما فتحت بالشام كورة الا وجد فيها رجل من بنى سعيد بن العاص ميتا » ..

وكان النبى صلوات الله عليه يتحرى فى اختيـار الولاة أن يندبهم للولاية حيث يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية ، فاختار عمر بن سعيد ابن العاص واليا لتيماء وخيبر وتبوك وفدك ، وكلها على طريق التجارة الأموية ، وسار أبو بكر على هذه السنة فاختار يزيد بن أبى سفيان قائدا لجيش من جيوش الحملة على الشام وولاه بعض أقاليمها بقيـة حياته ، وكانت وفاته فى عهد الفاروق فجرى على هذه السنة وعهـد بالولاية الى أخيه معاوية حيث بقى الى ما بعد خلافة الفاروق ، وكان يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه

ومن بنى أمية من كاد يصرّح بالطمع فى الملك بعد رسول الله على عهد الصديق . اذ كان من أبناء عمرو بن سعيد بن العاص خلف على الولاية التى ولاها اياه النبى صلوات الله عليه ، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفوا أن يعملوا له وقالوا : « نحن أبناء بنى أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا » ..

ولا يقول هذا القول الا من يطلب الرئاسة لنفسه ولا يقر بالرئاسة لغير ذى نبوة أو رسالة الهية ، وينظر الى الخلافة نظرة دنيوية لا تفاضل فيها بصفة من صفات الدين وسابقة من سوابق الهداية

وكان الفاروق قد ولى معاوية ولاية من الشام فضم اليه عثمان سائر الشام وألحق به أقاليمها من الجزيرة الى شواطىء بحر الروم ، فلما قتل عثمان كان قد مضى لمعاوية فى ولاية الشام عشرون سنة ، لم يبق فيها من ينازعه أو يعصيه ، ولم يكن من عمالها وحكامها المرؤوسين له أحد من غير صنائعه وأشياعه والمستقرين فى كنفه ، لأنه حرص فى ولايته على استبقاء من يواليه واقصاء من يشغب عليه ، وجعل همه الأكبر أن يخرج

أهل الفتنة من الشام ولا يبالى بعد ذلك ما صنعوا فى سائر الولايات ، فتفرقوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز.

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام ويتلقى الشكايات ممن يطلبون منه عزل ولاته وأولهم معاوية ، فيعتذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم انه انما ولى على الشام من ارتضاه قبله عمر بن الخطاب .. وقال ذلك مرة لعلى بن أبى طالب فقال له على : نعم . ولكن معاوية كان أطوع لعمر من غلامه يرفأ ، وصدق الامام فيما قال

فقد كان معاوية يصطنع الأبهة فى امارته ويقتصد فيها جهده بعيدا عن أعين الفاروق ، فاذا لامه الفاروق على شىء منها رآه بعينه اعتذر له بمقامه بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنعة ، وكان يؤدى حساب ولايته لعمر كلما سأله الحساب ويقنع منها برزقه من بيت المال ألف دينار فى العام ، وانفال[1] مما يجمعه من تجارة أهله أو مما وراء الحساب ..

فلما بويع عثمان بالخلافة تركه فى مكانه وضم اليه سائر الشام كما تقدم ، وطلب منه معاوية أن يرخص له فى زرع الأرض التى تركها أصحابها وهاجروا الى بلاد الروم فأجابه الى طلبه ، ووضع معاوية يديه على موارد من المال تقوم بأعباء دولة ، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب ، وأوشكت الشام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التى كانت تأتيه من المدينة بتحصين الثغور وامداد الغزاة وتسيير الجيوش الى الأطراف بقيادة الأعلام من الصحابة

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الاسلامية قسمين ، أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية ، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة على من الحجاز والعراق ؛ وقد تدخل مصر فيها حينا وتخرج منها أكثر الأحايين

وتولى معاوية بلادا لاينازعه فيها منازع ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتؤول الى غيره

---

(١) انفال : جمع نفل بفتحتين : الغنيمة والهبة .

وتولى على بلادا كلها نزاع من أمر الخلافة الى أصغر الأمور. فنازعه الخلافة طلحة والزبير ، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفقهين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهادهم فى كل شأن من شؤون السياسة

وهذا الى الفارق بين وفرة المال من جانب وندرته من الجانب الآخر

وهذا الى فارق آخر أكبر وأعسر وأعضل على الحل والمحاولة ، وهو الفارق بين الملك والخلافة ، وقد افترقت طريقاهما منذ سنين ، تم افتراقهما بعد أيام عثمان

فكانت أعباء الخلافة كلها على على ، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية مواتية له محيطة به فيما يريد وفيما لا يريد

كان الناس مع على ينظرون الى سنة النبى وسنة الصديق والفاروق من بعده ، وكان الناس مع معاوية ينظرون الى هرقل وكسرى ، ولا يسومونه[1] أن يحكم كما حكم النبى أو كما حكم من بعده الخليفتان الأولان ..

وكان لابد لعلى ــ كما قلنا فى عبقرية الامام ــ من ملك أو خلافة .. ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده . لأنه عصر ملك تهيأت له دواعيه الاجتماعية وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله ، ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه . فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه »

وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة فى أيام النزاع بين على ومعاوية . بل ظهرت بوادرها فى أيام الصديق وازدادت ظهورا فى أيام الفاروق ، وحدث كما أجملنا ذلك فى كتاب ذى النورين ان الصديق « اتخذ الحيطة للفتنة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأى وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص[2] بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون .. رأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهى

(١) يسومونه : سام فلانا الامر كلفه اياه وألزمه • (٢) ترخص : التسهيل في الامر والتيسير خلاف التشديد •

مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي[١] كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان[٢] » ..

وانقضى عهد الصديق ثم انقضى عهد الفاروق « والمجتمع الاسلامى مجتمعان : أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار فى تدبيره ، وقال الشعبى انه قضى وأوشكت قريش أن تمله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها فى دنياها الجديدة »

***

وتتابعت السنون على أيام عثمان وهذان المجتمعان يلجان فى الافتراق حتى افترقا غاية افتراقهما فى النزاع بين على ومعاوية . فكان على يكبح تيارا جارفا لا حيلة له فى السير معه ولا فى دفعه ، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير مدافعة وبغير حيرة ، ويركبه معه من لا يدافعه ولا يحار فيه ..

وكأنما بقيت بقية من التيسير هنا والتعسير هناك ، فجاءت حصة على حيث جاء الموالى[٣] من كل جنس يطلبون الحق الذى يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقا من الحقوق ، وخلت الحصة الأخرى من هؤلاء الموالى وخلصت للعرب يوم كان العرب وحدهم قوام الدولة فى دمشق بين القرشيين واليمانيين

أحاط الموالى بالامام حتى قال له بعض أنصاره من العرب : « لقد غلبتنا هذه الحمراء عليك » وسار الامام فى العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم انه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى الا بالتقوى

أما فى الشام فقد كان معاوية لا يباليهم لأنهم قلة هناك لا يحسب لها حساب ، ومرضاة العرب أولى من مرضاة الموالى فى دمشق حيث قامت الدولة الأموية ، وحيث هان خطبهم بعد ذلك حتى قيل انه همّ بقتلهم والبطش بهم على غير عادته ، وقال لهم غير مرة انكم عجم وعلوج !

(١) الاذربي : المنسوب الى أذربيجان · (٢) السعدان : نبت له شوك تسمن عليه الابل · (٣) الموالي : جمع مولى وهو من أسلم من غير العرب ·

وما كان من قبيل المصادفات ان الدولة الأموية قامت فى دمشق وان الدولة التى قوضتها ــ وهى دولة بنى العباس ــ قامت فى بغداد . فان دمشق ما كانت لتصلح مقاما للدولة بعد اتساعها للعرب والفرس والترك والديلم وموالى الأمم من كل قبيل

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية فى نشأتها ، وكان اختلاط الموالى ضعفا للدولة القائمة فى الجزيرة ، لأنهم أشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من أزمّتها ..

ونجمت ناجمة الخوارج فلم تكن لهم جرثومة فى الشام ينجمون منها ، ولكنهم أصبحوا شعبة جديدة من شعب الشقاق بين الموالى والشيعة من العرب وأصحاب التزمت والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق فى محاسبة ولى الأمر على ما شرعه الكتاب ..

***

ثم قتل على دون صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن العاص ، فانتفع معاوية بعمله فى حياته كأنه أعفاه من جهاد منافسيه بالحجاز والعراق ، وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالى والعرب فى رقعة الجزيرة ، فاذا همّ يضرب بعضهم بعضا ويغلبهم جميعا بأيديهم كلما تفرقوا وتقاتلوا ، وما كان فى وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال

وان القدرة التى خلصت بها الخلافة لمعاوية بين هذه الحوادث لتوزن بميزانها الصادق اذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكفتين.. فماذا كان معاوية صانعا لو أنه بويع بالخلافة فى المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على الشام ؟ وماذا كان صانعا لو كان على الشام يومئذ منافس يسوسها على سنة الملك ويرتكن فيها الى قواعد راسخة من عهد الفاروق وقواعد راسخة من قبل الاسلام ؟

ثم انفرد معاوية بالخلافة ولزمته تبعة الدفاع عن الدولة فى وجه أعدائها فوضع المؤرخون فى كفته هذه المأثرة غير مقدورة ولا محدودة ، ولا منظور فيها الى التمهيدات التى من قبيل ما قدمناه أو تربى عليها

ولاشك أن رأس الدولة الأموية قد عمل على حمايتها ولابد له من العمل على هذه الحماية . ولسنا نعنى هنا انه حمى ألدولة ليحمى ملكه ويحمى نفسه فهذا قد يدخل فى بيان النيات ولا يدخل فى بيان القدرة التى أعانته على عمله ، ولكننا نعنى اننا لا نزن هـذه القدرة بميزانها الصحيح الا اذا عرفنا ما اضطلعت به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى فى مجراه بحكم الحوادث وليست فيه لها يد عاملة أو تدبير مقصود

فالفتح الاسلامى قد ضعضع دولة الروم الشرقية وفت فى أعضادها وترك فيها رجال الدين والدنيا معا يائسين من رجعة الشام الى حوزتها مؤمنين بتأييد الله للعرب الفاتحين عقابا للرعاة والرعية على خطـاياهم وخطاياها ..

***

وقد سمع هرقل صيحة الوعاظ بهذا النكير بأذنيه فى مؤتمر انطاكية ، وغادر سورية وهو يودعها ذلك الوداع الذى كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطل الأباطيل

فقبل أن يفارق الأرض السورية صاح كأنه ينشج بالبكاء . « الوداع يا سوية . الوداع الأخير » Vale Syria et Ultimatum Vale

ورسخت هذه العقيدة فى قلوب خلفائه فلم تغن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وأسلحة البر والبحر التى كانوا يجمعونها ولا تكاد تجتمع حتى تتفرق لأول صدمة أو تتفرق قبل اللقاء من أجل منام أو عيافة (١) أوهام . وقد روى جيبون ان حفيد هرقل خنع للتسليم لأنه رأى فى المنام انه فى سالونيكا وهى كلمة تجانسها كلمة باليونانية معناها : « اعط النصر لغيرك ! » ..

وفى تاريخ ميخائيل السورى « ان المنتقم الجبار أتى بأبناء اسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم » ..

وقد روى ابن الأثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية « ان معاوية غزا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التى بين انطاكية وطرطوس

(١) عيافة : عاف الرجل الطعام والشراب كرهه . وتأتي العيافة بمعنى زجر الطير .

خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة »

ولم ييأس العواهل الضعفاء من سورية وما جاورها من آسيا الصغرى بل يئسوا من القسطنطينية نفسها وهموا مرات بنقل العاصمة منها الى صقلية ، وتركها العاهل قنستانز فعلا (سنة ٦٦٨ م) ليقيم له عاصمة فى صقلية فأوشك أن يقيمها لولا أنه قتل فى سرقسطة !

واقترنت بهزيمة الروم فى سورية هزائم شتى وشواغل متفرقة أيأستهم من الغلبة على الدولة الاسلامية ، ومن هذه الشواغل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين فى بعض الوقائع بآسيا الصغرى ، ومنها الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ومنها انقسام الأسطول بين قيادتين احداهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة

***

وربما كان اسم الدولة الاسلامية فى ابان الفتح حماية لها تقوم فى ترويع خصومها مقام العدد والحصون ، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة فى عهد معاوية الثانى الذى اعتزل الحكومة ولزم داره كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى « أربعين يوما وقيل شهرين وقيل ثلاثة أشهر » ..

قال السيوطى : « ولم يخرج الى الباب ولا فعل شيئا من الأمور ولا صلى بالناس »

ولما خلع نفسه قال : « أيها الناس ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم ، ثم احتضر وهو فى نحو العشرين فسألوه أن يستخلف أخاه خالدا فقال : ما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها ؟ »

ولم يتفق المسلمون على خليفة بعد معاوية الثاني حتى قام عبد الملك ابن مروان بالأمر سنة ثلاث وسبعين ... أى بعد تسع سنين

ودولة تسلم من بيزنطة تسع سنين وهى بغير خليفة متفق عليه لايبلغ من خطر عدوها أن يحتاج الدفاع عنها الى قدرة خارقة من ولى الأمر فيها ، وقد سلمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بين مقتل عثمان ومقتل

على ، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من الحجاز الى الجزيرة الى الشام الى مصر وما يليها من افريقية الاسلامية

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشام انما استحصد[1] وتوطد قبل استقلال معاوية بولايتها فى أيام عثمان ، وان الدفاع الأكبر عنها بعد ذلك انما كان يتولاه من قبل الشرق ولاة الجزيرة ، ومن قبل الغرب ولاة مصر وافريقية ، وعندهم الجند والسفن ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسألون الخليفة المدد فيأمر من يشاء من الولاة أن يمدوهم به ، ومنهم معاوية فى الشام

وهذه الفترة فى تاريخ الدولة الاسلامية هى التى جعلت لها تلك المهابة التى أيأست بيزنطة من جدوى الهجوم عليها وصرفتها الى غير هذه الوجهة من حدودها ، مع ادبار القوة وانقسام الأولياء والأعوان وضياع الثقة بالنصر ، بل باستحقاق النصر من الله

***

وبعد ..

فالمحصل من هذه الحوادث والتمهيدات أن المؤرخ الأمين مسئول أن يحضرها جميعا فى حسابه والا كان كلامه عن « قدرة » معاوية كلاما جزافا[2] لايؤخذ به فى تمييز أقدار الرجال وخصائص الطباع ، ولا يفيدنا شيئا فى التعريف بالوسائل التى مهد بها معاوية لنجاحه والوسائل التى تمهدت له قبل مولده ، وقبل الاسلام

وتتلخص قدرة معاوية فى خلائق مشهورة مترادفة أشهرها الدهاء والحلم وعلو الهمة أو الطموح

وهذه الخلائق هى موضوع البحث فيما يلى من الفصول قبل الكلام على نشأته وعمله وموجز تاريخه وصفوة الرأى فيه

---

(١) استحصد : استحصد الزرع حان له أن يحصد · والحبل استحكم فتله · (٢) جزافا : الجزاف بالضم والقياس بالكسر : بيعك الشيء أو اشتراؤك اياه بلا وزن ولا كيل ··

الدهــاء

اذا تحدث الراوية العربى عن صفة من الصفات العامة بلغ بها حد الاستقصاء ، فأثبت فى روايته كل مايقع عليه الحس من أخبار تلك الصفة وذكر لنا الأعلام المشهورين بها والحوادث التى دلت عليها والأقوال التى قالوها أو قيلت عنهم بصددها ، والفوارق التى يختلفون بها فيما بينهم والألقاب التى أطلقت عليهم من جرائها ولم يتركوا مرجعا من مراجع الدراسة التى يحتاج اليها الباحث العصرى فى استقصائه الحديث بعد استقصائهم القديم ، الا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية ، فانه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحــد غيرهم من الأقدمين فى الأمم ، وعذرهم فى ذلك واضح لا تلزمهم بعده حجة : عذرهم أن التحليــل النفسى كله دراسة حديثة تركبت على دراسات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها الى ما قبل بضعة قرون

كذلك تحدث لنا الراوية العربى عن شجعان العرب وفرسان العرب وأجواد العرب وصعاليك العرب ودهاة العرب فى الاسلام ودهاة العرب فى الجاهلية وكل ذوى الشهرة فى صفة من الصفات العامة التى تتعلق بها الروايات وتتناقل بها الأخبار

ويبــدو لنا ــ ونحن نقرأ كلامهم عن دهاة العرب ــ أنهم كانوا « مولعين » بتلك الصفة خاصــة ، يتحدثون بها ويستطيبون حديثها ويتزيدون فيه كلما استطاعوا ، كأنهم يجاوزون بالدهاء حد الاعجاب الى حد التمنى والعطف والمشاركة فى الشعور ، وعذرهم فى هذا أيضا واضح من تاريخهم وتواريخ منازعاتهم ومصالحاتهم . فانهم كانوا يتفقــدون فيها الدهاء جميعا فيجدونه حينا ولا يجدونه حينا آخر ، ولكنهم كانوا

يجدون الشجاعة والفروسية فى كل حين

وسبب آخر من أسباب الولع بالحديث عن الدهاء انه أصبح كفؤا للشجاعة أو راجحا عليها فى موازين الصفات الاجتماعية ، فاذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء — وفوق العزاء — بشهرة الدهاء أو دعواه ان لم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الذائعة الصيت

فالدهاء عندهم كان مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن ودعوى سهلة لمن يدعيها بغير برهان .. أما الشجاعة فبرهانها حاضر لا سبيل للمغالطة فيه ..

ولهذا يتزيد الرواة كثيرا فى أحاديث الدهاء ، ويوشك أن يجعلوه صفة من الصفات « السلبية » التى تقترن بنقص الشجاعة حيث نقصت فى مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال ، وكاد القارىء أن يفهم — بداهة — من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لا صولة له ولا خوف من غضبه وبأسه ، وانما الخوف مما يحتال به أو يكيد

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل فى عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهات ، ولكنهم اذا اتفقوا على دهاء رجل فى سيرة حياته بحذافيرها[١] فالغالب أن يكون على شىء من الدهاء ، وان لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات ، ولم يكن مصدر ذلك الدهاء ملكة واحدة فى العقل أو فى الطباع

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة « غير صريحة » يبلغ بها صاحبها مأربه وينتهى بها الى منفعته ... فكل حيلة « غير صريحة » فهى دهاء على سواء ..

الا أن الواقع أن الوسائل « غير الصريحة » لا تتفق فى مصادرها العقلية ..

فقد يعتمد الرجل فى دهائه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم فى مطامعه ويقودهم كما يقاد المسخر « بالتنويم المغناطيسى » لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لا فائدة لهم فيه على

---

(١) بحدافيرها : جمع حذفور وهو الجانب . وأخذه بحذافيره أي بأسره .

الاطلاق ... وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لا يفقهون ، ويغشاهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير ما يقوله ذلك الداهية أو يوحيه الى شعورهم بغير مقال

هذا هو الدهاء من الطراز الأول

ويليه الدهاء الذى لا يعتمد على قدرة عقلية فائقة ولكنه يعتمد على قدرة « مادية » يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس « التبادل » فى المنفعة المعروفة التى يفهمها المتبادلون جميعا بغير حاجة الى تغرير أو خداع أو اقناع

رجل يملك السلطان أو المال ، وأناس يحتاجون الى سلطانه وماله ، ولا يقدرون على بلوغ تلك الحاجة من غيره .. فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه ، لأنهم كلهم يعرفون ما يطلبونه ويعرفون وسيلتهم اليه ، فلا خادع فيهم ولا مخدوع ، وان لم يكونوا جميعا صرحاء فيما يتوسلون به أو يتوسلون اليه

من أى هذين الطرازين دهاء معاوية ؟

أمن طراز القدرة العقلية الفائقة التى تسخر الأعوان منقادين مستسلمين مغمضى الأبصار والبصائر ، أم من طراز القدرة المادية التى تعطى وتأخذ ويعاملها طلاب الحاجات لأنهم يعرفون ما يحتاجون اليه ولا يعرفون طريقا الى حاجاتهم تلك غير هذه الطريق ؟

بأى الدهاءين تمكن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه وزياد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهائهم الأمثال فى صدر الاسلام ؟

لعلنا نستطيع أن نقول ان هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروه لقضاء مآربهم كما نستطيع أن نقول انه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه ... فانهم جميعا قد أخذوا ناجزا مضمونا حيث يأخذ منهم العوض مقدرا غير مضمون ، وأيا ما كان القول فليس دهاء معاوية هنا دهاء القدرة العقلية الفائقة التى أوقعت فى روع أعوانه زعما .

تخفى عليهم حقيقته وينقادون به اليه وهم لايفقهون . وانما آخذ منهم وأخذوا منه على حد سواء ، وانما أعطاهم المصلحة التى يريدونها ولا ينتظرون قضاءها عند غيره ، ولم يتمكن من اعطائهم تلك المصلحة الا لأنه سبقهم الى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التى لم يكن فى وسع واحد منهم أن يضع عليها يدا من أيديه

ان رواة التاريخ العربى يحدثوننا كعادتهم فى التوصيف والتقسيم ، عن دهاتهم فى صدر الاسلام فيقولون انهم آربعة : عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه ، وزياد بن أبيه ، ومعاوية بن آبى سفيان ، ويقولون ان ابن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة ، ومعاوية للروية

وهذا تقسيم صحيح فى جملته على الايجاز ، وقد يعرض له بعض التعديل عند الاسهاب والتفصيل ، ولكن الرأى الذى لاشك فيه انهم جميعا من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء ، وان دهاء الثلاثة الأولين هو الذى قادهم الى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذى قادهم اليه . فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يجدونها عند معاوية حيث لا يجدونها عند غيره ، ولو أنهم استطاعوا آن ينازعوه الخلافة لما سلّموها له طوعا ولما قنعوا منه بالنصيب الذى ارتضوه فى خلافته ، ولكن الخلافة كانت مطلبا بعيدا عليهم فلم يضيعوا فيه جهودهم ونظروا الى غاية المطالب دونه فبلغوه بجهد يسير

لم تكن لأخد منهم ولاية تمتد فتشمل سائر الولايات وتنتهى بذلك الى الخلافة الا زياد بن أبيه فانه كان واليا على آقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والجند ، ولكنه مغمور النسب يدعونه بابن أبيه قبل أن ينسبه معاوية الى أبى سفيان ، ولن يسلس زمام الخلافة لرجل مثله الى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من دون معاوية فى النسب والمكانة ..

أما ابن العاص والمغيرة بن شعبة فقد كانا من آحاد الرعية يوم نشب

النزاع على الخلافة بين عميد بنى هاشم على بن أبى طالب وعميد بنى أمية معاوية بن أبى سفيان ، ولم يكن لأحدهما جند ولا مال ولا عصبة تنافس العصبة الهاشمية أو العصبة الأموية ، فهما خليقان أن ينظرا الى المطلب الميسور حيث تيسر ، وقد نظرا اليه فلم يعرفا له طريقا أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل على رضوان الله عليه

وقصـــة كل رجل من هؤلاء الدهاة الثلاثة لا تدع محلا للظن بأنهم سيقوا الى نصرة معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حيل الدهاء ، بل هى حرية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية فى المبادلة ، وانهم أخذوا منه فوق ما أعطوه ، وانه هو قد أعطاهم شيئا فى اليد حين كان عطاؤهم كله شيئا فى التقدير ، اما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور ..

دعا عمرو بن العاص ولديه عبد الله ومحمدا فقال لهما : انى قد رأيت رأيا ولستما باللذين تردانى عن رأيى ، ولكن تشيران على ... انى رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان وأنا طارح نفسى بين جزارى مكة ولست أرضى بهذه المنزلة ، فالى أى الفريقين أعمد ؟

قال عبد الله ـــ وهو من أهل التقوى ـــ ان كنت لابد فاعلا فالى على ..

قال عمرو : انى ان أتيت عليا يقول لى انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره ، وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأى فقال لهما عمرو : أما أنت يا عبد الله فقد اخترت لآخرتى ، وأما أنت يا محمد فقد اخترت لدنياى ..

ويروى انه لما استشارهما قال له عبد الله : ان النبى عليه السلام قد توفى والشيخان بعده وهم راضـــون عنك ، فأرى أن تكف يدك وتجلس فى بيتك حتى يجتمع الناس ، وقال له محمد : انت ناب من أنياب العرب فكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ؟ فأجابهما بما تقدم وأتى معاوية فوجدهم يطلبون دم عثمان فمضى معهم يقول : اطلبوا دم الخليفة المقتول

والمشهور فى رواية صاحب الامامة والسياســة ابن قتيبة أن معاوية كان غافلا عن شأن عمرو وعن خطره فى معونة اى الفريقين فأعرض عنه حتى نبهه عتبة بن أبى سفيان الى شأنه وخطره فكتب اليه يقول : « أما بعد ، فقد كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك وقد سقط علينا مروان بن الحكم فى رافضة من أهل البصرة وقدم على جرير بن عبد الله فى بيعة على وقد حسبت نفسى عليك فأقدم على بركة الله »

وتردد عمرو قليلا بين شد الرحال وحط الرحال فقال له غلامه وردان ــ وهو من الموصــوفين معه بالدهاء : اما انك ان شئت بدأتك فى نفسك : اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع على الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة ، فأنت واقف بينهما . فقال عمرو : ما أخطأت ما فى نفسى ، فما ترى يا وردان ! فقال : أرى أن تقيم فى منزلك فان ظهر أهل الدين عشت فى دينهم ، وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقال عمرو : الآن حين شهرتنى العرب بمسيرى الى معاوية ؟

وقدم عمرو على معاوية فساومه على رضاه ، فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة ، وهذه صفقة كأنها صفقة المنتصر الذى يملى شروطه فى حومة الحرب ، لأن ابن العاص كان واليا على مصر فعزله عثمان ولم يزل واجدا على عثمان لذلك حتى قيل انه كان يحرض عليه ويخاذل بين أنصاره ، فاذا جاء الرجل قوما يطلبون دم عثمان فأخــذ منهم ما أباه عثمان عليه فانما هو الرغم ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال !

وشقّ على معاوية أن يجيبه الى هذا المطلب الضخم « فتلكأ معاوية ــ كما جاء فى الامامة والسياسة ــ وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ قال : بلى ، ولكنها انما تكون لى اذا كانت لك ، وانما تكون لك اذا طلبت عليا على العراق .. فدخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية فقال : اما ترضى أن تشترى عمرا بمصر ؟ ان هى صفت لك ليتك لا تغلب على الشام . فلما سمع معاوية قول عتبة بعث الى عمرو فأعطاه مصر وكتب فى أسفل الكتاب : ولا ينقض شرط طاعة ، فكتب عمرو : ولا تنقض طاعة شرطا »

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالبا غير مغلوب ، وفهم ما يبتغيه فقصد اليه ولم يكن معاوية يفهم ما يبتغيه الا بعد ممانعة واستعصاء .. وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعة ألوية : لواء له ولواء لكل من ولديه ولواء لغلامه وردان

يقال فى مصطلحات عصرنا عن الحيلة التى لا تخفى ولا حاجة بها الى اخفاء انها « لعب على المكشوف » .. كأنها هى لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره واتباعه فى اللعب منهجا لا محيد عنه وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية

قال عمرو لمعاوية : « أترى أننا خالفنا عليا لفضـل منا علينا ؟... لا والله . ان هى الا الدنيا نتكالب عليها . وأيم الله لتقطعن لى قطعة من دنياك والا نابذتك[1] »

وعلى هذه الخطة « المكشوفة » بدأت المعاملة بين الرجلين ، وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية ، بالقياس الى ما بذل فيه

***

أما المغيرة بن شعبة فقد كان يبيع سمكا فى البحر ويشترى به سمكا مطبوخا شهيا على المائدة

عزله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قوما شهدوا عليه أنهم وجدوه على ريبة مع امرأة غير امرأته ، وقال هو انها امرأته وان الأمر التبس على الناظرين لشبه بين المرأتين ، ولم تثبت التهمة عليه ثبوتا يوجب اقامة الحد ، ولم تسقط عنه سقوطا يزيل الشبهة ، فعزله الفاروق وأبقاه زمنا بغير عمل كأنه يؤدبه ويستتيبه ، ثم بدا له أن يعيده الى ولايته فدعاه اليه وشدد عليه ليجتنبن الشبهات حتى الظنة ، وولاه الكوفة مرة أخرى ، فلما قام عثمان بالخلافة عزله فاعتزل السياسة حتى قتل عثمان وبويع على بالخلافة فى المدينة ، فذهب اليه يمهد فى العهد الجديد للزلفى[2] عند الامام وعند صاحب الأمر بالشام ــ معاوية ــ فى وقت واحد ، وأشار على الامام باقرار معاوية فى ولايته ليدين له بالولاء ثم يعزله متى شاء . فلما

(١) نابذتك : نابذ الرجل صاحبه خالفه وفارقه . والعدو الحرب أعلمه بعزمه على القتال وكاشفه به . (٢) للزلفى : القربة ، والدرجة والمنزلة .

أبى الامام أن يقره عاد اليه فى اليوم التالى فقال : « انى أشرت عليك أول مرة بالذى أشرت وخالفتنى فيه ، ثم علمت أن الصواب فيما رأيت ، فأعزلهم ــ أى ولاة عثمان ــ واستعن بمن تثق به ، فانهم أهون شوكة مما كان » ..

وعاد المغيرة الى عزلته يترقب ، ثم قصد الى معاوية بعد رجحان كفته فى أمر الحكمين غير مجازف بشىء بعد استقرار أمر الشام ــ على الأقل ــ لمعاوية وحزبه ، فولاه معاوية امرة الحج بعد انفراده بالدولة ، وكان المغيرة ينظر الى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص الى ولايته الأولى على مصر ، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية الى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب اليه يبذل النصيحة التى يأخذ منها أكثر مما يهب وقال له : أتستعمل عبد الله على الكوفة وأباه على مصر؟.. انك بين نابى الأسد ! فاستمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه فى مكانه ، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة فردها بمثلها ، ولم يطلب اعادة عبد الله الى ولايته بل قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج واصطنع النصيحة للخليفة الجديد فجاءه يقول : انك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولا تستطيع أن تنتزعه منه ، والرأى أن تولى على الخراج رجلا يخافك ولا تبالى أن تعزله متى شئت ، وأن تستعمل المغيرة على الصلاة والامارة ؛ فلا يقوى عليك بغير مال ، فاتبع معاوية مشورته غير كاره . لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهيتين

ثم استقر الأمر لمعاوية فهان عليه خطب المغيرة وهمّ بعزله ، فنمى[1] الخبر الى المغيرة من عيونه[2] حول معاوية وأشفق من غضاضة[3] العزل فآثر أن يذهب اليه معتزلا وأن يحتال مع ذلك حيلته التى يرغم بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرغوب فيه

شخص الى دمشق فاختلى بيزيد كأنه يلقاه عرضا ، ووسوس له أن يطلب الى أبيه تسميته لولاية العهد ، وزين له الأمر قائلا : « ان أصحاب النبى وكبراء قريش قد ذهبوا وبقى الأبناء وأنت من أفضلهم

(١) فنمي : نمي اليه : بلغه ٠ (٢) عيونه : جواسيسه ٠ (٣) غضاضة : مذلة ٠

فلا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال : أو ترى ذلك يتم ؟ قال : نعم .. فدخل يزيد على أبيه وأخبره بمقالة المغيرة ، فتعجل معاوية لقاءه واستدعاه ليطمئن الى حقيقة الخبر، وابتدره سائلا : ماهذا الذى يقوله يزيد ؟.. قال : انى يا أميرالمؤمنين قد رأيت مارآيت من سفك الدماء بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فأعقد له البيعة بعدك ، فان حدث بك حدث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .. قال معاوية : ومن لى بهذا ؟.. قال : أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بين هذين المصرين أحد يخالف .. فأمره معاوية أن يرجع الى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته فى ذلك ، ثم يرى ما يرى .

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات : لقد وضعت رجل معاوية فى غرز[١] بعيد الغاية وفتقت عليهم فتقا لايرتق[٢] أبدا . ثم أجابه ناس من قبيله الى بيعة يزيد فأرسل منهم عشرة الى دمشق ولم يرسل سائرهم ليمد فى حبل المساومة ؛ وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب اليهم ألا يعجلوا باعلان رأيهم ، ولم يكن اعلان هذا الرأى من ارب المغيرة لأنه باق فى ولايته ما احتاج الأمر الى بقائه قبل اعلان البيعة والاتفاق عليها ، وفى كل أولئك كان المغيرة كاسبا لا يفقد شيئا يقدر على استبقائه ، فان خرج مستعفيا فذلك خير من خروجه معزولا ، وان كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدية له فيما آراد فقد ربح ولم يخسر ، وباع السمك فى البحر والشبكة من عند غيره ؛ وان أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابنه — وهو أبعد الفروض — فقد كسب الوالي المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية لأنه مفقود قبل ذلك .. ولعله يرمى من هذا التلويح بولاية العهد الى استثارة الأمير المحروم واغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له فى حجاب الحرم[٣] ان لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان ، ويقال بحق فى جميع هــذه الأحوال أن المخدوع من الرجلين — معاوية والمغيرة — لم يكن هو المغيرة ان كان لابد بينهما من مخدوع

(١) غرز : ركاب الرجل من جلد · (٢) يرتق : رتق الشيء سده ضد فتقه · (٣) الحرم : بكسر الحاء : المنع ·

وكان زياد بن أبيه آخر المبايعين من الدهاة الثلاثة ، فلم يستطع معاوية أن يقنعه بترك فرصة من الفرص التى كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة ، ولم يقبل على معاوية وله رجاء قط فى الاعراض عنه ، مع أنه كان أول المنظور الى بيعتهم فى تقدير بنى أميــة ، لأنه كان ــ كما تقول فى عرف هــذه الأيام ــ ولدا شرعيا لأبى سفيان ، وأخا لمعاوية من أبيه ..

ولاه على بن أبى طالب فارس وكرمان ، فأرسل اليه معاوية يتوعده فقام زياد فى الناس خطيبا يغلظ الجواب ويرد الوعيد بمثله ، وجعل يقول فى خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية : « العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق ! يخوفنى بقصده اياى وبينى وبينه ابن عم رسول الله فى المهاجرين والأنصار . أما والله لو أذن لى فى لقائه لوجدنى أحمر[١] مخشيا ضرابا بالسيف » فكتب اليه معاوية يترضاه ويلين القول ودعاه بزياد بن أبى سفيان ، ثم قال : « كأنك لست أخى ، وليس صخر بن حرب أباك وأبى ، وشتان مابينى وبينك . أطلب بدم ابن أبى العاص وأنت تقاتلنى ، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحها ، وقد رأيت ... ألا أؤاخذك بسوء سعيك وان أصل رحمك وابتغى الثواب من أمرك . فاعلم ــ أبا المغيرة ــ انك لو خضت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم الا بعدا ، فان بنى عبد شمس أبغض الى بنى هاشم من الشفرة[٢] الى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فأرجع ــ رحمك الله ــ الى أصلك واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره . فقد أصبحت ضال النسب ، ولعمرى ما فعل بك ذلك الا اللجاج[٣] . فان أحببت جانبى ووثقت بى فامرة بامرة ، وان كرهت جانبى ولم تثق بقولى ففعل جميل ، ولا على ولا لى . والسلام »

على أن زيادا لم يستجب لدعوته حتى قتل الامام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله فى حياته ، ولبث معاوية قلقا من

(١) أحمر : أحمر هنا بمعنى شاق ومتعــب . (٢) الشفرة : بالفتح : لسكين العظيم المريض . (٣) اللجاج : التمادي في الامر ورفض الامتناع عنه .

جانبه لايأمن مكره وجرأته ، يقول لخاصته : مايؤمنني أن يبايع لرجل من أهل البيت فاذا هو قد أعاد على الحرب جذعة[1] ؟.. فتقدم المغيرة بتوسط بينهما ليشد ساعده بزياد فى كيده لابن العاص ، واستأذن معاوية فى اتيانه فأذن له أن يلقاه ويتلطف فى خطابه وجاءه المغيرة على يأس من خلافة بنى هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب فى خلافة بنى أمية ، واستجاب زياد للمغيرة فى أمر البيعة لمعاوية وتمنع بعد ذلك فى أمر البيعة ليزيد بولاية العهد ، وأنفذ رجلا من ثقاته الى الخليفة ليوصيه بالاناة « فان دركا[2] فى تأخير خير من اناة فى عجلة » ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على قرار

هؤلاء هم الدهاة الثلاثة ، لم يغلب أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية وانما أفادوا منه جميعا فوق ما أفادوه

وتذكر فى هذا المعرض بيعة الحسن فلا يقول قائل من المطنبين فى دهاء معاوية أو من المقتصدين فى أمره أنه كان عملا من أعمال الدهاء دخلت فيه الحيلة على الحسن وصحابته . فانما بايع الحسن بعد أن ثار به جنده واجترأوا على نهب معسكره حتى امتدت أيديهم الى البساط الذى يجلس عليه وجرحوه فى فخذه ... وقيل فى أسباب تلك الفتنة ما قيل من مختلف الأسباب والاشاعات فزعم بعضهم أنها نشبت فى المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قيس بن سعد ، وزعم بعضهم أنها نشبت فيه بعد اشاعة التسليم وقبول المصالحة بين الحسن ومعاوية ... ولا أمان على كل حال لأنصار يجترئون على امامهم بالنهب والسطو لسبب من الأسباب كائنا ما كان ، بعد ما تقدم من عنت هؤلاء الأنصار للامام فى حياته وشقاقهم فيما بينهم واستبداد كل منهم بفتواه فى أمر الدين وأمر السياسة والولاية . فلو لم يكن معاوية على حظ من الدهاء — قل أو كثر — لما استعصى عليه أن يظفر من الحسن بالمصالحة على شروطه فضلا عن المصالحة على الشروط التى أمليت عليه

وما يذكر أحد غير هؤلاء من النابهين المعدودين الذين قصدوا الى

(١) جذعة : بفتحتين ، وأعاد الحرب جذعة : أي جديدة كما بدأت .
(٢) دركا : الادراك واللحاق .

معاوية بالبيعة أو المؤازرة الا كان على علم بما يقصده قبل لقاء معاوية ، فلا خداع فى شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا انخداع

جاءه عبيد الله بن عمر ففرح به فرحا شديدا وقال لعمرو بن العاص : ما يمنع عبد الله أن يجيئنا كما جاءنا أخوه ؟ قال عمرو . انما جاءك عبد الله لأنه يخشى قصاص ابن أبى طالب منه لقتله الهرمزان بغير قضاء ، وكان عبد الله قد قتل الهرمزان لأنه شوهد مع أبى لؤلؤة قبل مقتل أبيه وشوهد معه الخنجر الذى حمله أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل الفاروق ، فأشار الامام بالقصاص منه وأبى عثمان ذلك لكيلا يقال : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم . فلما بويع الامام بالخلافة فى الحجاز خرج عبد الله الى معاوية ونادى مع المنادين بثأر عثمان ، وقال للامام فى بعض المواقف بين الجيشين : الحمد لله الذى جعلك تطلبنى بدم الهرمزان وجعلنى أطلبك بدم عثمان ..

***

وذهب عقيل بن أبى طالب الى أخيه يطلب منه مالا لسداد ديون عليه فأنظره موعد العطاء له ولسائر أصحاب الأعطية ، فتركه وذهب الى معاوية فقضى له جميع ديونه وقال له بعد أيام : أنا خير لك من أخيك .. قال عقيل : صدقت ! ان أخى آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لى من أخى وأخى خير لنفسك منك !

فكل دهاء يذكر لمعاوية فانما يذكر الى جانبه رفد[1] أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها فى مبادلة النفع بينه وبينه ، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، وكان نقش الخاتم الذى تختم به بعد ولايته : « لكل عمل ثواب »

ولهذا أعياه كل الاعياء أمر المخالفين الذين لا تعمل فيهم رقية[2] المال والولاية .. فامتنع عليه عبد الله بن عمر لأنه لم ينخدع بالدرهم والدينار « وانما ينخدع الرجال بهما » كما قال ، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوى الأمين الذى حفظ عهده لعلى بن أبى طالب قبل عزله اياه

---

(١) رفد : بكسر الراء : العطاء والصلة . (٢) رقية : تعويذة .

وبعد عزله ، وظل حافظا لهذا العهد بعد مقتله رضوان الله عليه ومصالحة الحسن لمعاوية وانفضاض الولايات واحدة بعد أخرى عن أعوان بنى هاشم ، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل الى قيس صحيفة بيضاء موقعة بتوقيعه مختومة بخاتم الخليفة يكتب فيها ما يشاء فلم يكتب فيها الا عهدا بالأمان لأصحابه الذين نصروا عليا والحسن بقيادته ، وجلس الخليفة بالكوفة يتلقى البيعة من مخالفيه القدماء فقال قيس : ان كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية ! فقال له : مه[1] رحمك الله . عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . قال قيس : لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبى سفيان الا ما أحب قال معاوية : فلا يرد أمر الله ! فأقبل قيس على الناس بوجهه فقال : معشر الناس ! لقد اعتضتم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز والكفر من الايمان فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين وقد وليكم الطليق ابن الطليق ، يسومكم[2] الخسف ويسير فيكم بالعسف[3] ، فكيف تجهل ذلك أنفسكم ، أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون ؟ !.. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال : أقسمت عليك .. ثم صفق على يده ونادى الناس : بايع قيس ! فقال : كذبتم والله مابايعت ... وضاع صوته بين الصياح والضجيج

***

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمرو وقيس بن سعد بمعزل عن حزب الدولة الجديدة الا من آثر الجهاد فى غزو الأعداء ولم يجد علما للجهاد غير علم الخليفة القائم بتجنيد الجند وتجريد السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصرة والأكاسرة وبطلت كل حيلة من حيل « الثواب » بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء القروم الذين كانوا بحق عند المسلمين « بقية الناس »

الا أن معاوية كان يصطنع الحيلة التى تجديه فى كفاح خصومه ، وان لم تكن من قبيل الغلبة بقوة العقل وصولة « الشخصية » الطاغية على من دونها فى البأس والمضاء ..

(١) مه : اسم فعل أمر بمعنى انكفف • (٢) يسومكم الخسف : يكلفكم المشقة والذل • (٣) بالعسف : الجور والظلم •

كانت له حيلته التى كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه فى الدولة من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذيل بين خصومه بالقاء الشبهات بينهم واثارة الاحن فيهم ، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوى قرباه

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوى خطر على وفاق ، وكان التنافس « الفطرى » بين ذوى الأخطار مما يعينه على الايقاع بينهم كما كان يحدث بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هين لا تخفى خبيئته على الرجلين ، فكان يسمع لكل منهما فى الآخر ويطيع كليهما فى دسه واغرائه ليعلما بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه ، فلا يتفقا عليه ، وما هما بمتفقين ولا مأرب لهما فى الاتفاق ، بل المأرب الذى يحرصان عليه معا أن يقوم بينهما حجاز يعطيهما ما يسألان ويكيد بكيدهما كما يحبان

ودأبه فى الوقيعة بين أهل بيته كدأبه فى الوقيعة بين النظراء من أعوانه . فلم يكن يطيق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبى سفيان ، ولم يكن ليهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بنى العاص .. قال ابن الأثير فى أخبار سنة أربع وخمسين : « وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان ، وكان سبب ذلك ان معاوية كتب الى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليجعلها صافية ويقبض منه فدك وكان وهبها له ، فراجعه سعيد بن العاص فى ذلك فأعاد معاوية الكتاب بذلك فلم يفعل سعيد ؛ ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية وولى مروان وكتب اليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره ، فأخذ الفعلة وسار الى دار سعيد ليهدمها فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك . أتهدم دارى ؟ قال : نعم . كتب الى أمير المؤمنين ولو كتب اليك فى هدم دارى لفعلت .. فقال : ما كنت لأفعل . قال : بلى والله ..! قال : كلا .. وقال لغلامه : ائتنى بكتاب معاوية ، فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال : كتب اليك فلم تفعل ولم تعلمنى ؟..

قال سعيد : ما كنت لآمن عليك وانما أراد معاوية أن يحرض بيننا ، فقال مروان : انت والله خير منى . وعاد ولم يهدم دار سعيد . وكتب سعيد الى معاوية : العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا أن يضغن بعضنا على بعض .. فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقا على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك .. فكتب اليه معاوية يعتذر ويتنصل[١] وانه عائد الى أحسن ما يعهده . وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيرا فقال له معاوية : ما باعد بينه وبينك ؟ قال : خافنى على شرفه وخفته على شرفه . قال : فماذا له عندك ؟ قال : أسره[٢] شاهدا وغائبا » ..

ومضى معاوية على هذه الخطة التى لا تتطلب من صاحبها حظا كبيرا من الحيلة والروية . ولعلها تناقض الدهاء فيما ينكشف من عللها التى لا تدق على فهم أحد . فلو انه استطاع أن يجعل من كل رجل فى دولته حزبا منابذا لغيره من رجال الدولة كافة لفعل ، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعات ، ولكن العبرة لقارىء التاريخ فى زنة الأعمال والرجال أن تجد من المؤرخين من يسمى عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة ، لأنه فرّق الأمة شيعا شيعا فلا تعرف كيف تتفق اذا حاولت الاتفاق ، وما لبث أن تركها بعده تختلف فى عهد كل خليفة شيعا شيعا بين ولاة العهود !

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض ويتقى شر فريق منهم بشر فريق ، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدما ومؤخرا وبين كل فريقين وعلى كل حال وفى كل موقف كأنها غرض مقصود لذاته أو كأنها خير « مطلق » لاشرّ فيه ..

وبدأ بهذه الخطة فى السياسة العامة على عهد عثمان فخص المهاجرين بدعوته قبل مرجعه الى الشام وقام بينهم يقول بعد أن دعاه عثمان للمقال : « أما بعد يامعشر المهاجرين وبقية الشورى فاياكم أعنى واياكم أريد » ... ثم اتبع ذلك بكلام طويل فى معناه يقول فيه : « يامعشر

(١) يتنصل : تنصل الى فلان من الذنب خرج وتبرأ . (٢) أسره : الاسر القوة وضخامة الخلق .

المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله اياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينــة مأوي الحق ومنتهاه وانما ينظر التابعون الى السابقين والبلدان الى البلدين فان استقاموا استقاموا وأيم الله الذى لا اله الا هو .. لئن صفقت احدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم فى الناس الا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض .. »

***

ويروى بعض المؤرخين انه لما استقر له الأمر وبويع له بالخلافة وجاءه وفد الأنصار أمر أن يدعى كل منهم باسمه الى حضرته بمشورة عمرو ابن العاص الذى كره أن يدعى الجمع كله باسم الأنصار ، ولكن عمرو ابن العاص لم يكن معه يوحى اليه حين خص المهاجرين بتلك الدعوة قبل أن يتفقا على شيء فى أمر الدولة ، ولم يكن سلطان عمرو هو الذى احتمى به الأخطل حين اجترأ على هجاء الأنصار فقال :

ذهبت قريش بالمكارم كلها   واللؤم تحت عمائم الأنصار

فانما اجترأ الشاعر هذه الجرأة بما علم من رضى الخليفة وأمانه أن يصيبه مكروه من جراء ذلك الهجاء

ولم تقف خطة التفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة لأنه عمد الى أهل مكة والطائف فى بقعة واحدة ففرق بينهما حين آثر الثقفيين ــ وهم أهل الطائف ــ بزلفاه وسن لمن بعده سنة هذا الايثار ، فكان من رجال بنى أمية المغيرة وزياد والحجاج ومحمد بن القاسم ورهط من الأقربين والصنائع[1] ، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلفائه كالحرس على أهل مكة ممن بقى فيها غير الأمويين السفيانيين ، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسمهم بين بنى حرب وبنى العاص ، وقسم بنى العاص بين بيت سعيد وبيت مروان

ومن خطط التفرقة التى حسنت لديه فى حينها ، وساءت عقباها بعد حين ، وبعد كل حين ــ ذلك النزاع المشئوم بين اليمانية والمضرية ، أو

(١) الصنائع : جمع صنيع أو صنيعة ، تقول : هو صنيعي أو صنيعتي أي الذي ربيته وخرجته ٠

بين الكلبيين والقيسيين على اختلاف النسب والعناوين ، وقد خبط[1] الأكثرون من مؤرخي العصر فى تعليله بمختلف العلل ، الا العلة المقصودة التى دبرت فى ذلك العصر أسوأ تدبير ، ولعل المدبرين كانوا يحسبونه يومئذ أحسن تدبير ..

فالعصبية فى القبائل العربية خليقة لا تهمل فى حساب المنازعات والمناظرات فى زمن من الأزمان ، ولكنه من السخف أن يقال ان العصبية كانت علة انتصار اليمانية لبنى أمية على بنى هاشم ، وان اعتزاز الهاشميين بالنبوة هو الذى أحفظ عليهم صدور القبائل من غير المضريين الذين ينتمى اليهم بيت النبوة من بنى هاشم

فقد كان بنو هاشم وبنو أمية جميعا من قريش ، وكان اعتزاز بنى أمية بالنسبة القرشية أظهر وأجهر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم ــ دولة الأمويين ــ اذ كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب فى استحقاق الخلافة وقد كانت اليمن هى القطر الوحيد الذى رحب بوالى الامام على فى أول بيعته ، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم ــ بين أوس وخزرج ــ ينتمون الى اليمانية ، وكانت كندة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه زمنا طويلا بعد قيام الدولة الأموية والدولة العباسية ، وكان أشد أعوان الفاطميين بعد ذلك من اليمانية فى المشرق وفى المغرب ولما تلاقى جيش على وجيش معاوية فى وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة تقاتل فى كلا الجيشين .. قال ابن الأثير : « وسأل على عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقفهم فقال للأزد : اكفونا الأزد ، وقال لخثعم : اكفونا خثعم ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام الا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم الا القليل صرفهم الى لخم ... »

فالنزاع بين اليمانية والمضرية لم يكن نزاعا على فخر النبوة ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره ، وانما كان نزاعا بين سلاحين أو بين جيشين

---

(١) خبط : سار على غير هدى .

متنافسين في مكان واحد عدا ما هنالك من النزاع بين الفكرين . ونحن نرى في عصرنا — وفي كل عصر — أمثال هذا التنافس بين الأسلحة كلما جنح ولاة الأمر الى فريق منهم دون فريق ، وقد رأينا هذا التنافس بين سلاح البر وسلاح البحر وسلاح الهواء في الجمهورية الفضية وكلهم من جنس واحد أو قومية واحدة لأن ولاة الأمر هناك يؤثرون سلاحا على سلاح في التنازل بينهم على السند الذي يستندون اليه

لقد كانت عصبية النسب عنوانا من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن وقبائل مضر في دولة بني أمية بالشام ، ولكن هـذه العصبية لم تكن لازمة كل اللزوم لاثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة ، وقد حدث مثله بين قبائل اليمن وحدث مثله بين قبائل مضر على حسب الطوارىء والمناسبات ، ولو كان الجند كلهم من قبيلة واحدة وأراد ولي الأمر أن يثير المنافسة بينهم لما أعياه ذلك كما حدث في هذا العصر بين الشعوب الأمريكية في الجنوب على ما قدمناه

***

ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمضرية ولم تكن له من خطة ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء ، وقد كان هو نفسه من المضريين ولكنه كان يبدو في بعض الأحايين كأنه من أبناء اليمن عدو لأبناء مضر ، وطابت له هذه السياسة فاستمرأ[1] مرعاهم الوخيم حتى كانت عقباها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين

وأبرع ما برع فيه من ألوان الدهاء القاء الشبهة بين خصومه في زمن كانت فيه هذه الشبهات من أيسر الأمور ، لكثرة التقلب والتحول في الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس أو أنصـار الأمس وخصوم اليوم ..

كان اذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم فاستعصى عليه كتب له رسالة مودة وثناء وأنفذها مع رسول يحمل اليه الهدايا والرشى كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من

---

(١) استمرأ : استمرأ الضيف الطعام استطابه .

دولة الروم ، ويخرج الرســـول العربى من طريق متبـاعد كأنه يتعمد اروغان من العيون والجواســيس ، فاذا اعتقـله الروم ـ ولابد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى اليه ـ وقعت الشبهة على البطريق المقصود وتعذر الاطمئنان اليه من قومه بعد ذلك ، وعزلوه وأبعدوه ان لم ينكلوا به أشد النكال ..

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه فى نفس الامام وساعدته الحوادث على خلق هذه الريبة كما أجملنا ذلك فى كتابنا عن عبقرية الامام « فشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة . فان قيس بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى ســبعة نفر لا يحمونه من بطشــهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانيين الهاربين الى مصر من دولة على فى الحجاز ، ولما بايع المصريون عليا بقى العثمانيون لايبايعون ولا يثورون وقالوا لسعد : أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .. وأراد الامام أن يستوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب اليه يقول : اننا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون ، والرأى تركهم ... »

وتعاظمت بعد ذلك الظنون فى زمن صدقت فيه أكثر هذه الظنون . فأما معاوية فلم يكن يكربه(١) الظن ولا الشبه بالظن لأنه يعلم المنفعة التى يعطيها والمنفعة التى يريده أعوانه من أجلها ، وأما الامام فلم تكن له عصــمة من الظن غير الحيطة وغير التجربة ، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها مما سينجلى عنه مستقبل مجهول

فهذه الحيلة ـ حيلة الشبهة ـ كانت من أنجح الحيل فى سياسة معاوية مع خصومه ، لأنه زمن الشبهات وهى كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم ، وقد نجحت ونجعت(٢) بفضلين لا بفضل واحد : أحدهما فضــل التدبير والآخر فضل الحوادث بغير تدبير

(١) يكربه : كرب الامر الرجل اشتد عليه وضايقه • (٢) نجعت : نجع الدواء في العليل ، والوعظ في السامعين أثر وأفاد •

وحيـــلة أخرى لا نجزم بها ولكننا نشير اليها فى مكانها مما رواه الرواة عن الوسائل « الخفية » التى توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه ، وحسبت يومئذ من ضروب دهائه ، أو من ضروب كيده وهو مرادف عند عامة القوم لمعنى الدهاء

مات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذى ولاه الامام مصر بعد عزل قيس ، ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعا بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين انها غيلة مدبرة ، وان صاحب الغيلة من كان له نفع عاجل بتدبيرها ، وهو معاوية

***

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر انه قال : « ان لله جنودا من عسل » ... وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل له تمهله غير ساعات

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى المشهور

قال فى كتابه مقاتل الطالبيين : « ارسل معاوية الى ابنة الأشعث انى مزوجك بيزيد ابنى على أن تسمى الحسن بن على ... وبعث اليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمت الحسن فسوغها[1] المال ولم يزوجها من يزيد — فخلف عليها رجل من أهل طلحة فأولدها ، فكان اذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيّروهم وقالوا : يا بنى مسمّة الأزواج » ..

وقال ابن الكلبى عن أبيه فى سبب موت الأشتر : « انه لما ســار الأشتر الى مصر أخذ فى طريق الحجاز فقدم المدينة فجاءه مولى لعثمان ابن عفان يقال له نافع وأظهر له الود وقال له : أنا مولى عمر بن الخطاب . فأدناه الأشتر وقربه ووثق به وولاه أمره ، فلم يزل معه الى عين شمس فلما وصل الى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المذكور العسل فمات منه ... وقال ابن سعد انه سم بالعريش ، وقال الصورى صوابه القلزم .. »

---

(١) سوغها : سوغه ما أصاب جعله هنيئا له ٠

وجاء فى أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الأثير : « خرج الأشتر يتجهز الى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع فى مصر فعلم أن الأشتر ان قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبى بكر فبعث معاوية الى المقدم على أهل الخراج بالقلزم وقال له : ان الأشتر قد ولى مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت . فخرج الجايسات — وفى رواية الطبرى الجايستار — حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق الى مصر فلما انتهى الى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياه فلما شربها مات ... وقام معاوية خطيبا ثم قال : « أما بعد .. فانه كانت لعلى يمينان فقطعت احداهما بصفين — يعنى عمار بن ياسر — وقطعت الأخرى اليوم — يعنى الأشتر »

***

واتفق ابن الأثير والطبرى على رواية واحدة فى الجملة عن موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد « وكان سبب موته — كما جاء فى ابن الأثير — انه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا اليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه فى بلاد الروم ولشدة بأسه ، فخافه معاوية وخشى منه ، وأمر ابن آثال النصرانى أن يحتال فى قتله وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص ، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس له ابن آثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له ، وقدم خالد بن عبد الرحمن المدينة فجلس يوما الى عروة بن الزبير فقال له عروة : ما فعل ابن آثال ؟ فقام من عنده وسار الى حمص فقتل ابن آثال فحمل الى معاوية فحبسه أياما ثم غرمه ديته ، ورجع خالد الى المدينة فأتى عروة فقال عروة : ما فعل ابن آثال ؟ فقال : قد كفيتك ابن آثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ يعنى قاتل الزبير . فسكت عروة ! » ..

وسبق الطبرى فقال : « ذكر ابن جرير وغيره أن رجلا يقال له ابن

آثال ــ وكان رئيس الذمة ــ سقاه شربة فيها سم فمات ، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له فى ذلك ولا يصح ، ورثاه بعضهم فقال :

أبوك الذى قاذ الجيــوش مغربا
الى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبهته بعــد هجعة
بقرع لجــام وهو أكتع[١] ناعس
وما يستوى الصفان صف لخــالد
وصف عليه من دمشــق البرانس[٢]

وقد ذكروا أن خالد بن عبد الرحمن بن خالد قدم المدينة فقال عروة ابن الزبير : « ما فعل ابن آثال ؟ » فسكت . ثم رجع الى حمص فثار على ابن آثال فقتله فقال : « قد كفيتك اياه . ولكن ما فعل ابن جرموز؟ فسكت عروة . ومحمد بن مسلمة فى قول »

***

وشاعت الشوائع بمثل ذلك عن آخرين من أعداء معاوية ومنافسيه ؛ يملى للناس فى تصديقها ان هؤلاء الأعداء ماتوا بغير عله موصوفة فى الموعد الذى يبغيه معاوية وتترتب عليه سياسته التى كان يرجئها الى مواعدها ... فالحسن يموت قبل بيعة يزيد كى لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن ، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر ، وعبد الرحمن بن خالد يموت وهو فى آوج سمعته بين قوم أعجبوا من قبله بأبيه ، ويوشك أن يتجمع حوله الناقمون من آهل الشام وأهل الكوفة والحجاز ... وكله مما يذكر ولا يعجل بنفيه ولكنه لا يقوم عليه دليل قاطع ، وأضعف ما فى هذه الروايات تكرار المكافأة باسقاط الخراج وهى مكافأة لا توافق جنايات الغدر والغيلة لأنها تتجدد فى كل موعد خراج ولايزال السؤال عن سبب اسقاطه متجددا بين العمال وأصحاب الأمر حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام ، وما كان معاوية بعاجز عن المكافأة على دس السم للأعداء ببذل المال المعجل والمؤجل فى الخفاء ؛

(١) أكتع : الاكتع من رجعت أصابعه الى كفه · (٢) البرانس : البرنس بضم الباء والنون : رداء خاف يلبسه المسافر أيام الصيف يتقي به الغبار ·

فلا يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جازما ولا أن يرفضها جازما ، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشيء الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله الى قضاء ما يبغيه

***

ونحسب أننا فى هذا الفصل قد ألمنا بأفانين الدهاء التى نسبت الى رأس الدولة الأموية ، ويتبين منها جميعا أن دهاءه من قبيل الدهاء الذى يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر . فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذى يسوق الأعوان سوقا الى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الاقناع الذى لابرهان فيه على الحقيقة ولكنه ضرب من « التنويم المغناطيسى » تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة ..

وانما استطاع معاوية أن يستهوى الناس اليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستئثاره بأقطارها جميعا على أيام عثمان ابن عفان ، واحتجازه لما شاء من أموالها وخيراتها وولاء أعوانها بغير رقابة عليه بعد أيام الفاروق ..

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملى له طبع مفطور على الاناة لم تتعجله الحوادث قط كما تعجلت منافسيه فى الحجاز والعراق ، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة فى ذلك النزاع الذى لا سواء فيه بين المصاعب والعقبات من الجانبين

***

ولو أنه قورن بينه وبين زملائه فى سعة الدهاء لكان آخر الأربعة صفا أو لم يكن على اليقين أول الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص فان الفارق بينهما كالفارق بين العبقرية والدربة[1] أو بين العقل المشبع بالقوة الحيوية والعقل الذى قصاراه من الرأى أن يحذر ويتربص ويتجنب حيثما كان

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودفاع ، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع

(١) الدربة : المرانة والعادة على الشيء .

دائم على أحسن الأحوال ، وكان هو يجهل موازين الرجحان بين الدهاءين ويحسب أن اتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الداهية من دهائه ، كأنما الدهاء سلاح يعمل عمل الدرع ولا يعمل عمل السيف أو السهم فى وقت من الأوقات ..

***

سأل معاوية عمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت فى شيء قط الا خرجت منه . قال معاوية : لكننى ما دخلت فى شيء قط وأردت الخروج منه !

ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ثم يبحث عن مخارج النجاة منها ، ولكنه كان يقتحم الخطر ويقول غير مرة : « عليكم بكل مزلقة[1] مهلكة » ... لأنه كان على ثقة بدهائه كلما ثاب اليه ، وعلى وفاء لطبيعة الاقدام والاقتحام التى تقترن بالعبقرية ودوافع القوة والحيوية ، وليس من عزم الأمور دهاء لا يندفع بصاحبه فى المضمار ولا يرجى من نفعه قط الا انه لجام

ولا نكران ــ بعد ــ لدهاء معاوية على هذا التقدير ، وانما قصاراه من هــذا التقدير أنه لم يضيع الفرصة التى سنحت له وانه صبر فى انتظارها وأطال الصبر غير متعجل لها قبل أوانها . وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه ..

---

(١) مزلقة : أرض لا تنبت عليها قدم .

الحلم

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم ، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين . وقد أفرد ابن أبى الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفا فى حلمه ، وقال قبيصة بن جابر : « صحبت معاويه فما رأيت رجلا أثقل حلما ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه » وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره

ولم يفخر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه . كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم ، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والاناة ، ولا غرابة فى ذلك من جميع الوجوه . فما من رجل على نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالنصيحة والصراحة . ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذى يكشف حبالته للقنيصة وهى خليقة ألا تقع فيها اذا انكشفت لعينها

ووجه آخر من وجوه الجهر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية انه كان حريصا على التحبب الى الناس لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لاينطوون على الحب لمن ينتزع السلطان . ان لم يكن نخوة وانفة فحسدا وغيرة ، أو اعراضا عن الغاصب الى من هو أولى بالسلطان فى رأى أصحاب هذا الرأى واقبالا على مستحقه عندهم بغير نزاع

سئل : « أى الناس أحب اليك ؟ قال : أشدهم تحبيبا لى الى الناس » وغنى عن القول أن الصفح عن المسىء مع القدرة على البطش به من أقرب الوسائل الى كسب ولائه وكسب ولاء غيره ممن يسمع بالخبر ويحمده ، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون فى اذاعة كل خبر فيه مأثرة من مآثر العفو والاناة والبر بكل مسىء من أولئك الذين كانوا يتطاولون

عليه بالمساءة فى أول عهده بالملك على الخصوص ، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل ..

كان يقول : انى لأرفع نفسى أن يكون ذنب أعظم من عفوى ، وجهل أكبر من حلمى ، وعورة لا أوارىها بسترى ، واساءة أكثر من احسانى

وكان يقول فى مجالسه : «لو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت» ، وسأله بعضهم : كيف ذلك ؟ فقال : « كنت اذا شدوها أرخيتها واذا أرخوها شددتها » ..

وخطب يوما فقال : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وان لم يكن منكم الا ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر[1] أذنى وتحت قدمى » ..

وحد الحلم عنده ألا يكون فى العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه : أغلظ له رجل فأكثر فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال : انى لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا »

ووجه آخر غير هـذه الوجوه كان من دواعى اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التى كان فى وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما الى ذلك من المناقب التى يسلمها له الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم

كان الحلم دعاية سياسية فى خصومته مع على بن آبى طالب بما اشتهر به من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى

كان الحلم صفة من أعز صـفات الرئاسة عند الأمة العربيـة ؛ وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينـه « الحكمة » ..

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثروا فى مديحهما اكثارهم فى القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل ..

فأما الحلم فقد كانوا يغالون فى الثناء عليه لأنه محمدة يطلبونها فى الرؤساء ولا تجرى مجرى الصفات المبذولة لسائر المتصفين ، ولما اختلف

---

(١) دبر : الدبر من كل شيء عقبه ومؤخره .

على ومعاوية لم يكن أحد ينكر على علىّ شجاعته وتقواه وسابقته الى الاسلام وقرابته من رسول الله ، فاذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة فتلك هى الحلم دون غيره ، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأى والحلم والحزم ، وان عليا صاحب الشجاعة والصلاح ، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة الدعاة من حزبّ معاوية وكاد أن يقبلها الناقدون لعلى من حزبه لاشتداده فى الحق الذى لامثنوية فيه ، وأمسك معاوية عن كل لجاجة فى أمر التقوى والصلاح ليقول كلما نافس عليا وابنه الحسن : ان لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب الى الناس ، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها فى مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذى سلم له المنصف والمكابر بفضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى

***

لا جرم كان فى أخبار حلمه افراط ومجاوزة للمألوف من أمثاله ، وكان من أهله من يثور لافراطه هذا ويحس الهوان فى عزته لما يحتمله صاحب الأمر كله فى دولتهم من الجرأة عليه وعليهم ، وكان يزيد — ابنه وولى عهده — أشد هؤلاء الثائرين سخطا على أبيه ، يقول له كلما راجعه : « أخاف أن يعد ذلك منك ضعفا وجبنا » .. فيقول له : « أى بنى ! انه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة . فامض لشأنك ودعنى ورأيى »

وقد يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم « المفرط » الى سورة[1] الشباب وحب الاستطالة[2] بالعزة والسؤدد على عادة أترابه وأنداده ، ولكن الرأى بين آل بيته « المحنكين » أنه كان يبالغ فى احتمال الأذى والصبر على المساءة ، وكان رجل فى حنكة عبد الملك بن مروان يسمى ذلك منه دهانا كما قال فى بعض خطبه : « ما أنا بالخليفة المستضعف يعنى عثمان ، وما أنا بالخليفة المداهن يعنى معاوية ، وما أنا بالخليفة المأفون — يعنى يزيد »

(١) سورة : بالفتح الحدة والشدة • (٢) الاستطالة : استطال على القوم : رفع نفسه عليهم وغلبهم وقهرهم •

ومما يدل على أن الفخر بالحلم دخل فى دعاية الخصومة بين معاوية وعلى خاصة أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولا يفخر به أحد من الأمويين غير الفرع المؤسس لدولتهم فى ابان النزاع الأول على الخلافة ..

فالمعلوم أن بنى أمية فرعان : فرع حرب وفرع أبى العاص ، والى حرب ينتمى أبو سفيان وابنه معاوية ، والى أبى العاص ينتمى مروان ابن الحكم ومن خلفه من ذريته ، وفى مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سليمان بن عبد الملك ..

***

فالمفاخرة بالحلم انما كانت تجرى على لسان معاوية ولم تجر بعده على لسان المروانيين حين تأسست الدولة الأموية واستغنى القائمون بها عن مقابلة فضائل على بن أبى طالب بفضائل « سياسية » يرجحون بها أنفسهم فى ميزان الخصومة

كان معاوية يقول : اذا لم يكن الأموى حليما فقد فارق أصله وخالف آباءه ..

وكان يقول : « يابنى أمية ! فارقوا قريشا بالحلم . فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعه حلما فأرجع وهو لى صديق ، ان استنجدته أنجدنى وأثور به فيثور معى ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا زاده الا كرما »

وكان المتقربون اليه يذكرونه حلم أبى سفيان اذا أنكروا منه سورة النقمة والغضب . وقيل له بعد مقتل حجر بن عدى : أين غاب عنكم حلم أبى سفيان ؟ فكان يقول : حيث غاب عنى حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت . وقال للسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال : لم يكن معى رشيد ..

ولاشك أن معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعة قديمة فى بيته بين بيوت بنى أمية ، لأن هذا الفخر لا يخلق بين يوم وليلة فى البلاد العربية

التى تذكر وراثاتها وتعيدها ولا تخاطب بها من يجهلها ، ومن المشهور أن حرب بن أمية أصلح بين قريش وهوازن فى حرب الفجار الثانية بعد اقتتال يسير ، وان ابنه سفيان كان يتأنى ولا يتهجم فى خصومات الجاهلية وخصومات الاسلام ؛ ولا يمتنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة اليه فى المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة ، وقد سكت عنه الأمويون على عهد الفرع الآخر منهم ــ وهو فرع المروانية ــ لأنهم لم يحتاجوا اليه فى منازعاتهم ، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع الى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة اليه

***

والوقائع ــ بعد ــ أصدق من اطراء المادح وغمز القادح ، فانها قد تمتزج بالكذب عمدا أو على غير عمد ، ولكنها فى كثير من الأحوال تنقض كلام قائلها اذا عرضت على التمحيص[1] والتحليل فيسوقها للمدح وهى منطوية على دخيلة تبطل مديحه المقصود ، أو يسوقها للقدح وما تنطوى عليه آية من آيات الثناء والمديح

والوقائع التى رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة ، تتفق فيها الكلمات أحيانا ويختلف فيها القائلون والرواة ، أو يتفق فيها هؤلاء جميعا بغير اختلاف كبير ، وهكذا معظم الوقائع التى رويت عن أعلام ذلك الجيل وما بعده ، فلا بد فيها من حساب للمبالغة وحساب للترجيح والتصحيح بالمقارنة والمضاهاة[2]

وليست كل هذه الوقائع ــ مع ذلك ــ بصالحة للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف

فمنها ما تعرض فيه للاساءة مستدعيا لها مستعدا لها فى مجال التبسط والمزاح ، والعالم الاسلامى لم يتعود بعد طغيان الملك ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بمثله فى كل مقام ..

---

(١) التمحيص : محص فلان الشيء : خلصه من كل عيب . (٢) المضاهاة: الموازنة والمقارنة .

قدم جارية بن قدامة السعدى عليه فقال : من أنت ؟ قال : جارية ابن قدامة . قال : وما عسيت أن تكون ؟ هل أنت الا نحلة ؟ قال : لا قل . فانما شبهتنى بها حامية اللسعة حلوة البصاق . ووالله ما معاوية الا كلبة تعاوى[1] الكلاب وما أمية الا تصغير أمة !

ورُويت هذه القصة على رواية أخرى ، فقيل ان معاوية بادره قائلا :

« أنت الساعى مع على بن أبى طالب والموقد النار فى شعلل — جمع شعلة — تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم ؟ فقال جارية : يا معاوية . دع عنك عليا فما أبغضنا عليا منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه . فقال له معاوية : ويحك يا جارية ! ما كان أهونك على أهلك اذ سموك جارية لا أم لك !.. قال جارية : أمّ ما ولدتنى . ان قوائم السيوف التى لقيناك بها بصفين فى أيدينا .. انك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنوة ، ولكن أعطيتنا عهودا ومواثيق فان وفيت لنا وفينا وان ترغب الى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالا مدادا[2] وأذرعا شدادا وأسنة حدادا . فان بسطت الينا فترا من غدر دلفنا اليك بباع من ختر ... قال معاوية : لا أكثر الله فى الناس من أمثالك

وما نظن معاوية كان مخاطبا بذلك الخطاب رجلا يوصف فى عصرنا هذا بأنه من « آكلى النار » ثم لايترقب منه جوابا كجوابه ، ولعله كان يرضيه أن يسمع منه تسليما واستكانة فيطمئن الى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه — ولا ريب — لم يغب عن ذهنه أن جارية أهل لأن سمعه ما سمع وأن يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التى لا يأباها كثير من النـاس ، وهى طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الكلام بمثله فى هذا المقام ..

ومن الجواب المستدعى — أو المستثار — قول خريم بن فاتك وقد دخل على معاوية مشمرا مئزره فقال له : « لو كانت هاتان الساقان لامرأة ؟ » وكان معاوية عظيم الاليتين يهجى فيقال فيه انه « الجاحظ

(١) تعاوي : عاوى الكلاب صايحها وعوى مثلها · (٢) مدادا : جمع مديد أي طويل ·

العين العظيم الحاوية[١] » فما عتم[٢] خريم أن أجابه قائلا : « فى مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين » !..

وأشبه بهذا المقام حواره مع الزرقاء بنت عدى خطيبة صفين حين ذكرت فى مجلسه بعد سنوات فأرسل اليها يستدعيها . فقالت للرسول : ان كان أمير المؤمنين جعل الخيار لى فانى لا أذهب ، فلما شدوا عليها فى الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبى سفيان ، والوليد ، وسعيد ابن العاص ، وعمرو بن العاص ، فهش لها ورحب بها ، ثم سألها : أتدرين فيم بعثت اليك ؟ ..

قالت : وانّى لى بعلم ما لم أعلم .. لا يعلم الغيب الا الله ..

فسكت هنيهة ثم قال : ألست أنت الراكبة الجمل الأحمر فى صفين تحضين الناس بين الصفين على القتال ؟

قالت : نعم !..

قال : فما حملك على ذلك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين . مات الرأس وبتر الذنب ولن يعود ما ذهب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر

قال : صدقت . أتحفظين كلامك يومئذ ؟

قالت : لا والله : أنسيته

قال : لكنى أحفظه ، ولله أبوك حين تقولين : « أيها الناس ! ارعووا وارجعوا . انكم أصبحتم فى فتنة ، غشيتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها ، ان المصباح لايضىء فى الشمس والكواكب لا تنير مع القمر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد

واسترسل فى قول الرواة يعيد عليها كلامها الى أن قال :

ــ والله يا زرقاء .. لقد شركت عليا فى كل دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك وأدام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسر جليسه ..

(١) الحاوية : الامعاء . (٢) عتّم : يقال : ما عتّم أن فعل كذا أي ما لبث وما أبطأ . (٣) العجيزة : العجز وهو ما بين الوركين ، والمؤخرة .

قال : أو يسرك ذلك ؟

قالت : نعم ..

قال معاوية : والله لوفاؤكم بعد موته أعجب الىّ من حبكم فى حياته اذكرى حاجتك ..

قالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسى لا أسألن أميرا أعنت عليه أبدا ..

ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاها

وجاءته بكارة الهلالية بالمدينة ، وقد أسنت وغشى[1] بصرها ، فسلمت وجلست ، فرد عليها السلام وقال : كيف أنت يا خالة ؟

فقالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيَّرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، ومن عاش كبر ، ومن مات قبر

قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيد دونك فاحتضر من دارنا
سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة
فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا
هيهات ! .. ذاك وان أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة
أغراك عمرو — للشقا — وسعيد

وقال سعيد بن العاص : هى والله القائلة :

فالله أخَّر مدتى فتطاولت
حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم للزمان خطيبهم
بين الجميع لآل أحمد عاتبا

فقالت بكارة : نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين .. وأنا والله قائلة ما

(١) غشي بصرها : أظلم .

قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، وما خفى عليك منى أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين ...

فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك . اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ...

ويتمّ الرواة روايتهم فيقولون انه قضى حوائجها وردّها الى بلدها ..

***

ولا مخالفة للمعهود فى ازدلاف[1] المزدلفين لصاحب الأمر بالوقوع فى خصمه بمحضر ممن يكره ذلك من خاصة أهله . فان نجا المزدلف بزلفاه فقد رضى وأرضى ، وان أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزجيها[2] الملقى فى مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذى يعنته ولا تطيقه دولته فى مطلعها . وقد ازدلف اليه الكثيرون فسلموا ، وازدلف اليه غيرهم فأصيبوا بحق لا يمترى[3] فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب ، ولا يمترى فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان ، وأظهره رد العدوان فى غير داعية للعدوان

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب ، وأمه بنت على أم كلثوم . فنال بسر بن ارطأة من الامام ، فما أمهله زيد أن قام اليه فعلاه بالعصا وشج رأسه . فلم يزد معاوية على أن قال لزيد : عمدت الى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته ؟ ثم التفت الى بسر فقال : تشتم عليا على رؤوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك

وكل أولئك شبيه أن يكون : بسر بن أرطاة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله ابن عباس ينال من على فى حضرة معاوية ، وزيد بن الفاروق لايشبه أباه ان صبر على ثلب[4] جده فى مكان حيث كان ، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر ان مضت فى سبيلها ، ولكنه لايبطش بزيد ان غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته ، ولا تساوى تلك السفاهة أن يشتريها بالنكال الذى تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة فى ملكه ، وكل أولئك ــ كما أسلفنا ــ شبيه أن يكون ، فلا يحسبه أحد فى ذلك العصر

(١) ازدلف : دنا وتقرب · (٢) يزجيها : أزجى الشيء وزجاه : دفعه برفق · (٣) يمتري : يشك · (٤) ثلب : سب وشتم ·

من حلم معاوية ، بل يحسبه من جبن زيد ان لم يصنع ماصنع بابن أرطأة

وان الأشبه بالصـــدق فى جملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هـــذه الاستثارة لأنها تمتعه بذكرى الشـــدائد التى تخطاها بعد فوات الغاشية[١] ، وتريحه الى لقاء خصـــومه وهم فى كنفه ينظرون اليه فى مستقر نجاحه وظفره ، ولا يضـــيرونه بقولة يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال ..

وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوى اللسن من العلويين ليضحك مما ينالهم كما يفعل ذوو السلطان فى كل زمن وكل أمة ، فربما كانت سخريتهم بالأنصـــار أمتع لهم من صد الخصوم ، وقد يطلقون بعضهم على بعض ليسخروا منهم جميعا ان لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين

***

وقد اجتمع من سجال[٢] بنى هاشم وخصومهم فى مجلسه ما ينعقد به سجل خاص فى مأثورات الحوار فى كل مقام ، ويصحح وقوعه فى رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذى تناقله الرواة

أناس من ذوى السلطان المحدث يعلمون هوان أقدارهم مع بنى هاشم وآل النبى وصفوة قريش، ويلذ لهم أن ينعموا بالسلطان وأن «يجتروا» تلك النعمة حيثما وسعهم اجترارها فى حضرة وليهم وعلى مسمع من السادة الأعلين الذين غلبوا على ذلك السلطان ، وأن ولى الأمر نفسه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير مأمون ، وأن الموتورين اذا سمعوا ما يكرهون فردوه بمثله فما فى وسعه أن يواجه العالم الاسلامى كل يوم بشهيد من آل البيت... فسبيله أن يصطنع المخالفة لجلسائه وأن يحذرهم مغبة اللهو بهذه الملهاة ولا أمان فيها من لسن القوم وانفتهم التى لم تخذلهم قط فى مقام المنـــاظرة والتحدى من زمن قديم . فان أصيب جلساؤه فعليهم وزر عملهم وليس لهم أن يطالبوه بالاقتصاص لهم من

(١) الغاشية : الداهية والقيامة · (٢) سجال : ساجل فلان صاحبـه : عارضه وباراه وفاخره وصنع مثل صنيعه ·

أمر قد اختاروه على خلاف رأيه ، وان سلم أولئك الجلساء فقد شفوا صدره من أولئك الموتورين

وتكاد القصص مع بنى هاشم فى مجلس معاوية تجرى كلها على وتيرة واحدة : رجل من آل البيت يدعى الى المجلس أو يأتى اليه فى أمر من أموره فيغرى به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثيره فيجاب بما هو أهله ، ويتغاضب معاوية على الجليس فيلومه اذا بلغ الجـدال والمحال[1] فصل المقال ، وما نرى أن الملهاة كلها كانت مدبرة لكى تنتهى الى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة . وماذا عليهم اذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان ؟

***

الا أن حديثا واحدا من أحاديث بنى هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث . فلم يكن البادئون به من جلساء معاوية ولا من آل البيت ، ولكن البادىء به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية[2] والمداراة ، وليس فيه نفع له فى شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره تستوجب ذلك الحديث

قيل انه تحدث الى ابن عباس فقال له : ان فى نفسى منكم لحزازات[3] بابنى هاشم . وانى لخليق أن أدرك فيكم الثأر وأنفى العار . فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم ؛ فقال له ابن عباس : والله ان رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسدا مخدرة وأفاعى مطرقة ، لايفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ويضربون قدما قدما من ناوأهم ...

الى أن قال فى رواية الرواة : « فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك ، ولولا طغام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم ... ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلوا مطروحا بالعراء .. وما أقول هذا لأصرفك عن عزيمتك ولا لأزيلك عن معقود نيتك ، ولكنها

---

(١) المحال : الكيد والمكر والجدال • (٢) التقية : اظهار الموافقة واضمار نقيضها • (٣) حزازات : الحزازة بفتح الخاء : وجع في القلب من غيظ ونحوه•

الرحم تعطف عليك ، والأواصر توجب صرف النصيحة اليك » . فقال معاوية : لله درك يا ابن عباس . ما تكشفت الأيام منك الا عن سيف صقيل ورأى أصيل . والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم

***

وان دواعى الشك فى مثل هذا الحديث لكثير ، لولا أن التلفيق فيه أعسر من أن يتاح لكل راوية يضع الكلام على كل لسان ، ولا يبالى أين موضعه من القائل والمجيب

فان كان معاوية قائلا مثل ذلك المقال لأحد من بنى هاشم فانما يقوله لعبد الله بن عباس دون غيره ، فانه حديث داهية يسبر(١) به غور داهية يقارنه من بيت خصومه ، وانه مع ذلك قرين تجمعه آصرة القرابة بآل على ولا تجمعه بهم آصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الوجهة . وقد تخلى ابن عباس عن ولاية ابن أبى طالب ووقعت بينهما الجفوة التى لم تصلحها حوادث الأيام بعد ذلك . ولا منافسة بين على وأبنائه فى حياته ولا بعد مماته ، وانما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته : انما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبى هو أبو طالب ، والآخر ابن عم للنبى هو العباس . فهاهنا على كل حال طلع يستطلع بتلف الكلمة المفاجئة ، ولا بعد مماته ، وانما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته : انما التحذير والتنبيه ..

وأى فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين ؟ أى فائدة كان يفيدها لو رأى من دهاء ابن عباس أنه يمهد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشفع لغيره من سائر أهل البيت ؟

ان غرابة هذه القصة هى التى ترجحها وتضعف الشك فيها ، فانها ان وقعت لن تقع الا على غرابتها ..

انها غريبة من معاوية الا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له

(١) يسبر غورا : سبر الجرح ونحوه : قاسه وامتحن غوره ليعرف مقداره ، والامر اختبره ، والغور : العمق .

ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة ولا يستطلع بغيرها ، وقد يبدو منه ما تنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بنى هاشم ، وكل بنى هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لا يختلفان اذا سمعوا مثل ذلك النذير ..

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطلق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفى باللسان ما لايضمره الجنان

***

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعا لم تكن فى ذلك العصر مما يستكثر فى مناسباتها ، وقد سمعها معاوية ــ أو سمعها جلساؤه معه ــ متوقعة مستثارة ، ولم يتعود الناس يومئذ آبهة الملك وطاعة العبيد للسادة ، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم النـــاس سكوتا فى موضع القول ، واغضاء فى موضع الانفة ، وانما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين فى حق الطاعة ، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب انسانا بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يجيبه بمثل خطابه ، فهذه « هرقلية » لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا ، ولم يكن فى طاقة معاوية أن يروّض رعاياه عليها دفعة واحدة . فاذا تمهل فيها آونة بعد آونة فانما يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار

ومن الوقائع التى رويت عنه وقائع يلتبس فيها الحلم ببطء الغضب وطول الروية والاناة ، ومنها ما يتلقى فيه الاساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الاجابة عنها بما يروى فيه النظر ويرتضيه ..

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب اليه ابن الزبير : « أما بعد يا معاوية . ان لم تمنع عبيدك من دخول أرضى والا كان لى ولك شأن » ..

وقيل ان معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله : ما ترى؟ فقال له يزيد : لتنفذن اليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه. فقال : بل عندى يابنى خير من ذلك ، وكتب الى ابن الزبير :

« وقفت على كتابك يا ابن حوارى[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ما ساءك ، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رقيماً[2] بالأرض والعبيد وأشهدت على فيه ، ولتضف الأرض الى أرضك والعبيد الى عبيدك والسلام »

فجاءه الجواب من ابن الزبير يقول فيه : « وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هذا المحل والسلام » ..

وأطلع معاوية ابنه على الكتاب الثانى كما أطلعه على الكتاب الأول فاسفر[3] وجهه ، وأبوه يقول : اذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء

ومن الاساءات ما لا خطر له لأنه من غير ذى شأن كشأن ابن الزبير، ولكنه يغضب العربى لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية اذ قال :

رمل . . . هل تذكرين يوم غزال
اذ قطعنا مسيرنا بالتمنى
اذ تقولين : عمرك الله هل شـ
ىء ، وان جل ، سوف يسليك عنى ؟

فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الأنصار فأبى ودله على الأخطل فنظم قصيدته التى يقول منها :

ذهبت قريش بالمكارم كلها
واللؤم تحت عمائم الأنصار

وأوشكت أن تكون فتنة ، اذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محنقا وحسر عن رأسه وهو يقول له : هل ترى يا معاوية لؤما ؟.. فقال : بل كرما وخيرا ، فما بالك ؟.. فأعاد عليه أبيات الأخطل وتوعده بأبيات يقول منها :

معاوى الا تعطنا الحق تعترف
لحى الأزد مشدودا عليها العمائم

---

(١) حواري : احد أنصار النبي . (٢) رقيما : كتابا ، ورقم الكتاب : كتبه . (٣) اسفر : اسفر وجه فلان حسنا : أشرق .

أيشتمنا عبـــــد الأراقم(١) ضـلة
وماذا الذى يجدى عليـك الأراقم
فما لى ثأر دون قطع لســانه
فدونك من يرضـيه عنك الدراهم

وتتم القصة بما قيل عن طلب معاوية للأخطل وتهديده اياه بقطع لسانه لولا شفاعة يزيد الذى أغراه بالهجاء

وفى رواية من هذه الروايات الكثيرة أن التشبيب انما كان بأخت معاوية وان يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان :

طال ليلى وبت كالمجنون ومللت الثواء(٢) فى جيرون

فقال له : وما علينا يابنى من طول ليله وحزنه أبعده الله ...
قال يزيد : وانه ليقول :

فلذاك اغتربت بالشـــــام حتى
ظن أهلى مرجمـــــات الظنون

فقال أبوه : وما علينا من ظن أهله ؟
قال يزيد : وانه ليقول :

هى زهراء مثـــــل لؤلؤة الغو
اص ميـزت من جوهـر مكنـون

قال معاوية : صدق يابنى . هى كذاك
قال يزيد : وانه ليقول :

ثم خاصرتها الى القبــــة الخضر
اء تمشى فى مرمر مســـــنون
عن يســـارى اذا دخلت اليهـا
واذا ما تركتهـــــا عن يمينى

فضحك معاوية وقال : ولا كل ذاك .. ثم حذر ابنه قائلا : ليس يجب القتل فى هذا ولكننا نكفه بالصلة ..

وزعموا فى بعض روايات القصتين أن معاوية أرسل فى طلب الشاعر

(١) الاراقم : جمع ارقم وهو أخبث الحيات . والاراقم حي من بني تغلب . (٢) الثواء : الاقامة .

وأبلغه أن هنـدا أخت رملة تعتب عليه لأنه لا يسويها بأختها ، وأراد بذلك أن يشبب الشاعر بهند فيعلم الناس انه كاذب فى كل ما نظم ، وانها أقاويل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون

والثابت من كل هذا الحديث بيت الأخطل فى هجاء الأنصار ، وربما ثبت مثله هجاء الأراقم قوم الأخطل من تغلب ، فاذا كان قد دخل فى الأمر تشبيب بأخت يزيد أو بعمته فربما هون خطره غضب الأنصـار وغضب المسلمين جميعا أن يهجو أنصار النبى شاعر من غير المسلمين ، ولو ان المسألة خلصت من هذا الحرج لما جاز قتل الشاعر من جراء لغوه كما قال معاوية ، فما كان سفك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح فى صدر الاسلام ، وقد مضى بعد هذا الجيل أجيال على سنة الملك العضوض[1] ولم يخطر للمهدى فى دولة بنى العباس أن يقتل بشارا وهو القائل فى أبى جعفر المنصور :

أبا جعـفر ما طول عيـش بدائم
ولا سـالم عمـا قليـل بسـالم
كأنك لم تسـمع بقتـل متـوج
عظيم ولم تسـمع بفتـك الأعاجم

***

بل هو الذى أفحش فى هجاء المهدى وهجاء نساء بيته وذهب يخبط بالمهايجة والتحريض بين بنى أمية وبنى العباس ، وما استباح المهدى عقابه الا بتهمة الزندقة والالحاد ، وما أمر الا بأن يضرب ضرب التلف ليقال فى ذلك انه انما أريد به الضرب فمات

وهذا بشار وذاك عبد الرحمن بن حسان

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الانسانية ــ أى فهم الانسان ــ لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات ولابد من الرجوع الى الوقائع وما لها من الأثر الطبيعى فى الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية أو ملكة عقلية

(١) العضوض : الملك المعسف الظالم .

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبدى لنا منه صفة لاشك فيها وهى طول الاناة وبطء الغضب ، وليست هى بالصفة التى ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة . اذ كثيرا ما يكون بطء الغضب شيئا « سلبيا » يدل على امتناع الغضب طبعا أو قلة الاستعداد له فى الخلقة ، ولا تكون الفضيلة أبدا « شيئا سلبيا » قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى

فليس معنى الشجاعة — مثلا — تجرد الطبع من الشعور بالخوف ، لأن الانســان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به يندفع اندفاع الجماد ولا فضــل له فى اندفاع لا يكلفه الغلبــة على خوف يساوره فى ضميره ..

***

وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة ، لأن من يتصرّف فى شىء لا قيمة له عنده كمن يتصرّف فى التراب والهواء وما اليهما من مبذول العطاء

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشــهوات ، لأن من لا يشتهى لا يطلب ولا يقاوم الاغراء ولا تحسب له عفة

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب ، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتى من بلادة فى الطبع وركود فى حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال

وانما الحلم أن يغضب الانسان وأن يحكم غضبه بارادته ايثارا لأمر يفوق الغضب فى قيم الأخلاق ..

فمن الحلم أن يأنف الانسان من الاستســلام للغضب ، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها اساءة المسىء

ومن الحلم أن يصفح الانسان عن الاساءة ايثارا للخير وعطفا على المسىء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع فى حق أبيه

ومن الحلم أن يقمع الانسان غضبه لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة ، وان لم يكن أسلمها له فى ذات

شأنه وشئون ذويه ..

ولا بد من التفرقة هنا بين الحلم ايثارا للنفع الانسانى أو النفع القومى ، وبين الحلم ايثارا للسلامة وعملا بطبيعة «الأنانية» وحب الذات

فليس من الحلم أن يضرب الضعيف فلا يرد الضربة بمثلها لأنه يعلم انه سيتلقى أضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على ايذائه ، وانما يقال عن هذا انه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين

ولا يكون الحلم أبدا عجزا عن مجاراة الغضب أو امتناعا للشعور به ، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع ، ولكنها تقوم على ارادة تملك الاختيار بين الخطتين ..

***

وجملة القول فى هذه الصفة ان الحليم هو الذى يملك الغضب ولا يملكه الغضب ، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه ، وكلما ارتفع السبب الذى من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه فى ميزان الفضيلة ، فمن يحسم الغضب حرصا على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصا على منافعه العاجلة أو الآجلة ، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره

ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف[1] فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة ، فهى فضيلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يمدح قوما من آل شيبان :

عليهم وقار الحلم حتى كأنما
وليدهم من أجل هيبته كهل
ان استجهلوا لم يعزب[2] الحلم عنهم
وان آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

أو كما قال النابغة الجعدى :

(١) نستشف : استشف الشيء : نظر منه الى ما وراءه ٠ واستشف الكتاب : تأمل ما فيه ٠ (٢) يعزب : عزب الشيء : بعد وغاب ٠

ولا خير فى حلم اذا لم يكن له
بوادر[١] تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل اذا لم يكن له
حليم متى ما أورد الأمر أصدرا

ومن كلام الأحنف بن قيس ـ أحد مشاهيرهم بالحلم ـ « رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه » ...

وكان من حلمه انه يصفح عن المسيء وان ظن به الذل ويقول : « ما أحب ان لى بنصيبى من الذل حمر النعم[٢] » .. فلما قيل له : كيف وأنت أعز العرب ؟.. قال : « ان الناس يرون الحلم ذلا » ...

وهو القائل : « لا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان» ..

وسألوه : ما الحلم ؟.. فقال : « قول ان لم يكن فعل ، وصمت ان ضر قول » ..

***

وروى العقد الفريد أن هشام بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان : بمَ بلغ فيكم الأحنف ما بلغ ؟.. فقال : ان شئت أخبرتك بخلة ، وان شئت بخلتين ، وان شئت بثلاث ..

قال : فما الخلة ؟

قال : كان أقوى الناس على نفسه

ثم قال عن الخلتين انه كان موقى الشر ملقى الخير ، وعن الثلاث انه كان لا يجهل ولا يبغى ولا يبخل

وأستاذ الأحنف فى الحلم قيس بن عاصم المنقرى كان مشهورا بالاقدام كشهرته بالحلم والاغضاء عن الذنب كبيره وصغيره ، وبلغ من حلمه انه صفح عن ابن أخيه الذى قتل ابنه ، وقد أوثقه من ود أن يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنبا : « بئس ما فعلت . نقصت عددك وخنت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومك ... وأنت الذى كنا نرجو لعظائم الأمور » ثم واسى زوجته أم القتيل

(١) بوادر : البادرة : ما يبدر من حدة الانسان في الغضب ٠ (٢) النعم : بفتحتين : المال الراعي يقع على ذوات الخف والظلف ٠ وحمر النعم : أجودها ٠

وأجزل لها الدية من ماله ، وحسم بذلك شرا مستطيرا فى القبيلة لايجعله عنده أخطر من شر الثكل الا الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد

***

ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصـــدد الأخبـــار التى نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء ، ومنهم الأحنف ومعاوية ..

فابن عبد ربه ينقل لنا أن الأحنف سئل : من أحلم .. أنت أم معاوية ؟ فقال : تالله ما رأيت أجهل منكم . ان معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس عليه أو أدانيه ؟

فاذا سمع السامع المتعجل هذا فحرى أن يتقرر لديه رجحان معاوية فى الحلم بشهادة الرجل الذى يضرب به المثل فى حلمه ، وأى شـــهادة عسى أن تكون أصدق من هذه الشهادة ..!

وما هى الا معاودة لحظة فى السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم أن السؤال كان لا يحتمل جوابا غير ذلك الجواب ، لو أنه سؤال ما كان ينبغى أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله أن يقول له : بل أنا أحلم من معاوية !.. وقد كان الأحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقــد قبل ذلك بسطر واحد : لست حليما ولكننى أتحالم

***

ولو أن الأحنف قال برأيه ذاك اعتقادا ولم يقل به تواضعا أو تحالما لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة فى أسباب تفضيله معاوية على نفسه ... فما هى القدرة التى كانت مطلوبة من الأحنف فى مقامه ؟ لقد كان يكفيه أن يقدر على كلمة لا يعجز عنها أحد ، وكان يكفيه أن يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان ، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها فى كل وقت ولا مع كل أحد . الا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخبط

ما تشاء بغير مبالاة ، وليس قصـارى الحليم انه غير الطيـاش وغير الخابط الذى لا ينظر الى عقباه

ويوزن الراوى فى روايته هذه فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية ويسر انتقال الاشاعة من قائل الى قائل ومن ناقل الى ناقل . فما فى هوى الأندلسيين لبنى أمية من خفاء ودولتهم الأولى أموية فى أساسها ، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبى مولى هشـام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشـام بن عبد الملك بن مروان ، وأقل ما يقال فى نقل ابن عبد ربه لكلمة الأحنف انها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه

***

ونعود الى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثرا واحدا لطبيعة الغضب التى تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتحنت فى نفس الرجل الحزين فى صدمة الثكل وهو المقتحم المغوار فى الجاهلية والاسلام

ونخال أن التاريخ لم يحفظ لنا غير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليقـة فى طوية الرجل ، فانها فى الحق لغز لا يكفى لحله مجرد القول بالحلم أو بالغضب المكبوت أو بطول الاناة ، وانما يحله علم النفس الحديث على النحو الوحيد الذى يعطينا منه معنى مفهوما على وجه من الوجوه ..

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدى وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة ، فما كان له من خطب غير انه واحد من أولئك الذين قال فيهم معاوية انه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم لأنهم لا يحولون بين بنى أمية وملكهم ، فان كان لابد من اسكاته فقد يسكته أن يحملوه الى مكان لا يلقى فيه من يستمع اليه

***

قال ابن الأثير بعد أقاويل شتى : « ان زيادا خطب يوم جمعة فأطال

الخطبـة وأخر الصلاة فقال له حجر بن عدى : الصلاة !.. فمضى فى خطبته .. فقال : الصلاة !.. فمضى فى خطبته .. فلما خشى حجر بن عدى فوت الصـلاة ضرب بيده الى كف من حصى وقام الى الصـلاة وقام الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلى بالناس وكتب الى معاوية وكثر عليه ، فكتب اليه معاوية ليشده بالحديد ويرسله اليه . فلما آراد أخذه قام قومه ليمنعوه فقال حجر : لا ، ولكن سمعا وطاعة . فشد فى الحديد وحمل الى معاوية فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال معـاوية : أأمير المؤمنين أنا ؟.. والله لا أقيلك[1] ولا أستقيلك[2].. اخرجوه فاضربوا عنقـه ، فقال حجر للذين يلون أمره : دعونى حتى أصلى ركعتين ، فقالوا : صل.. فصلى ركعتين خفف فيهما ، ثم قال : لولا أن تظنوا بى غير الذى أردت لأطلتهما ، وقال لمن حضر من قومه : والله لا تطلقوا عنى حديدا ولا تغسلوا عنى دما . فانى لاق معاوية غدا على الجادة . وضربت عنقه »

ودهش النـاس لهذه المقتلة الجزاف واهتز لها العالم الاسلامى هزة عنيفة أورثته مبغضة لدولة بنى أمية من تلك المبغضات التى كمنت وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعها ، وظل شبح الشهيد الوقور يساور معاوية الى يوم وفاته ، فجاء فى رواية ابن سيرين : « ان معاوية لمـا حضرته الوفاة جعل يقول : يومى منك يا حجر طويل »

ولا يحاط بعوارض الفزع التى ألمّت بالعالم الاسلامى من جراء هذه المقتلة الباغية ولكنها قد تتمثل فى عارض واحد يدل على كثير . فان الخبر الذى ذاع عن تسيير حجر وأصحابه الى دمشق لم يكد يصـل الى السيدة عائشة بالحجاز حتى أوفدت عبد الرحمن بن الحارث يتشفع فيه وفى صحبه ، وهى لا تنسى ان أعوان معاوية قتلوا أخاها محمدا شر قتلة ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه فى حب على وشيعته وبينها وبين العلويين من الجفوة ما هو معلوم

وقد فات معاوية كل عذر فى هذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه

(١) اقيلك : اقال الله عثرته : رفعه من سقطته • (٢) أستقيلك : استقال الرجل صاحبه : طلب اليه أن يقيله •

تعذر ابنــه يزيد فى مقتلة الحسين . قان يزيد قد أحال الذنب على عبيد الله بن زياد ، وانعكست الآية فى أمر معاوية وحجر فكان زياد هو الذى نفض يديه من وزر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولاه ، وضاق مولاه بانتحال المعذرة بعد حين فكان جوابه لسائليه مما يخجل الطفل بين الصغار فضلا عن العاهل بين الساسة وفى ذمة التاريخ .. قال له عبد الرحمن بن الحارث : أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟.. فقال : حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى .. وحملنى ابن سمية فاحتملت .. وسألته السيدة عائشة مثل هذا السؤال فقال : لم يكن حولى رشيد ، وكانت السيدة عائشة تقول : لولا أنا لم نغير شيئا الا صــارت بنا الأمور الى ما هو أشــد منه لغيرنا مقتــل حجر .. أما والله ان كان لمسلما حجاجا معتمرا ، وكان الحسن البصرى الزاهد المعروف يقول : أربع خصال كنّ فى معاوية لو لم تكن فيه الا واحدة لكانت موبقة[1] ثم أحصاها وذكر منها مقتل حجر : « فيا ويلا له من حجر . يا ويلا له من حجر . يا ويلا له من أصحاب حجر »

وفى رثاء حجر تقول هند بنت زيد الانصارية :

تجبرت الجبــــابر بعـــد حجر
وطــاب لهــا الخورنق[2] والســدير
فان يهلــك فــكل زعيـــم قوم
من الدنيــــا الى هلك يصــير

***

ومعذرة معاوية هــذه خليقة أن تدعونا الى تصديق الوصية التى أوصاه بها أبوه حين سافر الى الشام . فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه فى كل كبيرة وصغيرة قبل أن يحدث بينه وبين أحد أمرا فى خصومة أوقطيعة ، وقد يستكثر عليه أن يصفعه صافع فلا يقتص لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه ، فاذا كان الرجل يرتضى من معاذيره أن يقوده ابن سمية فينقاد لأنه لم يجد حوله رجلا رشيدا فليس بالكثير

(١) موبقة : مهلكة . (٢) الخورنق : بفتحتين : اسم قصر بالعراق بناه النعمان الاكبر .

أن يؤمر بمراجعة أبيه فى شتم شاتم وضرب ضارب ، وهو فى مقتبل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة

ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكان يعرف أنه لا يحتكم الى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها

***

حدث صاحب العقد الفريد فى الجزء الأول عن أبى حاتم عن العتبى قال : « قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما الى أن اعترض عمر فى حديث معاوية فقال له معاوية : أعملى تعيب والىَّ تقصد ؟.. هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك . قال عمرو : فعلمت انه بعملى أبصر منى بعمله ، وان عمر لايدع أول هـذا الحديث حتى يصير الى آخره . فأردت أن أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدى فلطمت معاوية . فقال عمر : تالله ما رأيت رجلا أسفه منك . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : ان أبى أمرنى ألا أقضى أمرا دونه . فأرسل عمر الى أبى سفيان فلما أتاه ألقى له وسادة وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال : لهذا بعثت الى ؟ أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير . وقد وهبت ذلك له »

وصاحب العقد ــ على هواه الأموى ــ يسوق هذه القصة فى سياق الثناء ، ولسنا نفهم من ذلك أن معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم أن أباه كان يعرفه وكان يعرف أنه لايحتكم الى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها وانه اذا غضب يتغاضب بالرأى والاختيار فيخطئه التقدير

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة فى الطبائع التى تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع ، ولكنها اذا تركت بلا صدمة

تردها لم تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع

تلك الظاهرة من موروثات طبيعة المطاردة فى الانسان وفى الحيوان أو السبع من قبله .. فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان أن المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة . فاذا لمح الحيوان من خصمه انه يجفل منه أخذ فى الهجوم ، واذا عدا خصمه أمامه أخذ فى العدو وراءه ، واذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تمادى فى صرعه وافتراسه ، ولعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ الأمر لم تتنبه فيه حركة الهجوم فحركة المطاردة فحركة اللحاق والافتراس . وعرف صادة الأسود — وهى أخطر السباع — آنها تتردد اذا واجهها الانسان ثابت النظر راسخ القدمين

***

وقد دخل حجر على معاوية ، ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر فانتباه لواجب الحلم والاناة ، فلما دخل حجر محييا له بالامارة وزال الحاجز الأول زالت معه الحواجز الأخريات ، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف ..

ونظن أن هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز فى طوية معاوية من وعيه الباطن الى وعيه الظاهر ، ومن ذلك قوله : « اذا شد الناس شعرة أرخيتها واذا أرخوها شددتها » . أو قوله : « اذا طرتم وقعنا ، واذا وقعتم طرنا » . أو قوله لزياد : « كن أنت للشدة ولأكن أنا للين » .. فهو يتلقى وحى طبيعته من الصدمة التى تلقاه ، فان لم تكن صدمة فهناك الحيرة التى لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدره فلا تقف حيث ينبغى لها الوقوف ، ولو كان للغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يغضبون وانتظروا غضبه حيث يحلمون . وكثير من أمثال هذه الخليقة تلقاه بيننا كل يوم فيقول القائل عن الرجل من أصحابها : لو أنك شددت عليه لأرضاك وحمدت أثر الشدة عليه !

ويستدعينا ختام هذا الفصل تفرقة أخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع

الغضب ، وهى التفرقة بين الطموح الى الزعامة والصولة والطموح الى الشرف الاجتماعى والوجاهة السياسية

فالطموح الى الزعامة والصولة مزاج حيوى يدخل فى تركيب البنية ويدفع صاحبه كما تدفعه وظائف الجسد فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع

والطموح الى الشرف الاجتماعى تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الحطام وبسطة العيش ووجاهة الأسرة والبيت ، ويغلب عليه أن يكون تراثا متخلفا من الآباء للأبناء يغض من الأبناء أن يتخلوا عنه ويروا غيرهم فى مكانه

ولا يلزم من الطموح الى الشرف الاجتماعى أن يكون صاحبه مطبوعا على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع ، وقد يلجأ صاحبه الى المداورة واللين والخضوع لهذا والمصانعة لذاك ليحتفظ بالتراث الذى صار اليه أو يرجو أن يصير اليه

***

ونحن فى قرانا نشهد المثال على كل من النموذجين فى كل قرية وكل اقليم . فبينا يستميت « بيت العمدة » فى استبقاء وجاهته ويلين من أجل ذلك للحاكم وصاحب الأمر وأعوانه على المكانة الموروثة ينهض رجل آخر مطبوع على الانفة والصولة فيستطيل على تلك المكانة وينازع فى تلك الوجاهة ولا يستريح الا اذا أمر وتحدى وملك زمام العزة بالمقال والفعال ..

وبنو أمية عامة ، ومعاوية خاصة . من أصحاب « المظهر الاجتماعى » وليس فيهم غير القليل النادر من أصحاب الطموح الى الزعامة والصولة كما تكون فى بنية المزاج وتركيب الخلق والجسد ، وقد صبر معاوية على ألوان من الخضوع فى طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة النـاس ، لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثى ولا يطلبها بنزعة غلابة فى الطبيعة والتكوين

واحتاج أن يقول مرة كما جاء فى الطبرى مسندا الى سعيد بن سويد :

« ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا . قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ، ولكن انما قاتلتكم لأتأمَّر عليكم »

وهى قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لا يحتاجون اليها ، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك ، وتذكير المذكرين اياه انه لم يملكهم عنوة ولا فتحا ، بل ملكهم المشارطة والاتفاق .. فنفَّس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره انه شعر بالحاجة الى تنفيس كذلك التنفيس

***

لقد كان فى الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور[١]..

كان يصفح لأنه لا يغضب ، وكان يحمل على كاهله وفى طوايا نفسه ما ينوء[٢] غيره بحمله ، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة[٣] الى الزعامة والصولة

كان حلمه امتناع غضب ، وكانت همَّته تقليد وراثة وحلية وجاهة ..

وقد قال مرة أو مرات : « ان السلطان يغضب غضب الصبى ويأخذ أخذ الأسد » ..

ولكنه حين غضب غضبته الآبدة فى مقتل حجر وصحبه لم يغضب غضب الصبى وحسب ، بل التمس العذر ، مجفلا من غضبته ، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبى بين يدى الفقيه !

---

(١) الاسد الهصور : الاسد الذي يكسر عظام فريسته • (٢) ينوء : ناء الرجل بحمله نهض مثقلا به ، بجهد ومشقة ، وتقول ناء به الحمل أي أثقله •
(٣) السوارة : الوثابة •

خليقة أموية

تميزت لبنى أمية فى الجاهلية وصدر الاسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى ــ لعمومها بينهم ــ خلائق أموية ، وهى تقابل ما نسميه فى عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية ويراد بها أن المرء يؤثر لنفسه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم فى مواطن الايثار

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التى ينسبها اليه المادحون والقادحون ، لأن المادحين والقادحين قد يصدرون عن غرض ، وقد ينوون الصدق ولكنهم يخطئون فى أمر الرجل الواحد ، أما الأخلاق التى تعم قبيلا بأسره فى أجيال متتابعة فهى أصعب تلفيقا على الملفقين وأصعب خطأ على المخطئين . فان الاجماع على الخطأ نادر فى أخبار الناس كالاجماع على الصواب

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا ، تميل بالمتخلقين بها الى مناعم الحياة وتحبب اليهم العيش الرغد والمنزل الوثير[1] وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين ، فهى عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون

وقد عرف خيارهم ، دينا وصلاحا ، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما ، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن الأمويين

كان عثمان رضى الله عنه يقول عن نفسه كما جاء فى كتاب الرياض

---

(١) الوثير : الوطيء اللين من الفرش .

النضرة : « كنت رجلا مستهترا[1] بالنساء » وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج ..

وحب عثمان لاتخاذ المبانى والعمائر مشهور ، وحبه لاختصاص ذوى قرباه واغداق النعمة عليهم مشهور كذلك ، وكله مما أحصاه عليه الثائرون ووجدوا فيه متسعا للتزيد والادعاء

***

وعاش بعد الاسلام محبا للطعام الدسم والصحاف المنتقاة فحدث عمرو ابن أمية الضمرى عنه قال : « انى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وادمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟.. فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الخزيرة قط . قلت : نعم فكادت اللقمة تفرث من يدى حين أهوى بها الى فمى وليس فيها لحم ، وكان ادمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ! ان عمر رضى الله عنه أتعب والله من اتبع آثره ، وانه كان يطلب بثنيه — أى منعه — عن هذه الأمور ظلفا — أى غلظة — فى المعيشة . ثم قال : أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكنى آكله من مالى . وأنت تعلم انى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ، ولم أزل آكل الطعام ما لان منه . وقد بلغت سنا ، فأحب الطعام الىّ ألينه »

وقد كان عثمان أسرع قومه الى الاسلام لأسباب بيّناها فى كتابنا « ذى النورين » .. وانما حسب له الاسراع الى الاسلام حيث حسب الابطاء والتقاعد عنه للأكثرين من بنى أمية ، على ديدنهم فى كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الأريحية والايثار ، ولا موضع هنا للاطالة فى نقل أخبار المنافرات والمفاخرات التى تلم بهذا المعنى ولكننا نجملها جميعا فى موقف القوم من حلف الفضول وهو مشروح بتفصيلاته التى لايشك فيها من يشكون فى تلك المنافرات والمفاخرات ، فقد ظلم رجل فى جوار الحرم وباع بضاعة لواه بحقها من اشتراها فاستغاث بذوى

(١) مستهترا : استهتر الرجل : اتبع هواه فلا يبالي بما يفعل . وبفلانة : أولع بها فلا يبالي بما قيل فيه لاجلها .

المروءة وقام على شرف[١] من الأرض يعلن شكواه ، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم على انصافه وانصاف كل مظلوم مثله ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة[٢] وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه ، ولم يدخل فى هذا الحلف أحد من أمية وبنى عبد شمس ، بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيخشى أن يحسب خارجا على قومه ، وقال أحدهم عتبة بن ربيعة : لو أن رجلا وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول

***

وهذه الخلائق الأموية وضحت فى الجاهلية وصدر الاسلام وضوحا لا لبس فيه قبل أن تلتبس الأنساب ويكثر الزواج من غير العشيرة ، والبناء بالجوارى من الروم والفرس والترك والبربر ، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية فى الدم والنشأة والقدوة والجوار

فعمر بن عبد العزيز ــ أشبه الملوك فى دولة بنى أمية بالخلفاء الراشدين ــ كان كما جاء فى أسانيد ابن الجوزى : « رأيته فى المدينة وهو أحسن الناس لباسا ومن أطيب الناس ريحا ومن أخيل[٣] الناس فى مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشى مشية الرهبان »

واتفق الرواة ، كابن عبد الحكم والأصفهانى وابن الجوزى فى أطراف من أسانيده ، انه كان يتطيب فى شبابه فينتظر الناس ثيابه عند الغسال ليغسلها لهم فى موضعها ، وانه كان يرجل شعره ويتبختر فى مشيته حتى عرفت له مشية عمرية يحكيها الفتيان والفتيات ، وكان يتختم بالجواهر ويلبس الازار بمائة دينار ، ولا يرى مرتين فى كساء واحد ، وربما تأخر فى صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل[٤] شعره ، وسأله مؤدبه صالح ابن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لاقامة الصلاة ، فاعتذر له بابطاء مرجلته ــ أى الجارية التى تعنى بترجيل شعره ــ فغضب المؤدب الصارم

(١) شرف : المكان العالي · (٢) جفنة : القصعة · (٣) أخيل : أكثرهم عجبًا وكبرا · (٤) ترجيل : رجل الشعر : سرحه ·

ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره

وما برح الخليفة الصالح فى نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلع عنها بعد جهد ، وآب من ترف المسرفين الى نسك المتزمتين ، وقيل انه ترف من بنى أمية ، ونسك من الفاروق ، لأنه ينتمى من ناحية أمه اليه ..

وعلى هذا الجهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهو عن نفسه فيثوب اليها فى طريقه ، فجعل له قرينا يلازمه ويصفقه بيده كلما همّ أن يثوب اليها ..

***

ولا ننسى أن بنى أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربى ولا تشذ عن عرفه التقليدى الذى ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال، ومن تقاليد هذا العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكرى فى صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذى يندب للقتال أو لتصريف الأمور ، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبنـاء على هـذه الرياضة أو عهدوا بها الى المربّين فى المدن والدور فلا ينشأ الناشىء منهم الا على رياضة من هاتين الرياضتين ، وكذلك فعل عبد العزيز بن مروان فى تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذى يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه ، ولما بلغه من هذا المؤدب ــ صالح بن كيسان ــ أن الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل اليه من قبله رسولا خاصا فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه ، ولا نحسب أن أحدا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة فى تنشئة بنيه ، ولكنها رياضة تنتهى الى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها الا الأثر الضعيف . وكان عبد العزيز يعاقب عمر ذلك العقاب وهو ينزع فى الترف منزعا لايستطيع ابنه ــ وان أسرف ــ أن يذهب الى مدى أبعد من مداه ، فاقتنى الدور فى مصر وجملها بالأثاث الفاخر وجعل يهديها الى أبنائه وذويه ، واشترى أرض حلوان بعشرة آلاف دينار ليقيم

عليها قصره المنيف الذى موه جدرانه بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف ، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء فى معجم البلدان :

كل يوم كأنه عيــد أضحى عند عبد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنــة مترعات كل يوم يمدها ألف قدر

***

وشــهد هــذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه ، فلولا عرق من الفاروق أدركه لما تحول من هــذا البذخ الى النسك الذى ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين ..

وليس عبد العزيز ــ على هذا ــ بالمثل الذى يقال عنه انه «نموذج» للخليقة الأموية فى الكلف بالنعمة الدنيــوية والعجب بالزينة والشارة[1] وبالقسامة والوسامة[2] ، بل كانت هذه الخليقة على آتمها فى سليمان بن عبد الملك أكلفهم بنعمة العيش حيث كانت فى طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء ..

كان نهما لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعليه بقية ، وكان يلبس الوشى على أفخر حلية وزينة ويحضر الطهاة بين يديه بالسفافيد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تنضج بل يلف يده فى كمه ويتناولها من النار ويأتى عليها قبل أن تنقل الى الصحاف ، وربما صحبه عمر فى السفر وهو صائم فلا يجد على المائدة فضل طعام اذا حان موعد الافطار ، وقد مات بالتخمة مع اصابته بالحمى وهو فى الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد ، فجعل ينظر اليهم وينشد :

ان بنى صبيــة صــغار أفلح من كان له كبار

وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه فى الخوذات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبى منهم يصلح لولاية الملك فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه فى تلك الأزياء . وأوصى بولاية العهد على كره لعمر ابن عبد العزيز ..

(١) الشارة : الهيئة واللباس الحســن • (٢) القسامــة : الجمــال والوسامة •

قال ابن الجوزى فى سيرة عمر باسناده : « ان سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر فى المرآة فيقول : آنا الملك الشاب .. وكان جالسا فنظر فى المرآة الى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال : آنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة فقالت :

أنت نعم المتـــاع لو كنت تبقى   غير أن لا بقـــاء للانسان

ويروى هذا البيت فى أسانيد أخرى ومعه البيت التالى :

ليس فيما بدا لنا منك عيب   عابه النـــاس غــير أنك فان

ودخل عليه المفضل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام المرآة ثم يخلعها ويأتى بغيرها حتى ارتضى حلة منها فالتفت الى المفضل سائلا : يا ابن المهلب .. آعجبتك ؟ قال المفضل : نعم . فحسر[1] عن ذراعيه وهو يقول : آنا الملك الفتى

هذا هو الأموى من الأمويين ، وغيره منهم يشبهه فى كل خصلة من هـــذه الخصـــال على درجات ، ومنهم معاوية رأس الدولة وآقربهم الى أرومة[2] الميراث ..

***

كان فى معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تطاول الزمن بعد قدوة النبوة والخلافة الأولى خلافة الراشدين

جاء فى الطبرى انه كان يأكل فى اليوم ســـبع مرات بلحم ويقول : « والله ما أشبع وانما أعيا »

ولم يروها الطبرى وهو يشهر بها ، بل رواها وقال بعدها : « وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك »

وسبق الطبرى هذا الخبر بتعليل لهذه النهمة من دعوة رسول الله عليه فى صباه ..

فمن أخبار الامام أحمد المسندة الى ابن عباس انه قال : « كنت ألعب مع الغلمان فاذا رسول الله قد جاء فقلت : ما جاء الا الىَّ . فاختبأت على

(١) حسر : كشف ٠ (٢) أرومة : أصل الشجره ٠ ويستعار للحسب ٠

باب فجاءنى فخطانى خطاة أو خطاتين ثم قال : اذهب فادع لى معاوية وكان يكتب الوحى . فذهبت فدعوته له فقيل : انه يأكل ! فأتيت رسول الله فقلت : انه يأكل . فقال : اذهب فادعه . فأتيته الثانية فقيل انه يأكل ، فأخبرته . فقال فى الثالثة : لا أشبع الله بطنه .. فما شبع بعدها »

ولم يزل بعد الامارة يفرط فى مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل[1] وعجز عن القيام طويلا فكان يخطب على المنبر وهو جالس ، وكان أول من جلس فى خطبة منبرية

***

وشغف بالأكسية كما شغف بالأطعمة ، فلبس الحرير وتختم بالذهب والجوهر وولع بالثياب المزخرفة والموشـاة وتزين بالزينة التى كرهها الاسلام لعامة الرجال فضلا عن الخلفاء والأمراء ، وكان لايملك أن يترك الزينة بالكساء فى صدر الدعوة والخلافة وفى الزمن الذى كان يتحرج فيه من اغضاب ولى الأمر ، وهو عمر بن الخطاب .

قال عبدالله بن المبارك فى كتاب الزهد كما رواه الطبرى : « قدم علينا معاوية وهو أبيض بض[2] وباص[3] ، أبض الناس وأجملهم ، فخرج الى الحج مع عمر ، فكان عمر ينظر اليه فيعجب منه ؛ ثم يضع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشراك فيقول : « بخ بخ . نحن اذن خير الناس ان جمع لنا خير الدنيا والآخرة » . فقال معاوية : « يا أمير المؤمنين ! سأحدثك . أنا بأرض الحمامات والريف والشهوات » فقال عمر : «سأحدثك أنا.. ما بك الا ألطافك نفسك بألطف الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك[4] وذوو الحاجات وراء الباب ؟ ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين . علمنى أمتثل قال راوى الخبر : فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها ، فوجد عمر منها ريحا كأنه ريح طيب ، فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى اذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما ؟ فقال معاوية : انما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى وقومى . قال عمر : والله لقد بلغنى أذاك هنا وفى الشام »

(١) ترهل : استرخى لحمه وصار في انتفاخ • (٢) بض : الرقيق الجلد المتلىء • (٣) وباص : لامع براق • (٤) متنيك : المتنان جانبا الظهر

وزاد راوى الخبر فقال : « والله يعلم انى لقد عرفت الحياء فيه ، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما »

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال : « دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء . فنظر اليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب اليه بالدرة (١) فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : الله الله فى يا أمير المؤمنين . فرجع عمر الى مجلسه فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مثله ؟ فقال : والله ما رأيت الا خيرا وما بلغنى الا خير ، ولو بلغنى غير ذلك لكان منى اليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته — وأشار بيده — فأحببت أن أضع منه ما شمخ »

***

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهو سليمان ، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب .. وقد أصابته لوقة فى آخر عمره — وهى كأثر الضربة فى الجلد — فكان يستر وجهه ويقول : « رحم الله عبدا دعا لى بالعافية فقد رميت فى أحسنى ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى »

وهواه فى يزيد لون من ألوان هذه الخلة الأموية ، فكل الآباء يحبون الأبناء ..ولكن القوم لايحسبون الأب بارا بابنه الا اذا «نعمه» أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه . وقد أرسل معاوية ابنه يزيد الى بادية بنى كلب — أخواله — ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية ، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قياما بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولاسيما الهوى الذى ينظر الى حرمات الناس وأعراض الرعية ، فقد علق يزيد بزوجة عبد الله ابن سلام زينب بنت اسحاق ، ومرض بحبها مرضا أدنفه فاحتال أبوه حتى عرف سر مرضه من خصيان القصر ، فأرسل فى طلب أبى هريرة وأبى الدرداء فقال لهما : ان لى ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلا غير ابن سلام لدينه وفضله وشرفه ، فانخدع ابن سلام وذهب الى معاوية

---

(١) الدرة : بكسر الدال المشددة : سوط يضرب به .

يخطب بنته وقيل ان معاوية وكل الأمر الى أبى هريرة ليبلغها ويستمع جوابها ، فأجابته بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له انها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله ، فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده فلواه به ونقل اليه عن ابنته انها لا تأمن رجلا يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره !..

وكأنما كان معاوية مهموما بشهوات ولده فى زواج أو غير زواج ، فقد حدث ابن عساكر من ترجمة خديج الخصى أن معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة فأدخلها الخصى عليه مجردة ، وبيده قضيب . فجعل يهوى به على جسدها ويقول : هذا المتاع لو كان لنا متاع . اذهب بها الى يزيد ثم قال : ادع لى ربيعة بن عمر الجرشى — وكان فقيها — فلما دخل عليه قال : ان هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك ، وانى أردت أن أبعث بها الى يزيد ، فقال الجرشى : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانها لا تصلح له ، فقال معاوية : نعم ما رأيت ! ثم وهبها لعبد الله بن مسعدة الفزارى مولى فاطمة بنت رسول الله ، وكان أسود . فقال له : بيض بها ولدك » ..

***

ونعود فنقول ان الطبرى يسند هذه الأخبار الى أصحابها ولا يسوقها مساق التشهير ، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلا على فقه معاوية فقال : « وهذا من فقه معاوية وتحريه ، حيث كان نظر اليها بشهوة ولكنه استضعف نفسه عنها فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الجرشى الدمشقى .. »

وما من تربية ليزيد تصلحه للخلافة بعد هذا « التنعيم » الذى يملى له فى شهواته وهو مقدم على رئاسة قريبة عهد بابن الخطاب بل بابن عفان ، فان الخليفة الثالث رضى الله عنه قد أجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجوارى

على سنة القياصرة والشواهين ، ولولا تلك الخليقة الأموية التى تمادى بها اتساع الملك فى أهوائها وغواياتها لما فات رجلا ــ وسط الذكاء ــ ان هذه التربية لا تعد انسانا لحياطة الملك المنتزع بالحيلة والحول .قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلا عن الغرباء

***

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليقة الأموية وبين آداب الدين الذى يتولى خلافته ، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين لافتتانه بالدنيا واستسلامه لغوايتها ، وله أكثر من كلمة فى هذا المعنى يقول فى بعضها : « ان أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه ، وعمر عالجها وعالجته ، وعثمان نال منها ونالت منه . أما أنا فقد تضجعتها ظهرا لبطن وانقطعت اليها فانقطعت الى » .. ويقول فى بعضها من خطبة بالمدينة : « ان أبا بكر رضى الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فنال منها ونالت منه ، وأما أنا فمالت بى وملت بها ، وأنا ألبنها (١) فهى أمى وأنا ابنها ، فان لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم »

وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعا من جهة وتزكية لقدرته على الملك الدنيوى من جهة أخرى . فان كان الرعية لايرتضونه قدوة للصلاح والتقوى ، فهم مرتضــوه مدبرا لشئونهم وقائما على مصالح دنياهم ..

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليقة الأموية وآداب المروءة العربية كما يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين . فان طالب السيادة يكره أن ينزل فى منزلة دون منازل الشرف والكرامة بين قومه ، فان لم يكره ذلك حبا للخلق المأثور فلعله يكرهه حبا لنفسه وغيرة على سيادته وعلوه فى نظر المكبرين لآداب المروءة سواء تحلوا بها أو تجردوا منها

ومن نوادر معاوية فى هذه المنازعة المتكررة بين خلائق عشيرته وآداب العرب عامة انه جلس يوما مع خاصته يسألهم فيما بقى له ولهم من لذات الحياة بعد ذهاب الشباب ، فاذا هى عنده لذات لا تعدو مذاق الشراب

---

(١) ألبنها : لبن يلبن الراعي الغلام : سقاه اللبن ·

انسائغ وسروره بالنظر الى بنيه ، ثم نبهه منبه الى اسفافه هذا فانتبه ولم يكابر طبعه . لأن الأمر وراء المكابرة باجماع العرف واجماع الدين

روى الواقدى أن عمرو بن العاص « دخل يوما على معاوية بعد ما كبر ودق ومعه مولاه وردان ؛ فأخذا فى الحديث وليس معهما آحد غير وردان ، قال عمرو : يا أمير المؤمنين ! ما بقى مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أرب لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وأطيب . وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة . ثم قال : فما شيء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بنى وبنى بنى يدورون حولى »

« وعطف معاوية سائلا : فما بقى منك يا عمرو ؟

« قال عمرو : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته

« فالتفت معاوية الى وردان فقال : ما بقى منك يا وردان ؟

قال وردان : صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل واصطبار لا يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى ، وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى ..

« فقال معاوية : تبا لمجلسنا سائر اليوم .. ان هـذا العبد غلبنى وغلبك ..! »

خليقة أموية عربية . مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له آن يستبقى من متاع الدنيا الذى عجز عنه الا شيئا يذاق وشيئا يسره من النظر الى ذريته ، ثم نبه المنبه الى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها ..

وان شئت فقل خليقـة أموية وكفى .. فان من اثرة ما يوحى الى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره ، ولا يسعه آن ينكرها

وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية فى كل مأثرة محمودة بين عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصـة وعامة ، وأولها مناقب

الشجاعة والكرم والنخوة ، فما كان فى وسع بنى أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب ولا أن يصغروا من حقها ؛ ولكن التسليم للمنقبة شيء والجهد فى تحصيلها شيء آخر .. ولهذا مضى تاريخ بنى أمية فى الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين وذوى النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم ، وظهر فيهم الشجعان فى صدر الاسلام كيزيد بن أبى سفيان — وهو أخ غير شقيق لمعاوية ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم فى جيل واحد ، كعلى وحمزة

وسئل معاوية نفسه — وسائله عمرو بن العاص — : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ فقال :

شجاع اذا ما أمكنتنى فرصة

فان لم تكن لى فرصة فجبان

***

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة ، بل حسب عليه أنه كان يأوى الى قبة يحيط بها الحراس فى معارك صفين ، وانه أسرع الى فرسه فى ليلة الهرير لينجو بحياته ، ثم هدأ الخطر بعض الشيء فراجع نفسه وتراجع الى مكانه وهو آمن من عاقبة هذه الرجعة ، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال

وليس من أخبار بنى أمية فى الجاهلية وصدر الاسلام خبر واحد ينفى عنهم هذه الخليقة الغالبة عليهم جميعا من الإثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الايثار والمثل العليا

وبهذه الخليقة يفسر كل عمل من أعمال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعا بمثلها ، وهو مع حزمه «الدنيوى» هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية الا وهن منه الحزم فى هذا المصطدم . فكان من الحزم ألا يتوسع فى أبهة الملك أو أبهة « الهرقلية والكسروية» كما كان المسلمون يسمونها فى صدر الاسلام ، ولكنه لم يكد يملك حتى

صنع ما يصنع القياصرة والأكاسرة من اقتنـــاء الخصيـــان والجوارى والتوسع فى بذخ القصور والقدور ، وكان من الحزم أن يروض يزيد على كبح الشهوات فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة فى عصمة رجل حتى احتال حيلته لامتاعه بما اشتهى ، وان النهازين من مؤرخى العصر القديم ليفسرون صلاته الجامعة فى المقاصير[1] بخوفه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التى قتل فيها على رضوان الله عليه . ولئن صح هذا لما نفى عنه تلك الخليقة الأموية التى تلوذ بالحيطة حيث لا يلوذ بها المبرآون منها ، فقد قتل عمر وعلى ولم يلجأ الحسن أو الحسين الى المقاصير أو الى الحرس الميسر لهما وهو غير قليل ؛ وقد كانت أبهة المواكب من دأب معاوية اذ كان ــ بعد ــ على ولاية الشام من قبل الفاروق . فلما رآه الفاروق فى موكبه أعرض عنه ثم عنفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن ذوى الحاجات ، فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو ، ودأب على اتخاذ المواكب وتسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى غيلة من مغتال

عند هذه الخليقة الأموية تفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو تجاهلوه ، ولا سيما المؤرخين النهازين من المنتفعين أو المتطوعين

---

(١) المقاصير : جمع مقصورة وهي غرفة من غرف الدار . ومن المسجد مقام الامام . وغرفة صغيرة مرتفعة .

موقف معاوية من قضية عثمان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لفهم تاريخه وأعمال رجاله ، ولكن الأخبار المقدمة على غيرها فى حوادث العالم الاسلامى التى أفضت الى قيام الخلافة الأموية انما هى الأخبار التى لها مساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلى بالخلافة فى الحجاز

فبغير هذه الأخبار التى تكشف عن موقف معاوية لايستطيع المؤرخ أن يتثبت من حقيقة البواعث التى كمنت وراء الحوادث والحروب والخصومات ، ولا يستطيع أن يعرف ما هو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير السواس والدعاة

فما هى حقيقة المسائل التى أثارت معاوية على على وجنحت به الى سلوك المسلك الذى اختاره هو ومعاونوه ؟ ماذا منها قد حدث فعلا وماذا منها لم يحدث وقيل انه حدث للانتفاع به فى الادعاء ورد الادعاء .. وفى الاتهام ورد الاتهام ؟ أو ماذا منها قد حدث فعلا وحرفه الدعاة الى غير وجهته وأولوه بغير معناه ؟ وماذا من تلك الحوادث جميعا كان خليقا أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعى ؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ الى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله ومبايعة على بالحجاز

وكل ما وصل الينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شيء واحد لا محل فيه للخلاف الطويل بين الناظرين اليه من الوجهة التاريخية الخالصة ، وهو عمل معاوية لنفسه فى كل مطلب طلبه من عثمان وكل نصيحة أسداها اليه وكل مشورة أشار بها عليه ، فليس فى هذه المطالب والنصائح أو المشورات شيء قط تجرد من منفعة ينظر اليها معاوية فى حاضره أو

مصيره ، وكل ما عدا ذلك فقد يكثر فيه الخلاف ويؤول فيه التأويل

كان معاوية فى عهد الفاروق قانعا بعطائه السنوى وهو آلف دينار ، وكان الولاة والرعية لايشكون اجحافا ولا محاباة فيما يرجع الى ارزاق العمال الكبار والصغار ومنهم الولاة . فلما انقضى عهد الفاروق كثرت الشكوى من تقسيم هــذه الأرزاق ومن ايثار بعض الولاة بالولايات لقرابتهم من الخليفة ، وكانت هذه الشكوى احدى الدعايات التى تذرع بها المشاغبون للثورة التى تفاقمت حتى ذهبت بحياة عثمان

***

ولم يكن معاوية يجهل هذه النقمة الفاشية فى الولايات ، ولكنه على ذلك كتب الى عثمان يطلب زيادة عطائه ، ويطلب غير ذلك أن يقطعه الأرض التى قتل أصحابها من الروم أو تركوها وهاجروا الى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية ، وتعلل له بكثرة وفود الأمصار والرسل وان هذه الضياع المتروكة لايؤخذ عليها الخراج ولا تحسب من أموال أهل الذمة كما جاء فى تاريخ ابن عساكر ، وكانت هذه الضياع وأمثالها تلحق ببيت المال وينفق منها على المصالح العامة ومعونة المعوزين وذوى الحاجات ، فلما أذن له عثمان بزرعها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدامه وأعوانه فى سياسته ، وعمد الى كل معترض عليه وعلى انفاقه لهذه الأموال فى غير وجوهها فأقصــاه عن الشام وأرسله الى حيث يشاء من البلاد الاسلامية الأخرى لا يعنيه أن يصنع الشاغبون ما يصنعون فى غير ولايته ، وهو يعلم آنهم سيشغبون على عثمان حيث ذهبوا وأن عثمان يلقى من الفتنة ماهو حسبه فى جواره

وحديث أبى ذر فى الشــام معروف ننقل منه ما يدور حول موقف معاوية من عثمان كما جاء فى ابن الأثير :

« كان أبو ذر يذهب الى أن المسلم لاينبغى أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم ويأخذ بظاهر القرآن .. « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله فبشرهم بعذاب أليم » ... فكان يقوم بالشـــام ويقول : يا معشر الأغنياء واسوا الفقراء .. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، وشكا الأغنياء ما يلقون منهم فأرسل اليه معاوية بألف دينار فى جنح(١) الليـــل فأنفقها . فلما صلّى معاوية الصبح دعا رسوله الذى أرسله اليه فقال : اذهب الى أبى ذر فقل له : انقـــذ جسدى من عذاب معاوية !.. فانه أرسلنى الى غيرك وانى أخطأت بك . ففعل ذلك ، فقال له أبو ذر : يابنى قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها ، فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب الى عثمان : ان أبا ذر قد ضيق على ، وقد كان كذا وكذا للذى يقوله للفقراء . فكتب اليه عثمان : ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر الى وابعث معه دليـــلا وزوده وأرفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت » ..

***

ولما خرج الشاغبون بالفتنة من الكوفة الى الشام بأمر عثمان كتب عثمان الى معاوية كما جاء فى ابن الأثير : « ان نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فان آنست منهم رشدا فأقبل وانأعيوك فارددهمعلى»

فلقيهم معاوية وزجرهم وأغلظ لهم ، ثم آتاهم بعد ذلك فقال لهم : انى قد أذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لاينفع الله بكم آحدا ولا يضره ، ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة . فان أردتكم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنكم الانعام فان البطر لا يعترى الخيار ، اذهبوا الى حيث شئتم فسأكتب الى أمير المؤمنين فيكم »

وكتب الى أمير المؤمنين يهون له من شأنهم ويقول عنهم انهم « ليسوا لأكثر من شغب ونكير »

ولم يكن أمرهم ليعيبه ، فانهم ذهبوا حين سرحهم يقصدون الجزيرة

---

(١) جنح الليل : بكسر الجيم ، طائفة وقطعة منه .

فعلم بهم عبد الرحمن بن خالد فما أعياه أمرهم ودعاهم اليه ولم يذهب اليهم كما فعل معاوية فتوعدهم عبد الرحمن وعيدا لا يشكون فيه وقال لهم : « يا آلة الشيطان ! لا مرحبا بكم ولا أهلا . قد رجع الشيطان محسورا وأنتم ــ بعد ــ نشاط . خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم .. يا معشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم . لا تقولوا لى ما بلغنى أنكم قلتم لمعاوية : أنا ابن خالد بن الوليد . آنا ابن من قد عجمته[1] العاجمات . أنا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغنى ياصعصعة أن آحدا ممن معى دق أنفك ثم امصكه ــ آى جعلك تمصه ــ لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . فأقامهم شهرا كلما ركب مشاهم ، فاذا مر به صعصعة قال : يا ابن الخطيئة !.. أعلمت ان من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . ما لك لا تقول كما بلغنى انك قلت لسعيد ومعاوية ؟.. فيقولون : نتوب الى الله . أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم ، وسرح الأشتر الى عثمان . فقدم اليه ثانيا ، فقال له عثمان : احلل حيث شئت فقال : مع عبد الرحمن بن خالد . فقال : ذلك اليك ، فرجع اليه »

***

وعلى اختلاف الروايات فى تنقل هذه الفئة بين الكوفة والشام ، وفيما قالوه وقيل لهم ؛ لم يتغير موقف معاوية فى جميع هذه الروايات ؛ وهو موقف الرجل الذى لا يبالى بعد آمانه على ولايته آن تنجم الفتنة حيث نجمت وأن يبتلى بها الخليفة بنجوة منه

وقد تفاقم الخطب ونظر الخليفة المحصور حوله يطلب الرآى من ذوى الرأى بين خاصته وخاصـة المسلمين . واجتمع عنده رهط منهم يوما أشاروا عليه بما بدا لهم ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له : يا ابن عمى ويا ابن خالتى . انه لم يبلغنى عنك فى أمرى شىء أحبه ولا آكرهه ، وقد علمت آنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من آن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر ... قال ابن عباس : يا آمير المؤمنين انك قد ابتليتنى بعد العافية

---

(١) عجمته : عجم العود عضه ليعلم صلابته من خَوَره .

وأدخلتنى فى الضيق بعد السعة . ووالله ان رأيى لك رأى من يجل سنك ويعرف قدرك وسابقتك . ووالله لوددت انك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فان كان شيئا تركاه لأنه ليس لهما علمت انه ليس لك كما لم يكن لهما ، وان كان ذلك لهما فتركاه خيفة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق باكرام أنفسهما منك باكرام نفسك ..

قال عثمان : فما منعك أن تشير علىّ بهذا قبل أن آفعل ما فعلت ؟.. قال ابن عباس : وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعله ؟.. قال : فهب لى صمتا حتى ترى رأيى

وخرج ابن عباس وبقى معاوية فسأله عثمان فأجاب كما جاء فى الامامة والسياسة : « الرأى أن تأذن لى بضرب أعناق هؤلاء القوم . قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير .. قال عثمان : سبحان الله !.. أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث أحدثوه ولا ذنب ركبوه ؟ قال معاوية : فان لم تقتلهم فانهم سيقتلونك .. قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته باهراق الدماء

« قال معاوية : فاختر منى احدى ثلاث خصال

« قال عثمان : ما هى ؟

« قال معاوية : أرتب لك ها هنا أربعة آلاف من خيل أهل الشام يكونون لك ردءا(١) وبين يديك يدا

« قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

« قال : من بيت المال

« قال عثمان : أرزق أربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين الحرز دمى ؟ لا فعلت هذا

« قال : فثانية

« قال : وما هى ؟

« قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد واضرب

---

(١) ردءا : بكسر الراء : العون والناصر .

عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر[1] بعير منهم أهم عليه من صلاته

« قال عثمان : سبحان الله !.. شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقيــة الشــورى أخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ؟.. لا أفعل هذا ..

« قال معاوية : فثالثة !

« قال : وما هى ؟

« قال : اجعل لى الطلب بدمك ان قتلت

« قال عثمان : نعم هذه لك . ان قتلت فلا يطل[2] دمى »

هذه رواية الامامة والسياسة ، وفى سائر الروايات أن معاوية قال له غير ذلك : اخرج معى الى الشام قبل أن يهجم عليك ما لاتطيقه . قال : لا أبتغى بجوار رسول الله بدلا

***

تلك جملة الآراء التى أشــار بها معاوية على الخليفة . وما من رأى منها الا والنفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان فى معظمها ما يضره ولا يجديه ..

فليس قتــل على وطلحة والزبير بالأمر الهين الذى يدفع الشر عن الخليفة ، وليس هو بالخطة التى يختارها معاوية لنفسه لو كان فى موضع عثمان . وقد أعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن بن خالد فليس من خطته التى يختارها لنفسه ويحمل تبعتها على عاتقه أن يقتل ثلاثة من أقطاب الصحابة كعلىّ وطلحة والزبير كما أشار على عثمان ، وانما يبوء عثمان بتبعتها ويترك الأمر من بعده لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها ، بعد مقتــل الثلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر . أما أهل الشام فهم فى ولايتــه لا يعرفون أحدا غيره ينافســه باسمهم عند اختــلاف المختلفين ، وليس ثمة مختلفون اذا نفذ القضاء في الأقطاب المقتولين

وأما الاشارة على عثمان باقامة أربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه

---

(١) دبر : بفتحتين : الجرح يكون فى ظهر الدابة . (٢) يطل دمي : طل دمه بالمجهول : ذهب هدرا .

فهو تسليم للحجاز الى يدى معاوية فى حياة الخليفة وبعد حياته ، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التى يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة أصلا لمن يستجيب لها أو لا يستجيب

والخروج من المدينة الى الشام مع معاوية ينقل العاصمة الى دمشق ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية فى جميع الحالات

***

وقد نقل الرواة والمؤرخون عن كل ناصح انه أشار على عثمان بترك خطة من خططه فى السياسة العامة ، ولم ينقل مثل ذلك عن معاوية فى جليل من الأمر ولا يسير ، ولم يقف مثل موقفه غير مروان بن الحكم الذى لا يملك أن ينهى عثمان عن شىء ، لأنه كان سبب الشكوى وصاحب التبعات جميعا فى كل مأخذ من مآخذ الثوار على العهد كله والسياسة بجملتها . فاذا كان سكوت مروان عن النصح بالتغيير مفهوما متوقعا فمثل هذا السكوت من معاوية لا يفهم الا على وجه واحد . وهو انه يعفى نفسه من تبعة النصيحة ليملى للخليفة فيما يرضاه ويعلم أن التغيير النافع يصيبه فى مقدمة الولاة المحسوبين على العهد كله ، وقد كان يتعهد للخليفة بكفايته آمر الشام ويسأله أن يفرض على الولاة الآخرين مثل ذلك اليوم .. فان لم يقدروا مثل قدرته كان حقا له أن يخلفهم أو ينفض يديه من العمل والمشورة ..

وأثبت ما ثبت من منفعة معاوية بتلك المطالب التى عرضها على الخليفة فى شدته ــ مطلبه أن تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فانه بمثابة ولاية العهد باذن صاحب الأمر . اذ كان القصاص انما يتولاه القائم بالشريعة حيث تقام حدود الدين ، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدى عليه غيلة فيكون عمل ولى الدم أن يقتاده الى الحاكم القائم بالشريعة ، ولكنه خشى عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى اداتتها والقصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده

وتطيعه على شرطها . فاذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد وفارقه وهو يعلم انه مقتول

وأوشك الخليفة أن يقتل ، فاذا نظرنا فى أرجاء العالم الاسلامى يومئذ لم نجد أحدا أقدر على نجدته من معاوية ، لأنه الوالى المستقر فى ولايته منذ عشرين سنة يقصى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه ، وغيره من الولاة فى ذلك العهد بين معزول أو معتزل أو مهدد فى سلطانه كما هدد الخليفة فى عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من سروات المدينة فليس فى وسعه أن ينصره بقوة أقوى من الدولة وحراسها وأشياعها ، فاذا جمح السفهاء جماحهم الذى يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحرى أن لا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة

***

وأيا كان القول فى السروات الآخرين فواجب معاوية واضح لا لبس فيه ، وليس مما يقيله من هذا الواجب ان الخليفة أبى عليه اقامة جيش دائم الى جواره يرزقه من بيت المال ، فان عمل الجيش الدائم غير عمل النجدة العاجلة ، ولا يلام والى الشام على نجدة عاجلة بعد أن طلب الخليفة النجدة من الولاة ، ولو انه كان يلام على ذلك لكان اللوم أهون عليه من ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه وهو معتذر بأمر صدر اليه فى حال غير هذه الحال

لقد كان ذوو الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما أخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء أبو الطفيل عامر ابن واثلة الصحابى كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى :

قال له معاوية : ألست من قتلة عثمان ؟ قال أبو الطفيل : لا .. ولكننى ممن حضره فلم ينصره

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم تنصره المهاجرون والأنصار

فقال معاوية : اما لقد كان حقه واجبا عليهم أن ينصروه

---

(١) سروات : جمع سراة . وسروات القوم : أشرافهم وسادتهم .

فقال أبو الطفيل : فما منعك يا أمير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام ؟ ..

فقال معاوية : اما طلبى بدمه نصرة له ؟

فضحك أبو الطفيل ثم قال : أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

ووقعت الواقعة ومات الخليفة قتيلا وذهب معاوية يطالب بدمه وينكر على علىّ بيعته لأنه لا يسلمه قتلة عثمان ، ممن يذكرهم اجمالا أو يسمّيهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين الى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحدا منهم بجريرة مشهودة ولم يحاسب أحدا على جريرة مستورة تتطلب الاشهاد ، وكان يلقى الرجل منهم فلا يزيد على أن يسأله كما سأل أبا الطفيل : ألست من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه فى أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزودا بالعطاء

***

وظهر من مبدأ الخصومة أن الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعجة(١) التى تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فان معاوية قد حالف عمرو ابن العاص وكافأه بولاية مصر . وهى ولاية عزله منها عثمان وبكّته(٢) بذكرها يوم صاح به بين الجموع المتذمرة يسأله التوبة والاستغفار ، وكاد الرواة يجمعون على كلمة نقلت عن لسان ابن العاص فحواها أنه كان يلقى الاعرابى فى البادية فيحرضه على عثمان ، فان لم يصح عن ابن العاص انه قائل تلك الكلمة فموقفه من فتنة عثمان كموقف ذوى الرأى جميعا ممن كان معاوية يحاسبهم على تركهم عثمان بغير نصير ، وكان فى وسعهم كما قال أن ينصروه

ولم يخف هذا الموقف الذى لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فانهم كانوا يرون معاوية فيلقونه بالبكاء ويذكرون أباهم ليذكروه بدمه المطلول ووعده بالثأر له ثم سكوته عن الثأر بعد أن أمكنه منه ما لم يكن فى امكان أحد من المطلوبين به فى رأيه

---

(١) اللاعجة : يقال : هوى لاعج أي محرق . (٢) بكته : قرعه وعنفه ولامه أشد اللوم .

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وقال غيره مع اختلاف قليل فى السياق : « قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن‌عفان فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يا ابنة أخى . ان الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا . وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا ذلا تحته حقد . ومع كل انسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فان نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولأن تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكونى امرأة من عرض[1] الناس »

فالمطالبة بدم عثمان انما كانت قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على على ، وبث الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن فى وسع على أن يفعله سكت عن الثأر وحديثه الا ما كان من قبيل الحوار العقيم فى المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفا هزيلا ولم يكن يقبله قويا معززا بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه

***

ذلك أيسر ما يقال عن حقيقة الموقف من قضية عثمان ومطالبة معاوية بدمه ، وكل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده فهو ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، ولا نجرى وراء النيات وان كان للمؤرخ حق فى النظر اليها قد يحمد منه حيث لا يحمد من القضاء . فان المؤرخ مطالب بتقويم أقدارالرجال وتفسير أسرارالحوادث والتعريف بالأخلاق والضمائر ، ولا ضرر من استقصائه لما وراء الظواهر والدعوات بل الضرر كل الضرر أن يأخذ بالظواهر والدعوات دون استقصاء

وقضاء التاريخ فى موقف معاوية من عثمان انه موقف يسقط كثيرا من التهم التى كان يكيلها لخصومه ، ويسقط كثيرا من الأعذار التى كان ينتحلها لنفسه ، ويوجب على المؤرخ أن ينفذ من وراء التهم والمعاذير الى تفسير واحد لوقائع الثورة التى ثارها معاوية باسم عثمان ، فان أصدق البواعث لها أنها ثورة فى طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمستها من مقتل الخليفة الشهيد ..

---

(١) عرض : بضم العين . يقال : هو من عرض الناس أي من العامة .

النشـــأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين ، أخبارهما عندنا قليلة متقطعة ، ولكنها من نوع الأخبار التى تدل باللمحة العارضة ، ويغنى القليل منها عن الكثير فى وصف الطبائع والأخلاق ، فنعرف منها أى رجل وأى امرأة كان أبواه من الرجال والنساء

من أنباء الجاهلية عن النساء أن هنــد بنت عتبة أم معاوية كانت من نساء الأسر التى تعودت أن تستشير بناتها فى أمر زواجهن ، وقد خطبها اثنان فقال لها أبوها : « أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك ، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر فموسع عليه منظور اليه فى الحسب والنسب والرأى الأريب ، مدره[1] ارومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن أهله

« فقالت : يا أبت : الأول سيد مضياع للحرة ، فما عست أن تلين بعد ابائها وتضيع تحت جنــاحه اذا تابعها بعلها فأشرت[2] وخافها أهلها فأمنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فان جاءت بولد أحمقت ، وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . فاطو ذكر هــذا عنى ولا تسمه على بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة[3] الحرة العقيلة[4] ، وانى لأخلاق مثل هذا لموافقة ، فزوجنيه »

ونعلم من كلام هند هنا انها امرأة قوية الأنوثة يرضيها أن تكون زوجة لرجل جدير بالمهابة والطاعة ولا يرضيها أن يكون زوجها لعبة فى يديها مطواعا لأمرها

ولم يرد فى أخبار هند خبر غير هذا الا كان فيه ابانه عن جانب من

---

(١) مدره : مدره القوم : زعيم القوم وخطيبهم • (٢) فأشرت : بطرت •
(٣) الخريدة : المرأة الحيية الطويلة السكوت • (٤) العقيلة : الكريمة المخدرة من النساء •

جوانب هذه الأنوثة القوية ، ربما بلغ فى بعض أحوالها مبلغ الوحشية ولكنه على هذا يظل وحشية أنثوية تشـاهد من ضراوة الانسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان

كانت تلقب بآكلة الأكباد لأنها آكلت كبد حمزة عم النبى عليه السلام بعد أن قتل رجالها فى وقعة بدر . وحزن المرأة على رجالها شـديد يشتد مع اشتداد أنوثتها ، فاذا كانت فى هذه المثلة[1] وحشية بغيضة فهى وحشية أنثوية ، تشتفى بها المرأة اذا جمح بها حزنها وأذهلهـا عن صوابها ، وليست مما يشتفى به أقوياء الرجال

***

ولم تنس هنـد حزنها على رجالها فى حضرة النبى عليه السلام اذ جاءته مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة

قال صلوات الله عليه : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا ، ولا تسرقن الى أن قال : ولا تزنين

قالت : يارسول الله .. هل تزنى الحرة ؟

ثم قال : ولا تقتلن أولادكن ..

فقالت : أما الأولاد فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت بهم أعلم ..

وان سؤالها : « هل تزنى الحرة ؟ » لمن تلك الأخبار التى قلنا انها تدل باللمحة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير

انه سؤال يدل على الانفة من الزنى لأنها ـ كرامة جاه ـ ولأن الزنى خلة من خلال الاماء والسبايا لا تعهـد فى الحرائر الكريمات ، فالانفة من الضـعة هنا آكبر من الاعراض عن الرذيلة ، وقصـتها مع زوجها الأول الفاكه بن المغيرة تنبىء عن هذه الانفة وعن هذه العزة ، فكانت اهانتها بتهمة الزنى لا تقبـل عندها الغفران ولا تقنعها البراءة منها ، وان شهد بها من تقبل شهادته فى الجاهلية ولا يطلبون على البراءة حجة أقوى عندهم من تلك الشهادة

---

(١) مثلة : بالضم : التنكيل .

« أخرج الخرائطى فى الهواتف عن حميد بن وهب قال :

كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة ، وكان من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير اذن . فخلا البيت ذات يوم ، فقام الفاكه وهند فيه ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى المرأة ولى هاربا ، فأبصره الفاكه فانتهى اليها فضربها برجله وقال : من هذا الذى كان عندك ؟ قالت : ما رأيت أحدا ولا انتبهت حتى أنبهتنى . فقال لها : الحقى بأهلك .. وتكلم فيها الناس . فخلا بها أبوها فقال لها : يا بنية : ان الناس قد أكثروا فيك فانبئينى بذاك ، فان يكن الرجل صادقا دسست اليه من يقتله فتنقطع عنا المقالة ، وان يكن كاذبا حاكمته الى بعض كهان اليمن ، فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية انه كاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : انك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى الى بعض كهان اليمن . فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن ، فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها ، فقال لها أبوها : يا بنيّة ، انى قد أرى ما بك من تغير الحال ، وما ذاك الا لمكروه عندك . قالت : لا والله يا أبتاه .. ما ذاك لمكروه . ولكنى أعرف انكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب ، فلا آمنه أن يسمنى بسيماء تكون على سبة[1] فى العرب ، فقال لها : انى سوف أختبره لك قبل أن ينظر فى أمرك ، فصفر[2] بفرسه حتى أدلى . ثم أدخل فى احليله[3] حبة من الحنطة ، وأوكا[4] عليها بسير . وصبحوا الكاهن فنحر لهم وأكرمهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : انا قد جئناك فى أمر ، وقد خبأت لك خبيئا اختبرك به فانظر ما هو ؟ قال : بره فى كمرة . قال : أريد أبين من هذا . قال : حبة من بر فى احليل مهر ، فقال عتبة : صدقت .. انظر فى أمر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من احداهن ويضرب كتفها ويقول : انهضى . حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية ، ولتلدين ملكا يقال له معاوية . فنظر اليها الفاكه

(١) سبة : عار . (٢) صفر بفرسه : دعاه ليشرب عند ورود الماء .
(٣) احليل : مجرى البول . (٤) أوكا : أوكا القربة : شد رأسها برباط .

فأخذ بيدها فنثرت يدها من يده وقالت : اليك .. والله لأحرصن أن يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها أبو سفيان فجاءت بمعاوية »

وقصة الكاهن هنا تسقط بحذافيرها ويبقى من خبر هند مع زوجها انه اتهمها فأنفت أن تعود اليه بعد أن أراد هو أن يعيدها ، لأنها تغضب لكرامتها أن تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء

وينقل عنها فى أسانيد متعددة انها بشرت بسيادة معاوية على قومه فقالت : ثكلته ان لم يسد الا قومه

***

قال الشافعى فيما رواه الطبرى : « قال أبوهريرة : رأيت هندا بمكة كأن وجهها فلقة قمر وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبى يلعب ، فمر رجل فنظر اليه فقال : انى لأرى غلاما ان عاش ليسودن قومه . فقالت هند : ان لم يسد الا قومه فأماته الله ... وقال محمد بن سعد : أنبأنا على بن محمد بن عبد الله بن أبى سيف ، قال : نظر أبو سفيان يوما الى معاوية وهو غلام فقال لهند : ان ابنى هذا لعظيم الرأس ، وانه لخليق أن يسود قومه . فقالت هند : قومه فقط ؟ ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة .. فلما ولى عمر بن يزيد بن أبى سفيان ما ولاه من أمر الشام خرج اليه معاوية فقال أبو سفيان لهند : كيف رأيت ؟ صار ابنك تابعا لابنى .. فقالت : ان اضطربت خيل العرب فستعلم أين يقع ابنك .. »

وربما تناثرت الأخبار فى كتب الأدب والتاريخ بغير هذه الأحاديث عن هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية ، ولا حاجة الى نقلها أو تلخيصها جميعا لأنها تتفق فى صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالنفس والحسب ، وانما توافق ما نسميه اليوم « بالشخصية » الملحوظة بين ذويها وقومها وليست من عداد الزوجات والأمهات المنسيات فى الغمار كما كان سائر النساء فى بيئتها

والقصة التى بدأنا بها هذا الفصل تبدى لنا أبا سفيان فى حياته البيتية

على صورة لم تذكر فى قصة أخرى ، فنعلم انه سيد بيته كما كان سيد عشيرته « وانه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن أهله »

وبقية القصة الأخرى تبدى لنا أبا سفيان فى صورة من صور الحياة البيتية ، يقول من شاء انها حياة تقدير ويقول من شاء انها حياة تقتير

فقد وصفته هند بأنه رجل « مسيك »[١] وانها « كانت تصيب من ماله الهنة والهنة[٢] ولا تدرى أكان ذلك حلالا لها أم حراما »

وكان أبو سفيان شاهدا فقال : أما ما أصبت منه فيما مضى فأنت منه فى حل ..

أما كلام عتبة فى غير ما تقدم من صفات أبى سفيان فهو من المشهور المتردد فى أنباء الجاهلية والاسلام ، فقد كان سيدا « موسعا عليه منظورا اليه فى الحسب الحسيب والرأى الأريب ، مدره ارومته وعز عشيرته ..» كما قال عتبة فى تخييره لبنته بين الرجلين

***

فمعاوية اذن ينتمى الى أبوين قويين فى عشيرة قوية ، ولعله ورث من جانب أمه أكثر مما ورث من جانب أبيه ، فهو أشــبه بها فى تكوين جسمه ، وأشبه بها فى وسامة ملامحه ، وأشبه بأصولها المعروفة فى خلق الاناة وبطء الغضب وايثار المطاولة والمراوغة على المعارك والحروب

فأبوها عتبة كان قائد قريش فى وقعة بدر ، وكان رأيه الذى أصر عليه ولم يثنه عنه غير اجماع مخالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال ، وأن يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع الى عشيرته ، وينظروا ما عسى أن يكون من شأنهم جميعا بعد ذلك

وقد يرى بعض الناظرين فى الوراثة أن المرأة التى اشــتهرت باسم « آكلة الأكباد » لم ترث الاناة وبطء الغضب من أبيها ، ولم تورث ابنها هذه الخليقة فيما أورثته من خلائقها

وانه لرأى فيه نظر ، أو هو جدير بالنظر ، فان هذه الضراوة ليست من تلك الاناة ..

---

(١) مسيك : بخيل ٠ (١) الهنة : الشيء ٠

ولكننا حريون أن نذكر أن « الغيـظ » غير الغضب فى دخيلته وفى مدته وأجله ..

فقد يشتهر الانسان بأنه من أهل « الغيظ » ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب ، وقد يزول الغضب لساعته ويبقى الغيظ سنوات فى طوية صاحبه ..

هذا فيما ينطوى عليه الشعوران ..

وغير هذا أن لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه ، وان شفاء الغل بأكل كبد القتيل جماح أنثوى لايضارعه جماح مثله فى الرجال ... فلعلها فى طول الاناة كأبيها أو كابنها ، ولكنها فى مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك

***

ويجوز مع هـذا كله أن يكون معاوية وارثا بعض الخلق من جده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها ، لأن الوراثة قد تنقطع بين الجنسين فتكون الخليقة الموروثة فى الجدود ولا تكون فى الأمهات ..

أما الوراثة التى لاشك فيها فهى وراثة تكوينه الجسدى من أمه ، وهى وراثة طالما أشار اليها معاصروه وذكروا فيها اسم أمه ، ولم يذكروا اسم أبيه ، وقد ترهل من فرط الجسامة فى كهولته ولم يكن لأحد من السفيانيين مثل هذا الترهل فى الكهولة أو الشباب

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتضح من سياسته كلها فى أيام الخلافة وأيام الولاية من قبلها ، فاذا صدق عليهـا وصف غالب عليها فوصف السياسة « الجالسة » التى تدبر وتدبر وتترك المساعى والزحوف للعاملين المأمورين ..

كان معاوية « أبيض جميلا طويلا أجلح[1].. وقد أصابته لوقة[2] فى آخر عمره فكان يستر وجهه »

وروى الطبرى باسناده عن ابن عمرو أنه قال : ما رأيت أحدا أسود من معاوية . وسئل : ولا عمر ؟.. فقال : كان عمر خيرا منه وكان معاوية

(١) أجلح : منحسر شعر الرأس . (٢) لوقة : تشويه .

أسود منه ..

ونقل عن العوام بن حوشب انه كان يقول : « ما رأيت أحدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية . قيل : ولا أبو بكر ؟ فقال : كان أبو بكر وعمر وعثمان خيرا منه وهو أسود »

وهذا السؤدد ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبويه ، وناط بها حقه وحق عشيرته فى الرئاسة ، ودارت مساعيهم وظواهرهم وبواطنهم كلها على هذا السؤدد وعلى الغيرة عليه جيلا بعد جيل

***

وقدمنا ان هندا كانت تعاف الزنى انفة ولا تعافه ورعا ونزاهة ، ولا نخطىء اذا فهمنا من بعض كلام أبى سفيان انه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه لأنه يأبى لمروءته أن يصغره أحد لكذبه وان لم يعلن ذلك بلسانه . وهكذا قال حين سئل فى بلاد الروم عن النبى عليه السلام . فانه سمع سائله يحذره من الكذب فأنف أن يكذب على مسمع من شهود سكوت !..

ومدار الطموح كله فى نفس معاوية على هذه الخصلة التى جعلت تراث القوم كله رهينا بمزاياهم الاجتماعية وجعلت هذه المزايا كلها رهينة بمظاهر الرئاسة والسيادة ..

ونحن نعرف ما تعلمه فى صغره مما كان يعلمه فى كبره . اذ لم تجر عادة الرواة والمؤرخين فى الجاهلية بالتحدث عن الأطفال الصغار الا ما جاء عرضا فى أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم ، ولا استثناء فى ذلك لأبناء الأسر والبيوتات ومن ترشحهم أحسابهم لمكان الرئاسة بعد بلوغهم مبلغ الرجال . ولعله لم يكن اهمالا من الرواة والمؤرخين واستصغارا لأمر أولئك الأطفال ، وانما كان سكوتا منهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من أبناء البيوتات جميعا ولا ينفرد فيه أحد منهم بتعليم خاص لوظيفة خاصة

وقد تعلم معاوية القراءة والكتابة والحساب ، وتتفق الأخبار على

كتابته للنبي عليه السلام ولا تتفق على كتابته للوحي ولا على حفظه لآيات من القرآن تلقاها من النبي كما كان كتّاب الوحي يتلقون الآيات لساعتها ، والأرجح أنه لم يكن معروفا بحفظ شيء من كتابة الوحي في أيام جمع القرآن الكريم ، ولو علم عثمان ــ وهو من ذوي قرابته ــ أن عنده مرجعا من المراجع يثوب اليه لرجع اليه كما رجع الى غيره

***

وتعليم معاوية فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم والالمام بأخبار أيامهم كتعليم غيره من علية قومه . الا انه كان على شغف خاص بالاستماع الى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة ، وربما قرئت له هذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرأها له من يعرف لغاتها ، وقد سمع بعبيد بن شرية الجرهمي وعلم انه يعي تواريخ التبابعة والأكاسرة فأرسل يستقدمه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التواريخ ، فألّف له كتاب الملوك وأخبار الماضين .. وهو أول كتاب يحدّث عن فحواه ..

***

وبلاغة معاوية في كلامه بلاغة سوية لا تعلو ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه : يبين عما يقصد ويحتفل بالقول فينقاد له طبعه الميسر للعربي الفصيح من أبناء عصره ، ومن رسائله المحفوظة رسالة الى زياد بن أبيه يتوعده فيها ، ويدعوه الى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه ، ويقول منها : « ... انك عبد كفرت النعمة واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها ، لا أم لك ، بل لا أب لك ، قد هلكت وأهلكت وظننت انك تخرج من قبضتي ولا ينالك سلطاني ، هيهات !.. ما كل ذي لب يصيب رأيه ، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته . أمس عبد واليوم أمير ... خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية . واذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة واسرع الاجابة ، فانك ان تفعل فدمك حقنت ونفسك تداركت ،

والا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسما مبرورا الا أوتى بك الا فى زمارة[1] تمشى حافيا من أرض فارس الى الشام ، حتى أقيمك فى السوق وأبيعك عبدا وأردك الى حيث كنت فيه وخرجت منه والسلام .. »

ومن ردوده المحفوظة رده على الامام علىّ حين دعاه الى البيعة يقول فيه : « ... لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أعريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ؛ فان فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمرى ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق ، لأن أهل العراق أطاعوك ولم تطعك أهل الشام .. وأما شرفك فى الاسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه .. »

***

وكان يتكلم مرتجلا فيحسن الجواب فى مقامه ، ومنه جوابه لعدى ابن حاتم حين أتاه يدعوه الى بيعة على ، فسمع منه دعوته على ملأ من صحبه ، وأجابه قائلا :

« .. كأنما جئت مهددا ولم تأت مصلحا . هيهات يا عدى ! كلا والله . انى لابن حرب ما يقعقع لى بالشنان[2] . وانك والله لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه وانك لمن قتلته وأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجلّ به . هيهات يا عدى بن حاتم . لقد حلبت بالساعد الأشد .. »

وكان يحتفل بتحضير الكلام فيقول كما قال فى صفين : « الحمد لله الذى دنا فى علوه وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ؛ وارتفع فوق كل ذى منظر . هو الأول والآخر . والظاهر والباطن . يقضى فيفصل ويقدر فيغفر ويفعل ما يشاء اذا أراد أمرا أمضاه واذا عزم على شىء قضاه ،

(١) زمارة : الساجور وهو قلادة تجعل في عنق الكلب ٠ (٢) الشنان : جمع شن بالفتح وهو القربة الخلق الصغيرة ومنه :

لا يؤامر(١) أحدا فيما يملك ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا . وقد كان فيما قضاه الله أن ساقتنا المقادير الى هذه البقعة من الأرض ولفت بيننا وبين أهل العراق فنحن من الله بمنظر . وقد قال الله سبحانه وتعالى : « ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد .. » أنظروا يا أهل الشام ! انكم غدا تلقون أهل العراق فكونوا على احدى خصال ثلاث : اما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا بيضتكم(٢)، واما أن تكونوا قوما تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ، واما أن تكونوا قوما تذبون(٣) عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين » ..

***

وهذه خطبة ربما أضيف اليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها كالمقابلة بين العلو والدنو وبين القضاء والقدر ، ولكنها فيما عدا ذلك لا تستغرب من زمانها ولا موضعها ، وقد خطب معاوية لاشك فى ذلك ، وما بقى من خطبه غير مستغرب من زمانه وموضعه فهو فى طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها . ومنه آخر كلامه قبل موته حيث قال :

« أيها الناس : ان من زرع قد استحصد . وقد طالت عليكم امرتى حتى مللتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وانه لايأتيكم بعدى الا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى الا من كان خيرا منى ، وان مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه .. اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى » ..

وتحفظ له الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير المونق(٤) الجميل ، ولكنها غير كثير . فمنها قوله : « ان السلطان يغضب غضب الصبى ويبطش بطش الأسد » وقوله : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . أرخيها اذا شدوها وأشدها اذا أرخوها »

---

(١) يؤامر : يشاور . (٢) بيضتكم : بيضة القوم ساحتهم . (٣) تذبون : تدافعون . (٤) المونق : من الكلام : الحسن المعجب .

ودخل عليه عمرو بن العاص فرآه يرقص احدى بناته ، وكأنه لمح منه تعجبا لفعله فنظر اليه وهو يقول : هذه تفاحة القلب

فلم يكن من المفحمين[١] ولا من ذوى السجية فى القول : وقد سمع غير مرة يقول ما معناه : انما شيبنى حذر الخطأ فى الجواب

وندر بين معاصريه من النابهين من لم تنسب اليه أبيات من الشعر تصح أو لا تصح فى النقل والرواية

وقد نسب الى الحسن بن على رضى الله عنه انه عيره أبياتا كتب بها الى أبيه يحذره من الاسلام ، وهى :

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا   بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خالى ، وعمى ، وعم الأم ثالثهم   وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن الى أمر تكلفنا   والراقصات به فى أمرنا الخرقا[٢]
فالموت أهون من قول العداة لقد   حاد ابن حرب عن العزى اذا فرقا[٣]

***

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه وما ينسبه ، وما كان معاوية على مبعدة من أبيه فيكتب اليه ، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش الى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمرا دونه ، وهى — بعد — أبيات ليست من نفس الشعر فى صدر الاسلام ولكنها تشبه المقطوعات التى فاضت بها الكتب الموضوعة فى حرب صفين وتكاد تلقى فى روع القارىء انهم فى ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من النثر الا ومعه سطر منظوم

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التى قيل انه بعث بها الى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها الى مبايعة يزيد بولاية العهد ، وهى :

رأيت كرام الناس ان كف عنهمو   بحلم رأوا فضلا لمن قد تحلما
ولا سيما ان كان عفوا بقدرة   فذلك أحرى أن يجل ويعظما
ولست بذى لؤم فتعذر بالذى   أتاه من الأخلاق ما كان ألأما
ولكن غشا لست تعرف غيره   وقد غش قبل اليوم ابليس آدما
فما غش الا نفسه فى فعاله   فأصبح ملعونا وقد كان مكرما

(١) المفحمين : أفحم الرجل خصمه : أسكته بالحجة • (٢) الخرق : بفتح الخاء والراء : الدهش من الفزع والحياء والتحير • (٣) فرق : خاف •

واني لأخشى أن أنالك بالذى   أردت فيخزى الله من كان أظلما

فليس هذا الشعر من نسق عصره ولا من عادات رجاله فى مقام كهذا المقام ، ولكن الأمر الذى يعهد فيهم مع روايتهم للشعر والمثل أنهم يستشهدون بالأبيات فى موضعها ويتأسون بها فى موقعها ، وكذلك قيل ان معاوية ذكر أبيات ابن الأطنابة ساعة فراره من المعركة ليلة الهرير فعاوده الثبات وجعل يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها :

وقولى كلما جشأت وجاشت(١)   مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل انه تمثل شعرا وهو يجود بنفسه ، فقال :

وتجلدى للشامتين أريهمو   انى لريب الدهر لا أتضعضع

ثم قال :

واذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة(٢) لا تنفع

***

وقيل غير ذلك مما لا داعى للشك فيه اذا كان محصوله كله انه كان يحفظ الأشعار والأمثال ويستشهد بها فى مواطنها على سنة نظرائه من العرب أجمعين ..

ولنا ـ بعد ـ أن نفهم أنه نشأ فى الجاهلية نشأة آبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة ، وتعلم ما يتعلمونه وتدرب على دربتهم التى ألفوها . الا أنه كان الى تربية التجارة والتدبير أدنى منه الى تربية الفروسية والنضال ، فلم يؤثر عنه من فعال الفروسية بعد بلوغه مبلغ الرجال فعل يميزه بدربة خاصة على فنونها المعهودة فى زمنه كالمسايفة واصابة الهدف والسبق على متون الخيل والصمود للأقران فى المبارزة ، ولعل تربيته للفروسية لم تزد على القدر الضرورى الذى يعاب الجهل به ولا يبرز الى مكان التنويه والتمييز

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين فى مثل عمله وعمل أبيه ، وهو تدبير التجارة القرشية وحمل اللواء لحمايتها

(١) جشأت : جشأت نفسه ارتفعت وثارت لقيء ٠ (٢) تميمة : خرزات كان الاعراب يعلقونها على أولادهم لنقي العين ٠

والاستعانة بمن يصلحون لحراستها ويذبون عنها بالســلاح اذا وجب الذب عنها ..

أما بعد الاسلام فهذه التربية ، أو هذه النشأة ، تقترن بسؤال آخر عن نصيبه من فقه الدين والثقافة الاســلامية ، ويكاد يدعو الأمر هنا الى سؤال غير هذا السؤال فى أمر الدين من أساســه ، فان أناسا من الغلاة قد شككوا فى اسلامه ، بل جزموا باسلامه على دخلة ومداهنة ، فهل كان لهذا الشك من مسوغ فى عمله آو كلامه بعد اسلامه مع أبيه فى عام الفتح كما هو معلوم ؟..

***

لقد تأخر اسلامه كما تأخر اسلام أبيه ، فأسلما معا فى عام الفتح وهو فى نحو الثالثة والعشرين ، وليس هذا التأخر بموجب للشك فى عقيدته ، لأنه يحدث فى كل دين وفى كل دعوة ، وينقسم الناس فى جميع الدعوات الدينية والفكرية الى مبادرين ومترددين ومتلبثين متلكئين لا يستجيبون لها الا مع آخر مستجيب ، ولا يندر بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق ايمانا وأثبت عقيدة من المبادر المتقدم ، وليس من الجائز آن تتخذ العادة المطردة فى الاستجابة للدعوات حجة على نقيضها . فما كانت الدعوات قط الا هكذا أو لا تكون ..

ومعاوية بعد اسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشــعائره : كان يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويقرأ القرآن ويستمع اليه ، وكانت كل لفظة فاه بها وأحصيت عليه فى مرض الوفاة تدل على الايمان بلقاء الله وعلى الايمان بالجزاء فى العالم الآخر ، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له فى ساعاته الأخيرة انه كان يحتفظ بقلامة من ظفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة آخذها من وضوئه وما زال محتفظــا بها حتى أوصى بأن تدفن فى كفنه ، وكل أولئك قد يسرى اليه الظن ممن تغالبه الظنون . الا المعيشة بين الأهل والبنين حيث ينطلق المرء على سجيتــه وتبدر الفلتــات على الرغم من طول الحــذر

والمراوغة ممن لهم باطن غير ظاهرهم فى العقيدة الدينية ، ولا نتصور أن رجلا له باطن وظاهر فى أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمنان تقيان كخالد ومعاوية الثانى حفيديه .. فان اخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته[1] أمر يفوق طاقة الانسان ..

قلنا فى عقيدة صاحبه عمرو بن العاص انه « مسلم لا شك فى اسلامه ولا شك فى طبعه ولا شك فى اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعا فى كل دين من الأديان ورأى من الآراء ، فلما فتحت له الحيطة باب التفكير فى الاسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئا من عقابيل[2] الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها

***

« قال وقد اعتزم لقاء النبى عليه السلام ما فحواه : فلقيت خالدا فقلت : ما رأيك ! قد استقام المنسم والرجل نبى . فقال خالد : وأنا أريده . قلت : وأنا معك .. وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يغفر لهما ماتقدم من ذنوبهما ، فأضمرت أن أبايعه على أن يغفر لى ماتقدم وما تأخر. فلما بسط يده قبضت يدى ، فقال عليه السلام : مالك ياعمرو ! قلت : أبايعك يارسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . قال : ان الاسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما . فبايعته ، ووالله ما ملأت عينى منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق بربه حياء منى »

وقلنا قبل ذلك : « ومن سيرة عمرو بعد اسلامه نعلم انه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ويقيم الصلاة ويسرد الصوم ويعيش بين ذويه مسلما وكلهم مسلمون »

ويقال فى معاوية كل ما يقال فى عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه أو ملازماته فى أعمق أعماق الطوية على غير وعى من صاحبها حيث يستوحيها مع العقيدة فى أعماله الظاهرة وسرائره الخفية

ومن حيل الطبع فى العلاقة بينه وبين ربه أنها لا تخرج عن وحى سليقته فى العلاقة بينه وبين الناس

(١) على رسلته : بكسر الراء : على مهله وفي رفق وأناة . (٢) عقابيل : العقبولة بالضم واحدة العقابيل لما يثور على الشفة من الحبوب البيضاء غب الحمى .

كان حريصا على أن يبرىء ذمته ويلقى تبعته بما وسعه من حيـلة وحول ، وهكذا كان اجتهاده فى نفى التبعة عنه بين يدى الله

أنظر مثلا الى حيلة طبعه حيث أراد أن يبرأ الى الله من آخذ البيعة بعده لابنه يزيد . قال فى احدى خطبه : « اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما آملت وأعنه ، وان كنت انما حملنى حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك »

وكأننا به يسائل نفســه بعد ذلك : « ماذا بقى من التبعة على فى عقابيل هذه البيعة ؟ غاية ما أرعى به حق الله فى أمر ولدى الذى أحبه أن أسأل له الموت ان كان غير أهل لولاية العهد بعدى . فان كان الله قد أبقاه ولم يقبضه فقد صنعت ما يستطيعه والد يظن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله »

***

ومن حيــل الطبع فى خطبته الأخيرة قوله : « ان من أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه . اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى »

حجة مقبولة عند الله . مخلوق يحب أن يلقى خالقه فالله يحب أن يلقاه

واختلاف طبائع الناس فى الدين على غير وعى منهم لا معنى له الا أنهم يتدينون على حسب طبائعهم ، وليس معناه أنهم يناقضــون الدين ولا ينطوون فى بواطنهم عليه

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان معاوية يعلم من فقه دينه ما لابد أن يعلمه رجل كتب للنبى وحضر مجالسه وحضر عهده كله وعهد خليفته من بعده ، ومرت به الأقضية التى فصــل فيها ولاة الأمر على مسمع منه ، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأقضية ، فهو على نشأته الجاهلية والاسلامية لم يقصر فى معارف دينه ودنياه عن الطليعة بين نظرائه من السادة الأمويين والقرشيين

الأعمـــال

منــذ الفتح الاســلامى لم يعزل وال واحد من ولاة الشام لشكاية الرعية منه ، ولم يتول العراق وال واحد لم يعزل للشكايات الكثيرة التى كانت تتقاطر على دار الخلافة من رعيته

ويزول العجب بعض الشيء اذا نحن قسمنا القطرين قسمين آخرين : قسم هو حصة الدولة البيزنطية ، وقسم هو حصة الدولة الفارسية

فالشام التى كانت حصة الدولة البيزنطية كانت طويلة العهــد بالنظم الادارية والحكومية ، وكانت فيها مدن من عواصم الدولة الكبرى وعليها رؤساء من المميزين فى الدولة بشارات السياسة والدين ، وقد فتحهــا المسلمون على شروطهم المحدودة للذميين المعاهدين ، لأن أهلها كانوا جميعا من أهل الكتاب ، فلما استقر الأمر للدولة الاسلامية فيها بعد زوال الدولة البيزنطية لم تكن من جانب الرعية مقاومة اجماعية ، ولم يكن على شروط المعاهدة خلاف بين الحكام والمحكومين

وكانت الشام كذلك أقرب الى الاستقرار لأن حدودها جميعا كانت فى بلاد الدولة الاسلامية ، الا الجانب الذى يلى تخوم الدولة البيزنطية ، ولم يكن منه خطر كبير بعد صدمة الهزيمة الكبرى التى منى بها هرقل وودع بعدها تلك البلاد وداع الأبد ، وكان كل خطر من هذا الجانب ــ عظم أو صغر ــ تتلقاها الدولة الاسلامية بجيوشها البرية وأساطيلها البحرية فى جملتها ، فلم تكن الشام منفردة بالدفاع اذا هجم الروم برا أو بحرا ، بل كانت الولايات من افريقية ومصر ومن الجزيرة فى بعض الأحايين تتجمع لدفع الهجمات أو لاتقائها قبل وقوعها

وكانت سياسة عمر فى تمكين الفتوح وتحصينها أنفع السياسات للشام

خاصة ، اذ كانت خطته كما جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى أنهم « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين ، فان حدث فى شىء منها حدث من قبل العدو سربوا[١] اليها الامداد » ..

فانتظمت معاقل الدفاع عن الشام على شواطئها وعند أطرافها ، وأحيطت من كل جانب بالمدافعين عنها من جند الدولة الاسلامية فى الشرق والشمال والجنوب

***

ولا نحذرن شيئا كما ينبغى أن نحذر الاشاعات التى نسميها بالاشاعات التاريخية ، ومن قبيلها اشاعة الضعف عن عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، فقد جنت هذه الاشاعة على النقد التاريخى حتى خيل الى الناس انه لم يعمل عملا قط اتسم بالقوة أو خلا من الضعف ، وهو اسراف فى الرأى كاسراف جميع الاشاعات من قبيلها ، لأن سياسة عثمان البحرية كانت أقوى السياسات وكان فيها قدوة لمن بعده ولم يكن مقتديا بأحد قبله ، ونحسبه عرف خطر الشواطىء والموانىء من عمله فى التجارة ، فأصلح ميناء جدة فى الحجاز ولم يغفل لحظة عن الشواطىء المفتوحة فى افريقية ومصر والشام ، ولا يقال عن حملة واحدة من حملات البحر انه كان مسوقا اليها برأى غيره ، فانه — على ما هو معلوم من سبق معاوية الى الاستئذان فى فتح قبرس أيام الفاروق — لم يأت العزم الأكبر فى هذه الحملة الا من جانب عثمان ، اذ كتب الى معاوية يستوثق من جده فى فتح هذه الجزيرة وتأمين الملاحة حولها فأمره كما جاء فى البلاذرى بأن يركب البحر اليها ومعه امرأته « فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونا لك والا فلا »

كانت هذه حال الشام يوم تولى معاوية اقليما منها على عهد الفاروق ثم تولاها جميعا على عهد عثمان

وبخلاف ذلك كانت حالة العراق من جميع الوجوه . فلم تكن فيها

---

(١) سرّبوا : سرّب الماء : أساله · والى فلان الشيء : أرسله ·

معاهدات ذمية تدين الرعية ، ولم تكن حدودها الشرقية والشمالية آمنة كل الأمان فى زمن من الأزمان ، فكانت — من البصرة الى أرمينية الى خراسان — عرضة للحملات والفتن فى كل آونة ، وكانت الدولة الاسلامية لا تفرغ لها كل قوتها كما أفرغتها للدفاع عن الشام أمام الدولة البيزنطية ، لأن دولة فارس ذهبت بذهاب ملكها فلم يحسب لها المسلمون حساب القوة المتجمعة ، وسلكوا فيها مسلك التأهب للمفاجآت الطارئة من هنا وهناك ، وليس فيها ما يشغل بال دولة فى مواجهة دولة أخرى

***

وعلى هذا كان العراق ، أو كانت الجزيرة كلها ، أطرافا مهملة فى أيام الدولة الفارسية ، فلم يكن لها نظام من نظم الادارة المتناسقة يسير عليه الحكم كما سارت الحكومة الادارية فى الشام ، ولم تتضح علاقات الحاكمين بالمحكومين فى أنحائها كما اتضحت مع المعاهدين الذميين

وأعضل من ذلك كله بين مشكلاتها أن الفتح الاسلامى قد جاءها بمجتمع مختلف منقول الىها بحذافيره من سادته وقادته الى سوقته ومواليه ..

فقد انتقل اليها رهط من القادة وذوى الرئاسة ليقيموا فيها ويزرعوا الأرض ويتجروا بين أنحائها ، وعاش الى جانبهم ألوف من الجند المقيمين والجند العاملين ، وكلهم لهم أعطية من بيت المال ، يعطاها من عمل فى الفتوح الأولى ومن يعمل فى الغزوات التالية ، وكان تقسيم الأعطية مشكلة من مشكلات هذا المجتمع المنقول . فمن بقى عاملا فى الغزوات يحسب له حقا يستكثره على سابقيه من المجاهدين المقيمين ، وأعطية بيت المال تأتى كلها من المدينة أو تصرف كلها بتقديرها ، ويلام الولاة فى نظر الجند لانهم لا يفرقون فى الاحصاء والتقدير بين الفريقين ، ويلامون لأنهم يعيشون بين أقربائهم وعشيرتهم ويتعرضون لشبهات المحاباة بالحق أو بالباطل ، ولاتنقطع الشكاية من الولاية الا ريثما يعزل واحد منهم ويتلوه خلف له أخذ فى العمل فيأخذه القوم كرة أخرى بالتهم والشبهات ..

وقد ثقلت أعباء هذه الشكايات على كاهل الفاروق وهو فى هيبتــه وعزمه واقتداره على فض المنازعات فلم يكن يرى فى جوانب المسجد مغموما الا علم أصحابه أنه مشغول بشكاية من شكايات الرعيــة أو الجند فى العراق ..

***

وبدأ معاوية أعماله العامة فى الشام وهى بتلك الحالة من الاستقرار بالقياس الى جميع الولايات الاسلامية الأخرى ، وجاء عمله فيها تدريجا من معاونته لأخيه يزيد الى قيامه على ناحية من الشام خلفا له الى قيامه على الشام كلها فى أيام عثمان ، فكان كل عمل من هذه الأعمال بمثابة « فترة تمرين » للعمل الذى يليه ويزيد عليه فى الســعة والتكليف ، وكانت الأعمال « الحربية » أو أعمال التحصين يتولاها من حوله رجال من صناديد الحرب كعبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن خالد ، فلم يقم قط بقيادة حربية مستقلة وصل بها الى نتيجة حاسمة أو ناجحة

ثم نشبت الفتنة الوبيلة فى خلافة عثمان وهو بمعزل عنها ، وقتــل عثمان فاتخذ من مقتله ذريعة للخروج على الامام على وانكار بيعته ، وأسرف كل الاسراف فى التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده فى كل حديث وفى كل خطاب وفى كل جواب ، وينكر عليه بعض صــحبه أن يمنع عليا وأصحابه الماء فى وقعة صفين ، فيجد المعذرة له فى صنيعه انه يمنعهم الماء لأنهم منعوا عثمان الماء وهو محصور

واستند الى آية من القرآن الكريم فسرها برأيه ليقنع أنصاره أنه على حق وأنه منصور ، وهى قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا »

وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنهــا وأغفلها بعد ذلك فلم يعد اليها قط الا ليعتذر الى قرابة الخليفة المقتول

من سكوته واغفاله ..

وينبغى هنا أن نذكر أن معاوية لم يكن بحاجة الى قدرة خارقة لاثارة الشام باسم الخليفة المقتول . فان عثمان كانت له مصاهرة فى بنى كلب أكبر قبائل البادية فى الشام ، وكانت زوجه نائلة بنت القرافصة تصف مصرعه فى رسائلها وتبعث بقميصه المخضب بالدم وأصابعه المبتورة فترفع على المنبر حيث يراها شهود المسجد فى كل صلاة ، وكان جند الشام بعيدين عن معمعة[1] الفتنة لم يسمعوا صوتا من أصوات الثورة على الخليفة المقتول ولا حجة من حجج السخط على حكمه ، وكانوا بين معسكرين أقربهما اليهم والى عملهم معسكرهم فى ولاية معاوية ، ومنهم طائفة كان يستبقيها لديه ولا يأذن لأحد منها أن يبتعد من جواره برهة الى معمعة الفتنة مخافة عليه من الاستماع لحجج المخالفين فيداخله الشك فى دعوته ودعواه ..

***

ولم ينته معاوية فى نزاعه لعلى الى موقف فصل بالحرب أو بالسياسة

ففى وقعة صفين حلت الهزيمة بجيشه ليلة الهرير وأيقن بسوء العاقبة اذا استمرت مدة القتال ، فأشار عليه عمرو بن العاص بحيلة المصاحف فرفعوها فى اليوم التالى ونادوا بالتحكيم الى كتاب الله ، فاختلف جند الامام واضطر فى جنده المختلف الى قبول التحكيم

ومن المؤرخين من يبالغ فى خطر التحكيم ويجعل له شأنا فى عواقب النزاع لم يكن له ولا كان من المعقول أن يكون له بحال

فهذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على آية نتيجة من النتائج انتهى اليها ، سواء اتفق الحكمان على خلع على ومعاوية معا أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر ، أو لم يتفقا على شىء

ففى كل حالة من هذه الحالات كانت العواقب صائرة الى ما صارت اليه بلا اختلاف ، وكان المعسكران يمضيان فى طريقهما الذى مضيا فيه فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأى يمليه عليه الحكمان متفقين أو غير متفقين

(١) معمعة : صوت الابطال في الحرب ، وشدة القتال ، والفتنة العظيمة .

انما وقعت الواقعة الحاسمة بمقتل علي رضوان الله عليه دون صاحبيه ، ثم آلت خلافته الى ابنـه الحسن فى معسكر مضـطرب بين الخوارج والشيعة والموالى والأتباع الذين لا يعملون عمـل الأتباع طائعين ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين ، وورث الحسن معسكرا لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليناضل به معسكرا لم يقع فيه خلاف قط منذ الفتح الأول ، الا الخلاف الذى كان يريده معاوية ويعمل له حذرا من مغبة الاتفاق عليه ..

***

ولما امتنع طلب البيعة لغير معاوية بويع معاوية وحده أو بقى معارضوه متفرقين لا يلوذ فريق منهم برئيس يرشح نفسه لخلافة أو ينهض لها بحجة . فترك هؤلاء المتفرقين فى العراق يضرب بعضهم بعضا أو فى الحجاز لا يعملون شيئا غير الترقب والانتظار

ولاشك أن معاوية قد استفاد فى امارته ـــ منذ اللحظة الأولى ـــ من كل نظام مفيـد فى حكومة الشام ، فأبقى ما لاغنى عنه من نظم الادارة وتوسع فيه وزاد عليه ؛ وأبطل ما لابد أن يبطل مع الدولة المتبـدلة والدين الجديد ..

وقد وكل الادارة المـالية الى القائمين بها فى أيام الدولة البيزنطية وعلى رأسهم سرجون بن منصور ، ثم ابنه منصور بن سرجون ، ووكل الادارة الكتابية الى عبـد الله بن آوس الغسانى من وجوه الغساسنة أصحاب الملك القديم فى الشام ، ونظم البريد وتوسع فيه للاطلاع على أخبار الأقاليم وابلاغ الأخبار اليها على انتظام وترتيب ، وآنشأ ديوان الخاتم لمراجعة الحساب بين العاصمة والولايات ، وعزز بناء الأسـطول بتجديد مصانع السفن فى عكاء ، واستجلب من فارس كل عامل نافع فى مسائل الخراج والاحصاء ، وعنى بتسجيل المواليد والوفيـات لتقسيم الأعطية والأرزاق ، وجعل للجند عملا يصرفهم عن البطـالة والشقاق فداول بينهم وبين مواعيد الصوائف والشواتى وهى مواعيد الحراسـة

والغزو في بلاد الروم من تخوم الشام الى أرباض[1] القسطنطينية ، وكان يحرك الأساطيل من حين الى حين لتهديد القسطنطينية وسواحل الدولة البيزنطية ليشغلها بالدفاع عن التفكير في الهجوم

وبرزت حزامة معاوية في تدبير شئون ملكه مع ما اشتهر به ساسة العصر — في اقبال الدولة والدنيا — من الكلف بمناعم العيش والتهافت على المتع والملذات ، بل مع اشتهار معاوية نفسه بمثل هذا الكلف في بيته وفيما يشهده الناس من أبهته وزينته ، فكان عظيم العناية بأطايب الخوان كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية ، وكان يأكل ويشرب في آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ، ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه « لأن الكريم طروب »

***

الا انه كان على هذا كله لا يضيع عملا في سبيل لذة ولا ينكص عن مشقة تواجهه من أجل متعة تغريه ، وربما أمر بايقاظه ساعات من الليل لمراجعة الرسائل والشكايات من أطراف الدولة القاصية ، وربما جلس للمظالم نهارا فاستمع الى الجليل والدقيق منها ونظر في بعضها وأحال بعضها الى من يناط بها ويحاسبه على النظر فيها ، وكانت له قدرة على ضبط هواه حين يريد ، وقدرة على تصريف وقته كما يشاء ..

ولما برزت منه هذه القدرة للشاهد والغائب أتيحت له حجة لطلب الخلافة أغنته عن اللجاجة بمظلمة عثمان ، فكان يخطب فيقول : « انى ان لم أكن خيركم فأنا أنفعكم لأنفسكم » وكان يقول للحسن ولغيره انه لو علم أن أحدا أضبط لشئون الملك منه وأقدر على جمع الرعية حوله لما نازعه هذه الأمانة الثقيلة على عاتقه

واذا كان الأمر أمر قدرة وعجز فلا جدال في وصف معاوية بالقدرة ونفى العجز عنه لأنه من الصفات التى لا ترد على بال عارفيه أوخصومه

بيد أن القدرة — كما قلنا في الصفحات الأولى من هذه الرسالة — هى أحوج الصفات الى التقدير ، لأنها لا تعرف الا بمقدارها ولا تدل

(١) أرباض : جمع ربض بفتح الراء والباء : ما حول المدينة من بيوت ومساكن .

على شيء ان لم تكن قدرة على هذا الشيء أو ذاك

وتقدير هذه القدرة التى امتاز بها رأس الدولة الأموية فيما نرى أنها كانت الحزم غاية الحزم فى الشوط[١] القصير ، ولكنها تخلو من الحزم أو تنحرف الى نقيضه فى الشوط الطويل والأمد البعيد

ان معاوية لم يضيع عملا حاضرا فى سبيل متعة حاضرة : ولكنه أوشك أن يضيع الغد كله فى سبيل اليوم الذى يشهده أو فى سبيل العمر الذى يحياه ..

ألجأته الحاجة الى انفاق المال فى أبهة الملك والاغداق على الأعوان والخدام الى ارهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع أصحاب الجزية فكان من الولاة من يطيعه ومنهم من يجيبه معترضا كما فعل وردان فى مصر حين أمره بذلك فأجابه سائلا : « كيف أزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم ؟ »

***

ومن الولاة الذين أنكروا أن تستصفى الأموال لبيت مال الخليفة والى خراسان الذى كتب اليه زياد يأمره ألا يقسم فى الناس ذهبا ولا فضة ، فكتب الوالى الى زياد : « بلغنى ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وانى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين . وانه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقا[٢] على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجا والسلام »

الا أن الولاة الذين أطاعوا وبالغوا فى الطاعة أكثر من الذين ذكروا بالمخالفة ، وكلما اشتدت الحاجة الى المال اشتد الطلب على الرعية ، وعمد بيت المال الى احتجاز حصة الزكاة من الأعطية لحسبانها فى الهبات والهدايا ، وفتح هذا الباب على مصراعيه فتوسع فيه كل خليفة بعد معاوية حتى جعلوا يحاسبون الناس على « التخمين » ويحصون عليهم ثمراتهم قبل أن تنبتها الأرض فيحسبوها عليهم بثمن دون ثمنها ويأخذوا منها ما يصل الى أيديهم بالثمن الذى اختاروه ، وتمادى هذا العسف الى عهد عمر بن عبد العزيز الذى استنكره وكتب الى بعض ولاته يقول

(١) الشوط : الجرى مرة الى الغاية . يقال : عدا شوطا كما يقال عدا طلقا . (٢) رتقا : رتق الشىء : سده ، صد فتقه ، والفتق أصلحه .

ان عمالك يخرصون[١] الثمار عن أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفا[٢] على قيمتهم التى قوموها » ... ولم ينته هذا العسف حتى كانت نهايته بداية للخراب وافلاس الدولة فى ختام عهدها فكان افلاسها هذا ــ على حين حاجتها الى مضاعفة المورد ــ سببا من أسباب التعجيل بزوالها

وكأنما كان غرام معاوية بأبهة الملك زهوا فى قرارة النفس لايبالى أن يباهى به من صادفه ولو كان من الزهاد المنكرين للترف والسرف وخيلاء الثراء والفخر بالبناء والكساء ، فلما بنى قصر الخضراء بلغ من اعجابه بالبناء أن سأل أبا ذر داعية الزهد والكفاف من الرزق : كيف ترى هذا ؟

فسمع منه جوابا كان خليقا أن يترقبه لو لم يكن لزهوه بما ابتناه لا يصدق أن أحدا يراه بغير ما رآه . قال أبو ذر امام « الاشتراكيين » فى ذلك الزمان : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين .. » .

***

وأشأم من هذه السياسة المالية سياسة الأمن أو سياسة ضبط الأمور كما كان يسميها ..

فليس أضل ضلالا ولا أجهل جهلا من المؤرخين الذين سموا سنة « احدى وأربعين هجرية » بعام الجماعة لأنها السنة التى استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها ، لأن صدر الاسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها

اذ كانت خطة معاوية فى الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة هى التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضى منهم بالحال أو سكنوا عجزا منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكونهم سكون أيام أو كان سكون الأعمار والأعوام

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل فى

(١) يخرصون : خرص الكرم والنخل خرر ما عليه من العنب · أو قدره بظن · (٢) قرفا : قرف على القوم : خلط وكذب ·

العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والاقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة . بل كان يفعل ذلك فى صميم البيت الأموى من غير السفيانيين ، فكان يأمر سعيد بن العاص بهدم بيت مروان كما تقدم ، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد ، ويغرى أبناء عثمان بالمروانيين كما يغرى المروانيين بأبناء عثمان ..

وفرق بين اليمانية والقيسية ، أو بين جنوب الجزيرة وشمالها ، فأعطى حسان بن مالك سيد القحطانيين حكمه فى صدارة المجالس لليمانية ومضاعفة الأجر لهم أو للألفين الذين اصطفاهم من حزبه ورهطه ، وجعل لكل هؤلاء الألفين حق التوريث من بعده لأقرب الناس اليه فى رواتبه وأرزاقه ووجاهته وقيادته ، واشترط رؤساء اليمانية عليه ألا يعقد فى أمر أو يحله الا بعد مشورة منهم يقدمهم فيها على ولاته ووزرائه

***

وفرق كذلك بين العرب والموالى وأوشك أن ينكل بالموالى ليقصيهم عن مناصب الدولة وعن الاقامة فى عواصمها ، لأنه كان يعلم أن العرب يلوذون برؤسائهم ولا رؤساء للموالى يلوذون بهم فى نقمة أو مظلمة . وانفتح للموالى بذلك باب اللياذ بأصحاب المذاهب والدعوات لأنهم رؤوسهم دون الرؤوس وقادتهم دون القادة ، فلم يكد داعية من الدعاة يجهر بمذهب معقول أو غير معقول الا ألفى الى جانبه جموعا من الموالى تصغى اليه ، ووافق ذلك أن الخوارج من صميم العرب كانوا يدعون الى مذهب فى الخلافة يوافق الموالى فى كل أمة ، لأنه مذهب لا يحصر الخلافة فى النسب ولا فى قريش ولا يرى لها شرطا غير التقوى والصلاح، فتفرق الموالى بين الخوارج والشيعة ، ونصروا هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى لأنهم جميعا يحاربون بنى أمية

واتبع هذه الخطة ــ خطة التفرقة ــ بين أهل الشام الذين تمهدت له ولايتهم من قبل الاسلام ، فاستخلص لنفسه فرقة منهم لا تخرج من

الشام ولا تلتقى بأحد من دعاة العراق أو الحجاز أو مصر أو افريقية ، ثم نقل الى الشام طوائف شتى من غير أهلها ، فنقل اليها طوائف الزط والسيابجة من البصرة ، ونقل الى الأردن وصور طوائف من الفرس والموالى ، ونقل الى انطاكية أساورة[1] الموانىء بالعراق ، وخلط العرب بالعجم وهؤلاء بسلالة الشاميين فى كل بقعة من بقاع البلاد التى عرفت من قديم باسم البلاد السورية ..

ولم يستطع أن يستخلص قبيلة بنى كلب كلها لأن منهم أصهار عثمان وبيت مروان ، فاستخلص منهم أخوال يزيد وأصبحوا بعد ذلك فريقين : فريق يدعو الى خالد بن يزيد ، وفريق يدعو الى مروان

***

وواضح من هذه التفرقة انه كان يكف يده عن البطش والنكاية فى معاملتهم جميعا على اختلاف النسب والمقام ، لأنه كان يغرى بعضهم ببعض فيستغنى بالوقيعة بينهم عن الايقاع بهم ، ولكنه على هذا كان يؤيد سياسة الايقاع مهما يكن من قسوتها وغلظتها كما أيدها أقسى الولاة وأغلظهم فى زمانه وبعد زمانه ، وكان يختار لها من يعلم أنه يفرط فيها ولا يقتصد فى شرورها وموبقاتها ، ولا يبالى أن يأخذ البرىء بذنب الأثيم ولا أن ينكل بالقريب قصاصا من البعيد ، وكذلك فعل واليه زياد فى البصرة حيث أعلن « شريعة » حكمه فقال فى خطبته التى افتتح بها حكمه : « .. انى لأقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول : انج سعيد فقد هلك سعد .. اياى ودلج[2] الليل فانى لا أوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم ، واياى ودعوى الجاهلية . فانى لا أجد أحدا ادعى بها الا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثا لم تكن وأحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا ، فكفوا أيديكم

(١) أساورة : جمع أسوار وهو قائد الفرس . (٢) الدلج : بفتحتين : السير من أول الليل .

وألسنتكم أكفف عنكم لساني ويدى ، واياى لا يظهر لأحد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه ..

« وقد كانت بيني وبين أقوام إحن[1] فجعلت ذلك دبر أذنى[2] وتحت قدمى . فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته . انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدى لى صفحته فاذا فعل لم أناظره »

الى أن قال واعدا بعد هذا الوعيد : « واعلموا اننى مهما قصرت عنه فلست بمقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء ، ولا مجمرا[3] لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذى اليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم »

ثم عاد الى التذير والوعيد فاختتم خطابه قائلا : « .. أن لى فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاى »

***

وقد أمر صاحب شرطته أن يخرج بعد صلاة العشاء وانقضاء هزيع من الليل ، ثم لايرى انسانا الا قتله ، وجىء اليه يوما باعرابى لم يقتله صاحب الشرطة لاشتباه أمره عليه ، فسأله زياد : أما سمعت النداء ؟..
قال الاعرابى : لا والله قدمت بحلوبة لى وغشينى الليل وأقمت لأصبح ولا علم لى بما كان من الأمير ..

قال : أظنك والله صادقا . ولكن فى قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه ..

ومثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره « ضبط » الأمور وتأمين الناس ، لأنه يؤمنهم بخوف أشد عليهم من خوف العدوان ، ولكنه على هذا لم يصلح للضبط والتأمين الا فترة لم تطل ولا يزال سواء منها على الأمة أن تنقضى فى عدوان أهل البغى أو فى نكال السلطان

---

(١) احن : جمع احنة وهى الحقد . (٢) دبر أذني : وراء أذني .
(٣) مجمرا : جمر الجيش القوم : حبسهم في أرض العدو لا يغادرونها .

بمثل هذا النكال ، ثم انقضت هذه الفترة فنجمت نواجم الشر ولم تنشب فى تلك الأنحاء ناشبة من الفتنة الا كان لها جرثومة من تلك السياسة التى تفسد الأمور فى زمانها وفيما بعد زمانها

وكان الناس من حين الى حين يهربون من هـذه الشدة ويتحرمون بجوار العاصمة فيجيرهم معاوية ولا يكف يد واليه عن غيرهم ، وكتب اليه زياد مرة : ان هذا فساد لعملى كلما طلبت رجلا لجأ اليك وتحرم بك ..

فكتب اليه معاوية : « انه لا ينبغى أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة وأكون أنا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا .. »

على أن زيادا تحرج أشد الحرج فى قضية حجر بن عدى وأرسله الى معاوية فلم يتحرج معاوية من قتله ، ولم يذكر الناس لزياد من جرائر قسوته فى حكمه ما ذكروه من جرائر هذه السقطة لمعاوية ..

وساءت العقبى من سياسة التفرقة كما ساءت العقبى من سياسة القسوة ، فلم تنجم فى الدولة ناجمة فتنة الا كانت جرثومتها فى هـذه السياسة ، وكان حزم معاوية وكانت قدرته فى كل هذه الفتن حزما لابد له من تعقيب وكانت قدرته فى أعماله جميعا قدرة لابد لها من تقدير

وجماع الصدق فى هذا التقدير أنها كانت قدرة على الشوط القصير والأمد القريب ، ولم تكن قط قدرة على الشوط الطويل والأمد البعيد

واستقر الملك لمعاوية على قلق دخيل الى أن أدركته الوفاة سنة ستين للهجرة ، وبطل نصفه قبل وفاته كأنه ضرب من الشلل ، وأصابته لوقة وسقطت أسنانه جميعا ، كأنها من أدواء التخمة التى تعجل الى الكبد والأسنان ، ويبدو أثرها فى مرض الجلد واللثة ، وكان يخلط فى وفاته أحيانا ولكنه كان يصحو ساعة بعد ساعة حاضر الذهن صحيح اللسان ، فدعا بصاحب شرطته الضحاك بن قيس الفهرى وبمسلم بن عقبة صاحب الأفاعيل المشهورة فى حرب أهل المدينة ، وقال لهما فى أشهر الأسانيد : « بلغا يزيد وصيتى : انظر أهل الحجاز فانهم أهلك فأكرم من قدم عليك

منهم وتعاهد من غاب عنك ، وانظر أهل العراق فانسألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا لسانك وعيبتك[١] ، فان نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر »

ويقال انه ألقى هذه الوصية الى يزيد فقال : « يابنى.. انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الأشياء وذللت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا أربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر. فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق أحد غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما . وأما ابن أبى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم . ليس همه الا فى النساء واللهو ، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير »

وشبيه أن تكون هذه الوصية فى معناها آخر ما قاله وخلاصة ماخرج به من تجارب دنياه ، فانها سياسته التى كان يعيدها كما بدأها لو أنه عاد ليبتدىء بها من جديد فى أيام يزيد ، معرفة بالرجال وقدرة على التدبير فى الشوط القصير ، واحكام العقدة بآلتها فى حينها ، وبغير نظر الى آلتها بعد ذلك الحين ، ومن ذلك اختياره لابلاغ الوصية أسوأ من يعين عليها مع الزمن : مسلم بن عقبة والضحاك بن قيس .. ومن ذلك مدافعته الفتن بالمجاراة والمداراة ، فيوصى خليفته بعزل وال فى كل يوم ولا يوصيه بالنظر فيما وراء ذلك من سخط على الحاكم وعجز عن ارضاء المحكوم .. وصية رجل قدير .. قدير غاية القدرة فى الشوط القصير..

---

(١) عيبتك : العيبة : وعاء من جلد يكون فيه المتاع . ومن الرجل : موضع سره .

في الميــزان

حق الأمانة على المؤرخ فى هذه المرحلة من التاريخ الاسلامى أن يراجع بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية ، قبل أن يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم المناقب والمآثر بقيمتها

ومن هذه الحقائق البديهية أن الأموال التى بذلها معاوية للمأجورين من حوله لم تبذل لتعريف الناس بحسناته وسيئاته كما يعرفها من لم يؤجر بمال ولم يتصل معه بسبب

ومن هذه الحقائق البديهية أن سلطان معاوية يدخل فى الحساب حيث يؤوب الباحث الى ذلك الزمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان فى سمعته وذكراه

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على اقرار ما قيل وتكرر وطال وقوعه فى الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شىء من التغيير ، وحتى لتكاد تعجز عن النفاذ الى الحقيقة لو رغبت فى ذلك التغيير لسبب من الأسباب ، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعنيهم تمحيص ما يقال فى الساعة الراهنة فضلا عما يقال ويعاد منه مئات السنين

ومن الحقائق البديهية أن المحاباة تأتى بتوافق الطبائع كما تأتى بالغرض والرشوة ، فلا يسهل على الانسان نقد صفة يعلم أنه متصف بمثلها ، واستنكار وسيلة يعلم انه لايستنكرها ولا يأبى النجاح اذا توسل بها اليه

ومن الحقائق البديهية أن المحاباة تأتى من جهات لم تخطر للمنتفع بمحاباتها على بال ..

فالدولة الأموية فى الأندلس أنشأت للشرق الاسلامى تاريخا لم يكتبه مؤرخوه ولا يكتبونه على هذا النحو لو أنهم كتبوه ، وجاءت تلك الدولة الأندلسية بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راجحا لكل سيرة أموية

لايقصدونها بالمحاباة ولكنهم لايستطيعون أن يقصدوها بالنقد والملامة لأنهم مصروفون بهواهم عن هذا الطريق

من هؤلاء أناس فى طبقة ابن خلدون ، يضع معاوية فى ميزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشدين ويتمحل المعاذير له فى اسناد ولاية العهد اليه مع فسوقه وخلل سياسته وكراهة الناس لحكمه حتى من أبناء قومه

ولا يهولن قارىء التاريخ اسم ابن خلدون فيذكره وينسى الحقائق البديهية التى لا تكلفه أكثر من نظرة مستقيمة الى الواقع الميسر لكل ناظر فى تواريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية

فما فى وسع ابن خلدون أن يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين معاوية والصديق والفاروق وعثمان وعلى فى مسلك من مسالك الدين أو الدنيا وفى حالة من أحوال الحكم أو المعيشة ، وانه لفى وسع كل قارىء أن يجد المشابهات الكثيرة التى تجمع بين معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ، فلا يفترقون فيها الا بالدرجة والمقدار ، أو بالتقديم والتأخير . واذا كان هذا شأن ابن خلدون ، فقل ما شئت فى سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتواريخ ، من مشارقة شهدوا زمان الدولة ومشارقة لم يشهدوه ، ومن مغاربة عاشوا فى ظل تلك الدولة ، وتعلقت أقدارهم بأقدارها ، وأيقنوا أنهم لا ينقصون منها شيئا ثم يستطيعون تعويضه من الأندلس بما يغنيهم عنه ، وما زال العهد بالمنبت عن ارومته أن يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها

اذا روجعت تلك الحقائق فى ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد عليها فى ابان الدولة وكل ما علق بها من تواطؤ الزمن وتكرار العادة وكسل السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواه .. لقد تمهدت لمعاوية أسباب لم تتمهد فى عصره لأحد غيره من قبل الاسلام ، وفى صدر الاسلام الى أيام عثمان

ولم يكن مفرطا أو عاجزا فلم يضيع ما تمهد له بعجلة لا تؤمن عاقبتها ، أو بتقصير عن الفرصة فى أوانها ، وكان له دهاء وحلم ، وكان فيه طموح

واعتداد بالنفس وسمة من سمات الرئاسة ..

وكان له من كل أولئك قدره الذى أعانه على مقصده كما أعين بغيره فكان فى يديه من المال والجند وسلطان الولاية ما لم يكن فى يدى أحد من نظرائه ومنازعيه ، ولولا ذلك لما أفاده دهاؤه مع أعوانه من الدهاة ، لأنه لم يغلبهم بعقـل غالب ولم يصرفهم عن مقاصدهم الى مقصده ، بل خدمهم وخدموه ، ولو لم يكن عنده ما يطلبونه لآثروا غيره أو نازعوه على سواء ، وربما نازعه بعضهم على رجحان

وكان له حلم أوشك أن يلازمه ملازمة الرئاسة ، ولكنه حلم من لا يغضب وليس بحلم من يغضب ويملك عنان غضبه ، فهو يستطيع أن يركب غضبه بعنان أو بغير عنان ، فانه فى غنى عن قوة الساعد مع مطية لا تثور ثورة الجماح فى كل حين

وكان له طموح الى السيادة ، ولكنه طموح الألفة والعادة ، ورثه مع جاه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليقة « الحيوية » التى يطبع عليهـا العصاميون ، فكأنما هى جزء من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث

واذا وزنت قدرة معاوية بميزان النجاح حصـل من نجاحه فى كفة الميزان حاصل قليل يهون شأنه مع اثقـال الكفة الأخرى من الجهـود والشواغل والهموم ..

فقد أراد الملك له ولبنيه ، ولم يرده لبنى أمية أجمعين ، لأنه فرق بينهم ما اجتمع وأغرى أناسا منهم بأناس ولم يعمل عمله الا ليتركه من بعده لعشيرته من بنى سفيان . فلم يخلفه من ذريته غير يزيد ، وذهب يزيد فى عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه

وتبعة معاوية فى عاقبة ولى عهده الذى خرق الخوارق من أجله أعظم جدا من مسعاته فى توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده . فقد جنت عليه تلك الخليقة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الاملاء لهم فى النعمة والمتاع ، وما كان يزيد ليقصد فى مطاعمه ومناعمه وهو ينظر الى

قدوة سبقته الى تلك المطاعم والمناعم ، وسبقته الى تدبيرها له كلما استعصت عليه ، ولو لم تكن من الشهوات التى يقضيها الآباء للأبناء

ان ذات الجنب مرض من أمراض الكبد ، وأمراض الكبد قضاء حتم على المنهوم بطعامه والمفرط فى شهواته ، وقد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك : صنع له عدة النعمة والمتعة ووضع له عدة الملك والسلطان ، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك ..

وخرج معاوية من الملك بالأيام التى قضاها فى نعمته وثرائه ، ولا نقول فى صولته وعزه ، فقد كاد يذل لكل ذى بيعة منشودة ذلا لم يصبر من بايعوه على مثله ، ولو وزن ما احتمله فى سبيل بيعتهم وما احتملوه فى سبيل طاعته لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين . أما تبعته العامة فى أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله جسامة عمل فى عصره ، لأنه نكص[1] بالملك خطوات ، وكان فى ميسوره أن يتقدم به خطوات تزيد عليها ، مع ما بين الخطوة الناكصة والخطوة المتقدمة من بون بعيد ..

لم يكن فى ميسوره أن يديم على الدولة خلافة كخلافة الصديق أو الفاروق ، ولكن كان فى ميسوره أن يجنبها الكسروية والهرقلية وأن يجعل للخلافة أثرا باقيا فى ولاية الأمر، ان لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم . ولو انه أنشأ هذا الملك فى الدولة الاسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الاسلامى ، والعالم الانسانى ، عليه ..

غير أن الناس عرفوا فى زمانه فارقا شاسعا بين ولى الأمر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للخلق والخالق ، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والانصاف ، وبين الحكم الذى يحاط بالأبهة ويجرى على سنة المساواة ويملى لصاحبه فى البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغالاة بصغائر الحياة . كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما يبكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة ..

وتتابع عليه فى أيامه الأولى من يقول له : السلام عليكم أيها الملك ..

(١) نكص : نكص فلان عن الامر اراده ثم رجع عنه .

فكان ينكر الاسم ولا ينكر السمة ، الى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التمادى فيها ، فتمادى فيها وقال جهرة لمن حوله : نعم أنا أول الملوك !

وتبعته فيما شجر[1] بعده من خلاف توازن تبعته فى هذا الخروج بولاية الأمر من ورع الخلافة الى أبهة الهرقلية والكسروية

فما كان من المعقول ، ولا من طبائع الأمور ، أن تبذر فى الأرض كل تلك البذور من جراثيم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل التفرقة سندا لصاحب الأمر مئات السنين كما كانت لمعاوية سنوات معدودات

تبعات يحسب حسابها العسير ان كان للتاريخ جدوى يحرص عليها ، وكان لشرف الذكر وزن يقام

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزاد ، وانما جدواه أن يصان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الانسانية من تشريف أبنائها فى الحياة وبعد الممات ، فلا يباح عرض الانسانية لكل من يملك طعاما يملأ به البطون أو مالا يملأ به الجيوب ، ولايختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتثوب العقول والضمائر الى التسليم ، ويتساوى الجوهر والطلاء فى ميزان الخلود والبقاء . ومعاوية فى هذا الميزان ، لايخرج منه مغبونا ولا غابنا للحقيقة من بعده ، وانما تحسب له قدرته بتقدير ، ويعطى من أثر قدرته ، ومن أثر نيته ، ما هو به حقيق

وقد عمل بتلك القدرة ما أفاده وأفاد قومه وأفاد الأمم التى تولاها فيما تستفيده من قرار الدولة و « ضبط » الأمور . وذلك حق القدرة الذى لاحاجة معه الى اللجاجة فى أمر النية ، فلو أن أحدا أراد أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفسه ولبنيه لما بقى فى ذلك السجل عمل واحد تطول فيه اللجاجة حول النيات .. ونعود فنقول انها قدرة لا ترسل على اطلاقها بغير تقدير، وان تقديرها الحق انها غاية القدرة الى الشوط القصير

لقد كان قويا لا مشاحة[2] فى وصفه بالقوة على مثالها ، ومثالها انك تصوغها فى خيالك على صورة من الصور ، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور

---

(١) شجر : شجر بينهم الامر : تنازعوا فيه · (٢) مشاحة : منازعة ومناقشة ·



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

تقـــديم	
تقـــدير وتصدير	٥
بين القدرة والعظمـــة	١٥
تمهيدات الحوادث	١٨
الدهـــاء	٢٨
الحـــلم	٥٢
خليقة اموية	٧٩
موقف معاوية من قضية عثمان	٩٢
النشأة والتكوين	١٠٢
الاعمـــال	١١٧
في المـــيزان	١٣١



عبقرية محمد	٤٠٠	حياة المسيح	٤٠٠
عبقرية عمر	٥٠٠	حياة قلم	٥٠٠
عبقرية خالد	٤٠٠	حياة ابن الرومي	٤٠٠
عبقرية علي	٤٠٠	الحسين أبو الشهداء	٤٠٠
عبقرية الصديق	٤٠٠	الحرب العالمية الثانية	٥٠٠
عثمان بن عفان	٤٠٠	خلاصة اليومية والشذور	٤٠٠
عمرو بن العاص	٤٠٠	خواطر في الفن والقصة	٤٠٠
سعد بن ابي وقاص	٤٠٠	داعي السماء / بلال	٤٠٠
جحـا	٥٠٠	رجعة أبي العلاء	٤٠٠
معاوية بن ابي سفيان	٤٠٠	الرحالة عبد الرحمن الكواكبي	٥٠٠
الفلسفة القرآنية	٤٠٠	ســاره	٤٠٠
مطلع النور	٤٠٠	ساعات بين الكتب	١٠٠٠
التفكير فريضة اسلامية	٤٠٠	شاعر أندلسي وجائزة عالمية	٥٠٠
الانسان في القرآن	٤٠٠	الشيوعية والانسانية	٦٠٠
ابن الرومي	٦٠٠	عقائد المفكرين	٤٠٠
ابليس	٤٠٠	الفصول	٦٠٠
ابراهيم أبو الانبياء	٥٠٠	المرأة ذلك اللغز	٤٠٠
أبو النواس	٤٠٠	المرأة في القرآن	٤٠٠
أنـا	٥٠٠	هتلر في الميزان	٤٠٠
فاطمة الزهراء والفاطميون	٤٠٠	مراجعات في الادب والفنون	٥٠٠
ما يقال عن الاسلام	٦٠٠	يسألونك	٦٠٠
الاسلام في القرن العشرين	٤٠٠	القرن العشرين ما كان وما سيكون	٥٠٠
الامام محمد عبده	٤٠٠	مجموعة أعلام الشعر	١٥٠٠
بين الكتب والناس	١٠٠٠	مطالعات في الكتب والحياة	٦٠٠
التعريف بشكسبير	٤٠٠	هذه الشجرة	٤٠٠
حقائق الاسلام	٦٠٠	لا شيوعية ولا استعمار	٤٠٠

جميع المراسلات باسم المكتبة العصرية للطباعة والنشر
بيروت ـ ص.ب ٨٣٥٥ : تلفون ٢٣٧٥٤٥



عمرو بن العاص

تأليف
عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



فهرس

صفحة

نشأة عمرو بن العاص ٩
التعريف بعمرو بن العاص ٢٢
من التجارة الى الامارة ٤٢
فتح مصر ٦٦
البلاد والسكان ٨٢
المقوقس ٩٦
الحالة الدينية ١٣٥
الحالة الادارية والسياسية ١٥٠
بين الأمارتين ١٦١
من كلامه ١٨٥
خاتمة مفسرة ١٩٣



تقــديم

العقاد أديب ومفكر ، واسع الأفق ، جم المعرفة والاطلاع ، غزير الانتاج ، لم يدع فنا من فنون الأدب الا ضرب فيه بسهم وافر ، بحيث يمكن القول ان مجموعة كتبه ومؤلفاته التي وضعها منذ شبابه حتى شيخوخته تؤلف مكتبة جامعة فيها من أفانـين الفكر والبحث والدراسة ما يزود القارىء بزاد ثمين من فرائد الأدب والعلم والفلسفة قل أن يزود بها القارئين ومحبي الاطلاع كاتب في أي عصر من العصور ·

هذا مع الاشارة الى أن ليس له في فن القصة الا قصة « سارة »، ولكنه حلق في سماء الشعر تحليقا حمل بعض الأدباء ومتذوقي الشعر ونقاده على أن ينزلوه أسمى منزلة بين الشعراء المبدعين وان أخذ عليه بعضهم أن شعره يدعو قارئه الى اعمال العقـل والفكر أكثر مما يثير فيه العاطفة أو يحرك فيه الوجدان ·

وليس في هذا ما يحط من قدره كشاعر مجيد ، فقد نسـب القدماء أبا تمام والمتنبي ، وهما من فحول شعراء العرب ، الى الحكمة ، وكادوا يبعدونهمـا عن مضمـار الشعر ، وميـدان العواطف واثارتها ·

ولعل أعظم ما يسترعي النظر ويدعو الى الاعجاب من كتبـه ومؤلفاته تلك التي تناول فيها بعض الأعلام من العرب وغيرهم ، كسيرة ابن الرومي ، وأبي نواس ، وبشار ، وجيتي الألماني ، وغاندي الهندي وغيرهم ·

وقد بلغ الذروة في سلسلة « عبقرياته » وسير عظماء الاسلام التي شرح فيها سر عظمتهم ، وعناصر شخصيـاتهم ، ومآثرهم الخالدة التي كان لها أعظم الأثر في بيئتهم وجيلهم وفي ما تلاه من الأجيال · كل ذلك بأسلوب فيه من الأسلوب العلمي رصانتـه

ودقته ، ومن الأسلوب الأدبي جماله وايجازه غير المخل ، وحرارة اندفاعه في التوضيح والتبيين ما يأسر اللب ، ويستهوي القلوب ، وتستريح له النفوس المتعطشة لمعرفة الحقائق الخالصة من كل شائبة ٠

ولم يتوان عن سرد الحسنات الماثلة في أعمالهم وأقوالهم ، والناجمة عن احتكاكهم بالناس عامتهم وخاصتهم ، كما لم يتهيب من ذكر ما وقعوا فيه من سيئات وأخطأ ، ان كانت هناك سيئات وأخطاء ، مبينا بالبرهان القاطع أنها نتيجة طبيعية لما جبلوا عليه في أصل خلقتهم ومزاجهم ونشأتهم وبيئتهم والسلالة التي انحدروا منها ٠

وعند انعام النظر في ما ألفه من سير العظماء نلاحظ أنه انما يرمي الى تصوير بطولة العظيم ، وابراز مزاياه وخصائصه التي تفرد بها لا الى سرد تاريخ حياته وما مر به من أحداث بل الى تدوين مواقفه ازاء تلك الأحداث وانعكاساتها على صفحات نفسه ووجدانه ٠ فهو ملتزم بخطة التحليل والتعليل ، فيبحث جادا في كشف أغوار العناصر الأساسية لنفسية العظيم ، ثم يعرض لأحداث حياته ، فيستمد من تلك العناصر جميع الأسباب والبواعث التي حددت موقفه وسلوكه في مختلف الأحوال ٠

ومما يسترعي النظر في سيرة لجوؤه الى المقارنة والموازنة بين عظيمين في مواقف وأحداث بعينها ، فيستخدم طريقته التي نوهنا بها في التحليل والتعليل ، ويرد في تؤدة واحكام ، وتدقيق منقطع النظير ، وحجة لا يسع العقل الا التسليم بها ، موقف كل عظيم الى ما قرره في تحليله وتعليله من مزايا ذلك العظيم ومزاجه وطوايا نفسه ٠ من ذلك ما ذكره عن موقف كل من أبي بكر وعمر من الايمان برسالة النبي الكريم ٠ فقد كان أبو بكر معجبا بمحمد النبي ، وعمر كان معجبا بالنبي محمد ، أي أن حب أبي

بكر لشخص محمد هو الذي هداه الى الايمان بنبوته ، وتصديق دعوته ، وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له والحرص على سنته وعلى رضاه • ولهذا كان أبو بكر صاحبا آمن بصاحبه الذي يطمئن اليه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدوا رده الاقتناع الى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه •

وقد قارن ووازن كذلك بين عظيمين اشتهرا بالدهاء وهما معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ، فقال في سيرة عمرو بن العاص : « ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية كما قال مرة وهما يتساءلان عن العقل •• قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت في شيء قط الا خرجت منه • فقال معاوية : لكنني ما دخلت في شيء قط وأردت الخروج منه •

كل منهما بدهائه أشبه : عمرو في اقتحام الطموح المغامر ، ومعاوية في تؤدة المستقر الواثق ، وعمرو في دفعة العبقرية ، ومعاوية في روية التدبير الطويل » •

وهكذا يلاحظ القارىء مثل هذه المقارنات والموازنات في سائر « عبقرياته » وسير العظماء الذين تناولهم بالبحث والدراسة •

ولا يسعنا الا أن نتقدم بخالص الشكر الى السيد شريف عبد الرحمن الأنصاري صاحب المكتبة العصرية في صيدا وبيروت لاقدامه على اعادة الطبع لآثار العقاد العظيم التي يجدر بالمثقف العربي الاطلاع عليها ، ودراستها ، لما تنطوي عليه من جلائل الفكر ، وجولات واسعة في عالم الأدب والعلم والفلسفة ، واشادة بالعظماء الذين هم منارة رشد ، ومشعال هداية للأجيال •

م•ل

نشأة عمرو بن العاص

نشأ عمرو بن العاص فى بطن[1] من البطون القرشية المشهورة ، وهم بنو سَهْم .

والبطون القرشيـة كثيرة ، تتفـاوت فى الضعف والقوة ، والقلة والـكثرة . ولـكن البطـون التى انتهى اليهـا الشرف ــ كما قال النسابة الـكلبى ــ عشرة ، اتصل شرفها فى الجاهلية والاسلام ، وهم : هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبـد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ، وجُمَح ، وسهم .

والظاهر من بعض أنباء « سَهْم » أنهم كانوا على كثرة فى العدد ، وان لم يحسبوا من ذوى الصـدارة فى قريش ، الى جانب بنى هاشم أو بنى أمية أو بنى عبد الدار .

فلما انقسمت قريش الى حزبين ، فى أحدهما بنو عبد مناف ، وفى الآخر بنو عبد الدار عبئ[2] بنو سهم لبنى عبد مناف ، وهم أكبر هؤلاء الأحلاف ، كأنهم ند[3] لهم كثرة وقوة فى الصلح والخلاف .

وتفاخر بنو سهـم وبنو عبـد مناف مرة ، فقال كل حى منهما : « نحن أكثر سـيدا ، وأعظم رجـالا ، وأكثر قائدا » ... فكثر بنو عبد مناف بنى سهم بعدد الأحيـاء ، ثم تكاثروا بالأموات ، فجعلوا يشيرون الى القبر فيقولون : أفيكم مثل هذا ؟ أفيكم مثل هذا ؟ ويذكر كل منهم انه أكثر مالا وأعز نفرا ، كما جـاء فى القرآن الـكريم ، ونزلت فى ذلك الآية : « ألهـاكم التـكاثر حتى زرتم المقـابر » على احدى الروايات .

فعمرو بن العـاص ينتمى ــ على هـذا ــ الى بطن يعد من أك

(١) بطن : البطن من الناس ما دون القبيلة . (٢) عبىء : عبأ الجيش جهزه وهيأه . (٣) الند : بكسر النون : المثل والنظير .

بطون قريش ، ويطمح الى مساواة بنى عبد مناف بوفرة الرجال والأموال وكثرة السادة والقادة ، ويوصل شرفه فى الجاهلية بشرفه فى الاسلام .

أما حصتهم من شرف الجاهلية فقد كانت اليهم الحكومة[١] ، والأموال المحتجرة[٢] التى سموها لآلهتهم ، وهى أموال حبسوها على الأرباب والمعابد وخيراتها ، كأنها الأوقاف فى العصور الاسلامية ، وكأن الرؤساء من بنى سهم طائفة من نظار الأوقاف يعرفون بحسناتهم أو سيئاتهم التى اتصف بها نظار الأوقاف فى جميع الأزمان .

ولا نعلم على التحقيق ما هى تلك الحكومة التي وُكلت الى بنى سهم فى الجاهلية ، كما وكلت الشورى والرفادة[٣] والسقاية وغيرها من مهام الحجاز الى البطون القرشية الأخرى .

ولكننا نستطيع ان نقيسها الى بعض ما ندب له ابن العاص فى الاسلام ، على حكم العادة الموروثة التى قلما تتغير فى مأثورات القبائل المحفوظة ، ويؤخذ من هذه المهام ان المرجع فى حكومة بنى سهم الى اللباقة فى تناول الأمور ، والتلطف فى حسم الشقاق ، والتغلب على حرج النفوس فى الشئون الدقيقة التى تتصل بالمصاهرة ومعاذير الراغبين فيها أو الراغبين عنها من الرجال والنساء ، كما تتصل بالاقناع فيما يمس المروءة والعقيدة ، أو يَرِد الإقناع فيه على النفس من طريق التهوين والتسويغ على سنن الدهاة من الساسة بين سائر الأمم وفى سائر العصور .

وجماع ذلك كله أن الحَكَم على هذه الطريقة هو الرجل « الأريب » الذى يعرف « من أين تؤكل الكتف » ويترفق بعلاج النفوس وتناول الأمور .

خطب سلمان الفارسى الى عمر بن الخطاب ، فأجمع على تزويجه ، فشق ذلك على عبد الله بن عمر ، وشكاه الى عمرو بن العاص ... فها هنا مسألة دقيقة بين أب وابنه فى تزويج رجل لا تحسن الاساءة

---

(١) الحكومة : رد الناس عن الظلم . (٢) المحتجرة : الممنوعة عن الغير .
(٣) الرفادة : المعونة والعطاء .

إليه بعد وعده ، ولا بد للحكم فيها من رفق وإربة[(١)] ، حتى يرضى الأب والابن والخطيب وما منهم من يسخط على زميليه . قال عمرو لعبد الله بن عمر : عليّ أن أرده عنك راضيا . وأتى سلمان فضرب بين كتفيه بيده ، ثم قال : هنيئا لك أبا عبد الله ! هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك .. ! فالتفت سلمان مغضبا وقال : أبى يتواضع ؟ والله لا تزوجتها أبدا .

وخطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبى بكر الى أختها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، فقالت له : الأمر اليك ! ثم سألت أختها فأبته وهى تقول : لا حاجة بى اليه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، انه خشن العيش ، شديد على النساء .. !

وهنا مسألة دقيقة من قبيل ما تقدم : أمير المؤمنين ترفضه أم المؤمنين ، ولا ينبغى أن يواجه بالرفض ، وان كان لا سبيل الى اكراه أم كلثوم على قبوله .

فلجأت السيدة عائشة الى عمرو بن العاص ليحتال فى الأمر برفقه ودهائه ، فجاء عمر وفاجأه قائلا : بلغنى خبر أعيذك بالله منه ، قال : ما هو ؟ قال : خطبتَ أم كلثوم بنت أبى بكر ؟ قال : نعم ، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى ! قال : لا واحدة . ولكنها حدثة[(٢)] نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها ان خالفتك فى شىء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك !

ولا شك ان عمر قد فطن الى ما وراء هذه الوساطة ، وفهم أن ابن العاص لا يقدم عليها من عند نفسه ، فسأله كأنه يستطلع ما وراءه : كيف بعائشة وقد كلمتها ؟

قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت على

---

(١) الاربة : التعقل والتبصر • (٢) حدثة : صغير السن •

ابن أبى طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله .

فهى إذن حكومة الإرضاء والتناول الرفيق لكل شائك محرج من العلاقات التى يصعب الحكم فيها بغير هوادة وحنكة .. !

وشبيه بهذا — وان لم يكن من شئون المصاهرة — ايفاد عمرو الى نجاشى الحبشة لإقناعه بتسليم من قِبَله من المسلمين إلى مشركى قريش ، وهو أمر فيه من المساس بأصول الضيافة ما تصعب المفاتحة فيه فضلا عن الإقناع به ، إلا أن تكون لباقة ورفقُ مدخلٍ وقدرة على التخلص السريع ..

وشبيه بهذا أيضا ايفاد عمرو الى أخوال أبيه فى عهد الاسلام لاقناعهم بالخروج من دينهم والدخول فى الدين الجديد .

ويتفق مع هذا وذلك أن تكون الوساطة على النحو المعهود بين طلاب الوساطات فى جميع قضايا الخلاف ، فيتخاصم الرجلان على ضيعة أو حق مغصوب ، ويرجعان إلى حكومة الحَكَم المختار لعلمهما بقدرته على فض الخصومات واستلال الأضغان .

ومن ذلك حكومة عمرو بين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حين اختلفا على واد يدعيان ملكه بالمدينة . فقال عمرو لهما :

« أنتما فى فضلكما وقديم سوابقكما ونعمة الله عليكما تختلفان ! لقد سمعتما من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما سمعت ، وحضرتما من قوله مثل ما حضرت — فيمن اقتطع شبرا من أرض أخيه بغير حق انه يطوقه من سبع أرضين ! والحَكَم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحكم اذا جار رزئ دينه ، والمحكوم عليه اذا جير عليه رزئ عرض الدنيا . ان شئتما فأدليا بحجتكما ، وان شئتما فأصلحا ذات بينكما » .

فاصطلحا وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضا .

فهذه حكومة معهودة فى قضية من القضايا الشائعة التى لا تمس المحرجات النفسية ولا تشوك اليدين فى تناول الدعوى بين الطرفين ،

وما هما بعد بخصمين . ولـكننا تتأمل هـذه الحكومة أيضـا فنلمح فيهـا حب الاستعانة باللبـاقة والـكيّس[١] قبـل الاستعانة بالعدل والانصـاف ، كأنما كان الخصمان يريدان الوفاق بغير غضـاضـة[٢] على أحد منهما ، فاختارا الحكم الذى يمنع هـذه الغضاضـة وييسر لهما سبيل الوفاق .

وقد جاء فى الأثر أن النبى ـ عليه السلام ـ أمر عمرا بالفصـل بين رجلين اختصما إليه ، فكأنه عرّف بهذه المقدرة وبقيت له شهرتها فى حضرة النبى عليه السلام .

* * *

وليست حكومة القهر والاكراه على أية حال بالحكومة التى كان العرب يرتضـونها ويسـعون اليهـا . فهم اذا لجأوا الى الحكم لم يلجأوا اليه لأنهم ينتظرون منه أن يقهرهم على سـماع حكمه ، ويلزمهم أن يتبعوه فى قوله وفعله ، بل لعلهم يتعمدون أن يختاروا لحكومتهم رجلا لا يُخشى ولا يُهاب ، ولا يقع العار على من يخضع له بالخوف والاذعان . فاذا أطاعوه قيـل انهم يطيعون كلمتهم وينزلون باختيارهم على الحكم الذى ارتضـوه ، ولم يقل قائل انهم مطيعون عن ذلة ، ومستمعون لأمره مسوقون الى استماعه .

فالحكم الذى يختـارونه ـ على هـذا ـ انما يكون على خصـلة من خصلتين : رجل يأنسون الى عدله وانصـافه ، أو رجل يأنسـون الى لبـاقته وحيلتـه وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع[٣] الارضاء . والثانى ببنى سهم أشبه وأمثل ، لأنهم لم يشتهروا بالعدل والإنصاف ، بل كان من زعمائهم من يمـطل أصحاب الحقوق ، ويلْوى الضعيف بديونه ويلج فى ذلك لجاجة حملت السـادة من قريش على التحالف فيما بينهم ليردّنّ المظالم ويأخذن للضعيف حقه حيث كان ، وسمّوه حلف الفضـول المشهور ، وهو الحلف الذى قال عنـه النبى عليـه السلام : « لقد شهدتُ فى دار عبد الله بن جد عان حـلف الفضول :

(١) الكيس : الفطنة وتوقد الذهن • (٢) الغضاضة : المذلة والانكسار •
(٣) الذرائع : جمع ذريعة وهي السبب والوسيلة •

ما أحب أنَّ لي به حُمْر النَّعَم[١]، ولو دُعي إليه في الإسلام لأجبت » !

وسبب هـذا الحلف غير بعيـد عن عمرو بن العاص نفسه ، لأن الذي مطل الدين أبوه العاص بن وائل من أغنى السهميين وأشـهرهم بالعزة والعصـبية . وكان رجل من بني زبيـد في اليمن قد وفد الى مكة معتمـراً[٢]، ومعه بضـاعة طيبـة ، فاشتراها العـاص ، ولواه بحقه ، ولم يجبه الى رجائه حين سـأله ماله أو متاعه . فقام الرجل في الحِجْر ينشد :

يا آل فِهْرٍ لمظلومٍ بضـاعتَه
بِبطن مكةَ نائي الدارِ والنَّفَر
وأشعثٍ مُحْرِمٍ لم يقض عُمرتَه
بين المقام وبين الحِجْر والحَجَر
أقائمٌ في بني ســـهمٍ بذمتهم
أو ذاهب في ضلالٍ مالُ مُعتمِر

فخف لنجدته أقطاب قريش ، وكان ذلك من أسباب حلف الفضول .

* * *

تلك جملة المعروف من شأن بني سهم الذين نبت فيهم عمرو بن العاص من بطون قريش .

أما أسرته القريبـة فأبوه هو العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد ابن سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لُؤَيّ بن غالب ، يرتفع بنسبه الى الذؤابة القرشية .

ويقال في متواتر الروايات انه كان من ذوي اليســار ، وكان يتجر بين الشام واليمن ، ويحتشد لرحلة الصيف ورحلة الشتاء .

وقد كان عمرو بأبيـه جد فخور ، حتى لقد كان يفخر به على الخلفاء كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .

فلمـا أرسـل اليه عمر بن الخطاب من يحاسبه ويشـاطره ماله ، غضب وقال للرسـول : « قبـح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن

(١) ما أحب أن لي به حمر النعم : أي لا أرضى به بديلا ولو أعطيت أجود الانعام . (٢) معتمرا : أي زائرا مكة للحج الاصغر في غير موسم الحج .

الخطاب فيه عامل . والله انى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ! وما منهما الا فى نَمِرة[(١)] لا تبلغ رسغيه ! والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب » .. ثم خشى العاقبة ، فاستحلف الرسول ليكتمنّ عليه ما قال بأمانة الله .

ولما عزله عثمان من ولاية مصر ، دعاه فأنبه .. وقال له : استعملتك على ظَلَعك[(٢)] وكثرة القالة فيك . فقال عمرو : قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض . واحتدم الجدل بينهما ، فهمّ عمرو بالخروج مغضبا وهو يقول : قد رأيت العاص ابن وائل ورأيت أباك ... فوالله لَلعاص كان أشرف من عفان . فما زاد عثمان على أن قال : مالنا ولذكر الجاهلية !

وقد أدرك العاص الدعوة المحمدية ، ومات بعد الهجرة بقليل وهو فى الخامسة والثمانين ، ولكنه — فى أشهر الروايات — لم يُسْلم ، ولم يزل يناصب النبى وأصحابه العداء ، ويكيد لهم فى الجهر والخفاء . وهو الذى قال عن النبى عليه السلام حين مات ابناه القاسم وعبد الله : ان صاحبكم هذا لأبتر . فنزلت فيه الآية : « إنّ شانِئَك هو الأبْتَر » .. وكأنما كان التكاثر بالذرية والاعتزاز بالعصبية شنشنة غالبة على هؤلاء السهميين !

❋ ❋ ❋

وعلى قدر ذلك الفخر بأبيه كان خجله من نسبه الى أمه واجتراء الناس عليه بسببها كلما تعمدوا الغضّ منه والاساءة اليه

فكان حساده والنافسون عليه يلاحقونه بذكرها وهو على دست الامارة ومنبر الخطبة ، وخاطر بعضهم رجلا أن يقوم اليه وهو على المنبر فيسأله : من أمّ الأمير ؟ .. فأمسك من غضبه وقال : النابغة بنت عبد الله . أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ،

---

(١) النمرة : بردة مخططة من صوف تلبسها الاعراب • (٢) ظلعك : الظلع : العرج • واستعملتك على ظلعك أي على ما فيك من العيب •

فان كانوا جعلوا لك شيئا فخذه .. !

ويؤخذ من بعض هذه المعايرات أنها كانت تؤجر للغناء بمكة فان عمرا شتم أروى بنت الحارث بن عبد المطلب بمجلس معاوية ، فانتهرته قائلة : « وأنت يا ابن النابغة تتكلم ، وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة وآخذهن لأجرة ؟ .. اربع على ظلعك[1] ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم انه أبوك ، فسئلت أمك عنهم فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبههم به فألحقوه به » .. !

ومن كلامه عنها فى بعض ما نقل عنه : « أنها سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بنى عَنَزَة ، ثم أحد بنى جِلاّن ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة . ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم صارت الى العاص بن وائل »

ويروى أنها كانت على صلة بالعاص وأبى لهب وأمية بن خلف وأبى سفيان . فولدت عمرا فألحقته بالعاص . وسئلت فى ذلك فقالت : انه كان ينفق على بناتى .

وأيا كان شأن المبالغة فى لغة الثلب[2] والتعبير ، فالمتفق عليه أنها كانت سبية مغلوبة على أمرها ، فلم تقارف البغاء سقوطا منها وابتذالا لعرضها ، ومثل هذه لا تحسب عليها زلاتها كما تحسب على المرأة التى تزل ولها مندوحة عن الزلل ، وتهوى وهى فى موضع الصون والكرامة . وانجاب هذه ومثيلاتها للنوابغ من البنين ليس مما يخالف المألوف من سنن النسب والوراثة .

* * *

ولا يظهر من أخبار عمرو أنه تلقى مالا كثيرا من أبيه . فقد كان يحترف الجزارة[3] ويعمل بمال غير وافر فى تجارة الأدم والعطر بين اليمن والشام ومصر ، على ما جاء فى احدى الروايات .

---

(١) اربع على ظلعك : أي توقف وانتظر ٠ (٢) الثلب : ثلبه : عابه وتنقصه ٠ (٣) الجزارة : حرفة الجزار ٠

إلا أن القصة التى روت لنا خبر سَفرته الى مصر تروى لنا كذلك انه خرج فى تلك السفرة الى بيت المقدس ، وقصارى ما يرجوه أن يصيب ما يشترى به بعيرا فتكون له ثلاثة أبعرة .

وقد حاسبه عمر رضى الله عنه فقال له فى كتابه اليه : « ... فشت لك فاشية[١] من خيل وابل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدى بك قبل ذلك ألا مال لك » ! فلم ينكر عمرو أنه لم يكن له مال ، بل قال : « ... أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لى ، وانه يعرفنى قبل ذلك لا مال لى وانى أعلِم أمير المؤمنين انى بأرض السعر فيه رخيص وانى أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفى رزق أمير المؤمنين سعَة » .

فاذا صدقت الرواية عن ثروة العاص بن وائل ، فمن العجيب ألا يبقى لعمرو من هذه الثروة نصيب موفور ، وهو أكبر ولديه ، وليس لأبيه ذرية كثيرة من الذكور فيقال ان الثروة الكبيرة تبددت بالتوزيع والتقسيم ، وقد أسلم عمرو بعد موت أبيه ، فلا يقال انه حرمه الميراث لاسلامه غضبا عليه .

نعم ان هشاما ــ أخاه الاصغر ــ كان أحب الى أبيه ، وكانت أمه بنت هشام بن المغيرة من كرائم قريش وليست سبية مشتراة كأم عمرو ، وكانت الى هذا محببة الى زوجها ، وباسم أبيها سمى ولده على غير الشائع المألوف فى تسمية الأبناء بين القبائل العربية . ولكننا لم نعرف من أخبار العاص ولا من أخبار ولديه أن هشاما استأثر بالميراث دون أخيه . والأشبه إذا كان أحدهما قد حُرم ميراثه أن يكون هو هشاما لأنه أسلم فى حياة أبيه .

ولا تفهم قلة المال عند عمرو ــ مع ما اشتهر به أبوه من الثراء ــ الا على فروض كثيرة يصح الأخذ بها جميعا ، لأن الاكتفاء بواحد منها غير معقول . وهى ان ثروة العاص كانت أقل من شهرتها ، وانه كان ينفق ولا يمسك ، وانه أصيب فى تجارته قبل موته ، ولا سيما

---

(١) الفاشية : ما انتشر من المال كالغنم والابل . وفشت لك فاشية أي شاع أنك تملك المال الكثير .

بعد قيـام المسلمين على طريق الشـام ، وان عمرا كان كأبيـه من المنفقين ، ولم يكن من المقترين[١] ، وقد يؤخذ هـذا من ظهور شـكواه بعد عزله من ولاية مصر بأقل من عام ، فقـال له عثمان وقد سـبه لما بلغه من تحريضـه عليه : « ما أكثر ما قمـل جربّان جبتك ـ أى طوق جبتك ـ وانما عهدك بالعمل عاما أول » !

فلا يبعد انه أصـاب شيئا من الميراث فأنفق منه ما أنفق بعد يأسه من تجارة الحبشة والشام ، ولم يبق له عند ولايته على مصر الا اليسير.

❋ ❋ ❋

والاهتمام بنسب المترجَم لهم واجب لازم فى كل سيرة من السيّر ، وهو فى سـيرة عمرو أوجب وألزم لأن أثر الوراثة فيه أقوى من المعهود الشائع فى العظماء عامة .

وليس الأثر الذى استفاده من تلقين البيئة وفعل الرياضة النفسية بأقل من أثر الوراثة التى لا اختيار له فيها .

فمن أثر الوراثة مشـابهة عمرو لأبيـه فى الخلقة والخليقة ، ولولا قوة الشبه فى الخلقة لما عرفت نسبته الى أبيه وهو وليد .

ومن المشـابهة فى الخليقة حبـه للمال والسيـادة ، واعتـداده بالعصبية ونخوة القبيلة .

الا ان المغمز الذى كان يؤلمه من نسـبه الى أمه قد كان له من قوة الأثر فى تكوين فكره وتوجيه نفسه ما يعدل أثر الوراثة ، أو يزيد .

فاحتياجه إلى مداراة هـذا المغمز[٢] ، والغلبـة على من يفـاخرونه بكرم الأمومة ـ هو الذى أغراه فبالغ فى اغرائه بالمال والرئاسة .

وشعوره بهذا المغمز هو الذى أعز أباه عنده ، وعلقه بفخره ، وألهجه باسمه وسمعة ثرائه .

وكان لاعتداده بأبيـه دخل فى تعويق اسـلامه وتأخير شـهادته للدين الجديد الى ما بعد موته ، وقد كان يعلم ذلك من نفسه ويجهر به اذا فوتح فيه . فسأله رجل : « ما أبطـأ بك عن الاسـلام وأنت

(١) المقترين : التقتير : قبض اليد ونقيض الاسراف . (٢) المغمز : ما يغمز به الانسان أي يعاب .

أنت فى عقلك » ! فقال : « إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا ممن يوازى حلومهم[١] الجبال ، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم ، فأنكروا عليه ، فلذنا بهم ، فلمـا ذهبوا وصـار الأمر الينـا نظرنا وتدبرنا ، فاذا حق بَيِّن ، فوقع فى قلبى الإسلام » !

بل أصبح اعتداده بأبيـه اعتـدادا للعصبيـة بالقبـائل الأولى ؛ كَمَنَ فيه من أيام جاهليتـه الى ما بعد اسـلامه ، وعالجه أحيـانا فلم يستطع أن يجتثه[٢] من أصوله .

وقع بينه وبين المغيرة بن شعبـة كلام ، فسـبه المغيرة ، فقـال : يا آل هُصَيْص ! أيسبنى ابن شعبة ؟ وكان ابنه عبد الله حاضرا ، وهو من أتقى المسلمين ، وقد أسلم قبـل أبيـه ، فقال : انا لله ! دعوت بدعوى القبائل وقد نُهى عنها ! فأعتق عمرو ثلاثين رقبة .

وسمع معاوية مرة يأذن للأنصار ، فأحب أن يأذن للنـاس بأسماء قبائلهم ويردهم الى أنسابهم .

وكان من إعزازه لأبيـه وحضور العصـبية فى ذهنـه أنه فكر فى الانتقام من عمارة بن الوليد المخزومى لاجترائه على تقبيل زوجتـه أمامه فلم يقدم على الانتقـام منه ــ وهما فى طريق الحبشة ــ حتى بعث إلى أبيـه أن يخلعه لكيلا تحيق به أو بأحـد من أهـله ترات العصبية التى تدين بها القبائل فيما بينها .

وعصبيتـه هـذه هى التى أنسته ان الاسـلام ينهى عن كراهة الذرية من البنات ، فأنف انفة الجاهلية حين رأى معاوية يقبل ابنتـه عائشة . قال : من هـذه ؟ قال معاوية : هـذه تفاحة القلب ! فقال له : « إنبذها عنك . فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويُقرِّبن البُعداء ، ويورثن الضغائن » .. !

ولا شك ان الألم من ذلك المغمز فى نسبته الى أمه كان من أشـد الحوافز النفسية تغلغلا فى سريرته ، وأصلحها لتفسير ميوله وبدواته ومنها الحسن والمفيد .

---

(١) الحلوم : العقول ٠ (٢) يجتثه : يقتلعه ويستأصله ٠

فقد كان خوفه من التعيير به يعقل لسانه عن فحش القول ، ويلزمه سمت[1] الجد والتوقر فى مخاطبة الناس .

ولم يبالغ حين اعتذر لمسلمة بن مخلد ، وقد ناله بلسانه فى ساعة حدة ، فقال له يسترضيه : « ما أفحشت قط الا ثلاث مرات ، مرتين فى الجاهلية وهــذه الثالثة ، وما منهن مرة الا ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشــد مما استحييت مما قلت ، ووالله انى لأرجو ألا أعود إلى الرابعة » ...

كذلك كان يتحرج من إســقاط هيبته ونسيانه سمته ، حتى قال عمر بن الخطاب وقد نظر اليه وهو يمشى : « ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض الا أميرا ! » .

فهى بلوى فى طيها نعمة كما قال أبو تمام :

قد ينعم الله بالبــلوى وان عظــمت
ويبتــلى الله بعضَ القــومِ بالنِّعم

* * *

ولم يجزم المؤرخون بتاريخ مولد عمرو ولا قاربوا الجزم فيه ، فهو عند بعضهم عاش سبعين سنة ، وعند بعضهم بلغ المائة .

واذا صح انه كان يذكر الليــلة التى ولد فيهــا عمر بن الخطاب ، وانه كان له يومئذ من العمر سبع سنين فالأرجح انه ولد قبل الهجرة بنحو أربع وأربعين سنة ، حوالى سنة ٥٨٠ للميلاد .

على ان المؤرخين مختلفون فى ســن عمر بن الخطاب يوم وفاته ، فبعضهم يؤكد انه قتل وله من العمر خمس وخمسون سنة ، وبعضهم يؤكد انه كان يومئــذ فى الثالثة والستين . ونحن نميل الى الاقتراب من التاريخ الثانى ، لأن عمر رضى الله عنه كان يشكو الكِبَر فى سنة وفاته ، ويسأل الله أن يقبضه اليه لأنه شاخ وانتشرت رعيته ، والمرء فى بنية عمر وقوته لا يشكو الهرم فى الرابعة والخمسين أو الخامسة والخمسين ، فذلك بما بعد الستين أوفق وأقرب الى القبول .

---

(١) السمت : هيئة أهل الخير ، والهيئة مطلقا .

وعلى هـذا تكون السنة التى رجحنا ولادة عمرو فيها هى أقرب التواريخ الى المعقول ، ويكون عمرو قد جاوز الثمانين بسنوات ولم يرتفع الى المائة ، لأنه عاش بعد عمر عشرين سنة ، وولد قبله بسبع سنين . فاذا كانت سن عمر عند وفاته حوالى الستين ، فقد عاش عمرو ابن العاص الى قريب من السابعة والثمانين .

واذا شككنا فى سن عمرو يوم مولد عمر ، وحسبناها دون السابعة ، فهو اذن قد جاوز الثمانين بقليل .

ويدعونا الى الشك فى هذه السن ان اعتذار عمرو من تأخر اسلامه باتباع كبار قومه لا يقبل من رجل فى نحو الخمسين ، وهى سنه عند اسلامه ، وان كان مع ذلك ليستغرب حتى ممن بلغ الأربعين .

وليس فى نشأة عمرو من تاريخ يستوقف المترجم له بعد سنة ميلاده غير سنة زواجه ، ويظهر انه كان من المبكرين بالزواج ، لأن ابن قتيبة يقول : « ان الفارق فى المولد بينه وبين ابنه عبد الله اثنتا عشرة سنة » وهو فارق غير معقول ، ولكنه يدل على صغر سنه حين بنى بأم عبد الله ، وهى فتاة من قبيلته اسمها ريطة بنت منبه بن الحجاج .

التعريف بعمرو بن العاص

التعريف بنشـأة عمرو بن العـاص ، تمهيد لازم للتعريف بصفاته وطبـاعه ، والتعريف بهذه الصـفات والطبـاع تمهيد لازم للتعريف بأعماله ومسـاعيه ، لأن الأعمال والمسـاعى لن تفهم على حقيقتها الا بفهم الطبـاع التى توحيها ، والنيات التى تسبقها ، والغايات التى ترمى اليها . وقد تتشابه الأعمال والمسـاعى فى ظاهر الأمر وهى فى الحقيقة مختلفة أشد اختلاف ، مفترقة كما يفترق الخير والشر أو تفترق الرفعة والضعة ، وانما مناط[1] ذلك كله بالفرق بين باعث وباعث ، والاختـلاف بين نية ونية .

وأدنى الى القصد فى هـذه السبيل ان نلم بالصفات والطبـاع ، ثم نتتبع الأعمال الصادرة عنها مفهومة واضحة البواعث والأغراض ، من أن نلم بالأعمـال مبهمة متشـابهة ، ثم نعود الى تفسـيرها بما نستخلصه من طباع صاحبها ونياته .

لهذا بدأنا قبل سرد الأعمال بهذا التعريف الذى يسبغ[2] الدلالة على تلك الأعمال .

* * *

والمحفوظ لنا من صفات عمرو الجسدية قليل ، ولـكنه كاف اذا لم يكن بد من الاكتفاء منها بقسط له دلالة .

فهو كما يؤخذ من جملة الأقوال التى وصف بها : « أدعَج[3] ، أبلج[4] وافر الهامة[5] ، رَبْعَة[6] ، اقرب الى قصر القامة ، يخضب بالسواد » عليه مهابة وشمائل نباهة وسيادة ، كما يدل عليه ما تقدم من قول عمر فيه « ما ينبغى أن يمشى أبو عبد الله الا أميرا .. »

---

(١) مناط : اسم لموضع التعليق . (٢) أسبغ : أتم وأكمل . (٣) أدعج : شديد سواد العين مع سعتها . (٤) أبلج : غير مقترن الحاجبين . (٥) الهامة : الرأس . (٦) ربعة : الوسيط القامة .

واذا جاز أن يكون لهذا التكوين الجسدى أثر فى أخلاقه ودخائل طبعه ، فذلك أثر آخر يعين أثر النسب المغموز من جانب أمه ، وهو التماس « التعويض » بكل ما فى النفس من حول وحيلة ، وحفز الهمة الى مكان يسطع فيه المرء سطوعا يدارى المغمز فى النسب والنقص فى المظهر ، فيروع القلب بالسطوة والشارة[1] اذا اجترأت عليه العيون أول نظرة ، أو اجترأت عليه الألسنة بالثلب والمهانة : رجل متهم النسب قصير ، ولكنه لا يضار بذلك فى مقام الفخر بين ذوى الحسب والبسطة من عظماء الرجال .

واذا اعتزم الرجل هذه العزمة ، وكان من أصحاب الهمة والشهامة ، أو ما نسميه اليوم بالقوة الحيوية ، فأخلق به أن يبلغ ما يصبو اليه ، وأن يذهب بعيدا فى مسعاه الذى توفر عليه .

أما ان عمرا كان من أصحاب « القوة الحيوية » فذلك ظاهر من احتفاظه بحضور ذهنه ومضاء عزمه ، الى تلك السن العالية التى تجاوز بها قوم التسعين ، ولم يهبط بها أحد الى ما دون السبعين ، فانه ليجيش به هذا الطبع وقد أناف على الخامسة والأربعين الى فتح البلاد ، وتقليب الدول ، وافتتاح المساعى الى المجد والرئاسة ، كأنه ناشىء لما يزل فى بادرة الشباب ومستهل المغامرات والمجازفات فى سبيل الشهرة والسلطان !

وقد وصفت لنا شارة عمرو هنا وهناك ، فاذا هو فى كل صفة من هذا القبيل عظيم العناية بما يروع الناس من هيبته وفخامة مرآه ، وليست مشيته التى أشار اليها الفاروق بأقل ما احتفل به لتلك الشارة والفخامة .

قال أبو مخنف : « حج عمرو بن العاص فمر بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هيبة الناس له وموقعه من قلوبهم ، فقال له : يا ابن عباس ! مالك اذ رأيتني ولّيتنى القَصَرة ، وكأن بين عينيك دبَرة » ! (أى أعرضت وازوررت عنى) .. فأجابه ابن عباس

---

(١) الشارة : الهيئة واللباس الحسن .

جوابا مقذعا[1] فيه من الجرأة مثل ما فيه من الدهاء ، وانتهى منه قائلا : « حملك معاوية على رقاب النـــاس ، فأنت تسطع بحلمه ، وتسمو بكرمه » .

ولم يشــأ عمرو ــ وقد ذهب دور المفاجأة ــ أن يبزّه[2] ابن عبــاس فى الدهاء ، فعــاد يقول : « أما والله انى لمسرور بك . فهــل ينفعنى عندك » ؟

قال ابن عباس : « حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا » !

ووصفه بَحِير بن ذاخر المعــافرى وهو مقبل الى المسجد يخطب الناس يوم الجمعة فقال : « .. فأطلنا الركوع ، اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت .. فقام عمرو بن العاص على المنبر .. وعليه ثياب موْشِيَّة[3] ، كأن به العقيان[4] يأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة .. »

فهذه الأبهة المقصودة ــ ولا سيما قبل استقرار السلطان له ــ هى أثر من آثار ذلك النسب المغموز وتلك القامة المحدودة .

* * *

أما صفاته النفسية فنبدأها بما وصف به نفسه ، أو بقول الرواة الذين وصفوه هــذا الوصف ، وهم يدعون من المعرفة به ما يقوله الرجل حين يصف نفسه بلسانه .

روى هشام بن الــكلبى ان اناســا لاموا معاوية على تقديمه عمرا ، فبلغته ملامتهم ، فقال بعد استشهاد : « .. قــد علمتم اننى الكَرّار فى الحرب ، واننى الصبــور على غِيَرَ الدهر ، لا أنام عن طلب ، كأنما أنا الأفعى عنــد أصــل الشجرة .. ولعمرى لست بالوانى أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا شفاء لمن عضته ، ولا يرقد من لسعته . وانى ما ضربت الا فريت ، ولا يخبو ما شببت . عرفنى أصحاب يوم الهرير (بحرب صفين) اننى أشدهم قلبا ، وأثبتهم يدا ، أحمى اللواء وأذود عن الحمى ، فكأننى وشانئى عند قول القائل :

---

(١) مقذعا : من الكلام ما فيه فحش وقذف وسب . (٢) يبزه : بز فلانا غلبه وغصبه . (٣) ثياب موشية : منقوشة . (٤) العقيان : الذهب الخالص .

وهل عجبٌ ان كان فرعىَ عَسجَدا
اذا كنتُ لا أرضى مُفاخــرةَ العشبِ »

وهــذا وصف صادق ، اذا أغضينا عن جانب الفخر فيه ، طــابق صــفاته النفسية التى تشــهد بها أقواله وأعمــاله ومساعيه . وهى مجموعة محكمة من الصــفات القوية ، ولــكنها على قوتها بسيطــة متناســبة ، يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب فى أمثال هــذه النفس الفطرية . وأعمقها جدا هو أظهرها جدا .. ! أو هو الذى تعمّق حتى بلغ من عمقه ان ينضح(١) على قسمات وجهه وحركات جسده . وهو الطموح الى الهيبة والثراء ، وطلب البسطة فى الجاه والمــال . ما نخاله وقف فى الطموح عند حد ، ولا قعد عن الخلافة وهو مختار ، بل هو قــد طمح اليها وأعد عدّته لإقصــاء بنى أمية عنهــا ، فلمــا أيأســه مغمز النسب ورجحان بنى أمية على بنى ســهم فى العصبيــة القرشية ، طوى الصدر على كظم(٢) ، وقعد عنهــا وهو كاره يعزى نفسه بقوله المــأثور عنه : « ان ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » .

وكان سعيه الى الرئاسة والمــال باديا منه فى الاســلام ، كما بدا منه فى الجاهلية ، فلم يعرف له موقف قط نزل فيه عن الرئاسة باختياره .

فلما بعث به النبى عليه السلام الى غزوة ذات السلاسل ، أرســل فى طلب المدد ، فجاءه المدد من المهاجرين ، وفيهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح أمير ، فقال عمرو : أنا أميركم وأنا أرسلت الى رسول الله أستمده بكم ، فأنف المهاجرون أن يؤمّروه وفيهم من فيهم من جِلّة الصحابة ، وقالوا : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أميرنا .. قال عمرو : انما أنتم مدد أمدِدت بكم ..

وأشفق أبو عبيدة أن يتخاذلوا وهم على أهبة الحرب ، فقال له : تعلّم يا عمرو أن آخر ما عهد الىّ رسول الله أن قال : « اذا قدمت على صــاحبك فتطــاوعا » وانك ان عصيتنى لأطيعنك . قال عمرو : اذن أنا أعصيك . قال أبو عبيدة : وأنا أطيعك .

---

(١) ينضح : يرشح ويظهر . (٢) كظم : الغيظ المكبوت .

وعاد الى منازعة أبي عبيدة الرئاسة والامارة يوم أقدم أبو بكر — رضى الله عنه — على فتح الشام ، فسعى عند عمر ليقنع الخليفة بتأميره على الألوية جميعا ، وكان يوشك أن يفلح فى مسعاه لولا اكبار عمر لأبى عبيدة ، حتى لقد همّ بمبايعته بعد النبى عليه السلام ، وقال انه ليستخلفنه بعده لو عاش .

وقد كان حب المال يملؤه ويتمكن منه ، حتى لم يبال أن يخفيه ، ولم يزل يتكلم — كلما دعاه داعى الكلام — بما يكشفه وينم عليه . سأله معاوية وقد شاخا وبطلت لذات الشباب عندهما : ما بقى من لذة الدنيا تلذه ؟ قال : محادثة أهل العلم وخبر صالح يأتينى من ضيعتى .

وفى حديث آخر أنه دخل يوما على معاوية ، وقد كبر ودق ، ومعه مولاه وردان ، فتذاكرا الأيام ، واستطرد عمرو سائلا : يا أمير المؤمنين ما بقى مما تستلذه ؟ قال معاوية : « أما النساء فلا أرب لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست منها حتى وهَى بها جلدى ، فما أدرى أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدرى أيه ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمى[1] منه حتى ما أدرى أيه أطيب .. فما شيء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بنىّ وبنى بنىّ يدورون حولى .. فما بقى منك يا عمرو ! » فقال : « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته ! » .

وقد اشتهر منه هذا الحب للمال حتى عرضه لظنون الخلفاء واحدا بعد واحد . فقاسمه عمر ماله ، وعزله عثمان من ولاية مصر وهو يحسب انه قد استأثر بخراجها دون بيت المال . وقال له معاوية يوما وهو يذكر له الحساب والعقاب والأوزار[2] التى يثقل بها ميزان السيئات : هل رأيت بينها شيئا من دنانير مصر ؟

ومن ثَم تسابق الرواة فى تقويم ثروته يوم وفاته ، فاعتدل صاحب « مروج الذهب » فى وصفها بعض الاعتدال ، وبالغ صاحب « حياة

---

(١) خياشيمي : جمع خيشوم وهو أقصى الانف . (٢) الاوزار : جمع وزر وهو الحمل الثقيل ، والذنب .

الحيوان » فقال : انه خلف « سبعين بهارا دنانير » والبهار من جلد الثيران ، قيل انه يسع اردبين !

ولقد كان النبى عليه السلام أدرى النـاس بهذه الصـفة فى عمرو ابن العاص قبل أن يعرفه المسلمون أو المشركون بطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعى وتفتق المطامع والآمال ، فولاه الإمارة فى غزوة ذات السلاسل ، وقال له وهو يعرضها عليه : « انى أريد أن أبعثك على جيش فيسـلّمك الله ويغنّمـك ، وأزْعَبُ[1] لك من المـال زعْبَـة صـالحة » (١) فأجابه عمرو ، وهو يشـفق أن يظن النبى باسـلامه الظنون : « يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المـال ، بل أسـلمت رغبة فى الاسلام » . فهوّن عليه النبى ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهو يقول : « يا عمرو .. نِعمّا بالمال الصالح للمرء الصالح » .

ثم عهد اليه فى ولاية الصدقة بعمان ، فبقيت له الى أن تولى أبو بكر الخلافة فرغّبه فيما هو خير منها .

وظل الرجل يسائل نفسه عن حفـاوة النبى به الى آخر حيـاته ، فروى الحسن البصرى أن بعضهم قال له — أى لعمرو — : أرأيت رجلا مات رسـول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبه ، أليس رجلا صالحا ؟ قال : بلى . فقال محدثه : قد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبك ، وقد استعملك . قال : « بلى .. فوالله ما أدرى أحبًا كان لى منه أو استعانة بى » ..

* * *

ومن خصـائص هـذا الطموح الذى لزمه من صبـاه الى ختـام حيـاته ، انه كان كما رأينـا طموحا قائما على مطالب الواقع فى بواعثه ومراميـه ، فكانت نظرته الى الدنيـا نظرة عمليـة معروفة الموارد والمصـادر ، ولم تكن تلك النظرة الخيالية التى يتّسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوى الطموح .

(١) الزعبة من المال بالفتح والضم : الدفعة والقطعة .

ومنـاط الرجحان فى تلك النظرة العملية انما هو الأخذ بالأحوط[1] والأنفع فى كل أمر من الأمور ، ما كبر منها وما صـغر ، حتى ليكاد الأحوط والأنفع أن يكون عنده مقياسـا للحق أو لصحّة الأشياء ، على نحو يشبه مقياس القائلين بفلسفة الذرائع Pragmatism فى عصرنا الحديث .

فلم نعرف قط حكما من أحكامه فى أجلّ الأشياء فارقته تلك النظرة العملية ، أو ذلك المقياس الموكّل بالأحوط والأنفع فى ترجيح جانب على جانب وطريقة على طريقة .

وحسبك من جلائل الأحكام فى أعظم مطالب الحياة حكمه فى مسألة العقيدة الاسلامية ، وحكمه فى مسألة الخلافة ، وهما أعظم ما عرض له من المشكلات التى تتطلب الترجيح والتفضيل ، وكلاهما قد حكم فيه على سنّة الأحوط والأنفع بين مختلف الوجوه .

فلما استراب المشركون فى ميله الى الاسلام أوفدوا اليه من يسـأله فى ذلك ، فلم يكاشفه بالحقيقة لأول وهلة ، بل واعده الى مكان منفرد وقال له : أنشـدك الله الذى هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك ، أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال صاحبه : اللهم بل نحن . فسأله : أفنحن أطيب معاشا وأوسع ملـكا أم فارس والروم ؟ قال صاحبه : بل فارس والروم . فقال عمرو : فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى ان لم تكن الا هـذه الدنيـا وهم أكثر فيها أمرا . ثم عاد فقال : قد وقع فى نفسى أن ما يقول محمد من البعث حق ، ليجزى المحسن فى الآخرة باحسانه والمسىء باساءته . هـذا يا ابن أخى الذى وقع فى نفسى ولا خير فى التّمادى فى الباطل .

وخلاصة هـذا البرهان العملى ان الاسـلام أنفع للعرب وأصـلح للدنيـا والآخرة ، فهو أحق بالتصديق وأجدر بالاتباع .

ولبث فى مشتجر[2] الخلافة لا يميل الى طرف من أطرافها ، حتى انحسر الخلاف كله عن حزبين اثنين لا ثالث لهما ، فوجب عليه أن يخـرج من

---

(١) الاحوط : الاحزم والاحفظ . (٢) مشتجر : اشتجر الشيء : اشتبك وتداخل بعضه في بعض . والقوم تنازعوا .

عزلته لينصر أيهما ، وهما حزب عليّ وحزب معاوية .

فدعا بولديه عبد الله ومحمد فقال لهما : انى قد رأيت رأيا ولستما باللذين تردانى عن رأيى ، ولكن أشيرا علىّ . انى رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان ، وأنا طارح نفسى بين جزّارى مكة ، ولست أرضى بهذه المنزلة ، فالى أى الفريقين أعمد ؟ قال له عبد الله ، وقد علمنا تقواه : ان كنت لابد فاعلا فالى على . قال : انى ان أتيت عليا يقول لى : انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره .

وعلى هذا الأساس فى التفضيل بين الطرق سلك أحب الطريقين اليه وأجدرهما عنده بالاتباع .

* * *

وأعانه على هذه النظرية العملية انه كان مالكا لزمام شعوره ، آمنا أن تضلّه الحماسة من ناحيتها أو يضلّه الحنان من ناحيته ، قابضا بعقله على جمحات العاطفة كما نسميها اليوم ، أو كما قال هو : « أبلغ الناس من كان رأيه رادّا لهواه ، وأشجع الناس من ردّ جهله بحلمه » .

فليس فى جوامح الشعور ما هو أشد جماحا ولا أقرب أن ينفلت من قبضة العقل ــ من غضبة الغيور على عرضه ، أو حنان الواقف على جثة أخيه ، أو نخوة المتصدى للقتال بين معسكرين ، فهى هى الجوامح التى قلّ أن تراض وأن تثوب على المشيئة الى قوام[1] .

ولكن عمروا قد راضها كلها على ما أراده فى حينها وبعد حينها . وكانت رياضته لها وهو فى عنفوان الصبا كرياضته لها وهو فى أوج الكهولة قد أناف على الأربعين .

خرج مع عمارة بن الوليد المخزومى الى أرض الحبشة تاجرين ، وكان عمارة مولعا بالخمر والنساء ، فشرب وهما فى السفينة فانتشى[2] ، ونظر الى امرأة عمرو نظرة اشتهاء ، ثم همّ بتقبيلها ، بل أومأ اليها أن تقبله فى قول صريح . فقال لها عمرو ، متقيا ما يكون من رجل

---

(١) قوام : اعتدال . (٢) انتشى : سكر من الخمر .

سكران بين المـاء والسماء : قبّلى ابن عمك ! فقبلته .. فلم يزد ذلك عمارة الا اغراء بالمراودة ، وجرأة على القحة[١] ، ولمح عمروا على حافة السفينة ــ وهو فى سكرة من سكراته ــ فدفع به الى المـاء يظنه غير قادر على السباحة ، كما يغلب بين أبناء البـادية ، فسبح عمرو حتى نجا ، وسمع عمارة وهو يقول له غير آبه بحقده عليه : أما والله لو علمت يا عمرو انك تحسن السباحة ما فعلت ! فاذا هو قد جمع سـوء النية بحياته الى سوء النية بعرضه ومع هذا كله كظم عمرو ما بنفسه ، وظل يصانعه[٢] حتى تمكن من الكيد له عند النجاشى ، فأرسله فى العراء مخبولا يعيش فى الغربة عيش الأوابد[٣] حتى مات .. !

واشترك عمرو وأخوه هشام فى حرب الشام ، وأخوه هذا مَن علِم الناس فى الصلاح وصدق البلاء . فاذا ثلمة فى الطريق يتخطف المدافعون من يهجم عليها بالسيوف ، فهابها العرب وأحجموا عنها ، وطال ترددهم لديها . فاذا هشام يقدم عليها وهو ينادى فى الجيش : يا معشر المسلمين الىّ الىّ ! أنا هشام بن العاص ! أمن الجنة تفرون ؟ وما زال يتقدم حتى خرّ قتيلا متعرضا فى تلك الثلمة المرهوبة . فلما انتهى المسلمون اليها هابوا أن يدوسوه كرامة له ولأخيه . فكان عمرو أول من تقدم فداسه وهو يصيح بجنده : أيها الناس .. إن الله قد استشهده ورفع روحه ، وانما هى جثة . ثم أوطأه وتبعه الناس ، حتى تقطع وهو مشغول عنه بما هو أجدى وأعظم . فلما انتهت الهزيمة عاد اليه وجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه بيديه ، ثم حمله فى نطع[٤] فواراه .. !

وبرز على بن أبى طالب يوما فى حومة صـفين ، وقد طـال أمد القتال ، فقال : يا معاوية ! علام يقتتل الناس ؟ ابرز الى أو أبرز اليك ، فيكون الأمر لمن غلب . وجاء فى روايات شـائعة ان عمـروا قال لمعاوية يومئذ : والله لقد أنصفك الرجل .. ! فظن معاوية انه يغرر به ويدفع به الى هلاكه طمعا فى دولته ، فأقسم عليه ليخرجن للمبارزة التى أغراه بها ، فلما غشيه علىّ بالسيف رمى بنفسه الى الأرض وأبدى له سوءته ،

---

(١) القحة : بكسر ففتح : الوقاحة وقلـة الحشمـة ٠ (٢) يصانعه : يداريه ٠ (٣) الاوابد : الوحوش ٠ (٤) النطع : بالكسر ، البساط من جلد ٠

فضرب عليّ وجه فرسه وانصرف عنه .

وكل هـذه أخبـار متوافقة يخيّل اليك انك ترى ابن العاص وهو يفعلها ويروض وقائعها رياضة الرجل الذى يعتز بقدرته على هواه ، وكأنه يأنف لدهائه أن يغتر بنزوات الساعة كما يغتر بها سائر الناس ، وكلها تعبر عن خليقة لاشك فى صدقها عند ابن العاص ، وإن تمارى[1] الناس فى صدق الروايات ، ونعنى بها خليقة النظرة العملية وغلبة العقل على الشعور .

ولا شك ان استحضار هـذا « الخلق العملى » لازم جدا للمؤرخ فى كل خطوة يخطوها مع عمرو بن العاص فى أحواله الفردية أو أحواله العامة ، لأنه سرى من مزاجه الى سياسته وطريقة التفاهم بينه وبين الناس ، سواء كانوا من الزملاء أو الرعيّة أو الأعداء . وقلما تظهر الطريقة التى يقتنع بها الرجل من شىء كما تظهر من الطريقة التى يُقنع بها الآخرين .

انظر مثلا إلى الفرق بينه وبين عبادة بن الصامت فى اقناع عظماء القبط ببقاء العرب فى مصر ، وانهم لن يتركوها وقد دخلوها ، ولن يرجعوا عن فتحها جميعا لرغبة فى رشوة ولا لرهبة من قوة .

فان عبادة بن الصامت لم يزد على ان احتقر الدنيـا حين خوّف المقوقس عاقبة الايغال فى بلده ، فكان توكيد حب الآخرة هو فحوى كلامه حين قال : ان غاية أحدنا من الدنيـا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه فى طاعة الله واقتصر على هـذا الذى بيـده . انما النعيم والرخاء فى الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبيّنا ، وعهد الينا ألا تكون همة أحـدنا من الدنيـا الا ما يمسـك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله فى رضوانه وجهاد عدوه .

أما عمرو فانه وقف مثل هـذا الموقف فلجأ الى الطعام ليقنع عظماء القبط بأن العرب غير تاركى مصر وقد دخلوها .

---

(١) تمارى : شك ، والرجلان تجادلا .

« أمر - كما جاء فى الطبرى - بجزر[1] ، فذبحت ، فطبخت بالماء والملح ، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس وأذن لأهل مصر . وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا : انتشلوا[2] وحسوا[3] وهم فى العباء[4] ولا سلاح . فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، ثم بعث فى أمراء الجنود فى الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا فى ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر ، فرأوا شيئا غير ما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا وقالوا : كدنا . وبعث اليهم - أى الى أمراء الجنود - أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم فعرضهم عليهم ثم قال : انى قد علمت انكم رأيتم فى أنفسكم انكم فى شىء حين رأيتم اقتقار العرب وهون تزجيتهم ، فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت ان أريكم حالهم وكيف كانت فى أرضهم ، ثم حالهم فى أرضكم ، ثم حالهم فى الحرب ، فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم فى اليوم الثانى ، فأحببت أن تعلموا ان من رأيتم فى اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثانى وراجع الى عيش اليوم الأول .. »

وان هذا الضرب من البراهين لقائم عنده أبدا ، لايأتى عرضا فى حادث من الحوادث ثم ينقضى بانقضائه . وكثيرا ما ذكر الطعام وهو يلجأ الى الاقناع ، فكان من كلامه : « أكثروا الطعام ، فوالله ما بطن قوم قط الا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزمة رجل بات بطينا » !

بل هو يقوِّم الأخلاق والفضائل بقيمتها العملية وفائدتها الملموسة ، فالعدل مثلا فضيلة جميلة محبوبة ، ولكنها عند عمرو محبوبة لأنها سياسة حسنة لتوفير المال كما قال : « لا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل » .

(١) جزر : جمع جزور ، والجزور من الابل ما يباح أن يجزر أي يذبح .
(٢) انتشلوا : أخذوا العظام من القدر قبل النضج . (٣) حسوا : شربوا المرق شيئا بعد شيء . (٤) العباء : كساء من صوف غليظ كالعباءة .

وإن ذلك لشأنه فى تقويم كل قيمة ، وتفضيل كل فضيلة .

* * *

وفى أخلاق عمرو « عقدة نفسية » لا تفتأ تصادفنا عند المقابلة بين نقائضه ، كما تصادفنا فى جميع العظماء من أمثاله وأشباههم فى الطبيعة والملكة ، ونعنى بهم أولئك الذين يلتقى فيهم الطموح والحركة وضبط النفس فى سبيل المطالب التى يطمحون اليها ، فما منهم أحد الا وجدت له نقائض من الحذر الشديد والاندفاع الشديد ، أو من ضبط النفس كأنه لا يعرف جمحات الشعور ، ومن المجازفة[1] كأنه لايعرف الرويّة . وهى نقائض فى الظاهر وليست بنقائض فى الحقيقة ، لأن قوة الطموح تفسر لنا النقيضين ، فاذا هما مستمدان من ينبوع واحد وهو قوة الطموح . اذ ان هذه القوة الطامحة لا تزال مُحضِرة له الأمل شاخصا باهرا نصب عينيه ، فيهون عليه أن يكبح شعوره الجامح فى سبيل الوصول الى أمله العظيم ، أو فى سبيل المحافظة عليه بعد الوصول اليه .

ثم يثقل الكبح على هذا الطماح لقوته فيلتمس الرَّوح[2] منه والمنفس[3] من قيده بالمجازفة ، كما يتوق الصائم الى العيد ، والفرس الملجم الى المِراح .

فساعة المجازفة هى ساعة التسريح من القيد ، وهى ألزم له من حالة التوسط التى لا قيد فيها ولا انطلاق .

وقد كان الذين يعرفون عمروا بالدهاء وكبح الهوى ، يعرفونه كذلك بالاندفاع والهجوم على المهالك . فقال عثمان يحذر منه الفاروق رضى الله عنهما : « ان عمروا لجرىء الجنان ، وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى ان يخرج فى غير ثقة فيعرض المسلمين للهلكة » !

وشاعت عنه روايات فى المجازفة ، يخيل اليك انها من أطوار الحماسيين أصحاب الخيال ، لولا ان العقال[4] يغرى بالانفلات من ربقته ،

---

(١) المجازفة : المخاطرة • (٢) الروح : الراحة • (٣) المنفس : التخلص والتملص • (٤) العقال : الحبل يعقل به البعير في وسط ذراعه •

فيقدم الرجل الحذور على شطحات قد يحجم عندها صاحب الخيال المشبوب[1] !

قيل انه تعرض للموت مرات ، لاقتحامه الحصون على أعدائه فى هيئة رسول أو محارب من عامة الجند فى جيش المسلمين . فلما طلب والى قيسارية رسولا من العرب يكلمه ذهب عمرو اليه ، فأعجب الرجل بحديثه وعقله ، وخطر له انه قد يكون أمير العرب فيستريح منهم جميعا بقتله ، فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث الى البواب : اذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه.. قالوا : وتنبه عمرو ، أو نبّهه أحد الى المكيدة ، فرجع الى الوالى يقول : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك يسع بنى عمى ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد . فقال : صدقت ! عجّل بهم . وبعث الى البواب أن خلّ سبيله .

ورووا عنه فى الاسكندرية قصة تماثل هذه القصة ، وهى انه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ، ثم ارتدوا وبقى هو وثلاثة من صحبه ، فعرض عليهم الروم أن يخرجوا اليهم ليبارزوهم واحدا لواحد ، فتصدى هو للمبارزة ، لولا أن منعه صاحبه مسلمة بن مخلد ، ووقف دونه وهو يقول له : « ما هذا ؟ تخطىء مرتين ، فتشذ عنك أصحابك وأنت أمير ، وانما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك . مكانك وأنا أكفيك ان شاء الله » ..

قالوا : ومَثَل بين يدى البطريق فعجب هذا من انفته وقوة جوابه ، فالتفت الى من فى مجلسه وقال لهم باليونانية : « يظهر من الثقة هذا الرجل وكبّر نفسه انه من وجوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم فلا ينبغى ان تتخلى عن قتله » . وكان مولاه وردان يفهم اليونانية ، فأحب أن يريهم خطأهم ، ويبين لهم ان الذى يكلمهم انما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع اليه فلطمه صائحا به : ما أنت ولهذا

---

(١) المشبوب : المتقد .

يا لكع[١] ! دع هـذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه ! فكانت هذه اللطمة سبب نجاته .

ورويت عنه روايات أخرى من هـذا القبيـل ، ان صحت كلها ، أو صح بعضها ، أو كانت كلها اختراعا من تلفيق[٢] الرواة ، فالدلالة التي لاشك فيهـا على كل حالة من هـذه الحالات ان الرجل كانت له شهرة بالمجازفة تقبل فيها أمثـال هذه الروايات ، وتدعو الى تلفيقها بما يشبه الواقع المعهود من أخلاقه .

وهو نفسه كان يقول ما ينم على هـذا الخلق فيه ، فهو القـائل : « عليكم بكل أمر مزلقة[٣] مهلـكة » ..

ولعله لم يفصح بكلمة من كلماته عن ضيقه بقيود الحكمة والسمت وكبح الهوى ، كما أفصح عنه بقوله وقد سئل عن أمتع اللذات ، اذ قال : « اسقاط المروءة » !

فهى كلمة الرجل الذى تقيد بالوقار ، حتى أصبح طرح الوقار عنده هو غاية ما يبتغيه من اللذة ويشتاق اليه ، وتقيـد بكبح الهوى حتى أصبحت المجازفة فى المزالق المهلـكة هى فرجة نفسه من ذلك الحجر الذى ضربه عليها .

أفنقول اذن انه شجاع مقدام ، أم تقول انه جبان حذور ؟

بل نقول انه شـجاع كما قال معاصروه وقد شـهدوه فى مواقف الاستبسال ومآزق الحرب والفزع ، ولكنا نعود فنقول ان شجاعتـه وكل فضيلة فيه انما كانت فى خدمة طموحه الى المجد الذى كان يسعى اليه ، فهو يضن بشجاعته أن يبذلها فى غير طائل ، ويتخذها وسيـلة الى غاية ، ولا يجعلها هى الغاية التى تنقطع دونها الوسائل .

وقد سأل هو صاحبه معاوية يوما : « والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ » فقال معاوية :

شـجاع اذا ما أمكنتنى فرصـــة
وان لم تكن لى فرصـــة فجبان

---

(١) لكع : بضم ففتح : اللئيم الذليل النفس · (٢) تلفيق : لفق الحديث صنعه من عنده وزخرفه بالباطل · (٣) مزلقة : أرض لا تثبت عليها قدم ·

وبمثل هـذا الجواب يستطيع عمرو أن يجيب من يسأله مثل ذلك السؤال ، الا انه كان أحوج الى الوثوب والمجازفة من معاوية ، فقد كان نسب معاوية ومكانته فى بنى أمية مع طول استعداده للملك مغنيا له عن عجلة الوثوب والمجازفة ، من حيث لا يستغنى عنه عمرو وهو مغموز النسب ، مخذول العصبية ، مضطر الى ادراك مطلبه قبل أن يفوته ، فلا تسنح لادراكه سانحة أخرى .

ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية ، كما قال مرة وهما يتساءلان عن العقل .. قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت فى شىء قط الا خرجت منه . فقال معاوية : لكننى ما دخلت فى شىء قط وأردت الخروج منه .

كل منهما بدهائه أشبه : عمرو فى اقتحام الطموح المغامر ، ومعاوية فى تؤدة المستقر الواثق ، وعمرو فى دفعة العبقرية ، ومعاوية فى روية التدبير الطويل .

ولعل هـذه الحيلة الحاضرة التى كانت تجود بها عبقرية عمرو كخاطف البرق فى المآزق المطبقة ، هى التى كانت تزين له الهجوم على المورد وهو واثق من قدرته على الصدور ، فكان فى مجازفته شىء من الحيطة المجهولة ، تبقى مجهولة حتى تعلم فى الوقت المقدور ، فاذا هى مسعفة لا تخيب رجاءه فيها واعتماده عليها .

* * *

ولقد أحصى العرب دهاتهم فى الاسلام ، فعدوا أربعة هو منهم ، وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها فى دهائه فقالوا : ان معاوية للرؤية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

ونظن ان لو تكلم العرب باصطلاح هـذه الأيام لقالوا : ان حيلة عمرو هى حيلة العبقرية المطاعة التى تنفتق له من حيث يعلم ولا يعلم ، وآيتها أنها عبقرية معبرة تلهم الخاطر السريع وتلهم التعبير عنه فى كلم

وجيز . وهذه هى العبقرية التى يختلط أمرها أحيانا على من يراقبونهـا فيتهمونها بالطياشة ، ويرمونها بدفعة التهور ، لأنهم يسلسلون أسبابهم فى بطء وتثاقل ، وهى تسلسل أسبابها فى سرعة وخفة ، فيبدو لها ما يظل خافيا عليهم ملتبسا فى أعينهم ، ولولا أنها واضحة عنـد صـاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسـلوب يلائم ومضـاتها فى السرعة والنفاذ

قيل لعمرو : ما العقل ؟ قال : الاصابة بالظن ، ومعرفة ما سيكون بما قد كان

وذلك هو الظن الذى يقول فيه القائل :

الألمعيُّ الذى يَظنُّ بك الظنَّ
كأنْ قـدْ رأى وقد سَـمِعَا

والأصح أن يقال ان التعريف بالعقل هنا هو التعريف بعقـل عمرو نفسه ، لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التخمين واليقين ، ويأخذ مَنْ أمامَه بالنظرة الخاطفة ، فاذا هو قد وصل ، والذى أمامه لا يزال يتحرى سبيل الوصول

قيل فى غير الرواية التى قدمناها انه هو الذى وصف نفسه ووصف الدهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وأنه اجتمع مع معاوية بن أبى سفيان مرة فقال له معاوية : من الناس ؟ فقال : أنا وأنت والمغيرة بن شـعبة وزياد . قال معاوية : كيف ذلك ؟ قال أما أنت فللتأنّى ، وأما أنا فللبديهة ، وأما المغيرة فللمعضلات ، وأما زياد فللصغير والكبير .. قال معاوية : أما ذانك فقد غابا ، فهات بديهتك ياعمرو! قال : أو تريد ذلك ؟ فأجابه نعم ! فسأله أن يخرج مَنْ عنده ، فأخرجهم . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، أسارّك فأدنى معاوية رأسه منه . فقال عمرو : هذا من ذاك ! من معنا فى البيت حتى أسارك ؟

وتصح هذه الواقعة أو لا تصح ، فهما يستويان . اذ الغرض الذى ترمى الى اثباته صحيح ، وهو أن تفكير عمرو تفكير بديهة حاضرة ، وأن

تفكير معاوية تفكير روية بطيئة ، ومرجع ذلك كما قدمنا الى سببين : أحدهما أصيل والآخر عارض ، فالسبب الأصيل أن عمروا يصدر عن وحي العبقرية ، وأن معاوية صاحب عقل من العقول الوسطى التى أفادتها المرانة وتمثلت أمامها قدوة الآباء ، كأنها السّجل المحفوظ الذى ينقل عنه نقل المحاكاة . والسبب العارض أن عمروا مضطر الى الوثوب والاقتحام ، لأنه لن يُفتح له باب بغير اقتحام . أما معاوية ففي موضعه وانتظار ساعته على هينة(١) ووثوق ، فان وصل فذاك ، وان لم يصل فالذى فى يده يغنيه ، والعجلة لا تغنى عنه ولا تنفعه كما تنفعه الأناة

***

والبديهة الحاضرة فى أعمال عمرو لا تحصى شواهدها ، فانها تلازمه فى جميع حالاته ، ولا تبدو منه فى حالة دون حالة : تذكيها المآزق والخوف من الخطر ، ولا تخمدها الطمأنينة والأمان فى سرية ، ويستخدمها لغيره كما يستخدمها لنفسه كما شاء

خرج يعسُّ(٢) بالليل وهو أمير على مصر ، فسمع أناسا يقعون فيه ويتوعّدونه ، وعلم أنه ان تركهم الى غده لم يعرفهم ولم يظفر بأجمعهم فأقبل عليهم اقبال الخائف الطريد ، وأوهمهم أنه يلوذ بهم ويضرع اليهم ألا يسلموه الى الأمير لأنه يتعقبه ويمعن فى طلبه ، فاستَبَقُوا الى تقييده وساقوه الى باب قصره لايتخلف أحد منهم طمعا فى المثوبة ، فأوصلهم الى حيث أراد !

وقتل الروم رجلا من المسلمين حول الاسكندرية ، واحتزوا رأسه وانطلقوا به الى داخل الحصن ، فأقسم أبناء قبيلته لا يدفن الا برأسه . قال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم ! احملوا على القوم اذا خرجوا ، فاقتلوا منهم رجلا ، ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم . فلما فعلوا اذا برأس صاحبهم يسقط عليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوه برأسه

(١) هينة : بكسر الهاء ، السكينة والوقار . (٢) يعس : عس الرجل طاف بالليل لحراسة الناس .

أما البديهة الحاضرة فى تعبير عمرو ، فمسطورة الشواهد فى مساجلاته[1] وأجوبته ورسائله وأوصافه ، فهى جميعا مثل من أمثلة الايجاز والمضاء ، كأنها ضرب من الاختزال لولا أنها واضحة وضوح التفصيل . وقد رويت له مقطوعات من الشعر تسلكه بين طبقة من الشعراء ، لولا أن كلمات البديهة التى أثرت عنه قد غلبت على نظمه ونثره ، فكانت أولى بالدلالة على العارضة[2] القوية فيه ، وهى أنبغ ملكاته . وحسبك من نبوغ هذه الملكة فيه أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان اذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه قال : آمنت بالله ! .. خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !

***

واذا اجتمع للرجل ذكاء ماض ، وعزيمة ماضية ، ولسان ماض ، وهوى يمضى فى زمامه ، وينثنى بعد عرامه[3] ، فذلك الرجل الذى يحسب له حساب فى كل زمان وجد فيه

ولكنه أحرى أن يحسب له كل حساب فى أيام الفتن والقلاقل واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ، ويستطيع التأليب والتغليب ، وعسير جدا أن يُهمَل شأنه بين الشِّيَع والأحزاب ، وان لم يكن إهماله فى غيبة الشيع والأحزاب جِدٌّ عسير

لهذا لم يظهر لعمرو بن العاص شأن ذو بال فى الترشيح للخلافة بعد الفاروق ، بل عُدَّ دخوله فى هذا الأمر من الفضول والتظاهر بما ليس من قدره . فلما اجتمع رهط الشورى فى بيت عائشة لانتخاب الخليفة أقبل هو والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد بن أبى وقاص وأقامهما من مكانهما وهو يهزأ بهما قائلا : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى الشورى ؟!

فما زالت الأيام تدور دوراتها حتى أصبح هذا المحصوب الذى استكثر عليه الجلوس بباب أهل الشورى ، فاذا هو قبلة القُصَّاد فى مشكلة الخلافة ، وكل من عداه لائذون بالأبواب .. !

(١) مساجلاته . ساجله . باراه وفاخره · (٢) العارضة : البيان واللسن والقدرة على الكلام · (٣) عرامه : شدته وكثرته ·

ولا نختم الكلام فى التعريف بعمرو حتى نومىء الى تعريف له طريف من كلام مجالد عن الشعبى عن قبيصة عن جابر فى رواية النجوم الزاهرة ، حيث قال بعد كلام فى وصف نفر من الصحابة : « ... وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أنصع ظرفا منه ، ولا أكرم جليسا ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه »

والطريف فى هذا الوصف مشابهة السريرة والعلانية فى الرجل الذى لم يشتهر بشىء كما اشتهر بالدهاء

فهل فرط الدهاء خيّل الى الرجل الطيب الذى وصفه بتلك الصفة أنه أشبه الناس سرا بعلانية ؟

أو هو الصدق رآه الرجل الطيب فوصفه كما رآه غير مبال بمن يستغرب هذه الغريبة أو تخامره الشكوك فيها ؟

اننا فى الحق لا نستبعد أن يكون عمرو بن العاص شبيه السر بالعلانية فى جميع الأمور التى لا يعنيه أن يكتمها أو يلوذ فيها بحيطته ودهائه !

فقد عهد فى كثير من الدهاة أنهم ينطلقون بالحديث ، ولا يتحرزون من الصراحة فى أخطر الأمور . وقد أثر هذا عن بسمارك كما أثر عن بيكنسفيلد من دهاة الأوروبيين فى الزمن الأخير

ومعظم هؤلاء الدهاة يحبون ارسال النفس على السجية (١) ، ويشبهون المهرة من اللاعبين الذين يلعبون « على المكشوف » ، كما يقولون فى عرفهم ، ثقة منهم بالقدرة على الاصابة والسداد ، أو يشبهون الفارس الذى يخلع شكّته (٢) من حين الى حين مباهاة ببأسه واقتداره ، ولا سيما اذا كان هؤلاء الدهاة ممن امتزجت بهم نزعة المغامرة والطموح البعيد

ويلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية على التخصيص أنهما كانا فى الصلة التى بينهما يؤثران اللعب المكشوف ولا يضيعان الوقت فى مراء (٣) يعرفانه ولا يجهلانه . وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لا مداجاة فيها ، فقال له : « أترى أننا خالفنا عليًّا لفضل منا عليه ؟ لا والله ! ان هى

---

(١) السجية : الخلق والطبيعة • (٢) شكّته : الشكة بالكسر : ما يلبس من السلاح • (٣) مداجاة : مداراة •

الا الدنيا تتكالب عليهـا . وايم الله لتقطعن لى قطعـة من دنياك أو لأنابذنك[1] ... »

***

وعلى هذا النمط كانت المساومات بينهما فى معظم الأحاديث المروية عنهما ، فاذا عمد أحدهما الى المداورة[2] لم يلبث أن يرتد الى الصراحة وقد رأى عين صاحبه واقعة على أخفى خفاياه !

فغير بعيد اذن أن يكون عمرو من الظرفاء الصرحاء فى أحاديث المجالس وعروض الكلام المشاع ، وليس فى شىء من هذا ما ينـاقض صفته التى خرجنا بها من جمـلة أحواله ومساعيه ، وهى صفة الرجـل العملى ، الطموح ، الذكى ، الذى يكبح هواه ، وينفلت منه بين الحين والحين فى نوبات مجـازفة ، تغريه بها وثبات العبقرية وضرورة الاقتحـام ، ويهونها عليه اقتداره على رد الزمام الى يديه ، وابتداع الحيلة المسعفة حيث شاء

---

(١) لأنابذنك : نابذه : خالفه وفارقه عن كره ، وأعلبه بعزمـه على القتال . (٢) المداورة : داوره : دار معه وتملقه .

من التجارة الى الامارة

من الطمع الكثير أن تتطلع الى تاريخ مفصل لطفولة عمرو ابن العاص، أو لطفولة عظيم من عظماء عصره فى البلاد العربية خاصة ، لأن أبناء العصور القديمة قلما حفلوا بالطفولة أو حفلوا بأخبار الرجال ــ كبارهم وصغارهم ــ الا بمقدار اتصالها بالحوادث الجامعة . فهم حينئذ يدخلون فى حوزة التاريخ ويذكرون فى سياق الحوادث التى لهم بها اتصال

ولكننا نستطيع أن نقول على ثقة ان عمرواً الطفل قد تعلم كل مايتعلمه أطفال العرب المقيمين فى الحاضرة ، لأنها السنة العامة التى لا موجب للشذوذ عنها ، ولأننا نعلم ذلك وزيادة عليه من أخباره وهو فى طور الشباب والكهولة ، فنعلم أنه كان يحسن ركوب الخيل والسباحة ، ويحسن الضرب بالسيف ، وينظم الشعر ، ويعرف الكتابة كما كان يعرفها نفر من أبناء التجار النابهين الذين يرشحهم آباؤهم للعمل فى التجارة .

وقد عصمه اعتزازه بالنسب أن ينظم الشعر للتكسب بالمدح والهجاء على عادة « المحترفين » من شعراء زمانه ، وانما كان ينظمه للتنفيس عن نفسه ، ويجرى به خاطره كما كانت تجرى به خواطر الوجوه من رؤساء العشائر فى معارض العظة والاعتبار

والظاهر من أخبار نشأته الأولى كما أسلفنا أنه بكر بالزواج لأن الفارق بين سنه وسن ابنه عبدالله غير كبير . ومن ثم يجوز لنا أن نفهم أنه استقل بمعيشته وهو فى ميعة الشباب[1] ، ولا سيما اذا ذكرنا أن أمه لم تكن سيدة الدار فى كنف[2] أبيه

فربما تزوج الفتى الناشىء من أهل البادية ، ولم يستقل بالمعيشة بعد زواجه ، لأنه يعمل هو وزوجه فى رعى الابل له ولأبيه فى محلة واحدة

---

(١) ميعة الشباب : الميعة من كل شيء معظمه · (٢) كنف : الكنف : الجانب والناحية · ويعيش في كنف أبيه أي في ظله ·

أما العربى الناشىء فى الحاضرة فالأغلب الأعم أن يستقل ببيته وعمله بعد زواجه ، ويصدق هذا على عمرو خاصة ، لأننا لم نقرأ من أخباره وهو عامل فى التجارة أنه كان يصحب أباه فى رحلاته الى الحبشة والشام . وربما دل على استقلاله بمعيشته البيتية أنه كان يصطحب زوجه فى سفره ، كما جاء فى النبأ المشهور عن احدى رحلاته الى الحبشة ، وانه لكذلك دليل على شبيبة حازمة غير لاهية ، جديرة أن تضطلع بأدب الأسرة ، ولا تعيث فى الغربة عيث الاباحية التى شاعت بين فتوة الجاهلية

وقد داول فى شبيبته بين الجزارة والتجارة ، وظل يداول بينهما الى ما بعد إسلامه وانقضاء صدر من الاسلام ، الى قيام الفتنة بين على ومعاوية . ففى مشاورته لولديه بين اللحاق بهذا أو بذاك ، كان يشكو معيشته بين « جزارى مكة » ويطمح الى مقام أكرم له من هذا المقام

وللتجارة فى سيرة عمرو شأن أعظم من شأن المرتزق أو الصناعة التى يكسب بها مؤونة عيشه ، لأنها ولا ريب كانت مدرسته الكبرى التى تعلم فيها ما تعلم من أحوال الحياة وخلائق الناس ، بل كانت مدرسته الكبرى فى السياسة والفتوح : من سياحاتها تلقى علمه الأول عن الأمم والبلدان ، ومن سياحاتها نفذ الى عيوب الحكم ومواقع الخلل فى الدول التى كانت له يد فى الاشارة بفتحها وسوق الجيوش اليها ، وتهوين الأمر على الخلفاء حين خامرهم (١) التردد فى القدرة عليها

وكانت سياحاته التجارية خليقة (٢) أن تطلعه على أسرار دخيلة ليس يفطن لها كل سائح ، لامتيازه بنفاذ البصر وبلوغه مرتبة الحظوة عند بعض الأمراء الذين كانت له تجارة فى بلادهم ، ومن تلك الحظوة أن نجاشى الحبشة قد ألفه وعوّده أن يلقاه كلما عاد اليه لقاء المودة ، ويستمع له فى خاصة أهله ويدعوه أحيانا بالصديق

وسنجتزىء من أخبار سياحاته بطائفة قليلة فيها الغنى عن سائر تلك الأخبار ، وفيها كذلك غنى فى الابانة عن كثير مما يستحق الجلاء من خلائقه ومساعيه

---

(١) خامرهم : قاربهم وخالطهم وداخلهم . (٢) خليقة : جديرة .

خرج الى الحبشة فى شبابه مع فتى عربيد[١] من بنى مخزوم يدعى عمارة ابن الوليد ، (وقد سبق ذكر هذه الحادثة على ايجـاز) . فشربا فى السفينة خمرا ، فسكر عمارة ونظر الى امرأة صاحبه نظرة مريبة وسألها أن تقبّله ، فكظم عمرو غيظه وقال لامرأته وهو يسر فى نفسه شيئا : قبلى ابن عمك ! فقبلته

وطمع عمارة فلج فى غيّه[٢] ، وتمادى فى مراودة المرأة خلسة وعلانية ، وهى تمتنع عليه ، فظن أن امتناعها لخشيتها من زوجها ، وأنه بالغ مأربه اذا قذف به الى البحر على غرة منه ، فأمهل عمرواً حتى دنا من حافة السفينة ودفع به الى الماء ، ثم أمعن فى حماقته فصارح عمرواً بسـوء قصده ، وقد نجا هذا سابحا من الغرق وعاد الى السفينة ، فقال له قولة تتضح بالحمق والغفلة : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت ! أى أنه كان ينوى له قتلة لا سلامة منها ، فنجا وهو كاره لنجاته !

وتمضى الرواية فتنبئنا أن عمارة كان وسيما محببا الى النساء ، فدب الى حرم النجاشى وخرج يفخر لعمرو بفعلته ويحدثه بنجواه مع خليلته ، وعمرو يظهر له التكذيب ليستخرج منه دليل اليقين الذى لا يشـك النجاشى فى صدقه اذا نمى اليه ، حتى ظفر منه بذلك الدليل ، فأورده موارد الهلكة فى خبر طويل لا محل هنا لاستقصائه .. !

هذا خبر من أخبار رحلاته الى الحبشة

وخبر آخر من أخبار رحلاته الى تلك البلاد رواه هو فقال ما فحواه : « جمعت رجالا من قريش بعد مُنصَرَف الأحزاب من الخندق فقلت لهم : انى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ، وانى قد رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده . فان ظهر محمد على قومنا كنـا عنـد النجاشى ، فلأن نكون تحت يديه أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم الا خير . قالوا : ان هذا لرأى قلت : فاجمعوا له ما يُهدَى اليه . وكان أحب

---

(١) عربيدا : الكثير العربدة أي سوء الخلق والاذى · (٢) لج في غيه : تمادى في ضلاله ·

ما يهدى اليه من أرضنا الأدم[١] ، فجمعنا له أدما كثيرا ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه . وانا لعنده اذ جاء عمرو بن أمية الضَّمْرى من قبل رسول الله ، قد بعثه اليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه . فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى ، لو قد دخلت على النجاشي وسألته اياه فأعطانيه فضربت عنقه ، رأت قريش أننى أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد ..

« فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحبا بصديقى ! أهديت لى شيئا من بلادك ؟ قلت : نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيرا ، ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه !!

« ثم قلت : أيها الملك ! انى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ..

« فغضب ، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره . فقلت : والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لقتله ؟! فراعنى ما سمعت وسألته : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك ياعمرو ! أطعنى واتبعه ، فانه والله لعلى الحق ، وليَظْهَرَنَّ[٢] على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . ثم بسط يده فبايعته على الاسلام »

***

أما رحلاته الى غير الحبشة فالذى لا شك فيه أنه قد رحل الى الشام وبيت المقدس ، وحمل اليهما بضاعة من اليمن والحبشة والحجاز ، ولكن الذى تحيط به الشكوك رحلة له الى مصر ، يوشك ــ لولا ما فيها من الخرافة ــ أن تكون أقرب الرحلات الى التصديق ، لأن جهله بمصر أدعى الى الشك من بعض الخرافات ، فان لم تكن رحلة اليها فعلمٌ بها على الأقل يساوى العلم بالمشاهدة والاختبار

---

(١) الأدم : والادام وهو ما يؤتدم به ، أي يجعل مع الخبز فيصلحه ويطيبه . (٢) ليظهرن : ليغلبن عدوه .

وخلاصة هذه الرحلة ، كما تناقلها مؤرخو العهد ، أن عمرواً كان يرعى ابله وابل أصحابه فى جبال بيت المقـدس ، تنوبا[1] بينه وبين أولئـك الأصحاب . فبينما هو يرعى اذ أقبل اليه شماس يكاد يهلك من العطش ، فسقاه عمرو حتى روى ، وتركه ينام مستريحا الى جواره ، وانه لنائم اذ خرجت عليه حية عظيمة ، فقتلها عمرو قبل أن تصل اليه . فاستيقظ الشماس وشكره وقبّل رأسه ، وقال له : لقد أحيانى الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية ، فكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : أرجو أن أشترى بعيرا فتكون لى ثلاثة أبعرة ، فسأله الشماس : كم دية[2] أحدكم بينكم ؟ فأجابه عمرو : انها مائة من الابل .. فقال الشماس : لسنا أصحاب ابل ، نحن أصحاب دنانير . فكم تكون الدية بالدنانير ؟ قال : ألف دينار

عند ذلك أنبأه الشماس أنه غريب فى بيت المقدس ، قدم اليه وفاء بنذر قديم ، وسيعود الى اسكندرية بلده ، وعليه عهد الله لئن صحبه اليها ليعطينه ديتين ، لأن الله تعالى قد أحياه به مرتين

وسأله عمرو : كم يكون مكثه فى هذه الرحلة ؟ فأخبره الشماس أنه شهر ، ينطلق فى ذهابه عشرا ، ويقيم بالاسـكندرية عشرا ، ويعود فى عشر

فانطلق عمرو وصاحب له حتى انتهوا الى الاسكندرية ، فرأى من عمارتها وثروتها ما أعجبه ، ووافق دخوله اليها عيداً يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم يترامون بكرة من ذهب ، ويحفظون فيما اختبروه منها أن من وقعت فى كمه لم يمت حتى يملك عليهم . فلما جلس عمرو والشماس على مقربة من ملعب الكرة ، أقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فتعجب القوم لأنها لم تكذبهم خبرها فى مرة من المرات ، وتساءلوا : أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟

ثم حدّث الشماس قومه حديث انقاذه على يدى عمرو ، فجمعوا له المال الذى وعده به ، وردّه محروسا مكرما الى أن بلغ أصحابه

---

(١) نوبا : مفردها نوبة وهي المرة . (٢) دية : حق القتيل وهو مال يعطى ولي القتيل بدل النفس .

تلك خلاصة القصة التى تناقلها المؤرخون عن رحلة عمرو الى مصر قبل اسلامه ، وهى قصة مريحة فى تلفيقها ، لأن القارىء لا يتعب فى الاهتداء الى مواضع التلفيق منها . فلا يخفى على قارىء من قراء العصر الحاضر موضع التلفيق من حكاية الكرة ، ولا موضع المبالغة من حكاية الدنانير . وشفاعة القصة الوحيدة أنها تروى لنا مدخل عمرو مصر على أقرب الوجوه أن يكون هو الوجه الصحيح ، وهو النظر الى شعبها وحكومتها وعمارتها ومجمل أحوالها فى صحبة شماس يريه من أسرار ذلك جميعه ما لا يراه فى صحبة رجل غيره ، اذ كان الشماسون يومئذ أعرف الناس بحقائق الخلاف بين الحكومة والكنيسة وبين شُعَب الكنيسة فى داخلها ، وكان عمرو خليقا أن يعرف منه مصر تلك المعرفة التى هونت عليه الهجوم على فتحها بذلك العدد القليل من الجند ، وتلك العدة القليلة من السلاح

الا أن هذه القصة على أية حال ليست مرجعنا الوحيد فى العلم بزيارة عمرو للديار المصرية ، فقد روى الكندى أنه كان يحمل التجارة اليها كما كان يحملها الى بيت المقدس والشام

والغريب حقا ألا يكون عمرو قد زار مصر فى جاهليته مرة أو مرات ، ويتجاوز حد الغرابة أن يكون قد وصل الى تخوم مصر تاجرا ومقاتلا ولم يسمع من أخبارها الوافية ما فيه غنى عن الزيارة !!

فلا شك أنه قد علم من أخبارها فى جاهليته وبعد اسلامه شيئا غير قليل ..

***

وفى وسعنا على الجملة أن نتخيل حياة عمرو فى الجاهلية على النحو الذى وصفته لنا حكايات الرحلة الى الحبشة والشام ومصر ، بما يتخللها من أفانين الاختراع والتزويق ، فلن تكون على نحو غير النحو المعقول من تلك الحكايات بعد اخلائها من الأخلاط التى لم تخل منها قصة قديمة من قبيلها

وقد ظهرت الدعوة المحمدية وعمرو بن العاص يعيش فى الحجاز هذه المعيشة ، أو يضرب فيما حوله على النحو الذى رأيناه ..

فكيف كان لقاؤه الأول للاسلام ؟ وكيف جاوب هـذا الرجل تلك الدعوة الطارئة عليه ؟

أوجز ما يقال أنه جاوبها كما ينتظر أن يجاوبها رجل مثله فى مثـل طبيعته وعمله وخبرته بما حوله

جاوبها على سُنة الحيطة العملية ، التى لا تقدم على الأمر الا اذا زالت جميع الموانع من طريقه ، وتبينت دواعى الاقبال عليه ، فعـارض الاسلام فى حياة أبيه ، لأنه كان يعتز باسمه ويعتز بالعصبية التى تعلق بها جميع فخره ، أو جميع سلواه من حطة[1] نسبه الى أمه

ومات أبوه ، فظل يعارض الاسلام لبقية أمل عنـده فى غلبة قريش واخفاق هذه الدعوة الواغلة[2] عليها

وانهزمت قريش مرة بعد مرة ، فلم ييأس من رجعة النصر اليها ، ولم يستسلم لأمله فى انتصاره ، بل فكر فى الحبشة يلوذ بها وينتظر العاقبة فيها ، فيستبقى مودة قريش اذا انتصرت ، ولا يصاب بهزيمتها اذا هى أطبقت عليها الهزيمة ، ويأمن على نفسه فى الحبشة وعند صاحبه النجاشى ما استقر به المقام فيها

لكنه لقى النجاشى فاذا هو صديق للنبى العربى ، لا يُغضبه ولا يفرط فى رسله ودعاته .. !

ويجوز أن النجاشى قد أحسّ صدق النبى وعلم ما بين الاسـلام والمسيحية من المقاربة والمناسبة ، فاستنكر أن ينصر ديانة الأوثان على ديانة التوحيد !

ويجوز أنه نظر الى الدعوة النامية نظرة حكمة وسداد ، فأبى أن يناهض صاحبها وهو موشك أن يسود الطريق بين الحبشـة ودولتى الفرس والروم ، وأن يشرف على مسالك التجارة بين أقطار العالم المعمور وعلى كلتا الحالتين ليس هو بالعون لعمرو فى تربصه بالاسلام وكيده

---

(١) حطه : بكسر الحاء : نقصان المرتبة . (٢) الواغلة : الواغل : الداخل على القوم في شرابهم من غير أن يدعى .

لنبي الاسلام من قريب ومن بعيد !

وليس عمرو — في حيطته العملية — بالذي يحارب قضية تؤيدها هذه الطوالع في بلادها وغير بلادها ، ولا هو بالذي ينصر قضية لقريش قد خذلتها هذه الخواذل ، وحاق بها الفشل من نواحيها ، وذهبت مولّية تمعن في توليها ولا تؤذن باقبال ..

هنا تفتح الحيطة سبيل التأمل والتفكير .. !

ومن دأب أصحاب هذه العقول أنهم يستنفدون أسباب الحيطة أولا ، ثم يتأملون ويفكرون ، فلا يمنعهم مانع أن ينفذوا الى اللباب ، وأن يدركوا ما هم أقدر على ادراكه من الآخرين ، لولا ما كان يعوقهم من طبيعة التربص والانتظار . واذا أدركوا ، فهم كذلك انما يدركون على ديدن(١) الحيطة والموازنة بين الأمور والمقابلة بين طريق وطريق .. فما باله لا يفكر في هذا الاسلام الذي لبث من قبل معرضا عنه مصراً على إبائه ؟..

ألا يجوز أن يكون خيرا وأبقى ؟ بلى هو خير وأبقى ، لأنه يكفل حياة الدنيا والآخرة ، ويعوض العرب عن ضنك العيش ، فلا تكون قسمتهم دون قسمة الفرس والروم ، وهم أصحاب العيشة الرخية في هذه الحياة الدنيا

ففيه مرضاة للعزة العربية ، ومرضاة للحيطة ، ومنفس للأمل فيما بعد الموت ، وفيه المحيص(٢) حيث لا مَحِيص

أيفهم من هذا أن عمروا لم يسلم عن يقين وخلوص نية ؟..

كلا ! بل يفهم منه أنه أسلم كما ينبغي لصاحب هذه الطبيعة أن يسلم أو يؤمن بعقيدة من عقائد الفكر والروح

فالاسلام لا يمنع اختلاف الطبائع وأساليب التفكير ، ولا يستلزم أن يكون طريق الناس الى فهم العقيدة واحدا لا تفاوت فيه

ومن المستحيل أن يكون الرجل مطبوعا على الحيطة دون أن يكون لذلك الطبع أثر في اسلامه ، أو يكون مطبوعا على الشك والتردد ثم

---

(١) ديدن : العادة والشأن .

(٢) المحيص : المحيد والمهرب .

يخلو منها ساعة تفكيره فى التدين والاعتقاد ، أو يكون شجاعا ويسلم اسلام الجبان ، أو جبانا ويسلم اسلام الشجاع .. !!

فاذا أسلم رجل كما ينبغى لطبعه وخلقه ، فقد أسلم اسلامه الصحيح ، ولا عجب أن يخالفه آخرون فى دواعيهم التى جذبتهم الى الاسلام ، فانما العجب أن يتفق الناس وهم مطبوعون على اختلاف !

ومن سيرة عمرو بعد اسلامه نعلم أنه كان يتعبد ، ويتصدق ، ويستغفر من ذنوب وقع فيها ، ويقيم الصلاة ، ويسرد الصوم ، ويعيش بين ذويه مسلما وكلهم مسلمون ، وأدركته الوفاة فبكى لما أضاع من أيامه فى جمع الحطام[1]، وود لو يأخذه منه من يحمل وزره ، وهو هنا أيضا يستقبل الموت استقبال المسلم الذى لا شك فى اسلامه ، والا لكان رضاه بترك المال لذويه أولى من أسفه لجمعه وحفظه . ولكنه كذلك لم يخرج عن طويّة طبعه الذى لا حيلة له فيه ، فهو يأخذ بالأحوط فى حفظ المال ما قدر على حفظه ، ولا يضيعه الا وهو قادر على تضييعه ناجيا من وزره ، آملا أن ينجو من حسابه !

***

مسلم لا شك فى اسلامه ، ولا شك فى طبعه ، ولا شك فى اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعا فى كل دين من الأديان ورأى من الآراء

فلما فتحت له الحيطة باب التفكير فى الاسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئا من عقابيل الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها

قال وقد اعتزم لقاء النبى عليه السلام ما فحواه : « فلقيت خالدا فقلت : ما رأيك ؟ قد استقام المَنْسِم ، والرجل نبى . فقال خالد : وأنا أريده . قلت : وأنا معك ... وقال عثمان بن طلحة : وأنا معك ... وكنت أسنّ منهما ، فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يُغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما . فأضمرت أن أبايعه على ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدى ، فقال عليه السلام : مالك يا عمرو ؟ قلت : أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . قال : ان الاسلام

---

(١) الحطام : ما تكسر من اليبس ، وحطام الدنيا ما فيها من مال يفنى ولا يبقى .

والهجرة يَجُبّان[١] ما كان قبلهما . فبايعته ، والله ما ملأت عينى منه وراجعته بما أريد حتى لحق ربه ، حياء منه »

وقد كان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة على أرجح الأقوال ، ويؤخره بعضهم الى ما بعد فتح مكة بزمن وجيز .

***

ولقد كانت رحابة صدر النبى عليه السلام تَسَع الناس جميعا ، ولا تضيق بأحد من مختلف الطوائف والطباع : سُنّة النبى الكريم الذى يدعو الناس جميعا ، ولا يخص منهم فئة دون فئة ولا خليقة دون خليقة ، فكان يتقبلهم مرحّبا بهم مشجعا لهم راجيا أحسن الرجاء فيهم ، كلاً وما فُطر عليه ، وكلاً وما تؤهله له فطرته وشأنه . وقلّما ذهبت هذه السماحة سدى فى نفس مسلم أقبل على الاسلام ، سمح الاقبال أو مشوب السماحة بشىء من عقابيل الجاهلية . فكان أول أثر من آثار هذا الكرم النبوى أن يتسامى المسلم الى المنزلة التى رفعه ذلك الكرم النبوى اليها ، ومنهم من كان يستكثر الثقة الرفيعة التى ظفر بها فيعمل على استحقاقها والمحافظة عليها ، ويشفق[٢] أشد ما يشفق أن يداخل النبىّ طائف من الظن بصدق نيته وخلوص إيمانه

وطالما أشفق عمرو بن العاص هذا الاشفاق ، وود لو تخلص له ثقة النبى على أحسن ما يتمناها ، لأنه ما زال يستكثر الثقة التى ظفر بها ، ويرى فيها من كرم النبوة أكثر مما يراه من حقه واستحقاقه .

فلما رشحه عليه السلام لبعثة يسلم منها ويغنم ، أسرع قائلا : ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة فى الاسلام !

وظل الى ما بعد وفاته عليه السلام بسنين عدة يسائل نفسه عن تولية النبى له : والله ما أدرى أكان ذلك حبا لى أم استعانة بى !

ونخال انه لم يكن يملأ عينه من النبى كما قال ، حذرا من هذا الذى يساور[٣] نفسه ان يبدو من لحظه ، فتلتقى به نظرة من تلك النظرات النبوية النفاذة على ما بها من الطيب والسماحة .. وان طموحه الى

---

(١) يجبان : جب الشيء قطعه · والتوبه تجب ما قبلها أي تمحو الكفر والمعاصي · (٢) يشفق : يخاف · (٣) يساور : ساور خصمه : واثبه وقاتله ·

ثقة النبى لهو الذى جعله يقول كما قد قال فى بعض أحاديثه : « ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت » !

الا ان هـذا القلق الذى كان يعتاده[١] من حين الى حين انما كان مبعثه ما ركب فى طبعه من ظنون الدهاء ودخيلة الحيطة ، أو المساءلة الباطنية التى لا تريح أصحابها ممن جبلوا على غراره[٢] .

أما مسلك النبى معه فقـد كان قوامه ذلك الأدب الالهى ، الذى لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولا ينتظر من نفس الا ما هى خليقة أن تعطيه ..

ولقد عرفه عليه السلام كما عرف غيره من الصحابة جد عرفانه

عرفه وعلم « وسعه » الذى يكلفه ، فعلم انه وسع كبير فيما يحسن وفيما يسىء ، وان فى وسعه هـذا خيرا للاسـلام هو وشـيك ان يستعين به عليه

وقد ندبه لأمور لا ينـدبه لها الا من كان على علم واف بالرجـل وما غلب عليه من ظاهر خصاله واستسر فى مكنون خلده[٣] .

ندبه لغزوة ذات السلاسل ، ولهدم الصنم « سُوَاع » ، ولدعوة جَيْفر وعَبَّاد أميرى عُمَان إلى الاسلام .. ثم أقامه على الصدقة فى تلك الامارة ، فاذا هو عليه السلام قد وعى كل خاصـة من خواصـه التى ظهرت فى تاريخه اجمع : لأنه اختار له المساعى التى توافق رجلا معتدا بالنسب ولا سيما نسب أبيه ، محبا للرئاسة وتدبير المال ، لبقا فى الخطاب ، قديرا على الاقناع ، حذورا فى موضع الحذر ، جريئا فى موضع الاجتراء

كان أخوال العـاص بن وائل من قضاعة ، ونمي[٤] الى النبى عليه السلام انهم يتأهبون للزحف على المدينـة ويعيثون فى الطريق فندب لهم عمروا يتألفهم ان استطاع ، فان لم يستطع فهو بأن يزجرهم أولى من أن يجىء زجرهم على يد غيره . وأرسله فى سرية من ثلاثمائة رجل

---

(١) يعتاده : يلم به · (٢) غراره : مثاله وطريقته · (٣) خلده : باله ونفسه · (٤) نمي الى النّبي : بلغه ·

سار بهم حتى بلغ ماء يسمى السلاسل ، فاستطلع ، فاذا القوم نافرون مصرون على جفاء ، واذا بهم أكبر عددا من أن يتصدى لهم بجيشه الصغير . فاستمد النبى عليه السلام ، فأمده بكتيبة على رأسها أبو عبيدة بن الجراح ، وفيها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وهم أجل الصحابة وأقربهم الى خلافة النبى عليه السلام ، وأمرهم أن يطيعوه اذا أبى عليهم الطاعة . فبلغه بذلك رضاه من الامارة !

وانهزمت قضاعة منذ الوقعة الأولى ..

فلم يغتر عمرو بالنصر ، ولم ينس ذمة القرابة واستبقاء الرحم على ما يبدو من مسلكه الذى جمع به بين المصلحة والمودة . فقد أراد جيشه أن يتعقب المنهزمين ، فنهاهم عن ذلك ، وذهب جماعة من الجيش يصطلون ليلا ، فتوعدهم لئن فعلوا ليقذفن بمن أضرم نارا فى النار التى أوقدها ، ووسطوا له أبا بكر فأصر على رأيه ووعيده !

ثم شكوه إلى النبى فكان فى عذره بلاغ بيّن ، قال : كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد ، وكرهت أن يوقد المسلمون نارا فيرى عدوهم قلتهم فيكر عليهم بعد فراره

***

أما بعثته الى سُوَاع ، فقد كانت لهدم ذلك الصنم الذى عبدته هُذَيل فى الجاهلية ، وكان على مقربة من مكة ، يقصدونه للحج والعبادة وقضاء النذور ، وكانت له خزانة يودع فيها ما يودع من النذور ومن المال المحجر[1] الذى وكل به بنو سهم قبل الاسلام ، فكان اختيار زعيم من بنى سهم فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك البعثة التى لا حرب فيها

سأله سادن الصنم : ماذا تريد ؟

قال : أمرنى رسول الله أن أهدمه

قال السادن[2] : انك لا تقدر على ذلك

فتقدم عمرو الى الصنم وكسره ، وأمر أصحابه بهدم الخزانة

---

(١) المال المحجر : المستور الممنوع المحرم · (٢) سادن . الحاجب المتولي أمر الكعبة ·

فاذا هى خاوية !

فأقبل على السادن يسأله : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله رب العالمين

***

وكانت رسالته الى عمان أشبه الرسائل به وأولاها بانتدابه ، لأنها كانت مجالا مستجمعا لكل ما فطر عليه من اللباقة والدهاء والجرأة وحب الرئاسة والثراء

كتب النبى عليه السلام إلى جَيْفَر وعبَّاد ابنى الجُلَنْدى كتابا يدعوهما فيه الى الاسلام ، قال فيه بعد السلام على من اتبع الهدى : « أما بعد ، فانى أدعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ؛ وإنكما ان أقررتما بالاسلام ولّيتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما .. »

فحمل الكتاب عمرو بن العاص ، وكان عند ظن النبى به فى مقدرته ودهائه ، فبدأ بأصغر الأخوين عباد ، لأنه لم يكن على ولاية الملك ، فهو أقرب الى حسن الاصغاء ، فاحتفى به وأصغى اليه ، ووعده أن يوصله الى أخيه ويمهد له عنده

ثم لقى جيفرا فاذا هو أصعب مراسا من عباد . فطفق يسأل عمروا عن نفسه وعن أبيه : هل أسلم من قبله أو مات على غير الاسلام ؟ وسأله عما صنعت قريش ، فلخص له موقفها أوقع تلخيص حيث قال : « اما راغب فى الدين واما مقهور بالسيف » .. ثم عقب بكلام وجيز فيه وعد ووعيد ، فقال له : « وأنت ، ان لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل . فأسلم تسلم ، فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الاسلام ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، وفى هذا ، ومع سعادة الدارين راحة من القتال »

وأتبع هـذا الوعيـد بما يوائمه من قلة الاكتراث لجيفر حين لج هـذا فى عنـاده ، وأعلنـه بلقـاء المسـلمين دون أرضـه وصـدهم عن حوزة ملـكه ، فانصرف وقد ألقى فى روع[1] عبـاد ما ألقى ، فاذا بعبـاد قد أتم له ما بدأه من النـذير والنصيـحة ، واذا بالأخوين ومن تبعهما مستجيبون للاسلام ..

وكان جزاء عمـرو على هـذا التوفيـق أن عقـد له النبى ولاية الزكاة ، يأخذها من الأغنيـاء ويفرقها على الفقراء ، وهو عمل حبيب الى طبعه لمـا فيه من تدبير المـال ومشـابهة للمهمة التى تولاها زعماء بنى سهم فى الجاهلية ، وله منهـا نصيب يرضيـه ، لأن الزكاة كما نص القرآن الـكريم فى الصـدقات : « انما الصـدقات للفقـراء والمسـاكين والعـاملين عليهـا والمؤلفـة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين[2] وفى سبيل الله وابن السبيل .. »

فله منها نصيب العاملين ..

* * *

فاذا كان النبى عليه السلام قد اختـاره لتلك المهام المرتبة ، فانما اختـاره وهو يعرف من اختـار ، ولم تكن مرضـاته كل ما توخاه عليه السلام بل هى مرضاته من طريق الخير لجميع المسلمين

وقد أبقـاه عليه السـلام على ولاية الصـدقة حتى توفاه الله ، فلم يشـأ أبو بكر رضى الله عنه أن يعزله عنهـا الا برأيه ومرضـاته ، ايثـارا للسـنة التى التزمها من اقرار كل ما أقره النبى عليه السـلام فى حيـاته . وألا يحل عقالا عقـله رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل عقالا لم يعقله » كما أوصى عمرواً نفسه يوم أبلغه نعى النبى الكريم ..

ولم ير عمرو قط فى حزن كالحزن الذى غمره يوم ورد اليه ذلك الـكتاب .. فبكى طويلا ، وجلس يتلقى العزاء كما يتلقاه فى أقرب الناس اليه ..

---

(١) روع : بضم الراء : القلب والذهن • (٢) الغارمين : الغارم هو الذي يلتزم ما ضمنه وتكفل به •

ثم جاءت حروب الردة ، فكان موقفه منها الموقف المنتظر من مثله كيفما نظرنا الى أسباب تلك الحروب ، فقد كانت ثورة على الاسلام وثورة من البادية على الحاضرة ، وثورة من القبائل على قريش ، وثورة على الزكاة من فرائض الدين خاصة .. وان أحق الناس أن يبغض تلك الردة لهو عمرو المسلم القرشى العامل على الزكاة

فلما كان فى طريقه من عمان الى المدينة ، نزل ببنى عامر ، فاذا بزعيمها قرة بن هبيرة يهم بالردة ويقول له : « يا عمرو ! ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة[1] ، فان أعفيتموها فستسمع لكم وتطيع ، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم » . فلم تأخذه فى الأمر هوادة ، بل اشتد فيه كما اشتد أبو بكر ، وصاح بزعيم بنى عامر : « ويحك ! أكفرت ياقرة ؟ تخوفنا بردة العرب ! فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حَفْش أمك » أى فى خبائها !

ثم أبى الا أن ينبىء الخليفة بما سمع من قرة ، غير مبق منه بقية يسترها مخافة عليه . فلما جىء بالرجل مأسورا ، وانطلق عمرو يروى ما سمع منه ، ووصل إلى ذكر الزكاة صاح به الرجل : مهلا يا عمرو . فقال : كلا والله ! لأخبرنه بجميعه

وكان هذا الموقف منه أول ما استحق به الثقة والرعاية فى عهد الخلافة

* * *

وواقع الأمر أن ثقة الخليفة الأول كانت مكفولة لكل من تولى عملا للنبى عليه السلام ، ومات النبى وهو راض عنه

فلما وقف عمرو من حروب الردة ذلك الموقف الذى حمده أبو بكر خاصة ، لاشتداده فى قمع هذه الحركة الخبيثة ــ أصبح عمرو أقرب من المقربين فى العهد الجديد ، ونظر أبو بكر فيمن يوليه حرب قضاعة ، فلم ير أمامه خيرا من صاحبه عمرو ، وقد تولى حربها قبل ذلك فى عهد النبى ، وكان الخليفة الأول يومئذ من جنوده .. فأبلى

---

(١) الاتاوة : المال الذي يؤخذ على الارض الخراجية .

فى تأديب قضاعة أحسن بلاء ولم يرجع عنها الا وقد سلمت بحق الزكاة وثابت الى شرعة الاسلام

والظاهر من بعض الروايات ان عمرواً تولى لأبى بكر أعمالا أخرى تدل على ثقة الخليفة به واعتماده عليه . ففى رواية الحافظ أبى عبد الله شمس الدين محمد الذهبى انه « قدم دمشق رسولا من أبى بكر الى هرقل » ويغلب على الظن — ان صح نبأ هذه الرسالة — انه انما أوفد من قبل الخليفة لاستطلاع حال العرب فى طريق الشام ، مستنفرا اياهم الى حرب الروم اذا وقع المتوقع من الحرب بينهم وبين المسلمين ، فذلك أشبه المهام بما يندب له عمرو بن العاص ، وليس فى تواريخ الافرنج أو العرب ما يعزز نبأ رسالة من الرسائل حملها الى هرقل من أبى بكر الصديق

ثم ترامت أخبار الأهبة الكبيرة التى تأهب بها هرقل للقضاء على الدولة الاسلامية فى نشأتها ، ونمى الى الخليفة انه جمع مائة ألف أو يزيدون على مقربة من حدود فلسطين ، فجرد جيشا من ثقاة المسلمين الذين لم يختلط بهم فى بادىء الأمر أحد من أهل الردة ، وعقد لواءه لخالد بن سعيد بن العاص — أخى عمرو لأمه — وأمره أن يستعين بالعرب فى طريقه ، وأن ينزل بتيماء مترقبا لا يبرح مكانه الا باذنه ، ولا يقاتل الا من بدأ بقتاله ، ولعله أراد بتجريد هذا الجيش تأمين الطريق من انتقاض أهل البادية حينما سمعوا بتحفز الروم للهجوم على بلاد المسلمين ، ثم استطلاع الخبر وتعويق حركة الروم حتى يجمع لهم كفايتهم من الجند والقواد

وقد كره عمر بن الخطاب ولاية خالد : « لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب » ، فسعى عند الخليفة فى عزله ، فعزله وعقد لواءه ليزيد بن أبى سفيان

هنالك جاشت[١] مطامع عمرو ، فسمت به همته الى قيادة الجيوش الاسلامية التى تصد الروم وتفتتح الشام ، ورأى ان خالد بن الوليد

---

(١) جاشت : جاشت القدر : غلت ، والبحر بالامواج هاج واضطرب .

صاحبه القديم تكفل بدولة الأكاسرة ، فليكن هو اذن كفيل المسلمين بدولة القياصرة ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يبرم الرأى فى مسألة القيادة العليا وهو غائب عنها ، فلما أخذ الخليفة فى تجريد الجيوش وعقد الألوية لها ، ذهب الى عمر بن الخطاب فقال له متلطفا : « يا أبا حفص ! انت تعلم شدتى على العدو ، وصبرى على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلنى أميرا على أبى عبيدة ، وقد رأيت منزلتى عند رسول الله ، وانى أرجو أن يفتح الله على يدى البلاد ويهلك الأعداء »

فأجابه عمر بصراحته الصادعة[1] :

« كلا ! ما كنت لأكذبك ! وما كنت بالذى أكلمه فى ذلك ، فانه ليس على أبى عبيدة أمير ! ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال فيه : أبو عبيدة أمين الأمة » . فلم ييأس عمرو من اقناعه بعد ما سمع ، وراح يقول له : « ما ينقص من منزلته اذا كنت واليا عليه » . فانتهره عمر قائلا : « ويلك يا عمرو ! انك ما تطلب بقولك هذا الا الرئاسة والشرف ، فاتق الله ولا تطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى »

واستقر رأى الخليفة على البعوث وقوادها ، فأنفذ أبا عبيدة بن الجراح الى حمص ، ويزيد بن أبى سفيان الى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة الى وادى الأردن ، وعمرو بن العاص الى فلسطين ، وخشى ان يقع الخلاف مرة أخرى على الرئاسة ، فقال له وهو يودعه : « .. كاتب أبا عبيدة ، وأنجده اذا أرادك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته » وأوصاه أن يذهب فى طريق العقبة الى فلسطين

ويقدر عدد الجيش الذى قاده عمرو بتسعة آلاف مقاتل ، معظمهم من أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب ، وعدد الجيوش الاسلامية كافة بسبعة وعشرين ألفا من الفرسان والمشاة

وكان ذلك فى أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة ، على القول

---

(١) الصادعة : القاطعة .

المشهور ، أو فى أوائل السنة التى بعدها ، على قول آخرين

* * *

الا ان دهاء عمرو أنزله من هـذه الجيوش منزلة المشورة والمراجعة ، وان لم ينزله بينها منزلة الرئاسة العامة والقيادة العليا .

فلما اقترب جند المسلمين من مواقعهم التى قصدوا اليها ، سمعوا بأهبة العدو ، فاذا هو يزحف اليهم فى جحافل جرارة تبلغ عدتها مائة وخمسين ألفا ، من حاملى الشكة السابغة والعدة الكاملة . فترددوا وتشاوروا وكتبوا الى عمرو بن العاص والى الخليفة ، فوافاهم الجواب منهما معا بالاجتماع للقاء الروم فى موقع واحد ، وكان رأى عمر أن يتراجعوا الى اليرموك ، وينتظروا جيوش الروم هناك ..

وأقبل خالد بن الوليد يطوى الصحراء بأمر الخليفة لنجدة القواد من اخوانه المبعوثين لحرب الشام ، فألقاهم متفرقين لا يجتمعون على قيادة ، واقترح عليهم ذلك الرأى الذى تواترت به الروايات ، وهو تداول الامارة بينهم ، وأن تكون الامارة اليه فى اليوم الأول ، وقد وقع فى تعيين تاريخه خلاف كبير

قيل ان عدة المسلمين يومئذ لم تجاوز خمسين ألفا ، وارتفع الطبرى بعدة جيش الروم الى مائتين وأربعين ألفا ، وهبط بها بعضهم الى أقل من نصف هذا العدد ، وليس هو بقليل

وكانت ملحمة الرجاء المستميت ، واليأس المستميت ، وتنادى أبطال المسلمين على عهد الموت لا يرجعون إلا منتصرين ، أو يقعوا مكانهم مستشهدين ، وتزمل[1] اليائسون من الروم فى أماكنهم ينتظرون القتل ايثارا له على عار الفرار ، فانجلى النهار عن هزيمة اليأس وغلبة الرجاء ، واشتهرت هـذه المعركة باسم معركة أجنادين ، على اختلاف فى الموقع والتاريخ لا يعنينا هنا أن نتقصاه

ويؤخذ من المصادر المختلفة ان عمروا قد اشترك فى أكثر حروب

---

(١) تزمل : تزمل الرجل بثوبه تلفف وتدثر به .

الشــام بين دمشق وفلسطين ، وان شجاعته فيهـا جميعا كانت كفاء[1] دهائه وحزمه ، فلم يكن يرضى لنفسه مقاما فى الشجاعة دون مقـام أحد من القواد أيا كان حظه من سمعة البـأس والاقدام . وذكروا فى وصـف وقعـة اليرموك ان الروم هجموا فى بعض حمـلاتها بقضهم وقضيضهم[2] على فريق من المسـلمين ، فانكشـف المسـلمون وولى صـاحب رايتهم ، فلحق به خالـد بن الوليـد وعمرو بن العـاص يتسـابقان لأخذها من يده ، فأخذها عمرو واندفع بها يقاتل المتقدمين من الروم حتى كر اليه المسلمون وتجمعوا حوله ، فأدبر الروم منهزمين

* * *

وكأنما شـاءت الأقدار للخليفة الأول ـ أبى بكر الصديق ـ أن يفارق الدنيـا وقد اطمأن الى غزوة الروم ، التى اضـطلع[3] بتبعـاتها المرهوبة وهو عظيم الهمّ بها ، شـديد القلق من عواقبهـا . فانتهت أيامه بهذا النصر المؤزر الذى أوشك أن يكون حاسما كل الحسم فى معارك الشام وفلسطين

وأسـلم الزمام إلى خير يد تتلقى إليها الأزمّة من بعده ، فبويع لعمرو بن الخطاب بالخلافة والنصر مقبـل ، والحوادث مواتيـة لمن يتولاها بالحزم الذى هو أهله ، وبالروية التى كانت قرينة لحزمه

وكان عمر بن الخطاب من أعظم الناس ثقة بأبى عبيدة بن الجراح ، لمـا سـمع من تزكية النبى له ، واختبر من أمانتـه وايمانه فى طويل الصحبة بين الرجلين العظيمين . وكان يبلغ من هـذه الثقة انه هم أن يبـايعه بالخلافة فى عجلة الموقف بعد وفاة النبى عليه السلام ، وانه كان يقول وهو يجود بنفسه : « لو كان أبو عبيدة حيا لعهدت اليه » .

فلم يلبث غير قليل أن وضع هـذه الثقة فى موضعها ، فأسـند اليه القيـادة العامة فى حرب الروم ، واعتمـد على رأيه فيما يأتيـه من اخبار ذلك الميدان الفسيح

والظاهر ان توحيـد القيـادة كان أعون على توزيع العمـل بين

---

(١) كفاء : مثل • (٢) بقضهم وقضيضهم : أي بكبارهم وصغارهم •
(٣) اضطلع بالامر : نهض به وقوي عليه •

القواد فى أنحاء الميدان كله ، فاستقل عمرو بن العاص بغزوات فلسطين وما جاورها ، وتم على يديه فتح سواحلها وحصار بيت المقدس ومنازلة صاحبها « اريطيون » ، بالجرأة تارة ، وبالمكيدة تارة أخرى ، وكلتاهما من الصفات التى اشتهر بها عمرو بن العاص

واتفقت المصادر على التنويه[١] ببلاء عمرو فى هذه الغزوات ، فوضح منها جميعا انه لم يكن يألو[٢] ذلك العمل الجسام الذى وكل اليه جهدا من شجاعته ولا من تدبيره ، وربما جشمته[٣] موارد التدبير مخاطر لم يتجشمها فى موارد القتال !

من أمثلة ذلك ما رواه ابن الكلبى حيث قال : « لما فتح عمرو ابن العاص قيسارية سار حتى نزل غزة » فبعث اليه علجها أن ابعث الى رجلا من أصحابك أكلمه ، ففكر عمرو وقال : ما لهذا أحد غيرى ! وخرج حتى دخل على العلج فكلمه ، فسمع كلاما لم يسمع قط مثله افقال العلج : حدثنى ، هل فى أصحابك أحد مثلك ؟ قال : لا تسأل عن هذا ، إنى هين عليهم إذ بعثوا بى اليك ، وعرضونى لما عرضونى له ولا يدرون ما تصنع بى . فأمر له بجائزة وكسوة وبعث الى البواب : اذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . فخرج من عنده ، فمر برجل من نصارى غسان فعرفه . فقال : يا عمرو : قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، ورجع ، فقال له العلج : ما ردك الينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك يسع بنى عمى ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من ان يكون عند واحد ! فقال : صدقت ، أعجل بهم ! وبعث إلى البواب أن خل سبيله . فخرج عمرو وهو يتلفت ، حتى اذا أمن قال : لا عدت لمثلها أبدا . فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له : انت هو ؟ قال : نعم ، على ما كان من غدرك .. » اهـ

وهذه القصة التى أشرنا اليها غير مرة — لا تؤخذ على علاتها

---

(١) التنويه : نوه به : عظمه ، وشهر باسمه وأذاعه . (٢) يألو : ألا يألو : أبطأ وقصر . وما ألوت جهدا أي لم أقصر .

فى تفصيلاتها ، ولا يلزم أن تصح أصولها ولا فروعها ، ولكنها تدل ــ ولو كانت مؤلفة ــ على أشياء قريبة من الحقيقة ، بل لابد أن تكون قريبة منها ، لأن صدق الأخبار عامة لايستقيم ولا ينتظم بغيرها ، فمن تلك الأشياء شهرة عمرو بالدخول فى أمثال هذه المداخل العويصة التى يجرب فيها حيلته كما يجرب اقدامه ، ومنها ان عرب الشام كان فريق منهم على الأقل ينظر الى الحرب بين الروم والمسلمين نظرة العصبية الجنسية ، على ما بينهم من الفارق فى العقيدة ، فلم يعتذروا كذبا حين زعموا بعد هزيمة الروم انهم أكرهوا على القتال فى صفوفهم وهم يودون لهم الهزيمة ، ويتمنون الظفر لاخوانهم فى الأصل واللغة . ومن تلك الأشياء ان عمرواً كان معروفا بين أهل غسان ، فلا يبعد أن يصدق ما خطر لنا عن رسالته الى أنحاء دمشق من قبل الخليفة الصديق ، وانها كانت رسالة الى عرب القبائل الشامية لتحريضها واستطلاع أحوالها قبل الشروع فى قتال الروم ..

وجماع تلك الأخبار التى لا خلاف فى لبابها ــ وان وقع الخلاف على قشورها ــ أن عمرواً كان بطل الغزوة الشامية فى ميدان فلسطين ، وانه ربما كان بطل الغزوة من طلائعها الأولى ، يوم كانت بعد فى طور التأهب والاستطلاع

وليس رأى الخليفة الجديد فى عمرو بمجهول ، فربما كانت ثقته باقتداره واستعداده لعظيمات الأمور أكبر من ثقة أبى بكر الذى تابع فى استعماله سنة النبى عليه السلام ، فعمر بن الخطاب هو الذى قال فيه : « لا ينبغى أن يمشى أبو عبد الله على الأرض الا أميرا » ، وهو الذى كان يقول كلما رأى رجلا يلجلج فى كلامه : « خالق هذا وخالق عمرو واحد » . وهو الذى تبين صواب هذه الثقة فى غزوات فلسطين نفسها ، فجعل يقول لاخوانه : « رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب » ، يعنى اريطيون الذى كانت تصحفه[1] قلة النقط والشكل فى

(١) تصحفه : صحف الكلمة أخطأ في قراءتها وغير لفظها .

الحروف العربية يومئذ الى ارطبون

وما زالت ثقة الفاروق بكفاءة عمرو ودرايته تعظم وتتمكن كلما صحبه التوفيق فى فتح مدينة بعد مدينة ، والغلبة على جيش بعد جيش . حتى فرغ من السواحل والمشارف ، واتجه بعزمه كله الى حصار « ايلياء » أو بيت المقدس حاضرة البلاد

وقد شدد الحصار عليها حتى يئس اريطيون من مقاومتها وفر منها الى الديار المصرية ، وقيل ان بطريقها(١) لم يؤجل تسليمها للقائد العربى الا لأنه أراد أن يكون التسليم بمحضر من الخليفة ، فكتب عمرو يستدعيه ويعلمه برغبة البطريق ، وتم الصلح فى السنة الخامسة عشرة للهجرة بحضور الفاروق

وما هو الا ان سكنت الشام الى الحكم العربى ، وخف الطاعون الذى فشا فى أرجائها بين السنة السابعة عشرة والثامنة عشرة للهجرة ، حتى تطلعت نفس عمرو الى فتح أكبر وأخطر ، ونازعته الى منزلة أشبه به وأجدر : الى فتح الديار المصرية التى يعلم المسلمون من القرآن الكريم انها كرسى فرعون ذى الأوتاد ، ويعلمون من أخبار أيامهم انها درة التاج فى دولة هرقل ، وان الروم لا يدعونها ولو غلبوا عليها ، لأنهم عادوا اليها فانتزعوها من الفرس بعد مقامهم بها اثنتى عشرة سنة ، وفاقا لوعد القرآن ان الروم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون

وهنا تشترك المصادفة والتقدير اشتراكهما فى كل عمل جسام من أعمال التاريخ القديم والحديث !

ترى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال الفاروق لو لم يفاتحه فيه عمرو بن العاص ؟

وترى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال عمرو بن العاص لو لم يكن فاتح فلسطين على طريق مصر ، وكان فاتح دمشق أو فاتح السواد ؟

وترى كيف كان التردد منتهيا بالخليفة لو لم ينته وعمرو يغذ السير فى طريقه الى التخوم المصرية ؟ !

---

(١) بطريقها : البطريك بكسر الباء : القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف جندي .

أفضى[1] الفاتح الجسور بأمله وأمل الاسـلام الى الخليفة ، فاستمع اليه ، وتردد فيه بين ما عرف من كفاية عمرو ، وما عرف من اقدامه على العظائم فى سبيل الشرف والرئاسة

بل تردد فيه بين دواعى السلم ودواعى الحرب ، وهو لا يرى داعية للحرب الا درءا[2] لخطر أو قصاصا من عدوان

وكان أقرب النـاس الى الفاروق يترددون مثله ، ويرون فى طماحة عمرو بن العاص مثل رأيه ، منهم من يخلص فى حذره ، ومنهم من يغار من عمرو أن يكتب هذا الفتح الجليل على يديه !

وفى طليعـة المخلصين حذرا من عواقب هـذا الطموح الجموح ، عثمان بن عفان ، فقد كان يذكر الفاروق بجرأة ابن العـاص ، وانه يرد المهالك فى سبيل طمعه ، وما بالفاروق من حاجة الى تذكير .

أما ابن العاص ، فقد كان أخبر بالخليفة وبمصر من أن تفوته وسيلة الاقناع فى هذا المقام !

انه ليعلم حرص الفاروق على جند المسلمين أن يسفك دم واحـد منهم فى غير خطر واقع أو عدوان محذور

فلتكن غزوته لمصر اذن دفعا للخطر الواقع ، وضمانا لأرواح المسلمين ، ولقد كانت هى كذلك لا مراء

ولم يكن عمرو مغررا بالفاروق[3] ، ولا كان الفاروق ممن يجوز عليهم التغرير ، فانه ألقى الى الخليفة ان « اريطيون » داهية الروم قد فر الى مصر ليجمع فيهـا قوة الدولة الرومانيـة ويكر بها على الشام ، فلا أمان للمسلمين فى فلسطين أو الشام أو الحجاز نفسه وباب هـذا الخطر مفتوح ! ! وانما يوصـد الباب اذا ضربت الدولة الرومانيـة فى مصر ، وامتنع منهـا مدد الجند والمـال والطعـام لتلك الدولة المتداعية ..

فعلم الفاروق انه يستمع الى صـواب ، واستجاب لرأى عمرو وهو بين الاقدام والاحجام ، فأذن له فى المسير ، وأنظره[4] كتابا آخر يأتيه

---

(١) افضى : أفضى اليه بسره : أعلمه به . (٢) درءا : الدرء الدفع .
(٣) مغررا بالفاروق : غرر به : عرضه للهلاك . (٤) أنظره : جعله ينتظر .

منه فى الطريق ، وقال له : « سيأتيك كتابى سريعا ان شاء الله تعالى ، فان أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها ، فانصرف ، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »

* * *

ولا نعتقد ان الفاروق قد ترك الأمر للقرعة المجهولة ، تبرم فيه وتنقض حسب اتفاقها ، ليسلم اليها العنان فى هذا العمل العظيم ، ولكنه أراد أن يستزيد من المشاورة والتفكير ، وأن يشرك معه ذوى الرأى فى التبعة التى هو مقدم عليها . فاذا كف عمرواً بعد ذلك قبل أن يطرق أرض مصر فلا ضير من كفه ، واذا جاءه الكتاب وهو فى أرضها فقد امتنع الرجوع ووجب المسير ، لأن الرجوع عن أرض بعد دخولها يكشف للروم ضعفا من العرب ورهبة من العدو ، ويغريهم بالكرة على الشام ، ويعينهم على جمع الجموع لاستئناف القتال ولو لم يفكروا فيه قبل ذلك ، ويخيف أهل مصر أن يستسلموا للعرب اذا أقبلوا مرة أخرى ، لأن العرب أنفسهم يقدمون على بلدهم بين الشك واليقين

قيل ان كتاب الفاروق أدرك عمرواً فى رفح ، فأغضى[1] عن الرسول حتى بلغ الى مكان من مصر غير مختلف فيه ، فقرأ الكتاب وقال لجنده : لم يلحقنى كتاب أمير المؤمنين حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه . وكذلك التقى التدبير والمصادفة مرة أخرى فى الصفحة الأولى من هذا التاريخ الكبير .

---

(١) أغضى : أغضى طرفه عنه صده ، وأمسك عنه .

فتح مصر

كان الصدام بين العرب والدولة الرومانية قضاء موعودا منذ اللحظة التى نشأت فيها الدعوة الاسلامية وكتب لها البقاء ، لأن الاسلام رسالة تتجه الى أسماع الناس وقلوبهم ، ولأن الدولة الرومانية سلطان قائم يحول بين رسالته وبين الأسماع والقلوب

فلا مناص من التقائهما يوما من الأيام ، على سلام أو على خصام

وهما اذا التقيا على خصام أو على سلام دخل الاسلام مصر مدافعا أو غير مدافع

ويفتح الاسلام مصر على كلتا الحالتين فتح رضوان أو فتح تسليم .. وانما هو كتاب مؤجل الى أوانه المقدور

لمح النبى عليه السلام هذا المصير بلحظ الغيب قبل ان يحين أجله المقدور ببضع عشرة سنة

وكتب الى المقوقس ، عظيم القبط ، يدعوه الى الدين الجديد دعوة أهل الكتاب : « اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبط : يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »

وقد تلقى جواب المقوقس مؤذنا بالأمل ، غير قاطع بالاباء ، يقول فيه كما جاء فى بعض نصوصه : « .. فهمت ما تدعو اليه ، وقد علمت ان نبيا بقى ، وقد كنت أظن انه يخرج بالشام » .. ثم يقول : « وقد أكرمت رسلك . وبعثت اليك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم ،

وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام »

وتعلقت الحوادث بأجلها الموعود

وقال النبى جازما لصحابته الأقربين : « ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلهـا خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . وعلم عليه السلام انه فتح لاينام عنه الغالب ولا المغلوب ، فقال لصحابته : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة »

فما كان من مسلم فى حيـاة النبى عليه السلام ، أو بعد وفاته ، الا وهو يعلم ان مصر مفتوحة للمسلمين على يقين

وانما هو الأوان المحتوم ، فى يوم غير معلوم

وآية ذلك الأوان ان يجىء الخطر من قبـل مصر ، أو يقوم الروم فيها عائقا كؤودا[1] فى سبيل الدعوة

وعمرو بن العاص هو الذى قال انه رأى الآية بعينيـه ، وقال : ان العائق كؤود اذا أجّل ، ميسور التذليل اذا عوجل قبل استقراره

وقالها وهو صادق فى مقاله !

غاية ما هنالك انه رآها بعين العبقرية التى تلمح ما وراء الحجب من بعيد ، وانه فسر الحلم المحقق بوحى الالهام فأحسن التفسير !

لم يكن هو الذى اخترع عزيمة الاقدام على فتح مصر ، فقد كان فتحها فى حكم الواقع المفروغ منه منذ سنين

ولـكنه كان هو الذى أعلن الوقت المقدور ، وأصـاب الاختيار ، واهتدى الى الأوان

ولم يخدع نفسه ، ولا خدع الخليفة ، ولا جازف بالفتح الخطير مجازفة الطيش والجهل بالعقبى ، ولـكنه عنـد من يجهل الحقائق مجازف هجام ! ! وعند من عرف الحقائق كما عرفناها اليوم حاسب دقيق الحساب ، وحالم مطمئن أصدق فى حلمه من الخائف اليقظان !

---

(١) كؤودا : يقال عقبة كؤود : صعبه المرتقى .

أفكان عمرو اذن يعرف الحقائق كما جلاها لنا التاريخ بعد مئات السنين ؟ .. لا ولا جدال ! ..

لم يكن يعرفها مفصلة محصلة كما عرفناها ، وذلك فضله الكبير .

ولكنه أحسها جملة ، فملأته باليقين الذى يمتلىء به العارف بعد التفصيل والتحصيل

ففى حياة عمرو بن العاص حدثت فى مصر ، وحول مصر ، خطوب[١] لن يجهلها مثله ، وان لم يطلع على وصفها المسهب[٢]، كما كتبه المؤرخون من أبناء العصور الحديثة

كان فى عنفوان الرجولة يوم أغار الفرس على الروم ، ففتحوا ما بين بيت المقدس والاسكندرية فى أقل من سنتين

وكان فتى يعقل الدنيا يوم أغار القائد الرومانى نقتاس على الديار المصرية من المغرب ، بجيش لا تزيد عدته على ثلاثة آلاف ، منهم البدو والسودان ، ففتحت له الثغور والمدائن بمواطأة[٣] من أهل البلاد ، ومن بعض الرومان الناقمين على عاهل القسطنطينية .

وكان يزور بيت المقدس ، ويصغى الى حجاجه ورهبانه المقيمين فيه ، فيسمع أخبارا تنم على ما فى مصر من قلق الرعية ، وضعف الرعاة ، واستفحال الشقاق بين طوائف النصارى ، وغضب المصريين من الروم ، سواء منهم الموافقون لهم فى المذهب والمخالفون

وكان يلقى اليهود فى وادى الأردن ، وكلهم مغيظ من الدولة الرومانية ، لما أصابهم على يديها من الذبح والنهب والتشريد ، وفيهم من هو أعلم بمصر وبمداخلها ومخارجها ومواقع الخلل فيها من حكامها الرومان

وحضر غزوات الشام ، وسمع بغزوات العراق ، فعلم ان جيوش الاسلام على قلتها قد غلبت الفرس وغلبت من غلبوهم فى النضال الأخير : غلبت هرقل وهو فى أوج مجده ، فما أحراها أن تغلبه وهو مهيض بعد هزائم الشام وفلسطين ، وقد شاخ وغامت على عقله

---

(١) خطوب : جمع خطب ، وهو الامر العظيم • (٢) المسهب : المطول •

(٣) بمواطأة : مصدر واطأ : أي وافق صاحبه على الامر وساهمه •

الوساوس ، وحاقت به الدسائس ، وتلكأ[1] زمنا بين الحياة والموت ! ..

فان لم يكن عمرو قد علم هـذا تفصيـلا ، فقد علمه جملة وافية ، علمه بالقدر الصحيح الذى يتيح له أن يقول للخليفة انه يقدم على فتح بلد « ليس أقل منه قوة ، ولا أعظم منه ثروة »

ولو انه علم تفصيـل الحوادث التاريخية كما علمناها اليوم ، لكان ذلك أحرى أن يزيده اقداما ، وأن يلهب من شوقه الى الفتح ما يرسله فى سبيله قدما[2]، قليل المبالاة بكل تحذير وتهويل ! !

لأنه كان أحرى ان يعلم ان أهل البلاد يرحبون به ، وان لم يرحبوا بالفرس من قبـله ، لأن الفرس قتلوا الرهبان والقسوس فى طريقهم الى مصر ، ولم يكن من عادة جيوش المسلمين ان يقتلوا أحـدا من الرهبـان والقسوس . ولأنه يسلك طريقا بدويا ، يستطيعه البـدو ، واستطاعوه فى قديم ، ولا يزال سكانه منذ عرفه التاريخ بدوا يشعرون بعصبية القرابة لهذا الفاتح الجديد

ولأن الروم أنفسهم كانوا قد فقدوا عزيمة القتال ، بل فقدوا ما هو ألزم من ذلك للمقاتل ، وهو ايمانه بحقه فى النصر وبرضوان الله عليه . فقـد كان ايمان الروم الغالب عليهم فى معارك الشام انهم استحقوا غضب الله ، وان العرب لهم سوط العذاب الذى يصبه الله على عباده الواقعين فى الخطيئة . وصاح بينهم بهذا النذير صائح مسموع الكلمة فى مؤتمر الطاكية الذى اجتمع اليه كبارهم وأحبـارهم ، فقال لهم — وهرقل يسمع : ان الروم ليلقون من الله جزاء العصـاة ! وربما كان هرقل نفسه يشعر بذلك الشعور ، لأنه كان فى شيخوخته دائم النـدم معذبا بوسواس الخطيئة ، لبنائه ببنت أخته « مرتينة » ، بعد علاقة بينه وبينها ، وهو اثم محرم فى دينه ! !

ولا نخال عمروا قد غفل عن اسـتطلاع البـلاد المصرية برسل من عنده ، أو بالاستماع الى أناس يغنونه عن الرسل ، فعلم ان الحصون مهملة ، وان الدساكر معطلة ، وان الجنود المفرقين هنا وهناك يدفعون

---

(١) تلكأ : توقف وتباطأ ٠ (٢) قدما : بضمتين ، ومضى قدما أي لم يعرج ولم ينثن ٠

عن معاقلهم[١] في وهن ويأس من المصير ، ويعيشون بين شعب يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك والضيـاع ، ويجهر بعدائهم ومشايعة أعدائهم ، اذا أمن عاقبـة الجهر بالعداء ، ورجح عنده الأمل فى غلبة المغير عليهم ! وأى عدو هو أولى بالأمل فى غلبتـه من غزاة العرب الذين صـدوا الأكاسرة والقياصرة ، واقتحموا عليهم عقر[٢] دارهم وهم مجلبون[٣] اليهم من قرار سحيق ؟ فاذا أصبح لهؤلاء العرب مقام محمى فى تخوم مصر وعلى مداخلها ، أيشق عليهم اذن ان ينتزعوا مصر من هرقل وليس فيها غير ظل له بعيد ؟

تقدم العرب الى الديار المصرية ، وبينهم وبين عدوهم فروق كثيرة فى العدد والعدة والحضـارة والعقيـدة ، من الفضـول أن نعرض لحصرها فى هـذا المقام ، ومن الاسهاب فى غير موضـعه ان تتتبـع أصـولها وتتعقب فروعها فى تاريخ الأمتين . فانها لتجتمع كلها فى فرق واحد يغنى من وعاه عن كل تفرقة بعدها ، مسهبة كانت أو مقتضبة ، وهو الفرق بين قوم ضيعوا كل ثقة فى النصر ، وقوم ضيعوا كل شك فيه وآمنوا بحقهم فى النصر كل ايمان

ضاعت ثقة هرقل فى نفسـه ، وضـاعت ثقة الروم فى صـلاحهم للحكم ، وضاعت ثقة الأعوان فى صلاح العاهل والدولة ، ولم تبق لهم الا بقية من تمسك يقيمها الخوف من عقـاب الرؤسـاء ، ويوشـك أن يذهب بها خوف أعظم منه وهو الخوف من بأس المغيرين !

ومن الجانب الآخر ملك العرب كل ثقـة بالنصر وكل ايمان بحقهم فيه ، واطمأنوا الى خليفة قوى ، وقائد قوى ، وصبر قوى على كل بلاء ! وعلم عدوهم هـذا منهم فوصفهم بعد رؤية وخبرة بأنهم « قوم الموت أحب اليهم من الحياة ! والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ! ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة » !

ومع هـذا الفارق الذى هو خلاصة جميع الفوارق ، لم تكن الثقة وحدها هى العدة التى رجح بها العرب وانخذل بها الروم . بل ظهر

---

(١) معاقل : جمع معقل وهو الحصن والملجأ • (٢) عقر : بالضم : أحسن موضع في البيت • (٣) مجلبون : أجلب : جمع • أي مجمعون •

من تقابل الفريقين فى شتى المعارك ان العرب كانوا أخبر بفنون القتال ــ ولا سيما فى المفاجأة ــ من قادة الروم الذين كلوا وكلت عقولهم بالاهمال والاستنامة الى الترف والغرور

فقد كان عمرو يوجه خطط القتــال كما يشاء منذ تخطى الحدود وأوغل فى جوف البلاد ، وكان يضــطر أعداءه الى تبــديل خططهم وتحويل معسكراتهم كلما تحرك فى الشمال أو الجنوب حركة مفاجئة لا يدرون ما يعقبها . فبينما هم يتجمعون فى الفيوم ، اذا هو يزحف الى منف شمالا ، ويوهمهم انه موغل فى الجنوب الى تخوم النوبة . وقد أعانه على المفاجأة خفة العدة ، وقلة الزاد ، وسرعة الخيل العربية فى سهول الريف ورمال الصحراء . ومن هذه المفاجآت البارعة تلك المفاجأة التى دهم بها الروم عند الجبل الأحمر ، وفقدوا بها جيشــا يقــارب عشرين ألفا ، لم يبق منه الا بضع مئات ، وكان قائدهم « ثيودور » قد خرج للقاء عمرو عند عين شمس ، فاستعد له عمرو بقلب جيشه ، وأقام من جناحيه كمينا عند الجبل الذى يلى المكان المعروف بالعباسية الآن ، وكمينا آخر عند « أم دنين » حيث قامت الأزبكية الحديثة . واستمر القتال بين الجيشين ، والروم يحسبون انهم يواجهون الجيش العربى كله ، ويستنفدون الجهــد أجمع فى الغلبة عليه ، فما راعهم الا الجيشان الكمينان ينقضــان على حين غرة ، فيبتعد الأمل القريب ويدب اليأس فى مكانه الى القلوب ، ويرجع القوم بثلاثمائة مشردين من ألوف ربما تجاوزت العشرين !

وكلما خطر للروم أن يأخذوا العرب بحيلتهم ويرتدوا عليهم بمفاجأة من مفاجآتهم ، حبطت[1] الحيلة فى أيديهم ، ووجدوا العرب أيقاظا لهم كأنهم كانوا على علم بنياتهم ومكائدهم . فما خرجوا من معــاقلهم المحصورة فى ليــل ولا نهار ليدهموا العرب على غرة ، الا تجمعت لهم أهبة الجيش كله فى لحظات معدودات ، فاذا هم المــأخوذون بما دبروه ، كأنهم سيقوا على كره منهم الى شرك منصوب

---

(١) حبطت : حبط عمله : ذهب ثوابه • وحبط دم فلان ذهب هدرا •

فالعرب لم ينتصروا اتفاقا ولا جزافا[1] ، ولكنهم انتصروا بخير ما يكفل النصر للمجاهدين : بالثقة والخبرة ، ثم بشىء آخر يعين الثقة والخبرة أيما عون. فى الميادين البعيدة عن ديار المعسكرين المتقاتلين ، وهو اطمئنان العرب الى أهل البلاد من حيث خَشيَهم الروم وتوقعوا منهم كل مكروه ، لأن العداء بين المذهب الملكى ، وهو مذهب الروم ، والمذهب اليعقوبى وهو مذهب القبط ، لم يدع مكانا لتوفيق بين الكنيستين ، ولم يبق فى النفوس بقية للرحمة ولا للصلح والهوادة ، وبلغ من لدد هذا العداء ان الروم أمهلوا ثلاثة أيام للخروج من حصن بابليون ، فقضوا يوما منها فى تعذيب القبط وتقطيع أيديهم وأرجلهم ليتركوهم فى حالة لا يفرغون فيها لشماتة بعدوهم المهزوم

نعم ان التضارب كثير فيما كان من موقف القبط بين حكامهم الروم ، وبين المسلمين المغيرين على أرضهم ، ولكنه تضارب لا غرابة فيه ، ولا موجب لاتخاذه دليلا على كذب الأخبار فى جملتها ، ولا لتقييد المؤرخ بترجيح قول منها على قول . فان التضارب حالة لا محيص عنها فى الموقف كله ، وفى أقوال المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد زمن طويل أو قصير

فكراهة القبط للروم ثابتة لا جدال فيها ولا يتطرق الشك اليها ، فاذا جاء فى بعض التواريخ انهم أظهروا المودة للعرب ، وجاء فى تواريخ أخرى انهم لبثوا على موالاة الروم الى ما بعد الهزيمة الحاسمة ، فليس سبب ذلك انهم أحبوا أولئك وكرهوا هؤلاء ، ولكنما السبب انهم ترقبوا جلاء الموقف بين الجيشين المتقاتلين ، وانهم كانوا يعملون متفرقين ، لامتلاء البلاد بالمعسكرات التى تقطع الصلة بين أجزائها ، فيكون قوم منهم على مقربة من جند الروم تارة ومن جند العرب تارة أخرى ، ويكون الأقوام المتفرقون على نية متشابهة وأعمال متخالفة على حسب الحوائل والأحوال

وعلينا أن نترقب تضاربا كهذا فى أكثر الأخبار التى تصل إلينا

---

(١) جزافا : الجزاف بالضم : بيعك الشيء واشتراؤك اياه بلا وزن ولا كيل .

عن فترة الفتح ، وعن حركات الجيوش ومفاوضات الصلح فى خلالها .

فمن العبث أن نجزم باستحالة حركة من هذه الحركات ، قياسا على أعمال الجيوش التى جرى بها العرف فى غير هذه الأحوال ، لأن الاستحالة والجواز انما يحسبان هنا بحساب لا يتكرر كثيرا فى جميع الحروب .

ففى غير هـذا « الفتح » يجوز مثلا أن يسـأل السـائل : كيف استطاع عمرو بن العاص أن يترك حصن بابليون ويوغل فى الصعيد ، ومن ورائه جيش أعداء يقطع عليـه الرجعـة ويحصره حيث كان ؟ ويجوز تبعا لذلك أن نستبعد الحركة كلها ونحسبها من تلفيق المؤرخين .

ولكننا اذا اصطنعنا هـذا القياس هنا ، وجب ان نستبعد الفتح كله من ألفه الى يائه ، لأن أربعة آلاف مقـاتل يتفرقون من العريش الى بابليون لا يفتحون قطرا يسكنه شعب كبير وتحميه دولة كبيرة ، فان لم يتفرقوا وساروا جميعا الى حصن بابليون ، فقطع الرجعة عليهم أيسر الأمور لو سـارت الحركات العسـكرية على المـألوف فى سائر الحروب . وما أعجب حصر الاسكندرية مثلا وهى مفتوحة من البحر الى القسطنطينية ؟ وما أعجب التقصير فى امدادها خلال الفتح كله ، وهو أول ما يخطر على البال ؟

فالحساب فى هذا الفتح غير الحساب فى سائر الفتوح

وأولى أن يقال ان جنـد الروم — لا جند العرب — هم الذين كانوا على حـذر من الايغال فى جوف البلاد ومن احداق الأعداء والرعيـة بهم فى مأزق غير متوقع . فالتناقض فى هـذه الأخبار وما شابهها هو طبيعة الموقف التى لعلها توجب الميـل الى قبولها ، ولا توجب الشك فيها . وعلينا كما أسلفنا أن نترقبه فى كل شىء ، وفى كل مرحلة من مراحل هـذا التاريخ العجيب ، وقـد نستغنى عن تعداد شـواهده الكثيرة اذا أضفنا الى ما أسلفنا تناقضا آخر نختم به هـذه الملاحظـة التى لا بد منها ، وهو التناقض الذى أحاط باسم الوالى الرومانى الذى تلقى العرب ثم صالحهم على تسليم البلاد . فمن هو « المقوقس » هذا ،

وما حقيقة الأمر فيه ؟ أهو رومانى أو مصرى ؟ وهل هو من رجـال الحرب أو من رجال الدين؟ وهل كان محبوبا فى شعبه أو كان مبغضا اليه ؟

قيلت جميع هـذه الأقوال فيما كتبه العرب والرومان ، ولكنه فى أرجح الأقوال ــ كما سيأتى تفصيله ــ رجل من غير الروم ومن غير المصريين الأصـلاء الأقدمين ، تولى من قبـل هرقل سلطانا دينيـا مقرونا بسـلطان الدنيـا ، ومضى فى سياسـته على سـنة النهازين للفرص من خدام الدول المتـداعية ، فأغلظ للشعب الضعيف مرضاة للسادة الأقوياء ، ثم بدا له أن سـادته الأقوياء ذاهبون ، فأحب أن يستقل بكرسيه ، وأن يأوى الى جنـاح الفاتحين لعلهم يشكرون له صنيعه ، ويحمونه من أعدائه فى مصر والقسطنطينية

ذلك هو أقل الغرائب فى وصف هـذا الرجل الغريب ، ولكنه على ذلك ليس بالوصف القاطع الوثيق ، وأوثق ما يقال عنه انه رجل كان يرهن مصيره بمصير البلد الذى أقام فيه

تقـدم عمرو من طريق السـاحل الى العريش ، فلم يجد بها أحدا يصده من قِبَل الروم ، ثم تقـدم الى « الفرما » فحاصر حاميتها واستولى عليهـا فى أقل من شهرين ، ثم مضى فى طريقـه حتى نزل بلبيس ، فهزم بها جيشا رومانيا يقدره بعض المؤرخين بثلاثة أضعاف الجيش العربى ، وانقض من ناحيـة الصحراء على « أم دنين » فاستولى عليها ، وجاوزها الى حصن « بابليون » أو قصر الشمع كما سـماه العرب ، على الضفة الشرقية من النيـل .. واختلفوا فيمن كان يقود حاميته ، فقال اناس انه « جورج » أو الأعيرج ، كما سماه العرب ، وقال اناس انه هو « ثيودور » الذى نازل العرب غير مرة ، وقال غيرهم انه هو « أريطيون » صاحب عمرو القديم

وصل الجيش العربى الى جوار « منف » عاصمة الفراعنة ، فى شتـاء ٦٤٠ للميـلاد ــ ١٩ للهجـرة ــ وعرض على والى البـلد شروطه التى هى شروط المسلمين قبل كل قتال ، وهى الاسلام أو الجزية

أو السيف . وعمد الى التأثير الأدبى فى اقناع الحامية ومن يلوذ بها من أهل البلاد ، كما عمد الى الخدعة والبسالة . فكان اذا جاءه الرسل من قبل الروم أبقاهم بين جنوده يوما أو يومين ليروا بأعينهم زهد المسلمين فى الدنيا ، واستخفافهم بالموت ، وصبرهم على الشدة ، واقدامهم على الكريهة فى سبيل ما هم مؤمنون به وساعون اليه

الا أن أدوات الحصار فى جيش عمرو لم تكن من القوة بحيث تعينه على اقتحام سريع للحصون التى كانت توصف بالمناعة فى تلك الايام فطال لبثه أمام حصن بابليون قياسا على حصار الفرما وبلبيس ، ولم يشأ أن يقضى الوقت كله فى الاقامة على جوانب الحصن حتى تضيق الحامية ذرعا بالحصار فتستسلم اليه ، ولم يكن ميسورا له أن يُنفِذ السرايا الى مصر السفلى نحو الاسكندرية وما جاورها ، لأن ابتداء الفيضان فى النهر وجداوله الكثيرة حال دون ذلك ، فحوّل سراياه الى الصعيد وأطراف الفيوم . ويبدو لنا أنه لم يقصد بها الفتح والاستيلاء على المدن فى المرحلة الأولى من القتال ، وانما قصد بها أن يشغل جنده مخافة عليهم من فساد الراحة وطول الانتظار ، وأن يعرف بالتجربة المحسوسة مدى التعويل على ولاء أهل البلاد ، وأن يضطر حاميات الروم القليلة فى الصعيد الى البقاء حيث هى ، والعدول عن امداد الحامية فى حصن بابليون ببعض رجالها اذا خطر لها هذا الخاطر ، لأن تهديد الصعيد من حين الى حين ، يوجب عليها أن تحمى مواقعها قبل التفكير فى امداد غيرها ، فانما كانت حركات السرايا فى الصعيد مناورات للتعمية والاستطلاع ، ولم تكن حملات للفتح « والاحتلال »

وفى هذه الفترة خيل الى قائد الروم أنه قادر على أخذ العرب بالمباغتة كما يأخذونه ، فتأهب للهجوم على جيش عمرو فى قاعدته الكبرى بعين شمس ، وكانت تلك المعركة التى أسلفنا الاشارة اليها ودارت فيها الدائرة على الروم ، فتجلت فيها مهارة عمرو فى القيادة ، كما تجلت فيها يقظته لحركة أعدائه وثباته لقوتهم وهى أضعاف قوته فى الرجال والسلاح

وانقضت السنة ، ومضت أشهر من السنة التالية ، والحصن صامد لايسلم ، ولايزال الذين فيه يخرجون من حين الى حين لمناوشة جند المسلمين والعودة اليه ، وكان النيل قد هبط فى أثناء ذلك ، فاستطاع عمرو أن يرسل فرقا من جيشه الى مصر السفلى لتعويق حركات الروم قبل التقدم اليه ، فكان يهزمهم تارة ويرتد عنهم تارة أخرى ، بغير كبير طائل[1] لهذا الفريق أو لذاك

وظل الفاروق فى المدينة يرقب جيشه الزاحف بعين لا تغفل ، وقلب لايتوجل . ولم يزل يمدهم ويسأل عن أخبارهم ويتفقدهم ، فلا يرى شيئا هو أحق عنده بالتفقد من سلاحهم الماضى قبل كل سلاح ، وعدتهم اللازمة قبل كل عدة ، وهى الايمان أو قوة الروح . فلما أبطأ الفتح المبين لم يرجع بابطائه الى قلة العدد ، أو قوة العدو ، بل رجع به الى نقص الايمان ودخل[2] النيات ، وكتب الى المسلمين يقول : « عجبت لابطائكم فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك الا لما أحدثتم وأصبتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم »

ولهذا الاستبطاء معناه التاريخى الجليل فى فهم خطط المسلمين صدر الاسلام ، وفهم التردد الذى بدا من الخليفة يوم أن عرض عليه عمرو مسيره الى مصر لفتحها بعد فتح فلسطين . فان هذا الاستبطاء دليل على أنه لم يتردد فى تسيير الجيش الى مصر استهوالا لخطب الروم ، أو استعظاما لفتحها على جيش المسلمين ، ولكنه تردد على سنته فى اجتناب الغزو الا لدفع خطر ، أو اتقاء عدوان منتظر ، ولولا ذلك لكان استبطاؤه الفتح بعد استهواله اياه من أعجب الأمور .

وحدث فى أثناء ذلك أن مات العاهل هرقل ، وشاعت الدسائس فى البلاط بعده ، وفشا المرض فى حامية الحصن حتى هلك به خلق كثير ، وتغلب حزب الصلح بعد موت العاهل الذى كان يأباه ، واعتز جيش المسلمين بإمداد من الفرسان المغاوير يقدر الواحد منهم بألف مقاتل ولا

---

(١) طائل : سعة وقدرة ، وفائدة ونفع . (٢) دخل : بفتح الدال والخاء : الفساد والغش .

مغالاة ، لأن تقديره بألف مقاتل لايعنى أنه يساويهم فى العدة والكثرة ، بل يعنى أنه يبث الشجاعة فى الجيش بقدرته ويقينه ، فيقاتل الجيش كأنه قد زيد ألف مقاتل ، ولم يكن قصاراه[1] زيادة فارس واحد . وليس هذا بعجيب فى جيش تقوم عدته الكبرى على الثقة واليقين

من هؤلاء الزبير بن العوام الذى جاء فى بعض الروايات أنه تَسَوَّرَ الحصن يتبعه جماعة من المستشهدين ، فأوقع الرعب فى قلوب الحامية وهى تعانى ما تعانى من اليأس والخوف والسقام ، فأسرع أنصار الصلح الى التسليم بعد ممانعة قليلة من المعارضين . وكان ذلك يوم الجمعة السابق ليوم القيامة سنة (٦٤١)

وبادر عمرو بعد سقوط الحصن الى اقامة المعابر على النيل لعبوره قبل فيضانه ، ثم مضى فى طريقه الى الاسكندرية يقاتل من لقيه من فالة الروم أو جموعهم المتربّصة فى حصون المدن الكبيرة بين بابليون وشاطىء بحر الروم ، وضرب الحصار على المدينة الكبيرة ، بينما كانت جنوده ، وهو على رأسها فى بعض الأحيان ، يشنون الغارة على مدينة بعد أخرى من مدن مصر السفلى ، حتى كان أول المحرم سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١) ، فسلمت الاسكندرية يأسا وخورا[2] وهى قادرة على مواصلة القتال سنوات ، وانعقد الصلح على أن تؤدى الجزية دينارين عن كل رجل قادر على العمل ، وأن تستمر الهدنة أحد عشر شهرا تجلو الجيوش الرومانية فى خلالها عن المدينة ، وتحمل معها من متاعها ما تشاء ، وأن تباح للمسيحيين عبادتهم ، وتصان لهم معابدهم ، وأن يؤذن لليهود بالبقاء فى الاسكندرية ، وأن يضع الروم عند المسلمين رهائن لضمان نفاذ الاتفاق مائة وخمسين من المقاتلين ، وخمسين من السراة[3] غير المقاتلين .

وكان هذا الصلح على هوى المقوقس ، ولم يكن على هوى الكثيرين من غلاة الجند وأصحاب الأموال فى العاصمة التجارية الكبرى فثاروا بالمقوقس ، وأحاطوا بقصره متوعدين منذرين ، وخرج لهم باكيا يعتذر

---

(١) قصاراه : بالضم : الجهد والغاية • (٢) خورا : ضعفا • (٣) السراة : بفتح السين : جمع سري وهو السيد الشريف •

لهم بمشيئة الله من أزل الآزال ، ولا رادّ لقضاء الله . فاستمعوا الى الرجل الذى يكلمهم بلسان الدين ولسان الدنيا وشاركوه فى البكاء !

تقدمت الاشارة الى بسالة عمرو فى حصار الاسكندرية ، ومجازفته بنفسه فى اقتحام حصونها مع طلائع المقتحمين ، فما هو صحيح من أنباء تلك البسالة فهو شاهد بخلق قد شهدت به معارك كثيرة ومآزق شتى ، وما ليس بصحيح فهو من مبالغة الخيال فى تكبير الواقع ، وليس مما ينقض ذلك الخُلق المتفق عليه

على أن العظمة التى ثبتت لعمرو بن العاص بعد فتح مصر لا تقل عن عظمة الفاتح الجرىء ولا عظمة القائد الضليع بفنون الخدعة والاقدام

فقد عرف مصر وهو مقبل على حكمها ، كما عرفها وهو مقبل على فتحها ، فاذا هو صالح للعمار والقرار صلاحه للهجوم والحصار

انتهى دور الفاتح بتسليم الاسكندرية ، وبدأ دور الحـاكم الذى يسوس رعاياه

وكان رأى عمرو أن مصر أخِذت فتحا ، ولم تؤخذ صلحا كما يفهم من الصلح بغير قتال ، وفى ذلك يقول : « قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد ، ان شئت قتلت ، وان شئت خمست[١] ، وان شئت بعت » !

ولكنه مع هذا شاء غير القتل وغير التخميس وغير البيع ، فعامل الرعية فى أمور دينها ودنياها معاملة رضيتها ، وأطلقت ثناءها ، وجعلت البطرق بنيامين يسمى عهد العرب بعهد السلامة والأمان ، وعهد الرومان بعهد الجور والطغيان

وكان هذا البطرق مبعدا عن مكان الرئاسة الدينية لمخالفته مذهب الكنيسة الملكية ، فاستقدمه عمرو واحتفى به ورده الى مكانه

وأقبل على سياسة البلد وتدبير مصالحه وتوفير خيراته ، فعلم أن الرخص والغلاء مرهونان بفيضان النيل ، وأن سياسة مصر هى سياسة النهر فى ارتفاعه وهبوطه ، فكتب الى الخليفة أن أهل مصر يجهدهم

---

(١) خمست : أخذت خمس أموالهم .

الغلاء اذا وقف النيل عند حد مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره ، وشرح له علل الغلاء فقال : « ان فرط الاستشعار[1] يدعوهم الى الاحتكار ، ويدعو الاحتكار الى تصاعد الاسعار بغير قحط » ثم أتبع ذلك فقال : « انى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى تروى منه الى سائرها حتى يفضل منه عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا ، والنهـايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار[2] اثنا عشر ذراعا فى النقصان وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة »

وقام بأمر الخليفة على بناء المقاييس ، فبنى مقياس حلوان ومقياس أسوان ، وأشرف على صيانة الجداول والجسور ، وكان سكان البلاد يعتمدون على وسائل خرافية لاستدرار ماء الفيضان ، منها القاء قربان فى النيل يقال فى بعض الروايات الضعيفة انه عذراء بقيد الحياة ، ويقال على الأرجح انه دمية من الطين على هيئة فتاة تمثل الأرض الزراعية التى « يتزوج » بها النيل أو يثمر منها ثمراته . فكتب عمرو الى الخليفة فى ذلك ، فجاءه منه الأمر بابطاله بعد أن فكر هو فى مثل ذلك ، فأبطل هذه العادة الخرافية ، واعتمد على الوسائل المعقولة من تنظيم الماء ومناوبة الرى حسبما تهيأت له الأسباب العلمية فى ذلك الزمان

وترفق فى جمع الأموال من جزية الرؤوس وخراج الأرض ، فوزعها على ثلاثة أقساط فى العام . ولم يزد محصول السنة على اثنى عشر مليون دينار : ثلثاها من جزية الرؤوس على حساب أربعة ملايين عدد الذكور العاملين ، ومنها نحو ثلاثة ملايين دينـار خراج الأرض على حساب مليون ونصف مليون فدان ، وهو دون الخراج الذى كان يجبى فى عهد الرومان والفراعنة غيرما كانوا يستصفونه غصبا من الخيرات والثمرات

وقد كانت قلة الخراج عن القدر المنظور فى أول الأمر مدعاة سؤال كثير من قبل الخلفاء ، فراجعه عمر فى ذلك ، وانتهت مراجعة عثمان اياه الى عزله . فزاد الخراج على عهد ابن أبى سرح ، وقال عثمـان

---

(١) الاستشعار : استشعر الرجل خوفا أضمره · (٢) الاستبحار : استبحر الرجل في المال اتسع وكثر ماله · وكذلك في العلم ·

لعمرو : أشعرت أن اللقاح[١] دَرَّت بعدك ألبانها ؟ قال عمرو : لأنكم أعجفتم[٢] أولادها !

ومهما يكن من تصرف عمرو فى مال الخراج — او من طمعه المشهور — فما نظن أن طمعه فى المال المحصل كان سببا ظاهرا لذلك النقص الذى لحظه الخلفاء . لأنه كان يستطيع أن يجمع ما يكفيه ولا يُلحَظ نقصه لو آثر الجور على القصد فى السياسة . وانما عمل بالعهد الذى كتبه للمصريين ، ونظر الى طول البقاء فى هذه الولاية ، فمضى على السياسة التى تكفل له ولاء الرعية ، وتصلح شئون العمارة فى البلاد على حد قوله : « انه لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل »

وكان من أهم أعمال التعمير التى تمت على يديه بأمر الخليفة فتح الخليج الذى سماه بخليج أمير المؤمنين ، بين النيل والبحر الأحمر ، فكان ممرا صالحا للسفن التى تحمل المِيرة من مصر الى الحجاز ، وطالما احتاج الحجاز الى تلك الميرة فى أعوام القحط والمجاعة

وبنى مدينة الفسطاط حول مسجده المعروف باسمه الى اليوم . واذا صح ما قيل فى سبب تسميتها بالفسطاط ، فقد بقى عمرو « الشاعر » يقظان الحس والخيال تحت آكام السياسة وأنقاض الحروب . قيل انه أراد أن يقوّض فسطاطه ، فرأى يمامة قد باضت فى أعلاه فقال : لقد تحرّمت بجوارنا . وأمر الجند أن يُقِروا الفسطاط حتى تطير فراخها ، فبقى حتى بُنيت المدينة فى مكانه وسُميت بالفسطاط . أو لعل السياسى هنا كان أيقظ من الشاعر ، لأن حماية يمامة وديعة فى جوار والٍ ، لهى أجدى له من البأس والرهبة فى استمالة القلوب العصية الى « الحماية » الغريبة التى فرضت عليها

ومن تمام القول فى سمعة الحكم الاسلامى بعد فتح مصر ، أن نعرض لمسألة طال فيها الأخذ والرد بين المؤرخين وناقدى الاسلام ، وهى مسألة احراق المكتبة الكبرى بالاسكندرية !

---

(١) اللقاح : جمع لقوح بفتح فضم ، وهي التي تقبل اللقاح من النوق .
(٢) أعجفتم : أعجف الدابة جعلها هزيلة .

وخلاصة هذه المسألة أن عمرواً رفع الى الفاروق خبر المكتبة ، فجاءه الجواب بما نصه : أما الكتب التى ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه . فتقدم باعدامها » ، فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمّام بالمدينة ، ومضت ستة أشهر وهى تستخدمها فى وقودها

ولم تذكر هذه الرواية الا بعد انقضاء ستة قرون على تاريخ الفتح ، فلم يعرض لها البطريق يوتيخوس الذى توسع فى الكلام على فتح الاسكندرية . وكذبها ظاهر من المبالغة فى عدد الكتب التى تغنى أربعة آلاف حمام عن الوقود ستة أشهر ! ! مع العلم بأن الرّق[1] الذى كانت الكتب تسطر عليه فى تلك العصور لا يصلح للوقود ، وأن الوالى الذى يريد اعدامها لا يسلمها الا لمن يبيعها أو يحفظها ، ولا يفوته أن يعهد فى نقلها الى أصحابها وقد حملوا معهم متاعهم الذى طلبوا حمله وهم ذاهبون الى أرض الروم . وقد حدث أن هذه المكتبة أحرقت مرات فى عهد يوليوس قيصر ، وعهد العاهل ثيودسيوس الذى أباد آثار الوثنية ، سواء من الكتب أو الصور أو التماثيل

وكفى لتكذيب هذه الأسطورة أنها لا تشبه عملا من أعمال الفتح الاسلامى ، الذى اقترن بالتعمير ولم يقترن قط بالتنكيل والتدمير . ومهما يكن من صدق القول المعزو الى عمرو فى وصف مصر : « أن نيلها عجب ، وترابها ذهب ، وأمراءها جلب[2] ، وهى لمن غلب » ، فانه لم يأخذها قط بسلطان الغلبة والرهبة ، ولم يشرع فيها شرعة الا كان رائده فيها الرفق والمودة

---

(١) الرق : بفتح الراء : جلد رقيق يكتب فيه · (٢) جلب : الجلب بفتح الجيم واللام : ما جلب القوم من غنم أو سبي ·

البلاد والسكان

قبل الاسترسال فى بقية هذه السيرة الى نهايتها من أعمال عمرو فى مصر ، نرى أن هذه السيرة تستلزم بيانا مفصلا عن حالة البلاد المصرية كما صارت اليه فى الآونة التى تم فيها الفتح وقضى فيها على سيادة الدولة الرومانية ، فهذه الحالة من الأسباب التى لا يُغفَل عنها عند تقدير عمل الفاتح العربى ، وتقدير العوامل التى يسرت له الغلبة على الرومان

وقد راجعنا بعض المراجع التى لم نقف لها من قبل ، وانكشفت فى السنوات الاخيرة نيات فئة من المؤرخين الغربيين الذين كتبوا عن تاريخ الرومان بمصر ، كأنهم أناس من الرومان يذكرون مصابا لحق بهم ، ويلتمسون العزاء عنه تارة ، ويلتمسون العلة التى تعفيهم من وصمته تارة أخرى . وقد نظرنا الى تعليلاتهم وتحليلاتهم بالنظرة التى تنبغى لها ، فرددنا كثيرا منهـا ، وهتكنا الحجاب عن كثير مما كان يخفى على من يقرأون تاريخ هذه الفترة على غير التفات الى هذه الأهواء التاريخية ، بل هذه التواريخ العصرية التى تمليها فى هذا الزمن « بواعث حية » كما سيرى القراء ، ولعلهم يستوضحون ذلك من مواجهة الحقائق فى أمر البلاد والسكان ، وأبطال التاريخ المشتركين فى حوادث الفتح على ذكر من هذه النيات

كانت مصر فى الزمن القديم معروفة بين أهلهـا باسم « كيم » أو « خيم » ، بياء تنطق ممالة بين الياء والألف ، ويتوهم بعضهم أنهـا مأخوذة من كلمة خام أوحام بن نوح ، على اعتبار المصريين سـلالة

حامية قديمة ، وهو من الأوهام التى لا سند لها من التاريخ ولا من الآثار الباقية ، لأن معنى الكلمة قديم فى اللغة المصرية بمعنى الأرض السوداء ، ومنهـا أخذ اليونان كلمة الكيمياء حين كان علم الكيمياء يسمى بالعلم الأسود أو السحر الأسود ، لأنه من العلوم الخفية التى يستعان عليها بالأرواح الشريرة فى زعم الأقدمين !

ولم يبق من أسماء مصر القديمة فى العصر الحاضر غير اسمين اثنين ، أحدهما اسم « ايجبت » Egypte الذى تلقاه الغربيون عن اليونان ، ولا يزال لديهم علما على البلاد المصرية ، وأصله مجهول تختلف فيه الأقوال ، ويرجح أن الكلمة منحوتة من كلمتين بمعنى « جى بتاه » أو « كى بتاه » ، أى بلاد فتاح الاله الذى كان معبودا فى « منف » ، العاصمة القديمة التى عرفها اليونان الأسبقون

والذين يرجحون هذه التسمية يرون أن كلمة « قبطى » مشتقة من النسبة الى « كى بتاه » ، خلافا لمن يرجع بها الى قفط أو كوبتوس فى طريق البحر الاحمر . وقديما قيل انها كانت بلدة على البحر الاحمر ، ثم نقلت الى الطريق كله بين البحر الأحمر والبلدة التى اشتهرت باسم قفط فى اقليم قنا ، ولا تزال معروفة به الى اليـوم ، ولا تزال طريق القصير وقنا من الطرق الممهدة للقوافل فى العصر الحاضر ! وليس من التعسف البعيد أن يقال انها أصل التسمية القديمة للبلاد المصرية ، لأن عواصم مصر الكبرى كانت فى الاقليم القنائى ، وظلت فيه قرونا طوالا من العصر القديم . ويتوسع بعض المؤرخين فى دلالة هذه التسمية ، فيردون اليها علاقة مصر العليا بالبلاد العربية القديمة ، ويحسبون أن المهاجرين الأوائل قدموا من طريق البحر الأحمر ثم طريق الصحراء فى زمن مجهول . ولا يلزم من ذلك أن يكون أصل المصريين جميعا من هؤلاء المهاجرين ، لأن ملامح المصريين الأوائل ولغاتهم لا تنحصر فى أصل واحد ، ولا تنحصر على الخصوص فى السلالة السامية ، بل يوجد فيها مزيج قليل يسهل تعليله بالنسبة الى طريق « قفط » من جانب

البحر الأحمر أو الجانب الذى يقابله على النيل

أما الاسم الآخر من الأسماء الباقية ، فهو اسمها المشهور فى اللغة العربية أو هو اسم « مصر » الذى يحسبه بعضهم مأخوذا من كلمة « المصر » التى تطلق فى العربية على أرض الحواضر أو على الحاضرة الكبرى ، حيث تقام معالم الحكم وأحكام الشريعة

والغالب أن كلمة « مصر » عربية الأصل ، ولكن فى لغة العرب السابقة لهذا الاصطلاح الحديث ، وانما نقول الحديث بالنسبة الى الكلام العربى المتداول على الألسنة من عهد الاسلام وما قبله بأجيال قليلة ! وقبل هذا العهد ، عهد الاسلام ، عرف العرب مصر ، ثم عرفها منهم العبرانيون المنتقلون من أرض العراق . وقد كاد المؤرخون أن يتفقوا على أن العبرانيين قدموا الى مصر فى عهد القبائل العربية من الرعاة وأتباعهم المشهورين باسم الهكسوس ، فهم أول من أطلق على « مصر » هذا الاسم وسموها « مصرايم » ، فزعم بعضهم أن الكلمة من اسم قديم يدعى مصرايم يحسبونه جد المصريين أجمعين ، ولكن الواقع أن « مصرايم » تثنية مصر باللغة العبرية بمعنى المِصرَين ، أى الوجه البحرى والوجه القبلى ولا تزال الكلمة بعد ذلك محتاجة الى تفسير من اللغات السامية الأولى ان لم يكن لها معنى قديم منقول عن الهيروغليفية

والبحث فى العبرية ، واللغات السامية عامة ، هو الذى قاد الباحثين الى مادة « صر » فى جميع هذه اللغات . فمادة « صر » تفيد فى هذه اللغات جميعا معنى الضم والضيق ، والشىء المصرور هو الشىء المضغوط أو المشدود ، ومنه الصُّرة والصِرار والاصرار ، وقيل لهذا : ان المصر يراد به الوادى الضيق المصرور بين الجبلين ، وبولغ فى تتبع هذا المعنى ، فقيل ان العبرانيين سموا البلد باسم « مصر » ، بعد ما أصابهم فيها من الضيق ، وبعدما اعتزموه من الفرار بأنفسهم من هذا الضيق ، وهو

اعتساف[1] في التأويل لا تؤيده كلمة واحدة توجّه اشتقاق الكلمة هذا الاتجاه

أما المصر من « الصر » بمعنى حصر الوادى بين الجبلين ، فيلاحظ أن العبرانيين أطلقوا اسم المصرَين على الوجهين ، ولم يكن الوجه البحرى — حيث أقام الأكثرون منهم — واديا محصورا بين الجبال ، ولم يعرف قط أنهم أطلقوا على مصر اسما آخر قبل وفودهم اليها ، الا أن يكون اسم النهر أو بلاد حام

ولهذا يذهب بعضهم الى أن كلمة « مصر » هيروغليفية قديمة مركبة من كلمات ثلاث بمعنى « بلد أبناء الشمس » ، والكلمات الثلاث هى « ما » بمعنى موضع ، و « سى » بمعنى ابن ، و « رى » أو « زا » ، بمعنى الشمس ، ومنها « راع » التى ينسب اليها بعض الفراعنة . فاذا صح أن « ما سيرى » هى أصل هذه التسمية فلا غرابة فيه ، وانما يعوزه السند الذى يعزز الاستنتاج ، وليس له الآن وجود ، وكل ما هنالك أن أناسا من الثقات يستندون الى اطلاق اسم « مسرى » على شهر الفيضان أو شهر النيل المنتظر ، ويربطون كما فعل العلامة « مسبرو » بين اسم الشهر واسم البلاد

ولا يخفى أن اللغة الهيروغليفية كانت لغة تصوير ، تغلب فيها المقاطع على الحروف ، وأن المصريين استخدموا الأبجدية اليونانية وزادوا عليها بعض الحروف التى لا وجود لها عند اليونان ، حين أرادوا الكتابة باللغة الوطنية ، والاستقلال بها عن كتابة الدول الرومانية ! وقد وجدت صور الأرض والشمس عليها دالة على البلاد المصرية فى الآثار القديمة . أما نطقها بألفاظ تقارب لفظ مسر أو مصر ، فليس له سند معروف بل كان الكتاب المصريون المخضرمون بين عصر اللغة الهيروغليفية وعصر اللغة القبطية يذكرون مصر كما يذكرها اليونان باسم وسط بين «جبت» و « قبت » أو قبط . ويظهر أن كتّاب العربية أنفسهم كانوا يطلقون كلمة « قبط » على البلاد أحيانا ، ولا يقصدون بها السكان كما فعلوا

---

(١) اعتساف : اعتسف الطريق عدل عنه . والامر ركبه بلا روية .

بعد ذلك ، ولهذا كانوا يذكرون المصريين باسم « القبطيين » . وتكررت هذه النسبة بعد الفتح الاسلامى بزمن غير قصير ، ولم يلجئهم الى التفرقة بين النسبة الى مصر والنسبة الى « قبط » الا الرغبة فى توضيح الفرق بين المصريين بعد الاسلام والمصريين قبل الاسلام . وقد كان المؤرخون المسلمون يذكرون « المصريين » الى عهد « معاوية » ويعنون بهم العرب المسلمين المقيمين فى الديار المصرية ، ولهذا كانوا يقولون ان « المصريين » أيدوا عليًا فى خلافه مع معاوية ، وأنهم لم يبايعوا معاوية الا بعد ولاية عمرو بن العاص الثانية . على أن العرب كانوا يسكنون مدينة « قفط » قبل الاسلام . وقال سترابون ان نصف سكانها منهم ، وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة الى هذه المدينة القديمة فى طريق الحجاز

ومن المحقق بعد جميع التأويلات والاحتمالات أن اسم « مصر » كان معروفا فى أرض كنعان قبل وفود العبرانيين ، وأن اليونان عرفوا مصر باسم « ايجبت » قبل عصر الشاعر هوميروس ، وأن ألواح تل العمارنة ذكرت مصر باسم « هكبتاه » الذى يرجع اليه الاسم اليونانى ، وأرادت به أرض منف وعاصمة بتاه أو فتاح ، وأن « مصر » بغير التعريف لم تظلق على قطر غير وادى النيل ، وأن العرب هم أول من تسمى بالمصريين ، ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب اليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم !! وقد كان المؤرخون قبل الميلاد وبعده يحصون سكان البلاد المصرية فلا يشملونهم باحصاء واحد ، ويفردون كل فريق من السكان بتعداد خاص ، كالروم واليهود وأبناء البلاد الأصلاء ، ومعظمهم كانوا يقيمون فى الصعيد وفيما بين فرعى النيل المعروفين الآن باسم فرع دمياط وفرع رشيد . وكانت الأقاليم التى تقع الى شرق فرع دمياط والى غرب فرع رشيد ، مقاما لقبائل متفرقة تعرف بالأنساب ، ولا تعرف بأسماء المدن والقرى فى أسمائها الشائعة

وقد أحصى ديودورس الصقلى ويوسفيوس اليهودى سكان مصر ،

فلم يجاوزوا بهم ثمانية ملايين ، وأولهم من مؤرخى القرن الأول قبل الميلاد ، والآخر ممن شهدوا عصر الميلاد فى أوائله ، وكلاهما فرّق فى التعداد بين المصريين واليهود والروم !

وكانت هذه الأجناس جميعا فى نزاع دائم بينها ، وفى نزاع دائم مع الدولة الرومانية . وربما تجرد بعض القساوسة لقتال اليهود بجنـــود يجمعها من الوطنيين ، ويـُغـِير بها على الأحياء اليهودية فى الاسكندرية . وقد كانت عدتهم فيها وفى عين شمس تزيد على مائتى ألف فى بعض الأوقات

ولما حان عصر الفتح الاسلامى — أى القرن السابع للميلاد — لم يكن فى مصر كلها من يود بقاءها فى حوزة الدولة الرومانيـــة ، حتى الروم ، ولم يكن هؤلاء الروم يثقون بدوام ملك الدولة الرومانية بعد تكرار هزيمتها أمام الفرس وأمام العشائر الهمجية فى أوربة الشرقية وأوربة الوسطى ، ومن كان من الروم يدافع الأجانب عن أرض مصر ، فانما كان يدفعهم ليستبقى له ملك الأرض ، ويتحيّن الفرصة لاقتطاعها من الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقيـــة ، فلم يكن حكم الرومان حكم رضى من المحكومين ، ولا حكم ثقة بالبقاء والدوام

كان القبطيون ، أو أبناء البلاد من غير الروم واليهود ، على أشد السخط من الدولة الرومانية ، لأسباب دينية وأسباب سياسية ، اذ كانت كنيسة بيزنطة قد نازعت كنيسة الاسكندرية سـلطانها وأرادت أن تفرض عليها مذهبا فى المسيحية لا تقرّه ، وهو المذهب الذى اشتهر باسم المذهب الملكى ، واعتقد التابعون له أن المسيح ذو طبيعتـين ، خلافا للاسكندريين الذين كانوا يدينون بطبيعة واحدة ، ويطلق عليهم خطأ اسم اليعقوبيين . وقد كان المصريون يثورون على الدولة الرومانية قبل دخولها فى المسيحية ويقابلون اضطهادها بالاضراب أو بالرهبانية والاعتكاف على الصوامع والأديرة فى الصحراء . ثم دان عواهل الرومان منـذ أيام قسطنطين بالمسـيحية ، فتغير سبب الاضطهاد ولم يتغـير

طغيانه وبغضاؤه التى شقى بها أبناء البلاد عدة قرون . كان الاضطهاد لاختلاف الدين ، فتحول الى اضطهاد لاختلاف المذهب والنّحلة . ولم يزل أتباع الكنيسة الوطنية يرمون أتبـــاع الكنيسة الملكية بالكفر والمروق ، ويقولون عنهم انهم يمزقون طبيعة السيد المسيح ، ويؤمنون بإلهين مختلفين . ومن قبل هــذا كان النزاع السـياسى الوطنى قد بلغ غايته بين المحكومين والحــاكمين ، ولكن المحكومين على الأقل كانوا يستقلون بالعقيدة فى الأمور التى لا تصطدم فعلا بسلطان الدولة ، فلما دان عواهل الروم بالدين المسيحى فرضوا لأنفسهم سلطانا روحياً الى جانب السلطان السياسى ، ولم يتركوا للمحكومين منفساً يشعرون فيه باستقلال الرأى والضمير . وقد تفاقم الخطب فى عهد الامبراطور فوقاس — قبل الفتح الاسلامى مباشرة — فصـــدر أمره الى ولاته على مصر بطرد جميع الوطنيين من وظائف الحكومة ، والزامهم طاعة الكنيسة فى القسطنطينية . ويكفى لبيان السخط على الدولة الحاكمة أن الخلاص منها أصبح حلماً من الأحلام التى تساور زعماء الكنيســة الوطنية فى يقظتهم ومنامهم ، فرأى البطرق بنيامين فى منامه أن مصر ستفتح لأناس مختونين ينقذونها من أعدائها المتسلطين عليها ، ورُوِيَ هذا الحلم على روايات مختلفة منسوبا الى أناس غير البطرق بنيامين

ولم تكن عداوة المصريين للدولة القائمة خافية على سكان البـــلاد المصرية من الروم ، بل هم كانوا يعلمون أن كراهة المصريين للسكان « المحليين » من الروم أشد من كراهتهم لرؤسائهم فى القسطنطينية ، لأن هؤلاء الروم المحليين يخالفون الوطنيين فى العقيدة والجنس كما يخالفهم رؤساؤهم فى العاصمة الكبرى ، ويزيدون على رؤسائهم بعداوة أخرى هى عداوة المنافسة الشخصـــية والغطرسة المحسوسة ، ويحيك(١) فى نفوســهم أن كل زيادة فى سلطان الوطنيين نقص فى ســلطان الولاة والموظفين الرسميين ، وبخاصة بعد التجاء الدولة الى استرضاء الوطنيين ببعض مناصب الرئاسة والقيادة ، وتوكيلهم فى تحصـــيل الضرائب

---

(١) يحيك : حاك القول في القلب : أثر فيه .

والاشراف على حقوق الالتزام فى الجهات النائية . فهذه العداوة المحلية، تضاف الى العداوة العامة التى تكون على الدوام بين الدولة الغاصبة والأمة المغصوبة . فلا جرم يتخوّف الروم المحليون من أبناء البلاد عند هجوم العرب على تخومها ،ويبلغ من تخوّفهم وسوء ظنهم أنهم يفضلون الانفراد بالدفاع عنها على الاستعانة بجيش من أبنائها ، ولم يكن هذا الجيش قائمًا قبل ذلك للاستعانة به فى ساعة الخطر المفاجىء . فلما وجد الروم المحليون أن الأمر يحتاج الى تنظيم جيش جديد مستعد للدفاع فى حالة الاطمئنان اليه ، عظمت عليهم مشقة التنظيم العاجل ، فانفردوا كذلك بشروط الصلح والاتفاق ، فكانت شروطهم غير الشروط التى اتفق عليها الوطنيون

وينبغى أن نتنبه الى خطأ يتعرض له المؤرخون فى هذا السياق ، لأنهم يقيسون الأمور فى ذلك العصر على أشباهها فى العصر الحديث . فيخطر لهم أن الروم سكان مصر كانوا يشعرون مع الدولة القائمة بوحدة الوطنية أو وحدة الجنس والقومية ، وليس لهذا الخاطر مسوّغ من تكوين الدولة ، ولا من وحدة العنصر ، ولا من شعور الولاء للنظام الحكومى الذى كان قائمًا فى دولة الرومان شرقا وغربا عند فتح العرب للديار المصرية

لم تكن الدولة الرومانية دولة روم بمعزل عن اللاتين وسائر الأقوام التابعين لرومة القديمة ورومة الجديدة ، أى القسطنطينية ، بل كان الروم اليونانيون قلة فى مناصب الدولة الشرقية ، وكان اللاتين من أهل الغرب يشعرون أن رومة الجديدة قد جارت على مكانة رومة القديمة وعرّضتها للهوان والاهمال . وكان الرعايا فى الشرق والغرب خليطا من الأجناس المتعادية المتنافرة ، لا تربطهم رابطة غير سلطان القوة والخوف من الغارات المشتركة والقبائل البربرية . ولم يكن نظام الجلوس على العرش قائمًا على وراثة محترمة أو حقوق مرعية ، بل كان باب القصر المالك مفتوحا لكل غالب وغاصب ، وكان فوقاس على عرش القسطنطينية

وحوله أناس يتآمرون مع هرقل حاكم أفريقية الشمالية فى ذلك الحين لاغرائه بالهجوم على العاصمة وانتزاع العرش من صاحبها ، فقتل فوقاس فى هذا الصراع ، وخلفه هرقل بتأييد المنشقّين على العاهل القتيل ، ثم انقلب هؤلاء على هرقل بعد تأييده ، فهمّ بترك العاصمة والانتقال الى أفريقية حيث كان . ولولا أن بطرق العــاصمة خاف على مكانته من منافسة كنيسة الاسكندرية وكنيسة رومة القديمة ، لانتقل الى أفريقية وترك الدولة الشرقية للمغيرين عليهــا ، ولكن بطرق العاصمة فتح له كنوز خزائنه ، وحشد له أعوانه ، واستخدم سلطانه الدينى فى تهدئة جأشه وتوهين الدعاوى التى ادعاها عليه أعداؤه ومنازعوه ، وهذا كله يجرى بعلم الولاة الكبار والقادة البارزين ، فيضعف فى نفوسهم ولاء الطاعة والاذعان ، كما يضعف فيها ولاء الاخلاص والوفاء . ولم يكن أحد فى الدولة الرومانية يجهل أنها دولة منهارة تتصدع وتؤذن بالزوال ، ولم يكن قد غاب عن بالهم هزائم هرقل وأسلافه أمام الفرس وأمام القبائل البربرية ، ولا غاب عنهم أن أساطين الدولة يتربصــون به الدوائر من الداخل لمنازعته السلطان ، أو لتحويل الدفة مع اتجاه الريح ، وقد كان لها اتجاه مختلف كل الاختلاف ما بين عام وعام

فالمؤرخ الذى يقيس موقف الروم المحليين فى ذلك العصر على مواقف العصر الحاضر يجهل الموقف ويخطىء القياس ، اذ لم يكن هنالك شعور قومية من سلالة اللحم والدم ، ولا شعور وطنية من تقاليد النظــام السياسى وقواعد الحكومة ، وكل ما كان هنالك أن آحادا من زعمــاء الروم المحليين فى مصر كانوا يعتمدون على قوة القسطنطينية للمحافظة على مصالحهم « المحلية » والتغلب على الوطنيين ، وكانوا مع هــذا الاعتماد على قوّتها يشكّون فى دوامها ونجاحها ، ولا يطمئنون الى وعودها ، ولا يأمنون انقــلابها ، وخطتهم هذه انما هى خطــة مداورة واغتنام فرصة ، قد تتحول من عاهل الى عاهل ، كما تتحول من فريق الى فريق

وقد علموا أن العواهل أنفسهم مستيئسون فى قتالهم ، يحارب بعضهم بعضاً محاربة القانط من الغد ، أو الذى لا يهمه أن يكون الغد كيف يكون . وآخر ما عرفوه من ذلك قبيل الفتح الاسلامى أن « فوقاس » قذف بكنوز الدولة وجواهر القصر الملكى فى البحر ، ضناً بها أن تؤول الى منافسه هرقل بعد غلبته عليه ، فما كان أحد منهم يقاتل يومئذ قتال الرجاء أو الثقة بالعودة الى النصر بعد الهزيمة

أما اليهود فقد كان حسبهم من النقمة على الدولة الرومانية أنها هدمت هيكل سليمان ، وشردتهم من بيت المقدس ، وتعقبتهم فى بلادها بالمطاردة والمصادرة ، والاكراه على عبادة الامبراطور تارة والاكراه على العبادة المسيحية تارة أخرى ، ولكنها كانت تغنيهم فى كل عصر عن الذكريات القديمة بما تجدده من صنوف الاضطهاد والتعذيب ، وكانت لهم نكبة يذكرونها لكل من العاهلين اللذين تعاقبا على عرش القسطنطينية فى عصر الفتح الاسلامى ، وهما فوقاس وهرقل . فأما فوقاس فقد أمر بطردهم من وظائف الدولة فى الاسكندرية ، وتعميدهم كرهاً ، وقتل من يخالف أمره فيرفض الاذعان للتعميد . فلما ثار هرقل على فوقاس نصروه ، وانتظروا خيراً على يديه ، فاذا بهرقل ينكبهم نكبة تنسيهم مظالم سلفه المغضوب عليه . وروى ذلك بطرق هرقل فى الاسكندرية « افتيخوس » حيث قال من تاريخه المشهور :

« فى السنة التاسعة من مُلك هرقل خرج من القسطنطينية يريد بيت المقدس . فلما بلغ طبرية ، خرج اليه اليهود الساكنون بطبرية وجبل الجليل والناصرة وكل قرية فى تلك الناحية ، فاستقبلوه بالهدايا ، ودعَوا له ، وسألوه أن يعطيَهم الأمان ، فكتب لهم بذلك عهداً ، فلما بلغ بيت المقدس استقبله رهبان الصوامع وأهل بيت المقدس ، ومعهم مودستس بالمَجامِر والبَخور ، فلما دخل المدينة ونظر الى ما دمر الفرس وأحرقوه اغتم غماً شديدا ، ثم نظر الى ما بناه مودستس من كنيسة القيامة وكنيسة مار قسطنطين وغيرها ، فسرّه ذلك ، وشكر مودستس على

ما فعل . وشكا الرهبان وأهل بيت المقدس له ما فعلته معهم اليهود الذين حول بيت المقدس مع جبل الجليل وقت قدوم الفرس ، وأنهم كانوا معهم يعينونهم ، وقتلوا من النصارى أكثر مما قتله الفرس ، وخربوا الكنائس وأحرقوها بالنار ، وأروه القتلى الذين فى ماميلا ، وأعلموه بما فعلوا فى مدينة صور من قتل النصارى وخراب الكنائس . فسألهم هرقل : ماذا تريدون ؟ قالوا له : نقتل كل يهودى حول بيت المقدس وجبل الجليل ، لأننا لا نأمن أن يجيئنا عدو أو قوم مخالفون ، فيكونوا أعوانا لهم ، كما أعانوا الفرس علينا . قال هرقل : وكيف أستحل قتلهم وقد أعطيتهم الأمان ، وكتبت لهم بذلك عهدا كما تعلمون ؟ ومتى نقضت العهد والأمان ، كان ذلك عاراً علىّ وأحدوثة قبيحة ، ولم آمن إن كتبت لغيرهم عهدا أن يأباه . فقالوا له : ان سيدنا يسوع المسيح يعلم أن قتلك لهم غفران لذنوبك ، والناس يعذرونك ، لأنك فى الوقت الذى أعطيتهم الأمان لم تدر ما فعلوا من قتل النصارى وخراب الكنائس ، وانما خرجوا اليك واستقبلوك بالهدايا مكراً منهم ولعنة ، فقتلهم قربان الى الله ! ونحن نحتمل لك وعنك هذا الذنب ونكفر عنك ، ونسأل سيدنا يسوع المسيح ألا يؤاخذك به ، أو نجعل لك جمعة كاملة فى بدء الصوم الكبير ، نصومها لك ، ونترك فيها أكل الجبن والبيض ما دامت النصرانية ، ونجعل فى هذا قانونا وحرما بألا يتغير ، ويكتب به الى جميع الآفاق غفرانا لجميع ما سألناك أن تفعل . فأجابهم هرقل الى ذلك ، وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الجليل ما لايحصى ممن قدر عليه ، ومنهم من اختفى ، ومنهم من هرب الى الجبال والى مصر »

وجاءت هذه القصة فى تاريخ المقريزى حيث يقول :

« ثم سار هرقل من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ويجدد ما خربه الفرس منها ، فخرج اليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا اليه الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم

وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا ، فساءه ذلك وتوجع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وايقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم ، فانهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه ، على ممر الزمان والدهور ، فمال الى قولهم ، وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعا فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى »

وهذه قصة تدل على مكامن الخطر من نقمـــة اليهود ، وتدل على مكامن الخطر التى هى أبلغ من ذلك وأدهى ، فاذا كان هرقل يجهـل ما حدث فى بيت المقدس حتى يراه بعينه ، وكان رعاياه الكبار منقطعين عنه حتى يصل اليهم فى عقر دارهم ، فتلك دولة ممزقة مهملة مفتوحة للأخطار من مكامنها ومما حولها على السواء .

وقد كانت لليهود ترات غير تراتهم عند العاهلين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يهاجمون أبناء البلاد ويتعرضون لهجومهم فى كل فترة من فترات الثورة والانتفاض . وكانوا اذا سلموا من ضربات الدولة واستهدف لها أبناء البلاد وحدهم ، خامر هؤلاء الظن أنهم يمالئون الدولة عليهم ، وأنها تحابيهم وتستعين بهم سرًّا وعلانية على اضطهادهم ، فاذا أمنوا طغيان الدولة لم يأمنوا الشبهات والتهم من رعاياها الموتورين !

وكان لليهود موقعان من أهم المواقع فى البلاد المصرية من الوجهة العسكرية ، فكان لهم حيان بين أحياء الاسكندرية الخمسة ، وحى كبير فى عين شمس بجوار منف عاصمة البلاد الداخلية ، وكل من هذه المواقع

له شأنه الخطير فى أوقات الهجوم على البلاد من بحرها وبرها

وكانت للبشموريين فى شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور لا تقل خطراً عن مواقع اليهود فى العاصمتين ، اذ كانوا يسكنون المراعى الواسعة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وكانوا عرباً منحدرين ، على أرجح الأقوال ، من سلالة العمالقة الأقدمين، وكانوا يعاونون العرب الفاتحين ، كما عاونهم عرب الصحراء فى الشام على اختلاف العقيدة والمقام ، واذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة بشمورية علمنا أن أقسام البادية العربية لم تتغير كثيرا من قديم الزمن ، وأن عمرو بن العاص قصد الى الفيوم قبل فتح منف على علم بأصول هذه السلالة

وانقضى عهد هرقل كله ومصر تسمع بأخبار الفتوح الاسلامية ، وتتوقع مصيرا كمصير جاراتها فى المشرق القريب ، ولم يكد أعوان هرقل يستعيدون بعض الثقة بدولته بعد خروج الفرس من مصر حتى تبين لهم أن قوة أقوى من الفرس والروم معا قد ظهرت فى ميدان النضال العريق بين الدولتين ، وسمعوا بهزيمة الفرس كما سمعوا بهزيمة الروم فى فلسطين . ومنهم من ذهب الى فلسطين نجدةً لهرقل ، فلم يكد يدخل الأرض باحثا عن العاهل الذى استنجده حتى سمع بفراره وتوديعه البلاد توديعَ اليائس المفارق الى غير رجعة ، كما تناقل عنه الذين قفلوا من ركابه عند تخوم آسيا الصغرى

وأوشك العهد الذى كتبه الخليفة العربى لبطارقة بيت المقدس أن يصبح من محفوظات الساسة ورجال الدين فى منف والاسكندرية بالرواية المتواترة ، وعلموا أن الخليفة حضرته الصلاة وهو فى صحن الكنيسة الكبرى ببيت المقدس ، فخرج منها وصلى على درجها منفرداً لئلا يطلبها المسلمون ذكرى لصلاة الخليفة عليها ، وأنه كتب فى عهده أنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم : لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ،

ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ومن خرج من الروم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية ، ومن أحب من أهل ايليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم[1] وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم »

***

وسيرى القارىء فيما يلى كيف خاض المؤرخون فى حديث المقوقس كبير مصر ، وكيف تخيلوا أنه احتال للصلح بشروط غير شروط الروم من جند هرقل فى الاسكندرية ، وسيرى أن هؤلاء المؤرخين نسّاخون يتخبطون فى صناعة النسخ فضلاً عن صناعة التأويل والتخريج ، لأن اتفاق المقوقس بشطريه لم يكن الا نسخة من اتفاق بيت المقدس بين العرب وأبناء البلاد ، وكانت سياسة العرب أن يتفقوا مع أبناء البلاد ، ثم لا يعنيهم من أمر الدولة الحاكمة الا أن تنجلى بجنودها حيث تشاء ، فاذا قبل أبناء البلاد شرطاً متفقا عليه لم يكترثوا أن يقبله الروم ، ولم يأبوا عليهم الخروج الى ديارهم آمنين مع من يتبعهم من رعاياهم المتعلّقين بهم فى موقف الرحيل

---

(١) بيعهم : البيعة بكسر الباء : كنيسة النصارى .

المقوقس

نعرض الآن ببعض التفصيل لسيرة المقوقس وهو ، كما تقدم ، من أكبر الشخوص الخلافية فى تاريخ مصر • ويندر أن توجد فى تاريخ العالم كله سيرة خلافية من هذا القبيل

وشطر من اللوم فى ذلك على المؤرخين النساخين ، وشطر آخر من اللوم على المؤرخين الذين يدخلون أهواءهم الحديثة فى مسائل التاريخ الخالية ، ويكتبون بخصومات اليوم وأغراضه فى شئون لم يكن فيها محل قط لتلك الخصومات والأغراض !

وقد كان تاريخ المقوقس مبهماً كتواريخ حكام الرومان فى البلاد التى فتحها العرب من فلسطين الى أفريقية الشمالية ، لأن أحوال الدولة الرومانية البيزنطية كانت فى ذلك العصر مبهمة متقلبة • يتولاها الامبراطور اليوم ، فيولى ويعزل ، ويقرب ويبعد ، ويغير المناصب وأصحابها • ولا يستقر على عرشه حتى يثور عليه طامع فى الملك يهدم كل ما أقامه من أركان ملكه ، وقد يبقى أناساً من أصحاب المناصب كانوا معه سراً أيام ثورته ، وقد ينكل بأناس كان يداريهم ويداورهم الى أن يتمكن منهم ، وقد تنظم الدولة وتجرى حوادثها على وتيرة معقولة بضع سنوات ، ولكنها تصل الى التاريخ فى عصر قد اضطرب فيه التاريخ والمؤرخون ، وحالت فيه الأهواء والمنازعات دون ذكر الحقائق والتبعات ، فيقع اللوم على غير أهله ، ويبذل الثناء لمن لايستحقه، وتمسخ الأخبار والحوادث مسخاً لمجاراة المآرب والشهوات !!

وتاريخ المقوقس كان عرضة للمسخ والابهام فى جميع هذه الجوانب :

كان عرضـــة للمسخ والابهام من جانب المؤرخين النساخين ، وعرضة للمسخ والابهام من مؤرخي العصور الحديثة الذين نظروا الى أيام الفتح العربي كأنهم ينظرون الى فتح يحدث في هذه الأيام ، ثم كان قبل ذلك جميعه عرضة للمسخ من تقلقل الأحـــداث وتغير الدول والحكومات والأحزاب الدينية والسياسية ، ويكفي منها اغتيال امبراطور ، وجنون امبراطور بعده ، ودخول مصر في حوزة الفرس وخروجها منها ، وتنازع الكنائس على العبادات تنازعاً قد استعصى على كل توفيق ، فمن دان بمذهب فخصوم ذلك المذهب عنده كفرة مشركون ، ولا توســط بين الطرفين ، لأن الخصومة تشمل عقيدة الدين وعصـــبية الجنس ومطامع السيادة والسياسة ، وتطرأ في ابانهـــا غارات من الخارج وثورات من الداخل لا تؤذن في حينها باستقرار !

لهذا اختلف المؤرخون على كل شيء يتعلق بالمقوقس حتى كادوا أن ينكروه !!

اختلفوا على إسمه ، واختلفوا على جنسه ، واختلفوا على منصبه ، فضلاً عن الاختلاف على مقاصده وأغراضه !

وظن بعضهم أن المقوقس اسم الرجل على أصله ، أو مشوبا[١] ببعض التحريف

وظن بعضهم أنه لقب وظيفة ، ثم اختلفوا في الرجل الذي كانت تطلق عليه . فمنهم من اعتقد أنه « الأجيرج » أو الأعيرج ، الذي جاء في كلام بعض المؤرخين العرب أنه كان يتحصـــن في قصر بابليون . ومنهم من اعتقد أنه البطرق بنيامين الذي كان على مذهب الكنيسة الوطنية . ومنهم من اعتقد أنه البطرق فيروش الذي كان على مذهب الكنيسة الملكية . ومنهم من قال انه وطني تمذهب بمذهب أبناء البلاد واعتقـــد الكفر في رؤساء الدين بالقسطنطينية . فأضـــمر الكيد لهم ، وأحب أن يستأثر بالحكم دونهم . ولم يتفقوا بعض الاتفاق أخيراً الا في أمر لقبه باللغة اليونانية ، فليس بين المؤرخين اليوم من يحسب المقوقس اسما للرجل ،

---

(١) مشوبا : مخلوطا .

بل ليس فيهم من يحسب أنه لقب سبقه اليه أحد من ولاة الروم على الديار المصرية

وعندنا أن هـذا « اللقب » مفتـاح لبعض الألغاز التى أحاطت بتاريخه ، لأنه يرجح الدلالة على جنسـه ، وعلى علاقته بالدولة التى كانت لها السيادة الاسمية على البلاد

لم تجر عادة الدول الأجنبيـة ان تفخم ألقاب الولاة الا اذا كان الغرض مرضاة البلد المحكوم بمظهر من مظاهر السيادة

وكانت الدولة الرومانية على الخصوص تكتفى بأيسر الألقاب اذا اطلقتها على الولاة من الرومان ، فكانت تسمى الوالى حاكما او قنصلا أو نائب قنصل أو نائبا أو وكيلا ، من أشبـاه هـذه الأسماء التى تؤدى المعنى الرسمى ولا تزيد . وتعمدت الدولة فى أيام العواهل ان تضعف من فى الولايات ، لأنهم كانوا يرشـحون أنفسهم للعرش اذا برزوا بين القادة وملكوا زمام الجيش فى اقليم كبير

انما كانت ألقاب التفخيم مقصورة على الوطنيين ومن هم فى حكمهم من المنتسبين الى البلد ، لأن هـذا اللقب عوض عن التـاج حيث لا منازعة عليه ، فلا خطر على الامبراطور فى القسطنطينية من رئيس وطنى مفخم فى بلده بين أبناء وطنه ، بل فى ذلك دفع لخطر الثورة ، ورضى بالنصيب المقدور من الرئاسة ، واما الخطر كل الخطر فهو من تعظيم قائد رومانى ينازع الامبراطور على عرشه ، ويتخذ من فخامة اللقب ذريعة الى الاقتراب به من مقام الامبراطور وجميـع الأعوان الذين يحيطون به ، كما يحاط بكل حاكم مناظر لصاحب العرش يطمح الى مكانه

وقد وجب تعويض مصر عن بعض ما فقدته من سلطان الملك وسلطان الدين بعد القرن الخامس للميلاد

فقبل ذلك كانت الثورات فى مصر لا تنقطع ، وكان بعض الثائرين من قادة الرومان أنفسهم ، فلما استقرت هـذه الثورات بعض الشىء

كانت الاسكندرية قد تعرضت لمنافسة شديدة أشد عليها من سلطان السيادة السياسية

كان الامبراطور قسطنطين قد دان بالمسيحية فى أواخر أيامه ، فأصبحت عاصمة الدولة تابعة فى العرف الدينى لكنيسة الاسكندرية لأنها أقدم الكنائس وأكبرها فى المشرق والمغرب

ثم جاء جوليان المرتد بعد قسطنطين ، فبقيت للاسكندرية مكانتها الكبرى ، ولم تكن للقسطنطينية مكانة دينية كبيرة أو صغيرة . لأنها عاصمة دولة لم تعترف بالدين ، أو لم تثبت على الاعتراف به ، واقلبت عليه تحاربه وتقصى أتباعه من مراكزها العليا

وظل مقام الاسكندرية مقامها الى القرن السادس الذى استقرت فيه المسيحية فى عاصمة الدولة وأصبحت كنيستها عاصمة الكنائس على هذا الاعتبار ، وأوشكت هذه الصفة أن تثبت لها بعد تسمية القسطنطينية برومة الجديدة ، تعاليا بها على رومة القديمة ، فلم يبق لبطرق العاصمة مناظر يحسب حسابه غير بطرق الاسكندرية ، واذا كان مذهب الملك هو المذهب السائد فى بلاد الدولة الرومانية ـ فرئيس الكنيسة فى الاسكندرية تابع ولا شك لرئيس الكنيسة التى يصلى فيها الامبراطور ، ويتولى رئاستها الدينية فى عاصمته الكبرى ، وبطرق الاسكندرية مرؤوس لبطرق القسطنطينية على هذا الاعتبار

لقد كان البطرق الاسكندرى رأس الدين المسيحى فى العالم كله قبل رؤسائه فى العاصمة الغربية والعاصمة الشرقية ، وكان من بطارقتها من يقول : « ماذا يعنينى من الامبراطور ؟ اننى هنا الامبراطور ! » وكان صادقا فيما قال ، لأن الناس كانوا يطيعونه ويؤمنون بأن طاعته من طاعة السماء . أما الامبراطور فمهما يكن من أمر طاعته القسرية فهى طاعة أرضية على كل حال !

هنالك وجب تعويض مصر ، ووجب اجتماع اللقب السياسى واللقب الدينى فى كرسى واحد ، وكان هذا هو حكم البداهة الذى

وافقه حكم الواقع ، فكان « المقوقس » جامعا بين صفة الرئاسة الدينية وصفة الرئاسة الادارية ، أو كان هو بمثابة « ولى الأمر » فى مصر بالاصطلاح الحديث ، وقد تكون رئاسته عند الدولة رئاسة شرف يعززها مكانة « عملية » بين أبناء البلاد

واذا كان التاريخ لا يكرر نفسه كل التكرار فى جميع الحوادث ، فهو لا يخلو كل الخلو من التكرار المتجدد حينا بعد حين . ولعل لقب « الخديو » أشبه الأشياء بلقب « المقوقس » فى أواخر عهد الدولة الرومانية ، فهو وال وأكثر من وال فى المنزلة السياسية ، وهو ولى الأمر بالنيابة عن الخليفة أمير المؤمنين ، وباسمه تقام الأحكام الشرعية والادارية فى ظل شاهنشاه ، وخليفة الاسلام

كان لقب المقوقس أو المقوقز كلمة يونانية بمعنى المفخم أو الفاخر ، كالحضرة الخديوية « الفخيمة » أو المفخمة كما صححتها اللغة العربية

وكان اطلاق هذا اللقب على رئيس من المصريين أو المتمصرين معقولا مفهوما فى تلك الفترة على سبيل التعويض والترضية ، ودفع النزاع والتنافس بين سلطان العاصمة الكبرى وسلطان الاسكندرية ، أما الغريب الذى قلما يفهم فهو اطلاقه على قائد رومانى لا يكبر — اذا كبر — الا لينتزع العرش من الامبراطور

وهذه ناحية من نواحى البحث المنتج فى تاريخ المقوقس وتاريخ الفتح العربى على اجماله ، وهناك نواح أخرى تضارعها فى الانتاج أو تزيد عليها ، ومنها خطاب النبى عليه السلام الى المقوقس ، وتلك السمعة « الخارجية » التى جعلت له هذه المكانة ، وجعلته أهلا لأن يخاطبه النبى عليه السلام فى أمر المصريين جميعا ، مع خطابه لهرقل فى الوقت نفسه ، كأنه لا يملك من أمر مصر ما يملكه المقوقس

ومن نواحى البحث المنتج صفة المقوقس التى رشحته للتعاهد باسم مصر ، والتزام الانجاز والتنفيذ بعد ارتحال الجيش الرومانى من البلاد ، ومنها البواعث النفسية التى تحبب اليه أن يبقى فى مصر

ويخرجها من دولة الروم أبداً ، غير مبال بانتقال سلطان الدولة الى أيدى الفاتحين من أبناء دين غير دينه . فكل هذه النواحى المنتجة تؤدى الى شىء من الترجيح القوى ، ان لم يكن من شأنها أن تؤدى الى القطع والجزم فى جانب الاثبات أو جانب النفى والانكار ، ولكنها على ذلك أهملت أسوأ الاهمال ، ولم يعرها « المؤرخون النساخون » بعض ما أعاروه كعادتهم للمقارنة بين النصوص ، والموازنة بين الأرقام ، وسرد أقوال الشهود على وقائع ليست من وقائع الشهادة والحكاية فى التاريخ ، ولا فى حوادث كل يوم

وهذه نماذج من أقوال المؤرخين فى هذه المسألة ، نحسبها نماذج لأكثر من باب واحد من أبواب التاريخ ، فهى مثال لتاريخ النساخين ، ومثال لتاريخ ذوى الأغراض ، ومثال للتاريخ الذى يكتبه المعاصرون وينظرون فيه الى حوادث الزمن القديم ، فيحكمون عليها كأنها تقع اليوم ، وتنبعث من دواعى السياسة أو الشعور ، التى تدور عليها حوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين

***

من أكبر المؤرخين لعصر الفتح الاسلامى الدكتور الفريد بتلر الذى أقام فى مصر زمنا قبل الاحتلال البريطانى وبعده ، واجتهد اجتهاده العلمى فى تمحيص الوثائق التى عثر بها فى القصور الخديوية وفى المكتبات العامة والخاصة ، ولكنك تلمح من ثنايا كلامه كأنه يكتب عن خروج مصر من الدولة الرومانية ، وهو يتصورها خارجة من الدولة البريطانية فى العصر الحديث ، ويحسب ان تدبير هذا الخروج « عمل خائن » يحاط بالشبهات ، ويدان بأحكام العلاقات الدولية فى هذه الأيام

فبعد أن أورد الأقوال المتضاربة ليضعفها ويفندها[١] ، اختار منها قولا واحدا لا فضل له على سائرها ، غير انه القول الذى يدين المقوقس ويسفه رأيه ! !

---

(١) يفندها : فند رأي فلان خطأه وكذبه .

قال : « الى هنا قد بيّنا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب فى بعض الأحايين ، واختلاف واسع فى أحايين أخرى ، وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصليـــة ، ومنها ما تخلف عن العصر الذى نصفه ، وهى من أصـــول متباينة : منهـــا اليونانى والقبطى والسريانى والعربى ، وكلها تدل على ان المقوقس انما هو « فيرس » بطريق اســـكندرية والعامل على الخراج ، والحاكم العام على مصر فى وقت الفتح ، وليس ينقض هـــذا الرأى أن يقول إن مؤرخى العرب قـــد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسمونه ليس هو فيرس ، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ، ولكننا ننكر كل الانكار تلك النتيجة التى يذهب اليها أصـــحاب ذلك القول ، وهو ان لقب المقـــوقس لم يكن علمـــا على شخص معين واحـــد ، وحجتهم فى ذلك أنه قد أطلق خطـــأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعددين ، ويلوح لنا ان العلامة كاتيانى من بين من يذهبون هـــذا المذهب . وأما الحقيقة التى نراها فهى ان المؤرخين العرب انما كتب أكثرهم وليس عنـــده من المقوقس أكثر من صـــورة ضئيلة مبهمة ، وانه كان حاكما على مصر ، فليس من العجيب أن نجدهم يصورونه أحيـــانا مشتركا فى أعمال أو حوادث لم يكن مشتركا فيهـــا بنفسه ، أو لم يحضر حدوثها ، ولا شك انهم قد ضلوا فى أمر اسمه وشخصه ، ولذلك فهم يخطئون فيها ، ولكن المســـألة التى نحن بصددها باقية ، وهى ان نكشف خلافهم عن حقيقة شخصيـــة المقوقس ، وان نعرف من كان بين الناس ، ولم يذكر مؤرخ عربى — وما كان له ان يذكر — ان ذلك اللقب قد اطلق على ثلاثة اشخاص كلهم حق له أن يلقب به ، وليس فى طاقة المنطق ان يبيح لقـــائل ان يقول ان وجود الخلاف يجعل ذلك اللغز متعسرا على العقول لا تستطيع حله ، بل ان واجب النقـــد التاريخى ان يصفى ما هناك من خلاف ، وان يزيح ما تراكم منه على الحقيقة فيكشفها ويجلوها . ولعلنا يحق لنا ان نعتقـــد أنه اذا عرضت الأدلة عرضا لا ميل فيه ولا تحيز أمكن أن نصـــل

الى تيتجة مؤكدة ليس فيهـا شـك ، وهى ان المقوقس لم يكن سوى فيرس ، وانه لا ينبغى لذلك اللقب ان يطلق على سواه من الناس » (١)

***

وأشـد من بتلر « بريطانية » فى تصـوير التاريخ تلك السيـدة الانجليزية « ا . ل . بتشر » التى كتبت تاريخ الأمة القبطية لتأسف أولا على انها انفصلت من الكنائس الغربيـة ، وتثبت ثانيا ان خروج مصر من حـكم الرومان كان خيـانة مصرية لا تضـارعها خيـانة ، وتمثلت صـاحب هـذه الخيانة كأنه عائش فى زمانها ، فهالت عليه من السبـاب المقذع ما يستحقه عندها الخارجون على سـلطان بريطانيا العظمى ، وهى — أى السيـدة بتشر — على خلاف رأى بتلر فى تحقيق شخصية المقوقس ، لأنها تقول انه هو جورج أو جرجس المصرى ، وتتوجع لمـا حدث ، كأنه لو لم يحدث كانت سلمت الدولة الرومانية مما أصابها ، وبقيت مصر فى حوزتها !

قالت : « لمـا طرد هرقل الفرس سنة ٦٣٠ وأعاد حامياته فى مصر كان اعلم باضطراب الموقف ، وتخلخل قبضته على البـلاد ، من أن يندفع متهجما ، وجعل ينتظر ريثما تبلغ مقترحاته الدينية مبلغها عنـد الجانب المصرى ، وكان حكام الأقاليم — ومنهم مصريون وطنيون — يعلمون أن وقت الحساب غير بعيد لا يقبل التسويف الطويل ، وكثير منهم كانت له أسبابه الخاصة وأسبابه السياسية التى تخيفه من عاقبـة استقرار السيطرة البيزنطية

« ولو ان مقترح التوفيق ، الذى عرف بالأوطاخى ، لقى القبـول عنـد البطرق بنيامين لأصبح هؤلاء الحكام عزلا من السلطان ، ولكن هرقل من طريق نائبه فيرس الذى اختـاره بطرقا للكنيسـة البيزنطيـة أو كنيسة الدولة ، كان قد أخطـأ فهوّن من شـأن البطرق المصرى ، فلما بدا لفيرس ان جمهرة الأمة المصرية رحبت بمقترحه لم يتردد فى

(١) من ترجمة الأستاذ محمد فريد أبى حديد لكتاب « فتح العرب لمصر » الطبعة الثانية

اضطهاد البطرق المصرى ونفيه لرفضه وابائه ، فما كان من أثر ذلك الا ان الرفض والاباء كمنا فى طوايا الأمة المصرية جمعاء ، وأصبح المقترح محتوم الزوال بعد حين ، ومهما يكن من أخطاء الأمة المصرية ، لقد كان من دأبها انها لم تخذل قط بطرقها ، ولعل مقترح الامبراطور كان يبدو كأنه غاية ما ترومه ، لولا أن البطرق لم يقره ، فليس من حق المصرى الصادق أن يباليه ويلتفت اليه ، وشيئا فشيئا تحولت جمهرة الشعب من جانب الامبراطور ، وأخذ فيرس يدرك انه أخفق وخاب فى مسعاه ، فتنفس الموظفون الخونة الصعداء ، ولاح لهم يوم الحساب غير قريب

« من هؤلاء الموظفين والوكلاء واحد ينفرد بارزا بالمكانة الشائنة ، وقد سمع أكثر الناس بالمقوقس الذى تمارى الكثيرون فى اسمه ووظيفته ، بل تماروا فى وجوده ، وتناقشوا طويلا فى أمره ، ولكن مجموعة الورق البردى ، التى فى حوزة الارشيدوق رينر وترجمت أخيرا ، قد يسرت لنا ، ولو بعض التيسير ، ان نزيل بعض المصاعب التى تحف بهذه المسألة

« ومعظم المؤرخين متفقون منذ زمن بعيد على ان المقوقس لم يكن اسم علم ، ولكنهم حاروا فى الجزم بحقيقته بين آن يكون لقبا أو عنوان منصب من مناصب الدولة . أما الواقع فيظهر انه لم يكن هذا ولا ذاك ، وانما كان الرجل صاحب عنوان يمكن أن يسمى بالعمدة ، ويخطىء بعض المؤرخين فيسمونه نائب الملك ، واسمه الأصيل جرجس بن مينا بركيوبس ، وقد كان اسم مينا فى مصر عاما شائعا يحتاج الى لقب يونانى لتمييزه ، وليس العمدة أو المدير فى الأقاليم الا الحاكم المصرى الذى يشرف على جميع أعماله الادارية ، كحفظ الأمن ، وجمع الضرائب وتسليمها ، وتدبير شئون الطرق والجداول والسدود والقناطر ، وكل ما يلحق بالنظام الادارى ، حتى سك العملة وتقدير المقاييس والأوزان . ولا يخرج من سلطانه غير الجيش ، وتمثله

فى كل اقليم حامية صغيرة ، والقساوسة ، وهم الاستثناء الأهم من استثناء الحامية . وقد كان عدد الموظفين الذين لا يعرفون أحدا أكبر من العمدة عظيما جدا ، ومن الكشوف الحديثة نعرف أسماء الأقسام الثلاثة التى تولاها العمدة أو المديرون فى عهد الغزوة العربية

« لقد كانت اليونانية لغة البلاد الرسمية ، وكان لقب التمجيد الذى يمنحه المديرون كلمة تقابل عندنا فى الانجليزية كلمة الفخم أو المجيد كما تعودنا فى تقديم سفرائنا بألقاب ذوى السعادة . ولكن العرب حسبوا هذه الكلمة اسما شخصيا للعمدة الخائن الذى فاوض عمروا على تسليم البلاد ، وقد أصبح جرجس الخائن من ثم مشهورا خلال القرون بوصف ما أقل انطباقه عليه ، وهو وصف المقوقس أو الفخم المجيد

« كان عمدة الوجه البحرى امون مينا رجلا ، كما وصفه يوحنا النخوى ، مدعيا غبيا ، يمقت المصريين أشد المقت ، بقى فى منصبه بعد دخول مصر فى حوزة العرب . وكان عمدة مصر الوسطى على أحد شواطىء النيل من ناحية المنيا يسمى فيرس ، ولا نعلم عنه شيئا الا انه اشترك فى تسليم البلاد للمسلمين ، وأما عمدة مصر العليا — أو بابلون — فاسمه فى أوراق البردى جورج أو جرجس ، الذى نسميه المقوقس ، وهؤلاء كانوا المديرين على أهم الأقاليم مع الدوق العسكرى والحامية التى تتبعه ، والى جانبهم قديما — أو بعد دخول العرب — مديران آخران أقل شأنا منهم ، وهما فولكسينوس بالفيوم وشنودة بالريف

« وثلاثة من هؤلاء العمد مصريون وطنيون ، بدليل أسمائهم التى لا تقبل الشك ، وان لم يكونوا من أتباع الكنيسة الوطنية ، والا لما أمكن أن يشغلوا هذه المناصب . وان المؤرخين الذين يذكرون المقوقس على انه قبطى مصرى لعلى صواب ، ولكنهم مخطئون فى زعمهم انه تابع للكنيسة الوطنية التى تعرف الآن باسم الكنيسة

القبطيــة ، ولعله كان فى قلبــه يشايع كنيسة آبائه ولا يستطيع أن يصرح بالانتســاب اليهــا . فهو موظف بيزنطى من أبناء مصر ، وهو من ثم خائن لامبراطوره ، وخائن لبلاده ، وخائن لكنيسته

« وكان قد مضى عليه عهــد بعيــد فى وظيفته على أيام الغزوة العربيــة ، فأصبح أقوى المديرين جميعا لدخول بابليون فى اقليمه على أقصى حده الشمالى ، وتعود المصريون نحو عشرين سنة أن ينظروا اليه كأنه وحده حاكم وادى النيــل ، وقد علمتهم غارات الفرس ان البيزنطيين بغير حول ولا قوة ، ثم ذهب الفرس وعاد البيزنطيــون ، واحتلت طائفة من جنودهم حصن بابليون وبعض الأمكنة فى بنى سويف والفيوم ، ولم يشعر أبناء البلاد الى الجنوب بآثار هذا التغيير ، ولا فرقوا بين الجنود فى ملابس الفرس أو الجنود فى ملابس الرومان ، وانما كانوا يؤدون الضرائب بحكم العادة للعمدة أو المدير ، ويكلون اليه أن يسلمها لمن يشاء ، وانقضى زمن طويل والمدير القوى يتصرف فيها على أيسر وســيلة ، فيستبقى له كل ما بقى من الأموال بعد توزيع المرتبات وتكاليف الحكومة فى الاقليم ، ولكنه ما عتم أن رأى هرقل يظن ان مقترحات التوفيق قد جمعت حوله أبنــاء البــلاد ، ويريد الدليــل المحسوس على ســلطانه ، ويشدد فى استقضاء الأموال ، حتى شــهد الخطر فاغرا فمه أمام عينيه ، وكان من قبل قد نظر الى بعيد ، وأرســل الى الشمس الطالعة ســفارة ودية تحمل الهدايا من العسل والعبيــد الى محمد زعيم القوم ، وها هو ذا محمد قد مات ، وها هى ذى وقائع النصر التى أحرزها هرقل تغمه وتشغل باله ، فاذا نهضت الدولة القديمة وهزمت العرب أمامها كما هزمت الفرس ، فهو أول من يساق لتقديم الحساب وقد التفت جيوش هرقل وعمر خليفة محمد فى فلسطين ، وأيقن جرجس ان مصر ستكون لا محالة نصيب الظافر من الفريقين ، ولاح له من وقائع هرقل الأخيرة انه قد يكون صاحب الكفة الراجحة ، فبادر الى العمل على حسب هذا التقدير ، وكانت له فتــاة

حسناء تسمى أرمانوسة ، فخطر له خاطر بارع : أن يزوجها من قسطنطين بن هرقل ووارث عرشه الذى ماتت زوجته ، وأن يزودها بجهاز يغريه باهمال موضوع الأموال المتأخرة ، وكان قسطنطين يومئذ فى قيصرية ، ويظهر انه استراح الى هذه الفكرة ، وعلى هذا خرج من بابلون فى أواخر سنة ٦٣٠ موكب فخم يزف العروس المصرية الى قرينها الملكي ، وقيل إن حراس الموكب بلغوا ألفى فارس عدا الحشم(١) والخدم وحملة الذخائر والتحف المهداة ، وما كاد الموكب يقترب من الحدود المصرية وينحو ناحية القنطرة فالعريش حتى نمى الى أرمانوسة نبأ انتصار العرب ، ومحاصرتهم لقيصرية ، وتأهبهم للهجوم على البلاد المصرية ، فتصرفت المصرية الشابة بالشجاعة والفطنة الجديرتين بأسلافها العريقين ، وقفلت الى بلبيس مستعدة هنالك للدفاع ، فأنفذت على الأثر حراسها الى الفرما للمقاومة فيها اذا قدم العدو من جانبها كما كان مرجحا فى تلك الأحوال ، وأرسلت الى أبيها تنذره ، ولم تبرح بلبيس لتشجيع السكان على الثبات فى وجه الكفار. على ان عمروا قائد المسلمين تجنب الفرما وتقدم رأسا الى بلبيس ، فضرب حولها الحصار ، فلبثت الفتاة الباسلة شهرا تصد العرب بفرقتها الصغيرة التى لم تدرب على القتال ، وبعد خسارة عظيمة فى الأرواح وقعت المدينة عنوة(٢) فى قبضة عمرو ، ومعها ارمانوسة وكل ما لديها من ذخائرها وكنوزها ، فبعث بها الى أبيها معززة مكرمة ، اما لاعجابه ببسالتها ومحاولتها الدفاع والمقاومة ، واما لادراكه جلالة العاقبة من ترك كل عمل يسىء الى العمدة المقتدر فى بابليون . فانحلت مشكلة المقوقس ، وبرح الخفاء فى أمر الشمس الطالعة منذ ذلك الحين »

وعلى هذا المنهج من تشويه الوقائع تمضى المؤرخة « المترومنة » وتتكلف من التحقيق والتمحيص ما يعينها على غرض واحد ، وهو الحسرة على خروج مصر من الدولة الرومانية ، والقاء التبعة فى ذلك على المقوقس ، وتعليل خيانته بجمع الضرائب لنفسه فى الآونة التى

(١) الحشم : بفتحتين : حشم الرجل خاصة الذين يغضبون له ٠

(٢) عنوة : بالفتح ، يقال : أخذه عنوة أي قسرا ، وفتحت المدينة عنوة أي بالقتال ٠

انقضت بين استيلاء الفرس على مصر وخروجهم منها ، وهى علة لا يعقلها جاهل بظواهر الأحوال ، فضلا عن مؤرخ يتصدى لتفسير التواريخ واستخلاص الحقائق من وراء الشبهات ، فان الفرس لم يفتحوا مصر ليتركوا ضرائبها وخيراتها غنيمة للمقوقس ، يعطى منها ما يعطيه ويستبقى منها ما يستبقيه . واذا كانت علة الخيانة خوف المطالبة بالضرائب المتأخرة فأيسر شيء على المقوقس أن يقول ان الفرس نهبوها ولم يعطوه « ايصالا » بما نهبوه بطبيعة الحال ، واذا عز عليه فى دهائه — أو فى بلاهته — أن يعتذر بهذا العذر الواضح ، فقد كان خيرا له أن يبذل المال لهرقل أو لقسطنطين بدلا من ارساله تحفا وهدايا وجهازا وصداقا[1] مع بنته المزعومة ارمانوسة ، وهو لا يأمن أن تخرج مصر من يد هرقل ، فيكون قد قذف بفتاته الى النيران ، ووقع بين شقى الرحى[2] من ناحية المهزومين وناحية المنتصرين ، ولم يستفد من كل ذلك ابقاء المال ولا ابقاء فتاته لديه

وقد قبلت المؤرخة « المترومنة » قصة ارمانوسة من قصص الواقدى على علاتها ، ولم تبحث فيها أقل بحث يتطلب التعزيز والاسناد ، ولم يحملها على قبول القصة الا انها ذريعة لتهمة من التهم تكال للمقوقس المسكين ، على أن « بتلر » لم يرفض قصة أرمانوسة انصافا للحقيقة ، أو ذهابا مع التمحيص والتدقيق ، بل رفضها لأنه اختار أن يكون المقوقس هو فيرس ، واختار أن يكون فيرس راهبا لا يجوز له الزواج ، وهو فى ذلك لم يبلغ بالتمحيص غايته ، لأن مسألة الزواج لم تكن يومئذ من الحرج والصرامة بحيث انتهت اليه بعد فصل الكنيسة القبطية من سلطان الرومان . وقد كان مستحبا للأسقف ان يكتفى بزوجة واحدة اذا خشى الفتنة على نفسه ولا يزيد عليها . قال ساويرس بن المقفع اسقف الأشمونين ، صاحب « سير البطارقة » أثناء الكلام على ديمتريوس الثانى عشر : « واذا قال قائل كيف يجوز أن يكون بطرك متزوجا نقول له : قد قال التلاميذ فى قوانينهم : اذا كان الأسقف

---

(١) صداقا : بفتح الصاد وكسرها : مهر المرأة . (٢) الرحى : بفتحتين الحجر العظيم المستدير الذي يطحن به .

متزوجا امرأة واحدة فلا يمنع من ذلك ، لأن الزوجة المؤمنة طاهرة وفراشها طاهر ولا ذنب عليه . والبطرك هو أسقف مدينة الاسكندرية ، وله الرئاسة على أساقفة أعمالها ، لأنه خليفة مار مرقس الرسول على اقليم مصر جميعه ، والخمس مدن والنوبة والحبشة كل هذه خرجت من قسم الأب مرقس الرسول البشير ببشرى الانجيل ولهذا أوجب أن يكون حكم أسقف اسكندرية على جميعها »

فليست هناك علل حاسمة تصلح للاستناد اليها فى التثبت من السير والأشخاص على هذه الطريقة التى توخاها بتلر ، أو على تلك الطريقة التى توختها السيدة فيما اختارته أو نبذته من تاريخ تلك الآونة

وكان خليقا بتاريخ هذه السيدة أن يهمل كل الاهمال ، أو يترجم لتصحيحه وابرائه من السخائف والأباطيل ، ولكنه ترجم فبلغ من غباء مترجمه أن يصرف همه فى الترجمة الى توكيد سخائفه ، وتمكين أباطيله ، واختراع القصص لتزييفه وتسويغه[1] ، ونبذة واحدة من الترجمة السقيمة تكفى لتصوير الجرأة على الهزل فى مقام الجد مما يساق للناس فى مقام التاريخ المحفوظ ، وهذه النبذة هى هذه القصة التى اخترعت أو أضيفت الى التاريخ من أساطير الخيال ، وقد نقلها المترجم مما تقدم فقال :

« من مميزات المقوقس انه كان ذا وجهين ، يتلون تلون الحرباء ويتقلب حيث شاء ، ولسان حاله يقول : أنا مع الغالب . فانه لما انتصر هرقل على العرب فى موقعة عند فلسطين ، ظن جرجس ان النصر سيكون لهذا الامبراطور ، ولذلك سعى فى التقرب اليه والتملق له عساه يتناسى عدوانه وطمعه ، فدبر الطريقة الآتية ، وهى انه كانت له ابنة بارعة فى الجمال اسمها ارمانوسة ، فخطر على باله أن يزوجها بقسطنطين بن هرقل الأكبر ووريثه ، وأمهرها بصداق وفير جعل هذا الأمير الذى كان حاكما فى قيصرية أن يقبل طلب جرجس ويتنازل فى المتأخرات الباقية عليه من ضرائب مصر التى لم يدفعها للخزينة

---

(١) تسويغه : سوغ الشيء جوزه وأباحه .

الامبراطورية . ففى سنة ٦٣٩ سارت هذه العروس المصرية من بابيلون ، بأبهة الملكات ، وفخفخة جداتها المصريات ، يحف بها جيش جرار ، ويمشى فى ركابها أمراء وأقيال[١] ، حتى بلغ مقدار الفرسان الذين كانوا فى موكب زفافها ألفى فارس أو يزيدون ، عدا العبيد والهدايا النفيسة والعطايا الفاخرة التى تليق بعروس مصرية لعريس رومانى . ولكن عندما وصلت هذه الحسناء لحدود مصر ، وكادت تعبر القنطرة عند الاسماعيلية الى العريش ، بلغها ان الغلبة كانت حليفة للعرب الذين شددوا الحصار على قيصرية ، وهم يستعدون للهجوم على مصر ، فلما طرق هذا الخبر آذان سليلة رعمسيس ، وابنة فرعون ، وكريمة أولئك الأجداد الكرام الذين دوخوا[٢] العالم واجتاحوه قبل أن يوجد العرب ، طرحت حلى العرس وزينة الفرح ، وتقلدت السيف بدل الوشاح[٣] ، ولبست الدروع بدل الدمالج ، وتمنطقت بمعدات الهلاك بدل أحزمة الذهب المرصعة باللآلىء ، ونزلت من مركبتها ، وامتطت متن جواد أشهب ، وقالت للذين يسيرون معها ان هيا نخضب أيدينا بدماء الأعداء بدل خضاب الأوانس ، ونشرب بجماجمهم عوضا عن شربنا بكاسات الذهب وطاسات الابريز . تعالوا نشنف آذاننا بصلصلة السيوف وصليل الخيل ، بدل وقع الدف ورنة العود ! سيروا بنا نحو الأعادى ، وهناك اذا وقعت العين على العين ، وحمى وطيس الحرب ، وعلا سعير الطعن والضرب ، وتقابلت مع الفرسان ، تجدوننى أردد ما قاله عنترتهم الأسود ، وأنا فتاة بيضاء بضاء ، وغادة هيفاء :

اذا كشف الزمان لك القناعا
ومد إليك صَرْفُ الدهرِ باعا
فلا تخش المنية والتقيها
ودافعْ ما استطعتَ لها دِفاعا

---

(١) أقيال : جمع قيل أي ملك . (٢) دوخوا : دوخ الرجل أذله ، والبلاد قهرها . (٣) الوشاح : شبه قلادة من جلد مرصع بالجوهر .

ولا تختر فراشـــــا من حــــرير
ولا تبـــــك المنـــــازل والبقـــاعا

وحينئذ كرت ارمانوســـة راجعة الى بلبيس فى نفر من رجالها وأخذت تستعد للدفاع وصد هجمات الأعداء المغيرين

الى أن قال :

« وبعد أن دخل عمرو بلبيس ، وقعت ارمانوســة أسيرة فى يده ، ولكنه أرسلها الى أبيها بكل احترام وتبجيل ، اما لأنه أعجب بشجاعتها وبسالتها ، أو لأنه خاف أن يؤذيها فيسيء الى والدها صديقه الحميم ، الذى ثبت لديه الآن ان العرب هم الذين ســوف يأخذون مصر بلا مجادلة . ولما وصلت ارمانوسة الى أبيها سألها عما فعلت ، فأجابته :

أقمنــــا بالذوابل[1] ســـــوق حرب
وصــــيَّرتُ النفــوسَ لهـــا مَتاعَا
حصـــــانى كان دلال المنـــــايا
فخـــــاض غُبـابهـا وشَرَى وباعَا
وسَيْفى كان فى الهيـــجا طبيبـــاً
يداوى رأس من يشــــكو الصـــداعا
اذا الأبطـــــــال فرت خوف بأسى
ترى الأقطـــار باعـــا[2] أو ذراعـــا

فكظم أبوها غيظه منها ، لأنها قاومت الذين تعاهـــد معهم على أن يعطيهم وطنه لقمة باردة دون حرب أو عناء ، ولم يستطع توبيخها أو تعنيفها ، لأنه كان لا يزال تحت ســلطة الرومانيين ، ولم تصر مصر بعد الى أيدى هؤلاء العتاة المغيرين .. »

***

وعلى غير هـــذا الأسلوب أصلا وترجمة ، يتعرض الدكتور جاك تاجر لتحقيـــق أمر المقوقس ، وتاريخ الفتح العربى ، وسرد الوقائع والمرويات على نسق يوهم القارىء ان النظر فى الوثائق والمعاهـــدات

---

(١) الذوابل : صفة للرماح ، وقد تطلق على الرماح . (٢) باعا : الباع مسافة ما بين الكفين اذا بسطتهما يمينا وشمالا .

يعاد من جديد ، فيقول فى الصفحة الرابعة والأربعين من كتاب بعنوان « مسلمون وأقباط » :

« ان الشخص الذى يطلق عليه مؤرخو العرب اسم المقوقس لم يزل غامضاً . هل كان قبطياً ؟ هل كان من أصل يونانى ؟ هل المقوقس الذى سلم القاهرة هو نفسه الذى أبرم اتفـــاقية الاسكندرية ؟ لم يصل المستشرقون بعد بحث وتنقيب خلال قرن أو أكثر الى جواب دقيـــق عن هذه الأسئلة . نعم اننا اليوم أقرب الى الحقيقة من أمثال شمبليون فيجاك شقيق شامبليون الذى صور لنا فيرس على أنه قس قلق ومفسد — خلف البطريرك جورج عام ٦٣٠ — بينما حكم مصر أحد الأقباط كريم الأصل ومن أغنى أغنياء البلاد اسمه المقوقس . غير أن المستندات التى حصلنا عليها حتى الآن لا تسمح لنا بعد بتفسير هذا اللغز التاريخى تفسيراً تاماً

استعمل المؤرخون كلمة « مقوقس » باعتبارها اسم شخص معين . على أننا متأكدون تقريباً من أصل هذه الكلمة ، ان البطـــريرك فيرس الذى عينه الامبراطور هرقل محافظاً على دوقية الاسكندرية كان قبل تعيينه أسقفا لمدينة فاز من مدن القوقاس ، فلقب فى مصر بلقب فوفيوس — القوقاسى — كما يشهد على ذلك أحد المستندات القبطية النادرة التى كشف عنها وأشار اليها اميلينو Amlineau :

... « أما الفوفيوس هذا الأسقف المزعوم ، فقد ترك الحقد يوغر فى صدره الى أن وصل الى مدينة الفيوم ... ولما أدرك الأب صمويل أنه سيفارق الحياة ، قال له — أى للفوفيوس — : أنت أيضاً أيهـــا الكلسيدونى المخادع .. »

الى أن قال فى الصفحة الخامسة والأربعين : « ونميل الى الاعتقـــاد دون أن نجزم قطعيا بأن المقوقس الذى فاوض فى تسليم بابليون ، هو شخص آخر غير البطريرك فيرس الذى أبرم صلح الاسكندرية ، بل أنه حاكم قبطى ، وأمسك المؤرخون العرب عن التثبت من شخصـــية

هذا الحاكم ... على أن المؤرخ الكاثوليكى « ابن بطريق » يشير الى المقوقس على أنه يعقوبى مبغض للروم ، ولم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالة اليعقوبيين لئلا يقتلوه ، ويتهمه ابن بطـريق الى جانب ذلك بأنه قد اقتطع أموال مصر من وقت حصار كسرى للقسطنطينية ، فكان يخاف أن يقع فى يد هرقل الملك فيقتله ... والذى يحملنا أيضاً على الاعتقاد بأن حاكم بابليون أيام الحملة كان قبطيًا ، هو الفرق الواضـح بين اتفاقيتى القاهرة والاسكندرية : فبينما تعنى اتفاقية الاسكندرية صراحة بمصير اليونانيين ، لم تهتم اتفاقية بابليون الا بمصير الأهلين ، وأبَى ابن الحكم أن يترك شكاً فى هذا الموضوع ، فأضاف بعد أن ذكر الاتفاقية الموقع عليها فى بابليون ما يأتى : (هذا كله على القبط خاصة) . ومن جهة أخرى أراد المقوقس أن يخطر عمروا قبل دخول الاتفاقية فى دور التنفيذ فقال له : انما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى ، وقد تم صـلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض" ، وأما الروم فانى برىء منهم وليس دينى دينهم ، ولا مقالتى مقالتهم : انما كنت أخاف منهم القتل ، فلذلك كنت أستر دينى ومقالتى .. وأكتم ذلك »

« أما الأوراق الأثرية التى اسـتند اليها هؤلاء المؤرخون وغيرهم فليس فيها ترجيح لقول من أقوالهم ، وقد يكون فيها ترجيح لما يخالفها ، وهذه أمثلة منها ، أهمها الأوراق التى عثر عليهـا سليمان الشرقاوى مكتوبة بالقبطية الصعيدية ، وأهداها فى شهر يونيو سنة ١٨٩٢ الى « القمص فيلوتاؤوس » ، وفى أول احداها حكاية عن زيارة المقوقس لبعض الأديرة وحواره مع رهبانه :

« ... فقال رئيس الدير : لا أعرف لأى سبب بارحوا .. حينئـذ أمر بضرب رئيس الدير حتى يخبره بكل ما حصل . فأجابه الرئيس بقـوله : لا تضربنى وأنا أخبرك الحقيقة .. هـذا الرجل ، صمويل الناسك ، عمل للرهبان موعظة طويلة لاملك فيها ، ودعاك مجدفاً[1] ويهودياً خلقيدونيا ، وكافراً غير مستحق أن تقـدس بطريركا ، وغير مستحق

---

(١) مجدفا : جدف : كفر بالنعمة أو استقل عطاء الله .

سركتك بأى نوع ، ولهذا السبب أصغى الرهبان لكلامه وذهبـوا .. فلما سمع الكافر هذا الكلام غضب غضبا شديدا ، وصار يعض شفتيه من شدة غضبه ، ثم ابتدأ يلعن رئيس الدير والدير والرهبان .. وعقب ذلك رجع من سكة أخرى ، ولم يحضر للجبل لهذا اليوم . وبعد هذه الحادثة رجع الأخوة بسلام الى الدير . أما من جهة المقوقس ، البطريرك الكاذب ، فانه صار حاقداً لحين وصوله لمدينة الفيوم ، ففى الحال حضر خدام ورجال ــ عارفين البلد ــ لكى يأتوا له بالقديس أنبا صمويل مغلول اليدين وراء ظهره ، وفى عنقه طوق حديد ، ويدفعوه أمامهم مثل لص ، فوصلوا الى الدير وأخذوه . أما هو فكان يمشى متهللاً بالرب قائلاً : لعل الله سبحانه وتعالى يجعل دمى يسفك اليوم من أجل اسم المسيح ! ولهذا السبب ابتدأ يشتم المقوقس بحرية قائلاً : بدون شك أنه سيفعل ما وعد به منذ قليل . فلما أحضره العسكر أمام المقوقس ، ورأى الكافر رجل الله ، امتلأ غضباً ، وأمر العسكر أن يضربوه حتى يسيل دمه مثل الماء ، ثم بعـد ذلك قال له : أنت يا صمويل الناسك الكافر ، قل لى : من رسمك ايغومانسا على هذا الدير ؟ ومن أمرك أن تغرى الرهبان على لعنى ولعن ايمانى ؟ فأجابه القديس انبـاصموئيل قائلاً : تصلح الاطاعة لله ولقديسه البطريرك أنبا بنيـامين ، أولى من الاطاعة لك ولتعليمك الشيطانى يا ابن ابليس المسيح الدجال . حينئذ أمر بضرب القديس أنبا صموئيل على فمه قائلاً : ان المجد الذى يعطيه لك الناس بصفة ناسك ينفخك ، لكن أنا الذى سوف أعلمك وأرشدك للتكلم بالباطل ، لأنك لم تكرمنى بصفة كونى بطريركا ، ولم تراعنى أيضاً أنا وقدرتى بصفة كونى عاملاً على خراج بر مصر . فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلا : ان الشيطان كان أيضا بوظيفة عامل وله سلطة على الملائكة ، لكن تكبّره وعدم أمانته انما هما اللذان جعلاه غريبا عن مجد الله وملائكته . وأنت أيضا أيها الخلقيدونى الغاش ، ايمانك نجس ، وأنت ملعون أكثر من الشيطان وجنوده . فلمـا سمع المقوقس ذلك امتلا

رجزاً[١] ضد القديس ، وأشار الى العسكر أن يجلدوه لحد الموت .. »(١)

***

ويبدو لنا أن هذا الحوار مفهوم اذا كان المقوقس مصرياً يحتاج الى التذكير بصفته الحكومية ، وكان منتمياً الى مذهب غير المذهب الذى ينتمى اليه أكثر قومه ، ولكنه غريب فى خطاب يدور بين ناسك مصرى ورئيس رومانى يدين بمذهب المجمع الخلقيدونى ، ولا ينتظر أن ينتمى الى غيره بحكم مولده ومنصبه وانتمائه الى النحلة[٢] الملكية . وكذلك المقابلة بين البطرق بنيامين والمقوقس مفهومة اذا كان كلاهما مصرياً ، وكان الاختلاف بينهما فى المذهب . أما أن يكون أحدهما رومانياً ملكى المذهب ، وأن يكون الآخر مصريا يعقوبى المذهب ، فلا وجه للموازنة بينهما فى كفتين متعادلتين

***

ومن المراجع التى جاء فيها ذكر المقوقس كتاب « سير البطاركة » لمؤلفه ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، الذى جمع تاريخه من أوراق الأديرة ، وقال عن البطرق بنيامين :

« خرج من الديارات بوادى هبيب — النطرون — ومضى الى الصعيد ، وأقام مختفياً هناك فى دير صغير فى البرية الى كمال العشر سنين ، كما قال له ملك الرب ، وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقز متسلطين على ديار مصر ... ثم ان هرقل أقام أساقفة فى بلاد مصر كلها الى أنصنا ... فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقز ، وهو يطلب بنيامين البطريرك وهو هارب منه من مكان الى آخر ، مختفيا فى البيَع الحصينة ، أنفذ ملك المسلمين الخليفة سرية مع أمير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص ، فى سنة ثلثمائة وسبع وخمسين لديقلاديانوس قاتل الشهداء ، فنزل عسكر الاسلام بقوة عظيمة فى اليوم الثانى عشر من بؤونة ، وهو الرابع من دنكطس من شهور الروم . وكان الأمر

(١) من صفحة ٤٠٣ الى ٤٠٨ من السنة الثانية للمجلة القبطية

(١) رجزا : بكسر الراء ، مثل الرجس ، والعذاب . (٢) النحلة : بكسر النون : الدين والمذهب .

عمرو قد هدم الحصن ، وأحرق المراكب بالنار ، وأذلّ الروم ، وملك بعض البلاد • وكان مجيئه من البرية ، فأخذ الجبل حتى وصلوا الى قصر مبنى بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى بابلون ، فضربوا جميعهم خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم ، ثم أنهم أسموا ذلك الموضع بلغتهم الفسطاط ، وهو اسمه الى الآن • وبعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون ، فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور ، مضوا الى عمرو وأخذوا منه أماناً على المدينة لئلا تنهب • وأهلكوا جنس الروم وبطريركهم المسمى أريانوس ، ومن سلم منهم هرب الىالاسكندرية وأغلقوا أبوابها عليهم وتحصنوا فيها •• فلما ملك عمرو المدينة ورتب أمورها ، خاف الكافر والى الاسكندرية ، وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم ، أن يقتله عمرو ، فمص خاتماً مسموماً فمات لوقته • فأما سانوتيوس التكس — أى الدوق المؤمن — فانه عرف عمرواً بسبب اختفاء الأب بنيامين البطريرك ، وانه هارب من الروم خوفاً منهم ، فكتب عمرو بن العاص الى عمال مصر كتاباً يقول فيه هكذا : (ان الموضع الذى يكون فيه بنيامين البطريرك الذى للنصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمناً مطمئناً ، ويدبر حال بيعه وسياسة طائفته) ، فلما سمع القديس بنيامين هذا ، عاد الى مدينة الاسكندرية بفرح عظيم ، بعد غيبته ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الاسكندرية ، لابسا اكليل الصبر وشدة الجهاد »

وهذا التاريخ الذى كتبه المؤرخ القبطى فى عصر الفاطميين ، يخرج لنا المقوقس فى صورة تناقض جميع الصور التى يظهر فيها خائناً متواطئاً مع العرب ، فانه بخع[1] نفسه خوفاً منهم أن يدمّروا عليه الاسكندرية ، وكان الفرح بهم من جانب الحزب المصرى فى الكنيسة برئاسة البطرق بنيامين الذى عاد الى كرسيه آمناً بعد موت المقوقس وخروج الروم منها

(١) بخع نفسه : قتلها غيظا أو غما •

ونقلت المجلة القبطية فى العدد السادس من السنة الثالثة تعليقات من حواش مخطوطة على جداول البطاركة ، جاء فى احداها :

« انه كان فى أيام الأب بنيامين أن ملكت العرب أرض مصر ، وكان دخولهم اليها فى ثانى بؤونة سنة ٣٣٣ ، وكان المقوقز جريج بن مينا الهراطيقى نائب هرطاقة هرقل بالديار المصرية ، يطلب ويضطهد على الموافقة له على أمانة لاوون الفاسدة ، وظفر بأخيه مينا ، وأنزل به عقوبات عظيمة وغرقه »

وهذه الفقرة لا ترجح شيئاً كما ترجح انتماء المقوقس الى مصر ، لأنه نشأ فى بيت يسمى أبناءه باسم مينا ، ويتسمى هو وأخوه بهذا الاسم الواحد ، مع التفرقة بينهما فى اللقب أو الكنية ، وهذه التسمية تقليد وطنى لم يؤثر مثله عن أحد من الرومان الشرقيين أو الغربيين

***

وممن أرخوا هذه الفترة : أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود من أبناء القرن الثانى عشر ، وهو يقول عن اقليم البحيرة : « ان بحيرة الاسكندرية كانت مزروعة كروماً جميعها لامرأة جريج بن مينا مقوقس الروم ، وكانت تستأدى[1] خراجها خمراً ، فكثر عندها ، فطلبت دنانير ذهب ، فلم يحصل لها من الخمر ما طلبت ، لأنه كان موجوداً عند الناس وما يجدون من يشتريه ، فكرهت هذا ، فغرقت البحيرة بالماء ، ولم تزل كذلك حتى استنبطها[2] بنو العباس ، وهم المسودة ، وانهم سدوا جسورها ومنعوا الغرق »

والمهم فى هذه الفقرة هو تسمية المقوقس باسم جريج بن ميناء ، وهى التسمية المصرية التى لم تعهد فى أسماء الرومان أو الروم

وجاء فى تاريخ ابن البطريق ، وهو من الملكيين المعارضين للكنيسة الوطنية : انه فى أول خلافة أبى بكر : « صير سرجيوس بطريركاً على الاسكندرية أربع سنين ، فلما سمع أن المسلمين غلبوا الروم وفتحوا فلسطين ، وانهم سائرون الى مصر ، ركب البحر وهرب الى القسطنطينية ،

---

(١) تستأدي : استأدى فلانا مالا صادره وأخذه منه • (٢) استنبطها : استنبط الحافر الماء استخرجه •

فبقى كرسى الاسكندرية بعده بلا بطريرك ملكى سبعا وتسعين سنة . ولما هرب صير بعده كورش — أى فيرس — بطريركا على الاسكندرية ، وكان مارونياً على دين هرقل ، وكان بالاسكندرية رجل راهب يسمى صفرونيوس ، فأنكر صفرونيوس مقالة كورش ، لأنه كان يقول ان لسيدنا المسيح طبيعتين ، بمشيئة واحدة ، وفعل واحد ، وأقنوم[1] واحد ، وهى مقالة مارون ، فسار صفرونيوس الى كورش فناظره ... فقال له كورش بوقاحة : ان أنوريوس بطـريرك رومية وسرجيوس بطـريرك القسطنطينية موافقان لى على هـذه المقـالة .. فخرج صفرونيوس الى القسطنطينية فقبله سرجيوس بطركها ، وقص صفرونيوس عليه ما كان بينه وبين كورش ، فعجب سرجيوس من ذلك . فلما كان بعد مدة قدمت هدايا من كورش الى سرجيوس ، فانصرف عن رأيه ، وصـار مخالفاً لصفرونيوس موافقاً لكورش .. ثم ان صفرونيوس صيروه بطريركاً على بيت المقدس ، فكتب صفرونيوس كتابا فى الايمان وبعث به الى جميع الآفاق ، فقبله أهل الدنيا فى السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب ..»

الى أن قال عن عمرو بن العاص :

« .. ثم سار الى مصر وكان الروم قد تحصنوا فى الحصن ، وخندقوا حول الحصن خندقاً ، وطرحوا فيه سككاً من الحديد ، فقاموا يقاتلونهم قتالا شديداً ستة أشهر . فلما أبطأ الفتح عليه كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ، فأمده بأربعة آلاف رجل ، منهم الزبير بن العوام ، وعبـادة ابن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وكان مع عمرو أربعة آلاف ، فصار فى ثمانية آلاف . وكان العامل على الخراج بمصر رجلا يدعى المقوقس من قبل هرقل ، وكان يعقوبياً مبغضاً للروم ، الا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالته لئلا يقتله الروم ، وكان أيضاً قد اقتطع أموال مصر فى وقت حصار كسرى القسطنطينية ، وكان يحاذر من هرقل الملك أن يقع فى يده فيقتله ، فاحتال على الروم ، وقال لهم : ان العرب قد جاءهم مدد وليس لنا بهم طاقة ، ولا نأمن أن يفتحوا القصر فيقتلونا ، ولكن نسد أبواب

(١) أقنوم : عنصر .

الحصن ونصير عليه مقاتلة ، ونخرج من القصر الى الجزيرة فنقيم فيهـا وتتحصن بالبحر . فخرج الروم ومعهم المقوقس وجماعة من أكابر القبط من باب القصر القبلى ، ودونهم جماعة يقاتلون العرب ، فركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم ، وقطعوا الجسر ، وكان ذلك فى جرى النيل ... ثم أرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يقول له : انكم قوم قدولجتم بلادنا ، ولججتم على قتالنا ، وطال مقامكم بأرضنا ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وانما أنتم أسارى فى أيدينا ... فابعثوا الينـا رجلاً منكم لنسمع كلامكم ، فلعـل يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال . فلما أتت رسـل المقوقس عمرو بن العاص ، وجه معهم بعبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود ، فلما دخل على المقوقس أدنى مجلسه فقال المقوقس له : ما الذى تريده منا ؟ بيّنه لنا . فقال له عبادة : أن ليس بيننا وبينكم الا احدى ثلاث خصال ، فاختر أيها شئت ، وبذلك أمرنى بها الأمير وأمير المؤمنين : إما أن تدخلوا فى الاسلام فكنتم أخوتنا ، وكان لكم ما لنا ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ، فان أبيتم فأدوا لنا الجزية نرضى بها ونحن وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم فى شىء من أراضيكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم فى ذمتنا وكان به عهد علينا ، فان أبيتم فليس بيننـا وبينكم غير المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . فقال المقوقس : فأما الدخول فى دينكم فهذا مالا يمكن ، وأما الصـلح فقد رضيت أنا ذلك لنفسى ولأصحابى القبط . وامتنع الروم أن يجيبوا الى الصلح وقالوا : لا نفعل ذلك أبداً . وانما فعل المقوقس هذا مكراً منـه وخديعة حتى أخرج الروم من الحصن ، ثم رضى بالصلح ليسلم له ما أخذ من المال .. فرجع عبادة بن الصامت فأخبر عمروا بجميع ما كان ، ثم إن المسلمين لما علموا أن ليس فى الحصن من المقاتلة الا نفر يسير ، ناهضوا القتال من ناحية سوق الحمـام اليوم ، فرموا الحصن بالمنجنيقـات

والعرادات[1] . ثم ان الزبير وضع سلما الى جانب الحصن من سوق الحمام ، ثم صعد ، فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن ، فكبروا ، وتحامل الناس على السلم ، فخلا الروم عن القتال ، وركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة الى أصحابهم ، وفتح المسلمون الحصن ، فقتلوا وأسروا وغنموا . فلما نظر الروم ما فعل بهم المقوقس ، وكيف أنه خدعهم وأخرجهم من الحصن وسلمه إلى المسلمين ، خافوا ناحيتــه فتركوه وركبوا البحر وعسكروا بكوم شريك • واجتمع المقوقس مع عمرو بن العاص على عهد بينهما ، واصطلحا على جميع من بمصر أسفلها وأعلاها من القبط ، ديناران ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، ممن بلغ الحلم منهم ، وليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء • وأحصى عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ الحلم ، وأخذت منهم الجزية ، وفرض عليهم الديناران ، رفع ذلك بالأيمان المؤكدة • فكان جميع من أحصى بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبــط الذين أحصوا وكتبوا ، فكانت فريضتهم فى ذلك الوقت : اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة •

ثم أقبل المقوقس الى عمرو فقال له : اما الروم فانى منهم برىء ، وليس دينهم دينى ، ولا مقالتى مقالتهم ، وانما كنت انا اخاف منهم القتل ، فكنت أستر مقالتى وأكتم دينى ، وانا اطلب اليك ان تعطينى ثلاث خصال . فقال عمرو : وما هى ؟ قال : لا تنقصنى عن القبط ، وأدخلنى معهم ، وألزمنى ما ألزمتهم ، فقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم ، وانا متمم لك على نفسى ، والقبــط متممون لك على الصــلح الذى صالحتهم عليه وعاهدتهم . والثانية : ان سألك الروم بعد اليوم الصلح ، فلا تصالحهم حتى تجعلهم عبيدا واماء ، فانهم أهل لذلك . والثالثة : ان أنا مت فأمر أن أدفن فى كنيسة أبى حنس فى الاسكندرية .. فأنعم عليه عمرو بذلك ، على ان ضمنوا له اصلاح الجسرين جميعا ويقيمون الأنزال[2] ، وصاروا لهم أعوانا على ما أرادوا من قتــال الروم . ومضى

(١) العرادات : العرادة : آلة أصغر من المنجنيق ترمي بالحجارة المرمى البعيد • (٢) الانزال : بالفتح ، وبفتح فكسر : البناية المعدة لنزول المسافرين •

عمرو ومن معه ، حتى لقى جميع الروم بكوم شريك (١) ، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ، وولى الروم منهزمين ، ثم التقى بسلطيس فاقتتلوا تسعة عشر يوما ، وانهزم الروم فدخلوا الاسكندرية ، وتحصنوا فيها ، واستأسدت العرب عند ذلك ، فلجت بالقتال على أهل الاسكندرية ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، وكان الروم يخرجون من الأبواب فى كل يوم يقاتلون ، وكان يقتل من الفريقين فى كل يوم خلق كثير . ففى يوم من الأيام اشتد القتال حتى اقتحم العرب حصن الاسكندرية ، فقاتلوهم فى الحصن قتالا شديدا ، ثم خاشت(٢) عليهم الروم حتى أخرجوهم من الحصن ، واستأسروا عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد ووردان مولى عمرو ورجلا آخر ، ولم يدر الروم من هم ! فقال لهم البطريق : انكم صرتم فى أيدينا أسارى ، فعرفونا ما الذى تريدون منا ؟ فقال له عمرو : اما أن تدخلوا فى ديننا ، واما أن تعطونا الجزية ، واما ألا نزال نقاتلكم ، إما أن تفنونا بالقتل وإما أن نفنيكم ! فقال واحد من الروم للبطريق : أتوهم ان هذا أمير القوم فاضرب عنقه . ففطن لكلامهم وردان ، وكان يحسن الرومية ، فحدث وردان لعمرو حديثا شديدا ، وكلمه وقال له : مالك وللكلام ؟ ما فى المعسكر أدنى منك ولا أقل ، فاترك غيرك يتكلم ! فقال البطريق فى نفسه : لو كان هذا اميرهم لم يتهيأ لهذا ان يكلمه . فقال مسلمة بن مخلد : ان أميرنا كان قد عزم أن ينصرف عنكم ، ويترك حربكم ، وبهذا كتب اليه أمير المؤمنين ، غير انه أراد أن يوجه اليكم بعشرة قواد من أصحابه ، من وجوههم ، ممن لهم الرأى السديد ، حتى تتوافقوا أنتم وهم على شيء تتراضون بينكم وبينهم أيضا ، وننصرف عنكم ، فان أحببتم ذلك فأطلقوا سبيلنا حتى نذهب الى أميرنا ونعلمه ما صنعتم بنا من الجميل حتى يوجه اليكم بالعشرة القواد ، فينقطع الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ، وننصرف عنكم ! فتوهم البطريق ان هذا كلام حق ، فخلاهم رجاء أن يأتوا بالعشرة القواد

---

(١) كل هذه المواقع باقليم البحيرة حول دمنهور

(٢) خاشت : تغلبت .

فيقتلهم ويتمكن من العرب .. »

ثم قال ابن البطريق : ان عمرو بن العاص كتب الى الخليفة يصف له فتح الاسكندرية ، فقال : « انى فتحت مدينة لا أقدر أصف ما فيها ، غير انى أصبت فيها أربعة آلاف بنية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر وما يتلوه من البقولات ! وانى فتحتها عنوة بغير عقد ولا عهد .. وان المسلمين طلبوا قسمتها .. فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره ألا يتجاوزها ولا يقسمها ، ويتركها ليكون خراجها للمسلمين قوة على عدوهم » .

***

قال : « فأقرها عمرو وأحصى أهلها ، فرض عليهم الخراج . وكانت مصر فتحت صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين كل رجل ، لايزاد على أحد جزية رأسه أكثر من ذلك ، الا انه يلزم مقدار ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، الا الاسكندرية ، فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى واليهم ، لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة .. وفتحت الاسكندرية يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة ، وعشرين للملك هرقل .

وهذه الروايات لسعيد بن البطريق أحجى[1] أن تقارب التاريخ الصحيح ، لأن صاحبها كان أقرب المؤرخين الى مراجع الأخبار جميعا من رومانية وقبطية وعربية ، ولكنها لم تخل من عيب التاريخ فى هذه الفترة ، وهو تخلل الوقائع والروايات بالمنازع والأهواء ، بحيث يظهر لون المؤرخ من كلامه ، وان لم ينسب هذا الكلام الى شخص معلوم ، وقد ترك ابن البطريق متسعا لدعواه أو متسعا لهواه ، كغيره من المؤرخين ، فكان « روماني المذهب » فى اختيار الأخبار التى توافق منزعه ، وأولها ان الرومان لم يرتبطوا بعهد ولا عقد عند سقوط الاسكندرية ، وان سقوط بابلون كان خديعة من الحاكم اليعقوبى ،

---

(١) أحجى : أجدر .

ولم يكن ضعفا اضطرت اليه الحامية بعد اليأس من المدد . وكان تعليله لخديعة الحاكم اليعقوبى الوطنى أسخف من تعليلات غيره ، فانهم زعموا ان الحاكم الوطنى — وهو المقوقس — قد استبقى عنده ضرائب القطر كله أيام استيلاء الفرس على مصر ، فلم يرسلها الى القسطنطينية ، ولم يكن فى نيته ان يرسلها . وقد يكون هذا السبب معقولا بعض الشيء ، لأن ارسال الضرائب الى القسطنطينية مع سيطرة الفرس على البلاد لم يكن بالميسور وان أراده المقوقس . وموضع السخف من القصة ان تتصور المقوقس عاجزا فى هذه الحالة عن الاعتذار باغتصاب الفرس لكل ما أصابوه من الغلات والخيرات واموال الخراج ! فاذا اغضينا بنظرنا عن هذا السخف ، فما عدا ذلك سهل مستساغ ! واما الذى لا يستساغ فهو امتناع المقوقس عن ارسال الضرائب لأن الفرس يحاصرون القسطنطينية ! اذ الواقع ان الطريق بين مصر والقسطنطينية لم تكن مقفلة من جانب البحر ، ولم يكن الرومان ينقطعون عن طلب الأزواد والأمداد من أفريقية ، وقد استطاع هرقل مع حصار القسطنطينية من الناحية الآسيوية ان يتركها وينقض على بلاد فارس وراء البحر الأسود ، فلم يكن من العسير أن تصل ضرائب مصر الى القسطنطينية فى فترة الحصار ، الا ان يكون المقوقس قد أعلن قطع الصلة بالأمبراطور ووضع يده على أموال البلد جهرة مع وجود الحامية الرومانية فيها . وعلى هذا لا تبقى للرومان ثقة به وهو معهم فى داخل حصن بابلون ، ولا ينتظرون منه ان يخدعهم ويتفق مع عمرو بن العاص من ورائهم حتى يتخوفوه ولا يأمنوه .

كذلك يروى ابن البطريق تلك القصة التى رويت عن عمرو وغلامه وردان فى اثناء حصار الاسكندرية ، كما رويت فى حرب فلسطين ، وهى كما يرى ادنى الى الخرافة منها الى التاريخ .

ولا تنحصر الخلافات حول المقوقس فيما تقدم ، بل يقول آخرون — كما قال امبلينو — انها مشتقة من « كوكيوت » اسم عملة يونانية ،

لأن المقوقس كان يلي أمر الخراج ، ولا يستبعد «بتلر» أن يكون اللفظ مصحفا على لسان المصريين من القوقاس ، لأن هرقل نقل فيرس من القوقاس الى الديار المصرية .

ولكن المقوقس عرف بهذا اللقب فى الحجاز قبل فتح مصر بأكثر من عشر سنين ، وكتب اليه النبى عليه السلام رسالة بهذا اللقب جاءه الجواب عنها مع هدايا المقوقس التى لا جدال فيها . فما تأويل ذلك عند بتلر وأتباعه فى التحقيق والتصديق والتكذيب ؟ تأويل ذلك يسير على طرف اللسان ، وهو خطأ المؤرخين العرب فى رواية الخبر بعد الفتح الاسلامى بسنين !

الا ان خبر الرسالة النبوية وجوابها من وراء كل شك وكل تردد وتأويل ، فلا شك فى كتابة النبى عليه السلام الى عظيم القبط فى مصر ، ولا فى جواب عظيم القبط عن كتابه ، وقد وصلت السيدة مارية وأختها مع الجواب ، وعرف الرسول الذى جاء مع الهدية ، والبيت الذى نزلت فيه بالحجاز ، ثم ولد للنبى عليه السلام ابنه ابراهيم من مارية القبطية ، وتواترت التواريخ بمولده ووفاته حوالى الثانية من عمره ، وتواترت كذلك بكسوف الشمس يوم وفاته ، وقول النبى عليه السلام : ان الشمس لم تكسف لموته . وجاوز الأمر أخبار التاريخ الى تحقيقات الحساب الفلكى ، فأثبت العالم الكبير محمود الفلكى باشا أن هذا الكسوف حدث فى المدينة المنورة « الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل من اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ٦٣٢ ميلادية » ويطابق هذا التاريخ تقدير مؤرخى المسلمين عن وقت ولادة ابراهيم ووقت قدوم أمه السيدة مارية الى الحجاز .

فليس المهم اذن تصريف اسم المقوقس باليونانية أو الحبشية أو القبطية ، وانما المهم ان هناك عظيما فى مصر كان يملك من أمر شعبها ما لم يملكه عاهل القسطنطينية ، ولذلك كتب النبى إليه ، ولم يكتف بالكتابة الى العاهل فى عاصمة الدولة الكبرى . وقد وصل الكتاب

الى صاحبه المقصود بدليل واضح بسيط ، وهو وصول الجواب عنه ، فاذا كانت منزلة هذا الرجل حقيقة مقررة لا خلاف عليها ، وكان اسم المقوقس دليلا على هذه المنزلة لا يتأتى اختراعه لمن يجهله — فلماذا نلغيه ونبطله ، أو نشك فيه وننفيه ؟ !

ان خروج المؤرخ بتلر أو غيره من ورطة وقعوا فيها ، لا تكفى لتغيير مجرى الحوادث والروايات ، وعلى بتلر وغيره أن يخرجوا من الورطة التى دخلوا فيها كما يشاءون ، ولكن على غير حساب التاريخ . ومهما يكن من اخطاء المؤرخين الأوائل ، فهى لا تكفى للاسعاف من كل ورطة والاحالة عليها فى كل تأويل .

***

ليست هذه التخريجات أو هذه التأويلات اذن هى المرجع فى تمحيص القول عن مسألة المقوقس وما لابسها من الأخبار والروايات ، وانما المرجع الى « الموقف » وما يمليه بحكم البداهة وحكم الحوادث التى عرفت بمقدماتها ونتائجها . وأيا كان الرأى فى هذا المقياس ، فهو أصدق بيانا من جميع المقاييس التى رأيناها تضطرب ذلك الاضطراب بين أيدى المؤرخين .

***

وهذا هو حكم الموقف على أسلم الوجوه من النقد والريب ، أو من الاختلاق وتوجيه المنازع والأهواء .

حكم الموقف اننا أمام « دور » واضح محدود لا يقبل اللبس على وجه من الوجوه ، دور زعيم « أهلى » مسئول له صفة شعبية ، لا تستطيع دولة الرومان أن تنتزعها منه ، سواء رضيت عنه أو غضبت عليه .

وليس هو « دور » رئيس رومانى بحال من الأحوال ، ان الرئيس الرومانى ان بقى فى مصر لم تكن له صفة ولم يكن له سلطان ، وان خرج من مصر لم تكن للتعاقد معه قيمة ، ولم يكن أهلا للالتزام .

واذا كان الموقف يستلزم « دورا » محدودا واضحا فلا محل فيه للاختلاق ولا للتنازع بين المؤرخين .

فهناك « أشخاص » يجوز الشك فى وجودهم ، بل يستدعى العمل المنسوب اليهم أن نشك فى حقيقتهم ، اما اذا كانت المسألة مسألة « أدوار » قائمة لا مسألة أشخاص ، فلا محل للشك ولا للتنازع ، بل الأمر ينعكس من هذا النقيض الى النقيض الذى يقابله ، ويصبح من اللازم تاريخا وعقلا ان نوجد الشخص الذى يمكن أن يؤديه ، لا أن نراه موجودا ثم نشك فيه !

ان الدور الذى نسب الى المقوقس لا يؤديه الا زعيم له صفة المقوقس، كائنا ما كان اسمه ولقبه ، وكائنا ما كان عنوانه فى الدولة وفى البلاد

فهو دور يؤديه « زعيم أهلى » عرف الناس حول بلاده انه يملك منها ما ليس يملكه هرقل فى عاصمته ، ويتعاهد العرب معه فيعلمون انهم يعاهدون البلاد ، وان البلاد مقرة لما تعاهدوا عليه .

ومن بقى من الرومان — أو من الروم — بعد وصول عمرو بن العاص الى الفسطاط ، فانما بقى مقاتلا أو منتظرا للمدد من خارج مصر لمواصلة القتال ، ومثل هذا لا يتعاهد معه عمرو بن العاص ، ولا معنى للتعاهد معه قبل انفضاض المعركة بين الدولة الذاهبة والدولة الباقية !

فلا يكون المتعاهد أو المصالح فى الحرب الا زعيما يتكفل بشىء يقدر عليه ، ويعلم معاهدوه انه قادر عليه باسم قومه ، وانه اذا نقضه كانت الخسارة عليه وعليهم ، لا على الرومان فى مصر والاسكندرية ، أو الرومان فى القسطنطينية وبلاد الروم !

فالزعيم المصرى هنا شخص يفرضه التاريخ فرضا ، ويتطلب منه تبعة لا يقوم بها سواه .

وهذه التبعة تدل كذلك على حالة محددة واضحة ، لا تلبس بغيرها من الحالات .

ان الصلح فى مصر كان نسخة مكررة من الصلح فى فلسطين .

ففى العهدين معا أمان للبيع والكنائس ، واتفاق على خروج من يريد الخروج مع الروم من أهل البلاد .

وفى عهد فلسطين أمان من اكراه أهل بيت المقدس على مساكنة اليهود ، يقابله فى عهد مصر أمان من اكراه أهلها على مساكنة النوب ، لأنهم كانوا معهم قبل ذلك فى قتال على الشئون الدنيوية والدينية

فلا موضع هنا لخيانة ابتدعها الزعيم الوطنى فى الديار المصرية ، لأنه لم يقبل شيئا أقل مما قبله أهل فلسطين .

وقد تذكر كلمة الخيانة اذا كانت الدولة الرومانية قادرة على حماية مصر عاجزة عن حماية فلسطين ، ولكنه فرض بعيد لا يخطر على بال أحد ينظر الى الموقف اليوم ، أو كان ينظر اليه كما رآه المعاصرون فى تلك الأيام .

فالدفاع عن فلسطين أهون من الدفاع عن مصر بكثير ، لأن طريق البر مفتوح بين بلاد الدولة الرومانية فى آسيا الصغرى ، وبين ميادين فلسطين من شمالها الى جنوبها . فاذا كانت الدولة الرومانية لا تستطيع ان تبعث البعوث الى جيرتها القريبة ، فهى أعجز عن ذلك فى الميادين المصرية . واذا كانت السفن لا تسعفها على شواطىء فلسطين فهى لا تسعفها فى الاسكندرية ودمياط .

ولا بد من النظر الى اعتبار آخر فى هذا الموقف ، وهو حالة فلسطين من الوجهة الدينية ، فان هرقل كان خليقا أن يهتم باستبقائها ، لما فيها من الأماكن المقدسة التى تقوم عليها صفته فى عاصمة الدولة الشرقية على الخصوص ، وان رعاياه هناك لم يكن عندهم من أسباب النقمة عليه شىء يثنيهم عن تأييده واستبقاء ملكه ، لأنه لم يكرههم على خلاف عقيدتهم كما فعل فى مصر ، ولم تزل ذكرى دخوله بيت المقدس ، وحفاوة أهلها به ووعدهم بالكفارة عن يمينه مدى السنين عالقة ، بأذهان القادة والأتباع فى تلك البلاد .

وربما وجد من المؤرخين من يصف المقوقس بالخيانة ، اذا كانت دولة

الرومان قادرة على شيء فى الدفاع عن مصر ، فحال بينها وبين المثابرة على الدفاع ، فقد يقال حينئذ انه موظف « رومانى » خذل رؤساءه وسادته وسلم البلاد لقوم آخرين !

ولكن الواقع ان الدولة الرومانية لم تكن لها ذمة تخان فى البلاد المصرية ، من الوجهة الشرعية أو من الوجهة الدينية ، أو من الوجهة العملية الواقعية .

فمن الوجهة الشرعية ، هى دولة أجنبية غاصبة ، تعتدى على الأرواح والأموال ، وتستنزف ثروة البلاد فى الضرائب والاتاوات ، وتحرمها الغلات والثمرات التى هى أحوج اليها فى أيام الشح والغلاء ، وتقحمها فى منازعاتها قبل انقسامها الى دولة شرقية ودولة غربية ، وبعد انقسامها الى دولتين بغير استقرار وبغير انقطاع . وقد ساعدها المصريون على طرد الفرس ، وساعدوا هرقل فى ثورته على خصمه فوقاس حتى قهره واستولى على العرش بعده . فمن قوة مصر وافريقية الشمالية تجمعت قوة هرقل التى انتصر بها على خصمه ، ولكنه لم يلبث ان اطمأن الى مكانه حتى جزى المصريين على معونتهم شر الجزاء ، فلم يكن من حقه عليهم أن يحاربوا له حربه ويمسكوا له سلطانه وهو يشارف الزوال

ومن الوجهة الدينية ، لم تكن على مذهب أهل البلاد ، ولم تكن سمحة معهم فيما يختارونه لعقيدتهم ، وكان النزاع الدينى بين مصر والدولة الحاكمة على أشده وأعنفه عند قدوم عمرو بن العاص .

وقد قال ميخائيل السورى فى تاريخه : ان « المنتقم الجبار » أتى بأبناء اسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم والرومان

ومن وجهة الواقع لم تكن دولة الروم قادرة على مهمة الحكومة الأولى ، وهى صد الغارات عنها ، وحفظ الأمن فيها . وكان من عملها ما يخل بالأمن ويغل الأيدى عن الدفاع ، لأنها نزعت سلاح المصريين ، وقسمت القيادة العسكرية أقساما بين الرؤساء الرومانيين ، وتركت للجنة الوطنيين أن يدفعوا غارات اللصوص بسلاحهم ، فتعرضت للسطو

من ناحيـة الصحراء ومن ناحيـة الجنوب ، وما بقى للمصريين من جند مسلح ، فانما كان من قبيـل الشرطة الذين تأمنهم الدولة الحاكمة ، لأنهم لا يستطيعون اجلاءها ، ولا تأمنهم عصـابات اللصوص ، لأنها تتسلح بمثل سـلاحهم ويزيد عددها على عددهم فى بعض الأطراف . وقد كان قائد ليبيا الرومانى على مقربة من المعارك الفاصلة بين العرب والدولة الرومانية ، فلم يتقدم للاشتراك فيها ، لأنها لم تترك فى نفس أحد من جندها غيرة عليهـا ، ولأنه لا يخلى مكانه الا على خطر من العصابات .

***

وأيا كان تفصيل الموقف من جهة السيـادة الرومانية على البـلاد فانها لم تكن سيادة ملزمة لأهلها بذمة من الذمم ، ولم يسلبها أبنـاء مصر شيئا كانت قادرة عليه بقوتها الغاصبة ، ومن رآها تعجز عن المقاومة فى فلسطين لن يخطر له أنها تقوى عليها فى بلاده . وليست أمامه حالة « ممكنة » أسلم وأكرم من تصريف الموقف بما يقتضيه ، فهو موقف ضرورة لا موضع فيه للخيانة ولا للاختيار .

وهو ــ بعد ــ موقف زعيم « أهلى » ينهض بتبعة لا حيلة له فيها ، فاما ان يدع الفاتحين وشأنهم فى بلاد لا يتكلم عنها أحد ولا يتفق باسمها أحد ، واما أن يتكفل بشروط الصلح التى لا يملك خيرا منها . وهـذا هو قضاء الموقف بحرفه ومعناه .

والمقوقس الذى يصوره لنا الموقف ، حقيقـة لا يسمع فيهـا جدل المؤرخين ، ولا يزال قول التاريخ فيها أصدق وأوضح من لجاجة كتابه ومدونيه ، أو نساخيه .

وهذا الموقف الذى يبسطه لنا التاريخ ، يتممه الموقف كما كان يراه المقوقس فى علاقته بعرش الرومان وغيره من العروش الكبيرة من حوله .

فاذا كر راجعا الى أول أيامه ، لم يكد يرى على العروش شرقا وغربا الا جرائم الغيلة[1] والتعهر[2] : ثار فوقاس فقتل الامبراطور موريس ، وثار هرقل

(١) الغيلة : بكسر الغين ، الاسم من الاغتيال ، تقول : قتل فلان غيلة أي في خداع وخفية . (٢) التعهر : الفجور .

فقتل الامبراطور فوقاس ، والتاث[1] عقل هرقل فلا يكاد يفيق من احدى لثوثاته حتى تَرين عليه لثوثة أخرى !

وينظر الى المشرق فيرى الشاهنشاه ملك الملوك قتيلا ، ويرى ابنه كسرى الثانى ناجيا بنفسه الى حمى بيزنطة ، يتبناه الامبراطور موريس ويزوجه من احدى الأميرات طمعا فى عرش فارس من طريق الوراثة ، وقيل ان هذه الأميرة كانت بنت الامبراطور ، وان كان قولا مشكوكا فيه .

وكان كسرى الثانى قد عاد الى عرشه بمؤازرة الامبراطور الرومانى ، فلما قتل هذا نهض كسرى الثانى للأخذ بثأره ظاهرا ، ولأخذ بلاده باسم الأميرة البيزنطية وحق الفتح والغلب فى باطن الأمر ، واجتاح جيوش الدولة المتداعية أمامه ، ووصل بجيوش فارس الى افريقية الشمالية ، ولم يرجع عن غاراته الا بعد اضطراره الى انقاذ بلاده من حملة هرقل التى أوغلت الى العراق وما وراءه ، ونفذت عنوة الى قلب الديار الفارسية .

وبينما الامبراطور هرقل يتقدم الى بيت المقدس لردّ الصليب اليه ، اذا برسالة النبى العربى تدركه فى الطريق ، واذا به قد علم من أخباره من عرب الشام والجزيرة وعرب قريش المتجرين بفلسطين أمورا ذات بال يحسب لها كل حساب ، وتصل الرسالة الى المقوقس من النبى العربى الذى خاطب هرقل ، فلم يجسر هذا على رده والترفع عليه ، فيعلم انه احرى بالحيطة والتقية[2] ، وان المصانعة والانتظار أجدى من الغلظة والاستنكار .

ومن الجائز جدا ان يكون المقوقس قد علم بجواب النجاشى عن رسالة النبى العربى ، وانه أيده ولم يحفل برجاء المشركين من قريش ، ثم تمضى فترة قصيرة ، فيتسامع المشرق كله الى أقصى بلاد الصين بغزوات أتباع النبى فى العراق والشام وفلسطين ، وانهم قد هزموا دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ، ودخل فى ملتهم وكلاء فارس فى اليمن ،

---

(١) التاث : التاث عقله : اختلطت عليه الامور والتبست واشتدت . واللوثة : الحماقة . (٢) التقية : الاحتراز .

الذين أمرهم الشاهنشاه باعتقال نبى العرب لاجترائه على دعوته الى الاسلام !

كيف يقع كل هذا من نفس المقوقس فى وطنه المهدد المضطرب بين الغارات والمطامع والمنازعات ؟

ان المؤرخ الحديث قلما يرد على خاطره أن يضع نفسه فى موضع الرجل ، ويفكر مثله تفكير السياسى ، وتفكير الزعيم ، وتفكير المتدين المؤمن بالنبوات ؟ ماذا لو كان صاحب الدعوة هو النبى الموعود من ذرية ابراهيم ؟ وماذا لو كانت رسالته مقدمة لأشراط آخر الزمان ؟ وماذا لو لم يكن هذا وذاك وكان انه قوة لم يغلبها غالب من القياصرة ولا من الأكاسرة ؟

وان المقوقس لينظر يمينا وشمالا بين هذه الزعازع[1] والأعاصير ، ثم ينظر فى داخل البلد فلا يرى أحدا يريد أن يفدى دولة الرومان بحياته وان استطاع ، وانه مع ذلك لغير مستطيع !

والمؤرخ الحديث يركبه غروره فيظن ان الجهل بالوقائع والأسماء أيسر شىء يتهم به أبناء ذلك الزمان ، ويكاد يجزم بغرابة الأمر كله ، لأنه يتوهم ان هذه الحوادث العالمية كانت مجهولة فى بلاد العرب ، ولم يكن عند أهلها علم بها وبما يترتب عليها فى مصر والقسطنطينية وسائر الأقطار .

على ان الواقع ان هذه الحوادث العالمية كانت من أخبار بلاد العرب اليومية ، وكان العرب يتلقونها أحزابا وشيعا ، ويعقدون المراهنات على حاضرها ومصيرها ، وقد تراهن المسلمون والمشركون على عاقبة الغزوة الفارسية البيزنطية ، ودخل فى الرهان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه : وجاء فى القرآن الكريم من أول سورة الروم : « ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » .

وقد تنزلت هذه الآية بالتاريخ الميلادى فى سنة خمس عشرة بعد

---

(١) الزعازع : الزلازل ، والشدائد من الامر .

الستمائة ، ولم تمض سبع سنوات حتى كانت النبوءة قد تمت وآذنت بما يليها ، وهو وعد المؤمنين بالنصر وانجاز الأمر الالهى الذى دعاهم أن يسيروا فى الأرض وينظروا عاقبة المشركين : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » .

فبلاد العرب لم تكن خلواً ممن يرقب الحوادث العالمية ، ويوازن بين القوى ، ويضع الخطوة فى موضعها وفى أوانها . وأول ما كان من ذلك ان يخاطب النبى عليه السلام هرقل بعد انتصاره المنظور على الفرس ، فلا يخاطبه فى شأن مصر ، ويؤثر عليه المقوقس بالخطاب ، ولا تخفى دلالة ذلك على المقوقس أو على الرجل الذى هو فى موضع المقوقس ، لأنها تنبئه بالكثير من حقيقة صاحب الدعوة وانه يعرف من يعنيه وما يعنيه .

فالموقف من أطرافه يوجد لنا المقوقس حيث وجد ، وبالصفة التى من أجلها قد اتجه اليه الخطاب .

انه رجل يرتبط مصيره بمصير الأمة القبطية ، ولا يطالب بعهد يلزم الرومان ، ولا كان هذا العهد مطلوبا أو مستحقا لعناء الطلب ، فان الرومان أصحاب دولة تبقى أو تزول ، فان بقيت فلا معنى لمعاهدتها على فتح البلاد ، وان زالت فقد أغنى زوالها عن كل عهد ، ولن يربطها العهد بشىء وراء البلد الذى خرجت منه ، ولم تكن لتخرج منه الا مكرهة على غير وفاق .

وهكذا كانت نهاية القتال بين العرب ودولة الرومان الشرقية فى فلسطين ، وقد عادت الى القتال ما استطاعت أيام الخلفاء الراشدين ، وأيام الأمويين ، وأيام العباسيين ، والفاطميين .

وقد كانت مهمة المقوقس مهمة أمانة يؤديها على أحسنها لمصلحة بلده ، ولو أراد أن يخون لما استطاع أن يخون ، لأنه لم ينزل عن شىء كان فى وسعه أن يتشبث به ، ولم يترك شيئا كان فى وسعه أن

يبقيه لنفسه أو لقومه ، أو للرومان ان كان من همه أن يخدمهم بحال .

ان الذين كتبوا عن المقوقس وأثبتوا وجوده مجمعون على علاقته بتحصيل الخراج ، وأنه كان يظهر مذهب الروم الملكيين ويبطن مذهب القبط اليعقوبيين ، وعلاقته هذه بالخراج ترشحه دون غيره للاتفاق مع الفاتحين على ضريبة الرؤوس . فيجوز أن تكون علاقته بالخراج توكيلا عاما ، أو أن تكون وكالة خاصة مقصورة على أرضه وثروته . فقد كان الخراج كما سنرى فى باب الادارة مقسوما الى ثلاثة أقسام : قسم تحصله المجالس البلدية ، وقسم يحصله الملتزمون ، وقسم يؤديه أصحاب الضياع الواسعة مباشرة بغير وسطاء . ولا شك ان المقوقس كان من هؤلاء ، ولم يكن من الذين يؤدون ضرائبهم للمجالس البلدية . وربما كان هذا الذى عناه بعضهم بخوفه من تأخير الأموال المطلوبة منه ان كان لهذه المسألة أثر من الصحة . وأيا كان عمله فى تحصيل الخراج فهو صاحب خبرة ترشحه للتعاقد على أعمال الضرائب والتحصيل .

أما مذهبه الدينى ، فربما كان للسياسة دخل فيما يعلنه منه وما يخفيه . وفى زماننا هذا الأخير نرى بعض الأسر الكبيرة تخشى على مكانتها ، فتعلن غير ما تبطن من أمر المذهب والعقيدة . ففى مصر طلب الفرنسيون من محمد على الكبير أن يقنع الطائفة القبطية بالانتماء الى الكنيسة الغربية ، فدفعه المعلم غالى « مباشر الدواوين » بحيلة موقوتة تصرفه عن هذه الخطة ، ريثما تهدأ وسائط الفرنسيين ، وقال له انه هو وأسرته سيدينون بالكثلكة ، فيتبعهم أبناء الطائفة بغير حاجة الى الاكراه أو الاقناع ! وفى لبنان حدث مثل ذلك بين الأمراء الشهابيين من المسلمين والمسيحيين ، وبقيت الأسرة كلها على دينها الى اليوم ! وغير بعيد أن يكون المقوقس قد استبقى مكانته بمجاراة الدولة على مذهبها ، فقنعت الدولة منه بذلك ، وحمدت هذا الحل السياسى ، لأنه يعفيها من مشكلة الاحتيال على اختيار رجل غيره فى

مكانته ، وليس الاختيار هنا بالميسور ، اذا كان مركز الرجل من مراكز الوجاهة الموروثة والحسب العريق ، وكان خلفه لا يقدر على قيادة الشعب المصرى طواعية ، كما ينقاد لزعيم من ذوى بيوتاته المعروفين .

وحكم « الدور التاريخى » بعد كل فرض وتأويل هو ايجاد رجل بالصفة التى وصف بها المقوقس ، واللقب الذى أطلق عليه : رجل ذو وجاهة لا تتوقف على بقاء دولة الرومان فى البلد ، ورجل يخاطب فى أمر مصر بمعزل عن عاهل القسطنطينية ، ويعرف من أعمال الخراج ما تتولاه الدواوين المصرية قبل أن يتولاها الفاتحون ، ورجل ترضيه الدولة بالألقاب التى لم تتعود أن تخلعها على أبنائها ، ولم يعهد فى التاريخ ان دولة أجنبية منحتها أحدا غير الزعماء الوطنيين تعويضا لهم عن سيادة الحكم والسلطان .

وهذا المقوقس قد وجد بصفاته اللازمة عقلا وعملا ، فلماذا نحتال على الشك فيه ؟

ان صفاته هذه تعيننا على تصحيح كل صفة وكل شخصية فى زمانه ، فمن لم يكن صالحا لهذا «الدور» ، فلا يمكن أن يكون هو المقوقس المشهور ، وليكن بعد ذلك من كان !

قال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وأخبارها :

« كان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر ، كتب الى القبط يعلمهم انه لا تكون للروم دولة ، وان ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا .. » يريد ابن عبد الحكم البطرق بنيامين ، ويسميه « أبو ميامين » . وقد بادر البطرق الى الاسكندرية حين استقر الأمر فيها للعرب ، ولم يعد اليها وفيها بقية لسلطان الروم . وهذه خطة من البطرق المختار توافق خطة المقوقس الذى كانت له مكانة الوجاهة الدنيوية ، ولم تكن له فى الدين مكانة البطرق بنيامين .

الحالة الدينية

من المأثورات المتواترة ان المسيحية انتشرت فى مصر خلال القرن الأول للميلاد ، وان الرسول مرقس الانجيلى تولى نشرها فى الصعيد ، ثم فى مصر العتيقة والاسكندرية . وتتفق أقوال الأكثرين من الشراح الشرقيين على ان بابل المشار اليها فى أعمال بطرس الأولى من العهد الجديد هى بابلون المعروفة بموضعها الآن الى جوار الفسطاط ومصر العتيقة ، وفى ختام هذه الأعمال يشير بطرس الرسول الى تلميذه مرقس قائلا : « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة ومعكم مرقس ابنى .. »

ويؤخذ من سيرة مرقس المتداولة بين أبناء الكنيسة المصرية ان المسيحية سبقته الى مصر ، وانه جلس الى جانب اسكاف بالاسكندرية يصلح نعله ، فشغل الاسكاف بالحديث معه وأخطأ ، فأدخل المخرز فى يده فصاح : أيها الاله الواحد ! فعلم الرسول انه يدين بالإلاهية ، وشرح له عقيدته المثلى فى الدين .

والقول الأشهر انه من يهود القيروان أصلا ، ثم قدم مع أهله الى بيت المقدس أيام ظهور المسيح عليه السلام ، فكانوا جميعا من أسرع اليهود الى تلبية الدعوة المسيحية . وكان خاله برنابا وأبوه ارستوبولس من المسيحيين الأوائل ، وفى منزلهم حضر السيد المسيح وليمة الفصح ، والى هذا المنزل كان التلاميذ يترددون قبل انتشارهم فى الأقطار .

وقد اختار مرقس وطنه افريقية الشمالية للتبشير فيه ، بعد أن صاحب بولس الرسول ، ثم صاحب بطرس بعد مقتل بولس .

وقدم من طريق الصحراء الغربيـة الى الصعيـد ومنه الى مصر العتيقة ، حيث كتب انجيله باللغة اليونانية الشعبية ، لأنها كانت أقرب اللغات الى فهم الخاصة والعامة من اليهود واليونان وأبنـاء البـلاد المصرية . ثم أنشأ بالاسكندرية مدرسة لاهوتية ، وجعل يتردد بينها وبين وطنه الأول بالقيروان ، وينيب عنه أستاذها يستاس أثناء غيابه ، الى أن توفى سنة ثمان وستين للميلاد ، ودفن بالاسكندرية ، وظـل مدة مدفونا بها ، الى أن سرقه أناس من البحارة البندقيين فى القرن التاسع للميلاد .

وليس فى كتابات الفيلسـوف المسيحى اوريجين ، ولا فى كتابات كلمنت الاسكندرى ، اشارة الى مرقس الرسول . وقد عاش اوريجين بين أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . ولكن يوسبيوس الذى عاش فى القرن الرابع ، يروى خبر انشـاء الكنيسة ، ويؤخـذ من خطـاب كلوديوس الى الاسكندريين ان طائفة من اليهود الذين دانوا بالمسيحية ، وشجر الخلاف بينهم وبين أبنـاء ملتهم ، كانوا يقيمون بالاسكندرية فى القرن الأول للميلاد ، ويترددون بينهـا وبين رومة وفلسطين .

ومهما يكن من الرأى فى السجلات التاريخية ، فليس من الجائز عقلا ان يكون الدعاة المسيحيون قد غفلوا عن الاسكندرية منـذ القرن الأول ، وهى اكبر معاهد الثقافة والبحوث الدينيـة يومئذ فى عالم الحضارة . وقد ثبت ان أقدم الأسـاقفة الذين لقبوا بلقب « البـابا » كانوا فى كنيسة الاسكندرية ، واعترف لهم بهذا اللقب أعضـاء مجمع نيقية الذى انعقد فى منتصف القرن الرابع للميلاد .

وقـد كانت السمة الغالبـة على المفكرين الدينيـين ، منـذ القرن الثانى قبل الميلاد الى القرن الثانى بعد الميلاد ، شيوع التفرقة بين العقل والهيولى[1] ، أو بين الروح والجسد ، فى جميع المذاهب التى ظهرت بين أرجاء الدولة الرومانية ، ومحور هـذه المذاهب عامة لا يخرج من

(١) الهيولى : المادة ، وكل ما يدرك بالحواس .

نطاق مدينة الاسكندرية .

فقبل الميلاد كانت تقيم فى أطراف الصحراء ، على مقربة من الاسكندرية ، طائفة من المتنسكين المتنطسين[1] ، يتعبدون بالتأمل وترك الملذات الجسدية ، ويعرفون بين الناس باسم المتطببين Thera-peutae ، ومنهم على الأرجح طائفة الآسين أو الأسينيين ، وهى كلمة بالآرامية تفيد معنى الأساة أى المتطببين ، وأتباعها هم ألد أعداء الدولة الرومانية بين اليهود !

وبعد المسيحية ظهرت طائفة المعرفيين Gnostics ، وظهر أتباع افلوطين الفيلسوف ، وظهرت طائفة المشبهين Docetists التى تنكر كل الانكار ان يكون السيد المسيح قد تجسد فى جسد من المادة ، وانما هو كيان شبيه بالمادة فى النظر ، وليس منها فى الحقيقة .

والمهم ان المسيحية حين شاعت وانتشرت فى الشرق وفى مصر خاصة ، كانت بمثابة احتجاج روحانى على السيطرة الرومانية . واننا نستطيع ان نقسم العالم الرومانى يومئذ الى قسمين : قسم توافقه عبادة الامبراطور ، وهم السادة الحاكمون ، وكانت نفوسهم تقبل القول بالخلط بين الطبيعة الانسانية والطبيعة الالهية على صورة من الصور ، وقسم لا توافقه عبادة الامبراطور ، وهم الرعايا الساخطون على السيطرة الأجنبية ، وكانت نفوسهم تنفر غاية النفور من الخلط بين الطبيعتين الانسانية والالهية ، ويرفضون كل فكرة تومىء الى جواز عبادة الامبراطورين ، أو جواز الصفة الالهية على الآدميين .

وما استمات أتباع الأديان الوحدانية فى تمييز العنصر الالهى ، كما استماتوا فى تمييز هذا العنصر بعد طغيان العواهل الرومانيين وطموحهم الى التشبه بالأرباب !

فاليهود كانوا ينزلقون الى عبادة الأرباب الكنعانية والبابلية والمصرية ، قبل خضوعهم لدولة الرومان ، فلما سامهم[2] عواهل الرومان ان يضعوا تماثيلهم فى الهيكل ، أو يعلقوا عليه شارة الامبراطور الاله ،

(١) المتنطسين : تنطس الرجل : تأنق في كلامه ومطعمه وملبسه . وفي الامور : استقصاها . (٢) سامهم : كلفهم .

تمردوا غاية التمرد ، وأقاموا الحاجز الحاسم بين سلطان الأرض وسلطان السماء .

والأمة المصرية كانت أشد الأمم سخطا على الدولة الرومانية ، وأشدها تقبلا للديانة المسيحية ، ثم أشدها انكارا بعد ذلك للقول بالطبيعتين ، وهو القول الذى لم ترفضه الكنيسة فى عاصمة الدولة الشرقية ، ولا فى عاصمة الدولة الغربية ، ولم ترفضه كذلك كنيسة انطاكية كل الرفض ، لأنها كانت على البرزخ بين القساوسة الأوربيين والقساوسة الشرقيين . وقد رجع بعض المؤرخين الى تعليل هذا الفارق ، فعللوه بالفارق بين النفس الشرقية والنفس الغربية ، وهو هنا فارق معتسف جد بعيد ، وانما حقيقته أنه الحد الحاسم بين النفور من عبادة الامبراطور ، وبين الترخص فيها أو الاغضاء عنها . ولهذا كان فى آسيا الصغرى اناس يقولون بالطبيعتين ، وهم شرقيون ، وكان فى مصر أناس من الأصل اليونانى يقولون بالطبيعتين ، ومعهم فريق من المصريين الذين لا يتعصبون على الرومان ، بل لهذا كانت قبائل القوط والتيتون تدين بمذهب اريوس وتقبل عليه من ناحية التفرقة بين ربوبية الأب التى لا مثيل لها ، وربوبية الابن التى خلقها الأب ولم تكن قائمة منذ الأزل . فهذه التفرقة كانت تروق عشائر القوطيين والتيتون ، وتدخلهم فى زمرة الثائرين على تقديس الامبراطور من هذا الجانب البعيد .

فعند البحث فى الفوارق بين المذاهب ، ينبغى ان نذكر هذا الفارق فى مقدمة الفوارق النفسية والعقلية التى قسمت الدولة الرومانية من حيث التنزيه والتوحيد الى قسمين : قسم السادة الذين لا يسخطون فى قرارة ضمائرهم على الخلط بين الطبيعة الانسانية والطبيعة الالهية ، وقسم الرعايا المضطهدين الذين امتلأت ضمائرهم سخطا على هذه العقيدة ، فلم تغب قط عن أنظارهم ولا عن عقولهم كلما واجهتهم المذاهب والبدع بشىء جديد .

ومصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية وجعلتها ندا مصاولا للدولة الرومانية ، هو انها كانت قوة تمتزج فيها العقيدة الدينية والحماسة الوطنية .

ثم دانت الدولة الرومانية بالمسيحية ، فلم يمتنع هذا النزاع بين القسطنطينية وروما من جهة ، وبين الاسكندرية من الجهة الأخرى ، لأن الجانب القومى منه لم يزل على حماسته الأولى ، بل أصبح بعد ذلك أشد وأقوى ، اذ كان طغيان الدولة الرومانية ــ بعد تحولها الى دين رعاياها ــ قد تناول السيطرة على الروحانيات ، بعد ان كان مقصورا على السياسة وشئون المعيشة الدنيوية .

وعلى ضوء هذا الفارق أيضا ينبغى ان ننظر الى نتائج المجامع الدينية التى انعقدت فى صدر المسيحية . فكل ما رجع منها الى سلطان القسطنطينية أو روما قوبل بالمقاومة فى الاسكندرية ومن يدينون بمذهب كنيستها ، وكل مجمع دينى ملك فيه الأساقفة الاسكندريون حريتهم وشرحوا فيه مذهبهم ، لم يجد فى مصر مقاومة بين جمهرة المصريين ، ولم ينظر اليه المصريون نظرتهم الى السيطرة الأجنبية التى تفرض مشيئتها عليهم دينا ودنيا ، ولا تدع لكنيستهم حقها من الرعاية والكرامة .

وقد كان سلطان الرأى العام المصرى مخيفا مرهوبا على مخالفيه والمارقين عليه ، فكان الأساقفة المصريون فى مجمع خلقيدونية يرتعدون فرقا من العودة الى بلادهم بغير ما فوضتهم فيه ، وكانوا يصرخون فى وجوه الأعضاء الآخرين قائلين : اقتلونا هنا ان شئتم ، ولا تردونا الى بلادنا بغير ما ترضاه !

ومن التهم التى وجهت الى البابا اثناسيوس السكندرى ٢٩٦ ــ ٣٧٣ ، نعرف مدى المكانة الدينية والدنيوية التى بلغها رؤساء الكنيسة فى مصر أمام مكانة الامبراطور نفسه فى القسطنطينية ، فانه اتهم بمنع تصدير القمح وافتتاح كنيسة بغير اذن الامبراطور ! ونقل

المؤرخ جبون من أخباره انه لم يكف عن مناضلة قسطنطين وقسطنطينيوس ويوليان وفالنس ، وكان يوليان المرتد يسميه بالمشاغب والبغيض ، ويبادله التهم مبادلة الند للند ! وسأله قسطنطينيوس مرة : لم لا تأذن باقامة الكنيسة الآرية فى الاسكندرية ؟ فكان جوابه : اننى سآذن بها يوم تأذن أنت باقامة كنيسة ارثوذكسية فى انطاكية !

وغنى عن القول ان المفكرين الدينيين الذين نشأوا فى صدر المسيحية ، كانوا يعرفون فلسفة اليونان ، وكان منهم من يحاول أن يوفق بين الدين وهذه الفلسفة ، ومن يفهم قدم العالم وقدم الاله المنزه عن المادة أو الهيولى ، على مذهب ارسطو تارة ، وعلى مذهب المعرفيين أو مذهب الأفلاطونية الحديثة تارة أخرى . وكان من هؤلاء المفكرين يونانيون ومصريون ينظرون الى المسائل من جانبها الفلسفى ، ولا يجنحون بها الى فريق الحاكمين أو المحكومين . وهذه الآراء العقلية تنجم فى كل عصر وفى كل أمة ، وتتصل بالسياسة العامة أو لا تتصل بها على حسب الظروف .

ولكن اللازمة التى لا فكاك منها تبرز على الأثر كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية فى جانب ، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هى التى اعتصم بها المصريون زمنا فى وجه الدولة الرومانية ، قبل ايمان هذه الدولة بالمسيحية ، وبعد هذا الايمان .

وقد اضطهد المصريون قبل ايمان الدولة الرومانية بالمسيحية ، وبعد ايمانها بها فى أيام قسطنطين ، وكان من مضطهديهم قياصرة كالفيلسوف ماركوس اورليوس ، وقياصرة لا يفقهون ولا يفكرون مثل كاراكلا ودقلديانوس . ووقع الاضطهاد فى عهد النقيضين فوقاس وهرقل ، ووقع من العواهل المتدينين وغير المتدينين ! ولم يكن هذا الاضطهاد الدينى قط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة ، كانت هى الدين والدولة فى وقت

واحـــد ، أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة ..

ولم يسع حكومة القسطنطينية الا ان تعترف بهذه الحقيقة الواقعة ، فأرادت أن تستفيد منها لارضاء الشعب المحكوم واتقاء التمرد من ولاة الرومان الطامحين ، فكانت تفصل أحيانا بين سلطان الادارة وسلطـان الجيش ، وكانت تقسم معسكرات الدفاع بين مصر العليا ومصر السفلى ، وكانت تمنح بعض الزعماء المصريين حقوق الرعاية الدينية والرئاســة الحكومية ، لأنها بمثابة الاعتــراف بالضرورة التى لا محيد عنها ، وبالحيلة التى تصلح لتفريق القوى ومنعها ان تتجمع فى ناحية واحدة للتمرد عليها . وكانت تستعظم قوة البطرق الوطنى أحيانا ، فترسل الى مصر بطرقا على مذهبها يدير كنيسته الى جانب الكنيسة الوطنيــة ، ويتبعها المسيحيون من اليونان والرومان غير الوطنيين ، كما يتبعها بعض الوطنيين الذين يميلون الى عقيدتها ورأيها ، أو يتزلفون للدولة الحاكمة طمعا فى المناصب والحظوة النافعة .

وكان الوضــع الدينى فى أوائل القرن السابع محدودا مقررا بين الكنائس الثلاث فى المشرق والمغرب والاسكندرية .

كان الأســاقفة المصريون قد تمكنوا من بســط آرائهم فى مجمع نيقية برئاسة البابا الاسكندر وتلميذه الكبير اثناسيوس ، فأقروا العقيدة المسيحية كما اتفق عليها الأساقفة الذين شهدوا المجمع ، وحرصوا على رعايتها فى القطر المصرى وفى بلاد القيروان وماحوله من المدن الافريقية ، ثم نفس عليهم رؤساء القسطنطينية هذا النفوذ ، وأرسلوا آريوس الى الاسكندرية بأمر الامبراطور . فقاطعه الشعب المصرى وأوصد فى وجهه أبواب كنائسه ، وفعل مثل ذلك مع البطرق جريجوريوس الذى أقامه الامبراطور مقام البطرق اثناسيوس المصرى بالاسكندرية ، فلم يحضر صلواته ولم يعترف بوجوده ، وأهمله حتى مات فى عزلة بين رعاياه ! وكان اثناسيوس فى هــذه الأثناء قد استعان بكنيسة رومة على كنيسة

القسطنطينيــة ، فأعانته ، وبرأته من التهم المنسوبة اليه ، فعاد الى الاسكندرية وكاد يقتل فيها غيلة بدسيسة من الامبراطور يوليان !

ثم انعقد مجمع خلقيدونية ، ورجحت فيه كفة رومة والقسطنطينية ، وأهملت فيه كنيسة الاسكندرية أشد الاهمال ، فوقع الانقسام بين الملكيين أى التـابعين لمذهب الامبراطور ، وبين المصريين التـابعين لمذهب كنيستهم ، وقيل عنهم يومئذ انهم « يعقوبيون » ، لأنهم تلقوا من يعقوب البرادعى ، تلميذ البطرق المصرى ، تفصيل العقيدة التى يؤمن بها ويوصى باتباعها ، وكان هذا البطرق المصرى «ديسقورس» قد حكم عليه بالنفى لمقاومته قرارات المجمع الخلقيدونى على الرغم من تزكية الامبراطور!

ولكن التفرقة الصـحيحة بين المذهبـين ، هى التفرقة بين القول بطبيعة واحدة للاله ، وبين القول بطبيعتين احـداهما الهية والأخرى انسانية . ولما استعصى على الدولة ان ترغم المصريين على اتباع مذهبها ، توسط بعض الرؤساء الدينيين فى حسم الشقاق ، بترك الخلاف على الطبيعة والطبيعتين ، ووصف الاله بأنه ذو مشيئة واحدة . وقدروا ان القول بهذا المذهب يرضى المصريين ، لأنه يراذف القول بالطبيعة الواحدة ، ولا يسخط أصحاب القول بالطبيعتين ، لأنهم يقولون ان الطبيعتين تتفقان فى المشيئة الالهية .

الا ان هذا التوفيق لم يحسم الشقاق ، ولم تكن له من نتيجة غير تجديد المناقشة فى صورة أخرى ، واثارة الخلاف على الفرق بين الطبيعة والمشيئة ، مما عاد بالمسألة كلها سيرتها الأولى !

ووضح للامبراطور الرومانى ان هذا « العناد » من جانب المصريين ، كما سماه ، يخفى وراءه شيئا غير مجرد الخلاف على العقائد اللاهوتية . والواقع انه كان لاهوتيا قوميا بغير مراء . وان تهافت المصريين على الرهبانية نفسها لم يكن خلوا من الاحتجاج على المظالم الرومانية ، وقد عبر عنه اثناسيوس هذا التعبير حيث قال فى كتابه « حيـاة القديس انطون » Vita Antonou : « ان رهبان الصحراء كانوا ينشدون

المزامير ، ويحبون المطالعة ، ويصومون ويصلون ، ويفرحون بالرجاء فى المصير ، ويعملون على اسداء الاحسان ، ويحب بعضهم بعضا .. حيث لا يقيم بينهم معتد ولا معتدى عليه ، ولا يقترب منهم جابى الضرائب ، ولا يبصرون هنالك غير جمهرة من النساك على مقصد واحد ، وهو التطلع الى الفضيلة » .

لقد كان هرقل مشغولا بحرب الفرس وقبائل البرابرة فى أوائل أيامه على العرش ، فلما انتصر على الفرس وهادن القبائل حول عاصمته فرغ « للمعاندين المنشقين » ، وغره النصر ، فأمعن فى طغيانه ، وغلا فى مطالب الطاعة من رعاياه ، وخيل اليه ان استقرار الأمر له مرهون بتوحيد المذاهب فى المملكة ، وان هؤلاء المعاندين المنشقين يهددونه ويجترئون عليه . فانقسمت الدولة عنده الى « ملكيين » وخارجين على الملك ، وتبادل الفريقان التهم العنيفة ، فكانت كلمة الوثنى الخائن أيسر وصف لمن يخالفون الامبراطور وشيعته ، وكانت كلمة الخلقيدونى مرادفة لوصف الكفر والغشم[1] فى نظر أبناء البلاد ! ولم تكن المسألة يومئذ مسألة مذاهب وطوائف فى ديانة جامعة ، بل كانت مسألة مسيحية أو لا مسيحية ، لأن مهمة المجامع فى القرون الأولى انما كانت تقرير العقيدة التى يدين بها المؤمن وينكرها غير المؤمن . ثم جاء الاضطهاد فأوغر الصدور ، وخرج به الفريقان من الخلاف الى العداء ، وآمن كل متدين مخلص فى عقيدته ان مخالفيه قد استحقوا الغضب والنقمة من الله !

ولم ينحصر النزاع بين الملكيين وجملة المصريين ، بل ظهرت معه الخلافات بين الآريين والنسطوريين والأوطاخيين والشيوبسقيين أتباع بطرس القصار ، وغيرهم من أصحاب النحل المتقاربة أو المتباعدة فى تفسير اللاهوت والناسوت[2] . وغلب الضجر على الكثيرين فاعتزلوا المذاهب ، وساورتهم الشكوك ، وانهارت الأخلاق ، وساءت القدوة بعلية الناس ورؤسائهم ، فمن لم يكن ناقما متوقعا للغضب السماوى

---

(١) الغشم : الظلم .
(٢) الناسوت : الطبيعة الانسانية .

فهو متهاون غير حافل بما تصير اليه الأمور .

وقد صور لنا أبناء ذلك العصر شعورهم فى أقوالهم وأخبارهم ، فاتفقوا على شعور واحد مع اختلافهم فى كل ما عداه ، وذلك هو شعورهم بالغضب الالهى وانتظار الجزاء العادل من الله .

فلما تقدم المسلمون لحرب الدولة الرومانية ، شاع فى المشرق كله ان هزيمتها حق ، وان غلبة المسلمين عليها عدل ، وان القضاء الالهى ينفذ فى مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية .

وربما نفر الخاضعون للدولة الرومانية من هذا القضاء الذى حل بها ، لو انه أصابهم كما أصابها ، وعرضهم للشر الذى كانوا يأمنونه فى ظلها ، ولكنهم وجدوا الفاتحين يؤمنونهم من حيث خافوا ، ويبيحون لهم ما لم يكن مباحا لهم فى أيام الدول الدائلة ، فمن التصدى لعدل الله فى قضائه أن ينصروها لتخذلهم وأن يدافعوا عنها ليدفعوا عنها غضب الله

كانت مدينة غزة أول المدن الكبرى التى استولى عليها العرب من أرض فلسطين ، وقالت مجلة المشرق اليسوعية فى سنتها الثانية : « انه كان يسكن وقتئذ فى جنوب غزة قوم من قبائل العرب المتنصرين ، وكان قد أصابهم من قبل ولاة الروم عسف وجور فى المعاملات فالتجأوا الى عساكر المسلمين ، ودعوهم الى فلسطين ، فلبّوا دعوتهم ، وزحفوا على غزة فى اليوم الرابع من شهر شباط لعام ٦٣٤ ، وظفروا بجيش الروم ، وفتحوا المدينة ... وبعد أيام قليلة أتموا فتح بقية مدن فلسطين » .

قال ماير Meyer فى تاريخ مدينة غزة ان سكانها المسيحيين خرجوا مع جيش الروم عندما حاصرها العرب ، الا أنهم عادوا اليها بعد اطمئنانهم الى الفاتحين ، ودخل فريق كبير منهم فى الاسلام ، وذهب المتكلمون عنهم الى عمرو بن العاص يطلبون منه قسمة الكنائس بينهم ، فقسمها بينهم على حسب عددهم ، وأعطى الكنيسة الكبرى لأصحاب العدد الأكبر وهم المسلمون ، وأمر بابقاء الكنيسة الأخرى لمن بقى على دينه

من المسيحيين .

وكانت غزة على أبواب مصر ، تسرى أنباؤها الى الديار المصرية بين ليلة ونهار ، وكان فيها وفيما حولها طائفـــة من الجنود المصريين والمتمصرين الذين استنجد بهم هرقل وقائده بميادين فلسطين . وكانت أنباء العهود التى اتفق عليها المسلمون ونصارى العراق والشام تتوالى على كل جانب من جوانب الدولة الرومانية ، فلم يكن فى كل أولئك ما يدعو أبناء البلاد الى مؤازرة الدولة الرومانية ودفع الهزيمة عنها . ولم يكن لانتصار العرب وانهزام الدولتـــين أمامهم ـــ دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ـــ غير تفسير واحد ، وهو قضاء الله وعدل الله .

ولفهم التاريخ كما حدث ينبغى أن تنظر اليه بأعين المعاصرين ، وأن نشعر بحوادثه كما كانوا يشعرون بها ، وأن ندخل فى حسابنا ما دخل فى حسابهم من التقديرات والمعايير ، وأن نعرض العداوات والصداقات على المحك الذى عرضوها عليه ، ومنها ماخطر لهم وهو لايخطر لنا الآن ، ومنها مانستخف به ولم يكن خفيفا قط فى موازينهم للحوادث والأمور .

ان العرب أبناء اسماعيل وهاجر .. يعلم ذلك كل من قرأ التوراة واطلع على أصول الديانة المسيحية ، ويعلمونه فى ذلك العصر خاصة ، لأنه كان عصر العداوة القومية بين الرومان الأجانب وشعوب الشرق على الاجمال . وقد كانت وحـــدة الديانة خليقـــة أن تنسى الشعوب المحكومة فوارق الوطن واللغة ، ولكنها وحدة لم تنتظم قط بين الحاكمين والمحكومين ، ولم يكن فيها ما يجمع المختلفين ، بل كان فيهـــا على الدوام ما يفرق المجتمعين ، ويمشى بينهم بالعداوة والبغضاء !

فالعرب أبناء اسماعيل وهاجر أقرب من الروم الى أبنـــاء مصر ، بالنسب الذى تحفظه الكتب الدينية ، وقرابة الأمومة والسلالة ، ومثل هذه القرابة لم تكن من المهملات فى ذلك العصر ولا فى العصور التى لحقت به الى عهد غير بعيد من عصرنا الحاضر ، وقد رأينا أنها كانت حجة الفرس فى الزحف على بلاد الدولة الرومانية ، لأن زوجة كسرى

كانت من بنات الروم

ومن مقدمات الفتح الاسلامى تبادل الرسائل بين النبى عليه السلام والمقوقس ، أو عظيم القبط كما سمى فى تلك الرسائل ، وقد حفلت بأخبارها كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ عن الفتح وما بعده ، نستخلص منها ما لابد من العلم به وبأمثاله فى بيان الحالة الدينية بمصر كما واجهها الفاتحون وأهل البلاد .

قال حاطب بن بَلتَعة ، حامل رسالة النبى الى المقوقس ، اننى قلت له : « كان قبلك رجل — يعنى فرعون — زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ! فاعتبر بغيرك ، ولا تعتبر بك ! وان لك دينا لن تدعه الا لما هو خير منه ، وهو الاسلام الكافى الله به فقدَ ما سواه ، وما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به » .

قال حاطب : ثم تناول المقوقس كتاب النبى فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . يَا أهْلَ الكِتَابِ تَعَالوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبينكم ألا نَعبدَ الاّ اللهَ ولا نُشركَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بَعْضا أرْبابا مِن دُونِ اللهِ فان تَوَلَّوا فَقُولُوا اشهدُوا بِأنّا مُسْلمون » .

ثم قال المقوقس كلاما عن صفات النبوة ، منها : « أنه يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزىء بالثمرات والكسر ، ولا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم » . وأنه كان يظن أن مخرجه من الشام ، فمن هناك كانت تخرج الأنبياء ، وكتب الجواب فجعل عنوانه « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط »

وورد فى بعض الأخبار أن المقوقس أراد أن يمتحن دعوى النبوة

بالهدية ، فأرسل هدية معها صدقة ، لأن الأنبياء تقبل الهدايا ولا تقبل الصدقات ، وجعل الهدية جاريتين أختين ليرى هل يجمع بينهما أو يتورع عن الجمع بين الأختين ، فكان أن أهدى النبي احدى الجاريتين وبنى بالأخرى ، وأنه وزع الصدقة على الفقراء .

ومثل هذه الأخبار يوجبها فهم التاريخ كما حدث أو كما ينبغى أن يحدث ، ولاترفضها الا الحذلقة التى تداخل المؤرخ العصرى ، فيحسب أن المقوقس يعيش فى هذا القرن العشرين ، ويتلقى دعوة النبوة كما يتلقاها أبناؤه ، فلا ينظر فى امتحانها بما كانت تمتحن به النبوات فى القرون الأولى للميلاد ، وانما الخليق بالتحقيق التاريخى أن يوقن المؤرخ من حصول شىء كالذى نقله رواة السير والأخبار عن تصرف حاطب ابن بلتعة ، وتصرف المقوقس فىجوابه وهديته ، فما كان المقوقس ليتلقى رسالة النبى أو ليجيب عنها الا على ذلك النحو ، مما يحاول المؤرخ أن يتخيل غيره فلا يستطيع !

أما المسلمون فقد جاءوا مصر ومنهم من سمع أحاديث النبى عليه السلام فى التوصية بها ، ومنها : « وانكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فان لهم ذمة ورحما ، أو قال ذمة وصهرا » .

ومن الأحاديث النبوية عن مصر أنه عليه السلام قال : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض» . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » وقال « ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤونته » .

ومن لم يكن من الجند الفاتح قد سمع الأحاديث النبوية ، كان قد سمع آيات من القرآن الكريم ، وفيها من لعنة فرعون :

« انَّ فِرعَوْنَ عَلاَ فى الأرضِ وجَعَلَ أهلَها شِيعا » ، وفيها من لعنته : « ان تُرِيدُ إلا أنْ تكونَ جبَّارا فى الأرض » وفيها :

« ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا فى الأرضِ ونجعَلهُم أئمّةً ونجعلَهُم الوارثينَ ونمكّنَ لهُم فى الأرضِ ونُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كَانُوا يَحْذَرُونَ » .

وعلى ألسنتهم جميعا حكاية عن قوم يوسف : « ادْخُلُوا مِصْرَ انْ شَاءَ الله آمِنِينَ » وقوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُون وَزُروع وَمَقام كَريم ونعْمَة كانُوا فِيها فَاكِهِينَ وأوْرَثْنَاها قَوْما آخَرِينَ » .

وكل هذه الوصايا القرآنية والنبوية فى أذهان الفاتحين تجنح بهم الى المسالمة والمؤامنة فى معاملة أهلها ، وتضع الروم عندهم فى موضع فرعون الذى تجبّر وفرق رعيته شيعا ، ووجب أن يتركوا الأرض لمستضعفيها ، وأن يورثها الله قوما آخرين .

وتوافق هذه المسالمة خطة مثلها من أبناء البلاد توحيها اليهم أحوال كثيرة كانوا يكابدونها على الأحقاب المتوالية ، وأهمها الحالة الدينية كما صارت اليه فى أيام الفتح الاسلامى خاصة ، وهى تلك الحالة التى أزعجت البطرق عن كرسيه ، وألجأت زعيم القوم الى مذهب فى العقيدة غير مذهبه ، فلم تعد الطمأنينة الى المتعبدين لأول مرة فى ثلاثة قرون الا باعلان الأمان لكل متعبد ورعاية الحرمة لكل معبد .

ولا خلاف بين المؤرخين فى منهج الدعوة الدينية فى سنوات الفتح الأولى الى أواسط أيام الدولة العباسية ، فلم يقع اكراه على أحد ، بل وقع ما يناقض الاكراه فى رواية الكثيرين من مؤرخى العربية ومؤرخى اللغات الأجنبية ، فقد أدهشهم احجام الفاتحين عن اكراه أبناء البلاد على الدخول فى ملتهم ، حتى التمسوا تأويل ذلك بأنهم كانوا يشفقون من نقص الجزية واقفار خزانة الحكومة وانقطاع أرزاق الجند والعمال ، وهو تأويل مخطىء كما سنرى فى باب الأحوال الادارية وتقسيم الأموال بين الجزية والخراج والزكاة ، ولكنه مهما يكن من خطئه صحيح فى الإبانة عن الواقع فى مسألة الدعوة الدينية ، فاذا بلغ

من احجام الحاكمين عن اكراه الرعية على التدين بدينهم أن يعلل المؤرخون ذلك بنفورهم من فقدان الجزية ، فقد صح على الأقل أنهم أحجموا عن الاكراه ولم يقسروا أحدا على الخروج من دينه •

غير أن الحالة الدينية ، كما وصفناها ، تفسر الواقع كما تستدعيه تلك الحالة ، وكما ورد فى التواريخ القبطية كتاريخ يوحنا النخيوى المشهور ، فهو يقول ان المسيحيين الملكيين أسرعوا الى الدخول فى الاسلام لأنهم كرهوا أن يثوبوا فى أحكامهم ومعاملات زواجهم وطلاقهم الى الكنيسة التى يعادونها وتعاديهم ، ويشبه الطائفة الملكية أناس فى حكمها ، كالطائفة النسطورية والآرية . ومن يقول بالمشيئة الواحدة ولا يقول بالطبيعة الواحدة ، كما يقول القبط ، ولا بالطبيعتين على النحو الذى يدين به الملكيون •

وقد حدث فى هذه الفترة وما قبلها بقليل أن الطائفة المارونية هجرت أرضها جملة واحدة ، وانتقلت الى جبال لبنان كراهة الخضوع لليعقوبيين ، ولعلها لو اضطرت الى البقاء حيث كانت لدانت بالاسلام ولم تذعن لمن حاربتهم وحاربوها فى المعتقدات والأحكام عشرات السنين

فالذين أسلموا بعد الفتح انما أسلموا طوعا غير مكرهين على ترك مذهب ولا نحلة ، وهم على رواية يوحنا النخيوى طائفة الملكيين الخلقيدونيين ومن يشبهها من الطوائف التى لا تقول بالطبيعة الواحدة ! ويضاف اليهم أناس من الذين فهموا من انتصار المسلمين على الفرس والروم أنه آية الهية وبرهان من السماء على صحة الدين وسلامة الدعوة . ويضاف اليهم أناس ممن هان عليهم أمر التدين فى محنة الشقاق ومحنة الأخلاق ، فلم يبالوا على أى دين أصبحوا بعد الشك والريبة ، ثم فضلوا الدين الذى يعتقده ولاة الأمر وحكام البلاد ! ولا تفسير للحالة الدينية أيام الفتح أصح من هذا التفسير •

الحالة الادارية والسياسية

عرفت مصر التقسيمات الادارية من أيام الأسر الأولى ، وعد سترابون ستة وثلاثين من هذه الأقسام التى نسميها اليوم بالمديرية أو المحافظة ، وعرفها اليونان باسم النوم Nom ، وزادت بعد عصر سترابون حتى أربت[1] على الأربعين .

ويقال انها كانت فى مبدأ الأمر مواطن للعشائر أو القبائل المختلفة التى تسكن الوادى وما يقابله من جانبى الصحراء . وكانت كل عشيرة منها مستقلة برئيسها وعبادتها المحلية ، على حسب الطواطم التى تدين بها ، ومن هنا غلبة العبادة فى كل اقليم لطوطم من الطواطم الحيوانية ، فمنها اقليم الصقر ، واقليم التمساح ، واقليم ابن آوى ، واقليم الهر ، واقليم الحمل ، وغيرها من هـذه المعبودات الطوطمية . ولهذا كبرت بعض الأقاليم أو صغرت لأسباب لا ترجع الى الوضـع الجغرافى أو المصالح الاقتصادية ، وتعذر تغييرها ، والتصرف فى حدودها قبل اتحاد البلاد جميعا فى عبادة قومية عامة .

والى جانب هذه التقسيمات كانت هناك أقسام أكبر من هذه الأقسام، تلاحظ فى تخطيطها الدواعى العسكرية والسياسية ، أو دواعى الدفاع واجتناب النزاع بين أصحاب الحقوق المشتركة فى الامارة

وأقدم هذه الأقسام قسمان : مصر العليا ومصر السفلى ، ثم زيدت عليها مصر الوسطى ، وتفرعت مصر السفلى الى فرعين : أحدهما الى شرق الدلتا. والآخر الى غربها ، ووجد فى بعض العصور قسم آخر ، يضم اليه الواحات وطرفا من الأرض الليبيـة ، ويتصـل بالفيـوم

---

(١) أربت : زادت .

والاسكندرية حيث يشرف عليه الوالى الأكبر ، لما له من الخطر فى الدفاع عن حدود مصر الغربية .

هذه التقسيمات جميعا تحللت وكادت تندثر أو تختلط بينها التبعات فى عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية .

ففى عهد الامبراطورية بطلت الحاجة الى الدفاع شرقا وغربا ، لأن مصر كانت محاطة من الجهتين بأملاك الامبراطورية فى فلسطين وفى ليبيا وافريقية الشمالية .. ويطلت الحاجة الى الدفاع جنوبا ، لأن نجاشى الحبشة كان على عهد مع عاهل القسطنطينية أن يتعاونا على حرب فارس واخراجها من اليمن التى كانت تهم الحبشة وتخشى الخطر من جانبها

فلم تبق من حاجة الى الدفاع فى غير الاسكندرية ، ولم يكن دفاع البر هو المقصود بالحامية التى تعسكر فيها ، ولكنه كان دفاعا بحريا تعززه الحاجة الى الأسطول لنقل المحصولات والغلات من القطر المصرى الى بلاد الدولة المترامية الأطراف على سواحل بحر الروم .

وجاوز الأمر اهمال الدفاع الى تعجيز الحاميات ، واغراء بعضها ببعض ، خوفا من اتفاقها على الدولة ، واجماع قادتها على رفض المطالب التى تتوالى على القطر من القسطنطينية .

فاختلت أحوال الأمن فى داخل البلاد ، ولجأ بعض السراة من أصحاب الضياع الكبيرة الى اتخاذ الجند من أتباعهم وزراعهم وحواشيهم ، فلم يمض غير قليل حتى نجم الخطر من هذه الفرق التى لا تدين بالطاعة لقائد واحد ، فعاثت فى الأرض ، وخيف منها على الوادعين المسالمين ، وأصبحت شرا عليهم من عصابات اللصوص وقطاع الطريق ! وفى تاريخ تاريخ يوحنا النخيوى وقائع شتى من عبث هذه الفرق ، تدل على ما كان من اضطراب الأمن وفزع الأهلين وعجز الحكومة العامة فى الأيام الأخيرة قبل الغزوة العربية .

وآل الغرض كله من التقسيمات الادارية الى جمع الضرائب والأزواد المقررة للدولة فى كل سنة زراعية .

ولم يكن لهذه الضرائب نظام واحد ولا مقدار معروف لا يتغير مع السنين ، ويظهر هذا الاختلاط فى سياسة الضرائب من تضارب الأقوال بين المؤرخين الذين جمعوا كل ما أتيح لهم جمعه من الوثائق والسجلات وأوراق البردى ورسائل العواهل والولاة ، فاختلفوا فى ضريبة الأرض ، وضريبة الرؤوس ، وذهب بعضهم الى نفى الخبر المتواتر عن وجود ضريبة الرؤوس فى مصر على عهد الدولة الرومانية الشرقية ، لأنهم لم يجدوا لها موضعا بين أنواع الضرائب على الأطيان ، ثم اتفق بعضهم على أن ضريبة الأطيان هى ضريبة الرؤوس التى أصبحت أساسا لتحصيل الجزية بعد فتح العرب ، لأنهم كانوا يلاحظون فى مقدار ضريبة الأرض كفاية الزارع الواحد طول العام ، فتحسب الغلات بحساب الرؤوس ، ولا يختلف التقدير بين ضريبة الوحدة الأرضية jugum وضريبة الرأس على فرد من أفراد الفلاحين Caput ، فلم يكن خراج الأرض jugatio وضريبة الرؤوس Capitatio الا صورتين مختلفتين لضريبة واحدة (١) •

واستوجب هذا النظام أن يعتبر الفلاح أسيرا على الأرض التى يزرعها ، ويعامل معاملة الهارب بحق الدولة اذا فارق قريته ولاذ بقرية أخرى . وحل الزارع المحلى Colonus محل العبد الرقيق بعد تعذر الاعتماد على هذا النظام فى الزراعة •

وعلى هذا لم يكن مقدار الخراج محدودا فى كل سنة ، بل كان تحديده على حسب المحصول المنظور فى أيام الفيضان ، فيصدر البيان السنوى من الوالى الرومانى خلال شهر يوليو أو أغسطس (٢) ويبلغ الى الأقاليم فى سبتمبر أو أكتوبر ، ويتولى كل اقليم توزيع المقدار المطلوب منه على القرى والبلاد ، كما يروق صاحب الكلمة العليا فى الاقليم . وأصحاب الكلمة العليا مختلفون بين حكام رومانيين ، أو أصحاب ضياع من الأجانب والوطنيين ، وبين مجالس بلدية أو اقليمية ،

(١) الامبراطورية البيزنطية تأليف نورمان باينز Baynes
(٢) الدخول فى الاسلام وضريبة الرؤوس تأليف دانيل دينت Dennette

ومستأجرين يتولون زرع الأرض فى مساحات واسعة ، ثم يتولون محاسبة المجالس أو أصحاب الضياع .

والمطلوب من الأرض كذلك يختلف على حسب الجودة والصنف المزروع ، فمن الأرض ما يسهل ريه بماء النيل ، ومنها ما يصل اليه ماء النيل ولكنه يغمره أياما فى السنة فلا يصلح للزراعة فى غير موسم قصير ، ومنها ما يحتاج الى الآلات لريه ولا يأتى بالغلة الكافية الا مع كثرة الأيدى العاملة فيه .

والدولة لا يعنيها الا أن تجمع المقدار المقرر فى حسابها . والموظفون لا يعنيهم الا ارضاء الدولة ، وليس للتقصير فى أداء مطالبها غير نتيجة من نتيجتين ، كلتاهما مكروهة ومحذورة : فاما العزل ، واما العمل بغير مرتب ، لأن المرتبات محسوبة من حصة الضرائب التى تبقى فى مصر بعد استيفاء مطالب الدولة جميعا من المال والمحاصيل .

وربما تسابق الملاك الكبار ورؤساء المجالس المحلية والاقليمية فى معاملة الدولة فى تحصيل الضرائب ، طلبا للكسب والنفوذ من وراء هذه المعاملة !

فقد كان النظام المتبع مع كبار الملاك أن يؤدوا ضرائبهم الى خزانة الدولة مباشرة ، بغير واسطة الجباة ورؤساء المجالس ، وكان هذا النظام يرضى الدولة لأنه يغنيها عن استخدام الموظفين والمحصلين ، ويرضى المالك الكبير ، لأنه يكسبه الجاه فى الدواوين ، ويمكنه من تسخير العمال المستأجرين ، فلا يبرحون أرضه أو يستعين عليهم بسلطان الحكومة ويستبقيهم عنده مكرهين . وكان من حقه بهذه المثابة أن يطارد المماطلين لأنهم يماطلون الدولة كما يماطلونه ، وأن يستزيد من الأرض المزروعة لحسابه ما استطاع لأنه يزيد بذلك فى نصيب الخزانة العامة ويعطى الدولة حقها جملة واحدة فى موعد معلوم !

وهناك غاية سياسية وراء هذه « الاجراءات الادارية » ترمى اليها الدولة البيزنطية فى عاصمتها الكبرى ، وهى اثارة الشحناء[1] بين سراة

(١) الشحناء : العداوة والبغضاء .

البلاد وأصحاب المناصب الكبرى ، فتضرب بعضهم ببعض ، وتأمنهم جميعا على سلطانها ، وقد تأمن أن يغتالها أحدهم فى نصيبها من الضرائب حذرا من وشاية الخصوم والنظراء !

ويغلب على اعتقادنا أن سلطان المقوقس فى مصر انما كان من عمله على هذا النحو فى تدبير أمر الخراج ، فلم يكن واليا مفوضا فى أمر الخراج كما خطر لبعض المؤرخين ، ولكنه كان مالكا كبيرا من أبناء البلاد ، فكان يتكفل للدولة بحصته وحصة عملائه وأتباعه ، وكانت الدولة الرومانية تعترف بوجاهته وتستفيد منها ، كما كانت الدولة البريطانية تصنع فى الهند مع الراجات وأمراء الولايات .

ولكن الطمأنينة شيء وتنازع الوجهاء على السيطرة شيء آخر ، فهذا التنازع صراع دائم لا طمأنينة فيه لأحد من كبار الملاك ولا من كبار العمال والولاة . واذا كان مداره على التزايد فى اعطاء الدولة وابتزاز المال من المحتاجين اليه ، فهو قلق دائم لصاحب الأرض وزارعها ، والمأجور عليها ، ومن تقوم سيادته على التنكيل بنظرائه ، والعدوان على من هم دونه من الصغار والمستضعفين .

ولم تكن ضريبة الأرض أو ضريبة الرؤوس كل ما تطلبه الدولة من رعاياها المصريين ، بل كانت هنالك ضرائب كثيرة على المقتنيات جميعا بين ثابتة ومتنقلة ، وقد أحصى منها ميلن Milne فى تاريخه لمصر فى ظل الحكم الرومانى أنواعا شتى ، كضريبة الاصلاح والترميم التى تجبى لاقامة الجسور وتسليك[1] الجداول وتنظيف الأحواض ، وضريبة البيوت والمساكن الخاصة والعامة ، وضريبة الحيوانات كالخيل والجمال والحمير ، وضريبة الصناعات والمتاجر ، وضريبة عامة تسمى ضريبة التاج .. وكلها على اختلاط حسابها وحساب مواعيدها والمراجع التى تتولى تقديرها وتحصيلها كانت مصدرا دائما للشكاية والقلق والنزاع ، بين الشعب والموظفين ، وبين الادارة المحلية والادارة العامة ، وبين خزانة مصر وخزانة الدولة الرومانية .

---

(١) تسليك : سلك الشيء : أدخله وجعله سالكا .

واقترنت هـذه الحالة فى القرن السادس بتدهور العملة الرومانية ، واختفاء العملة جملة من الأسواق المصرية ! وقد فسر المؤرخ ميلن هذه الأزمة بالخوف من تقلبات التجارة ، واكتفاء أصحاب الزراعات بلوازمهم من غلات أرضهم ومما يحصلون عليه مقايضة ومبادلة على تلك الغلات ، وقد يكون بعضها راجعا الى عادة الكنز والادخار ، تهريبا للمال من أعين الحكومة ، وحيطة للمستقبل المجهول .

وبين هذه الأزمات والشكايات يسمع القوم عن نظام الفاتحين فى البلاد المجاورة ، ويعلمون أنه يقصر الضرائب على ضريبة الرؤوس للذميين ، وضريبة العشر للمسلمين . ولم يكن هناك خراج يتقاضاه الفاتحون من الفريقين مستقلا عن الضريبتين ، لأن نظام الخراج انما استعير من الدولة الفارسية ، وصحفت الكلمة من كلمة « خلاك أو خلاج » الآرامية التى دخلت فى تعبيرات الفرس ، لأنهم كانوا يستعيرون الكتابة بالحروف الآرامية ، فلما شرعت الدواوين الاسلامية فى تطبيق نظام الخراج والتوفيق بينه وبين ضريبة الذميين وبين عشور الزكاة ، كان قد مضى وقت غير قصير على أوائل أيام الفتوح .

وكان الأمل فى الخلاص من شبكة الضرائب الرومانية سببا آخر من أسباب الرغبة فى الخلاص من حكمها كله ، بما اشتمل عليه من ضروب الارهاق والسيطرة الجائرة على الأرواح والأموال

وقد خلق المؤرخون كعادتهم مشكلة متشعبة من الأقاويل والتقديرات حول نظام الضرائب فى العصر الاسلامى الأول ، وتساءلوا هل كانت ضرائب رؤوس ؟ هل كانت غنائم فىء[1] ؟ هل كانت خراجا على الأرض ؟ هل كان تحصيلها على طريقة الدواوين الرومانية أو على طريقة جديدة لم تكن معروفة فى تلك الدواوين ؟

وانما يخلق المؤرخون مشكلاتهم لأنفسهم ، لأنهم يطلبون النصوص والأوراق دائما ، ولا يطالبون أنفسهم بتقدير الموقف كما ينبغى أن يكون ، ثم يستعينون عليه بنصوصهم وأوراقهم على هذا التقدير !

(١) الفيء : الغنيمة والخراج .

وينبغى أن يقدر المؤرخون شيئا واحدا لا شك فيه ، وهو أن انتقال نظام الضرائب بين ليلة ونهار من الحساب الرومانى الى الحساب الاسلامى هو المستحيل ، لأن اشراف القائمين على الدواوين التى يجرى فيها الحساب باللغة اليونانية غير ميسور ، وقد يتعسر اشرافهم عليها بأية لغة من اللغات فى سنوات الانتقال من نظام الى نظام

كذلك ينبغى أن يقدر المؤرخون أن معاملة القطر كقطعة واحدة من الأرض شىء لم يخطر على بال أحد فى ذلك الزمان !

فالمؤرخون الأقدمون كانوا يذكرون مصر فى كتبهم ، فيتكلمون عن مصر واسكندرية ، ومصر وطيبة ، ومصر والفيوم ، ومصر والمدن الخمس ، ويفرقون بينها فى أحكام الولايات والأبرشيات من الوجهة الادارية والوجهة الدينية

ولما تم الفتح كانت معاملة الأقاليم مختلفة على حسب الولاة والملاك ، وعلى حسب المقاومة والصلح ، وعلى حسب الجنود والقادة الذين أخذوها عَنْوةً ، أو أخذوها بعد حصار ، أو أخذوها بغير مقاومة

فهناك أقاليم كان الملاك فيها من الرومان فهجروها ، وأصبحت من غنائم الدولة التى تستولى عليها وتتولى تقسيمها وتوزيعها

وهناك أقاليم يكثر فيها الملاك الوطنيون ، وهذه داخلة فى ضريبة الجزية ، وأقاليم حاربت ، وأقاليم لم تحارب ولم تعقد صلحا ، لأنها كانت متروكة بغير زعامة وبغير رئاسة تنوب عنها فى المعاهدة والمصالحة

أما اختلاف المعاملة بالنظر الى الجيش الفاتح فمرجعه الى الفرق بين الغنيمة والفىء فى أرزاق الجنود .

فالغنائم التى تؤخذ حربا تعزل منها حصة لبيت المال ، وتقسم منها حصة على المقاتلين .

والغنائم التى يأخذها الفاتحون بغير حرب هى الفىء الذى يؤول الأمر فيه الى تصرف الامام ولا يصح تقسيمه بين المقاتلين

فلما حصل الفتح جاء الاختلاف من قِبَل التمييز بين المحارب

والمسالم ، وبين حقوق الغنيمة وحقوق الفيء ، ولكن لا اختلاف على الاطلاق فى نظام الضرائب كيف يكون فى محاسبة الذميين ومحاسبة الجنود .

***

وقد يختلف فى الأرض الخراجية وغير الخراجية ، ولكن الأمر الذى لم يقع عليه خلاف قط هو ضريبة العشر على المسلم ، لأنها هى فريضة الزكاة التى تلزمه باستحقاقها ولا خلاف عليها . والتنبيه الى ذلك واجب لتصحيح أقوال المؤرخين الذين وهموا أن أناساً من أبناء مصر دخلوا الاسلام فرارا من ضريبة الجزية ، فان نظام الضرائب الجديدة كان يوجب على كل ذمى عامل دينارين فى السنة ، ولا ضريبة على النساء ولا على الأطفال ولا على الشيوخ العجزة « ولا يزاد أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين ، الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، إلا أهل الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى مَنْ وَلِيَهم » لأن سكانها من الروم ، ومن والاهم لم يدخلوا فى اتفاق ، وعادوا الى القتال بأمر الدولة الرومانية مرتين .

والحكم فى تحصيل الجزية كما أثبته الفقهاء « ألا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيدائهم الجزية ، ولا يقدموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ، ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية » .

فاذا أسلم الذمى فرارا من الجزية ، فالاسلام لا يعفيه من الزكاة ، ولا من خراج الأرض بحسب ما يلزم لاصلاحها وريها ، ويوجب عليه « التجنيد » الذى يعفى منه الذميون ، وليس فى هذا تخفيف ولا اعفاء من وجهة التكاليف التى تناط بالأنفس أو الأموال

وليس من غرض هذه الرسالة بسط القول فى النظم الادارية والمالية

الا من جانب واحد ، وهو الجانب الذى له علاقة بمهمة الفتح وعمل عمرو فيه ، فاذ نظرنا الى نظام الضرائب ونظام الادارة عامة فى عهد الرومان ، والتمسنا آثارها فى فتح العرب مصر ، كان أوضح هذه الآثار أنها يسرت مهمة الفتح تيسيرا عظيما ، فاستطاع عمرو ببضعة آلاف من الجند ما لم يكن مستطيعه بأضعاف هذا العدد . اذ كانت هزيمة الروم نكبة على الروم ، وكان انتصارهم نكبة يحذرها أبناء البلاد ، وايذاناً بظلم فوق ظلم لأنه ظلم المنتصر الذى استقر له الأمر فى بلد مغلوب يحس من أهله العداء والمناقضة فى أمر العقيدة وأمر السياسة . وقد وصف ساويرس بن المقفع فرح الجماهير بلقاء رئيسهم بنيامين بعد اختفائه فى منفاه ، فقال انهم كانوا أشبه شيء بصغار النعم خلى بينها وبين ألبان أمهاتها . وقال البطرق نفسه فى جوابه لأسقف نيخو الذى هنأه بزوال عهد الروم : « انني وجدت فى الاسكندرية ما كنت أوده من الطمأنينة بعد ما قاسيناه من الكفرة الظالمين » !

أما السياسة التى اتبعها عمرو فى تحصيل الضرائب ، فكانت فى جانب المصلحة المصرية كلما اختلفت الآراء بين خطتين . فلما أشار عليه زعماء الجند بقسمة الأرض والمال أبى ذلك عليهم ، وراجع الخليفة عمر ابن الخطاب فى ذلك فأقره على رأيه . ثم اقتصد فى تحصيل الضرائب حتى ارتاب الخليفة فى الأمر ، وحاسبه عليه حسابا عسيرا كعادته فى محاسبة العمال ، ابراء لذمته من العبث ببيت المال ، وفى الكتب التى دارت بين الخليفة وعمرو فى هذا الصدد بيان عن سياسة عمرو ، وبيان أوضح من ذلك عن خلقه وقوة شكيمته مع خليفة لم يجترىء عليه أحد من عماله مثل اجترائه . فلما كتب اليه الخليفة « يعجب من أن الارض لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه » ، ويعرض له ببعض الشبهات ، أجابه مغضباً ، فقال : « اننا عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا .. وان الله قد نزهنى عن تلك الطُّعَم[1] الدنيئة والرغبة فيها بعد كتابك

---

(١) الطعم : جمع طعمة وهي المأكلة والرزق ووجه المكسب .

الذى لم تستبْق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخا .. »

الى أن قال ، وهو أشد ما ووجه به خليفة ، وما ووجه به ابن الخطاب خاصة : « والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشـــد غضبا لنفسى ، ولها انزاها واكراما ، وما عملت من عمل أرى عليه متعلقاً ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ، يغفر الله لك ولنا .. » !!

وتكررت المعارضة منه فى طلب الزيادة من مال مصر حتى عزله عثمان رضى الله عنه وقال له حين جاءه الخراج زائدا : « أرى أن اللقاح قـد درّت ! » فأجابه : « حين أعْجَفْتُمْ فِصالها »(١) !!

ولم يحاول المؤرخون الغربيون أن ينكروا هذه الخطة من عمرو ، ولكنهم أكدوها واستدلوا منها على نية البقاء فى المنصب أو نية العمل لنفسه فى المستقبل ، وليس هذا بالبعيد فى رأينا ولا بالمستغرب من عمرو أو غيره من الولاة ، ولكنه قول يلقى على عواهنه(٢) اذا أريد به أنه كان يقتطع أموال مصر لنفسه بعد الفتح ، فان الخليفة قد حاسبه على مازاد من عطائه — وهو مائتا دينار — فوجده فضلا سأله عنه ، فقال له انه من التجارة ، فلم يتقبل منه هذا العذر ، وأرسل اليه من يقاسمه الزائد من المال كعادته مع الولاة فى كل بلد ، ثم عزله عثمان فلم يتخلف عنده من المال مايغنيه بعد عزله ، ولو تخلفت عنده بقية تحسب من الغنى لما قال عثمان : « ان جبتك قملت منذ عزلناك » ؟!

هذه خطته فى الادارة ونظام الضرائب بعد هزيمـة الرومان ، وهى الخطة التى عاهد عليها من عاهدوه فيها ، ولم يتغير منهـا بعد ولايته الثانية فى أيام معاوية الا أنه كان المسئول عن الحكم كله فى أيام هذه الولاية ، فلم يكن حفظ ما زاد من المال اختلاسا من حق مفروض عليه لبيت المال فى دار الخلافة .

قيل ان عثمان رضى الله عنه عزله لأنه أراد أن يجعـله على الحرب ويولى عبد الله بن سعد تدبير أمر الخراج ! ويخيل الينا أن عثمان رضى

---

(١) فصالها : جمع فصيل وهو ولد الناقة . (٢) عواهنها : العواهن سعفات النخل . وألقى القول على عواهنه أي تهاون به وأرسله من غير روية .

الله عنه قد نظر فى ذلك إلى نظام الدواوين كما بقى من عهد الروم وأراد أن يجعل للدفاع وللحرب والياً غير ولاة المال ، وقد كان الخلفاء الأولون يبتدئون هذه النظم على غير سابقة ، فيرجعون الى سوابقها فى البلاد التى حكموها بعد الفرس والرومان . وأيا كان الباعث على معارضة عمرو فى هذا النظام ، لقد كان على طريقته التى انتهجها قبل تحويل ادارة الدواوين شيئاً فشيئا الى النظام الذى استلزمه تغيير سياسة مصر ، من ولاية تساس لتدبير طعام الدولة الرومانية وتزويدها بالمدد لخزانتها ، الى قطر يقوم بشؤونه ويرسل من فيضه حصة لا ينفرد بها بين الأقطار التى كانت تشترك فى دولة واحدة .

***

ولا تنفصل مسألة الضرائب والاتاوات ومسألة الفتح فى تقدير أحد ممن كتبوا عن هذه الفترة فى تاريخ مصر وتاريخ الدولة الرومانية ، فقد اتفق المؤرخون الاجتماعيون والناقدون العسكريون على أن النظام الادارى — أو نظام الضرائب خاصة — كان له أثر قوى فى تيسير الفتح من جانب المصريين ، وعزز هذا الرأى ناقد عسكرى حديث رجع بالدرس الى معارك الفتح على أحدث المبادىء العصرية ، وهذا الناقد العسكرى هو القائد « فولر » رائد التسليح الآلى فى تركيب الفرق الحديثة ، فانه راجع فتوح الاسلام وعجب لاتفاق فتح خراسان وفتح مصر فى وقت واحد ، ثم كان من تفسيراته لهذه الفتوح « أنها رد فعل على الحكم الرومانى الذى أرهق المصريين بالضرائب الثقيلة ، وحجر[1] على عقيدة القبط الدينية » .

---

(١) حجر : حجر على الشيء منع منه ، وعليه الامر حرمه .

بين الامارتين

أشار عمرو بفتح مصر ..
وقام عمرو بفتح مصر ..
وكل فتح فله تأمين وتمكين ..

وقد قام عمرو بتأمين ذلك الفتح وتمكينه ، على نحو لم يسبقه اليه سابق من فاتحي وادي النيل فى قديم عصوره ، لأنه أبقى لهذا الفتح أثرا خالداً فى لغة البلد ودينه وفنونه ، فصنع ما لم يصنعه فاتح قديم ، وقل أن يصنعه فاتح حديث

فلم يغفل عن حدود البلاد بعد أن سلمت له الاسكندرية وتتابع تسليم العواصم الأخرى لأعوانه ، ولا سيما الحدود التى يجيء الخطر منها وهى حدود الغرب والجنوب

ولعله علم من مصر — ان لم يعلم قبل ذلك — أن نقتاس القائد الرومانى ، أغار على البلاد من غربيها فأخضعها ، وأن هرقل قد حدثته نفسه مرة بالرجعة الى المغرب ليحكمه ، فراراً من فتن القسطنطينية ودسائسها ، وقد يفعل ذلك خلف من بعده فيصبح المغرب منفذاً لغارة رومانية قد يخشى خطرها على « الفتح الجديد » وهو فى أوائل سنواته

فتوجه فى فتح المغرب حتى وقف عند تونس بأمر الخليفة . وعلم أن أهل مصر يخافون من مساكنة النوبة اياهم فى بلادهم . ويسألون حاكمهم أن يقصيهم عنها ولا يأذن لهم بطول المقام فيها ، فوعدهم ألا يأذن بهذا المقام ، وسيَّر الكتائب الى مصر الجنوبية يذود عنها النوبة ويحرس مادخل فى حوزته من أرضها

وقد أنصف الخليفة عمرواً وأحسن جزاءه بتوليته على مصر بعد فتحها وتنظيم شئونها ، على أثر الحروب التى أفسدت فيها كل صالح ، وبدلت فيها كل نظام ، فحرص عمرو جهده على مرضاة الخليفة واستبقاء رأيه فيه ، وكان من الولاة القليلين الذين طال عهدهم بالولاية فى خلافة الفاروق .

قيل ان الفاروق استوصف عمرواً مصر ، فكتب اليه يقول :

« ان مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها[1] جبل أغبر ، ورمل أعفر[2] ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر ، له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى اذا عج[3] عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه ، كأول ما بدأ فى شدته ، وطما فى حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه : يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى اذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدر حلابه ، ويغنى ذبابه . فبينما هى يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء ، اذا هى عنبرة سوداء ، واذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء . والذى يصلح هذه البلاد وينميها الا يقبل قولها خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأدى خراج ثمرة الا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل »

فان لم يكن هذا الكلام من نص كلامه ، فهو من صميم رأيه وعيانه لا مراء . والذى لا خلاف فيه أن الفاروق تلقى منه وصفاً لمصر يشبه هذا الوصف ، ودليلا على الدراية بها يشبه هذا الدليل ، وأن عمرواً أخلق الناس أن يحذر فى عهد الفاروق « سعى الخسيس بالرئيس »

---

(١) يكنفها : يحيط بها . (٢) أعفر : أبيض في غبرة . والرمل الاحمر .
(٣) عج عجاجه : عج النهر صوت . والعجاج ما ثورته الريح من الغبار .

وهو الذى يعلم أنه مستهدف لمثل هذا السعى ، وأنه ملاق به شيئا من القلق الدائم فى ساحة الفــاروق ، وهو العظامى[1] الذي كان يتعصب للنسب تعصبَ المأخوذ بالريب ، ويتقي كلمة السـفلة[2] فيقول : « ان ذهاب ألف من العلية أهون ضررا من ارتفاع واحد من السفلة » !

وربما كان من الاغراق[3] في الرجاء أن يطمع وال من الولاة فى الافلات من حساب الفاروق ، بالغاً ما بلغ نصيبه من الحرص والاحسان . وان أحق الناس أن يعلم ذلك لهو عمرو بن العاص ، الذى يعلم حســاب الفاروق للولاة ، ويسمع بمراجعته للمحسن منهم والمسيء ، فما نحسبه ترقى بطمعه فى هوادة « ابن حَنْتَمَة » ــ كما كان يسميه بلســان الغيظ والاعجاب — الى أبعد من البقاء فى الولاية ، مع الأهبة الدائمة للجواب عن كل جليلة ودقيقة من أعماله التى تنمى الى دار الخلافة . وقد ظفر بما أراد ، وظل فخورا بهذا الظفر بقية حياته ، يقول لمن لايعجبه حكمه : ان الفاروق قد مات وهو عنه راض ! وحمد الله أنه لم يحاسب فى عهده بأكثر مما حوسب عليه . ومن أمثلته ــ فيما نقلته كتب السير ــ حسابه على مال الخراج ، وحسابه على غلطة طائشة لابنه محمد ، وحسابه على اعفاء عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب من بعض القصاص فى حــد الشراب !

كتب اليه الفاروق فى أمر الخراج يعجب من قلته ومن « أن مصر لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحط ولا جدب ! فرد عليه عمرو فى لهجة شــديدة وأنفة يعلم موقعها من نفس عمر ، الذى لا يبالى أن يخاطبه الكبار والصغار مخاطبة الأنداد ما حفظوا مع ذلك حق الله وحق المسلمين . وجدد عمر الكتابة اليــه يؤنبه على ابطائه مع كثرة الكتب اليه ، ويقول له : « انى لست أرضى منك الا بالحق البين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك » !

وطالت المكاتبة بين الخليفة وواليه ، وتسايرت الأنبــاء بفاشية من

---

(١) العظامي : الذي يفاخر بنسبه • (٢) السفلة : بفتح فكسر : أراذل الناس وسقاطهم • وضدها : العلية • (٣) الاغراق : المبالغة •

المتاع والرقيق والآنية والحيوان ، فشت لعمرو فى مصر لم تكن له قبل ولايتها ، فعمد الخليفة الى حزمه المعروف ، وأنفذ الى عمرو أمينه على العمال محمد بن مَسْلَمة يعلنه انه قد ساء به ظناً ، وأنه مقاسمه ماعنده من المال . وجعل له مائتى دينار جزاء عمله غير العطاء الذى ربط له أسوة بالمجاهدين من المسلمين .

أما حساب الخليفة له على غلطة ابنه محمد ، فخلاصته أن عمرواً أجرى الخيل ، فأقبلت فرس رجل من المصريين ، فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها ، فغضب محمد ، ووثب على المصرى يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين ! وبلغ ذلك أباه ، فخشى أن يشكوهما المصرى . فحبسه زمنا حتى أفلت وقدم الى الخليفة يرفع اليه مظلمته .. فاستقدم الخليفة عمرواً وابنه ، وقال للمصرى : دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين ! ثم قال له : أجِلْها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك الا بفضل سلطانه . ففزع عمرو ، واعتذر المصرى قائلا : قد ضربت من ضربنى ! والتفت الخليفة الى المصرى يقول له : « أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه » ، ثم الى عمرو بن العاص يقول تلك الكلمة التى تعد من جلائل الأعمال ، ولا تحصى فى جلائل الأقوال وكفى : « أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » !

ولقد حاسبه على اعفاء ابنه — أى ابن الخليفة — كما حاسبه على اعفاء ابنه هو من الجزاء الذى استحقه بالعدوان على بعض رعاياه . فقد ذهب عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب الى عمرو يبلغه أنه شرب مسكرا ، ويطلب اليه أن يقيم الحد عليه . فتغاضى قليلا ، ثم أذن بحده على أن يعفى من حلق رأسه على مشهد من العامة ، فجاءه التأنيب من الخليفة مع البريد يقول فيه : « عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك علىّ وخلاف عهدى .. فما أرانى الا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبد الله

فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟ انما عبد الرحمن رجل من رعيتك ، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين » .

وان والياً ينجو من الفاروق بهذا القسط من الحساب على هذه المسائل وأشباهها لمجدود[1] بين الولاة !

قضى عمرو نحو خمس سنوات والياً لمصر فى خلافة عمر بن الخطاب يتولى له ادارتها وخراجها والدفاع عنها ، ويساعده عبد الله بن سعد ابن أبى سرح فى ولاية الصعيد ودفاع النوبة

وقبض عمر ، فقام بالخلافة بعده عثمان بن عفان ، فشخص عمرو الى المدينة يبايعه ويعرض عليه شئون ولايته ، ويتلقى أوامره فيها

وكان أكبر همه أن يسأل الخليفة الجديد عزل عبد الله بن سعد من ولاية الصعيد ، لأنه منافس قوى جسور لا يطيقه رئيس مثله فى القوة والجسارة ! فعز عليه هذا المطلب ، واقترح عليه الخليفة أن يتولى شئون الحرب ويترك لعبد الله شئون الخراج ، فأبى ، ونفرت نفسه من هذه المشاركة ، وقال : « انى إذن كمن يأخذ البقرة بقرنيها ليحلبها غيره » وتعذر التوفيق بين المتنافسين ، فانتهى الخلاف باقالة عمرو واقامة عبد الله على ولاية مصر ، حربها وخراجها ، وكان ذلك حوالى سنة سبع وعشرين للهجرة .

والظاهر أن ولاية عمرو فى مصر كانت على خطر منذ مبايعة عثمان ، لأن رأى عثمان فى طمع عمرو وسوء الظن به قديم ، لأن عبد الله بن سعد كان أخاً لعثمان فى الرضاع ، وهو كفؤ ضليع بالرئاسة حرباً وادارة ، وليس من دأب عثمان أن يعزل أقرباءه وان لم يكن لهم من الكفاية والضلاعة[2] ما كان لعبد الله .

ومما لا ريب فيه أن حاشية عثمان كانت تنفس على عمرو مكانه ، وتخشى منه الخطر الأكبر اذا رسخت فى الديار المصرية قدمه ، وظل فيها قائما بالأمر الى أن يمعن الخليفة فى الهرم ويؤذن عهده بانقضاء . فليس ببعيد اذن أن يستقل عمرو بامارة الديار ، أو يطمح الى الخلافة ،

---

(١) مجدود . محظوظ . (٢) الضلاعة : عظم الخلق والقوة .

وليس ببعيد كذلك أن يشترك فى التحذير منه أناس كمروان بن الحكم ومعاوية بن أبى سفيان . ولو لم يكن لهؤلاء المقربين شأن فى الكيد لعمرو لكانت محاسبة عمرو على طريقة الفاروق أجدى وأقرب الى الطمأنينة على الخراج . ولكن مقاسمة الولاة فى أموالهم بعد حين وحين ، شىء يأباه ولاة الدولة الجديدة . فأيسر من مقاسمة عمرو فى الخراج أن ينحى عنه أو ينحى عن الولاية برمتها .. وقد كان ·

ولعلهم لم يؤجلوا عزل عمرو الى حوالى سنة سبع وعشرين ، الا انتظاراً لمصير الفتنة التى نشبت فى الاسكندرية ، اذ انتقض الروم ، وجاء المدد بحراً بقيادة منويل الخصى من القسطنطينية ، فأهاب أقطاب مصر بالخليفة أن يبقى عمرواً على الولاية لدرايته بالقوم وهيبته فى نفوس الأعداء . ثم تبين من كفاية عبد الله بن سعد فى كفاح الروم بأفريقيـة ما عزز مقامه وأبطل تلك الحجة ، فصحت له الولاية ، ورشحه للقيـام على الخراج وفرة المال الذى جمعه من الديار الأفريقية المفتوحة .

أما أثر العزل فى نفس عمرو ، فلا يصعب ادراكه ، ولا حاجة به الى الأخبار والأسانيد ، فليس عمرو بالذى يحتمل هذا العزل أو يستكين اليه ! وليس هو بالرجل الذى يثور فى غير موضع للثورة ، أو يأخذ فى انتقام لا يثق بانفاذه وسلامة عقباه عليه ! فقصاراه أن يتربص الدوائر بالعهد كله ، وأن يترقب يومه الذى يعلم أنه آت لا ريب فيه ! وقد ترقب ، واختار لنفسه مرصد الرقبة فأصاب اختيـاره : ترقب فى بيته بفلسطين ، حيث تفترق السبل بين الحجاز ومصر والشام والعراق ، وحيث يحرض من يحرض من عابرى تلك السبل وهو آمن جهد ما يتاح له الأمان . وربما رحل بين الحين والحين الى مكة أو المدينة يستطلع ويستوثق ويدفع الحوادث الى الطريق الذى يرتجيه ، ثم يقفل الى مينائه الأمين كالربان الذى يختبىء بسفينته والرياح عاصفة والأمواج زاخرة جارفة ، ريثما تنجلى الغاشية عن مهب الريح أين يتجه على استقرار ، فيوليه شراعه ويستدير اليه

ووشى به الوشـاة الى الخليفة ، فاستدعاه ، وأغلظ فى شتـمه ، وراح يؤنبه ويقول له بأحدّ لسان وأشده : « يا ابن النابغة .. أتطعن على وتأتينى بوجه وتذهب عنى بوجه آخر ؟ » فتنصل عمرو وقال : « ان كثيرا مما يقول النـاس وينقلون الى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين » فعاد الخليفة يقول : « استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك » . فثار عمرو الى فخره القديم : « لقد كنت عاملا لعمر ابن الخطـاب ، ففـارقنى وهو عنى راض » . قال عثمان : « لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولكنى لنت عليك فاجترأت »

ومع هذا كان عثمان يبعث اليه فيستشيره كلما أعيته الحيلة وغلبته الحيرة فى حكومته ! فكان ينصـحه بما يعلم انه لا يضـيره ولا ينفع الخليفـة . يقول له : « .. أرى ان تلزم طريقـة صـاحبك ـ أى الفاروق ـ فتشـتد فى موضع الشـدة وتلين فى موضع اللين . وان الشدة تنبغى لمن لا يألو النـاس شرا ، واللين لمن لا يخلص بالنصح ، وقد فرشتهما جميعا باللين » !

وان عمرو بن العاص لأول من يعلم ان طريقـة عمر لا يصلح لها غير عمر ، وانه مكلف عثمان شططا[1] حين يركبه متن هـذا الطريق ، وهو الذى قال له عثمان يوما : « لقد أمرت عبد الله بن سـعد أن يتبع أثرك » فقال : « لقد كلفته شططا » !

وتدرج فى الجرأة على عثمان ، كلما تدرجت الفتنـة فى التفـاقم والاستفحال . ففي مجلس الشورى الذى جمعه عثمان سـأله : « ما رأيك ؟ » فلم يبال ان يجيبه أمام صحبه : « انك قد ركبت النـاس بمثل بنى أمية ، فقلت وقالوا ، وزغت[2] وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدما » .. ولكنه اجترأ هنا وأبقى للحيطة بقية ، فانتظر حتى تفرق المجلس ، وخلا بالخليفة فأقبـل يعتذر اليه بينه وبينه : « لا والله يا أمير المؤمنـين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكنى قد علمت ان بالباب قوما قد علموا انك جمعتنا لنشير عليك ،

---

(١) شططا : مجاوزة القدر في بيع أو طلب أو احتكام . (٢) زغت : ملت وعدلت عن الحق .

فأحببت أن يبلغهم قولى فأقود لك خيرا وأدفع عنك شرا » !

كان يقول هـذا وأشـباهه ، وفى دولة عثمان أمل يضعف يوما بعد يوم ، فلما أوشك هذا الأمل أن ينفد صاح به فى المسجد : « اتق الله ياعثمان ! فانك قـد ركبت أمورا وركبنـاها معك . فتب الى الله نتب » !

ثم ترك الفتنة وأوى الى مينائه بفلسطين ، يتلقى الركبان ويسـأل منهم كل عابر ينفعه سؤاله . فمر به راكب من المدينة فاستخبره خبر عثمان فقال : « محصور ! » . ثم أعقبه راكب آخر فقال : « قتـل عثمان » . فيروى رواة الخبر انه صاح يومئذ : « أنا أبو عبد الله ، اذا نكأت[1] قرحـة أدميتهـا » . ثم قال : « والله انى كنت ألقى الراعى فأحرضه على عثمان » !

***

وبويع على بن أبى طالب بالخلافة فلم ينصره ، ولم ينصر أحدا من خصومه ، ولبث يترقب وينتظر ، حتى انحسر الميدان عن خصمين اثنين هما : على ، ومعاوية بن أبى سفيان ، بعد أن زال عنه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، فوجب أن يختار له طريقا من الطريقين ، لأنه لو آثر الاعتزال لم يتركه الفريقان فى عزلته ، ولم يزل به أحدهما حتى يستدنيه اليه .

شاور معاوية أصحابه ، فأشار عليه عتبة بن أبى سفيان أن يستعين على أمره بعمرو ، وأن يثمن[2] له بدينه . قال : « فانه من قد عرفت . وقد اعتزل أمر عثمان فى حياته ، وهو لأمرك أشد اعتزالا الا أن يرى فرصة » . فكتب له معاوية بفلسطين : « أما بعد ، فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك . وقد سقط الينا مروان بن الحكم فى رافضـة أهل البصرة ، وقدم الينـا جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى . اقبل اذاكرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها ان شاء الله » ..

---

(١) نكأت قرحة : نكأ القرحة قشرها قبل أن تبرأ ٠ (٢) يثمن : ثمن السلعة جعل لها ثمنا بالتخمين ٠

فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمدا فيما يصنع ، فقال عبد الله : « قتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقر فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تريد ان تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فنشقى فيها » وقال محمد : « انك شيخ قريش وصاحب أمرها . وان تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أيديهم .. »

قال عمرو : « أما أنت ياعبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يامحمد فأمرتني بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر فيه » .

وروى انه قلب رأيه في الأمرين فقال : « انى ان أتيت عليـا قال انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره » .

ولكنه ظل يتردد الى ساعة السفر بعدما عنّ له أن ينضـوى الى جانب الشام ، فدعا غلامه وردان فقال : « ارحل يا وردان ! » ثم صاح به : « حط يا وردان » . فقال له وردان ، وكان كما وصفوه داهيا ماردا : « خلطت أبا عبد الله ! أما انك ان شئت أنبأتك بما فى نفسك » قال : « هات ويحك ! » قال : « اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىّ معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض من الدنيا . ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس فى الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما » .. قال : « والله ما أخطأت ، فما ترى يا وردان ؟ » قال : « أرى أن تقيم فى بيتك ، فان ظهر أهل الدين عشت عند دينهم وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك » .. فتأمل فى قول غلامه مليا ، ولكنه لم يقبل القرار فى بيته بعد دعوته ، وعول على المسير فسار .

***

ومن ثم قصد الى معاوية بالشام ..

ولم تكن بين الرجلين من قبل مودة ولا صحبة ولا مشاركة فى منفعة ، بل ربما كانا الى التنافس والتنافر أقرب منهما الى المودة والصحبة

حـدث أبو حاتم ان معاوية « قدم من الشام ، وعمرو بن العـاص من مصر ، على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما . الى أن اعترض عمرو فى حديث معاوية ، فقال له معاوية : « أعملى تعيب وإلى تقصد ؟ .. هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك » . قال عمرو : « فعلمت انه بعملى أبصر منى بعمله ، وان عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير الى آخره ! » فأردت ان أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدى فلطمت معاوية ! فقال عمر : « تالله ما رأيت رجلا أسفه منك » . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : « ان أبى أمرنى ألا أقضي أمرا دونه » ، فأرسل عمر الى أبى سفيان ، فلما أتاه ألقى له وسادة ، وذكر حديث رسول الله : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال : « لهذا بعثت الى ؟ أخوه وابن عمه ! وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له ! » .

وأقل ما فى هـذه الرواية ومثيلاتها ان المنافسة بين الرجلين كانت ملحوظة لا غرابة فيها ، وهى فى موقعهما من ولاية الشام وولاية مصر أشبه شىء أن يكون .

ويؤخـذ من حديث روى عن عبادة بن الصامت ان الاجتماع بين معاوية وعمرو كان من نوادر الأشياء ، وان اجتماعهما كان فى رأى الأخيـار من علامات الأخطـار . فلمـا قدم عبـادة بن الصـامت عليهما وهما بالشام ، جلس بينهما ثم سـألهما : « أتدريان لم جلست بينكما فى مكانكما ؟ » قالا : « نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك » قال : « لا والله .. ما جلست بينـكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما فى مكانكما ، ولكن بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ نظر اليكما تسيران وأنتما تتحدثان ، فالتفت الينا فقال : « اذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ، فانهما لا يجتمعان على خير أبدا » :

وفى صحة هذا الحديث نظر ، ولكنها أخبـار تدل على مبلغ الصلة

بين معـاوية وعمرو ، وانها لم تكن من الوثاقة والقرب بحيث تمنع مثل هذا المقال .

فمعاوية لم يستقدم عمرواً لصداقة وصحبة قديمة !

وعمرو لم يقدم على معاوية لشيء من ذاك !

ولكنهما رجلان طموحان أريبـان(١) مثلهما لايعادى اذا كان له فى الصداقة نفع ، ولا يصـادق اذا لم يكن له فى الصداقة أرب ، وان أقرب الناس عندهما لوشيك أن يتقضى اذا أقصته المنفعة ، وان أقصاهم لوشيك أن يستدنى اذا كان فى بعده ضرر !

فهما ملتقيان على تفاهم صريح بلسان المقال ، أو صريح بلسـان الحال . وقد عرفا ولا جدال على أى وجه يتفاهمان منذ كتب هـذا وأجابه ذاك .

زعموا ان المساومة جرت بين الرجلين أول ما التقيا ، فسأل معـاوية عمرواً أن يتبعه ، فأقبل عمرو يسأله : لماذا ؟ أللآخرة ؟ فوالله ما معك آخرة ! انما هى الدنيـا تتكالب عليهـا ، فلا كانت حتى أكون شريكك فيهـا . وأخـذ معـاوية يذكر ممالأة(٢) علي على قتل عثمـان ، وانه أظهر الفتنـة وفرق الجمـاعة ، فقـال عمرو : انه وان كان كذلك فان المسلمين لا يعدلون به أحدا ، وليست لك مثل سابقته وقرابته . ثم عاد يسـاوم مرة أخرى ، فسـأل معـاوية : ولـكن ما لى أن شايعتك ؟ قال معاوية : حكمك . قال عمرو : اجعل لى مصر طعمة ما دامت لك ولاية . فتلكأ معـاوية ولم يجبه . وحذر عتبة بن أبى سفيان العاقبة ، فحذرها معاوية وقال له لائما : أما ترضى أن تشترى عمرواً بمصر ؟ ان صفت لك فليتك لا تغلب على الشام .

فرضى بالصفقة ، واتفقا عليها .

وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا فى صـدق هـذا الحوار ، وصحة هـذه الكلمات ، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصـه ، فالذى لاريب فيه ، ولو اجتمعت التواريخ قاطبة

---

(١) أريبان : عاقلان . (٢) ممالأة : مالأ الرجل صاحبه : عاونه وظاهره .

على نقضه ، ان الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية ، وان المساومة بينهما كانت على النصيب الذى آل الى كل منهما ، ولولاه لما كان بينهما اتفاق

فكان معاوية يطمح الى الخلافة يتولاها ويورثها أعقابه من بعده

وكان عمرو يطمح الى ولاية مصر جامعة ، وهى عنده تعدل الخلافة ما لم يكن الى الخلافة سبيل ، ويرجو أن يضم اليها الشام وأن يترك ولايته ميراثا من بعده لولده عبد الله

ومثل هـذا الاتفاق أقوى اتفاق ، ولكنه قد ينقلب فى حالة من حالاته فاذا هو أضعف اتفاق وأقربه الى النقض والانتقاض

فمن سر القوة فيه أن يعمل الرجل لصاحبه كأنه يعمل لنفسه ، ما دامت وسيلته من وسيلته ، وما دامت لهما غاية واحدة يتلاقيان عندها !

ومن سر الضعف فيه ان الشريك هنا هو أعدى الأعداء وأولى المنافسين بالتخلص منه اذا أمكن وجه الخلاص ؟

وقد أعانت على هذا الاتفاق أمور كثيرة أهمها أمران : وهما ان عمرواً لم يكن على أمل فى ناحية أخرى ، فاذا فسد الأمر على معاوية فسد الأمر عليه . وان معاوية كان يعلم انه يساوم شيخا يدلف[1] الى الثمانين ويوشك أن يودع دنياه ؛ فما ربحه منه فهو دائم له ، وما خسره فى مرضاته صائر اليه .

على أن عمرواً من جانبه كان رجلا ممتلئا بالحياة فى شيخوخته ، جرىء المطامع ما بقى فى الدنيا مطمع يتخايل بين عينيه ، فلم يكن ييأس من الخلافة نفسها ، ولم يستبعد قط أن تسنح له سانحة من طوارىء القدر يغلب فيها معاوية على عرش الدولة التى شاركه فى تأسيسها ، فربما أخلص معه العمل فى هزيمة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولكنه لم يخلص معه العمل فى تمكينه كل التمكين حتى يستغنى عنه ويتغير له ، ويثبت فى الخلافة ثبوتا لا مطمع بعده لطامع .

---

(١) يدلف : دلف الشيخ : مشى وقارب الخطو .

فقــد كان بعض نصائحه لمعاوية ســديد المرمى قبل هزيمة على رضى الله عنه ، ولكنه كان متهما فى كل نصيحة أدلى بها الى معــاوية بعد تلك الهزيمة ، وكان ظــاهرا من نصــائحه فى جملتهــا انه أراد أن يثير عليه العداوات وأن يوغر عليه صــدور الصحابة ويتركه مشــغولا بخوف الفتنة أو واقعا فى أوهاقها [١] ، وهو اذن أقرب قريب من الخلافة متى زال معاوية عنهــا ، ولاسيما اذا طال عهــده بولاية مصر وجمع فى يديه الأموال ومن حوله من الأنصار والطامعين فى النوال.

فمن نصائحه التى لا يندفع مثله فيها لدافع العنجهية [٢] الجاهلية وحدها ، انه حضر مجلس معــاوية وحاجبــه يستأذن لوفود الأنصار . فقال : ما هــذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد القوم الى أنســابهم ! ثم قال للحاجب : اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم الا الأنصــار . فنظر معاوية الى عمرو نظرة منكرة وقال له : باعدت جدا ؟ فقال : اخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليــدخل ، فخرج فقالها ، فدخلوا يَقْــدُمهم النعمان بن بشير الأنصارى وهو يقول :

يا ســعدُ لا تُجِبِ الدعاءَ فما لنــا
نسبٌ نُجيبُ به ســوى الأنصــار
ان الــذين ثَوَوْا ببــدر منــكم
يومَ القليــب هم وقود النــار

فجعل معاوية يقول : لقد كنا أغنياء عن هذا .

وأشــار على معــاوية بقتل أسرى صفّين من جمــاعة على ، وقد أطلق عليٌّ أسراه من جماعة معاوية . وهى مشــورة لا تنفع معــاوية بشىء ، وتجلب عليه العار لا محالة ، وتنصــبه غرضــا لكل مطالب بترة ، فى أمة لا تنسى بينها الترات !

وعلى ما فى طبع عمرو من الحيلة ، والجنوح الى المصالحة واستلال الأضغان ؛ لم يكن يصدر عن هــذا الطبع فى مشورته على صاحبه بعد

---

(١) أوهاقها : جمع وهق بفتحتين : حبل يرمى وفيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة . (٢) العنجهية : العصبية والاعتداء بالحسب .

وقعة صفين . فلما شاوره معاوية فى أمر عبد الله بن هاشم ، أشار عليه بقتله ، وغضب حين خالفه معاوية ، فقال بعد ذلك من أبيات :

أليس أبوه يا معـــــاوية الــذى
أعان عليـّـا يومَ حــزّ الغــلاصم[1] ؟

وأشــار كذلك بقتال قيس بن سعد في جيشه الذى كان معه من بقايا حزب على ، بعد نزول ابنه الحسن عن الخلافة . وكان قيس رجلا صعب المراس ، مقداما على الخطر ، لا يؤمَّن قتاله ، والدولة الأموية فى أوائلها بين الشك واليقين . فأعرض معاوية عن مشــورته ، وبذل الأمان لقيس ومن معه ، وأرضاهم بالمصانعة والعطاء

ولم يكن معاوية يسلك معه غير هــذا المسلك ، أو يضمر له غير هــذا الضمير . فكان يحتفى به ، ويجلسه معه على سريره ، ويظهر له الركون الى رأيه والمشاركة فى أمره ، ثم يقبل منه ما يقبل ، ويمضى على نيته التى انتواها . وقد هم أن يخلف له موعده من ولاية مصر ، لولا انه توقع الشر منه ، وعلم انها ولاية عام أو أعوام قلائل ، ثم تصير اليه يعطيها من يشاء . وقد مات عمرو بعد أعوام ، فضم معاوية خزائن أمواله الى بيت المــال ، وخالف رجاءه فى تولية ابنه عبد الله مكانه ، وأسند الولاية الى أخيه لأبيه ، عتبة بن أبى سفيان

وربما ثقل عليهما وِقر[2] الرياء ، فتصارحا بما فى الطوايا صراحة هى أشبه بالصراع الذى يجمع فيه الندان بين اللعب والخصومة . ســأله معاوية وهو فى حالة من حالات النقمة والطمع : ما أعجب الأشياء ؟ فقــال : أعجب الأشياء غلبة المبطــل ذا الحق على حقه ، فما أبطــأ معاوية أن ردها عليه قائلا : بل أعجب من هــذا ان تعطى من لا حق له بحق ، من غير غلبة !

وربما داعب معاوية فى أمر آخرته ودنياه مداعبة الرجل الذى يعلم ان المداعبة هنا مقبولة ، لأنهما فى الحظ سواء . قال له يوما : لقد رأيت البارحة فى المنام كأن القيامة قد قامت ، ووضعت الموازين ،

(١) الغلاصم : جمع غلصمة بالفتح : الحلقوم وهو الموضع الناتيء فى الحلق . (٢) وقر : بكسر الواو : الحمل الثقيل .

وأحضر الناس للحساب ، فنظرت اليك وانت واقف قد ألجمك العرق ، وبين يديك صحف كأمثال الجبال . فعاجله معاوية ساخرا : وهل رأيت فى الميزان شيئا من دنانير مصر ؟

ودخل على معــاوية فى مجلسه ، فضحك معاوية حين رآه . قال عمرو : « ما يضحكك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سِنك ؟ » قال : « أضحك من حضور ذهنك عند ابدائك سوءتك يوم ابن أبى طالب . أما والله لقد وافقته منّانا كريما ، ولو شاء أن يقتلك لقتلك » . فلم يبرح عمرو أن أشركه معه فى عاره ، وجعل يقول له ويمعن فى وصف فزعه : « أما والله انى لعن يمينك حين دعاك الى البراز ، فاحولّت عيناك ، وربا سَــحْرك ــ أى صـــدرك ــ وبدا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو دع »

فالرجلان كانا فيما بينهما على صراحة وتفاهم واحتراس.

وكانا يعلمــان ما يريدان ، ويعلمان انهما لا يتعاونان لأنهما على ثقة من اخلاص كل منهما لصاحبه وايثاره لنفعه ، ولكنهما يتعاونان لأن التعاون أنفع لهما من التخاذل والشــقاق ، ولن يتعاونا اذا تبدلت الحال وأصبح لهما أو لواحد منهما نفع فى تخاذل أو شقاق !

وكانا يفهمان ان هزيمة علي هى سبيلهما معا الى مايريدان فعملا متفقَين ، ولعلهما عملا مخلصَين لتحقيق هذه الهزيمة . وكانت معونة عمرو لمعاوية فى نضاله مع عليٍّ كبيرة الخطر ، محسوسة الأثر ، فى مآزق كثيرة ، ومعضلات متوالية ، أهمها حرب صــفين ، ومؤتمر التحكيم ، وانتزاع مصر من والى على وأتباعه فيها ، وهم غير قليلين

وكانت جهوده العظمى فى حرب صــفين جهود الداعية المحرض ، لا جهود المقاتل المستبسل ، فكان يثير الحفائظ[١] ، ويستدرج الأنصار بالأطمــاع ، ويمحو الوساوس والشكوك التى تثنى عزائم القوم عن القتال ، ويشيع الفتاوى التى يقبلها من هو مستعد لقبولها ، ومنهــا ــ حين قتل عمار بن ياسر ــ ان أصحاب معاوية تلجلجوا فيما بينهم ،

---

(١) الحفائظ : جمع حفيظة وهي الغضب .

وساورهم الريب فى حقهم ، لأن النبى عليه السلام كان يقول عن عمار : « تقتله الفئة الباغية » . فكان عمرو بن العاص ، فى أشيع الأقوال ، هو الذى حسم هـذه الشكوك قبل استفحالها ، فقال : انما قتله من أخرجه . فقبلها الأنصار المستعدون لقبول أشباه هذه التأويلات

وكان على بغضه لعثمان أسبق النـاس الى التفجع لمقتله والتحريض باسمه ، فاذا هدأت ثورة النفوس قال لمعاوية : « حرِّك لها حُوارَها (١) تحن » .. أى علق لهم قميص عثمان المخضوب بدمائه ، لأنهم اذا رأوه هاجت أحقادهم ، كما تدر الناقة اذا حركوا لها جلد حوارها !

وجاء كذلك فى أشيع الأقوال انه هو الذى أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح ، ودعوة أنصار على الى تحكيم كتاب الله . فلما عمل بهذه المشورة وقعت الفتنـة فى جيش على ، بين قائل بالمضى فى القتال ، وقائل باجابة القوم الى التحكيم ، وأوشك الفريقان أن يدعا جيش معاوية ويشتبكا بينهما فى حرب ، أو يبطش جماعة منهم بالامام على نفسه ، اذا هو لم يأمر شيعته المقربين بالكف عن الحرب والقـاء السلاح

واذا صح ما يعزى الى هـذه المشورة من الأثر الجسيم فى تمكين معاوية وخذلان على ، فهى كلمة أنفع من جيش ، ومكيدة أمضى من قوة ، وهى خليقة ان تغنيه فى حرب صـفين عن جهـود الشـجاعة والاستبسال . اذ الواقع انه لم يغن فى تلك الحرب بجهد من جهـود الشجاعة والاستبسال ، ولم يذكر أحد من حزبه انه برز فى ميدان قتال ، مع ان الحرب فى تلك المعركة خاصة كانت حرب براز ونزال . أما خصومه فقد ذكروا له تلك الفعلة التى سارت بها الأمثال بعد ذلك ، وأصبح من الأقوال الشائعة عن كل من يرد المكروه بالمهانة انه رده « كما ردها يوما بسوأته عمرو ! »

ويظهر ان خصومه ومنافسيه كانوا يلحظون منه التقاعد عن مخاطر

(١) الحوار ، بضم الحاء وقد تكسر ، ولد الناقة ساعة تضعه او الى ان يفصل عن امه

البراز ، فقال الحارث بن نصر الجشمي من أبيات :

ليس عمرو بتارك ذكرة الحرب مدى الدهر أو يلاقي عليا
واضعَ السيف فوق مَنكبه الأيمن لا يَحْسبَ الفوارسَ شيئا
ليت عمرواً يلقاه في حَمَسِ النقع وقد صارت السيوف عِصِيا

فزعموا ان عمرواً تغيظ من قوله ، وأقسم : « لو علمت اني أموت ألف موتة لبارزت عليا في أول ما ألقاه » !

وكان علي رضي الله عنه كثيرا ما يتقدم بين الصفوف داعيا الى المبارزة . فبدا له يوما أن يدعو معاوية لمبارزته ، فأيهما غلب فالأمر له ، وتحقن دماء الناس ، فنادى : يا معاوية ، يا معاوية ، فقال هذا لأصحابه : اسألوه ما شأنه ؟ قال : أحب أن يبرز لي فأكلمه كلمة واحدة . فبرز معاوية ومعه عمرو ، فلما قارباه لم يلتفت الى عمرو وقال لمعاوية ، ويحك ! علام يقتتل الناس بيني وبينك ؟ ابرز الي ، فأينا قتل صاحبه فالأمر له . فالتفت معاوية الى عمرو فقال : ما ترى يا أبا عبد الله ؟ أبارزه ؟ فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، واعلم انك ان نكلت(١) عنه لم تزل سبّة عليك وعلى عقبك ما بقي عربي . فقال معاوية : يا عمرو ! ليس مثلي يخدع عن نفسه ، والله ما بارز ابن أبي طالب رجلا قط الا سقى الأرض من دمه . ثم تلاحيا(٢) ، وعزم معاوية على عمرو ليخرجن الى علي ، ان كان جاداً في نصحه ، ولم يكن مغررا به طمعا في مآل أمره . فلما خرج للمبارزة مكرَهاً وشد عليه علي شدته المرهوبة ، رمى عمرو بنفسه عن فرسه ، ورفع ثوبه ، وشغر(٣) برجله فبدت عورته ! فصرف علي وجهه عنه ، وقام معفّراً(٤) بالتراب هاربا على رجليه ، معتصما بصفوفه

وليس في هذه القصة من موجب للشك فيها الا ان عمرواً كان أشجع من ذلك في معارك كثيرة قبل هذه المعركة ، ولكنه شك ضعيف غير قاطع في انكار القصة بحذافيرها ، لأن عمرواً لم يبارز قط رجلا في قوة علي وبأسه ، ولم يكن قد دلف الى الثمانين وهو يحارب في المعارك

---

(١) نكلت عنه : نكل عن عدوه : هابه وجبن . (٢) تلاحيا : تلاوما وتشاتما . (٣) شغر برجله : رفعها . (٤) معفرا بالتراب : ممرغا .

الأخرى ، وأهم من ذلك انه كان يحارب فى تلك المعارك ، وله أمل فى الشهادة ونعيم الجنة ، وايمان بحقه وباطل خصمه ، ولكنه لا يحارب عليا وله أمل فى الشهادة قاتلا أو مقتولا ، أو ثقة بالحق تعوضه من خسارة الدنيا ، وليس بالعجيب من طبيعة عمرو أن يلوذ بالحيطة ، غير حافل بمقال الناس اذا خاف على حياته ، وأيقن من ضياع دينه ودنياه

ومهما يكن من مبلغ الصدق فى هذه الرواية ، فالمتفق عليه بين ولاته وعداته انه اشتهر فى صفين بجهاد الحيلة والدعوة ، ولم يشتهر فيها بجهاد البسالة والبلاء

***

أما جهوده فى مسألة التحكيم (١) بين على ومعاوية ، فقد أفادت معاوية بالمطاولة والمراوغة أضعاف فائدتها اياه بالنتيجة التى انتهى اليها قرار عمرو وقرار أبى موسى الأشعرى ، لأن تطاول الأيام أعان على تفريق جيش على وتبديد شمله ، وشيوع اللغط بين طوائفه وأصحاب المذاهب المغالية من المتمردين عليه ، ولاسيما الخوارج والقائلين بتحريم القتال ، وكل ما أعان على تفريق جيش على فهو معين على تعزيز جيش معاوية ، وتقريب طلاب المغانم وتباع الفرص من دولته وسلطانه

وقد اختار معاوية عمروا للتحكيم وهو لا يأمنه كل الأمان ، وربما كان اطمئنانه الى أبى موسى الأشعرى صاحب على أكبر من اطمئنانه الى صاحبه ووكيله ، لأن أبا موسى كان يجهر باجتناب القتال واعتزال الفريقين ، وكان اختياره على الكره من على ، وعلى هوى الأشعث بن قيس ، الذى كان متهما بالتخذيل عن على ، وترويج كل رأى يرضاه معاوية ، ولاسيما بعد زيارة قيس لمعاوية فى ابان معركة صفين

والذى حدث فى أوائل المفاوضات خليق أن يسوغ قلق معاوية واسترابته فى نيات صاحبه ووكيله ، فانه قال لأبى موسى : ما يمنعك

---

(١) يشك بعض المؤرخين المحدثين فى مسألة التحكيم ، ويذكرون لذلك أسبابا ليس فيها سبب واحد يعادل الروايات التى تؤيدها

من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ فقال أبو موسى : ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا

وطالت المفاوضة ، فأوجس معاوية وعظم خوفه ، وجاءه داهية العرب المغيرة بن شعبة فألفاه قلقا يتسمع ويستطلع . فقال له : قد أتيتك بخبر الرجلين . قال معاوية : وما خبرهما ؟ قال المغيرة : انى خلوت بأبى موسى لأجلو ما عنده ، فسألته : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ! فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم ، وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ! ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال : أولئك شرار الناس ، لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا

ثم عقب المغيرة قائلا : أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه

والذى نراه نحن كذلك أن عمرواً لم يكن ليظن ان معاوية أحق بالخلافة منه ، ولكنه كان أكيس من أن يطلب الخلافة له أو لابنه باتفاق رأيه ورأى أبى موسى الأشعرى ، دون ما يستلزمه طلب الخلافة من الجند والدولة والعصبية . فماذا عساه أن يغنم بالاتفاق مع الأشعرى على المبايعة لابنه عبد الله ؟ انه يخسر عضد معاوية ، ولا يكسب أحدا من أنصار على ، ولا يصل هو ولا ابنه عبد الله الى مأرب . وانما نعتقد انه ذكر اسم عبد الله ليغرر بأبى موسى ، ويلقى فى روعه انه غير جاد فى خدمة معاوية ، وانه يعمل لنفسه ولأعقابه من بعده . وقد أصابت هذه الحيلة محزّها[1] ، فصدّق أبو موسى ان عمرواً يخلع معاوية ، وأنه اذا قام على المنبر ليخلع عليا ، قام عمرو من

---

(١) محزها : المحز موضع الحز أي القطع .

بعده فخلع معاوية ، وترك الأمر شورى ليظفر به ابنه فيما يرتجيه . فلما اتفقا على خلع الاثنين ، وأن يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ، قبل هذا الاتفاق ولم يتردد فى انفاذه ، وهو يحسب ان خذلان عمرو لمعاوية غير بعيد ، ما دام يطمع فيها لنفسه من طريق الدعوة الى إبنه

وان جهد عمرو فى مسألة التحكيم لجهد يسير عليه ، ولكنه حقيق من معاوية بجزاء غير يسير

ولقد تطلع عمرو لهذا الجزاء الذى طال اشتياقه اليه ، وهو ولاية مصر جامعة موروثة فى عَقبه ، فماطله معاوية زمنا ، واستكثر عليه هذه « الطعمة » التى اشتهاها ، وأسر فى نفسه اذا هو رضخ[1] له بشىء منها ان يرجع فيما أعطاه بذريعة من الذرائع التى لا تعييه . فكتب فى وثيقة تصالحا عليها ان ولاية مصر لعمرو « على ألا ينقض شرطٌ طاعة » ، وهو يريد أن يتعلل له بالخروج عن طاعته فيبطل شرطه ، وفطن عمرو لما وراء هذا « القيد » المقحم فى الوثيقة فأنكره ، وكتب : « على ألا تنقض طاعة شرطا » .. يريد ان الطاعة لن تخول معاوية الرجعة فيما اتفقا عليه

وكان معاوية يتهم عمرواً بالعجلة كلما ذكر له مصر وأغراه بالزحف اليها . فجمع خاصته يوما يسألهم : هل تدرون ما أدعوكم اليه ؟ قالوا : لايعلم الغيب الا الله . فقال عمرو : « نعم .. أهمك أمر مصر وخراجها الكثير ، وعدد أهلها ، فتدعونا لنشير عليك . فاعزم وانهض .. فى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك » ، فقال له معاوية : يا ابن العاص ! انما أهمك الذى كان بيننا ، يعنى طعمة مصر ، والتفت الى صحبه يستشيرهم : ماترون ؟ فوافقوا عمرواً ، وعاد هذا يقول : « ابعث جيشا كثيفا ، عليهم رجل حازم صارم تثق به فيأتى الى مصر ، فانه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا ، فيظاهره على من كان بها من أعدائنا » ، فخالفه معاوية وقال له : « انك يا ابن العاص ، بورك لك فى العجلة »

---

(١) رضخ له : رضخ له من ماله : أعطاه قليلا من كثير .

الا أنه لم يلبث أن تلقى من أنصاره بمصر كتابا يستحثه الى غزوها ، ويسأله « أن يتعجل بخيله ورَجِله (١) ، فان أعداءنا قد أصبحوا لنا هائبين »

فعندئذ قبل نصيحة عمرو ، وأشخصه (٢) على رأس جيش عدته ستة آلاف رجل ، وخرج يودعه ولا يزال يحذره العجلة ، ويوصيه بالرفق « فانه يُمن ، والعجلة من الشيطان »

ولولا الكتاب من أنصاره بمصر لقد كان معاوية يؤثر أن يفتحها له أولئك الأنصار ، وأن يولى عليها زعيما من زعمائهم ، وله الحجة الناهضة فى ذلك ، اذ كان القائد المتغلب على البلد أولى بولايته من الطارق الواغل الذى يقبل عليه لينازعه ثمرة جهاده

على أن مصر لم تكن الى ذلك الحين طعمة سائغة ، ولا طعمة عصيّة ، فقد كان فيها محمد بن أبى بكر لا يزال واليا عليها من قِبَل على بن أبى طالب ، وكان قد ولاّه حكمها بعد عزل قيس بن سعد ، أقدر رجاله وأخبرهم بشئون الولاية والسياسة ، فقال قيس وهو يسلمه مقاليد الأمر : « ليس عزله اياى بمانعى أن أنصح لك وله . وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وأنا أدلك على الذى كنت أكايد به معاوية وعمرواً وجماعة العثمانية المقيمين بخربتا ، فكايدْهم به » ! .. الا أن محمد بن أبى بكر لم يستمع له ، واستغشّه ، وبطش بالعثمانية بطشة عنيفة ، فثاروا عليه ، وثار معهم من لم يكن على رأيهم ، وأبوْا أن يقيموا على حكمه ، فصالحهم آخر الأمر على أن يلحقوا بمعاوية فى الشام ، فلحق به الغُلاة منهم ، وبقيت لهم بقية تنطوى على مضض وتترقب الفرصة ، وتزداد أملاً ، ويزداد الأنصار من حولها كلما تضاءل أمر على وتعاظم ملك معاوية

فلما أقبل عمرو على مصر أقبل عليها فاتحاً قبل أن ينالها والياً مكين الولاية ، وكان « عمرو الفاتح » يعمل لمعاوية كمن يعمل « لعمرو الوالى » اذا تم له الفتح كما اشتهاه

---

(١) رَجِله : جمع راجل وهو من لم يكن له ظهر يركبه . (٢) أشخصه : أشخص فلانا من المكان أزعجه فذهب . (٣) المثلة : بالضم : التنكيل .

وأوشك الفتح الثانى أن يكون نسخة مكررة من الفتح الأول : عمرو يستعجل غزو مصر ويتهم بالعجلة ، ثم يدخل مصر وفيها حكومة وشعب لا يتفقان ، ثم يسلك الطريق الذى سلكه أول مرة ، ثم يلتقى بجيش محمد بن أبى بكر ، كما التقى بجيش الرومان من قبل ، فى جيزة بلبيس ، على مسافة قريبة من الوقعة الأولى عند قرية تسمى المنشاة

أما محمد بن أبى بكر فقد دافع عن مصر دفاع المستميت ، وصمد لأنصار معاوية المقيمين والقادمين صمود الأبطال ، ولكنه أخفق فى دفاعه ، لأنه لم يلبث أن رأى جنوده يتفرقون عنه ، يأساً من الدولة المولية ، وأملاً فى الدولة المقبلة ، ثم تعقبه أعداؤه حتى ظفروا به فمثلوا به شر تمثيل !

ومن الانصاف لعمرو أن يعلم أنه كان برىء اليد فى هذه المثلة الذميمة ، فقد كان عمرو يشير على معاوية بقتل الأسرى والنقمة من أصحاب علىّ ، حيث كان معاوية هو المسئول عن قتلهم والنقمة منهم . فلما تفرد بالتبعة فى أمثال هذه المشورات أقصاها عنه جهده ، ووقف منها موقف من لا يدفع ولا يمنع . فكتب الى محمد بن أبى بكر يقول له « تنحّ عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فانى لا أحب أن يصيبك منى ظفر » ثم وقع محمد فى أسر معاوية بن حديج ، وهو من أسفه العثمانية عصبيةً لحزبه ، فأرسل اليه عمرو أن يأتيه به كرامةً لأبيه ولأخيه عبد الرحمن بن أبى بكر . وقد كان من عجائب التفرق بين الأحزاب أن محمداً يشايع عليًّا ، وعبد الرحمن يحاربه فى جيش الشام !! فلم تنفع وساطة عمرو ، وأقسم معاوية بن حديج ليقتلنه شر قتلة . وجاء به ، فطلب ماء فقال ابن حديج : لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ! انكم منعتم عثمان الماء ، ثم قتلتموه صائما ، فتلقاه الله بالرحيق المختوم . والله لأقتلنك يا ابن أبى بكر ، فليسقك الله من الجحيم !

ولم تفارق محمداً أنفته بين يدى آسريه ، فأغلظ الجواب لهم ، وتلفت قائلا : والله لو كان سيفى بيدى ما بلغتم بى هذا ، فقتلوه ، « وألقوه

فى جيفة حمار ميت ، ثم حرقوه بالنار » !!

ونفض عمرو يده من هذه المثلات وأشباهها ، وجهد فى تهدئة الزعازع بمصر ، وتمهيد الأمر فيها لنفسه ولأعقابه من بعده ، وسرعان ما تمهد له بعد مقتل علىّ ونجاته هو من القتل فى السابع عشر من رمضان (سنة أربعين للهجرة)

وذلك أن ثلاثة من الخوارج تآمروا على قتل على ومعاوية وعمرو فى ليلة واحدة . فأما صاحب علىّ فقد أصابه ، وأما معاوية وعمرو فقد نجوا من صاحبيهما ، وقتل خارجة بن حذافة صاحب الشرطة لأنه خرج للصلاة فى مكان عمرو ، اذ كان هذا يشتكى بطنه فى تلك الليلة . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ! وأمر بقتله

ولم يعرض له فى ولايته الثانية حادث ذو بال بعد هذا الحادث . فقد هدأت مصر ، واجتمع الناس على مبايعة معاوية فى سنة احدى وأربعين للهجرة ، فسميت « عام الجماعة » .. وحكمت الشيخوخة حكمها ، فوهن جسمه ، وتتابع سقمه ، ودانت له الدنيا ، وهو يقول اذا سئل عن حاله : « إنه حال من يذوب ولا يثوب » !

وانه على هذا لمجدود مسعود

فمن آية الجد أن ينتفع الانسان بما يضير الناس ، وقد انتفع عمرو بوهنه مرتين : مرة حين نجا من الموت لاشتكاء بطنه ، ومرة حين سلمت له الولاية ببركة هذا الوهن الذى لا محيص عنه ، فلولاه لما طابت نفس معاوية له بولاية يملك فيها الأموال والرجال ، ولعله يعيش بعده فيغلب أعقابه على الخلافة ، وأهون شىء أن ينتزع ابن العاص ، فى شبابه أو كهولته ، خلافةً من يزيد

على أن هذا الفؤاد المتوهج بنوازع الحياة ، لم يسأم العيش يوما ، وقد جاوز الثمانين ، أو قارب المائة فى قول آخرين ، فبكى وهو يجود بنفسه أسفاً على الحياة ، وقال لأبنائه : « اذا واريتمونى فاقعدوا عند

قبرى قدْرَ نحر جزور وتفصيلها(١) ، أستأنس بكم حتى أعلم ما أراجع به رسل ربى »

ورحمه الله ... انه لم يدع الأحوط من الأمرين حيث يدع الحى نفسه ، فكان يقول وهو على سرير الموت : « لو كان ينفعنى أن أطلب لطلبت ، ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت » . وربما نظر الى أمواله فقال : « من يأخذها بأوزارها ؟ » وقبل ذلك بعام أو عامين كأن يسأله معاوية عما بقى له من لذات العيش فيقول : « مال أغرسه ، وخبر من ضيعتي ! »

***

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة ، فدفن بجوار المقطم عند ضريح الامام الشافعى القائم الآن . وضم معاوية خزائنه الى بيت المال ، وولايةَ مصر الى أخيه عتبة بن أبى سفيان

وكذلك انقضت حياة حافلة ، حياة عاملة ، وحياة طائلة ، وصح فيه ، على تباين الآراء والأقوال ، انه رجل من عظماء الرجال . فمهما يختلف المختلفون فى نيّاته وحسناته أو سيئاته ، فالذى لا خلاف فيه أنه كسب الاسلام قطرين كبيرين : هما فلسطين ومصر ، وأن له سهماً وافراً في كل ما نحسبه للدولة الأموية من العظائم والمآثر فى تاريخ الأمة العربية والامم الاسلامية

(١) فصل القصاب الجزور تفصيلا : اذا عضاها وقطعها

من كلامه

من تمام القول فى عمرو بن العاص ، بل من تمام العلم به ، أن نلمّ بطرف من كلامه الذى يدل عليه

وقد تُسب اليه كلام كثير نسب الى غيره ، وكان شأنه فى هذا كشأن الجِلّة من النابهين فى صدر الاسلام فيما ينقل عنهم ، فربما نسبت الكلمة الواحدة الى ثلاثة أو أربعة من أبناء عصر واحد أو عصور متفرقة . بيد أننا نعتمد فى نسبة الكلام اليه مشابهته لما أثر عن خلقه ونسق تفكيره ، ثم شيوع الرواية ومكان رواتها من الثقة والدراية

فمما يشبهه فى التعاظم بالنسب ، أو فى الخصلة التى نسميها اليوم بالنزعة الأرستقراطية أنه قال لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ! لا تكن بشىء فى أمور رعيّتك أشد تعمدا منك لخصاصةِ[1] الكريم حتى تعمل فى سدّها ولطغيان اللئيم حتى تعمل فى قمعه ، واستوحِش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ، فان الكريم يصول اذا جاع ، واللئيم يصول اذا شبع »

وكان يؤمن بهذا الرأى كثيرا ، ولا يزال يعيده ، فقال فى مناسبة أخرى : « موت ألف من العلية ، أقل ضررا من ارتفاع واحد من السّفلة »

ويتصل بهذا المعنى ، وقد يكون فيه اعتذار من حربه لعلى بن أبى طالب ، قوله لابنه عن الامامه والحكومة : « يا بنى ! امام عادل خير من مطر وابل ، وأسد خطوم[2] خير من امام ظلوم ، وامام ظلوم غشوم[3] خير من فتنة تدوم . يا بنى ! مزاحمة الأحمق خير من مصافحته . يا بنى !

(١) خصاصة : الفقر والحاجة . (٢) أسد خطوم : وضع في أنفه أو عنقه الخطام أي الحبل . (٣) غشوم : ظالم .

زلة الرجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر . يابنى ! استراح من لا عقل له » !

ومن وصفه للرجال : « الرجال ثلاثة : فرجل تام ، ونصف رجل ، ولا شيء . فأما الرجل التام فالذى يكمل دينه وعقله ، فاذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأى ، فاذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه ، فلا يزال مضيّه موثّقاً . ونصف الرجل الذى يكمل الله له دينه وعقله ، فاذا أراد أمراً لم يستبشر فيه أحداً ، وقال : أى الناس كنت أطيعه أو أترك رأيى لرأيه ؟ فيصيب ويخطىء . والذى لا شيء ، من لا دين ولا عقل له ، ولا يستشير فى الأمر ، فلا يزال مخطئا مدبراً ! ... ووالله انى لأستشير فى الأمر حتى خدمى .. ! »

ووصف عبد الملك بن مروان ، فقال : « آخذ بثلاث ، تارك لثلاث : آخذ بقلوب الرجال اذا حَدّث ، وبحسن الاستماع اذا حُدّث ، وبأيسر الأمرين عليه اذا خولف . تارك للمِراء ، تارك لمقاربة اللئيم ، تارك لما يعتذر منه »

ويتعاطى وصف الأمم على رأيه ، كما قال فى أقوام زمانه : « أهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، وأهل مصر أكيسهم صغاراً وأحمقهم كبارا ، وأهل الحجاز أسرع الناس الى الفتنة ، وأعجزهم عنها ، وأهل العراق أطلبهم للعلم وأبعدهم منه » !

على أنه كان وصّافة لا يجارى فى وصف المناظر الكبيرة بالكلمات القليلة . ومن أبرع صفاته للطبيعة والناس معاً قوله فى البحر : « انه خلق عظيم ؛ يركبه خلق صغير : دود على عود » !

وكان بليغ البادرة ، سريع الجواب ، سديداً فى توفيق لفظه ومعناه . ولا عجب أن يكون كذلك ، وهو مع ذكائه المتوقد عرضة للمسبة ، مضطر الى افحام من يتعمدونه بالغضّ والازراء !

قال له المنذر بن الجارود العبدى : أى رجل أنت لو لم تكن أمك من هى ! فسرعان ما ردّها عليه قائلاً : « لقد فكرت فيها البارحة ،

فجعلت أنقلها فى قبائل العرب ، فما خطرت لى عبد قيس ببال » !

وقال له رجل : والله لأتفرغن لك . فقال : « هنا لك وقعت الشغل » ! قال الرجل : كأنك تهددنى ؟ والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرا ، قال : « وأنت والله لئن قلت لى عشراً لم أقل لك واحدة » !

وقال له سلام بن روح الخزاعى : كان بينكم وبين الفتنة باب فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ قال « أردنا أن نخرج الحق من حظيرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق سواء » .

ومن أشبه الأجوبة به وقد سئل : ما السرور ؟ فقال : « الغمرات[1] ثم تنجلى .. » فهى كلمة رجل يقدم على المغامرة ، ويحسن جلاء الغمرات .

وشبيه به كذلك قوله : « ما وضعت عند أحد من الناس سراً فأفشاه فلمته » .. فسئل : ولم ؟ قال : « أنا كنت به أضيق صدراً حين استودعته اياه »

وشبيه به على هذا النحو قوله : « لا أمل دابتى ما حملتنى ، ولا زوجتى ما أحسنت عشرتى ، ولا جليسى ما لم يصرف وجهه عنى » لأن الذى يصطنع الناس ، ويشترى الصداقات ، ويتجمل للرئاسة ، لابد له من هذه الخصال

***

وقد اشتهرت القبريات فى آداب الأمم ، وشاعت الكلمات التى حفظت عن العظماء فى ساعاتهم الأخيرة ، فلو جمعت كلمات المحتضرين ومن يواجهون الموت ، لما كان فى عظماء المسلمين أحفل من عمرو بن العاص نصيباً من هذا الأدب ، الذى يدل على حظ قائليه من الحياة ، وميزانهم فى الحسنات والسيئات ، ومعظم المنقول عنه فى هذا الصدد يوائمه أن يقوله ، ويشبه ما يستقبل به آخرته ويودع دنياه ! .

فكان فى أخريات أيامه يدعو الله قائلا : « اللهم آتيت عمرواً مالاً ، فان كان أحب اليك أن تسلب عمرواً ماله ولا تعذبه بالنار ، فاسلبه ماله ! وانك آتيت عمرواً أولاداً ، فان كان أحب أن تثكل عمرواً ولده

---

(١) الغمرات : الشدائد .

ولا تعذبه بالنار ، فأثكله ولده ، وانك آتيت عمرواً سلطانا ، فان كان أحب اليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار ، فانزع منه سلطانه »

ويرحمه الله ! لقد دخل الاسلام وهو يشترط أن يضمن له اسلامه سقوط العقاب على آثام ماضيه ، وهمَّ بمفارقة الدنيا فلم يبال أن يخسر ماله أو ولده أو سلطانه اذا ضمن شيئاً واحداً فى الآخرة : ألا يُعذَّب بالنار !

وكان يقول لبنيه ، كأنه حسب نصيبيه من جانبيه ، ورفع ميزانه بيديه : « انى لست فى الشرْك الذى لو مت عليه أدخلت النار ، ولا فى الاسلام الذى لو مت عليه أدخلت الجنة ، فمهما قصرت فيه فانى متمسك بلا اله الا الله »

وكان يقول : « اللهم لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لا اله الا أنت . لا اله الا أنت » . ولم يزل يرددها حتى مات

وردد فى سرير موته استغفاره الذى يقول فيه : « اللهم أمرت بأمور ، ونهيت عن أمور ، فتركنا كثيراً مما أمرت ، ووقعنا فى كثير مما نهيت ... اللهم لا اله الا أنت ، اللهم لا اله الا أنت »

ودخل عليه ابن عباس فى مرض موته ، فسأله : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت كثيرا ، فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت ، ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت ، ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت ، فعظنى بموعظة أنتفع بها يا ابن أخى ! » قال ابن عباس : هيهات يا أبا عبد الله .. فأجابه بكلمة يجرى بها لسان من يحضرون السلطان ويردون الوقيعة عنده ، كأنه أراد أن يستجلب رحمة الله بكلمة ابن عباس ، فقال : « اللهم ان ابن عباس يقنطنى من رحمتك . فخذ منى حتى ترضى ! »

وليس بين العظماء فى صدر الاسلام من استقبل الموت بكلام أجزل من هذا الكلام ، وأدل منه على شعور صاحبه فى مفترق الدنيا

والآخرة . وجملة ما يدل عليه انه كلام رجل ملأته الحياة ودوافعها القوية ، فلم يخطر الموت بباله حتى خطر له مرة واحدة ، وهو بين يديه لا منصرف عنه

***

تلك أمثلة عابرة من كلماته المأثورة غير ما تقدمت الاشارة اليه فى سياق الكتاب

وقد رويت له آثار فى الشعر ، والخطب الطوال تسلكه بين الشعراء والخطباء ، فنسب اليه من الشعر هذان البيتان :

معاوىَ لا أعطيك دينى ولم أنل
به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فان تعطنى مصرا فأربح بصفقة
أخذتَ بها شيخا يضر وينفع

ونسبت اليه أبيات قالها لعمارة الذى راود امرأته ، بعد أن أوقع به فى الحبشة :

اذا المرء لم يترك طعاما يحبه
ولم ينه قلبا غاويا حيث يمّما
قضى وطرا منه وغادر سُبة
اذا ذُكرت أمثالها تملأ الفما
من الآن فانزع عن مطاعم جمة
وعالج أمور الموت لا تتندما

ومن الشعر المنسوب اليه وصف فرسه فى قوله :

شبّت الحربُ فأعددت لها
مُفرعَ الحارِكِ محبوكَ الثّبج (١)
يصل الشد بشدٍ فاذا
ونت الخيل من الشد مَعَجْ (٢)

(١) مفرع الحارك : أى طويل الكاهل من اعلاه ، ومحبوك الثبج : اى متين الظهر
(٢) الشد : العدو والحملة ؛ ومعج الفرس : أسرع سيره

وكل ما نسب اليه من شعر فهو من هـذه الطبقة التى لا تسف ، ولا تعلو الى الذروة بين بدائع الشعراء

أما الخطب المطولة ففى النمـوذج التالى غنى فى الابانة عن قدرته عليها ، وهو شطر من خطبة ألقاها يوم الجمعة قال فيها :

« يا معشر الناس ، اياى وخِلالا أربعا ، فانها تدعو الى النَّصَب بعد الراحة ، والى الضـيق بعد السعة ، والى الذل بعد العز : اياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال .. انه لابد من فراغ يؤول المرء اليه فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل . ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلا ، وعن حـلال الله وحرامه عادلا . يا معشر النـاس : قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل[١] ، وعلى الراعى حسن النظر .. فحىَّ بكم على بركة الله الى ريفكم ، فتنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، وأربعوا[٢] خيلكم ، وأسمنوها ، وصونوها ، وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيرا . واياكم والمشمومات المعسولات ، فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى أمير المؤمنين عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم مصرا ، فاستوصوا بقبطهـا خيرا ، فان لهم فيكم صـهرا وذمة » . فكفوا أيديكم وفروجكم ، وغضوا أبصاركم . فلا أعلمن ما أتانى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا اننى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسـه من غير علة حططته[٣] من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم فى رباط الى يوم القيـامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم ، معدن الزرع والمـال ، والخير الواسع والبركة

(١) السخائل : جمع سخلة وهي ولد الشـاة ذكرا كـان أو أنثى ·

(٢) أربعوا خيلكم : أنزلوها في الخصب والمرعى · (٣) حططته : أي نقصته ·

النامية . حدثنى عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » . فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم ، وأقيموا فى ريفكم ما بدا لكم . فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى على فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله ، على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم »

وهذا نموذج نادر من الخطب المنبرية التى كان الخطيب فيها يتولى « وظيفة » الوالى والواعظ والوالد والزعيم ، وكان فيها مسحة من البرامج السياسية ، والخطط الادارية ، ونفحة من الشعر ، وقبس من الدين والحكمة

***

ومن لواحق هذا الباب أن يأتى ببعض الأحاديث التى رواها عمرو عن النبى عليه السلام ، لأن عقل الرجل ودينه قد يظهران مما يجرى على لسانه من كلام غيره ، كما يظهران من كلامه

قال رجل من بنى بكر بن وائل : لئن لم تنته قريش ليضيعن هذا الأمر فى جمهور من جماهير العرب سواهم . فقال عمرو بن العاص : كذبت ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قريش ولاة الناس فى الخير والشر الى يوم القيامة »

واختصم رجلان الى النبى عليه السلام ، فقال لعمرو : اقض بينهما . فقال : انت أولى بذلك منى يا رسول الله ! قال وان كان . قال : فاذا قضيت بينهما فمالى ؟ قال : ان أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء فلك عشر حسنات ، وان أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة »

وقال عمرو : « احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد ــ وكان فى

---

(١) صوح : صوح الريح الشيء جففه وأيبسه .

غزوة ذات السلاسل ـــ فأشفقت ان اغتسلت أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح ، فلما قدمنا على رسول الله ذكرت ذلك فقال : « يا عمرو ! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » قلت : نعم يا رسول الله ! انى احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت ان اغتسلت أن أهلك ، وذكرت قول الله عز وجل : « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » . فتيممت ثم صليت . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا »

***

واستأذن على فاطمة رضى الله عنها ، فأذنت له . فسأل : ثَمَّ على ، قالوا : لا ، فرجع . ثم استأذن عليها مرة أخرى ، فسأل كذلك . ثم على ؟ قالوا : نعم ، فدخل . فقال له على : ما منعك أن تدخل حين لم تجدنى ههنا ؟ قال : ان رسول الله نهانا أن ندخل على المغيّبات

***

وان الرجل فى حديثه مع النبى ، وحديثه عن النبى ، لهو عمرو بن العاص ، فى كل ما ثبت له من رواية أو عمل أو مقال







مجموعة
شخصيات إسلامية

فاطمة الزهراء
ابنة الرسول
الحسين بن علي
أبو الشهداء
عائشة
الصديقة بنت الصديق
بلال بن رباح
مؤذن الرسول
معاوية بن أبي سفيان
مؤسس الدولة الأموية في الميزان
عمرو بن العاص
دهاء وبلاء